الفلسفة في العالم والتاريخ

بإشراف

م. ع. مرحبا م. ر. حسن ع. ي. زيعور

بدايات الفلسفة الأخلاقية

الأخلاق في التراث البدائي والشرقي واليوناني

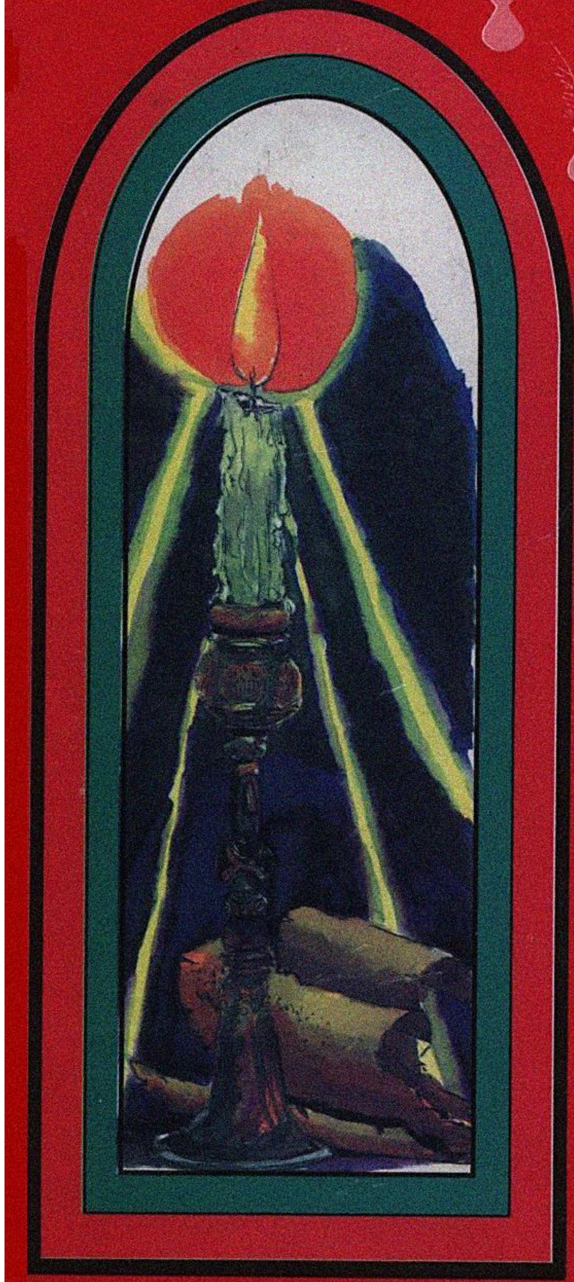

الدكتور محمد عبد الرحمن مرحبا

مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر

بدايات الفلسفة الأخلاقية

الأخلاق في التراث البدائي والشرقي واليوناني

الفلسفة في العالم والتاريخ

بإشراف

م. ع. مرحبا   م. ر. حسن   ع. ي. زيعور

بدايات الفلسفة الأخلاقية

الأخلاق في التراث البدائي والشرقي واليوناني

مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر

جميع الحقوق محفوظة

مؤسسة عز الدين
للطباعة والنشر

الطبعة الأولى

١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م

مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر

الإدارة: ٩/ ٨٣٤٧٤٨ ـ ٨٢١٨٤٣ ـ المخازن: ٨٢٣٨٢٩ ـ المطابع: ٨٣١٦٤٠

هاتف دولي وفاكس: ٠٠١٢١٢١٢٤٧٨١٩٧٩

بناية لاند ترايد ـ بئر حسن ـ ص. ب: ١٣/٥٢٥١ بيروت ـ لبنان

تقديـــم

١ ـ يتأسَّس عملُنا ، في مشروع « **الفلسفة في العالَم والتاريخ** » ، على الفَصْل والتمييز التضافري بين الفلسفة والفكر ، بين الفكر والثقافة التي هي سلوكٌ ونظرٌ يقومان بين الحِياوي [البيولوجي] أو الطَبيعي والإنسان . وبَعْدُ ، فنحنُ نرى الفلسفةَ مختلِفة عن أُجْموعةٍ من المعطيات نَدرسها ، أو نَحفظها غيباً ، أو نَبسطها ولا نُعانيها . الفلسفة ، على غرار ما جُرينا عليه ، وعي وممارسة : نَعي مشكلاتٍ وأسئلةً وهَمّاً ؛ ونُعيد مع صاحب النظرية إنتاج نظريته متدبِّرين المعانيَ والحقائق ومتسائلين ليس عن الصائب والباطل ؛ كما أننا نفتش عن الماكِث والجُفائي أو الزبَد .

٢ ـ إنما الفلسفةُ نَصّ نحييه في قراءتنا لَه ، نتمثّله ونجتافه ، يغدو فينا ونغدو فيه ؛ فنغتَني ونَرضى ، نَشعر بمتعة الذهن أو نتغير مُعيدين تركيبَ الذات ومَعْنيتَها. والفلسفة رحلة داخل فرضياتِ حلولٍ لمشكلات التفسير والتغيير ، لمبادىء الحياة والمادة والوجود ، لقوانين المعرفة وأحكام القيمة ، للنظر في العِلل والإنسان والتكييفانية . . . كلها موضوعات تبدو ، بلا كبير عَناء ، كأسئلةٍ يَطرحها الإنسان على عقله الذي يَبني ويُحاكِم ، يُنظِّم ويقيْم المعايير .

* * *

١ ـ لم نَقَع في أَسْر أوهامٍ تحصرُ بالفكر اليوناني منبعَ الفلسفةِ والعلوم ، أو تَضع الغربيين المعاصِرين في سلالة اليونانيين وورثتهم أو ممثليهم . ودحَضْنا بهدوء مزاعم الغربي عن نفسه ، ومركزيته ، وعقله ، وقدرته . . . ؛ كما رفضنا

إرادته اللابريئة واللادقيقة في احتكار كتابة التاريخ وتحقيبه ، وفي تأرخة الفلسفةِ وتصورِها بادئةً في اليونان ثم منتقلةً إلى أوروبا الوسيطية ، ومن بَعْد ـ وعلى نحوِ خطّي وبغير علائقية منحنية ـ إلى الفلسفة الحديثة فالمعاصرة .

٢ ـ لم نتوقّف عند الدِّفاعي ؛ ولا عند المواقف المتشنجة أو السلبية تجاه « الغرب » ؛ فذلك المصطلح المعقَّد الغامض ، المفعَم بالمُجِفّ والرمزي أو بالمخيال والإلتباس ، ليس منطلقَنا في مشروع « الفلسفة في العالَم والتاريخ » . لقد مَرّ ، في أجزاءٍ كثيرة سابقة ، أنّ « المنتصِر » ، أو الغنيّ بالسلاح والمصنَع ، ليس المنتصِر ثقافياً . وليس هو الغنيّ بالفكر والفنّ ، بالقيم الرفيعة وباحترام حقوق الأمم التي كانت الأقلّ قدرةً سلاحيةً وتكنولوجيةً وتوسُّعاً .

٣ ـ ربما أبرزنا اتجاهاً معروفاً في الثقافة العربية الإسلامية مؤدّاه أنّ المستشرِق [المستشرق = الغَرْبي] فشِل في قراءة الفكر العربي الإسلامي لأنه ليس من « **أهل الدار** » أو لأنه « ليس من « **أهل البيت** » . قصَدْنا بذلك أنْ نقول : إنّ السبب أيديولوجي . فالغرْبي بانتماءاته المسبَقة ، الدينية والنرجسية العِرْقية واللغوية وما حول ذلك من رغباتٍ توسُّعية أو من استخفافٍ بالآخر وعدم احترامٍ للأمم اللاأوروبية ، يَصعب عليه أن يكون موضوعياً إلى حدٍ كاف . والذاتاني ظاهرة نفسية اجتماعية عامة في الأمم والثقافات ، وجزء من العقل والسلوك ، وأساس في المخيال والرمز . . .

* * *

١ ـ نبّهْنا بشدةٍ ، وبموقفٍ لا يخلو من التذكير والدعوة لأخذ العِبرة ، إلى أنّ اللاموضوعيةَ تُضْعِف روابط الفكر الأوروبي بالفكر العربي الإسلامي . لم نُبالِغ ، ورفضنا التيار العربي المبالِغ ، حيال ميدان سلطة العِلم العربي والفلسفة العربية على أوروبا الوسيطية . فمن غير الدقيق أن نقع في المغالط التي وقَعَ فيها بعض الفكر الأوروبي المعاصِر عند دراسة ذلك الموضوع : المعافَى هنا ، أي السديد والفلسفي ، هو أن تُقرأ ضمن السياقات التاريخية ، وبرؤيةٍ شَمّالة ، العلائقيةُ المفصليةُ بين :

ــ الشرق (الهند ، فارس ، مصر ، الرافِدَيْنية) واليونان ؛
ــ اليونان والحضارة العربية الإسلامية ؛
ــ الحضارة العربية الإسلامية وأوروبا الوسيطية (بل والعالَم) ؛

ـ أوروبا منذ القرن الثامن عشر والحضارة العربية الإسلامية ؛

ـ الحضارة العربية الإسلامية (ولا سيما عبْر العَرب) والدار العالمية للسِّلْعة والفكر والسلاح .

٢ - وتقود قراءتنا للحضارة العربية الإسلامية ، أو للفكر ولا سيّما للفلسفة ولتاريخ العلوم والمُدُن في تلك الحضارة ، نظرةً ليست كابتة ؛ ولا قلِقة بقَدْر ما أردنا لها أن تكون نَظرةً تُغلِّب الإتزانيَّ والوعي بالمنجرح التاريخي وبالعدو وليس فقط الوعي بالإيجابي واللامع .

٣ ـ أردْنا القراءةَ التاريخيةَ التي تأخذ الظاهرة في كل جوانبها ؛ بلا انتقاء أو اصطفاء ، وبلا تلفيقٍ أو مصالحة المتنافرات ، وبلا طمسٍ للفروق أو إبعادٍ لما هو وجوهٌ . لقد أظهرنا ، على سبيلِ الشاهد ، التحاورَ القديم بين الفِرق والأديان ، بين المختلِفين ديناً ومذهباً وأيديولوجيةً ، داخل الحضارة العربية الإسلامية ؛ والمحنا أيضاً، إلى واقعنا الحضاري الراهن ، وإلى عدو الإنسان العربي في القرن القادم ، وإلى المخاطر الكثيرة التي ، بحسب رؤية الفكر العربي الإستراتيجي والمستقبليات العربية ، يَفرضها علينا ويُهيّىء لها نظامُ الأقوياء في العالَم . إنه نظام لا يتيح لنا الوحدةَ ، ولا القوةَ الصناعيةِ والتكنولوجية ؛ بل وهو نظام يُفضّل للعربي أن يكون تابعاً ، مستهلِكاً ، لا يفكِّر ولا يحارِب . لا يُريد « المنتصِرُ » للعربي أن يحقِّق توكيده الذاتي ، ولا أن يُعزِّز الكرامةَ للمواطن والنّحنُ .

* * *

١ ـ هَمُّ الفلسفةِ ، في هذه الرؤيةِ والتدبُّر ، الإنسان ؛ والماورائياتُ أساسيةٌ في الفلسفة . لكنّ الفلسفة لا تُطوىٰ كلُّها داخل الماورائيات ، ولا تُطوىٰ داخل الدين . ثم إنّ تاريخ الفلسفة ، وليس هو كلّ الفلسفة ، يقودنا إلى أن نولي الأخلاقياتِ (فلسفة الأخلاق ، الخُلُقيات ، العلم أو المبحَث في الأخلاق) اهتماماً لا يقل عن الإهتمام بالمعرفيات . كان من الصعب ، لكنه جائز وممكن ، تقديمُ الفلسفة في قطاعات ثلاثة : الأخلاق عند كل الفلاسفة ؛ المعرفيات منذ بداية تاريخ الفلسفة حتى اليوم ؛ الأَيْسيات (الأونْطولوجيا) ، على حِدَة أو بمفردها ، في طبقاتها ومراحلها وعلى يد ممثليها .

٢ ـ نَرُدّ إلى الفلسفة موضوعَ قيم السلوكِ ومعايير الفعل . فهذا الموضوع فلسفي ؛ إذْ ليست الفلسفةُ مُجرَّد أجوبةٍ محصورةٍ بالأصول والروابط الأعمّيةِ أو

حول التعليل والعلل و« لِمَ » ، و« ما » ، و« هل » . فهذا البحث عن الحقيقي ليس كل الفلسفة . العملي والخير والجميل موضوعات هي أيضاً فلسفية . كيف يجب أن نكون ، وماذا يجب أن نفعل ، هَمّ من هموم الفلسفة وإشكالاتها وأسئلتها ، ودافع من دوافعنا للتمسك بها ورَدّ المتنكرين لنفعها أو القائلين بقلة جدواها أمام العلم أو بعقم معرفتها ولا يقينية « الحقائق » التي تصوغها .

٣ ـ أوضحْنا الروابطَ بين الفلسفة والعلم ، بين تاريخ الفلسفة والفلسفة ، بين العلم وتاريخ العلم . . . أوضحْنا التضافرية ، وألحَفْنا على التغاذي والعلائقية المنحنية ، و« السببية » اللاخطية اللامستقيمة ، والصلة اللاإفتراسية اللاإحتكارية . بل إنّ الروابط ، وإعادة النظر في القانون والسببية والمادة ، موضوعٌ قرأناه مع ميل إلى تحريك معطيات الفيزياء الراهنة وفلسفات العلم المعاصرة . . . تلك الفلسفةُ في العِلم والفيزياء ، في السببية والمادة والطاقة ، تَضع الإنسان أمام موضوع الفضيلة وتَعيير العَمَل ، أمام الأخلاقياتِ والقِيم .

٤ ـ إن علم الأخلاق ، أو الأخلاق (أتيكا باليونانية ، مورالْ) ، هو الدراسة الممنهَجة لمعايير الفِعل . وتلك دراسة معيارية ، أو علم معياري ، وقراءةٌ نظرية أو تنظير لقواعد السلوك القائمة في الواقع الإجتماعي أي في الأعراف والتقاليد والعادات والمألوفيات . هنا تَبرز العلاقةُ بين الفكر النظري وما هو واقع ، بين الوعي الأخلاقي والممارسة : ولا مجال لإقامة التناقض ؛ وليس من الفلسفة بشيءٍ أن نجعل النظري منعزلاً عن الواقعي ، أو مُحلِّقاً فوقه ، أو حالاّ محلّه . . . والمقصود ؟ المقصود هو أنّ المذاهب الأخلاقية ، أي حيث المذهب المفَكْرَن ، والنظرية المنهجيةُ النظامية ، أو النسق المتكامِل المتّسِق ، لا يجوز لها أن تكون بعيدةً عن قواعد الفعل في المجتمع ، أو عنُ الحياة . . . ثم إنّ الأهَمّ ، بعد ذلك ، هو أنّ الفلسفة ليست خصماً لدراسة القواعد العملية في الفعل ؛ وسنرى ، أدناه ، في هذا الكتاب ، أنّه مكرَّس لقراءة الأخلاق « العملية » عند أُمم شرقية ؛ وعند اليونان . ندرس ، في هذا الكتاب ، الأخلاقَ نافذةً في العلائقِ والفرد والجماعة . ونُقدِّم تاريخاً . فتاريخ الأخلاق وثيقُ الروابط مع فلسفتها ، والفكر الأخلاقي إعمالٌ للعقل على الشائع في المجتمع والسلوك الفردي .

* * *

١ ـ سيتكرس جزء آخر من « **الفلسفة في العالم والتاريخ** » لتحليل الفلسفات الأخلاقية . فلن نجد هنا ، في هذا العمل ، قراءة تدبُّرية للمذاهب الأخلاقية ، ولا للطرائق في الأخلاقيات . . . لن نَنتقِد النظرية السوسيولوجية ، ولا النظريات التي رغبت في ردّ المعايير والقيم إلى العِلم ، ولا النظريات التي تفسِّر القِيم بالعامل الإقتصادي ، أو بالعامل الديني ، أو بالعوامل المسبَقة المتعالية ، أو بالغريزة واللامخلوقية والفطرة والقوة . . .

٢ ـ الموضوع هنا مختلِف عن دراسة القيم ؛ فالقيميات موضوع معاصر ؛ سنقرأ الفضائل الموجِّهة للفِعل (الواجب ، الخير ، المسؤولية ، العدالة ، المساواة ، الشجاعة ، العفة . . .) كما كانت عبر تاريخ ومن حيث هي قادت السلوكَ والعلائقية وفعل الإنسان .

٣ ـ يَؤوب موضوعنا ، في هذا الكتاب ، إلى **العقل العملي** أو إلى **الحكمة العملية** حيث يكون **الهدفُ الخيرَ في الفعل** . هنا تكون **المبادىء المنظِّمة** للفعل مقصودةً ؛ وسنُشدِّد على إظهار القدرة التنظيمية للعقلْ البشري . فالفكر معياري ؛ يقيم الترتيب والتدقيق ، ويَتّصف بكونه مرشِداً ويصوغ مِحكاتٍ وموازين ، قواعد وروابط عامة مشتركة ، حقائق ثم ، من جهةٍ أخرى ، قِيماً ومُثُلاً أو نداءاتٍ تَسمو كلُّها فوق الذاتي أو تَسبق المواطن وتَبقى بعده .

٤ ـ أخيراً ، سنقرأ في الكتاب المخصَّص للمذاهب الأخلاقية ، منذ أفلاطون حتى هذا القرن ، النظرياتِ العربيَّة الإسلامية في الخير ، في الحكمة العملية . ومع الوعي بالمتعسِّف والإصطناعي ، فإن تلك النظريات مصنَّفة إلى : المذهب **الإصطباري** ، وهنا نجد ما يوازي الرواقية ؛ المذهب العربي الإسلامي في السعادة ؛ المذهب في الخير والفضيلة ، في القِيَم . . .

المدخل

إن تاريخ الأخلاق يعاني الكثير من النقص لا في بلادنا وحدها بل في البلاد الغربية نفسها. فقد ساد التعصّب هناك كتابة تاريخ الفلسفة عامة وتاريخ الأخلاق خاصة. فهذه الكتابة تبدأ باليونان وتُثني بالرومان، إنها تملأ الصحائف والكتب بأثينا وروما وأمجادهما الحقيقية والمتخيَّلة، وفضلهما على الإنسانية والخدمات التي أسدياها إليها. وعندما تصل إلى آسيا فإنها تلخصها في صحائف بل في سطور، وتحسّ وأنت تقرؤها كأنّها مكتوبة لرفع العتب أو لسدّ بعض الفجوات المكشوفة للعيان. إن هذا ليس مجرد خطأ علمي، وإنما هو إخفاق ذريع في تصوير الوقائع وقصور واضح في التفكير.

وليت الأمر اقتصر على الغربيين وحدهم إذن لهانت المصيبة، فالأنكى من ذلك أن عدوى التغريب قد سرت إلينا. فقد أورثنا الغربيون أخطاءهم، مع ما أورثونا من طرق التفكير ومناهج البحث. لقد غزونا في عقر دارنا وقدّموا لنا السمّ والدسم حتى تشابه الأمر علينا، فأصبحنا لا نرى إلا بعيونهم ولا نسمع إلا بآذانهم، ولا نحكم على الأشياء إلاّ بقيمهم وأذواقهم. لقد استولوا علينا فكراً وسلوكاً، وفشت آثارهم في كلّ أفق!.

لقد نعق ناعقهم، فجرينا وراءه مغمضي العيون كأن الله لم يخلق سواهم، وكأن الأخلاق حكر عليهم وحدهم! ولكن إلى متى نبقى أسرى غرورهم؟ هل الشرقيون قوم بلا أخلاق، وهل الأخلاق منحصرة كلها في اليونان ومن يمتّ إلى

اليونان بأصل أو نسب ؟ هذا لعمري ما جعل كتب الأخلاق في بلادنا تبدأ باليونان وتنتهي بأخلاف اليونان الغربيين دون أن تمرّ بحكماء الشرق القديم وفلاسفة العرب ومفكريهم في القرون الوسطى .

التعصب لليونان

في اليونان أشرار وأخيار وخبثاء وطيبون كما فينا نحن سواء بسواء . قد تقول : علم الأخلاق غير السيرة الخلقية . فهناك أخلاق نظرية وأخلاق عملية ، فالأخلاق النظرية وليدة العبقرية اليونانية والمعجزة اليونانية لا ينازعها فيها أحد ، وأما الأخلاق العملية فلها شأن آخر دون ذلك بكثير . ومن حقنا أن نتساءل إزاء هذا التبجح الفارغ : هل بدأت الأخلاق اليونانية أخلاقاً نظرية ؟ ألم تكن في أول أمرها هي أيضاً أخلاقاً عملية ، ثم تبلورت على يد سقراط لتغدو أخلاقاً نظرية ؟ ففي دراسة الأخلاق اليونانية لا نبدأ عادة بسقراط وإنما نبدأ بفيثاغوراس وديمقريطس وأمبيذوقليس والسفسطائيين . هذه هي الدراسة التقليدية للأخلاق . وقد يرجع بعض المصادر خطواتٍ قليلة إلى الوراء فيبدأ بهوميروس وهزيود والنحلة الأورفية ومن يسمَّوْن بالحكماء السبعة . من هنا ـ بزعمهم ـ انطلق موكب التاريخ ومن هنا بدأ مشعل الحضارة . أما قبل ذلك ففراغ وعماء ! ولما كان الغرب وريث اليونان فقد كان نسيجاً عبقرياً كالنسيج اليوناني ، وكانت الحضارة اليونانية نموذجاً للحضارة الغربية التي يجب على كل حضارة أخرى الإقتداء بها . عصرها كل العصور ، ومذاهبها كل المذاهب وتاريخها كل التاريخ ، إذا نطقت فعلى الجميع أن يصمتوا ، وإذا أمرت فعليهم أن يطيعوا .

لم يكن قدماء اليونان الذين كُتب لأخلافهم أن يحملوا لواء العلم والفلسفة بِدْعاً من الشعوب . كلا !! فهم لم يكونوا إلاّ كما كان معاصروهم من الشعوب الأخرى أصحاب أخلاق بدائية تعتمد العاطفة الجامحة والخيال الموغل في الغلو ، يؤلهون أبطالهم ويتعصبون لهم . . . كما لم تكن الأخلاق قبل سقراط علماً بالمعنى المعهود لهذه الكلمة ، وإنما كانت نفحات من الحكم تتردّد على أفواه الشعراء والفلاسفة والمفكرين ، كالحث على الخير واطّراح الشرّ والإشادة ببعض الفضائل كالشجاعة والصبر والرحمة والعدالة . . . وقد تخلّل ذلك الكثير من الأساطير والأفكار الغريبة كما نجد في أشعار هوميروس مثلاً . ورغم أن الأخلاق السفسطائية أخلاق سلبية فهي أخلاق على كل حال . وأهمّ شيء جاء به

السفسطائيون أنهم اتجهوا بفلسفتهم إلى الإنسان بعد أن كانت متجهة إلى الطبيعة . لقد أنزلوا الفلسفة من السماء إلى الأرض على حد تعبير شيشرون في حديثه عن سقراط . ومهما اختلفت الآراء فيهم وتباينت ، فالفضل في نشأة علم الأخلاق إنما يرجع إليهم . لقد شاءت الأقدار أن يبدأ الشعب اليوناني في القرن الخامس قبل الميلاد عهداً جديداً من التفكير العقلي المنطقي ، كما أرادت لذلك التفكير أن يستمر ويتابع نموّه وتطوّره . ولم يكد القرن الخامس هذا يدرج بخطاه في مجرى الزمن حتى زخرت البيئة اليونانية بثقافاتٍ عقلية وفنية مختلفة لها مدارسها وزعماؤها وأتباعها المتحمّسون لها . واستمرت عملية الصعود حتى أرسطو الذي بلغت العقلية اليونانية على يديه حدها الأقصى ، ثم بدأت رحلة الهبوط من بعده . »

أهمية الشرق

لقد كان الشرق دائماً مهد الفكر والحضارة ، ومركز الشعر والوحي والإلهام . ففيه نشأت الزراعة والصناعة والحِرَف والشرائع والحكومات ، وعلوم الرياضة والطبّ والموسيقى والهندسة والفلك والتقويم والعمارة والساعات والآداب . . . وفيه عُرفت الحروف الهجائية والكتابة ، وفيه اختُرع الورق والحبر والعربات ، وفيه أيضاً سُكّت النقود ، وكُتبت خطابات الإعتماد . . . هذه الأشياء وكثير غيرها عُرفت في الشرق أولاً ومنها استمدت أوروبا ووليدتها أميركا ثقافتهما على مدى القرون من طريق جزيرة كريت واليونان والرومان . والخلاصة أن الغربيين لم يشيدوا صرح الحضارة بل أخذوها عن بابل ومصر واليونان . إنهم لم يُنشئوا الحضارة إنشاء لأن ما ورثوه منها أكثر مما ابتدعوه ، وكانوا الوارث المدلل المتلاف لذخيرة من الفن والعلم كان قد مضى عليها ثلاثة الاف من السنين . وجاءت إلى مدائنهم من مغانم التجارة والحرب .

« أجل إن قصة الحضارة قد بدأت من الشرق ، لا لمجرد أن آسيا كانت مسرحاً لجميع الحضارات المعروفة ، بل أيضاً لأن هذه الحضارات كانت البطانة والأساس للثقافة اليونانية والرومانية التي تدّعي أوروبا أنها المصدر الوحيد الذي نهل منه العقل الحديث » وهذا لعمري خطأ تاريخي كبير دفع إليه غرور المركزية الأوروبية ، والمرجعية الأوروبية التي لا تريد أن تدين لغير ذاتها . لقد أعمتها القوة عن رؤية حقيقة ذاتها وبالقوة راحت تزين ذاتها ، حتى ظنت وظننا نحن

معها ألاّ ذات إلاّ ذاتها . خَسِئَت فإن جميع عناصر الحضارة ترتد إلى ذات غير ذاتها ، إلى مصر والشرق ، فليت شعري أين كانت آنذاك ذاتها ؟

وكما بدأت الحضارة والعلوم والصناعات من الشرق ، وانتقلت إلى الغرب ، فليس من المستبعد أبداً أن يعوُد الشرق إلى استئناف الإشراق من جديد . إن دلائل كثيرة تشير إلى أن التاريخ آخذ الآن في الإنحسار من الغرب متجهاً إلى الشرق . ومن يدري ؟! فلعل الدهر قد دارت دورته ولعل المجد قد حانت عودته ، وما مَثَلُ اليابان عنا ببعيد . وها هي الصين تُغذُّ السير وراءها لا تلويْ على شيء . وفيتنام وما أدراك ما فيتنام ، ذلك البكر العتيد الذي أعطى أميركا درساً لن تنساه ! حركات وانتفاضات وسَوْرات وثورات تتمخّض عنها الأحداث كل يوم في آسيا وأفريقيا . فأول الغَيْث قطرَ ثم ينهمر ! هذا ما يقضّ مضاجع الغرب وهذا هو أيضاً سبب الحروب والحرائق التي ما انفك دهاقنة الاستعمار والصهيونية والأمبريالية العالمية يؤجّجونها في كل بقعة من بقاع العالم الثالث . لقد دبّ الذعر بينهم بعد أن أذهلهم الخبرْ ، وتخافتوا أن هلمّوا قبل أن يستفحل الخطر ، فمعظم النار من مستصغر الشر ر . أغدوا على حرثكم وكونوا دوماً على حذر ، فإذا جاءت الطامة فيومئذٍ لا تُبقي ولا تذر ، وتقطّعوا أمركم بينكم فقد استيقظ المارد الأصفر ، وأعقبه أخوه ـ يا ويلكم ـ المارد الأسمر ! !

((كانت الفكرة الأخلاقية موضع اهتمام قدماء المصريين كما كانت موضع اهتمام جميع الأمم القديمة من فرس وصينيين وسواهم . كانت عند قدماء المصريين تظهر في صورة عقائد دينية تدعو إلى سلوك طيّب للعدالة وللإستقامة فيه مكان ملحوظ ، وظهرت عند الهنود في صوفية دينية تغلو في تطهير النفس وتعذيبها للوصول بها إلى مرتبة الفناء ، وظهرت عند الصينيين في طابع من الحكمة عليه مسحة التعقل والفلسفة البعيدة عن الدين . لقد انفصلت عن الدين لأول مرة في بلاد الصين حتى لكادت هذه البلاد تكون أسبق من اليونان إلى تنظيم التفكير الفلسفي عامة والخلقي خاصة ، وحسب الصين فخراً وشرفاً أن يكون لها في تلك العصور السحيقة مثل هذا الإشراق ومثل هذا الإستشراف إلى أفقٍ بعيد من نور العقل وهدي الحكمة .))

إن العمر كله لن يكفي باحثاً غربياً ليقتحم روح الشرق الدقيقة اللمّاحة ويندمج في تراثه الثرّ المتدفّق . ورغم أني ابن هذا الشرق العتيد فخورٌ به ، غارق

في تاريخه وتراثه ، فإني أقف موقف المبهوت الغريب أمام الكثير من مذاهبه وأنظاره وحركاته ، ولا سيما الشرق الأقصى . ماذا أقول ؟! حتى المنطقة العربية لا أزال أجهل الكثير من قضاياها ، فما ظنك بالمستشرقين الذين يدسّون أنوفهم في كل صغيرة وكبيرة من تاريخنا وتراثنا ويزعمون أنهم قد بلغوا الشأو وأوفوا على الغاية ، ثم نأتي نحن فنبايعهم على القيادة ونتابعهم في جميع أطروحاتهم واستنتاجاتهم ، ونلهج بأسمائهم ، و« نزيّن » بها كتبنا وتصانيفنا ، ونطنب في وصف موضوعيّتهم ونزاهتهم وتجردّهم للبحث والنظر حتى لكأنهم ملائكة هبطوا من السماء ! وهذا كله نتيجة تفاعل ثلاث عقد بل أربع في نفوسنا : عقدة الخوف وعقدة النقص وعقدة الخواجا ـ ويا للمفارقة ! ـ وعقدة الغرور: فلا ثقة لنا بأنفسنا ، وكل الثقة ممحَّضة لغيرنا الذي ملأ خوفه كياننا ، وفي قلب المأساة نجترُّ أمجادنا ، ونتغنّى بماضينا الذي هو من حقنا وحدنا ، لا ينافسنا فيه غيرنا . ونتباهى كالطاووس حتى لكأن الدنيا لا تتسع لنا ، فليت شعري بعد كل هذا الفراغ ماذا بقي لنا ؟

• قلنا إن الدراسة التقليدية للأخلاق تبدأ باليونان ، ولكني هنا سأحاول الخروج على هذا التقليد ، لأني على اعتقادٍ جازم أن الفلاسفة السابقين على سقراط رغم ما يُقال في هيمنة الأخلاق العملية عليهم ، فإنّ هذه الأخلاق نفسها هي تطوّر لأخلاق سابقة عليهم وهي بدورها أخلاق عملية بطبيعة الحال . وإذا كنا نبدأ في دراسة الأخلاق اليونانية ، بالأخلاق العملية على أساس أن الأخلاق العملية تمهيد للأخلاق النظرية ، وإذا صحّ أنّ أخلاق الشرقيين هي أخلاق عملية كما يُقال دائماً تحقيراً لها ، فلماذا لا نبدأ بها ؟ والأخلاق الشرقية نفسها هل بدأت من الصفر؟ لا أعتقد ذلك ؛ فإنما هي بدورها تطور لأخلاق سابقة عليها . فالتاريخ وليد عصور ما قبل التاريخ . ولمّا كانت شعوب ما قبل التاريخ قد مضت دون أن تخلّف وراءها آثاراً تدل عليها من حيث السيرة الخُلقية وإن تركت آثاراً لا تحصى في نواحٍ أخرى ، فقد فرضتُ ، وقد أكون مخطئاً في هذا الفرض الذي يشاركني فيه كثيرون كما سنرى في حينه ـ أن الشعوب البدائية في الوقت الحاضر ربما تسدي إليّ عوناً كبيراً في هذا المضمار لأنها حتى الآن لا يزال كثير منها يعيش في عصور ما قبل التاريخ . فعصور التاريخ إنما هي امتداد لعصور ما قبل التاريخ . وتاريخ الإنسان الحقيقي إنما يتركز فيما قبل تاريخه لا في مجال الأخلاق وحدها ، بل في مجال الأخلاق وغير الأخلاق .

فنحن في هذا الكتاب نُخالف الرأي القائل بأن المبادىء الخلقية وليدة الأمس فقط وأنّ الإنسان قد بدأ حياته متوحشاً مجرّداً من الأخلاق . فإنّ دراسة الأقوام البدائية ترينا ـ كما سنرى في الفصل الأول ـ أنهم أعرق أخلاقاً منا وأن الحضارة قد أفسدت الكثير من المعاني الخلقية التي كانت سائدة في العصور البدائية . كلا ، لم ينتقل الإنسان بعصا سحرية من عالم يجهل الأخلاق إلى عالمٍ يتفجّر بالأخلاق ، من دنيا التوحش والهمجية إلى دنيا ذات قيم باطنة تسمو على المادة ، أي إلى دنيا تشعر لأول مرة بمثل هذه القيم . فكما خُلق الحيوان مكتمل النمو كذلك الإنسان . ماذا أقول ؟! حتى الحيوان لا يخلو من بعض المعاني الخُلقية . فجميع أنواع الحيوانات تدافع عن صغارها وتحدب عليها ، وكثير منها لا يعتدي على الإنسان إلا دفاعاً عن النفس ، بل حتى الحيوانات المفترسة لا تعتدي على الإنسان إذا كان بطنها ممتلئاً بالطعام . أي ان العدوان للعدوان يكاد يكون غير موجود فيها ، فإنما العدوان عندها إمّا للدفاع عن النفس أو لدفع غائلة الجوع . وما عدا ذلك فلها من الروادع (الخُلقية ؟! أو سمّها ما شئت من الأسماء) ما يمنعها من العدوان على حيوانات أخرى لغير ما سبب . أضف إلى ذلك « خُلق » المشاركة والتعاون بين أفراد القبيل الواحد ، وما يبدو من وجود نوع من « الحقوق » و« الواجبات » بينها . الإنسان هو الذي يعتدي لغير ما سبب اللهمّ إلا الجمع للجمع ، أي جمع ما يفيض عن الحاجة بدافع الحرص والخوف من المستقبل المجهول ، ولأن حبّ المال قد تمكّن من النفوس حتى أصبح غاية في ذاته . وكل أولئك ضريبة العقل الذي حُرم منه الحيوان والذي يورث صاحبه الهموم والمخاوف . فعقل المرء محسوب عليه . وعلى كل حال ، إن بذور الأخلاق موجودة في الحيوان على تفاوت في ذلك . من هنا انطلقت الأخلاق ، ومن هنا انتقلت إلى الإنسان وإن كان العقل قادراً على تعطيل فعلها . إن الفلسفة الخلقية أو الأخلاق النظرية هي التي تأخّرت في الظهور ، إنها شيء حديث وليد التقدم والحضارة ، وأمّا الأخلاق العملية فهي من لوازم الوجود الإنساني ، لقد نشأت مع مشكلات الحياة ، وهي مشكلات قديمة قدم الإنسان . والأخلاق هي أيضاً من لوازم الوجود الحيواني . فلولا حدب الحيوان على صغاره ، ولولا روح المشاركة والتعاون والتكامل بين أفراد النوع الواحد ، بل بين الأنواع المختلفة التي يتطفّل بعضها على بعض أو يعتمد بعضها على بعض ، ولولا مراعاة بعض « الحقوق » و« الواجبات » التي تمنع المواجهة بينها ، لولا ذلك كيف عساها إذن أن تستمر في البقاء ؟

ج الفلسفة هي محاولة للإجابة عن سؤالين :

١ ـ ماذا يمكننا أن نعرف ؟

٢ ـ ماذا يجب أن نفعل ؟

والغاية التي نتوخاها من هذا الكتاب إنما هي أن نُجيب عن السؤال الثاني . وأما السؤال الأول فلا يهمنا هنا في قليلٍ أو كثير . ومع ذلك ففي عرضنا لتاريخ الأخلاق التي تنتظم السلوك الإنساني والقيم الخلقية التي صارت اليوم عصب العلاقات البشرية ، لم نستطع أن نتجنب الجواب عن السؤال الأول ونحن في صميم الردّ على السؤال الثاني، لارتباط أحدهما بالآخر ارتباطاً يجعل من العسير فك الإشتباك بينهما . فما أحسبني بحاجة إلى التذكير بالأساس الذي قام عليه هذا الكتاب وهو غلبة الخصائص الخلقية عليه دون أن يعني ذلك خلوه من أي عناصر أخرى . فضلاً عن أنّ هناك ثروة أخلاقية كبيرة في الدين والسياسة والتصوف لا يمكن تجاهلها . فالأخلاق لم تتبلور ولم تتخلص من شوائب الدين والتصوف إلا في العصر الصيني والعصر اليوناني الذهبي والعصر الحديث ، وإلّا فقد كانت دائماً أخلاق تقريع ، أخلاق الشعور بالذنب والإثم ، ولا سيّما في عصور التألّق الديني والعبقريات الدينية . وإذا استثنينا ابن خلدون ، فإن جميع الذين كتبوا في الأخلاق في العصور القديمة والعصور الوسطى الإسلامية والمسيحية ، ومطالع العصر الحديث ، كانت كتاباتهم ممتزجة بالميتافيزيقا والدين والتصوف وعلم النفس ، فهل من الممكن لمؤرخ الأخلاق أن يتجاهل هذا التداخل بين العناصر المختلفة التي أقحمت نفسها في مفهوم الأخلاق ؟ وهل يصح بعد ذلك أن يكون مؤرخاً ؟ وماذا عساه يؤرخ إذا قدم لك مادة الأخلاق خالصة نقية لا شية فيها ولا شائبة ؟ فما معنى التاريخ إذا كان فقط تاريخ اللحظة الأخيرة ؟

أجل ، أنا لا يمكنني اقتطاع الأخلاق من سياقها الطبيعي كأنما هي حجر يمكن نزعه وحده دون أن يخرَّ البناء كله . فقد كان هناك تداخل عند القدماء بين الأخلاق والدين والتصوف والسياسة . فالأخلاق بدأت ديناً وتصوّفاً وسياسة . وعندما وصلت إلى الصين انفصلت الأخلاق عن أقرانها وبدأت تشعر باستقلالها . وعلى أيدي اليونان أصبحت فلسفة وقوة من قوى النفس ، وبالتالي جزءاً من الفلسفة وعلم النفس دون أن تتخلى عن الزهد والتصوف ولاسيما في العصر الاسكندري . فهذا الكتاب إذن هو كتاب في الفلسفة والسياسة والدين

والتصوف وعلم النفس بقدر ما هو كتاب في الأخلاق ، وإن كان التركيز فيه منصباً على الأخلاق . وبتعبير آخر قد أكتب صفحة في الفلسفة لأستخلص سطراً في الأخلاق ، إذ ليس من الممكن الوصول إلى هذا السطر إلّا بعد تلك الصفحة ، إنه كتاب في تاريخ الفلسفة أولاً وفي تاريخ الأخلاق ثانياً وإن كان الأحرى أن أقول إنه كتاب في تاريخ الأخلاق أولاً وتاريخ الفلسفة ثانياً . لكن تداخلت المعاني واختلطت الأوراق وانطمست المعالم ، فلا أول ولا آخر ، ولا مقدّم ولا تالٍ ، بل تلاشى الكل في الكل بلا فاضل ولا مفضول ولا إمام ولا مأموم .

تعقد الظاهرة الخلقية

١ فالظاهرة الخلقية ظاهرة مركّبة شديدة التعقيد ، تدخل فيها وتتداخل عناصر متعددة لا نكاد نعرف من أمرها شيئاً ذا بال . فقد نظر إليها البعض نظرة إكبار وإجلال وجعلها من قبيل الهبات الإلهية التي يتميز بها الإنسان من قطعان البهائم ، وأسراب الطير وكواسر السباع ، ففيها سرّ سيادته على ما عداه من العوالم الأخرى . وعلى هذا الرأي كان جميع الفلاسفة الذين قالوا بالفطرة . وأكثرهم من المؤمنين بالأديان ونصوصها المنزّلة . وينتمي إليهم إخوانهم من أصحاب المذهب العقلي والمذهب الحدسي .

٢ ونظر إليها آخرون على أنها من ثمار التجربة ونتاج الحاجة الملّحة وعامل التطور الطبيعي ، وليس بينها وبين السماء من العلاقة أكثر مما بين غرائز الذئاب وبين السماء . ذلك هو رأي الطبيعيين الذين لا يؤمنون بدين ، ومنهم أصحاب نظرية التطور وفلاسفة المنفعة قديماً وحديثاً ومشايعوهم في كل زمان ومكان . ليس الضمير الأخلاق عند هؤلاء أكثر من حسّ أخلاقي نشأ بعد ملايين التجارب القاسية التي مرّت بها الإنسانية . فأصبح قتل البريء شراً ، وانقاذ المشفي على الهلاك خيراً ، لأن الأول يورث صاحبه ألماً بغيضاً كما يورث الثاني صاحبه لذّة ويحقق له منفعة . وهكذا كان الشأن في جميع أفعال الإنسانية : آلام تُتّقى ومنافع تُبتغى ، وإجماع على بغض الأولى وحب الثانية يتركز في نفس المرء بعامل البيئة والوراثة ، حتى يبدو وكأنه ـ كما يقول هذا الفريق ـ فيضٌ سماوي أمتنَّ الله به علينا ، وإن لم يكُنْه في الواقع .

إن الناظر إلى حال الإنسانية اليوم ليرثي لمبادىء الأخلاق المهدورة التي كفر

بها ساسة هذا الزمان بقدر ما آمنوا بفلسفة القوة عند نيتشه . إنهم يشيدون الهيئات الدولية لإسماع صوت العدالة للعالم أجمع ، لكنْ تغلب عليهم شقوتهم فلا يدخلونها لنصرة العدالة إلّا وأيديهم ملطّخة بالدماء !! وماذا تملك الأخلاق أمام هذه المخزيات ؟ فإيّاك أن تشتغل بخصامهم أو أن تطمع في إفحامهم ، فتطمع في غير مطمَع وتُصوِّت في غير مسمع . ولا تظنّن أنهم أقل منك علماً بالأخلاق وقد يكونون أقدر منك على الوعظ والإرشاد . فاخْبَرْهُمْ تَقْلُهُم .

ليست العبرة بزخرف القول إنما العبرة بحلاوة العمل . ليست العبرة بالإنفاق على الهيئات الإنسانية والدولية إنّما العبرة بتنفيذ قراراتها . إنّ مجرد وجود ڤيتو في مجلس الأمن يمارسه الكبار عمل لا أخلاقي يدل على صَغارهم !

وهكذا فهناك مدرستان في الأخلاق الحديثة : المدرسة الحسية والتجريبية والمدرسة الحدسية والعقلية، وكل مدرسة من هاتين المدرستين تنقسم إلى مدارس أصغر منها تنضوي تحتها .

الأخلاق الحديثة

هذا ولم تظهر الأخلاق الحديثة إلّا بعد أن استُنزفت الأخلاق القديمة والوسيطة ، أخلاق الوعظ والتقريع ، أخلاق الدين والتصوف ، لكنّ بقيت ـ وإلى حدٍّ ما ـ أخلاق الميتافيزيقا . ولا تحسبنَّ الإجماع منعقداً على الأخلاق الحديثة . فمن الفلاسفة المحدثين من ينظر بكثيرٍ من الريبة إلى فلاسفة الأخلاق الجدد وعلى الأخص أتباع مدرسة التحليل اللغوي ، والوضعية المنطقية ، والفلسفة الوجودية . . . فلم يعد الفيلسوف اليوم يبحث في الخير والشر والفضيلة والرذيلة بما هي أعيان ميتافيزيقية متعالية أو معانٍ مجردة ، لقد سرت إليه هو أيضاً عدوى التحليل . فهو يحلّل أفعال الناس المألوفة وهم يسبغون القيمة على الأشياء . لقد أرادت الأخلاق الحديثة أن تقحم المنهج العلمي في موضوع الأخلاق ، فتستعيض عن الأوامر والنواهي بالوصف والتحليل ، وأن تصل بذلك إلى « أخلاق علمية » تتخلّى عن البحث في المُثل المبادىء والغايات لتقتصر على دراسة الظواهر أسوة بسائر العلوم . لقد أصبحت الفلسفة عامة والفلسفة الخلقية خاصة موضوعاً لا يكاد يُؤبه له كثيراً في الوقت الحاضر . فإن مؤلفات الفلاسفة المعاصرين قد فقدت تلك النفحة الخاصة وذلك الأسلوب الجذل المرتبط بالفلسفة الصحيحة ، أي الفلسفة كما ينبغي أن تكون ، وسرت عدوى فلسفة ما هو

كائن . ولذلك يبدي رجال الفكر الغيارى على الأخلاق قلقهم لهذا الوضع المتردّي للأخلاق ويقولون إنها فقدت صفتها الجدية والحقيقية وأصبحت تافهة مضحكة . لقد فقدت نكهتها وأصبح العقل مجموعة من الأفعال والأنماط السيكولوجية المشاهدة بعد أن كان جملة من الأعيان الميتافيزيقية الباطنة كالملكات والقوى الروحية التي يمكن استنباطها والوغول فيها . وقد كان لهذا النظرة الجديدة التي عمل رايل G. Ryle على انتشارها في كتابه (مفهوم العقل) The Concept of Mind أثر بعيد المدى في الفلسفة الأخلاقية .

إن ما يميز الإنسان من الحيوان أن الإنسان يعيش في عالمٍ من الأفكار والمبادىء والأشياء ، وأما الحيوان فإنه محصور في عالم الأشياء .

والأفكار قوة وطاقة ، والمبادىء الخلقية قوة وطاقة أيضاً ، لكن بينما الأفكار الأخرى غير ملزمة ، فإن المبادىء (أو الأفكار) الخلقية ملزمة . هنا تكمن أصالة الأخلاق . إذ يبدو أن لها سلطاناً أقوى وطاقة أعلى من سائر الأفكار . الأفكار هي أرقى ما في الإنسان ، والمعاني الخلقية هي أرقى ما في الأفكار . الأفكار خلاصة الوجود الإنساني ، والأخلاق خلاصة الخلاصة . إن الضمير (أو قانون الإلزام أو الشعور بالواجب أو الفعل الإرادي أو غير ذلك من الأسماء والتسميات التي لا يحبّ الكثيرون استخدامها لما يتراكم فيها من أكداس الأخلاق الميتافيزيقية القديمة ، فلا مشاحة في الأسماء) أقول إن الضمير هو أعظم قوة إنسانية حضارية في هذا العالم ، فإنّ أهم ظاهرة أساسيّة في تقدم الإنسان هي نشوء المبادىء الخُلقية وظهور عنصر الأخلاق . إن عظمة الإنسان الحقيقية تظهر في الفعل الإرادي ، الفعل الحر الذي يسمو بصاحبه فوق عالم الأشياء . إنه عنوان أصالة الإنسان ، وهو مع ذلك يتفاوت من إنسانٍ إلى إنسان ؛ فإنه هو الذي يفرّق بين الإنسان العادي الخاضع لعالم الأشياء وبين القائد والمبدع والبطل . . . إن أفعال هؤلاء هي أكثر الأمور حرية في العالم ، بينما الآخرون يتسكعون في ضحضاح الآلية البغيضة . هنا يكمن الفرق بين التفاهة والعظمة . إن الفعل الخلقي الإرادي خروج على نظام الأشياء ، وأما الغرائز وردود الأفعال فهي نكوص إلى عالم الأشياء . ومع ذلك فلا يخلو الإنسان مهما كان مخلصاً لنظام الأشياء من السمو أحياناً على نظام الأشياء ، كما لا يخلو الرجل العظيم من عناصر الضعف الإنساني التي تكبو به فيسقط بين الحين والحين في عالم الأشياء .

المهم أن الفعل الإرادي ، أعني الفعل المنضبط المنظَّم عقلياً بواسطة وعي متزايد الوضوح ، هو عنوان وجود الإنسان . ما الذي جعله كذلك ؟ ما هذا الشيء الذي يجعلك تقول « لا » مع أن كل شيء من حولك يأمرك أن تقول « نعم » ومع أن كلمة « لا » قد تكلّفك حياتك ومستقبل أولادك وكل ما تملك من جاهٍ ومال ؟

هنا سر الأخلاق وهنا حكمة قوة الأخلاق .

هذا والأخلاق لها وجهان : أحدهما نظري والآخر عملي ؛ أحدهما يضع المبادىء والنظريات والأصول التي يقوم عليها السلوك الإنساني ، والثاني يبحث في التطبيقات العملية لهذا السلوك داخل كيان عيني محدّد . ومن هنا كانت قيم الأخلاق النظرية عامة كلية بينما قيم الأخلاق العملية خاصة جزئية . الأولى تقدم الأنماط والقوالب الثابتة ، والثانية تعطي المضمون والمادة المتحركة .

إن الأوامر والنواهي التي تمليها الأخلاق اليوم باسم الواجب كانت تُملى في عصورٍ سابقة باسم شيءٍ آخر . لقد اختلف الاسم وبقي المسمّى . فأحياناً كانت هذه الأوامر والنواهي نتيجة لعقائد اندثرت ، في حين أن الأعمال الأخلاقية الناجمة عن هذه العقائد احتفظت بوجودها ، وأحياناً كانت مصلحة الجماعة تقتضيها . وهكذا فالتقاليد الأخلاقية كما يقول ليفي بريل ما زالت ظاهرة عامة حتى يومنا هذا ، فإن معظم الناس يتمثلون القوانين الأخلاقية كما لو كانت الأوامر إلهية أو يعتقدون أنهم لا يستطيعون أن يكيفوا سلوكهم بها دون الإلتجاء إلى الرحمة الإلهية أو دون معونة إلهية[1] .

إنّ الأخلاق القديمة كانت جزءاً من الدين ، وكانت تقوم على الوعظ والتأنيب والتقريع والشعور بالإثم ، وذلك مزلق الخطر في كتب الأخلاق عند القدماء . وقد ظلّت الأخلاق جزءاً من الدين حتى البدايات الأولى لعصر ما قبل سقراط ، كما نرى في النحلة الأورفية والفيتاغورية وشعر الملاحم عند هوميروس وهزيود ، فضلاً عن مصر القديمة والهند وفارس ما عدا الصين . ثم أصبحت جزءاً من الفلسفة في عصر اليونان الذهبي ، ثم انتكست الأخلاق بعد ذلك في عصور احتضار العقلية اليونانية ؛ وعادت سيرتها الأولى لتكون جزءاً من الدين

---

(١) ليفي بريل : الأخلاق وعلم العادات الأخلاقية . صفحة ٢١٥ .

والتصوف كما نرى في الأفلاطونية المحدثة . ثم ارتدت لتتحد بالدين من جديد في العصور الوسطى ، عصور العبقريات الدينية ، وإن ظلّت عند الكثيرين ملتصقة بأمها الفلسفة لا تفارقها ولا تريم عنها . لقد كان مكتوباً عليها دائماً أن تبقى أسيرة الدين أو الفلسفة أو الإثنين معاً ، ولن تشعر بالإستقلال يوماً إلا على يد ابن خلدون ، ففي (مقدمة) ابن خلدون فقط تبدأ الأخلاق العلمية . فتراث ابن خلدون لا ينحصر في فلسفة التاريخ وعلم الإجتماع فله في الأخلاق أيضاً القدح المعلّى . فقد حق على ابن خلدون ألاّ يتناول موضوعاً إلا خرج من بين يديه علماً سوياً . ففي (المقدمة) ثروات وذخائر تنتظر من ينقب عنها ، وكل من غاص على لآلئها خرج بدُرٍّ جديد[1] .

وفي عصر النهضة رجعت الأخلاق إلى حضانة الفلسفة والميتافيزيقا وأخذ العقل يسترد سلطانه . لقد هبَّت رياح التغيير حتى اجتاحت كل شيء ولم يسلم منها شيء .واليوم نشهد حركة قوية عنيفة لطرد الميتافيزيقا من ميدان الأخلاق تكاد توازي ـ إن لم تكن تفوق ـ حركة طرد الدين من هذا الميدان أيضاً ، إذ يُراد للأخلاق أن تكون نقية من جميع شوائب الميتافيزيقا بما فيها ميتافيزيقا الأخلاق بقدر نقاوتها من جميع شوائب الدين . وهكذا ـ وبتعبيرٍ صريح لا التواء فيه ولا نفاق ـ أصبحت الأخلاق بلا أخلاق !! فلم تعد تجدي في تفسير الأخلاق مفاهيم ميتافيزيقية سلخت الفلسفة عصوراً طويلة في تجويدها وإتقانها والتفكير فيها كالإرادة والضمير والخير والشر ، ولا مفاهيم سيكولوجية بذلت جهوداً مضنية لبحثها ودراستها كالمشاعر الأخلاقية . لقد كفَّ الفلاسفة عن ربطها بأي تركيب غير طبيعي ميتافيزيقي ، وأعرضوا عن فكرة الدفاع عنها بالأقاويل البلاغية والحجج الفلسفية ، وأصبحت الأخلاق لا تستند إلى دعامة صورية متعالية ، وبكلمةٍ واحدة : لقدتبدّلت الأخلاق غير الأخلاق ،وأصبح من الممكن وصفها بكل إلا وصف الأخلاق !

---

(١) انظر كتابنا : جديد في مقدمة ابن خلدون .

الـبـاب الأول

الأخلاق في « الشرق » القديم

الفصل الأول

الأخلاق قبل عصر الفلسفة الأخلاقية

القسم الأول

إبانة عامة

إن الكتب الغربية عندما تؤرخ للأخلاق فإنما تبدأ دائماً باليونان . وكذلك مؤرخو الأخلاق العرب حفظهم الله . فلا علم للأخلاق ـ بزعم الفريقين على السواء ـ قبل اليونان . واليونان هم مركز العالم ومنهم انطلق الاشعاع ، ومنهم انبثقت الفلسفة والعلم والحضارة . فمن الطبيعي إذن أن تكون اليونان المحطة الأولى التي تنطلق منها مسيرة الأخلاق . تلك هي خلاصة ما يسمونه (المعجزة اليونانية) . ولكن أحداً لم يعد يؤمن بهذه المعجزة في الوقت الحاضر تقريباً باستثناء بعض المتحجرين العرقيين والعنصريين من أبناء الجيل السابق الذين لا يريدون أن يصدعوا بصوت الحق والعلم والضمير . فاليونان تلاميذ للمصريين باعترافهم هم أنفسهم .وتلاميذ للهنود وتلاميذ غيرهم من الشرقيين . فمن السذاجة وضعف الرأي والحكم الزعم بأن العلم والفلسفة والحضارة إنما بدأت في بلاد اليونان . فقد ازدهر الفكر في أجزاء متفرقة من العالم ، مرة في مصر ، وأخرى في بابل ، وأخرى في الصين والهند ، ثم في أثينا وروما ، ثم في بغداد والقاهرة وغرناطة ، وأخيراً في إيطاليا وفرنسا وانكلترا والمانيا وأميركا وروسيا . . . فلم تكن الحضارة يوماً حِكراً على اليونان وحدهم ، بل لقد سبقتهم ثم غادرتهم وانطلقت إلى شعوب أخرى ومواطن أخرى . . . فما اليونان سوى حلقة من حلقات السلسلة الطويلة التي لا تزال تمتد وتمتد ، وستظل تمتد دون أن يُصيبها إعياء أو فتور .

إن ما قدمه الإنسان قبل اليونان هو كالمحيط بالقياس إلى ما قدمه اليونان . فخلال مئات الآلاف من السنين ، ومن خلال العمل والممارسة المتكرّرة والمعاناة

الصعبة ، وصل الإنسان إلى مقومات إنسانيته : إلى اللغة والآلة ، وإلى المجتمع ، إلى معظم الصنائع والحِرَف والممارسات الحياتية ، كالصيد والتجارة والزراعة وألوان أخرى من الحضارة ، كالحياكة والخياطة والحدادة وبناء المساكن وأعمال الري والتعدين وشتى أمور المجتمع ونظمه وعاداته وقوانينه وأعرافه ومثله وقيمه ، وبقية العلوم والفنون وسائر قابلياته الفكرية العليا ، كالأحكام العقلية والمبادىء المنطقية والرياضية والقيم الخلقية وسواها . ولذلك فإن من أفدح الخطأ أن يدعي مدعٍ أن العلم والفلسفة والأخلاق قد بدأت مع اليونان أو أن ما قدمه هؤلاء معجزة تستعصي على التعليل والتفسير .

فإن تلك الشوامخ التي أخذت تظهر في بلاد اليونان ابتداء من القرن السادس قبل الميلاد وما أعقبها من أعمال وروائع كانت عنوان مجد الشعب اليوناني وخلوده على مدى العصور والدهور ، إن كل أولئك لم يكن المرحلة الأولى لتطور إنساني عام بدأه اليونان ، ولكنّه إنما كان النهاية، إنما كان الأوج الذي وصل إليه تطور بطيء سابق لم يتوقف يوماً من الأيام .

وهكذا فإن (المعجزة) اليونانية قبلها معجزات ومعجزات . فلقد سبقتها آلاف الجهود العالمية في مصر وبلاد ما بين النهرين تكللت جميعاً بتلك الخوالد التي أنجبتها عقول اليونان وتفتقت عنها أذهانهم وقرائحهم . ولئن أخذ هؤلاء الكثير من معارفهم من المصريين ، فإن المرء يجد صعوبة كبيرة لسوء الحظ في وصف كيفية انتقال تلك المعارف إليهم ، ذلك بأن هناك انقطاعاً مقداره ألف عام يفصل بين العصر الذهبي للعلم المصري والعصر الذهبي للعلم اليوناني . كذلك لا نشك لحظة في أن كثيراً من المعرفة اليونانية قد نُقلت من منابع شرقية أخرى ، وإن كنا لا نعرف على وجه الدقة متى وأين وقع هذا النقل . لكن ما نعرفه على وجه التأكيد والجزم أنّ هناك حضارة هندية صينية ، وأخرى أشورية ـ بابلية ، وثالثة مصرية فرعونية ، ورابعة فينيقية سورية ، وقد تفاعل بعضها ببعض وتأثر بعضها ببعض ، وأثرت هي بدورها في الحضارة اليونانية أثراً لا يقلل أبداً من قيمة هذه الأخيرة أوَ يغض من شأنها . وسينتقل ذلك كله إلى العالم الإسلامي والحضارة الإسلامية .

وعلى كل حال ، إن العلم اليوناني إنما كان إحياء لمعارف سابقة وإعادة

تنظيم لها أكثر منه اختراعاً وخلقاً من العدم ، ولكنه إحياء فيه أصالة ، وفيه عبقرية ، وفيه ابتكار ، وفيه سموّ قلّ أن نجد له نظيراً في دنيا الناس !! .

هذا والأخلاق الشرقية هي استمرار لأخلاقٍ أقدم منها ، ولكن ما عسى أن تكون هذه الأخلاق ؟ وكيف السبيل إليها ؟ للإجابة عن هذا السؤال لا بد لي من أن أبحث الأخلاق في عصور ما قبل التاريخ ، أو على الأقل أن التمس بذورها عند الشعوب البدائية التي وجدتُ عندها أيضاً بذور التفكير الفلسفي ، كما أثبتُّ ذلك في كتابي (الفلسفة قبل عصر الفلسفة) الذي ظهر منذ أشهرٍ قريبة . فالأخلاق في عصور ما قبل التاريخ لا سبيل إلى معرفتها اليوم إلا من طريق الشعوب البدائية رغم التحفظات الكبيرة والكثيرة التي تحيط بهذه الكلمة في الوقت الحاضر وبمدى التشابه الحالي بين الشعوب البدائية وبين إنسان ما قبل التاريخ . أنا لا أرى غير ظروف الحياة البدائية تصلح أن تكون منطلقاً لمعرفة شعوب ما قبل التاريخ . فهناك اليوم مجتمعاتٍ بدائية متعددة وُصف لنا بعضها بدقة وبكثير من التفاصيل ، كالمجتمعات الأصلية في أوستراليا وبعض القبائل في أميركا وفي الهند وفي بولينيزيا وميلانيزيا وهلم جرّاً . وهي أمثلة حية لما كانت عليه الحياة البدائية في عصور ما قبل التاريخ . فمن المستطاع حتى وقتنا هذا ـ كما يقول ليفي بريل ـ أن نرى بأم أعيننا لدى هذه المجتمعات بعض النظم التي اختفت في أماكن أخرى تحتلّها اليوم شعوب متقدمة ، ولكنها تركت آثاراً ما تزال واضحة كالديانة الطوطمية . كذلك نلاحظ لديها في الوقت نفسه بعض العواطف الأخلاقية التي يمكن أن تدعونا طريقة مقارنة مشروعة إلى التسليم بوجودها في حضارات عصر ما قبل التاريخ . فإذا لم تكن هذه المجتمعات مساوية للمجتمعات التي خلت والتي لم تترك لنا أثراً البتة ، فإنها تقدم لنا مع ذلك عوضاً ثميناً جداً يساعد كثيراً على التكهن بما كان عليه الحال قبلها . فإذا درسنا العادات الخلقية والديانات والعواطف في هذه المجتمعات التي توصف بالبدائية دراسة دقيقة ، حصلنا على موادّ أولية ثمينة جداً تتيح لنا إعادة تركيب الحالة الأخلاقية والعقلية للإنسان الأول إلى حدّ ما . ولن نتمكن بوجهٍ من الوجوه ومهما توخينا الدقة والصرامة ، من إعادة تركيب هذه الحالة إذا اعتمدنا فقط على دراسة الإنسانية التي نشهدها كل يوم في الحضارات التاريخية . وعندما ننتهي من تركيب هذه الحالة من جديد ـ ولو على وجه الإحتمال ـ سينكشف لنا الكثير مما يغطي طبيعتنا الخلقية ومنازعنا الروحية والعاطفية . وليست هذه فكرة مثالية أو مجرد وجهة نظر عقلية شخصية ،

فقد بدأ البحث يقررها منذ حين[1] .

لذلك فإن ما سأقوله في هذا المدخل لا يطمح إلى أن يكون أكثر من صورة تقريبية لحالة الأخلاق في عصورها الأولى . ولا أزعم أبداً أن هذا الذي أقوله يعبّر عن الحقيقة كاملة ، وإنما هي استنتاجات ومقارنات ومعارضات واجتهادات مستفادة من واقع الحياة البدائية في أيامنا ، وهو واقع يغلب على ظن الكثيرين كما أسلفنا . أنه لا يبتعد كثيراً عن واقع أسلافنا البدائيين الأولين . ولا سبيل لنا إلى غير ذلك ، بل لا خيار لنا في الأمر ولا حيلة . ففي هذه الفترة على طولها تنعدم النصوص والوثائق التي هي عماد الكتابة التاريخية ، فالمادة التاريخية لا تتوافر إلا في الفترة التالية ، لقد ضاع كل شيء في غياهب العصر البدائي . إننا نقتحم هنا مشكلة ليس من الممكن أبداً معالجتها بالتاريخ لأنها خاصة بنطاق ما قبل التاريخ . إن التاريخ لا يُصنع بالمنطق وإنما هو يُصنع بالوثائق والنقوش والآثار ، فإذا انعدمت هذه فلا يبقى غير الحدس والاجتهاد والتخمين . وبقدر ما نتحسس طريقنا هنا في الظلام بصعوبة بالغة ، فإننا في الفترة الثانية نسير في طريقٍ مليء بالأضواء والمعالم والأناصيب يكاد كل شيء فيه أن يكون واضحاً لا يحتمل الغموض أو اللبس ، ولا سيّما كلما اقتربنا من العصر الحديث .

● إنّ أول ما يلفت النظر في شعوب ما قبل التاريخ ـ وهذا ينطبق كثيراً كما ذكرنا على الشعوب البدائية ـ هو مواجهتها بحزم وثبات لقوى الطبيعة الغاشمة . فإن استمرار هذه الشعوب عصوراً طويلة وبقاءها حتى العصور التاريخية ووصولها إلى العصور الحديثة ، إنّ كل أولئك ما كان يمكن أن يتم لولا ما كانت تتمتع به من قدرات عقلية خارقة جعلتها تتحدى قوى الطبيعة وتثبت أمامها . ولا بدّ أن هذه الشعوب كانت على مستوى عالٍ جداً من الأخلاق أيضاً تمكنت به من ضبط الذات ومجاهدتها وتحميلها ما فوق طاقتها للإبقاء على شعلة الحياة فيها هي وحياة من تعول وتشارك . وكم سقط من الشهداء والضحايا في هذا الطريق الوعر الطويل . ولعلّ ما تحملوه وعانوه يكون أحق بالتقدير عندما نتذكر أنه لم يُتح لهم ما يتاح لنا اليوم من ظروفٍ وأجواء تُساعد على العمل وتشجع القائمين به . فلولا ما كان لهم من مقدرة فائقة على النظر والاستبصار ، ولولا ما كانوا يتحلون به من صبرٍ وثبات وقناعة وصلابة وتعاون لا نستطيع تصوره ، ولولا جرأتهم التي لا

(١) انظر ليفي بريل : الأخلاق وعلم العادات الخلقية ، صفحة ٣٢٣ ـ ٣٢٤

توصف ، لغُلبوا على أمرهم ولأطاحت بهم قوى وضغوط وعوامل لا يستطيع حيوان أعزل من السلاح كالإنسان الأول أن يثبت أمامها . فكما أن كل فصيلة حيوانية تعيش ما دامت قادرة على الحياة وما دامت تقاوم مجموعة الظروف التي تهدد بقاءها ، كذلك كل مجتمع قادر على الحياة يستمر في البقاء ما لم يبتلعه أو ينقض عليه مجتمع آخر أشدّ منه قوة ، وهو مستمر في البقاء ما دام محتفظاً بشروط البقاء وأخلاقيات البقاء .

• إنّ الإحتمال والصبر والقناعة بالكفاف من العيش بل بما دون الكفاف أحياناً ـ كلها عناوين بارزة على متانة الخلق والشعور بالواجب وحب المسؤولية ومواجهة الصعاب فضلاً عن المواهب العقلية التي ترسم وتخطط وتمنهج . فالعقل عقلان : عملي ونظري ، أخلاق ومنطق ، أو عملي ـ نظري معاً في وقتٍ واحد . فالعقل والأخلاق والدين والطقوس والفنون والشعائر ، أمور متداخلة متشابكة معاً ، ولا سيّما في ذهن الإنسان البدائي ، استطاع بها أن يجترح المعجزات . وربّما وجد في المجتمعات البدائية أخلاقيون عباقرة بثوا في مواطنيهم روح الإحتمال والتعاون والتحابّ ، وقد نعجزّ عن تخيّل جدتهم وأصالتهم ، ولعلّ السبب في ذلك أننا نعرف الأمور الإجتماعية معرفة علمية وتحليلية كانت تنقصهم . وكذلك فإننا لما كنا نستخدم الكتابة والكتب في نقل الأفكار والتعبير عنها ، فإننا نجد عسراً شديداً في فهم حقيقة العقلية الممتازة في المجتمعات التي كانت لا توجد فيها سوى المعلومات التي لا تعرف غير النقل الشفوي وسيلة لتبادل الأفكار .

لقد عاش إنسان ما قبل التاريخ أعزل من السلاح أمام قوى الطبيعة ، كما يعيش البدائي اليوم لا سلاح له إلا عقله وعضلاته وتصميمه على البقاء ، فأنشأ لنفسه إطاراً حضارياً متواضعاً فعلاً ، ولكنه كان وافياً بحاجاته وتمكنت قبائله به من مقاومة الفناء . إن الظروف الطبيعية التي يعيش فيها البدائي اليوم شبيهة جداً ـ كما ذكرنا أكثر من مرة ـ بظروف ما قبل التاريخ . بل لعل شعوب ما قبل التاريخ كانت تعيش في ظروفٍ أفضل من ظروف الشعوب البدائية اليوم ؛ فإن هذه الشعوب الأخيرة تعيش اليوم في المناطق التي تخلّت عنها الحضارة ، بينما كانت في الماضي تعيش على شواطىء الأنهار وفي السهول الخصبة ، ثم جاءت شعوب أرقى منها فطردتها من هذه الأماكن ، وما فتئت تتراجع وتتراجع أمام أقوامٍ أقوى منها حتى استقرت أخيراً في الزوايا البعيدة وأخلت الساح لشعوبٍ أخرى بدأت تصنع التاريخ وتبدع حضارات العصور التاريخية .

إن إنسان ما قبل التاريخ منذ ما يزيد على خمسة عشر ألف سنة كان في بعض نواحي حياته قادراً على إنجاز أمور عجز الإنسان منذ ذلك الحين عن التفوق عليه فيها . ومن أمثلة ذلك فن ما قبل التاريخ ، وبخاصة فن العصر الحجري القديم أو الأعلى . فعندما اكتشف هذا الفن في أوائل القرن الحالي ظُنّ أنه من صنع فنانين من العصور الحديثة لم يختاروا لإظهار عبقرياتهم الفذّة إلا قبواً طبيعياً مظلماً يكاد لا يعرفه أحد ، فرجعوا إليه بصعوبة بالغة ، وهناك استقروا لتخليد فنونهم حيث لا أضواء كاشفة ولا ظروف مريحة . لقد كان الفن هناك في داخل هذا القبو من الروعة بحيث لم يخطر على بال أحد لأول وهلة أنه من صنع فنانين بدائيين أولين . لكنْ عندما تتالت الإكتشافات بعد الإكتشافات في أعماق الكهوف المظلمة وفي ظروف تدل على بُعد سحيق في الزمن اعترف لإنسان ما قبل التاريخ بكونه هو صاحب تلك الروائع الخالدة من رسم ونحت وحفر . وبالإضافة إلى المهارة الفنية التي اتصف بها الفنانون القدماء فإن أعمالهم تنم عن قدرٍ من الحيوية وقوة التعبير قل نظيرهما في أي عصرٍ من العصور[١] .

• إن الأعمال الفنية المدهشة التي أنتجها إنسان ما قبل التاريخ الذي عاش منذ ما بين ١٥,٠٠٠ ـ ٣٠,٠٠٠ سنة خلت ـ بل ربما في عصور أقدم من ذلك ـ لدليل قاطع على أن هذا الإنسان لا يقلّ رقياً من حيث الإحساس الفني والقدرة على التعبير عن هذا الإحساس ، عن أي إنسانٍ عاش بعده . نعم إن هذه المآثر لم ينجزها أصحابها لغاياتٍ فنية خالصة ، أو هذا ما يبدو على الأقل ، بقدر ما كانت تعبيراً دينياً وجزءاً من الطقوس السحرية التي قُصد بها الإستشفاء أو النجاح في الصيد أو التغلب على قوة من قوى الطبيعة . إن الظروف التي تمخضت عنها هذه الأعمال كانت قاسية جداً سواء حين كانت ترسم في أعالي الجدران أو على السقوف المرتفعة ، بينما يستلقي الفنان على ظهره ويعمل في ضوءٍ باهت جداً منبعث من لهيب الزيت الداخن المرهق للعينين . إن هذا لشيء عجاب . فالأفراد القادرون على إبداء مثل هذه المهارات جديرون حقاً بكل تقدير[٢] ولا بدّ أنهم كانوا يتميزون بذكاء فائق لا يقلّ عن ذكاء إنساننا اليوم . فضلاً عن أنّ هذا الاصطبار والاحتمال في ظروفٍ قاسية كالتي رأينا ، وهذه المجاهدة للنفس وضبط الذات ، والإستمرار في العمل ، والإلتزام بإنجازه بأي ثمن ـ كل أولئك مصدر ثرّ لقوة

(١) ڤارن أشلي مونتاغيو : المغالطة في مصطلح البدائي ، صفحة ١٦ ـ ١٧ .
(٢) المصدر السابق ، صفحة ١٧ .

الشخصية ومتانة الخلق وصلابة الإرادة ومضاء العزيمة والقدرة على التصميم والتضحية والفداء لتحقيق عمل كبير . فالأخلاق في هذه المواطن هي الترياق . فلولا الأخلاق لما أطاقوا البقاء وما انطلقوا في الآفاق . فإن ما تحملته هذه الشعوب في سبيل الغايات العليا يعزُّ على التصور المبدع الخلاق . فإذا أراد إنسان اليوم أن يتخيّله أصابه الإعياء والإرهاق. فلا بدّ أنّ الإنسان الأول هو إنسان سيد عملاق !

أجل هناك طاقات أخلاقية جبارة كانت ترفد القوم وتأخذ بأيديهم في معركة التحدي . لقد هلك من هلك لأن قواه قد خانته ، ولكنْ حيَّ من حيَّ لأنه كان يتمتّع بطاقاتٍ أقوى من الفناء ، طاقات عقلية وروحية يذلل بها الصعب ويُحيي القفر ويحتمل القهر ويركب متن العواصف والأعاصير . إنّ العقل النظري وحده لا يكفي في معركة تنازع البقاء . فإلى العقل النظريّ الذي يرسم ويخطط ويمنهج لا بدّ أن ينضم العقل العملي الذي ينفذ ويحقق ويخرج ما هو بالقوة إلى حيز الفعل . وما جدوى المنطق إذا لم تدعمه الأخلاق ؟ إن التقدم لا يتم إلا بالأفعال الإنسانية المصطبغة بالصبغة الأخلاقية . فالقوى الأخلاقية بأوسع معانيها أي قوى التصدي والمواجهة والمغامرة ، والقوى العقلانية بأوسع معانيها أيضاً أي قوى الكر والفر والكشف والإختراع ، إن هذه القوى جميعاً هي التي حكمت عصور ما قبل التاريخ وهي التي حكمت أيضاً عصور التاريخ . إنها قوى إيجابية بناءة واهبة للحياة ، ومن الهامها يتدفق الخلق والخَلق والإبتكار والإقدام ورباطة الجأش وانثيال المعاني .

لقد طالما ظُلم الإنسان البدائي واتُّهم بأنه عاجز عن التفكير التجريدي وأنه لا بد له من المرور بمراحل طويلة من التطور والترقي قبل أن تتوافر لديه تلك الأخلاقيات ومشاعر الحب ونوعية المعتقدات الدينية التي كانت لدى الأوروبيين[1] . هذا هو رأي روبرتسون سميث الاسكتلندي الذي اهتم بمسألة وضع السكان الأصليين بأميركا الشمالية بالنسبة إلى تاريخ أوروبا الحضاري . وعيب هذا الرأي وآراء أخرى مماثلة هو أنها تنطلق جميعاً من مركزية أوروبية متحيزة . فمعيار الحقيقة والصواب بالنسبة إلى الأوروبي لا وجود له إلا في إطار ما هو سائد ومعروف من قيم وآراء وعادات في أوروبا ، وعلى الأخص في أوروبا الغربية . ففيها أكمل الديانات وأكثر الطرق فاعلية في إنجاز الأشياء . إنّ أكثر

---

(1) د . حسين فهيم : قصة الأنثروبولوجيا ، صفحة ١٠٤ .

نظريات الرواد والرحالة الأوائل تعتمد على التأمل والحدس التخمين ، ولا سند لها إلا المادة التي كان قد جمعها الرحالة والمبشرون في القرون السابقة وهي في معظمها متحيزة وغير مدروسة ، فضلاً عما فيها من غلوٍ ومبالغة واستعلاء ، كما أنها لم تُجمع على أسس منهجية سليمة . ففيها تحيز عنصري واضح يفترض أن المجتمع الأوروبي هو في قمة التقدم ، وهذا الاعتقاد هو الذي قدم الدعم والمساندة لإستعمار أوروبا للشعوب وأسبغ عليه نوعاً من الشرعية الدولية الفضفاضة إذا صح التعبير . فالإتجاه السائد في هذه الروايات يرى الحضارة اليونانية الرومانية ـ وهي أصل الحضارة الغربية ـ أم الحضارات ، وهي بطبيعتها حضارة نظام وقانون وانضباط لا يتفق مع فوضى الطبيعة العمياء وفوضى الحياة البدائية والثقافية البدائية . وهكذا نشأ في وقتٍ مبكر نمط من التفكير ظل لقرونٍ عديدة تالية أساساً من أسس النظرة إلى بدائيي افريقيا وآسيا وأوستراليا تلك النظرة التي رأت البدائيين لا كما كانوا ، بل كما أُريد لهم أن يكونوا ، أي رأت فيهم الوحشة وانعدام الإنسانية والإفتقار إلى القانون الصحيح ، فالقانون إنما يوجد في المركز ، في أوروبا الغربية ، وكلما ابتعدت عن المركز كنت أدنى إلى الوحشية والهمجية والفوضى وانعدام القانون .[٩٩] »

إن الضغـوط التي تسبّبها حضارة عدوانية قد وضعت منذ بداياتها الأولى برنامجاً طموحاً لاستغلال الغريب والبدائي أكثر من أي برنامج عُرف من قبل . ولا تزال هذه الضغوط تفعل فعلها لتثبيت المركزية العرقية الأوروبية وتشكيل العقول والأذهان على أساسها . ولقد كان لهذه المركزية أثر ضار كبير خلق جواً من التحامل على الآخر وثقافاته وتطلعاته وآماله ـ على أي آخر ، بدائياً كان أو غير بدائي . وهذا ما أدى بطبيعة الحال إلى تشويه صورة هذا الأخير ـ أياً كان ، وبطريق الأولى إلى عدم الإكتراث به وبحضارته وثقافته .

ليست هناك جماعات كاملة التحضر ، كما لا توجد جماعات إنسانية عصيَّة على التقدم . فقسمة الناس إلى فريقين : فريق خُلق للتقدم وآخر مفطور على التوحش ، تلك إذن قسمة ضيزى . وها هم السود يتقدمون في جميع ميادين النشاط الإنساني بعد أن تخلصوا من التعصب الذي كان الأوروبيون ينظرون به إليهم وبعد أن زالت العقبات التي كانت توضع في طريقهم . وفي تاريخ افريقيا التي توصف بالسوداء قامت قبل الإستعمار الأوروبي دول إسلامية كبرى ذات حضارات ونظم لا تقل عن معاصراتها في شتى نواحي العالم العربي والإسلامي ،

وأهمها دول غانة ومالي وصنغي ، بل أن الرحالة المسلمين الذين زاروا هذه الدول وكتبوا عنها كابن فاطمة وأحمد بابا التمبكتي وابن بطوطة، شهدوا بأن أهل هذه البلاد يمتازون بخلق متين وأمانة وصدق وصفاء نية وبُعد عن الخداع[1] . إن هؤلاء كانوا ـ قبل عصر الإستعمار الأوروبي ـ ينتظرون الشرارة. فعندما اتصلوا بحضارة أرقى من حضارتهم وهي الحضارة العربية الإسلامية ، وتعلموا تنظيماً جديداً للجماعة ، وعرفوا الكتابة ، فكتبوا لغتهم بحروف عربية ـ عندما فعلوا ذلك هبّوا من رقادهم وتفتحت مواهبهم وتفجّرت طاقاتهم وأنشأوا الدول المنظمة القويّة[2] .

وفي بلاد الهند وافريقيا المدارية والاستوائية ـ وهي بلاد حارّة في جملتها ـ قامت حضارات عظيمة وظهر رجال نوابغ يمتازون بنشاط ذهني وبدني متدفق من أمثال يوسف بن تاشفين ، ومنسي كنكن موسى ملك مالي، ومارتي جاطة وكان من أعاظم حكام افريقيا الغربية المدارية وغيرهم[3] . فعندما دخلت أوروبا هذه البلاد جعلتها قاعاً صفصفاً لا ترى فيه عوجاً ولا امتاً . لقد قضى التسلط والاستغلال والاستنزاف على ما لم يستطع أن يقضي عليه المناخ الحار . ويبدو أن افريقيا تتهيأ لجولة جديدة بعد أن تستكمل استقلالها وتطهّر أرضها من رجس الإستعمار وتقضي على آخر رموزه .

إن إبداء الإحترام للآخر أمر مرغوب فيه حتى في حال التبادل الذي يجر نفعاً . فلكل معاملة وسيلتها ، وكل تبادل هو استراتيجية اجتماعية . والبديل الاستراتيجي في حالة الحرب هو إما أن تكون لطيفاً أو أن تستعد للقتال . وهكذا فإن التعامل بالمثل أو بشيءٍ قريب منه يسود الحياة الإقتصادية القبلية . والمعاملة بالمثل في المبادلات هي في وقتٍ واحد معاملة دبلوماسية واقتصادية ، لأن تدفق المنفعة المادية في الإتجاهين يرمز إلى الرغبة في مراعاة سعادة الآخر والنفور من السعي إلى الفائدة الشخصية بسائق الأنانية الصرف[4] .

وعلى كل حال ، إن المبادلات في المجتمع البدائي هي معاهدات سلام

---

(١) د . حسين مؤنس : الحضارة ، صفحة ١٩ .
(٢) المصدر السابق، صفحة ٢٠ .
(٣) المصدر السابق ، صفحة ٢٩ .
(٤) مارشل ساهلنز : القبليون في التاريخ والأنثروبولوجيا ، صفحة ٣٠١ ـ ٣٠٢ .

بقدر ما هي تعامل اقتصادي . إنها عربون صداقة ودليل على الرغبة في العيش بسلام من قِبل هذا الفريق أو ذاك . « إن على الناس أن يتفاهموا » ، هذا هو الإنطباع الذي حصل في ذهن موسّ Mauss أحد أركان علماء الأنثروبولوجيا في الوقت الحاضر . فهو في مقالته المعروفة عن الهبة يؤكد أنه « لا يوجد حل وسط في هذه المجتمعات البدائية : فإما أن يكون هناك ثقة تامة أو لا يكون »ولا وسط بينهما . فالمرء قد يلقي السلاح أو يتخلى عن السحر ، أو يعطي كل شيء لمجرد حسن استضافة ابنته أو أمواله . وقد تعلّم الناس في تلك الظروف رغماً عنهم أن يتخلوا عما هو في حوزتهم ، واتفقوا على أن يعطوا ويدفعوا ما عليهم . لكن لم يكن أمامهم خِيار في الواقع . فعندما تلتقي مجموعتان من الناس فهما إمّا أن يمضيا كلٌ في طريقه أو أن يلجآ إلى السلاح في حال الشك في حُسن النوايا أوالتحدّي ، أو قد يتفاهمان »[١] .

إن كل مجتمع يحدّد مثله العليا بشروطه الخاصة . فأقزام أفريقيا لا يتمتع الرجل عندهم بأعلى درجات الإحترام إذا كان الأقوى أو الأغنى أو الأذكى أو الأكثر عدواناً ، بل إذا كان أكثر الناس كرماً[٢] . وللسلام عندهم المقام الأول . ولإدراك أهمية السلام عند البدائي الأفريقي وعلاقته بالتجارة ، يكفي أن تعلم أن كلمتي (تجارة) و(مقايضة) تعنيان في بعض لغات افريقيا الشرقية السلام أيضاً . وربما عبر البُشمان الافريقي عن هذه الفكرة أفضل تعبير :

« قال ديمي : إن أسوأ شيء هو ألا يتبادل الناس الهدايا . قد لا يحبون بعضهم بعض ، ولكن عندما يعطي أحدهم هدية ويكون على الثاني أن يقبلها ، فإن السلام يحل بينهما . نحن دائماً نتبادل الهدايا . إننا نعطي ما عندنا ، هكذا نحن نعيش بعضنا مع بعض »[٣] .

● إن العلاقات الإجتماعية القبلية هي علاقات محبّة وتوادّ ، إنها علاقات تسودها القرابة . فالمجتمع البدائي قبائل تجمعها آصرة القربى . والقرابة علاقة اجتماعية تقوم على التعاون المشترك واللاعنف عادة . فصلة الرحم ترتبط بالرحمة

---

(١) نقلاً عن المصدر السابق ، صفحة ٣٠٣ .
(٢) بيتر فارب : بنو الإنسان ، صفحة ٣٦٠ .
(٣) مارشل ساهلنز : القبليون في التاريخ والأنثروبولوجيا ، صفحة ٣٠٤ .

كما يقول تايلور . فإن اشتقاقهما من جذرٍ واحد ـ كما في العربية ـ يعبر أفضل تعبير عن المبادىء الأساسية للحياة الاجتماعية عند هذه الأقوام . إن الكلمة التي تعني (القربى) عند النوير بشرق أفريقيا هي أيضاً الكلمة التي تعني (السلام) . كما أن تعبير (تيكوفاكافيوكاني) أي « أن يعيشوا أقرباء » في لغة فيجي يُطلق على إقامة « حياة السلم » أو « حالة العيش بسلام » . وهناك كلمة معناها « يتعارفان » تُستعمل مرادفةً لكلمة أخرى معناها « بينهما صلة قربى » . وأما الكلمة التي تعني (غريب) فمعناها أيضاً « غير قريب » . ولها عند الفيجيين وعند غيرهم من القبليين معنى (شرير) إن لم يكن لها أيضاً معنى (عدو) ، أي شخص يمكنك أن تأكله . وأما القربى فهي سبب أساسي للتفاهم الإنساني السلمي . وتدلّ كثرة التعابير الخاصة بالقربى وبالعلاقات والجماعات عند القبائل البدائية على سعيها الدائب المستمر للسلام[1] .

• إن القربى هي المبدأ الأساسي ، لكن ذلك لا ينفي وجود ارتباطات أخرى لا تنظمها صلة القربى كالإرتباطات العسكرية والدينية والعُمْرية (نسبة إلى العمر أو السن) ، وهذه الإرتباطات واسعة الإنتشار في افريقيا وأوقيانوسيا وعند سكان أميركا الأصليين ، ولكنها تظلّ ذات موقع ثانوي بالنسبة إلى نظام القرابة . فإن علاقة القربى الشخصية بأحد أعضاء الرابطة هي أساس شائع للإنضمام إليها ، كما أن لغة التضامن بين أفراد الجماعة تكون غالباً مستمدة من لغة القربى : أي إنّ الروابط هنا هي جمعيات أخوية . ولئن دلّ هذا التعبير على شيء فإنما يدلّ على عمق صلة القربى عند هؤلاء الأقوام إلى حد إلباس التحالفات المفيدة لباس القربى ، فحيثما كان السلام ضرورياً ومرغوباً فيه امتدت القربى لتخلقه[2] .

تمتد صلة القربى على صعيد العلاقات الشخصية امتداداً بعيد الغور في القبيلة . فالجماعة إنما هي جماعة من الأقرباء يرجعون إلى أصلٍ واحد . ولذلك فالحرب التي يشنها كل إنسان على كل إنسانٍ آخر لا وجود لها داخل مثل هذه الجماعات ، إذ إن اللجوء إلى القوة عند مواجهة فردٍ آخر من أفراد العشيرة هو بمثابة مواجهة المرء لنفسه ، وهذا يتعارض مع قوانين الطبيعة ؛ وهو خطيئة أيُّ خطيئة ، وربما استحق صاحبه غضب الأسلاف بكل ما يستتبعه ذلك من عواقب وخيمة . وفي بعض القبائل تحيط المخاطر بالفرد في كل مكان ما عدا الأماكن التي

---

(١) المصدر السابق ، صفحة ٣٠٤ ـ ٣٠٥ . (٢) المصدر السابق ، صفحة ٣٠٥ .

يمكنه فيها إثبات صلة النسب العشائرية . والزواج من أنجع الوسائل التي يستطيع بها الإنسان هناك أن « يصنع » لنفسه أقرباء . فالإصهار ـ كالولادة ـ يعطي الحق في وحدة النسب[1] .

ومعنى هذا أن المجتمع البدائي مجتمع غير سياسي يقوم على أساس القرابة والقبيلة لا على أساس السلطة المهيمنة . فإن كل الوظائف الإقتصادية والإجتماعية والإيديولوجية المهمة تؤدَّى داخل تجمعات الأقرباء أو أشباه الأقرباء فيما بينها ، ابتداء من العائلة النواة إلى العائلة الكبيرة ، إلى العشائر أو مجموعات العشائر . وبهذا يعمل المجتمع على أساس شخصي تكاتفي تقليدي ، لا على أساس عددي مدني آلي . ونورد هنا عبارة أحد أفراد قبيلة البومو الهندية ، وهي عبارة لا تخلو من مغزى في هذا المقام :

« لا أهمية للعائلة في نظر الرجل الأبيض . فالشرطة والجنود يقومون بحمايتك ، والمحاكم توفر لك العدالة ، والبريد ينقل إليك رسائلك ، والمدارس تعلمك . كل شيء يجري عندك على ما يرام . حتى أطفالك فإن لهم من يتولى أمرهم من بعدك . وأما مجتمعنا فالعائلة تقوم فيه بكل ذلك ، ولولا العائلة ما كنا شيئاً مذكوراً . لقد كانت العائلة في الأيام الخالية قبل أن يصل إلينا البيض هي صاحبة الإعتبار الأول عند كل من يود أن يقوم بأي عمل ، لذلك تمكنا من البقاء . أما الآن فهي لا شيء [لقد اغتالها الرجل الأبيض من بيننا] فأصبحنا كالبيض ، وهذا ضار بكبارنا . لم يكن عندنا بيوت لكبار السن كما عندكم . لقد كان كبار السن عندنا مهمين . لقد كانوا حكماء ، أما كبار السن عندكم فلا بد أنهم حمقى بلهاء »[2] .

ولا تحسبنّ ذلك مقصوراً على البدائيين في افريقيا وحدها . فالبدائي هو البدائي سواء كان في افريقيا أو آسيا أوأميركا ما لم يفسده الرجل الأبيض . فسكان جزر التروبرياند مثلاً لا يهمهم الكسب المادي بقدر ما يهمهم الجري وراء الشرف . كما أن الناس في ساموا لا يعرفون تضارب الأغراض والمطالب . نعم إن ذلك قد يُفقدهم تنوع الشخصية ، ولكنه في الوقت ذاته يمنحهم السعادة

---

(١) المصدر السابق ، صفحة ٣٠٦ ـ ٣٠٨ .
(٢) نقلاً عن ستانلي دايمند : البحث عن البدائي ، صفحة ١٩٢ .

والطمأنينة النفسية . ورغم إنكار العلم الحديث للمزاعم والدعاوى التي يقوم عليها نسق الإعتقادات عند الأزاندي ، فإنه يؤدي وظيفة فلسفية وخلقية هامة ، وهذا ما يبرر تعلقهم بها[1] . ويتصف الأسكيمو وسكان أوستراليا الأصليون بالكرم والود والتعاون أكثر من اتصاف غالبية أعضاء المجتمعات المتمدنة بهذه الخصال . « ولذلك فإن الاسكيمو والأوستراليين الأصليين أفضل منا في هذه الأمور وبمعايرنا نحن : فإن أعضاء هاتين الثقافتين البدائيتين مخلصون ، مرحون ، شجعان ، يُعتمد عليهم إلى حدود لا ترقى إليها إلا قلّة من المتمدنين . فليت شعري ! مَن هم يا تُرى الأكثر تطوّراً في هذه المجالات : أولئك الذين يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ويدعون خصالاً ليست لهم ، أم هؤلاء الذين يعيشونها في حياتهم [اليومية] »[2] ؟ ومن دلائل كرم رجل الأسكيمو تقديمُهُ زوجته لضيفه احتفاءً به . لكن يجب النظر إلى هذه العادة من زاوية توسع الأسكيمو في مفهوم كرم الضيافة وواجبات الضيف لا من زاويتنا نحن .

ولا ننسى أيضاً سكان جزر بولينيزيا في المحيط الهادىء . فهذه الجزر من المناطق التي لا يُعرف عنها إلا النزر اليسير . وعندما تطورت الأساليب الحديثة لجمع المواد والعناصر الحضارية في علم الأجناس وتحليلها ، كانت حضارة معظم البولينيزيين قد تدهورت ، وسنتحدث عنها الآن ببعض التفصيل فنقول :

ترك الرواد الأوائل الذين زاروا هذه الجزر تقارير قيّمة عما شاهدوه ، وإنْ عجزوا عن فهمه . فقال بعضهم مشيراً إلى المجتمع البولينيزي : إنه مجتمع يتكوّن من أفراد من الناس يحيون حياة طبيعية . وكان روسو وتلاميذه الرومانطيقيون مفتونين بهؤلاء الناس وينظرون إليهم على أنهم نموذج للمجتمع الأمثل[3] .

وكانت كثرة العلاقات الجنسية المنتشرة هناك دون أن يكبح جماحها كابح أو يضبطها ضابط ، يضاف إلى ذلك جمال البولينيزيات ولا سيما في أعين البحارة الذين يطرأون على هذه الجزر بعد شهور عديدة في عُرض البحر ـ كان ذلك وكثير

---

(١) إيفانز بريتشارد : الأنثروبولجيا الإجتماعية ، صفحة ١٥٨ ـ ١٥٩ .
(٢) أشلي مونتاغيو : المغالطة في مصطلح البدائي صفحة ١٣ ـ ١٤ .
(٣) رالف لنتون : شجرة الحضارة ٢ / ٢٧ .

غيره قد جعل من بولينيزيا جنة الله على الأرض في نظرهم . غير أن الرومانطيقية في التفكير ـ مقرونةً بعدم الفهم ـ قد أديا إلى الغلو في أغداق الأوصاف الجميلة على الحضارة البولينيزية . وأعقب ظهور هذه الأوصاف كتب أخرى كتبها الرحّالة الذين زاروا هذه المنطقة عوّلوا فيها على ما جاء فيها كتبه من زاروها قبلهم من غير أن يناقشوا ما ورد فيها من معلومات . وسار على آثارهم كثير من الباحثين الآخرين(١) .

ففي تلك الجهات البولينيزية حيث أقام المهاجرون المتأخرون حكوماتٍ لهم ـ وعلى الأخص من جزر هاواي وجزر سوسيتي ـ أصبح زعيم القبيلة ملكاً عليها ، وكانت تربط بينه وبين أتباعه حقوق متبادلة نشأت عنها صلاتهم بعضهم ببعض كأنهم أقرباء ينتمون إلى عائلةٍ واحدة . كما أن أفراد قبيلة الملك ـ وإن كانوا يتمتعون بقسطٍ كبير من الإحترام والتقدير ـ فإن هذا لم يتطور أبداً في يومٍ من الأيام فيجعل منهم نبلاء إقطاعيين مستغلين لِعَرَق الآخرين . فلولا أنهم يعزّزون مراكزهم بمصاهرة العائلات والأسر القوية من القبائل الخاضعة لنفوذهم ، لكانوا أفراداً عاديين ولكان لزاماً عليهم أن يعملوا كأي فردٍ آخر . وكان مستشارو الملك يُختارون لحكمتهم بصرف النظر عن أصلهم(٢) . ويتمتع البولينيزيون بدرجة غير عادية من المساواة بين الجنسين. وبالرغم من أن النساء يحرَّم عليهن بعض الأشياء التي يُسمح بها للرجال ، فإننا لا نكون مغالين إذا قلنا أنه لا يوجد بين الجماعات البدائية أي جماعة أخرى كاد فيها الرجال والنساء يقفون على قدم المساواة كهذه الجماعة(٣) .

والخلاصة إن المجتمع البدائي هو مجتمع وحدات القربى ومجتمع المؤسسات القائمة على صلة القربى . فكل العلاقات الإجتماعية والإقتصادية والإيديولوجية الحسّاسة لها صفة القربى وما هو بمثابة القربى . والناس هناك يسلكون بعضهم مع بعض سلوك الأقرباء مع الأقرباء ، وذلك في أوسع التنظيمات العشائرية حيث ينتمي المئات إلى جدٍّ واحد . وكثيراً ما تتعقّد صلات الرحم هناك حتى أنها قد لا تكون صحيحة .

---

(١) المصدر السابق، صفحة ٢٧ ـ ٢٨ .
(٢) المصدر السابق ، صفحة ٢٩ .
(٣) المصدر السابق ، صفحة ٣٢ .

وقد وصف هولول Hallowell هذه الشخصيانة ، وصفاً رائعاً في بحثه الطريف Ojibwa Ontology: Behavior and World View [1] فهذه الشخصانية ، هي من أهمّ خصائص الحياة البدائية من الوجهة التاريخية، وهي تمتدّ من العائلة إلى المجتمع ، إلى الطبيعة . وهي تقف على ما يبدو وراء جميع الصفات الأخرى المميزة للفكر والسلوك البدائيين . فالبدائيون يعيشون في عالم شخصي متكامل . والوعي بالنسبة إلى البدائي هو صفة كونية ، بل هو أهم صفات الكون . فإن نفثات الوعي منبثّة في كل مكان . وهذا الحسّ نجده عند يونانْ ما قبل سقراط كما نجده اليوم في أعمال وايتهدوهالدين وتيار دي شاردان على وجه أكثر حضارية وتجريداً . وتتجلّى أعلى حالات الشخصانية البدائية في تلك اللمسة الواحدة للطبيعة التي تجعل العالم كلّه عائلة واحدة . إنها لتوحي بالمولد من أصل واحد وبالقربى الكلية وبالدفء الأبوي . فكل شيء في هذا العالم يهتم بك ويخاطبك ويبادلك الودّ والحب ، وهو في حوارٍ دائم معك !

۞ إن الفرد العادي من أفراد المجتمع البدائي يشارك في نظام مجتمعه بنصيب أكبر جداً مما يشارك أعضاء المجتمع في الحضارات القديمة والحديثة المتقدمة تكنولوجياً في نظام مجتمعاتهم . فالشخص البدائي يتحرّك في قلب النظام تحرك إنسان تام غير منقسم إلى (كائن اقتصادي) و(كائن ديني) و(كائن سياسي) وما إلى ذلك . بل هو يقف في مركز عالم مركّب ، كلي ، من النشاطات الملموسة لا تهمّه العلاقات السببية بينها بقدر ما يهمه المشاركة في تيارها وإدخال أقصى ما يمكن من الفاعلية فيها . فالشخص العادي من قبيلة الهوتنتوت مثلاً صياد ماهر ، وملاحظ دقيق للطبيعة ، وصانع قادر على صنع جهاز كامل من الأدوات والأسلحة ، وراعٍ يعرف عادات الماشية وحاجاتها ، ومُشارك فعّال في عددٍ كبير من الطقوس والإحتفالات القبلية ، وربما كان أيضاً على دراية كاملة بأساطير قومه وقصصهم وأمثالهم . وينطبق هذا أيضاً على المرأة الهوتنتوتية . فالبدائي العادي بالنسبة إلى بيئته الإجتماعية التي نشأ فيها وإلى المستوى العلمي والتكنولوجي الذي بلغه شعبُه ـ هو بالمعنى الحرفي للكلمة أكثر تحصيلاً من معظم الأفراد في المجتمعات المتقدمة . إنه يشارك مشاركة كاملة ومباشرة في الإمكانات الثقافية

---

(١) In Culture in History. Stanley eamond Ed. New York. Columbia University. Press, 1960 .

المتاحة له ، لا مشاركة المستهلك أو المشاهد ، بل مشاركة الإنسان الكامل الملتزم الفعّال[1] .

وهذا الكمال الوظيفي يرجع إلى سيطرة الإنسان البدائي العادي على طرق الإنتاج جميعاً . فالبدائي الذي يصنع أداة العمل يصنعها من بدايتها إلى نهايتها ، ويستعملها بمهارة ويتحكم فيها ولا يعاني من أي شعور انفصامي بأنها ربما تتحكم فيه . وهو يحصل على نتاج عمله مباشرة على أن يستجيب لحاجات أقاربه المتبادلة . إنه يواجه الطبيعة بأدوات أقل مما لدينا ، ولكنه إنما يواجهها بكل وجوده ، وتكون جميع قواه وقدراته مجندة للمحافظة على أسرته أو عشيرته أو قريته أو قبيلته . « فقبل مجيء الرجل الأبيض لم تكن مؤسسة الرق والعمل بأجر معروفة لدى شعب غيكويو مثلاً ، بل كان القانون القبلي يعترف بحرية كل فرد من أفراد القبيلة واستقلاله . وكانوا جميعاً في نفس الوقت مرتبطين معاً اجتماعياً وسياسياً واقتصادياً ودينياً بنظام من التعاضد والتكاتف والتكامل المتبادل يمتد من الأسرة إلى القبيلة كلها » كما يقول جومو كينياتا[2] . فليت شعري ! أين هذا من عامل ما بعد الثورة الصناعية الذي أصبح سلعة أو آلة أو جزءاً من الآلة أو امتداداً لها ، بينما الآلة في نظر البدائي هي امتداد له وجزء منه . هنا تكمن مأساة العمل في ظل المدنية الحديثة . فالعمال اليوم أشخاص منفصلون ، متخصصون ، مغتربون أخلاقياً في عملية الإنتاج . وأعقب ذلك تحوّل أرباب العمل أو كبار المديرين التنفيذيين قوة لا إنسانية ، وغدت حريتهم حرية زائفة لأنها قائمة على قهر الجماعات التابعة لهم ، كما أن جميع علاقاتهم وارتباطاتهم نفعيّة استغلالية . فإذا كان الإنتاج المتطوّر قد أدىَ إلى إرباك الإنسان المعاصر وبلبلته وحرمانه من مركزه الأخلاقي ، فإن الإنتاج البدائي قد ساعد على تكامل إنسانه وشعوره بالاستقرار وسكينة النفس . إن رجال الأعمال الغربيين وأصحاب الشركات المتعددة الجنسيات قد ربحوا العالم ولكنهم في مقابلة ذلك - واحسرتاه - قد خسروا أنفسهم ، وذلك هو الخسران المبين ! وأمّا البدائي فلا يهمه في شيء أن يكسب أو يخسر العالم ما دام قد ربح نفسه ، وكل شيء بعد ذلك يهون .

● ومن أهم أسباب هذا الطابع الأخلاقي الكلّي للمجتمع البدائي هو ما

---

(١) ستانلي دايمند : البحث عن البدائي ، صفحة ١٨٨ - ١٩٠ .
(٢) نقلاً عن المصدر السابق ، صفحة ١٩٠ .

ذكرنا من أولوية القرابة على السياسة والتوادّ على السلطة ، والإيثار على الأثرة ، والتعاون على الإنكفاء والتفرد . فللشعوب البدائية جاذبية خاصة بالنسبة إلى كل من يتأمّل ويبحث في طبيعة الإنسان والمجتمع . فهذه شعوب لا تعرف الأديان المنزّلة ـ أو ما يُسمى كذلك ـ ولا اللغات المكتوبة ، ولا المعرفة العلمية المضبوطة ، ويعيش أفرادها غالباً في حالة من العري التام ، ولا يستخدمون إلا أبسط أنواع الآلات ، كما يسكنون مساكن بسيطة جداً . فإنما هي إذن شعوب خام ـ أو ما يقرب من ذلك إذا صحّ التعبير ـ ومع ذلك فغالباً ما يعيش الأفراد هناك عيشة هانئة في جماعاتٍ محلّية سعيدة مؤتلفة . وربما كان من العسير علينا أن نتصوّر أنفسنا أننا قادرون على العيش في مثل هذه الظروف . ولا بدّ أن نتساءل : كيف تسنى لهؤلاء أن يعيشوا مثل هذه الحياة المزرية ، بل أن يعيشوا حياة سعيدة مطمئنة بلا قلقٍ ولا أرق ولا متاعب نفسية وعصبية كتلك التي تشكو منها المجتمعات الغربية ؟إنهم يواجهون أحداث الحياة بشجاعة وجَلَد رغم قلّة ما يستعينون به في معركتهم مع الأقدار وقوى الطبيعة الغاشمة . إن أُمّية هؤلاء « المتوحشين » وعدم اقتنائهم للسيارات والكتب والصحف وجهلهم بنظام البيع والشراء ، وغير ذلك ـ إن هذا كله لم يُفقدهم السعادة والغبطة والسكينة ، بل لعله جعلهم أكثر جاذبية وإثارة وادعى إلى الإهتمام والدراسة . ففيهم نرى الإنسان يجابه القضاء بكل عنفه وقسوته وآلامه وهو يكاد يكون أعزل من السلاح ليس له من أسباب المدنية ما يدرأ عنه هذا الشقاء ويخفّف من معاناته التي لا ترحم أو يدفع عنه المخاوف والغوائل والعقابيل[1] .

لقد تقبّل القوم ذلك كله بشجاعة ورباطة جأش ، وتكيفوا لظروف المواجهة والتحدي . والفضل في ذلك إنما يرجع إلى إعتمادهم الكلي على أنفسهم وإلى النظام الأخلاقي الذي يعيشون فيه والذي يوفّر لهم الأمن والطمأنينة ، وكذلك إلى القيم التي تخفّف من أعباء الحياة وتجعلها محتملة . ومن يدري ؟ فلعل وراء هذه البساطة الظاهرية أبنية وهياكل اجتماعية معقّدة وثقافات خصبة يجدر بالباحثين الأنثروبولوجيين أن يجدّوا في الكشف عنها[2] .

وفي رأينا إنّ دواعي البقاء أقوى كثيراً من أصوات الفناء . فلو كان من

---

(١) إيفانز بريتشارد : الأنثروبولوجيا الاجتماعية ، صفحة ١٩٧ ـ ١٨٠ .
(٢) المصدر السابق ، صفحة ١٨٠ .

شأن كل إنسان أن يسقط وينهار كلّما اجتاحته جائحة أو نزلت به نازلة ، إذن لفني الإنسان منذ مبدأ الخلق . ولكن لا : ليست الأمور بمثل هذه البساطة وإنما هي أكثر تعقيداً . فليس من السهل أبداً التفريط في خفقات القلب وأنفاس الحياة أمام التحدي الكبير . ففي الإنسان طاقات تعمل في ساعة العُسرة فتنشُط آليات وتتحرك ميكانزمات وتدور عجلات تتجند جميعاً للحفاظ على الحياة مهما تعذّرت الحياة . فكأنّما قُوى الدفاع في البدن قد جُنَّ جنونها فهبّت لحسم الموقف وإتخاذ القرارات ، فعللت النفس بالآمال الكاذبات والوعود المغريات . ولا تزال بصاحبها تُمنيه الأماني الحالمات حتى تَثنيه عما اتخذه من خطوات، للفرار من خطر المواجهة والقضاء على الذات !!

لقد تعوّدنا أن نفكر في الثقافة والنظم الاجتماعية في إطار الحضارة الغربية . وبذلك لم نعد نرى عند الشعوب البدائية ثقافة أو نظماً اجتماعية إلاّ بعد التنقيب الطويل . وحينئذٍ فقط سوف نكتشف أن هذه الشعوب رغم أنها لا تعرف أدياننا فهي شعوب تؤمن بالدين ، وأنّ هذا الإيمان يتجلى في مجموعة من المعتقدات والطقوس والشعائر[١] . إن الدين ـ بما هو دين ـ نمط من أنماط الثقافة يرتبط بغيره من الأنماط الأخرى يغذيها ويتغذى بها . والطقوس هي الصورة المتحركة للدين . ولا يخلو شعب من القيام ببعض الطقوس والشعائر مهما كان في سلم التطور . فالطقوس ولا سيما البدائية منها ، تخفّف الضغط وتفرّج الكرب وتُنفّس الكبت ، وتمتصّ بالتالي القلق الناشىء عن العديد من المواقف الوجودية المضطرمة ، وبها تندمج العناصر المقدسة والطبيعية في الفرد والمجتمع ، وتصل الحياة إلى ذروتها على صورة دراما . وهذا يؤدي إلى تعميق الحسّ بالواقع وبالمشاركة الفعّالة ذات الجوانب المتعددة في الحياة الثقافية ، وكل هذا يؤدي بالتالي إلى تعميق الشعور بالقيمة والكرامة والكفاءة الفردية . وبذلك تُستغل مصادر القلق الإجتماعي والوجودي استغلالاً خلاّقاً يطرد الهم والغم ، ويشيع في الحياة البهجة والحبور . إن الميلاد والموت ، والبلوغ والزواج والطلاق والمرض . . . كلها مناسبات للدراما الشعائرية ، ومن الطبيعي أن تتباين البنية الشعائرية الشكلية من ثقافة إلى أخرى ، ولكن الوَظائف تتشابه . إن أكل لحوم البشر سرّ مقدس يثير اشمئزازنا بل لعله أول الأسرار المقدسة . فالغاية من الأكل الإحتفالي ـ إذا صحّ وجوده عند

---

(١) المصدر السابق .

البعض - إنما هي إذلال العدو بل هي أيضاً استيعاب لصفاته الإنسانية البطولية ، وكثيراً ما كان أيضاً اختياراً للصبر والرجولة والمقدرة على الحياة الروحية(١) .

والطقوس عند القبائل البدائية قد تُستغل أيضاً من أجل السلام الذي يحرص عليه البدائيون ويعضون عليه بالنواجذ كما ذكرنا ذلك في حينه . قال كنفوشيوس : « إن الإحتفالات هي الأصرة التي تربط الجماهير بعضها ببعض ، وإذا ما انقطعت دبّت فيها الفوضى » ، فالطقوس الجماعية تفرض سلماً احتفالياً وتزرع في الناس - بإشاعتها روح الإعتماد الجماعي على القوى الخارقة للطبيعة - شعوراً بالجماعية وباعتماد كل فرد على كل فردٍ آخر . وقد يتعزّز هذا الشعور بالتوزيع الإحتفالي للأعمال بين ذوي القربى الذين يكون على كل منهم أن يقوم بوظيفة شعائرية معيّنة ، بحيث يصبح التعاون ضرورياً للحصول على المنافع المرجوة من القوى المرجوة ، من القوى الغيبية الخارقة للطبيعة(١) .

فالقبائل هناك تعيش في الحالة التي سمّاها هوبز حالة الحرب ، وهي حالة قاتلة ما لم تتمّ السيطرة عليها . لذا لا تجد بدّاً من أن تجنّد مؤسساتها العامة التي في حوزتها لمواجهة التهديد بالحرب بسبب افتقارها إلى المؤسسات المتخصّصة في إعلاء كلمة القانون ونشر الأمن والإستقرار . وهكذا فهي تجنّد الإقتصاد والقربى والطقوس وغيرها لهذا الغرض ولا تدّخر في ذلك أي وسع أو جهد ، وإذْ تأخذ المؤسسات القبلية هذه الوظيفة على عاتقها فإنها تتخذ أشكالاً خاصة وتعبيراتٍ خاصة تختلف عما عهدناه ، بل قد تكون غريبة علينا ، لكنّ من الممكن فهمها جميعاً على أساس أنها ترتيبات دبلوماسية للحفاظ على السلام ، تلك هي حكمة المؤسسات القبلية(٣) .

وينطبق ذلك أيضاً - وإلى حدٍ ما - على قبائل ميلانزيا في المحيط الهادي . فإن أخلاقهم متباينة جداً بحيث يصعب الوصول إلى تعميمٍ واضح بشأنها . ويبدو أن تلك القبائل كانت ضحية الشعور العميق بعدم الأمن والطمأنينة والخوف من الأحياء التي لها قوى خارقة (٤) . ومع ذلك يسود بين أفراد القبيلة

---

(١) ستانلي دايمند : البحث عن البدائي ، صفحة ٢٠٣ و٢١٢ .
(٢) مارشل ساهلنز : القبليون في التاريخ والأنثروبولوجيا ، صفحة ٣٠٩ .
(٣) المصدر السابق .
(٤) رالف لنتون : شجرة الحضارة ٢ / ٥١ .

الواحدة روح التعاون وشعور أصيل بالتكامل والتعاضد والتحابّ . فحتى الرجل الميلانيزي المفلس يملؤه دائماً الأمل في الحصول على ما يحتاج إليه من الطعام والسكن . فأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض . فإن أقارب هذا المفلس لا يتخلون عنه ولا يتركونه لرحمة الأقدار ، بل يهبّون لنجدته ويمدّونه بالغذاء والكساء والمأوى ، إحساساً بواجب القربى وحفاظاً على صلة القربى ورعاية لمشاعر إنسان ينتمي إليهم وصوناً لكرامته ، ثم لا يُتبعون ما انفقوا مَنّاً ولا أذى[1] . ولا يحدوهم إلى ذلك سوى الشعور بالواجب ، واجب القريب نحو القريب ، ذلك الشعور الذي افتقده الرجل الأبيض منذ زمنٍ طويل ، وإنّ ملأ الكتب والصحائف بفلسفة الواجب وحقوق الإنسان، وأنشأ جمعيات الرفق بالحيوان .

الجوانب المظلمة في المجتمع البدائي

هذا والمجتمع البدائي رغم كل ما يُقال عنه ليس مجتمعاً مضيئاً متألقاً كأنه الفردوس المفقود . فهناك أيضاً الجانب المظلم فيه ، لكنّ المجتمع البدائي يعرف جيداً كيف يواجه هذا الجانب ويتغلب عليه . كما أن أفراد المجتمع البدائي ليسوا كلهم قوماً سعداء يعيشون بلا قلقٍ ولا هموم ولا هواجس . كلاّ فللمجتمع البدائي همومه ومتاعبه أيضاً ، لكنّها هموم ومتاعب تظل في حيز المعقول والمقبول ، ومن الممكن التغلّب عليها والتخفيف من وطأتها لأنها ملازمة لكل مجتمع طبيعي . وهناك منحرفون في هذا المجتمع أيضاً ، غير أنه انحراف يفسح المجال للتوفيق بين الأفراد الجانحين وبين الجماعة ، مع السماح بالسلوك غير المألوف . وفي تلك الحالة قد يكافأ المنحرف وقد يعاقَب ولكنه لا يصبح منبوذاً . ففي كل المجتمعات البدائية طرق مألوفة لمعالجة أنواع الشذوذ المختلفة دون أن تخلف وراءها آثاراً ضارّة ، بينما هي تفتك بالرجل الأبيض المتحضّر وتدمّر شخصيته وتورثه أمراض القلب والأعصاب وتصيبه بالإرهاق والذُهان وانفصام الشخصية . . . فالمجتمع البدائي يأخذ على عاتقه ما يظل في مجتمعاتنا عبئاً على الفرد وحده ، ويتولّى معالجته بواسطة المعتقدات الشعائرية . ولا يزال به حتى يعود إلى روتين وجوده بسهولة ويسر ، وهكذا يستعيد إحترام أقرانه . وهذا أمرٌ ميسور في المجتمعات البدائية حيث يكون الخط الفاصل بين العالم الداخلي والعالم

---

(١) المصدر السابق ، صفحة ٤٥ .

الخارجي للجماعة ، خط التلاحم والإتصال لا خط التباعد والإنفصال(١) .

والمجتمع البدائي ـ كالمجتمع المتمدّن ـ له حروبه ومنازعاته ، ولكنّها على وجه العموم حروب ومنازعات أشبه باللعب . فهي أقلّ أهمية من حروبنا ويشيع فيها الكثير من مكارم الأخلاق . إنها تختلف كمّاً وكيفاً عن الحروب المتمدّنة التي تعتمد على الآلات . فمن علائم الشجاعة أن يذهب الرجل إلى المعركة دون أن يحمل معه شيئاً يُحدث الأذى عن بُعد . وإذا حمل الرجل رمحاً كان ذلك أفضل عند قبائل السهول من أن يحمل قوساً وسهاماً ، وإذا حمل فأساً صغيرة أو هراوة كان أفضل من أن يحمل رمحاً . بل إن أفضل آيات الشجاعة أن يذهب المحارب إلى القتال دون أن يحمل شيئاً سوى سوط أو غصن شجرة طويل يُدعى أحياناً (عصا الضرب) وهو عبارة عن هراوة على رأسها حجز(٢) .

ويعترف دايمند أن تحقيق شخصية الإنسان وتحديد معالمها داخل سياق اجتماعي وطبيعي ومتعالٍ فوق الطبيعة ـ إذا كان مقياساً يصلح دائماً لتقويم الشخصية ، فإن المجتمعات البدائية هي الأرقى . فهذه المجتمعات إنما تكشف ـ بناءً على قاعدة « وبضدها تتميز الأشياء » ـ الجانب المظلم لحضارة عالمية تمرّ بأزمة مزمنة . إنّ تحقيق ذاتية الإنسان عند البدائيين يمكن وصفها بالفردانية ، في مقابلة الإنعزالية التي هي أحد أعراض الحضارة ، وهي انفصال الأشخاص الآلي بعضهم عن بعض نتيجة لتقلّص الروابط العضوية التي كانت سائدة في المجتمعات القديمة والاستعاضة منها بروابط مدنية جمعية كتلك التي تتجلّى في المجتمع الأميركي مثلاً ، وهي المسؤولة عن الكثير من الأمراض العصبية الحادّة . لقد انعدم التباين والتنوع ـ أو كاد ـ في ظل الحضارة الحديثة وفي ظل الإنتاج الكبير ، وحلّ الفقر النمطي المتماثل الذي يكرر ذاته محل التنوع الفردي الغني الذي لا يتكرر بل يظل نسيج وحده وفريد عصره. لقد مضى عهد الجمعانية المتحدة المتآلفة وجاء عهد العزلة الشخصية والتجمع الآلي الذي ليس له من الإجتماع إلا الاسم . فالفرد في ظلّ الحضارة العقلية الآلية اليوم عرضة دائماً لأن يذوب في الوظيفة التي يؤديها أوالمكانة التي يحتلها . لقد سحقت المؤسسات الكلية البادرة الفردية ، وأطبقت الوحدة الميكانيكية على البلاد الصناعية ، وأغرقت

---

(١) ستانلي دايمند : البحث عن البدائي ، صفحة ٢٠٥ ، انظر الحاشية أيضاً .
(٢) المصدر السابق ، صفحة ٣٠٤ .

المصانع المجتمع بالمنتجات والسلع المتشابهة التي لا يختلف بعضها عن بعض في قليلٍ أو كثير ، بدءاً بالدبابيس والسيارات وانتهاء بالبيوت والمصانع . فالمجتمع بكلٍ ما فيه يتحرك ليصبح كياناً آلياً ضخماً بُني على منوال الآلة . ويؤدي هذا التنميط إلى الغباء وإلى إنتاج الفرد المعزول سيكولوجياً - (أو الفرد - الدمية) الذي تبلد حسّه بفعل التخصّص في العمل والذي يهدده الفراغ ، والذي يعتز مع ذلك بأن المجتمع يعمل باسمه ويخوض المعارك من أجله . إنّ هذه النمطية وهذه الموضوعية وهذه الفردية الميكانيكية هي أعراض لحالة اجتماعية ما ، وتعبير عن إتجاه فكري معين ، ولكنه اتجاه باهظ الثمن . فقد شرَيْنا الشخصية المثلومة المريضة بالشخصية الصحية السليمة المتكاملة التي لا انفصام فيها والتي تلم الشعث وتجمع الشمل وتزيل التناقضات[1] . وقد أحسن إيريك كهلر Erich Kahler التعبير حين قال : إن تاريخ الحضارة إنما هو تاريخ إغتراب الإنسان[2] .

تكامل الإنسان البدائي

إن هذه الفردية المثلومة التي تمنع نموّ الشخص نمواً متكاملاً لا وجود لها في المجتمع البدائي . فبقدر ما يعيق هذا الوضع نموالفردِ في الحضارة الغربية فإن المجتمع البدائي يشجع نمو أفراده ، لأن الظروف المؤاتية للنمو الشخصي متوافرة فيه أكثر منها في المجتمع المتطور . وقد كتب بول رادان P. Radin الذي مرّ بتجربة من أعمق التجارب التي مرّ بها أي عالم أنثروبولوجي على الإطلاق داخل مجتمع بدائي (الوينيباغو) يقول :

« إن المجال مفتوح لأي نوعٍ من منافذ الشخصية أو وسائل التعبير عنها في المجتمع البدائي ، ولا تطلق الأحكام الأخلاقية هناك على أي جانبٍ بعينه من جوانب الشخصية الإنسانية . فالطبيعة الإنسانية هي الطبيعة الإنسانيةُ ، وإنّ كل فعلٍ أو شعور أو معتقد - سواء أُفصح عنه أو لم يُفصح - يجب أن يُتاح له المجال لأن يرفع الإنسان أو يخفضه . لا شك أن هناك حدوداً لهذا التعبير ، لكن هذه الحدود تنبع مباشرة من الإدراك العميق الواضح لحقائق الحياة ومن الإحساس

---

(١) المصدر السابق ، صفحة ٢٠٧ - ٢٠٨ .
(٢) نقلاً عن المصدر السابق ، صفحة ٢١٨ .

الحاد برد فعل الجماعة »[1] .

ويؤكد ذلك قول كريستوفر دوسنChristopher Dawson وهو بصدد الحديث عن الخلفية القبلية للسلتيين : « تتحلُّ القبيلة ـ رغم أنها شكل بدائي نسبياً من أشكال التنظيم الإجتماعي ـ [بقسطٍ] وافر من الفضائل قد تحسدها عليه أنواع متقدمة كثيرة أخرى من المجتمعات . إذ يتناسب هذا التنظيم مع المثال العالي للحرية الشخصية واحترام الذات ، ويستثير إحساساً عميقاً بالولاء والمحبة من جانب أفراد القبيلة نحو الجماعة ورئيسها[2] ، ويلخّص رادان ذلك بقوله : « عبر عن نفسك تمام التعبير ، ولكن اعرف تمام المعرفة ، واقبل نتائج شخصيتك وأفعالك »[3] . وهذا هو واقع البدائي بالفعل ، « فإن الأفريقي مُكيَّف بحكم مؤسساته الثقافية والاجتماعية الموجودة منذ قرونٍ لأنْ يمارس حرية يعجزا لأوروبي عن إدراكها » . هذا ما يقوله افريقي من بطن القارة . إنه جومو كينياتا ابن افريقيا الكبير فهو أحق بالرأي والمشورة ، لقد شهد شاهدٌ من أهلها !

هذا ، والإنسان البدائي ليس مجرّد ردّ فعل انعكاسي للجماعة . فالواقع هو أن الجماعة ، تكمن بل تتجسد في فردية الفرد . وكل من شاهد الرقصات الافريقية الاحتفالية سيتأكد من أن إحساس الفرد بالقوة الشخصية وبالقيمة يشتدّ كثيراً بسبب الطبيعة الجماعية لتلك المناسبة . فكأنما يعبر الشخص من خلالها عن طاقة أكبر من طاقته . ولا يعني ذلك أبداً أن الفرد ينصهر في الجماعة بحيث يفقد شخصيته وتميز سلوكه الفردي ، بل إنّ الحركات الجسمانية وتعابير الوجه ، والخطوات في كثيرٍ من الأحيان ، تختلف من شخصٍ إلى آخر ، أي إنّ الأسلوب الفردي يتجلى من خلال الرقصة الجماعية . إن هذه الجماعة العضوية هي نقيض الحشد Collecture أي تجمع أفراد غير مترابطين ينسون ذواتهم في فعالية جامحة بحثاً عن وحدة مجهولة الاسم. إن الحشد ظاهرة حضارية لابدائية، إنه الجنون الجماعي الذي تنفجر فيه العواطف المكبوتة فتنطلق نحو الخارج ، بلا ضابط أو شكل ، بلا إتزان ومسؤولية . إن التجمعات تنشأ في ظل الحضارة وتؤدي وظائف متخصصة وتخلق شعوراً بأنها مفروضة من خارج . إنها كيانات خلقها أناسٌ

(۱) نقلاً عن المصدر السابق ، صفحة ٢٠٨ ـ ٢٠٩ .
(۲) نقلاً عن المصدر السابق ، صفحة ٢٠٩ .
(۳) نقلاً عن المصدر السابق .

يفكرون تفكيراً موضوعياً ، وتقوم بوظائف موضوعية وتؤدي إلى شعور الأفراد فيها بالغربة . وقد تحدث ليوبولد سنغور عن هذا فقال : « لقد أنشأنا تعاوناً جماعياً لا تجميعاً ، لأن التعاون بين أعضاء العائلة أو القرية أو القبيلة كان دائماً موضوع إجلال افريقيا السداء . إنه ليس مجرد تجميع لأفراد لا رابط بينهم . [كما في المجتمعات الغربية] ، إنه تعاون جماعي وتفاهم مشترك[1] ، فالتجمع له شكل الجماعة ولكنه إنما يفتقر إلى جوهرها ، أو قل هو الجمهور العام الذي يختلف كل الإختلاف عن المجتمع . وأما المجتمع فهو جماعة حقيقية متعاونة متفاهمة كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً ، أو كالجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر . وكل أولئك هو السبب في انتشار الجرائم في العالم المتقدم بينما هي نادرة أو منعدمة في المجتمع البدائي . وهذه الصفات أيضاً هي التي تجعلنا بالتالي لا نتوقع إلا عدداً قليلاً جداً من ظواهر الشخصية المرضية أو العُصابية النفسية المزمنة التي تنمو بنمو الحضارة .

أجل ، إن من أسباب أمراض المجتمعات الغربية هو طابعها الحشري وتراكمها التجمعي وفرديتها الزائفة وافتقار مؤسساتها إلى الوسائل الكفيلة بالتعبير عن تعدّد جوانب الإنسان ، يُضاف إلى ذلك حرصها الشديد على التحليل والتجريد . لكن مرض المجتمع البدائي له مصادر مختلفة عن هذا اختلافاً تاماً . إنه ينشأ عن الجهل وعن كون العلم عنده ما يزال في بداياته الأولى ـ إذا كان على شيء من العلم حقاً ـ وما يستتبع ذلك من إهمال للتفكير المجرد والعمليات التحليلية . إن مرض الحضارة الغربية ينبع من قلب هذه الحضارة ، لا من المعرفة الزائدة بل من الحكمة الناقصة . لقد فَقَد الناس فيها إلى حدّ بعيد ذلك الحسّ المباشر والمتشعب بالشخص الإنساني الذي لم يفرِّط فيه البدائيون بل يتمتعون به إلى أقصى حدود التمتع . وإذا كان المجتمع الغربي يقتني الوسائل والأدوات والأشكال والخيال العقلي والفكر التجريدي والتحليلي لتغيير وجه الأرض وهو في طريقه الآن إلى غزو السماء ، حتى لقد انطبق عليه قول الإنجيل « ماذا يجديك أن تخسر نفسك وتكسب العالم ـ إذا كان ذلك كذلك ـ فإن المجتمع البدائي سيظل محتفظاً بنفسه ما دام بمنأى عن سلبيات الحضارة الغربية . إنه لا يزال يقتني أعظم ذخر في هذا العالم وهو الجوهر الإنساني . هذا ما يجب على الغرب أن يتعلمه من

---

(١) المصدر السابق ، صفحة ٢١٠ .

البدائي . فالغرب لا غنى له عن الإنسان البدائي الذي كانه الغربيُّ في يومٍ من الأيام ؛ ثم أخذ يتفلت من بين يديه بحكم الضغوط العنيفة التي تمارسها عليه حضارته حتى لكادت أن تزلزل وجوده . فليبادر قبل فوات الأوان إلى استرجاع هذا البدائي المتفلّت بأن يدعه ينمو في نفسه من جديد دون أن يُفرِّط في المكتسبات الحضارية الإيجابية التي لا تهدّد جوهر وجوده الإنساني . فبدلاً من أن ينشغل باستغلال الإنسان الملوّن وتشويهه ـ وفي أحسن الأحوال تعليمه وتثقيفه إذا صحّت النيات وهو ما يشك فيه كل أحد ـ فإن من واجب الأنثروبولوجيين أن يتعلموا كيف تسنى لهذا الإنسان أن يفهم طبيعته بعمق منذ وجوده الأول وعلى مستوى سابق من التطور الثقافي .

الإنسان أخلاقيّ بطبعه

إن ليڤي بريل ينكر وجود مبدأ داخلي في الإنسان يملي عليه معرفة الخير والشر يسمّى الضمير . فهو لا يعتقد أن الإنسان أخلاقي بطبعه كما هو عاقل بطبيعته . فإذا كان الإنسان أخلاقياً بطبعه فذلك بمعنى آخر غير المعنى الميتافيزيقي : أي بمعنى أنه يعيش دائماً في مجتمع وأنه توجد عادات خلقية وتقاليد تفرض نفسها وإلزامات وأمور محرّمة (تابو) في كل مجتمع . هذا ما يقصده ليڤي بريل عندما يقول إنّ الإنسان أخلاقي بطبعه أو إنّ الأخلاق طبيعية في الإنسان ، ولا يوافق أبداً على التسليم بأن الإنسان يتلقى نوراً علوياً يكشف له عن التفرقة بين الخير والشر ، أو بأن له ضميراً يحتوي على نوع من الإلهام يُشعره بوجود نظام أخلاقي ينبع من داخله ويتفاوت في درجة وضوحه . إنّ ليڤي بريل ينكر الضمير حتى لا يتورط في الميتافيزيقا ونسي أنّه متورط إلى نصفه بالميتافيزيقا . فإذا كان يؤمن بأنّ الإنسان عاقل بطبيعته[1] يميز بين الحق والباطل ، فما المانع أنْ يؤمن أيضاً ، بأن الإنسان أخلاقي بطبيعته يميز بين الخير والشر ؟ إنّ المسألة هنا هي في رأيي مسألة تمييز . فالتمييز يحصل سواء كان بين الحق والباطل أو بين الخير والشرّ . فمن تورط في الميتافيزيقا في الأولى تورط ضرورةً في الثانية . فإمّا أن يستنكف عن الميتافيزيقا في الحالين، أو أن يتورّط فيها ـ وأمره إلى الله ـ في الحالين. وأما العرج والعَوَر والتذبذب فهي صفات ليست من شيم العلماء .

---

(١) المصدر السابق ، صفحة ٢٨٨ .

والرأي عندي أنّ الضمير هو والعقل من طينةٍ واحدة ، أو قلْ هو ـ إذا أردنا استخدام لغة القدماء والعرب بل لغة كنط أيضاً ـ العقل العملي في مقابلة العقل النظري . إنّه العقل في أكمل حالاته ، بمعنى الكمال عند القديس أنسلم في دليله الوجودي ، أي التفكير في الواجب وتحقيق هذا الواجب بالفعل لا بمجرّد القول .

إن الإنسان في مرحلة كفاحه الطويل في سبيل البقاء لا يمكن أن نفصل فيه البيولوجي عن الأخلاقي عن الإجتماعي عن الميتافيزيقي . فهو بينما كان يبني نفسه، كان يبني في الوقت ذاته قيمه الأخلاقية ومُثُله العقلية، وإن كان لا يعي من أمر ذلك شيئاً . الإنسان إجتماعي بطبعه ولا أعتقد أنه عرف حياة العزلة يوماً ، فمنذ طور النشأة نمت فيه خصال اجتماعية جوهرية ، أي خصال لا بد منها لتأمين حدّ أدنى على الأقل من التضامن والتكامل والتوادّ والتحابّ والتعاطف، وبالتالي فقد أدرك أنه ليس من الحكمة في شيءٍ أن يعتدي على جزءٍ من أجزاء الجماعة التي هو عضو فيها دون أن يتعرض وجوده هو للخطر . فهو إذ كان يخرج للصيد والقنص لم يكن ليستأثر به وحده بل كان لسائر أعضاء القبيلة نصيب فيه . وإذا تعرّض أحد أفراد جماعة الصيد لسوء ، هبَّ للنجدة وبادر بالعون . وإذا تعرَّض هو للخطر انتظر عون الجماعة ولم يتوقع أن يخذلوه .

هكذا انبثقت الأخلاق ومن هنا تفجرت الأخلاق وهذه هي البدايات الأولى للأخلاق . ومعنى هذا أن البذور الأصلية للحس الأخلاقي أو الضمير قد نشأت مع الإنسان ولم تُخلق من العدم كما يظن البعض . هذا ما أدّى بي النظر إليه وإن كان هناك من قد لا يُقرني عليه كليفي بريل مثلاً . نعم لقد كان هذا الحس ضميراً بدائياً ، ولكنه ضمير على كل حال . ولعله كان عند البعض دون المستوى المطلوب ، لكنّ لا ننسَ أنّه كان عند البعض الآخر أيضاً فوق المستوى المطلوب ، فضلاً عن أنه كان عند الأكثرية الساحقة على المستوى المطلوب . فهو كسائر قوى الإنسان وطاقاته يزيد وينقص تبعاً لإختلاف أحوال الفرد وظروف الزمان والمكان . فالناس يتفاوتون في ضمائرهم كما يتفاوتون في عقولهم وجميع أحوالهم . ومهما يكن من شأن هذا التفاوت ، فإن وعي الإنسان الأخلاقي قد زاد ونما وطرأت عليه تطورات كثيرة بمضي الزمن . ولعلّ هذا ما جعله ينتقل من حال الجماعة البدائية إلى حال الحضارة . وكان كل يوم يزداد شعوره بأن العدوان أمرٌ غير جائز وغير أخلاقي . فليس لأحد الحقّ في العدوان على أحد أو على حريمه أو على ممتلكاته . وأحسَّ كل أفراد الجماعة أنّ عدم العدوان هو في صالحهم ، وأن

ذلك يمكن أن يكون قاعدة سليمة للحياة المشتركة . ثم أصبحت حماية الأنفس والأملاك والمصالح من مسؤوليات قيادة الجماعة ، سواء كانت هذه القيادة فردية أو جماعية . وشيئاً فشيئاً تنبّه في الإنسان الشعور بأن هذا العمل جائز وهذا غير جائز ، وأنّ الجائز خير وغير الجائز شرّ . ويذهب المؤرخ بريستد Breasted إلى أن فجر الضمير كان في مصر قبل غيرها كما سترى بالتفصيل . ففيها أثر عن قدماء المصريين من الأسرة الأولى نجد كلاماً كثيراً « في الخير والشر والحق والواجب وما يليق وما لا يليق وما إلى ذلك . إننا لا نوافقه أبداً على هذا الغلو لأن الضمير - بمعنى مجرد الإحساس الخلقي -موجود قبل قدماء المصريين بمئات القرون وإنّ الإنسانية لم تخلُ يوماً من بذوره . ولكن لمّا كان المصريون القدماء أول شعب ترك للأجيال اللاحقة تعاليم أخلاقية مدوّنة ظن بريستيد أنهم أوّل من استيقظ فيهم فجر الضمير . وكان يجب أن يقول إنهم أول من تحدّث عن الأخلاق وأشاد بها وترك لنا آثاراً مكتوبة فيها ومعنى ذلك بعبارةٍ أخرى إن التعاليم الخلقية التي وصلت إلينا في الكتابات والنقوش المصرية القديمة لا تعدو أن تكون استمراراً لمأثورات وتقاليد شفوية أقدم من المصريين بزمنٍ طويل . فإذا نظرنا إلى إحساسنا الخلقي نظرة موضوعية وجدنا أنه يعرض علينا ألواناً من السلوك تبدو لنا واجبة أو محظورة مع أنها ترجع إلى معتقدات قد اختفت منذ أجيالٍ طويلة حتى ليكاد يستحيل علينا أن ندرك حقيقتها . فهذا الإحساس يحتوي على عناصر جاءت من عصورٍ شديدة الإختلاف والتنوّع . ففيه عناصر جاهلية ، وفيه عناصر إسلامية ، وفيه عناصر فارسية وإغريقية ، بل فيه عناصر ترجع إلى عصورٍ ما قبل التاريخ ، ربما كان بعضها سابقاً للوجود الإنساني ذاته ، بمعنى أنها ترجع إلى المرحلة الحيوانية .

إن العقل والضمير والعواطف والتصوّرات من فئةٍ واحدة بعضها من بعض . فالأوامر والنواهي هي أوامر ونواهٍ للعقل . العقل يعقل أولاً ثم يأمر وينهي ثانياً . ولذلك فإني أخالف ليفي بريل الذي يفصل بين العقل والضمير الخلقي وينفي أن يكونا على مستوى واحد من التكوين ، ومعنى هذا أن الإنسان حيوان ناطق وأخلاقي في آنٍ واحد ، فما الضمير سوى العقل مثقلاً بالأوامر والنواهي : إفعل ولا تفعل . ماذا عسى أن تكون العاطفة في ذاتها إذا نحن فصلناها عن التصورّات والمعتقدات ؟ هل عاطفة الحب هي شيء آخر غير فكرة الحب مصحوبة ببعض المشاعر ؟ إن هذا لا ينفي أبداً أن يكون الضمير الخلقي يتألّف من عناصر متباينة ، منسجمة حيناً متصارعة حيناً ، كما أنّ العقل نفسه

ليس وحدة منطقية منسجمة العناصر والأهداف . وهو أيضاً كالضمير طبقات بعضها فوق بعض ومستويات متفاوتة من الوعي واللاوعي والغيبة والحضور . فنحن في الحالين أمام ظواهر شديدة التعقيد والتركيب يختلط فيها الإيمان بالإلزام والعقل بالسلوك والوعي بالغريزة والعاطفة بالتأمل ، والمنطق بالندم والإحترام ووخز الضمير . فقد يتّفق أن يضعف العنصر الفكري بحيث يبدو غير متميّز من غيره دون أن يفقد فاعليته ، أي دون أن يمنعه ذلك من التأثير في السلوك والأفعال ، لأن عمله ليس محصوراً في مستوى واحد من الشعور . فأنْ أشعر أو أن لا أشعر ، هذا لا يقدم ولا يؤخّر شيئاً في حقيقة إشراف وليّ الأمر على من يلي ، لا يؤوده حفظه ولا يتعنّته مراقبته . فإذا غاب عن الساحة قليلاً ندب من يقوم مقامه . فالأمر إليه وإليه المصير .

إن الشعور بالواجب والشعور بالمسؤولية (أو الشعور بالخير) قديم قدم الشعور بالحقّ ، قدم الشعور بالجمال ، فإنما الإنسان إنسان بهذه المشاعر الثلاثة ، فأمّا الشعور بالحقّ والشعور بالخير فقد استوفينا الكلام فيها أو كدنا ، وأمّا الشعور بالجمال فقد رأينا طرفاً منه من الكلام على الفن القديم الموغل في عصور ما قبل التاريخ والذي ظنّ الظانون ـ وقد أُخِذوا بروعته ـ أنّه وليدالعصور الحديثة ! من هنا انطلق المنطق ومن هنا انطلقت الأخلاق ومن هنا انطلق الجمال ، وبالتالي من هنا انطلق التاريخ ، التاريخ بمعناه الواسع ، . أي الذي يشمل عصور ما قبل التاريخ فضلاً عن العصور التاريخية ، فلا تاريخ إلاّ تاريخ الإنسان ، الذي تنثال عليه المعاني والبيان ، ويدين دِين الحقّ والواجب أو يمقته ببهتان ، ويهيم في وادي الأخيلة والشعر هيام الواجد الولهان ، أو يحجم عنه غير عابىء ولا مكترث ولا ظمآن ، كل ذلك يجري في نفس الوقت وفي نسقٍ مُوحَّد الألحان ، ثم يأتي التحليل والتنقير بالموشور الزجاجي ليكشف شتى الألوان ، فإنّما اللون لون واحد ولكنْ سلوا المطياف إنه صانع الألوان . وكذلك النشاط الإنساني نشاط واحد ولكنّ العقل أبى إلاّ أن يعدِّد له الألوان . فمن لي بمطياف يكشف حقيقة النشاط الإنساني ويفضح الألوان ؟ فنرى رأي العين أن الإنسان هو صانع الألوان ؟[1]

---

(١) من أراد الإستزادة من هذا الموضوع فليرجع إلى الفصل الأول من كتابنا (المرجع في تاريخ الأخلاق) .

القسم الثاني

الأخلاق في الشرق القديم

إن حكمة الشرق الضاربة في أغوار الماضي البعيد قد حفلت قبل اليونان بتياراتٍ خلقية هامة لها قيمتها في تاريخ الأخلاق . ولا أدل على ذلك من الديانة المصرية القديمة ووصايا التوراة والكونفوشيوسية والبوذية ونحوها . فقد عرفت الشعوب الشرقية في العصور القديمة كثيراً من المعارف والآرء التي لها خطرها في الطبيعة والدين والأخلاق وغير ذلك من وجوه التفكير الإنساني . كما أن اليونان اتصلوا في عصورهم الأولى بكثير من حضارات الشرق فنهلوا منها الكثير ، وكان ذلك عمدتهم في وضع الفلسفةً التي تُنسب إليهم . ولا نلقي القول جزافاً بل سبيلنا شهادة اليونان أنفسهم ، جرياً على القاعدة المشهورة « وشهد شاهدٌ من أهله » فها هو ذا ديودور الصقلي ، المؤرخ اليوناني الذي زار مصر بين عامي ٦٠ - ٥٧ ق . م . يذكر بين الذين اتصلوا بمصر وعاشوا فيها من علماء اليونان وأدبائها وفلاسفتها ، هوميروس شاعر اليونان الأشهر ، وليكورغ Lycurgue المشرع الإسبرطي ، وصولون واضع قوانين أثينا ، كما يذكر أيضاً فيثاغوراس وديمقريطس وأفلاطون الذين سنتحدث عن كل واحد منهم عندما نعرض لفلاسفة اليونان[1] .

وهاك مؤرخاً يونانياً آخر زار مصر سنة ١٢٠ ق . م. هو أفلوطرخس Plutarque . فهو يذكر في كتابه (إيزيس وأوزيريس) أن أعاظم اليونان

---

(١) د . محمد يوسف موسى ، تاريخ الأخلاق ، ص ١٤ - ١٥ .

المستنيرين : ليكورغ وطاليس فيثاغوراس وأفلاطون ، قد زاروا مصر وعاشوا فيها وكانوا على أوثق اتصالٍ بكهنتها . ونحن نعلم أنّ الكهنة كانوا خزانة العلم والمعرفة في ذلك الزمان(١) .

ليس من الممكن اليوم أبداً القبول بأن اليونان غير مدينين بفنونهم وعلومهم وآدابهم لغيرهم من الأمم التي سبقتهم . لقد كان هذا الظن شائعاً من قبل ، أما الآن فلم يعد في وسع أحد التسليم به بعد تقدّم البحوث التاريخية . وهذا ما يؤكده ماسون أورسل وهو حجّة عالمي في هذا الموضوع . فبعد أن أشار إلى تفجّر الروح الشرقية لدى الفلاسفة الذين سبقوا سقراط ولدى أفلاطون نفسه ، وعندما تحدّث عن الأصل السامي للفلاسفة الرواقيين والجوّ الديني للأفلاطونية الجديدة ، وغزو المذهب المانوي الإيراني الأصل ، يؤكد أنه من السذاجة الظن بأن كل هذا يدين للعبقرية اليونانية وحدها . ويقول في موضعٍ آخر : « ليس هناك الآن أيّ إنسانٍ يمكن أن يعتقد بأنّ اليونان والرومان وشعوب أوروبا في العصور الوسطى والعصر الحديث هم دون سواهم أرباب التفكير الفلسفي . ففي جهاتٍ أخرى من الإنسانية وفي حواضر الأمم الشرقية القديمة بالذات سطعت عدّة مواطن واسعة بالتفكير المجرّد والتمعت بأضواء قوية انتشرت في الآفاق(٢) .

أين تكمن عبقرية اليونان ؟

إننا لا نتجنى على اليونان إذن عندما نبتعد عن الشطط في حكمنا عليهم ، فلا ننسب إليهم ما ليس لهم ؛ بل نتوخى الدقة والأمانة التي لا تهتم بالجنسيات والديانات والقوميّات واللغات بقدر إهتمامها بالعناصر الإنسانية ، مهما كان انتماؤها . فالحكمة ضالّة المؤمن أنّى وجدها التقطها . فالصرح الكبير الذي شيّده اليونان لا يقلّل من عظمته أبداً أن تكون قواعده واللبنات الأولى فيه مجلوبة من هنا وهناك من بلدان الشرق القديم . إن هذا لا ينفي أبداً عبقرية اليونان الذين رفعوا البناء . لقد كانوا ماهرين في الإنتفاع بما أخذوه عن الأمم الشرقية من المعارف والأفكار . وهم لم يكتفوا بذلك أبداً بل أضافوا إليها الكثير الذي جعلها

---

(١) المصدر السابق ، صفحة ١٥ .

(٢) نقلاً عن المصدر السابق ، صفحة ١٦ .

تبدو بعيدة عن أصولها الشرقية ووجّهوها وجهة جديدة تخدم أغراضهم هم وتحقّق معنى وجودهم ، بما أدخلوه من التحليل ووصلوا إليه من التعاريف والبراهين والتأملات التي لم يسبقهم إليها أحد من قبلهم . هنا تكمن عبقرية اليونان . فليست العبرة في تاريخ الأفكار بنقل الأفكار واستعارة الأفكار ، إنما العبرة بما فعله الشخص المبدع بهذه الأفكار .

وهكذا ، فإذا كانت الحضارة القديمة ، قد بلغت ذروتها في بلاد اليونان فلا ننس أنها كانت قبل ذلك قد بزغت في بلاد الشرق ونشأت فيه . وعندما كان اليونان جهلة متوحّشين برابرة كانت ضفاف النيل وبلاد ما بين النهرين تزدهي بحضاراتٍ عريقة لامعة كما سنرى ذلك مفصلاً في حينه .

الفصل الثاني

الأخلاق والفكر الأخلاقي عند المصريين القدامى

أعمومات ، مدخَل :

Conscience

يعتقد الكثيرون أن أوروبا إذا كانت تدين لأحد غير اليونان ، فإنما هي تدين للعبرانيين . فالمسيحية تقوم على الكتاب المقدس بالعهدين القديم والجديد . لذلك كان من الطبيعي أن يعود الغرب بحضارته الروحية إلى العبرانيين كما يعود بحضارته المادية والعقلية والفنية إلى الإغريق . وقد تصدى برستيد Breasted في كتابه القيّم (فجر الضمير) The Down of Conscience الذي وضعه سنة ١٩٣٤ ، لهذه الخرافة التي وقرت في أذهان الشعوب الغربية ، حتى أصبحت عقيدة راسخة ، هذا رغم كراهية الغربيين لليهود واحتقارهم الشديد لهم . وقد برهن برستيد في هذا الكتاب على أنّ مصر أصل حضارة العالم ، بل هو يذهب إلى أبعد من ذلك فيؤكد أنّ في مصر شعر الإنسان لأول مرة بنداء الضمير ، فنشأ الضمير الإنساني في مصر وترعرع ، وبها تكونت الأخلاق النفسية . فمصر في نظره ـ وحسب الوثائق التاريخية التي وصلت إلينا حتى الآن ـ هي مهد الحضارة ، وعن هذه الحضارة أخذ العبرانيون ، وعن العبرانيين نقل الأوروبيون حضارتهم .ورغم أننا لا نشاطر برستيد هذا الرأي ولا نوافق أبداً على أن المصريين هم أول الأخلاقيين ، لأن معنى ذلك وجود هوة سحيقة بين العصور الوحشية الأولى وبين العصر المصري المتمدن ، انتقلت فيها الإنسانية من الظلمات إلى النور جملةٍ واحدة !! إن الشمس لا تُشرق على الأرض دفعة واحدة . بل يسبقها الفجر ثم تتسلل مواكب الضوء شيئاً فشيئاً تبشر بمقدم الشمس . كذلك لا يدخل الظلام دفعة واحدة ، بل تنسحب الشمس أولاً وتتبعها أشتات الضوء بعد

ذلك ، وأخيراً يحلّ الليل الطويل . وهكذا حوادث التاريخ لها مقدمات وطلائع وإن كانت لا تخلو من القفزات والمفاجآت . فالمصريون القدماء ليسوا أول الأخلاقيين بل هم أول من وصل إلينا منهم وثائق أخلاقية مدونة ، وهناك فرق بين الأمرين ، دون أن يعني ذلك أننا نقلل من أهمية قدماء المصريين . بل إنّ هذا لو صحّ فهو مما نعتز به ويعتز به كل عربي وكل شرقي ، ولا سيما إذا كان الأمر متعلّقاً بأسمى مقومات الوجود الإنساني وأعني به الضمير . لكن الأماني والأحلام شيء والحقيقة التاريخية شيءٌ آخر . إنه مما يشرفني ويشرف بلادي أن نتحدث عن (المعجزة المصرية) كما يتحدث الغربيون عن (المعجزة اليونانية) وأن نتبادل التبجّح ونرد على التبجّح بالتبجّح . ولكن ذلك لا يغني من الحق شيئاً . نحن جميعاً في محراب العلم ، وللعلم مقتضيات ومستلزمات وحقوق وواجبات . فلا ندفع الأسطورة بالأسطورة ، بل بالعلم وحده تُدفع جميع الأساطير . فالأخلاق المصرية وليدة تطور طويل وبطيء ونضج مستمر متواصل لا طفرة فيه ، رغم أن التاريخ مليء بالطفرات . ولكن الطفرات فيها المعقول وفيها غير المعقول . فما كان للإنسان القديم بل ولا للحيوان ، أن يبقى لحظة واحدة بلا أخلاق وبلا أي قيمة خلقية ، على أن تؤخذ الأخلاق بأوسع معانيها وأكثرها بساطة ، لا بالمعنى الاصطلاحي اليوم . فقد رأينا كيف أن الإنسان حيوان أخلاقي بقدر ما هو حيوان ناطق ، وكيف كان الإنسان الأول إنساناً بريئاً لم تفسده الحضارة بعد ، يتحلى بالكثير من المُثل الأخلاقية الرفيعة والمشاعر الإنسانية النبيلة . ومهما يكن رأينا في هذا الموضوع ، فحسبنا أن نبين فضائل القوم دون أن يعني ذلك أنهم قد حققوا الطفرة وعبروا الهوة ونقلوا الإنسانية جملة واحدة من طور الوحشية إلى تطوّر المدنية . لقد كانوا رواداً على الطريق الطويل ورسل خير وبركة ، قد خلت من قبلهم أُمم أورثتهم قيمها ومُثلها فأضافوا إليها ما أضافوا وأورثوها للأخلاف من بعدهم . وهذا حسبهم .

لقد شغف برستيد في مبدأ حياته العلمية بدراسة تاريخ الشرق القديم عامة ، لكنه عندما اشتد ساعده مال بكل جوارحه إلى دراسة تاريخ مصر وحضارتها وأنفق في ذلك ما يربو على مليون جنيه جمعها من أثرياء أميركا ورجالاتها الذي يشجعون العلم والعلماء[١] .

---

(١) برستد : فجر الضمير . صفحة ٤ .

يعتقد برستيد أن الضمير لم يبرز من حيث هو قوة إجتماعية إلا منذ مدة لا تزيد على خمسة آلاف سنة[1] . فإن أعظم ظاهرة أساسية في تقدم حياة الإنسان هي نشوء المبادىء الخُلقية وظهور عنصر الأخلاق ، وهو تحول في حياة الإنسان يؤكد برستيد أنه وليد الأمس فقط . وفي تعليقه على الوصايا العشر التي حفظها في طفولته وتعلّم أن يحترمها لأنها « أُنزلت » على موسى من السماء ، قال : إن المصريين القدماء كان لهم مقياس خُلقي أسمى بكثير من الوصايا العشر . وهو يقرر أن هذا المقياس قد ظهر قبل أن تُكتب تلك الوصايا بقرونٍ طويلة[2] . ومعنى ذلك أن التراث الخلقي لأوروبا مشتقّ من ماضٍ إنساني واسع المدى أقدم من ماضي العبرانيين بمئات السنين ، وأنّ هذا التراث لم ينحدر إليها من العبرانيين بل جاء من قدماء المصريين . فإن تطلّع الإنسان إلى المثل الأخلاقية قد حدث قبل أن يبدأ ما يسميه رجال اللاهوت (عصر الوحي) بزمن طويل ، وإنّ هذا التطلّع إنما هو نتيجة للخبرة الإجتماعية التي عاشها الإنسان نفسه . إنه لم يهبط على الإنسان من عالم الغيب ، إنه من صميم عالم الشهادة[3] ، ويُعدّ هذا أسمى عمل تمّ على يد الإنسان من بين جميع الفتوح التي جعلت نهوضه أمراً ممكناً . لقد حقق الإنسان أعظم كشف في مجال حياة التطور البشري وسما إلى أعلى تصور خلقي قبل أن تظهر الأمة العبرانية إلى الوجود بقرونٍ بعدها قرون[4] .

ويفسر برستيد ذلك بأن النيل هو النهر الوحيد الذي ينبع من المناطق الحارة وينساب نحو الشمال في المنطقة التي ظهرت فيها أول النظم القومية العظيمة ، وهي المنطقة المعتدلة للدول القديمة . هذا فضلاً عن أنّ وادي النيل في عصور ما قبل التاريخ كان يتمتع بمزية فريدة ، وهي أنه لم يكن معرّضاً لشدائد عصر الجليد بل كان منفصلاً عنها ، تقيه منها مياه البحر الأبيض المتوسط الملطّفة الواسعة الأرجاء . وهكذا ظل وادي النيل معزولاً ومحمياً على نحوٍ جعل التطور البشري فيه سهلاً . وبذلك فقد كان المصريون الذين عاشوا في عصور ما قبل التاريخ أقدم مجتمع بشري عظيم على الأرض استطاع أن يضمن لنفسه غذاء ثابتاً في

(١) المصدر السابق ، صفحة ٦ و١٨ .
(٢) المصدر السابق ، صفحة ١٠ .
(٣) المصدر السابق ، صفحة ١٣ .
(٤) المصدر السابق ، صفحة ١٥ .

الموارد البرية من نبات وحيوان ، في حين أن تغلبهم على المعادن فيها بعد وتقدّمهم في اختراع أقدم نظام كتابي ، قد أسلس لهم القياد للسيطرة والتقدم والحضارة (١) .

إن كلّ هذا العطاء كان أقدم من التوراة بزمن طويل . فالحضارة العبرانية بجميع ما اشتملت عليه من وثائق ذات تأثير عميق في المبادىء الدينية والخلقية ليست سوى مرحلة من المراحل النهائية للرقي البشري ، ذلك الرقي الذي سبقته عصور بشرية منتجة ومبدعة من الناحيتين الإجتماعية والخلقية على ضفاف النيل والفرات . فإن التقدم الحضاري في الممالك التي تحيط بفلسطين كان أقدم بعدّة آلاف من السنين من التقدم العبري . والذي يهمنا هنا من هذه الممالك وادي النيل . فإن التقدم الإجتماعي الخلقي الناجح الذي أحرزه الإنسان فيه أقدم من التقدم العبري بثلاثة آلاف سنة . وقد ساهم ذلك مساهمة فعليّة في تكوين الأدب العبري الذي يُطلق عليه اسم التوراة . ومن هنا حق لبرستيد أن يستخلص أن التراث الخلقي الذي ورثه المجتمع المتمدّن الحديث في بلاد الغرب يرجع أصله إلى زمنٍ أقدم بكثير جداً من زمن استيطان العبرانيين لفلسطين ، وأن ذلك التراث قد وصلَ إلى الغرب من عهد لم يكن فيه الأدب العبراني المدوّن في التوراة قد وُجد بعد(٢) .

قوة الدين وامتزاجه بالأخلاق

يؤكد برستيد أنه ما من قوة أثّرت في حياة الإنسان القديم مثل قوة الدين . فما أوجده الدين من أعياد هي تقويمه السنوي ، وشعائره هي المربية له والدافعة له على تنمية الفنون والآداب والعلوم . وقد امتزجت الحياة والفكر والدين عنده بعضها ببعض امتزاجاً لا انفصام له . ويعتقد برستيد أن الدين قد تكوّن وتحدّد وأفضى بالتدريج في نهاية المطاف إلى ظهور المبادىء الأخلاقية عند أقدم مجتمع بشري عظيم خلال مدة تربو على ثلاثة آلاف سنة(٣) . فالدين في طوره الأول لم تكن له علاقة بالأخلاق كما نفهمها الآن ، كما أن المبادىء الأخلاقية الأولى لم تكن سوى عادات شعبية قد لا تكون لها علاقة بالشعور بالآلهة أو الدين ، وقد كانت

(١) المصدر السابق ، صفحة ٢٨ ـ ٢٩ .
(٢) انظر المصدر السابق ، صفحة ١٣ و٣٤ ـ ٣٥ .
(٣) المصدر السابق ، صفحة ٣٦ ـ ٣٧ .

مظاهر الطبيعة أول ما أوحى إلى المصري بوجود الآلهة . فلم يكن في تصورات الإنسان القديم معنى لمملكة روحية تكون السيادة العليا فيها للآلهة ، وكان أبعد ما يتوهمه عبدة إله من هذه الآلهة أنّ إلههم يحمل في نفسه فكرة الحق أو الباطل ، أو أنّه يرغب في وضع هذه المطالب على كاهل عباده الذين كانوا يرون أنّ غاية ما يطلبه إلههم منهم هو تقريب القرابين إليه زلفى . إن برستيد لا يفصل ، كما رأينا منذ قليل ، بين الحياة والفكر والدين . ولكنه يفصل بين هذا الثالوث وبين الأخلاق ، وذلك تمهيداً لمقولته المعروفة وهي أن فجر الضمير قد بزغ في مصر . ونحن لا نرى موجباً لهذا الفصل لما تقدّم معنا من قبل من أن الإنسان حيوان ناطق بقدر ما هو حيوان أخلاقي . ولو كان عند برستيد أدنى اطلاع على الدراسات الأنثروبولوجية لما فصل بين ثالوثه المذكورَ وبين الأخلاق ، وبالتالي لما ترك في التكوين الإنساني فراغاً ظلّ مستمراً مئات الآلاف من القرون وهو ينتظر الفرصة السانحة لا لشيء إلّا ليحقق امتلاءه في عصر الفراعنة . لقد ادّخر برستيد هذا الفراغ عمداً لوقت الحاجة ، منطلقاً من تأملات منطقية لا من دراسات ميدانية . إنّ النصوص لا تقول له إنّ عصر الضمير قد انبثق في مصر القديمة ، بل كلّ ما تقول هذه النصوص إن المصريين قد وصلوا إلى مستوى كذا وكذا من الأخلاق ، وإنهم قد تحلّوا بكذا وكذا من الفضائل . أمّا أن يقفز برستيد فوق العصور والدهور ، ولدواعٍ منطقية واعتبارات مذهبية نظرية صرف ، فذلك تجاوز لمعطيات وحقائق ينبغي لرجل العلم أن يربأ بنفسه عنها .

الرقيّ الأخلاقي في العهد الأول لحياة مصر القديمة

وعلى كل حال ، ومهما يكن ما في رأي برستيد من غلو ومبالغة ، وسواء كان مصيباً أو مخطئاً في استنتاجاته السابقة ، فهذا لا يمسّ في شيء الحقيقة التاريخية التي يؤكدها ويدعو إليها ، وهي أنه في العهد الذي جاء بعد سنة ٤٠٠٠ ق . م . وصلت دائرة حياة الأسرة إلى درجة سامية من الرقي الأخلاقي ، وأفضت إلى تصوّرات معيّنة للسلوك الحميد والسلوك المعيب ، وارتقت إلى إدراك قيم جديدة سامية انتقلت بالتطور الإنساني إلى مستوى خلقي رفيع لم يسبق له مثيل [١] . ولا بدّ أن تطوّر حياة مثل هذه الأمة العظيمة وآدابها خلال ثلاثة آلاف من السنين

---

(١) المصدر السابق ، صفحة ٣٨ .

قد كان له تأثير عميق مطرّد لم ينحصر في أقرب جيرانها في فلسطين خاصة ، بل لقد امتد إلى جميع أنحاء الشرق الأدنى ، وإنّ النهضة التي أحدثتها هذه الحركة بين العبرانيين قد أفضت إلى تفكيرٍ خلقي وديني انتقل فيما بعد إلى الغرب والحضارة الغربية(١) .

وخطا التقدم الخلقي حتى في تلك المرحلة المبكرة خطوات بعيدة ، حتى إن السلوك العملي صار موضوع تفكير نظري في أذهان أقدم المفكرين المعروفين لدينا من عهد القرون السحيقة التي ترجع إلى عصر الإتحاد الأول . فالرجل الفاضل كان يُسمّى (محباً للسلام) ، وبالنص الحرفي للكلمة المصرية (حامل السلام) ، وهو تعبير أخلاقي يُعرِّف الرجل الفاضل بعلاقاته مع مَن حوله . وعلى النقيض منه المجرم أو حامل الجريمة . فهو الذي يخطىء في حقّ من حوله . ومعنى ذلك أنه قد وُجد في ذلك الوقت قانون مسنون يعترف بهذين النوعين من السلوك ، ويقرّر أن الموت يحيق بالمسيء وأن الحياة تنتظر المحسن(٢) .

وهذا الوعد بالحياة والوعيد بالموت لهما أهمّيتهما بالنسبة إلى المصري القديم . إذ لا يوجد بين شعوب العالم أجمع قديمها وحديثها شعب تثيره هاتان الفكرتان مثلما تثير قدماء المصريين . ولعلّ هذا الإعتقاد الملحّ بالحياة بعد الموت يرجع إلى تربة مصر التي تحفظ جسم الإنسان ، بعد أن يلفظ أنفاسه ، من البلى والتفسخ حفظاً لا نظير له في أي بقعة أخرى من بقاع العالم . ولا بدّ أن حالة الحفظ التامة المدهشة للأجساد البشرية التي وجد المصري القديم أجداده عليها عندما كانت الظروف تضطره إلى حفر أحد القبور قد زادت اعتقاده ببقاء تلك الجثث البشرية إلى الأبد وأيقظَت في خياله صوراً عظيمة في تفاصيلها عن عالم الأموات الذين رحلوا إلى الآخرة وعن حياتهم فيها(٣) .

إن الحياة الخلقية عند قدماء المصريين ـ على ما يذكر برستيد ـ بدأت تتطور منذ عهد الإتحاد الثاني ، أي في الفترة التي وصلت فيها حضارة الدولة القديمة إلى أوج عظمتها بعد سنة ٣٠٠٠ ق . م . فمنذ عهد الاتحاد الأول (أي قبل

---

(١) المصدر السابق ، صفحة ٤٢

(٢) المصدر السابق ، صفحة ٥٩ ـ ٦٠ .

(٣) المصدر السابق ، صفحة ٦٣ ـ ٦٤ .

منتصف الألف الرابع قبل الميلاد) كان موضوع الخُلق الإنساني مطروحاً للبحث ، فكان يُعبِّر عن هذا الخُلق وذاك في المجتمع بأنه محبوب أو مكروه ، أي هو محل للمدح والذم[1] .

إن الحياة في الأسرة عند قدماء المصريين هي العامل الأول في ظهور الأفكار الخلقية ونحوها . فقد كان المصري في عصر الأهرام يشعر بوجود جو من الوازع الخلقي يزعه . حتى إنَّ متون الأهرام قد كشفت لنا ذلك الوازع مطلاً على ما قد مضى من العصور الخالية التي لم تكن تعرف معنى للخطيئة والشجار بين أفراد تلك الجماعة الأولى من الأبرياء الذين وُلدوا قبل أن يوجد الشجار والخصام والسب والنزاع أو التشويه المروع الذي ارتكبه كل من (حور) و(سب) في حق الآخر[2] .

وفي ذلك العصر المبكِّر لأقدم جماعة بشرية وصلت إلينا أخبارها ، ساد الاعتقاد بأنَّ حق كل فرد في التحلي بالأخلاق الفاضلة يمكن أن يقوم على أساس النهج والسلوك اللذين يعامل بهما أفراد أسرته ، وهم والده ووالدته وإخوته وأخواته . وهذه الحقيقة لها دلالة كبيرة . وقد أكدها لنا أحد أشراف رجال الوجه القبلي وكان يعيش في القرن السابع والعشرين قبل الميلاد . إذ قال في نقوش قبره بعد أن أتى على ذكر كثير من أعماله الطيبة : « إني لا أفتري على أحد الكذب ، لأني كنتُ إنساناً محبوباً من والده ، ممدوحاً من والدته ، حسن السلوك مع أخيه ، ودوداً لأخته » . وكثيراً ما كان الأشراف في عصر الأهرام (أي منذ خمسة آلاف سنة) يلخصون صفاتهم الحسنة في العبارة الآتية : « كنت إنساناً محبوباً من أبيه وممدوحاً من أمه ، محبوباً من إخوته وأخواته »[3] . لقد كانت طاعة الوالدين من أهم الفضائل البارزة في عصر الأهرام . وكان من شواهدها النقوش القديمة التي تتكرَّر كثيراً في جبانات الأهرام والتي تذكر أنَّ المقابر الضخمة التي بها ، هي من

---

(١) المصدر السابق ، صفحة ١٢٩ .

(٢) إشارة إلى (ست) الذي اقتلع عين (حور) من محجرها . وأما (حور) فقد سلَّت خصيتي (ست) . لاحظ هذا الحنين إلى الزمان الأول الذي لم يكن يعرف معنى الخطيئة بعد . أي إن الإنسان القديم لم يكن متوحشاً بل أن الوحشية شيء طارىء . وهذا مخالف لأطروحة برستد بل ينقضها من الأساس . انظر صفحة ١٣٠ ـ ١٣١ .

(٣) المصدر السابق ، صفحة ١٣١ .

صنع الأبناء البررة الذين أقاموها تكريماً لآبائهم ، وأن الابن كان يعدّ لوالديه مدفناً فاخراً . بل إن أحد الأبناء من أهالي ذلك العصر عمل على أن يدفن مع أبيه في قبرٍ واحد ليكون معه في مكانٍ واحد ويتمكن من رؤيته كل يوم(١) .

إن هذه النقوش ترمز إلى حياة نحو ٥٠٠ سنة أي من ٣٠٠٠ ق . م . ـ ٢٥٠٠ ق . م . أو بعد ذلك . وهي أول مظهر معبّر عن حياة الأسرة بقي لنا من العالم القديم . فالعلاقات الأسرية المرحة المنطوية على الودّ والتي تنطق بها تلك النقوش تعدّ كشفاً جديداً ذا أهمية فائقة في تاريخ الأخلاق ، وهي وأمثالها ـ فيما يرى برستيد ـ برهان تاريخي قاطع على أنّ الإدراك الخلقي إنما نبتت جذوره الأولى من حياة الأسرة . ثم يستشهد بعد ذلك بما وصل إليه علماء النفس الإجتماعيون من «أن الوازع الخلقي في حياة الإنسان نبت من المؤثرات التي تعمل في العلاقات الأسرية »(٢) . كما يستشهد أيضاً بعبارة لوستر مارك لخّص فيها بدقة ملاحظات علماء الجنس البشري عند فحص ما بقي لنا من الحياة الفطرية في قوله : « هناك حقائق كثيرة جداً لا يمكن في الواقع اقتباسها للدلالة على أنّ حنان الوالدين لم يكن نتيجة من نتائج المدنية الحديثة ، إنما هو ظاهرة طبيعية للعقل البشري المتوحش كما هو معروف لنا »(٣) .

فمنذ العصور الموغلة في القدم كانت مثل تلك المشاعر موجودة ، وذلك وقت في كان جفاف الماء في هضبة شمال افريقيا يضطر الصيادين المتوحشين إلى النزول إلى وادي النيل . وكانت تلك المشاعر تنمو في ظلال فترة ذلك التطور التاريخي الذي انتهى بالإتحادِ الأول للبلاد ، وهو الإتحاد الذي لم يتجاوز عمره سنة ٤٠٠٠ ق . م . فآراء الإنسان الخلقية هي من ثمرة معالجته للشؤون الإجتماعية ، وهي جزء من التطور الإجتماعي . وهنا أيضاً يستشهد برستيد بقول غرين : « لا يمكن لبشر أن ينشأ وينشأ ضميره معه ، إنه يحتاج دائماً إلى الجماعة لتنشئه له »(٤) .

وبعد أن كان السلوك الحسن محصوراً في دائرة الأسرة ، أخذ نطاقه يتسع

---

(١) المصدر السابق ، صفحة ١٣١ ـ ١٣٢ .
(٢) المصدر السابق ، صفحة ١٣٤ ـ ١٣٥ .
(٣) نقلاً عن المصدر السابق ، صفحة ١٣٦ .
(٤) نقلاً عن المصدر السابق ، صفحة ١٣٦ ـ ١٣٧ .

شيئاً فشيئاً حتى صار يشمل الجوار أو الطائفة قبل عصر الأهرام بزمن طويل . إذ نجد في نقوش المقابر عبارات كثيرة يؤكد فيها أولئك الناس القدماء الذين مضى عليهم أكثر من أربعة آلاف سنة أن كسبهم حلال ، وأنهم وفوا الناس أجورهم ولم يظلموا أحداً ، وأنهم أعطوا خبزاً للجائعين وكسوا العريانين وملأوا الشواطىء والأراضي بالماشية ، وأشبعوا ذئاب الجبل وطيور السماء بلحوم الحيوان الصغير . . . ويؤكدون التزامهم الصدق والفضيلة ، ويعلنون براءتهم من عمل السوء . . . لقد أخذ الشعور بالمسؤولية الخلقية شكل قوة وازعة متزايدة في القوم تسيطر على سلوكهم وتجنبهم مواطن الزلل . وهو تطور يسير في اتجاه توطيد مكانة الضمير ليكون قوة اجتماعية ذات نفوذ في حياة الناس أجمعين[1] .

على أن الوازع الخلقي لم ينحصر نفوذه في العوامل الشخصية ، مقتصراً على علاقة الإنسان بأسرته وجيرانه أو المجتمع الذي يعيش فيه وحده ، بل لقد بدأ تأثيره يظهر في ذلك الزمان في الأوساط العليا من المجتمع البشري ، حتى شمل واجبات الحكومة نحو الشعب ، ولو أدى ذلك إلى التضحية بحقوق الأسرة . ففي عصر الأهرام صار الوزير العادل (خيتي) مضرب الأمثال بسبب الحكم الذي أصدره على أقاربه عندما كان يرأس جلسة للتقاضي كانوا فيها أحد الطرفين المتخاصمين : إذ تسرّع في الحكم على قريبه دون أن يفحص وقائع الحال ، وكان ذلك تورعاً منه حتى لا يُتهم بالتحيّز إلى أسرته ومحاباتها اجحافاً لخصومها . حتى لقد أصبح اسم (خيتي) بمضي الزمن مثلاً للإجحاف بالغير يجب ألا يُحتذى حذوه . وقد أخبر الفرعون وزراء القرن الخامس عشر قبل الميلاد أن « الحكم المشهور الذي أصدره (خيتي) كان أكثر من العدالة » لما فيه من الشطط في التحرّز عن محاباة الأقارب[2] .

وفي متون الأهرام أيضاً أدلة قاطعة على أن العدل والحق كانا يتمتعان بقوة أكبر من سلطان الملك نفسه . وكان الملك نفسه عرضة للمحاكمة[3] . وقد ختم أحد الوزراء العظام مجموعة من حكمه الطريفة بالكلمات التالية : « لقد بلغت من العمر العاشرة بعد المئة ، منحني الملك في خلالها هبات تفوق هبات

(١) انظر صفحة ١٣٧ ـ ١٣٨ .
(٢) المصدر السابق ، صفحة ١٤٠ ـ ١٤١ .
(٣) المصدر السابق ، صفحة ١٤١ ـ ١٤٢ .

الأجداد ، لأني قد أقمت العدل للملك حتى القبر »[1] .

هذا الوزير الأول هو (بتاح حتب) الذي اعتزل منصبه على عهد الملك (أسيسي) أحد ملوك الأسرة الخامسة في القرن السابع والعشرين قبل الميلاد . إن حِكَم بتاح حتب هذا تمدّنا بأقدم نصوص موجودة في أدب العالم كله للتعبير عن السلوك المستقيم . وبينما لم يصل إلينا من العصور السابقة سوى نتفٍ مبعثرة للتعبير عن السلوك الخلقي وعن التقدم المدهش في طريق الإدراك الخلقي الذي بلغه الإنسان في أيام الاتحاد الثاني ، فإننا نجد أن حِكَم (بتاح حتب) الغزيرة المادة تلخص لنا مقداراً لا يستهان به من أدب ذلك العصر . وحينما شعر ذلك الوزير الشيخ بضعفه الناشىء عن تقدمه في السن ، طلب إلى الملك أن يسمح له بتعليم ابنه (أي ابن الوزير) ليحلّ محله ويكون خير خلف لخير سلف . ووافقه الملك على ذلك . وحينئذٍ قام الوزير بالنصيحة لابنه بألا يسيء إستعمال الحِكْمة التي سيُلقّنه إياها ، بل ينبغي له انتهاج سبيل التواضع والرشاد فيقول : « أيْ بني ! لا تكنّ متكبراً على الناس بسبب معرفتك ، فشاور الجاهل والعاقل ، لأن نهاية العلم لا يمكن الوصول إليها ، فليس هناك عالم بلغ في فنّه حدّ الكمال . إنّ الكلام الحسن أندر من الحجر الأخضر الكريم ، ومع ذلك فإنه يوجد مع الإماء اللائي يعملن في إدارة حجر الطاحون » . ثم يَعقُب ذلك ثلاث وأربعون فقرة تشتمل على نصائح مختلفة في مواضيعها لم يُبذل أي جهد في ترتيبها أو تنظيمها ، بل لقد كُتبت كل فقرة منها عفو الخاطر بحسب ما كان ينثال من معانٍ على رجلٍ طاعن في السن حنّكته تجاريب الحياة ومسؤولياتها أراد أن يلقي بها على كاهل ابنه .

إنّ أحسن الصفات التي يجب على الشاب أن يتحلّى بها أن يكون قادراً على الإصغاء أو الطاعة « فإن المستمع (المطيع) هو الذي يحبه الإله ، وأمّا الذي لا يستمع فإنه هو الذي يبغضه الإله . والقلب (العقل) هو الذي يجعل صاحبه مستمعاً (مطيعاً) أو غير مستمع . إنّ ثروة المرء العظيمة هي قلبه . فما أحسن الإبن حين يصغي إلى أبيه ، وإنّ الإبن إذا وعى ما يلقيه عليه أبوه لن يخيب في أمر من أموره . وعليك أن تُعَلِّم من يستمع إليك كأنه ابنك . . . فما أكثر المصائب التي تنزل بساحة من لا يستمع . إن الرجل الحكيم يبكر في الصباح

(١) المصدر السابق ، صفحة ١٤٢ ـ ١٤٣ .

ليصلح من شأنه نفسه ، وأمّا الجاهل فإنه يقوم مرتبكاً ، كما أنّ الأحمق الذي لا يستمع يعدّ الحكمة جهلاً . والابن المستمع . . . يبلغ الشيخوخة وينال الإحترام ، وهو يخاطب أولاده [بالحسنى] ويعيد على أسماعهم نصائح والده . . . فهو إذن يحدِّث أولاده [بما كان يحدّثه أبوه] وهم بدورهم يحدّثون أولادهم »[1] .

« وإذا كان رئيسك فيما مضى من أصل وضيع فينبغي لك أن تتجاهل ضعته السابقة واحترمه لما وصل إليه ، لأن الثمرة لا تأتي عفواً . ولا تعيدنّ قط كلماتٍ حمقاء خرجت من غيرك في ساعة غضب . والزم الصمت . . . وإيّاك أن تتكلم إلا إذا كنت تعلم أنّك ستحل مشكلاً . . . وعليك أن تقدّم للأمير النصيحة . . . كن عميق القلب نزر الكلام . . . وحين تتكلّم كن ثابت الجنان طوال كلامك . . . فعسى أن يقول الأمير الذي يستمع إلى كلامك أصوب من الكلام الذي يخرج من فمك ! »[2] .

« إذا أصبحت عظيماً بعد أن كنت صغير القدر ، وصرت صاحب ثروة بعد أن كنت محتاجاً . . . فحذارِ أن تنسى كيف كانت حالك في الزمن السالف . ولا تفخر بثروتك التي أنعم عليك بها الإلّه (أي الملك) فإنّك لست بأفضل من غيرك من أقرانك الذين كانوا مثلك »[3] . « اشبع أصدقاءك . . . إذا نلت الحظوة عند مليكك ، فلا أحد يعرف مصيره إذا فكر في الغد . . . فعليك أن تدّخر ودّ الأصدقاء لوقت الشدة التي تهدد الإنسان . . . ولكنْ سترى فيها بعد أنه حين تسوء حالك فإن فضيلتك ستكون فوق أصدقائك »[4] .

ويجب على المرء أن يتحرى أخلاق أصدقائه : « فإذا كنت تبحث عن أخلاق من تريد مصاحبته فلا تسألني عن شيء ولكنْ اقترب منه وتعامل وإيّاه على انفراد ، وامتحن قلبه بالمحادثة . فإذا أفشى شيئاً قد رآه أو أتى أمراً يجعلك تخجل منه ، فعندئذٍ حذارِ حتى من أن ترد عليه[5] .

---

(١) المصدر السابق ، صفحة ١٤٣ ـ ١٤٤ .
(٢) المصدر السابق ، صفحة ١٤٤ ـ ١٤٥ .
(٣) المصدر السابق ، صفحة ١٤٥ .
(٤) المصدر السابق .
(٥) المصدر السابق ، صفحة ١٤٦ .

من كلّ ذلك يتضح أنه منذ القرن السابع والعشرين قبل الميلاد كان السلوك قد أصبح أمراً تقليدياً وحكمة منصوصاً عليها يتوارثها الأبناء عن الآباء ويتلقّاها الخلف عن السلف .

« إذا كنت رجلاً ناجحاً . . . وأنجبت ولداً . . . عمل صالحاً ومال إلى طبعك وسمع نصائحك . . . فابحث له عن كل شيء حسن ، فهو ابنك الذي من صلبك فإيّاك أن ينفر قلبك منه . أمّا إذا جنح إلى الشر وعصى أوامرك ولم يعمل بنصائحك . . . فانبذه بعيداً لأنه ليس ابنك ولم يولد لك . . . »(١) .

ويحذره من الطمع والجشع إيثاراً للصداقة : « إذا أردت أن يكون خُلقك محموداً وأن تطهّر نفسك من كل قبيح فاحذر الشر فإنه مرض عضال لا يُرجى له شفاء ، والصداقة معه مستحيلة ، لأنه يجعل حلاوة الصداقة مُراً ، وهو يفرّق بين المرء وزوجه ، ويثير البغضاء بين الأبوين والشحناء بين الإخوة . إنه معدن كل شرّ وموطن كل شيء مرذول . والشّرهُ لا قبر له »(٢) .

ويدعو الزائر إلى احترام أهل بيوت غيره ولو لم يكونوا من ذوي قرباه ، ويحذره تحذيراً شديداً من غشيان مخادع النساء والإقتراب منهن « فإذا أردت أن تحافظ على الصداقة في بيت تدخله . . . فاحذر القرب من النساء ، فإنّ المكان الذي يتفق وجودهن فيه ليس بالحسن ، وإذن فمن الحكمة ألاّ تحشر نفسك معهن .ومن أجل ذلك يذهب ألف رجل إلى الهلاك بسبب متعة برهة عابرة تتبدّد كالحلم ، فلا يجني المرء من معرفتهن غير الموت »(٣) . إنّ جمال المرأة متعة لا تدوم : « فعندما يفتتن الإنسان بأعضاء من الزجاج(٤) [فليعلم أن هذه الأعضاء ستصير بعد ذلك مثل حجر هرست(٥) ،فإنما الأمر لحظة تمر كالحلم، وفي النهاية يأتيهازم اللذات »(٦) .
إن جريمة الزنا كانت عقوبتها الموت في الأزمان التي تلت عصر (بتاح حتب) ، وليس من المستبعد أن ذلك العقاب كان مُتّبعاً في أيام الدولة القديمة أيضاً .

---

(١) المصدر السابق ، صفحة ١٤٧ .
(٢) المصدر السابق ، صفحة ١٤٨ .
(٣) المصدر السابق .
(٤) كناية عن أعضاء النساء البضّة البراقة بحسب اللغة المصرية القديمة .
(٥) أي شيئاً تافهاً .
(٦) المصدرالسابق .

وتسود جميع حِكَم ذلك السياسيّ الشيخ المحنّك روح الشفقة الكريمة . وهي في نظره تبدأ أولاً من البيت والأسرة ، ثم الأقرب فالأقرب.ويوصي ابنه بألاّ يأسى على ما فاته ولا ما أصابه ، فلا فائدة من النحيب على لبن مُهراق كما نقول اليوم . بل عليه أن يتوخّى في سلوكه المرح والإبتهاج : « كن طلِقاً باش الوجه ما دمت حيّاً »[1] « فإذا كنت حاكماً فكن رحيماً حينما تسمع كلام المتظلم ، ولا تسيء إليه [ولا تصدر حكمك عليه] قبل أن يغسل بطنه ويفرغ من قول ما قد جاء من أجله . . . وإنما لفضيلة يزدان بها القلب أن يستمع بحنان »[2] .

إن هذه الشفقة ذات صلة وثيقة بالمعاملة الحسنة المبنية على الحق والعدل . فللحق والعدل في أيام (بتاح حتب)مكانة تسمو على كل مكانة : . . . إن الحقّ جميل وقيمته خالدة ، ولم يتزحزح عن مكانه منذ مبدأ الخلق ، لأنّ العقاب يحلّ بمن يعبث بقوانينه . وقد تذهب المصائب بالثروة ولكن الحق لا يذهب بل يبقى ويمكث . والرجل المستقيم يقول : [نِعِمَّا هو !] إنه متاع والدي وقد ورثته عنه »[3] .

إنّ الحق أحقّ أن يُتبع . لذلك نرى الشيخ الكبير يدعو ابنه إلى اتباع الحق في القول والفكر والعمل والتعلّق بأهداب الصدق وعدم تخطّيه ولو كان مرّاً « تخلّق بالأخلاق الحسنة واعملْ على نشر العدالة ، وبذلك تضمنْ لذريتك الحياة من بعدك »[4] . إنّ الخُلق الحسن يبقى شيئاً مذكوراً على الدهر ، فلا شيء أبقى من الخُلق الحسن . هكذا علّمنا الآباء والأجداد وهكذا خَلّد الآباء والأجداد . فإذا وعيت ما ألقيته عليك فإنّ كل صنيع لك سيكون على غرار سنّة الآباء والأجداد ، كما أنّ كلّ خطوة تخطوها في سبيل العدالة فإنما يرجع الفضل فيها إذن إلى الآباء والأجداد[5] .

قيم خلقية رائعة

الناس بأعمالهم يُذكرون . فذكراها لن تُمحى من أفواه الناس لأن

(١) المصدر السابق ، صفحة ١٤٩ .
(٢) المصدر السابق .
(٣) المصدر السابق ، صفحة ١٤٩ ـ ١٥٠ .
(٤) المصدر السابق ، صفحة ١٥٠ .
(٥) انظر المصدر السابق .

نصائحهم جديرة بالتقدير . إنّ الرجل الحكيم تنعم روحه باستمرار بقاء فضله على الأرض . والرجل العاقل إنّما يُعرف بعمله ، وقلبُه ميزان لسانه . فإذا تكلم فقد صدق القول ، وإذا سمع فإنّه يسمع ما يفيد ابنه الذي يقيم العدل ويبرأ من الكذب . إنّ الرجل الذي اتخذ العدل نبراساً له حتى كان دينه وديدنه بقي ثابتاً في المقام الأسمى والموضع الأسنى . لا جرم أننا نجد في كل هذا الكلام نغمة الحكمة العبرانية كما وصلت إلينا في أسفار (العهد القديم) لكن حكمة (بتاح حتب) أقدم من حكمة العبرانيين بما لا يقلّ عن ألفي سنة[1] .

وقد ختم ذلك الوزير الحكيم نصائحه لابنه بعباراتٍ موحية تغزو مشاعره وتحبّب إلى نفسه العدالة ، إذ يقول له في ختامها : « تأمّل يا بني ! إنّ الولد النجيب الذي يكون هبة من الإلّه يكون أداؤه أكثر مما يصدر إليه من أوامر . فهو يقيم الحقّ وقلبه يسير على صراطه . وبقدر ما تصل إلى ما وصلت أنا إليه سيكون جسمك سليماً ويكون الملك مرتاحاً إليك في كلّ ما يجري . وكذلك ستبلغ السن الذي بلغتُه أنا . إنّ السنين التي قضيتُها على الأرض ليست بالقليلة . فأنا الآن في العاشرة بعد المئة ، وقد حباني الملك بمكافأة تفوق كل مكافآت الأجداد ، لأني أقمت العدل للملك حتى المهات »[2] .

وجدير بالذكر أن أحد ألقاب الملك (وسركاف) كان لقب (مقيم العدالة) . وهذا لعمري يدلّ على أن حِكَم (بتاح حتب) كانت تتمتع بمكانة راجحة لدى الجهات العليا حتى في أيام شبابه .

إن أكثر من نصف حكم (بتاح حتب) تتناول أخلاق الإنسان وسلوكه . وما تبقى فإنه يختص بشؤون الإدارة وسلوك الإنسان الرسمي . وهو يحثّ على توخي اللطف والإعتدال وتأكيد الذات الذي يكون رائده الحكمة واللباقة . وكل ذلك ينمّ عمّا كان عليه حكيمنا الشيخ من الكياسة وحُسن الذوق وسداد الرأي في تقدير الأمور ووزنها بالقسطاس المستقيم . فالحياة فيها الكثير مما يجعلنا نحبها ونقبل عليها ، ويجب أن يحظى فيها الإنسان بنصيب وافر من الإستمتاع البريء وأن يحافظ على ساعات الراحة والدعة حتى لا تطغى عليه أعباء الوظيفة وواجبات العمل . ولا يفوتنا أن نذكر كذلك أنه يجب على المرء أن يكون دائم

(١) انظر المصدر السابق ، صفحة ١٥٠ ـ ١٥١ .
(٢) المصدر السابق ، صفحة ١٥١ .

البشاشة والطلاقة لأنه لا فائدة من الندم . وعلى الجملة ، فإن النغمة التي تغلب على فلسفة نصائح ذلك الوزير الحكيم هي شدة اهتمامه بالأخلاق والوازع الخلقي . وإنّ أبرز واجب تنطق به سطورها هو : « ارع الحق وعاجل الجميع بالعدل »(١) .

إن أعظم فضيلة دائمة يتحلى بها الإنسان في الحياة هي العدالة والخلق العظيم . هذا هو دستور (بتاح حتب) وقاعدة تفكيره . جوّ مشبع بالرحمة والمحبّة والقيم السامية الرفيعة ، تلك كانت حياة الأسرة المصرية القديمة ، ومن الأسرة انطلقت شتى العواطف السامية ، فإن حياة الأسرة هي التي هيّأت للإنسان بادىء ذي بدء الشعور بالمسؤوليات الخلقية(٢) . إن الإعتقاد بأن النعيم في جميع صوره يتوقّف على ما للإنسان من الصفات الخُلقية في الحياة الدنيا ، يُعدُّ من الخطوات الخطيرة في تاريخ الأخلاق ، ولا بدّ أن يكون الشعور القوي بالوازع الخلقي هو الذي جعل الفرعون نفسه معرّضاً للمثول أمام إلّه الشمس وهو أوّل إلّه تخيّله المصريون قاضياً خُلقياً في العالم الآخر(٣) . فالإعتراف بالحساب في الآخرة وبحاجة الإنسان إلى قيم خلقية في ذلك العالم خطوة كبيرة تنقله من الإعتماد على المظاهر الخارجية التي كان يعتقد أنها كفيلة بتحقيق خلاصة (من بناء الأهرامات وتأثيثها وغير ذلك) إلى الإهتمام بالقيم النفسية الباطنة . وبذلك بزغ فجر عقيدة خلود الروح لأول مرة من حيث إنّ الخلود دائماً يكون بالروح لا بالجسد . لقد تغلبت أخيراً الصفات الروحية الباطنة على المزايا المادية الظاهرة في بلدٍ عريق راسخ البنيان ،قويّ الشعور بالذات ، يذخر بمجموعة غنيّة من القيم والمُثل . وحينما بدأ المصريون يتصورون الحاكم الإلّهي لهذا البلد كانوا في الحقيقة يسيرون في الطريق المؤدي إلى عقيدة التوحيد السامية . وكان ذلك الحاكم هو إلّه الشمس . وهكذا يكون المصريون القدماء قد سبقوا العبرانيين إلى عقيدة التوحيد بعشرات القرون ، كما كانوا قد سبقوهم أيضاً إلى المثل الخلقيّة الرفيعة التي هي أقدم بكثير من التوراة .

قيم خلقية رائعة وتعاليم سامية حبّذا لو التزمها الناس جميعاً . وهي على سموّها وروعتها ليس فيها ، في نظري ـ ما يدلّ على أنّها تُقال لأول مرة ، بل إني أُلاحظ فيها استمراراً لتقاليد سابقة أقدم منها بكثير . إنها تستعمل نفس النبرة التي

(١) المصدر السابق . (٢) انظر المصدر السابق ، صفحة ١٥٢ .
(٣) انظر المصدر السابق ، صفحة ١٦٠ ـ ١٦٢ .

نستعملها في هذه الأيام (وإنْ كانت أقل كذباً ونفاقاً) فهل نكون نحن أول من طلع بها على العالم ؟ أنا لا أتصور أنها خرجت دفعة واحدة من خوف العدم بل إني على ثقة بأن صاحبها يحثّ على قيم وتعاليم معروفة قديمة . إنني أجد فيها تذكيراً ولا أجد فيها نقلة من التوحش إلى عصر الضمير حدثت بجرّة قلم .

لقد كان الشعور الخلقي عند المصريين القدماء قوياً جداً لا يهتم بشيء بقدر اهتمامه بطهارة القلب وسلامة النية ، وجاء التوحيد ليقوي هذا الشعور ويزيده اشتعالاً . فإنّ امنحتب الرابع الذي خلف أمنحتب الثالث حوالي سنة ١٣٧٠ ق . م . قد غيّر اسمه من (أمنتحتب) أي « أمون مرتاح أو راض » إلى (إخناتون) أي « آتون إلّه الشمس راض » . لقد كان يريد إقامة دين عالمي يحلّ محلّ الديانة المصرية التي سبقته والتي سارت عليها البلاد مدة عشرين قرناً . لقد كان ملكاً يعتمد في دعوته على العقل والإيمان بالعقل . ولا أدلّ على ذلك من أنّه محا بلا تردد طائفة الأساطير والتقاليد التي كانت تحظى بالإحترام والتي كانت تقول بأن النيل هو الإلّه (أوزير) ،ثم نسب الفيضان في الحال إلى قوى طبيعية يهيمن عليها ذلك الإلّه ، ثم تجوهل الإلّه (أوزير) كلية فلم يُذكر قطّ في جميع الوثائق الأخناتونية[1] . وقد قبل أخناتون المذهب الشمسي الموروث الذي ينطوي على نظام خُلقي عظيم . وكانت تلك الحركة التوحيدية ذروة التقدير القديم للنظام الخلقي الذي نودي به على لسان مفكّري عصر الأهرام، أولئك الرجال الأفذاذ الذين أسّسوا مملكة عظيمة من القيم الخلقية الرائعة[2] ومما هو جدير بالذكر أن إخناتون كان على الدوام يذيّل اسمه الملكي الرسمي في جميع آثار الدولة العظيمة بهذه الكلمات : « الذي دأب على الصدق »[3] . وهذا النعت الهام الذي أُلحق باسم إخناتون جعله الممثل الرسمي والمعاضد للنظام الخلقي القومي العظيم . وإن ما كان يرمي إليه من وراء إضافة تلك الكلمات إلى اسمه الملكي إنما هو امتداد سلطان النظام الخُلقي القومي القديم حتى يصير نظاماً عالمياً . وتمشّياً مع هذه الحقيقة فقد سمّى إخناتون عاصمة ملكه الجديدة التي أقامها في تل العمارنة (مقر الصدق)[4] .وسيراً على سُنّته كان رجال البلاط يعظّمون الصدق كثيراً[5] .

(١) المصدر السابق ، صفحة ٣١٤ ، أنظر أيضاً صفحة ٩٧ و٢٩٩ .
(٢) المصدر السابق ، صفحة ٢٢٠ .
(٣) المصدر السابق ، صفحة ٣٢٣ .
(٤) المصدر السابق ، صفحة ٣٢٣ ـ ٣٢٤ .
(٥) من طلب المزيد فليرجع إلى الفصل الثالث من كتابنا السالف الذكر .

الفصل الثالث

الأخلاق والفكر الأخلاقي عند الهنود

أعموميات ، مدخَل :

تختلف الأخلاق الهندية عن الأخلاق المصرية في أن الأخلاق المصرية هي - كما رأينا - أخلاق إصلاح وبناء وأمل وتفاؤل ، أي هي أخلاق إيجابية ، وأما الأخلاق الهندية فهي أخلاق سلبية ، أخلاق إنكماش وفرار وإنسحاب من الواقع وتشاؤم . ومن هنا اختلطت الأخلاق الهندية بالزهد والتصوف والعزوف عن الحياة الدنيا .

كان فكتور كوزان ينظر إلى الهند على أنها موطن أسمى حكمة . كما كان شوبنهاور يرى أنه ليس في العالم كله دراسة نافعة تسمو بالنفس كدراسة الأوبانيشاد ، أول كتاب في الفلسفة الهندية القديمة . فالهند هي الشعب الشرقي القديم الوحيد الذي يمكن أن يُقال إنّ له أنظاراً فلسفية يمكن التماس خطوطها العامة في (الڤيدا)[1] وهي الأسفار المقدّسة التي تعبّر عن تفكير الهند من القرن الخامس عشر حتى القرن السادس قبل الميلاد . ففي هذه الأسفار المتباينة منذ الريغ ڤيدا Rig Véda - وهي أقدمها جميعاً - حتى الأوبانيشاد Upanishad البرهمانية - وهي الأسفار المتأخرة - كما في الأسفار التي أعقبتها من لدن الڤيدانتا Vedanta حتى المذاهب الحديثة ، في هذه الأسفار جميعاً نلمس في آنٍ واحد الإستعداد العجيب لدى الشعوب الهندية للنظر الفلسفي إلى جانب عجزهم الفاضح عن حلّ المشاكل التي يثيرها هذا النظر : من نحو القلق الميتافيزيقي للإنسان أمام سيلان الظواهر والكائنات والأشياء ، سعيه الحثيث وراء مطلق ما

(١) كلمة (سنسكريتية) معناها الحكمة والمعرفة .

سواء كان موجوداً أم غير موجود ـ لا سبيل له إليه ويحاول عبثاً العثور عليه في باطن ذاته ، ليتّحد به وليتخلص بواسطته من دورات التناسخ التي تنتظره ويتحرّر من الألم بقتل سلطان الرغبة فيه والقضاء على كل تعلّق له بالعالم(١) .

إن حضارة الهند حضارة عريقة ، وقد أنجبت هذه الحضارة فلاسفة عظاماً قبل أن يولد سقراط وأفلاطون وأرسطو ولكنهم دون هؤلاء نَفَساً . وانتشرت في الهند معالم العلم والفكر ووُجدت المباني الضخمة والآثار العظيمة الخالدة .

ويمكن تفسيم الفكر الهندي إلى ثلاثة عصور :

١ ـ **العصر الڤيدي الأول** : وفيه تمّ تدوين الڤيدا (أو الويدا) على أيدي البراهمة ، وذلك ابتداء من القرن الثامن قبل الميلاد تقريباً . فقد ظهر في هذا العصر جماعة من رجال الفكر اهتمّوا بالشؤون الدينية وفكّروا في عقائدهم ، فأدى بهم التفكير إلى آراء مغايرة للعقائد الموروثة ، ونشأ عبر ذلك مذهب جديد هو البرهميّة .

٢ ـ **عصر الإنشقاق** : وفيه ظهرت الديانة الجينية والبوذية ، وضعفت الديانة الڤيديّة . وحدث ذلك منذ بداية القرن السادس قبل الميلاد .

٣ ـ **العصر الڤيدي الثاني** : وهو عصر عودة الڤيدا وانتصارها على حركة الإنشقاق ، ولكن مع التوسع في شروح الڤيدا وبيان الخصائص الدينية والإجتماعية التي وردت بها . وسنتحدث عن كلّ من هذه هذه الديانات الثلاث على حدة : البرهمية والجينية والبوذية ، على أن نركز بطبيعة الحال بقدر ما نستطيع على الناحية الأخلاقية وهي التي تهمّنا هنا ، فهي موضوع الكتاب (المرجع الأكبر لنا هو ، في هذا المجال ، كتاب الزميل علي زيعور : الفلسفة في الهند . وهو جزء سابق من سلسلة الفلسفة في العالم والتاريخ) .

---

(١) Jacques Chevalier: Histoire de la pensee 1/39,40

القسم الأول

١ ـ البرهمية

هي اسم لنظام ديني اجتماعي سياسي يُعدّ تعديلاً للمذهب الڤيدي . والبرهمية هي الاسم الذي أطلق على الهندوسية (أو الهندوكية) ابتداء من القرن الثامن قبل الميلاد ، وذلك نسبة إلى براهما وهو القوة السحرية العظيمة التي تتطلّب من أتباعها كثيراً من العبادات ، كقراءة الأدعية وإنشاد الأناشيد وتقريب القرابين ، ومن براهما اشتقت كلمة (البراهمة) لتكون علماً على رجال الدين الذين كان يُعتقد أنّهم يتّصلون في طبائعهم بالعنصر الإلهي . إنهم طائفة الكهنة الذين لا تصحّ الذبائح إلا في حضرتهم وعلى أيديهم[1] .

هذا وتقوم الهندوسية على أربعة مبادىء هي :

أ ـ الكرما ، ب ـ تناسخ الأرواح ، ج ـ الإنطلاق ، د ـ وحدة الوجود .

وسنوجز فيما يلي القول في كل مبدأ من هذه المبادىء :

أ ـ الكرما

الكرما هي قانون الجزاء والعقاب الذي تخضع له جميع الأحياء الحرة المختارة في الكون ، . فجميع أفعال البشر الإختيارية لا بد أن تلقى الثواب أو العقاب طبقاً لناموس العدل الصارم . والجزاء يجب التعجيل به في الدنيا . ولكن

---

(١) د . محمد يوسف موسى صفحة ٢١ .

الواقع غير ذلك . فقد لاحظ الهندوسي أن الجزاء قد لا يقع في الدنيا . فالظالم قد يموت وهو يرفل في النعيم دون أن يُقتصّ منه ، والمحسن قد يفارق هذا العالم وهو شقي بائس دون أن يُثاب على إحسانه . ولذلك قالوا بالتناسخ جزاءً وفاقاً[١] .

ب ـ التناسخ

العدل أساس الأشياء ، والجزاء من جنس العمل ، إنْ خيراً فخير أو شرّاً فشر . فإذا مات الإنسان وكان ظالماً لنفسه ، حقّ عليه العذاب ، عذاب التناسخ أو ما يسمونه أيضاً (تكرار المولد) أو (تحوّل الروح) . فالروح لا تفنى بفناء البدن ، وإنما هي تنتقل من جسم إلى آخر لتتمّ لها الطهارة وتتخلص من أدرانها ، فهي إذن باقية[٢] . إنها جوهر خالد صافٍ عالم مدرك تمام العلم والإدراك ما دام منفصلاً عن البدن . فإذا فاض على الجسد واتّصل به اعتكر صفاؤه ونقص علمه . ولذا يقول ساديوعلى لسان البيروني : « إذا تجرّدت النفس من المادة كانت عالمةً ، فإذا تلبّست بها كانت بكدورتها جاهلة . وظنّت أنها الفاعلة وأنّ أعمال الدنيا معدّة لأجلها ، فتمسّكت بها وانطبعت المحسوسات فيها . فإذا فارقت البدن كانت آثار المحسوسات فيها باقية ، فلم تنفصل عنها بالتمام ، وحنّت إليها وعادت نحوها » . وهذه النظرية التي تؤكد أنّ النفس عالمة قبل اتصالها بالبدن تقارب نظرية أفلاطون في النفس وربما كانت أصلاً لها[٣] .

فالعلة في التناسخ أنّ الروح (أو النفس) خرجت من البدن وهي لا تزال لها أهواء وشهوات مرتبطة بالعالم المادي لم تتحقق بعد . كما أنّها خرجت منه وعليها ديون كثيرة للآخرين لا بدّ من أدائها . فلا مناص من أن تستوفي جزاءها في حيوات أخرى وأنّ تتذوّق الروح ثمار أعمالها التي قامت بها في الحياة الحالية[٤] .

ج ـ الإنطلاق

وهو التحرّر والإنعتاق . إنّ أعدى أعدائك نفسك التي بين جنبيك .

(١) د . شلبي : مقارنة الأديان ٤ / ٦٠ ـ ٦١ .
(٢) د . محمد يوسف موسى : تاريخ الأخلاق صفحة ٢٠ .
(٣) محمد أبو زهرة : مقارنات الأديان . الديانات القديمة صفحة ٤٣ . انظر أيضاً : البيروني رائد من رواد الدراسة المقارنة للأديان . بقلم جو نيندار كاور . مجلة الثقافة العالمية (الكويتية) ٣٢ / ٤٠ .
(٤) د . شلبي : مقارنات ، صفحة ٦٢ .

ومعنى النفس هنا الميول والشهوات أو النفس الأمّارة بالسوء . فإذا ما استطاع الإنسان التغلّب عليها قنع بما حصل عليه ولم يطلب المزيد . فإذا تمّ له ذلك وانقطع عن الأعمال وتخلى عن العلائق وما في الدنيا من ملاذ وآثام هي المسؤولة عن تكرار المولد (أو التناسخ) ، نجا من تكرار المولد واتّحد ببراهما . وهذه الحالة هي ما يعبر عنه بالإنطلاق (أو الإنعتاق أو التحرّر) . فالإنطلاق هو الاتحاد ببراهما والإمتزاج به كما تمتزج قطرة الماء بالمحيط العظيم . إنّ هدف الحياة الأسمى هو الإنعتاق من دورات الوجود المتوالية والإندماج في الكائن الأسمى . وهذا الانطلاق لا يُكتسب بالأعمال الصالحات ، لأن هذه الأعمال يُجازى عليها الإنسان من طريق الميلاد المتكرّر كالأعمال الشريرة سواء بسواء[1] . أما من اتّحد ببراهما فقد تجاوز هذه المرحلة وتخطّاها فلم يعد محلاً للثواب والعقاب ، لقد اتّحد ببراهما ، وبمعنى ما صار براهما ! فلا جزاء ولاعقاب في حقه . إنه فوق الجزاء والعقاب .

أجل إن أهم ما يطمح إليه البرهمي هو الإنعتاق من الأسر والإنطلاق إلى الآفاق الرحبة والإندماج في براهما والفناء فيه . إن دستور العقل الهندي للوصول إلى هذه الغاية كان دائماً الزهد والصوم والأرق وتعذيب النفس والحرمان . . . ولا يجوز للهندوسي أبداً أن يتمنى الموت لأن الموت ينقله إلى دورة جديدة من دورات حياته ، بل ينبغي أن يرجو لنفسه الفناء في براهما وهذا حسبه ، بل هذه مُنية المنى وغاية الطلب وسعادة السعادات !

(من أجل ذلك حفلت حياة كثير من الهنود بالبؤس ومحاربة الشهوات والتسوّل وتحمّل الآلام ، والإمتناع عن أكل اللحم وتجنّب الحلوى والطيّبات من الرزق والنساء . كما أوجبوا السير على الأرض بحذرٍ شديد وتخفيف الوطء حتى لا يدوس الإنسان برجليه كائناً حيّاً . وإذا شرب الماء فليحذر أن يبتلع نَسَمَة .)

د ـ وحدة الوجود

هذا المبدأ الأخير من فلسفة الهندوس وعقائدهم وثيق الصلة بالمبادىء الثلاثة السابقة . فهذه المبادىء جميعاً مترابطة وثيقة الصلة بعضها ببعض ، ولا

---

(١) حبيب سعد : أديان العالم الكبرى ، صفحة ٣٣ نقلاً عن د . أحمد الشلبي المصدر المذكور سابقاً صفحة ٦٥ .

ينسلخ بعضها عن بعض . فالإنسان منبثق عن الله ومن الممكن أن يعود إلى الإتحاد بالله . وفي الڤيدا نجد إيضاحاً للصلة بين الكون وبراهما ، مما أدى إلى اعتقادهم بوحدة الوجود . وهاك موجزاً للخطوات التي قادتهم إلى القول بوحدة الوجود . فقد كان الناس يؤمنون أولاً بأن في العالم قوة عظيمة يجب التقرّب إليها بالعبادة والقرابين ، وكانت هذه القوّة تُسمّى براهما . وفي مرحلة لاحقة لم تعد القرابين المادية ضرورية ، بل حلّ محلّها مراقبة الظواهر الكونية والتقرب إليها بأنواع القرابين كالشمس والنار والهواء . وفي مرحلة ثالثة راقب الإنسان نفسه وتصورها قرباناً يأخذ بيده إلى براهما . وفي المرحلة الأخيرة تجرّد الناس عن تصوّر القرابين وأخذوا يراقبون أنفسهم على أنهم القوة الكامنة الكلية المؤثرة . ثم وصلوا من التمثّل إلى العينية ؛ وأقروا أن النفس الشخصية هي عين القوة الحيوية ، الكلية أو البرهما . فصارت الذات المفكرة وموضوع تفكيرها شيئاً واحداً[1] .

وهاك تصويراً آخر لهذا الموضوع ذكره أستاذ هندي متخصص نوجزه فيما يلي :

الحياة نفحة من الروح Atma . فالإنسان ليس بجسده أو حسّه ، لأن هذين ليسا سوى مطيّة تتغير وتموت وتبلى . وإنما الإنسان على الحقيقة هو الروح ، وهي سرمدية لا تبلى وهي غير مخلوقة . والإنسان من حيث روحه جاء على فطرة الله : فكما أن شرارة النار نار فإن الإنسان من جنس الإلّه ، ولا تختلف روحه عن الروح الأكبر إلا كما تختلف البذرة عن الشجرة . وعندما تتجرّد الروح من الظواهر المادية ، تبدأ رحلة العودة إلى الروح الأكبر ، ولذلك يُسمى تخلصها من الجسم (طريق العودة)[2] .

وفي فلسفة الهند الأخلاقية ، المسمّاة (ڤيدانتا) وردت العبارة التالية : إنّ هذا الكون كله ليس إلاّ مجلى للوجود الحقيقي الجوهري ، وإنّ الشمس والقمر وجميع جهات العالم ، وجميع أرواح الموجودات أجزاء ومجالي لذلك الوجود المحيط المطلق . إنّ الحياة كلها أشكال وصور لتلك القوة الوحيدة الأصلية والأصيلة ، كما أن الجبال والبحار والأنهار . . . تفجُّرٌ من ذلك الروح المحيط الذي يستقرّ في سائر الأشياء[3] .

(١) انظر د .شلبي : مقارنة الأديان ٤ /٦٦ .
(٢) المصدر السابق ، صفحة ٦٦ ـ ٦٧ .
(٣) انظر المصدر السابق ، صفحة ٦٧ .

القسم الثاني

٢ ـ الجينية

من المعلوم أن البرهمية ديانة طبقية بطبيعتها . فالبشر ليسوا سواء بل هم متفاضلون بالفطرة . ففي قوانين مانو Manu ـ وهو أحد مشرعي الهندوسية ، أن براهما خلق البرهمي من فمه ، وخلق طبقة ثانية هي الكشتريا من ذراعه ، وخلق الطبقة الثالثة وهي الويشيا من فخذه ، وأما الطبقة الأخيرة ـ وهي الشودرا ـ فقد خلقها من رجله . فكان لكل من هذه الطبقات منزلته على هذا الترتيب[١] . ففي ظل هذا النظام استبد البراهمة وظهر عسفهم وطغيانهم حتى ثارت ثائرة القوم أو بعضهم ، وتمنوا ظهور قائد روحي يضع حدّاً لظلم البراهمة وجورهم . وكان هناك ثائرون من كل الطبقات ، لكن طائفة الكشتريا كانت أكثر الطوائف إحساساً بهذا الظلم لشدّة ما بين الطائفتين من تنافس ونزاع . فقد كانوا لقوّتهم هم المهيَّئين قبل غيرهم لمقاومة طغيان البراهمة وجبروتهم . وهكذا دبّ في نفوس أبناء الكشتريا إحساس بضرورة الثورة ، وقوي هذا الإحساس على مرّ الزمن حتى جاء القرن السادس قبل الميلاد ، فإذا بالإحساس يصبح حقيقة واقعة . فتنشب ثورتان عارمتان في وجه الهندوسية ، يقود مهاويرا أولاهما ويقود غوتاما آخراهما . ويهمّنا الآن ثورة مهاويرا زعيم الحركة الجينية[٢] على أن نتكلم فيها بعد على ثورة غوتاما .

(١) نقلاً عن د . شلبي : مقارنة الأديان ٤ / ٥٥ ـ ٥٦ .

(٢) انظر المصدر السابق ، صفحة ١٠٧ ـ ١٠٩ .

ينتمي مهاويرا إلى أسرة من طبقة الكشتريا التي تهيمن على شؤون السياسة والحرب . وكان مولده سنة ٥٩٩ ق . م . في مدينة بيسارا بولاية بيهار . وكلمة (مهاويرا) معناها البطل العظيم ، ويُدعى كذلك (جينا) أي الظاهر والمتغلّب ، وبهذا الوصف سُمّيت الفرقة كلها لأن مؤسسيها عُرفوا ـ بحكم نشأتهم الهندوسية ـ بقهر شهواتهم والتغلّب على رغباتهم .

ومال مهاويرا إلى الرهبنة والتبتّل منذ نعومة أظفاره . فلجأ إلى الزهد والجوع والتقشّف ، وانصرف إلى الرياضة والمجاهدة ، وعكف على التأمّل والتفكير . وكان يجوب البلاد حافياً يعيش على التسوّل والصدقات التي يجود بها المحسنون عليه . وحرص كل الحرص على ألّا يقتل حيّاً . وكان يراقب نفسه مراقبة شديدة بصمتٍ تام . وما زال كذلك حتى وصل إلى حالة الذهول وعدم الإحساس بما حوله(١) .

لا نظام للطبقات في الجينية وإن كان الجينيون ينقسمون إلى خاصة وهم الرهبان ، وعامة وهم من يؤيّدون النظام من غير الرهبان . ولم تجعل الجينية للرهبان امتيازاتٍ كما فعلت الهندوسية حتى أصبحت مطمع كل طامع . فالرهبنة في المذهب الجيني نظام شاقّ صارم لا قِبَل لكل إنسانٍ به لما يتطلّب من التضحية والبذل والفداء . فإذا كانت الرهبنة عند الهندوس تَعِدُ بمغانم كثيرة فإن ما في الرهبنة الجينية من مغارم كفيل بإبعاد الإنتهازيين وجمهور المنتفعين عن ساحتها . فلا يُقبِل عليها إلا المخلصون الصادقون .

ورغم أن الجينية ثورةٍ على البرهمية ، فإنها لا تزال تحتفظ بالكثير من عقائدها . فهذه الثورة سياسية أكثر منها عقائدية .

ففي الجينية تناسخ كما في البرهمية ، وفيها أيضاً عقيدة الكارما . فالجينية لا تنكر قانون الجزاء ، فالروح التي هي أسيرة الكارما تسعى دائماً للخلاص منها . ولذلك لا يكف الإنسان عن الولادة والموت حتى تطهُر نفسه وتنتهي رغباته . وإذ ذاك يتوقّف عن العمل والنشاط وتتوقف حياته المادية فيبقى روحاً خالداً في نعيم خالد . وهذا الخلود الذي يحصل للروح بعد تخليصها من البدن والمادة يسمّيه

---

(١) المصدر السابق ، صفحة ١١٠ ـ ١١٢ .

الجينيون النجاة ، وهو الإنطلاق بلغة الهندوس والنيرڤانا في البوذية[١] .

النجاة

والنجاة هي غاية الكون ، وهي التطهّر من أدران العواطف والشهوات الحيوانية والتخلّص من قيود الجسد والحياة على هذه الأرض ، ومن تكرار المولد والموت . إنها طور من الوجود يختلف عن أطوار الحياة الدنيا الفانية . وهي الفوز بالسرور الخالد الذي لا يشوبه ألم ولا يعرف الحزن ولا يقلقه همّ والأرواح التي وصلت إلى درجة النجاة ليس لها مطامع خاصة ولا تسعى إلى أهدافٍ تستميلها وتنغّص عليها حياتها ، لقد تخطّت هذه المرحلة وتجاوزتها منذ زمنٍ . لقد مضى الجسم ومضت معه شهواته ورغباته : فالشخص الناجي ليس له بدن ، وبالتالي ليس له طول ولا قصر ولا لون . إنه محيط بكل شيء ، مطلق من جميع القيود ، وهو فوق الخلاء الكوني في سرورٍ دائم ونعيمٍ مقيم . فليس للنجاة نهاية لأنها أبدية سرمدية . ولا تحصل هذه النجاة إلا بعد عبور المرحلة البشرية بما فيها من مشاقّ وعوائق وعراقيل . فلا الوصف يحيط بها ولا الأسماء تعبّر عنها ولا العقول تدركها[٢] .

والسبيل إلى النجاة شاق عسير ، ولا يطمع فيها إلا الخاصة . ولبلوغ هذه المرتبة ينبغي للناسك ألا يُلحق أذى بإنسانٍ أو حيوان ، وعليه أن يدرك أن إحترام الحياة أقدس هو ما عُني به مهاويرا . وعلى هذا يحرُم عليه قتل الحيوان وبالتالي أكل اللحوم . ويبالغ الرهبان الجينيون في الحفاظ على ما فيه روح ، فيمسك بعضهم بمكنسة ينظّف بها طريقه أو مجلسه خوفاً من أن يطأ حشرة فيها روح فيؤذيها أو يقتلها . ويضع بعضهم غشاء على وجهه يتنفس من خلاله حتى لا يستنشق أي نسمة أو يتنفس بذي روح[٣] .

(١) المصدر السابق ، صفحة ١١٦ ـ ١١٧ .
(٢) انظر المصدر السابق ، صفحة ١١٧ ـ ١١٨ .
(٣) المصدر السابق ، صفحة ١١٨ . ولعل هذه القاعدة قد تسربت إلى مدينتنا طرابلس ، مدينة الصلاح والتقوى ! فقد أخبرني أهل التقى أنه كان يعيش فيها إلى عهدٍ قريب رجل صالح مشهور بالورع والعكوف على العبادة يُسمى شيخ النمل ، فكان « رضي الله عنه » لا يمشي بحذاء من النعل بل يلبس قبقاباً من الخشب وعليه أجراس تصلصل حيث يسير ، وبذلك يتفرّق النمل والهوام والحشرات وتبتعد عن الدرب . إنها طريقة جينية « مطوّرة » كفيلة بإثارة إعجاب الجينيين ! وفي ذلك فليتنافس المتنافسون !

ولا بدّ للنجاة كذلك من قهر جميع المشاعر والعواطف والحاجات ، حتى لا يحسّ الراهب بحبّ أو كره ، ولا بسرورٍ أو حزن ، ولا بحرّ أو برد ، ولا بخوفٍ أو حياء ، ولا بجوع أو عطش . والبرهان على ذلك أن يتعرّى فلا يحس بحياء، وينتف شعره فلا يتألّم ، إنه كالصخر الجلمود . لقد بلغ القمة ووصل إلى درجة النجاة فلو أحسَّ بما في الحياة من خيرٍ وشر وألم وحياء وما إلى ذلك ، فمعنى هذا أنه لا يزال متعلقاً بهذا العالم الخسيس خاضعاً لموازينه ومعاييره ، وهذا من شأنه أن يبعده عن بلوغ المقصد الأسمى والمطلب الأعلى . ولما كان من أبرز ما يتجنّبه الإنسان في مخالطته للآخرين العري ، ولما كان من أشد الأشياء على النفس الجوع حتى الموت ، فقد سُميت الجينية دين العري ودين الإنتحار[1] .

إن تطهير الروح هو مطلب أساسي في جميع الأخلاقيات الشرقية بعامة والأخلاقيات الجينية بخاصة ، علماً بأن الأخلاق لم تتبلور حتى الآن في صيغٍ وعلاقات بين الإنسان والإنسان ، أو قلْ هي أخلاق أنانية إذا صحّ التعبير ، بمعنى أن أكبر همّها هو الإنكفاء على الذات والخلو بالذات والقفز فوق ذوات الآخرين إلى ذات الذوات ، الذات العليا مطلب كل ذات والفناء فيها . إنها أخلاق دينية صوفية روحية بعيدة جداً عن الأخلاق السقراطية بل لا تزال بعيدة عن الأخلاق الإنسانية كما شهدناها في مصر القديمة مثلاً . ماذا أقول ؟! إنّ الأخلاق الهندوسية عامة والجينية خاصة متخلّفة عن الأخلاق البدائية التي تنطوي ، كما رأينا في فصلٍ سابق ، على الكثير من الجوانب المشرقة . فكأن القوم في الهند لم يسمعوا بالأخلاق المصرية ولا بالأخلاق البدائية التي ربما كانت تنتشر في بلادٍ كثيرة مجاورة لهم . ولئن سمعوا بها ـ ومن الضروري أن يسمعوا ـ فإنها لم تستطع الولوج في مجال اهتمامهم ، فدونها عقباتٌ وعراقيل تحول بينها وبينهم .فقد استغرقهم التفكير في ذات غير ذاتهم حتى لقد نسوا ذاتهم ! ذلك هو البلاء الكبير !

---

(١) المصدر السابق ، صفحة ١١٨ ـ ١١٩ .

القسم الثالث

٣ ـ البوذية

البوذية كالجينية كانت هي أيضاًرداً على عسف البراهمة واستبدادهم واستئثارهم بالمغانم والمنافع من دون سائر الطبقات الأخرى . فثارت عليهم جميع الطبقات وبخاصة طبقة الكشتريا ، طبقة الأمراء والمحاربين وأهل الحكم والسلطان . فهي كما قلنا سابقاً أقدر على الثورة من الطبقات الأخرى وأكثر تهيؤاً وإعداداً . فنشأت عن هذه الثورة نِحلتان : النِحلة الجينية التي أسلفنا القول فيها والنِحلة البوذية التي سنتحدث عنها الآن .

والبوذية نسبة إلى بوذا (أي الحكيم) مؤسس هذا المذهب . وُلد حوالي سنة ٥٦٣ ق . م . من أبوين نبيلين ، ونشأ كما ينشأ اكفاؤه من أبناء الأسر الكبيرة في اللذائذ والمسرات . ثم تزوج من ابنة أحد الأمراء ، ثم بدا له فترك حياة القصور ليصبح معلماً يفكر في آلام الناس ويداوي أوجاعهم وما يعانون من فقرٍ ومرض وحرمان ، وعكف على حياة الزهد والتأمل عساه تنكشف له أسرار الحياة وطريق النجاة . لذلك يحسن بنا تسميته في هذه المرحلة غوتاما ، أي الراهب ، فقد قام فيها بألوان من الرياضات والمجاهدات لعله تسنح له السوانح وتلمع له اللوامع . ولما لم ينكشف له شيء أدرك بعد سنوات من العذاب أن كل هذا إرهاق لا مبرر له . فعاد إلى حياة الإعتدال في المأكل والمشرب من غير أن يتخلى عن العكوف على التأمل والتفكر . ولم يكد يقرر ذلك وهو في طريقه إلى أهله ليستأنف حياته العادية ، حتى وردته الواردات وانفتحت عليه الفتوحات ، وقد آوى إلى شجرة يتفيأ ظلالها ويستعد لتناول طعامه . لقد عرف الآن الحقيقة ـ أو هذا ما بدا له ـ

واستنار قلبه بها ، ومن هنا تسميته باسم (العارف المستنير : بوذا) وهو اللقب الذي حصل عليه بعد أن انجابت الغمة ، وانكشف الغطاء ، وقام يدعو إلى مذهبه الجديد . فحاولت أسرته أن تثنيه عن ذلك ولكن عبثاً ، فاختار حياة المبشر المتسول على طريقة الهنود ، مع كل ما تنطوي عليه هذه الطريقة من إرهاق وسخرية وحرمان . وهكذا استأنف حياة التقشف والرياضة التي كان قد أعلن الحرب عليها بعدما ثبت له عقمها . وانضم إليه خلقٌ كثير وازداد أتباعه ومريدوه ، ولم تتوقف دعوته يوماً عن التوسع والإنتشار .

لقد غشيته النيرڤانا وما أدراك ما النيرڤانا في النِّحلة الهندية ! تلك هي الإشراقة التي أومضت إليه تحت الشجرة المقدسة ، فانحلت له عقدة الكون وانكشفت له أسراره ودرَّت عليه اللذات العلى ! ولا يصل الإنسان إلى هذه الحالة إلا بقهر النفس الأمارة بالسوء والتحرر من الهوى والقضاء على الأنانية . إنها طور فوق العقل يضيق عنه نطاق النطق ، ومن رام التعبير عن تلك الحال فقد رام مستحيلاً . لقد وصل « المعلم » إلى أعلى درجة من درجات الصفاء الروحاني بتطهير نفسه وإماتة شهواته ، فتخلص بذلك من ربقة الكارما ومن تكرار المولد (التناسخ) .

ومن هنا نستطيع أن نستنشف اتجاه التفكير الخلقي عند بوذا أو البوذيين . فالفلسفة الخلقية عندهم تتلخص في كلمة واحدة هي أنها فلسفة الألم والتبشير بالألم . إنها أخلاق سلبية بكل معنى الكلمة ، حتى لكأن السلبية داء عضال موطنه الهند . إن أهم ما تعمل له البوذية هوالتخلص من تكرار المولد والوصول إلى النيرڤانا .

أجل إن الفلسفة الخلقية الهندية هي فلسفة الألم : فالمولد ألم ، والهرم ألم ، والمرض ألم ، والموت ألم ، والحياة كلها ألم في ألم . هذا هو دستور بوذا في الألم وهذه هي الحقيقة المقدسة عن الألم ، وهذه أخلاق الألم[١] .

(١) من أراد التوسع في هذا الموضوع فليرجع إلى الفصل الرابع من كتابنا (المرجع في تاريخ الأخلاق) .

الفصل الرابع

الأخلاق والفكر الأخلاقي عند الفُرس

مدخل عام :

من أكثر المشكلات التي كانت وما زالت وستبقى تثير الأذهان في كل زمانٍ ومكان هي مشكلة الصراع بين الخير والشر . وقد ثارت هذه المشكلة بحدة في أيام زرادشت (٦٦٠ ق . م . ـ ٥٨٣ ق . م) الذي تجلى له سيد الكون ورب الأرباب أهورا مزدا ، ووضع في يديه الأبستاق ، أي كتاب العلم والحكمة ، وأمره أن يعظ الناس بما جاء فيه . فصدع بالأمر . لكن أحداً لم يعبأ به بل سخر منه الجميع واضطهدوه ، حتى سمع به أخيراً أمير إيراني عظيم ، فأُعجب به ووعده أن ينشر الدين الجديد بين شعبه . وهكذا وُلد الدين الزرادشتي . وقد عاش زرادشت طويلاً حتى أحرقه وميض برق جاء من السماء ورفعه إليه !! .

كان زرادشت رجلاً بعيد النظر عميق الفكر ، نافذ البصيرة ، ماهراً في علم التنجيم ، كما يقول أفلاطون[1] وغيره من قدماء المؤرخين . فقد استنكر

---

(١) لم يرد ذكر زرادشت في مؤلّفات أفلاطون سوى مرة واحدة في محاورة القبيادس . انظر جورج سارطون : تاريخ العلم ٣ / ٢١ من الترجمة العربية الطبعة الثانية ١٩٧٠ . ويدل ورود اسم زرادشت في القبيادس على صحة ما أثبته هنري كوربان من أن زرادشت كان هو القائم على هذا التداخل المميز للعهد المتأخّر من العصور القديمة. ويقول كوربان إنه كان في زمان أفلاطون صلات وعلاقات حضريّة مستمرة بين أثينا والأوساط الفارسية كما يشهد بذلك حال إيدوكس الكنيدي . وهذا مما يؤيّد القول بأن اللاهوت النظري الأفلاطوني إنما هو امتداد لزرادشت (انظر عبد الرحمن بدوي : شخصيات قلقة في الإسلام) مقال هنري كوربان عن السهروردي المقتول ، مؤسّس المذهب الإشراقي . القاهرة ، دار النهضة العربية ، الطبعة الأولى ١٩٤٦ ، صفحة ١٠١ ـ ١٠٢ .

وثنية شعبه ، ونعى عليهم ما انطوت عليه حياتهم الهمجيّة من فسادٍ خلقي ، ووقر في نفسه أن يهبّ لإصلاح هذا الفساد ، وينتصب نبياً مرشداً يهدي قومه إلى عبادة الواحد الأحد أهورا مزدا الذي كان يتوسل به ويتضرع إليه . فهو لم يعبد إلهاً غيره . يدل على ذلك معنى أهورا مزدا نفسه . فإنه مركّب من ثلاث كلمات هي (أهورا) و(را) و(مزدا) ومعناها على الترتيب : أنا ـ الوجود ـ خالق . أي أنا خالق الوجود . وهكذا فالعقيدة الزرادشتية إنما هي في أصلها ديانة توحيد[١] .

قيم خُلقية سامية

ولكي نفهم الله ونعرفه ، يرى زرادشت أنه يجب أن نتعلم كيف نفهم إخوتنا في الإنسانية . وفي طريقنا إلى هذه الفهم وتلك المعرفة نمرّ بعددٍ من معالم الطريق تشير إلى هدفنا . وأهم هذه المعالم : العدالة والتعاون والإيمان والسعي وراء الكمال[٢] .

فالعدالة هي أول مراحل الطريق ، وكانت أحد المبادىء الأساسية التي هدت أفلاطون إلى مذهبه الفلسفي . فقد كان الأغارقة من كبار المعجبين بزرادشت حتى لكانوا يعدونه « من أحكم رجال العالم القديم »[٣] وتنحصر فكرة زرادشت الخاصة بالعدالة في التخلص من الخطأ من طريق المعرفة الصحيحة بكل ما هو صواب . وإن النور الذي يكشف عن هذه المعرفة هو التناسق الأبدي الإلهي « فإذا عرفت الحق عرفت الله »[٤] . وما العالم سوى نسيج حيّ يتجه في طريقه إلى الإله الحق « والإنسان يستطيع أن يتّحد مع الله باتباع الحق الأسمى : قانون العدالة »[٥] .

ويرمز أتباع زرادشت الأتقياء إلى مبدأ العدالة من خلال معرفة الحق بما يسمونه (اللهب المقدّس) ويجب ألا ننظر إلى هذا اللهب على أنه نار مادية ، وإنما هو يعبر عن « وجه الله الذي يسكن قلب الإنسان » .

---

(١) حامد عبد القادر : زرادشت ، صفحة ٨٠ ـ ٨١ .
(٢) د . هنري توماس : أعلام الفلاسفة ، صفحة ٢٢ .
(٣) المصدر السابق ، صفحة ٢٣ ـ ٢٥ .
(٤) المصدر السابق ، صفحة ٢٥ .
(٥) ول ديورانت : قصة الحضارة ٢ / ٤٣١ ود . هنري توماس : أعلام الفلاسفة ، صفحة ٢٥ .

وهكذا فأول معلَم من معالم الطريق إلى معرفة الله هو نور العدالة اللامع الذي تغذيه نار الحق . أما ثاني معالم الطريق إلى الله فهو التعاون . فحياتنا كلها كما يقول زرادشت إن هي إلّا رحلة جريئة نقوم فيها بخدمة بعضنا بعضاً ، أو قل هي خدمة الله بخدمة إخوتنا في الإنسانية . والمعلم الثالث في الطريق إلى الله ومعرفته هو الإيمان « وليس المؤمن إلا ذلك الذي وصل إلى أذنيه صوت الله الهامس » . ويغرس الله في قلب مثل هذا الإنسان غريزة الولاء لبيته ومجتمعه وقطاعه ووطنه والعالم أجمع . وبعبارة أخرى ، ليس الإيمان بالله شيئاً آخر غير حبّ الإنسان لأخيه الإنسان . ولكي تُثبت إيمانك بالله ما عليك إلّا أن تقتدي بحبه « فحرارة الحب ستذيب كل شكّ في قلبك » . ولكن هذا الحب يجب ألا يبقى مجرّد أفكار تدور في ذهنك أو كلمات تلوكها في فمك بل أن يتجسّد أعمالاً تكون لها آثار ونتائج محسوسة في حياة الآخرين[1] .

والمَعْلَم الرابع والأخير في الطريق إلى الله هو السعي للكمال . هذا المَعْلَم هو سيّد المعالم كلها . إنه الغرض من الخليقة ولا معنى للحياة إلا به . إنّ السعي للكمال هو لبّ تعاليم زرادشت فيلسوف فارس الكبير . لقد طال به التأمّل والتفكير في مشكلة هذا العالم المليء بالشرور ، هذا العالم الذي نتمنّى بحرارة أن نعيش فيه بكمال ، فوصل إلى الحل الآتي : علينا وحدنا يقع العبء الكبير ، وهو أن نجعل من هذه الأرض عالماً كاملاً . هذا هو الغرض من وجودنا وهذا هو المعنى العميق لحياتنا[1] .

تلك فلسفة فيها من المبادىء الأخلاقية السامية أكثر مما فيها من الدين . فهي فلسفة تضفي على الحياة الإنسانية من المعنى ومن الكرامة ما لا تضفيه عليها النظرة العلمية التي تقول إنّ الإنسان ليس إلا حشرة دنيئة لا حول لها ولا طَوْل ، أو مجرّد آلة تتحرّك بنفسها . ذلك بأنّ بني الإنسان حسب تعاليم زرادشت ليسوا بيادق تتحرّك بغير إرادتها . وإنما هم كائنات لهم إرادة حرّة ، لأن أهور مزدا يريدهم ليكونوا أشخاصاً يتمتعون بكامل حقوقهم وفي مقدورهم أن يختاروا طريق الهدى والسلامة أو طريق الضلال والغواية . لقد أرادهم ليحاربوا إلى جانبه فيجعلوا من العالم شيئاً أفضل ويقضوا على الشرّ ويوطّدوا أركان الخير[2] .

(١) المصدر السابق .

(٢) المصدر السابق ، صفحة ٢٢ ـ ٢٣ .

(٣) المصدر السابق ، صفحة ٢٣ .

إنّ لكل من النور والظلمة والخير والشر أهميته في هذا الكون . فعالم بغير شرّ يستحيل وجوده كحياة بغير ألم . فلا يجعل الحياة مثيرة إلا عنصر التنافر بين الإثنين ، وإسهامنا في خلق جو متآلف من صميم الفوضى الشاملة . إنّ الصراع بين الخير والشرّ نتيجة حتميّة للإرادة ، وما نحن إلاّ جنود مجنّدون مدى الحياة في هذا الصراع . وتنحصر قيمة الخير في الإنتصار على الشرّ كما تنحصر قيمة الصحة في الإنتصار على الألم . فليت شعري ! كيف نستمتع بالراحة لولا أننا نشقى بالعمل ؟ وكيف نتذوّق جمال النهار لو لم نعرف رهبة الليل ؟ ليس لحياة النور طعم من غير ظلال تنبسط هنا وهناك في بطن النور ! ولا يملأ حياتنا نشاطاً وحماسة إلاّ كفاحنا للخروج من الظلّ إلى النور . وقد عبّر برنارد شو عن هذه الحكمة بقوله : « العطلة الدائمة هي أحسن تعريف لجهنّم » . وبعبارةٍ أخرى : لا يجعل لحياتنا طعماً أو معنى إلاّ روح الظلام والإنكار والفوضى . ويكمن معنى الحياة في محاولتنا هزيمة ظلام العالم وإنكاره والقضاء على الفوضى التي تسود فيه . وقد استوحى غوته هذه الفكرة من زرادشت في تصويره لشخصية مفستوفليس شيطان فاوست (أو أهريمان بلغة زرادشت) حيث جعل منه قوة طبيعتها دوام الإنكار . وبالرغم من هذا يعترف مفستوفليس بأنّ « القوة التي تنتج الخير ، هي التي تدبّر الشر » .

وتبعاً لزرادشت وغوته فإن هذا الرأي لا يخلو من الصواب . إذ إنّ الله يوصينا بأن نبدّل الشر خيراً . وإنّ الله يضع في طريقنا العقبات والعراقيل كي تكون رحلتنا في هذه الحياة أقل رتابة وأكثر إثارة وأغزر قيمة . فالشر ضروري للعالم ضرورة الخير . وقد عبّر القديس أوغسطين عن ذلك حين قال : « يسمح الله بالشر من أجل خير أعظم » . وفي التراث الإسلامي شيء كثير من هذا وكله يستوحي الآية الكريمة : **﴿ وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبّوا شيئاً وهو شر لكم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾**[1] و**﴿ فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً ﴾**[2] .

وعلى ذلك فإن كلاًّ منّا « عاملٌ في بستان الله » فاعمل أيها الإنسان ولنتعاون

---

(١) قرآن كريم ، ٢ / ٢١٦ .
(٢) قرآن كريم ٤ / ١٩ .

أنا وإيّاك والله من وراء القصد لنخرج من الفوضى نظاماً ، ومن القبح جمالاً ، ومن الحرب سلاماً . ونحن جميعاً ـ كما ذكر زرادشت ـ نبني مصيرنا . ويؤكد زرادشت أنه عندما تنتهي مهمتنا في هذه الحياة فسيُدعى كلّ فردٍ منا ليقدم حساباً عن عمله ، إنْ خيراً فخير أو شراً فشرّ . وفي النهاية تندمج مصائرنا المتحدة في نسيج عالَم كامل متآلف نقي . وسينتصر الخير يوماً وسيكون هو الهدف الأخير للشر(١) .

* * *

وهكذا فالباحث في المذهب الزرادشتي في نواحيه كلها يرى بسهولة أنّه مذهب متفائل يؤكد أن النصر سيكون في النهاية لمبدأ الخير ، وحينذاك يعمّ الجميع السلام . لكنه مذهب ليس فيه ما في المذاهب الهندية من نزعات صوفية تدعو إلى أخلاقٍ وفضائل سلبية قاتلة . لقد عجزت الهند عن أن تأتي بالمُثُل الأخلاقية الرفيعة فآثرت البقاء في ضحضاح الفناء وأحلام الفناء ورؤى الفناء . عند الهنود ظَلَّ الدين تصوّفاً وظلّت الأخلاق تصوّفاً ، بل ظلّت الحياة كلها تصوفاً . فماذا عسى أن يكون حصاد التصوف بعد ذلك غير التصوف ؟

هنا في فارس تحول كل شيء إلى أخلاق وإلى سمو أخلاقي حتى الدين والإيمان لا قيمة لهما بغير محبة الآخرين وخدمتهم . لقد انتكست الأخلاق في الهند لتنتعش في فارس وتُبعث خلقاً جديداً . إن المذهب المزرادشتي بما يقوم عليه من كفاحٍ وصراع بين قوى الخير والشر يعترف بحرية الإنسان وقدرته على صنع مصيره . إنه دعوة إيجابية إلى النشاط والعمل لا إلى القعود والكسل ، إلى سدّ ما يفتحه مبدأ الشرّ أو أصل الظلمة من أبواب للفساد والدمار، بل إلى معارضتها بوسائل تمكّن للخير وتهيّىء لملكوته .

ثلاثة واجبات

إنّ الأخلاق الزرادشتية هي الأخلاق الكاملة . تقول الأبستاق : على الإنسان واجبات ثلاثة : « أن يجعل العدو صديقاً ، وأن يجعل الخبيث طيباً ، وأن يجعل الجاهل عالماً »(٢) . وأمّ الفضائل هي التقوى . ويأتي بعدها الشرف والأمانة

(١) د . هنري توماس : أعلام الفلاسفة ، صفحة ٢٥ ـ ٢٨ .
(٢) نقلاً عن ول ديورانت ، قصة الحضارة ، ٢ / ٤٣٢ .

في القول والعمل ، والوفاء بالدَّيْن واجب مقدّس أو يكاد يكون مقدّساً . ولما كانت التقوى أعظم الفضائل فإنّ أوّل ما يجب على الإنسان فعله في هذه الحياة أن يعبد الله بالطهر والتضحية والصلاة[1] . فإذا ما وُهب الفارسي حياة التقى والصدق ، كان في وسعه أن يلقى الموت برباطة جأش وبلا خوفٍ ولا وجل ، ولا سيّما إذا كان جندياً أميناً يدافع عن قضية أهورا مزدا .

إنّ الإخلاص للبلاد جزء لا ينفصل عن أخلاق الفرس القدماء . فمما يجب أن نذكره لهم مقروناً بالثناء والتقدير أن من العسير علينا أن نجد في تاريخهم فارسيّاً واحداً قد استؤجر مرة ليحارب الفرس ، على حين أن أي إنسان كان يسعه أن يستأجر اليونان ليحاربوا اليونان[2] فهم قوم ذوو أخلاق سامية وآداب رفيعة ، ويتحلون بالصراحة والكرم وحفظ الود وسخاء اليد ، ويراعون آداب المجالس ويحرصون عليها . وكانوا إذا تقابل منهم شخصان متساويان في الرتبة تعانقا وقبّل كل منهما الآخر في شفتيه . فإذا قابل أحدهم من هو أعلى منه منزلة انحنى له انحناءة كبيرة تُشعِر بالخضوع والإحترام ، وإذا التقى من هو أقلّ منه قدّم له خدّه ليقبّله . فإذا قابل أحد السوقة اكتفى بإحناء رأسه . وكانوا يستنكرون تناول شيء من الطعام والشراب على قارعة الطريق ، كما كان يسوؤهم أن يبصق الإنسان أو أن يتمخّط أمام الناس . وكانوا يعدّون النظافة أكبر النعم لا تفضلها إلّا الحياة نفسها ، ويرون أن الأعمال الطيبة لا قيمة لها إذا صدرت عن أيدٍ قذرة « لأن الإنسان إذا لم يقضِ على الفساد فإنّ الملائكة لا تسكن في جسمه »[3] . وكان من المبادىء المقرّرة عندهم ألّا تقوم مدرسة بالقرب من السوق حتى لا يكون ما في هذه السوق من كذبٍ وسبابٍ وغشّ سبباً في إفساد أخلاق الصغار . هكذا كان تعليم أبناء الطبقات الموسرة . أما أبناء الطبقات غير الموسرة فقد كان تعليمهم مقصوراً على ركوب الخيل ورمي النبال وقول الحق[4] .

إنّ كلّ شعب يتصوّر نفسه في مركز العالم ، ولا أحد يذهب به سوء الظن بنفسه إلى حدّ الإعتقاد بأنه على الحافّة . فجميع الشعوب إمّا أنها من سلالة الآلهة

---

(١) المصدر السابق .
(٢) المصدر السابق ، صفحة ٤٣٩ .
(٣) نقلاً عن المصدر السابق ، انظر نص صفحة ٤٣٧ ـ ٤٣٩ .
(٤) المصدر السابق ، صفحة ٤٤٣ .

أو أنها في المركز وبقية الأمم تدور في فلكها . ولم يخرج الفرس عن هذه القاعدة . يقول هيرودوت في كلامه على الفرس : « إنهم يرون أنهم خير الناس قاطبة من جميع الوجوه »[1] . وهم يعتقدون أن غيرهم من الأمم إنما تدنو من الكمال بقدر ما يقرب موقعها الجغرافي من بلاد فارس وأن « شر الناس أبعدهم عنها »[2] .

فضل الدين الزرادشتي في تهذيب الأخلاق

وهم على الجملة ، شاهد حي على فضل الدين الزرادشتي وما له من أثر عظيم في تهذيب الأخلاق والرقي بها ، فهو دين رائع أقلّ وحشية ونزعة حربية وأقل وثنيّة وتخريفاً من الأديان المعاصرة له . وكان خليقاً بألاّ يُقضى عليه ذلك القضاء العاجل .

إنّ مذهب زرادشت مذهب مشرق منفتح يربط السعادة بالنشاط والحركة والحرث والنسل ، ولا يطيق أبداً الخمول والسلبية والإستسلام للقدر . فقد كان من الأسئلة التي ألقاها زرادشت على أهورا مزدا : أي إلهي خالق العالم المادي ـ إلهي القدوس ! ما هو المكان الثاني الذي تبلغ فيه سعادة الإنسان غايتها ؟ ويجيبه أهورا مزدا عن هذا قائلاً : إنه المكان الذي يشيد فيه أحد المؤمنين بيتاً في داخله كاهن ، وفيه زوجة صالحة وأطفال ، وماشية يكثر نسلها . وكلما زاد نسلها زادت التقوى عند أهل هذا البيت ، وزادت فيه السعادة حتى يكون الكلب سعيداً أيضاً[3] .

يأمر الأوستا (أو الأبستاق)بالعناية بالجسد والعمل على تقويته وحفظ صحته ، ويوصي بالعناية بالأرض وزرعها والماء ونظافته . إنه يحرّم ترك الأرض بوراً ، ويدعو المؤمن إلى زرعها ولو كان الثمر لغيره . والفضيلة ـ بحسب الأوستا ـ لا تقوم على الزجر والأمر والتخويف والعقوبة ، ولا على الوعد بالجزاء والنعيم والمكافأة . إنّ أساسها الحياة الطيبة والمعيشة المستقرة ، والنفس الهادئة ، والحاجة المادية المكتفية ، وحب العمل ولو لم يجنِ منه العامل فائدة مباشرة .

سأل زرادشت ربّه سؤالاً آخر : « ما هي خير الطرق لإعلاء دينك ؟ »

---

(١) نقلاً عن المصدر السابق ، صفحة ٤٣٢ .
(٢) نقلاً عن المصدر السابق .
(٣) المصدر السابق ، صفحة ٤٤١ والمصدر التالي صفحة ٢٨ .

فأجابه : يا زرادشت إنها زراعة القمح . فمن يزرع القمح إنما يزرع الإستقامة . فالقمح يتقدم بدين مزدا مئة خطوة ، ويرضعه من ألف ثدي ، ويقوّيه بعشرة آلاف هبة »[1] . وورد في الأوستا أيضاً : « حين تبذرحبوب القمح تذعر الشياطين ، وحين تنبت تضطرب وتمرض ، وحين ترى سيقانه تبكي ، وحين ترى السنابل تُدْبِر . إنها تولي الإدبار فراراً من البيت الذي يُخزن فيه القمح »[2] . .

وقد أمر زرادشت أيضا برعاية الحيوان والرفق به . وكان يقدّس الثور والبيت وناره وأولاده ، والأرض التي تُنبت الزرع ، وأرض المستنقعات التي يجب استصلاحها وزراعتها . فدين زرادشت هو دين الحياة والسعادة في الدنيا والخصب والعمل[3] .

النار التي يقدسها زرادشت لها معنى رمزي

والنار التي يقدسها زرادشت ويقدس هياكلها ليست إلاّ رمزاً لتلك الشعلة المقدسة التي يحملها الإنسان في قلبه والتي يجب أن يحرص على اشتعالها كما يحرص كهنة النار على اشتعالها في بيوت النيران . وحرص الإنسان على شعلة قلبه المقدسة يجب أن يكون مساوياً لحرصه على الحياة نفسها[4] .

وهو يدعو إلى عبادة إلَهٍ واحد والتضرع إليه عند طلوع الشمس ووقت الظهيرة وعند الغروب . أمّا العبادة الصادقة فهي الفضائل وأهمها : الصدق والوفاء بالعهد والإحسان . فكل من يبذل العون للمحتاج ويطعم البائس الفقير يهبه الله القوة ويمنحه الخير والبركة .

ويا لحسرة الهند وبراهمتها وقدّيسيها ! فليس على المؤمن ـ في دين زرادشت ـ لكي ينال رضوان الله ونعيمه ، أن يزهد في الحياة الدنيا وأن ينصرف عن نعيمها ومتاعها . فما دام يعمل الخير ويتمسّك بالفضائل ويتجه إلى الله بالدعاء ، فقد ضمن لنفسه الجنة . ويجب ألا ينسى نصيبه من الدنيا . بل عليه أن

(١) نقلاً عن محمودالشرقاوي : الدين والضمير ، صفحة ٢٧ .
(٢) نقلاً عن المصدر السابق .
(٣) المصدر السابق ، صفحة ٢٨ .
(٤) المصدر السابق .

يعمل ويكدّ ويستمتع بما فيها من طيّبات ما وسعه الإستمتاع . . . وللمؤمن بالزُرادشتية أن يتزوج بأكثر من واحدة إذا شاء(١) . بل لقد أباح زرادشت للرجل أن يتزوج بنته وأخته وأمه . وقال : إن أولاد الرجل من أمه أعظم منزلة وأكثر قداسة من أولاده الآخرين(٢) .

هذه أهمّ تعاليم زرادشت الأخلاقية التي قضى حياته في الدعوة إليها والتي ازدهرت في فارس أكثر من أحد عشر قرناً . وكانت دين الدولة الرسمي حتى دخلت فارس في الإسلام على عهد عمر بن الخطاب . وأهمّ شيء في هذه التعاليم تفاؤلها . فإن أهورا مزدا هو جماع قوى العالم التي تعمل للحقّ والخير ، ولا سبيل إلى الأخلاق الفاضلة إلاّ بالتعاون مع هذه القوى . ذلك أن قوى الشر ستُهزم في نهاية المطاف بعد أن يمرّ العالم بأربعة عهود طول كل منها ثلاثة آلاف سنة يسيطر عليه فيها على التوالي أهورا مزدا وأهريمان . وبعدئذٍ ينتصر الحق في كل مكان ويزول الشر ويُجتث من أصوله . ثم ينضم الصالحون إلى أهودا مزدا في الجنة ، ويسقط المجرمون في هوة مظلمة لا طعام لهم فيها إلا السم الزعاف .

ومهما بلغ من سمو تعاليم زرادشت الأخلاقية ، فإنّ هذه الأخلاق ظلت أخلاقاً عملية . إنه لم يتمكن من وضع نظرية في الأخلاق عميقة على طريقة فلاسفة اليونان . إنه لم يكن صاحب نظرية أخلاقية ، إنه صاحب تعاليم أخلاقية . فالنظرية الأخلاقية هي وليدة النظر الفلسفي المستقل القائم على نتاج العقل المستقلّ . وهذا ما لم يتحقق في فارس القديمة ، لقد كان زرادشت داعية جهير الصوت للإقتحام والجرأة ، لكنه لم يكن صاحب آفاقٍ فكرية تؤهّله للإبداع الفلسفي . الفلسفة تحتاج إلى التحليل والتركيب والرؤية الكليّة الشاملة . وهذا ما لم يُكتب للمعلم فضلاً عن أن يُكتب لتلاميذ لا يدور في ذهنهم أن يخرجوا على فكر المعلّم . أنا لم أسمع بنظرية عميقة في الأخلاق دون أن يكون صاحبها فيلسوفاً ، أنا إنما سمعت ـ بل سمعت كثيراً ـ بتعاليم أخلاقية مبذولة في كل زمان ومكان وهي تعاليم تتفاوت في سموّها ، ولكنها لا تخرج عن نطاق المواعظ والحكم .

---

(١) حامد عبد القادر : زرادشت الحكيم ، صفحة ٩٩ .

(٢) نوفل نوفل : سوسنة سليمان في أصول العقائد والأديان ، صفحة ٦ . وديورانت ، قصة الحضارة ، ٢ / ٤٤١ .

الفصل الخامس

الأخلاق والفكر الأخلاقي في الصين

قبل أن نودع الشرق في رحلة طويلة إلى بلاد اليونان ، نكتشف شعباً عريقاً أ عظيماً اجتمعت له كل الصفات التي ستجد تحقيقها الكامل في بلاد اليونان . رقد أنجب هذا الشعب حضارة أصيلة قوية هي من الشرق الأقصى وتاريخه بمنزلة الحضارة اليونانية الرومانية من أوروبا وتاريخها . ولهذه الحضارة جذور عميقة من التاريخ . وعلى نقيض حضارة مصر والهند وفارس التي كانت لها علاقات متصلة مع عالم البحر الأبيض المتوسط والغرب ، فإنّ الحضارة الصينية قد تطوّرت بعيداً عنهما . فقد كان يكتنف الصين أكبر المحيطات وأعلى الجبال وصحراء من أوسع صحارى العالم . لهذا استمتعت بلاد الصين بعزلة فريدة كانت هي السبب في حظها النسبي من السلامة والدوام والركود وعدم التغيير ، وهو حظ عظيم إذا قيس إلى حظ غيرها من الأمم والشعوب[١] . فخلافاً لطباع الهند المتعددة والمتقلقلة ، والتي يناقض بعضها بعضاً ، نجد في الصين تلاحماً متيناً يلفت الأنظار . وهذا التلاحم يستند بقوة إلى وحدة سكان الصين العرقية . وغدا نظامها الإقطاعي ثم الإمبراطوري عامل وحدة أيضاً في ثقافتها ونظمها ، إذ فرض عليها مجموعة متناسقة من الأفكار والتقاليد[٢] .

وتهيمن الروح الصينية على هذه النظم والآراء . وهذه الروح تعشق الدقة

(١) ول ديورانت : قصة الحضارة ، ٤ /١٢ .
(٢) أندريه إيمار وجانين أوبوايه : تاريخ الحضارات العام ، ١ / ٥٧٤ .

وتقدرها حق قدرها في المكاييل والموازين والمقاييس وفي التواريخ والأرقام ، في المسافات وفي المبادىء العلمية . والنظام الصيني هو أساس الحرية . والسيطرة على الذات هي في الحقيقة حكمة وطمأنينة في الحياة(١) .

أما وقد وصلنا الآن إلى الصين ، وقبل أن نحط الرحال في بلاد اليونان ، فنحن على موعد مع حدث فلسفي كبير - إذا صحّ التعبير - وهو بداية انفصال الأخلاق عن الدين . فالأخلاق حتى الآن هي أخلاق عملية مختلطة بعناصر كثيرة لا شأن لها بالأخلاق كالدين والسياسة والتصوّف . لكننا سنشهد منذ الآن البدايات الأولى للتفكير النظري في الأخلاق ، وسيترسّب عن ذلك شذرات يكفي لعقل فذ عملاق كالعقل اليوناني أن يلتقطها لتثير فيه شتى المواقف والمعاني والتفاعلات، وتفجّر فيه طاقات لا تزال الإنسانية حتى الآن تستمدّ منها القوة والحركة . فنحن نجد في الفكر الصيني عبقرية حقيقية لتكييف الإنسان متجهة نحو الأخلاق ونحو تذوّق واقعي للأشياء - وإذا كانت الصين قد عرفت تجريبية الحِرَف الضرورية لواقع الحياة، فإن الحكيم الصيني قد احتقر بلا تردّد جميع إيحاءاتها المادية كي يقوم ببناء فلسفته . فالحكمة الصينية لا تعثر فيها على دناءة منفعية ، إنها دائماً ذات خُلقية روحية . . فإن لاو - تسي ، بطل الزهد والسائح في آفاق المطلق ، لا يغيب أبداً عن شعب كنفوشيوس . وقد عرف هذا الشعب كيف يحوّل الخرافة إلى حكمة إجتماعية وسياسة حقيقية وإلى سحر للطبيعة والأعداد . لقد خلقت الصين أشكالاً من الحكمة والقيم الخُلقية الرائعة ومثلاً أعلى للعقل . أمّا النهج العلمي العام فقد كان أمره منوطاً بالإغريق . فبهم سيحقّق الفكر نُقلته النوعيّة من دقة الواقعية الملموسة والتشوق إلى معرفة الواقع ، إلى عبقرية التجريد وبناء البروج العاجية . ولا أدلّ على سمو القوم من أنهم سبقوا السفسطائية وسقراط وأفلاطون والنزعة العقلية اليونانية عامة والنزعة المادية الحديثة في تفسير الأخلاق خاصة . بل لقد سبقوا أيضاً انتفاضة العقل على العقل . ولذلك سنلقى كنط الصيني قبل كنط الألماني بأكثر من ألفي عام . وسنشهد حضور جان جاك روسو وهوبز ولوك في الصين قبل حضورهم في أوروبا بقرونٍ طويلة . وما كان لحكماء الصين أن يبلغوا مبلغهم من الفلسفة الخُلقية لولا مبلغهم المناظر له من الفلسفة العقلية . فلا أخلاق نظرية بغير تفكير نظري سابق

(١) المصدر السابق .

عليها أولاً . فمن كانت له فلسفة في الكون والحياة والمصير ، كانتْ له بالضرورة فلسفة في الأخلاق النظرية ، وإلّا بقي في حظيرة الأخلاق العملية لا يتجاوزها إلى فكرٍ أو رأي . ولقد تجاوز حكماء الصين حدود الأخلاق العملية إلى آفاق الأخلاق النظرية لأنهم شبّوا عن الطوق واستقلّوا بالرأي والفكر والنظر . لقد كان للهند حظها الوافر من التفكير النظري ، ولكنها لم تحسن المضي فيه إلى آخر الشوط ، لأنها غارقة في أوهام التصوف وهواجسه وهمومه . لقد أثقل التصوف خطاها ورانَ على قلبها . لقد غشيتها غاشية التصوف حتى أُجهضت فيها كلُّ محاولة للتمرّد على التصوف ، فتآكل الفكر وبقي التصوف ، خلافاً للصين التي أحيت الفكر وأنشبت أظفارها في التصوف .

هل يستويان مثلاً ؟!

فكما أن الهند كانت وما تزال أرقى بلاد العالم في الدين والتصوف الديني حتى غشّاها كل منهما ما غشّى ، فإنّ بلاد الصين لا ينازعها في العالم القديم منازع في الفلسفة الإنسانية غير الدينية حتى أوفت على الغاية بل تجاوزت كل غاية .

• قلت سابقاً إنّ الأخلاق عند الصينيين قد انفصلت عن الدين . فإنّ من أخصّ خصائص المفكرين الصينيين أنهم لا يتكلمون على الأولياء والقديسين ، وإنما هم يتكلمون على الحكماء ، وهم لا يتحدثون عن الصلاح والتقوى بقدر حديثهم عن الحكمة . فليس الرجل المثالي في نظر الصينيين هو العابد الخاشع الذي يأخذ نفسه بالصلاة والتكاليف والرسوم ، وإنما هو صاحب العقل الناضج الهادىء الذي يعيش عيشة البساطة والسكون وإنْ كان خليقاً بأن يشغل مكاناً سامياً في العالم . ذلك بأن السكون هو الصمت وهو بداية الحكمة ، والحكيم لا يتكلم حتى على الداو والحكمة، لأن الحكمة لا تُنقل إلّا بالقدوة والتجربة لا بالألفاظ « فإن الذي يعرف [الداو] (الطاو أو طريقة الحياة الحكيمة) لا يتحدث عنها ، والذي يتحدث عنها لا يعرفها ، والذي [يعرفها] يقفل فاه ويسدّ أبواب خياشيمه » . والحكم شيمته التواضع . فإنْ لم يتواضع كانت حكمته ثرثرة لفظية يبغي بها التكايس على الأقران . فالحكيم الحقيقي إذا عرف أكثر مما يعرف غيره من الناس لا يفوته أن يخفي ما يعرفه . إنه لا يسعه إلا أن يقلّل من سناه ولألائه ويلائم بين سناه هو وقتام غيره . وهو يتفق مع السذّج أكثر منه مع العلماء . وهو لا يعبأ بالثروة أو السلطان ولا تزعجه المعارضة التي يبديها الأحداث المبتدئون ،

فهي غريزة طبيعية فيهم . وليس لشيء عنده من قيمة . فهو أكبر من أن يتأثر بالمكاسب أو الخسارة أو النبل أو الإنحطاط ، وهو أنبل إنسان تحت قبة السماء[1] .

إن تاريخ الصين حافل بالعبقريات الفلسفية والأخلاقية والأدبية التي أغنت تراث هذه الأمة . ولكننا لن نعرض هنا بطبيعة الحال إلا لبعضها ممن كان لأصحابها بروز واضح في ميدان الأخلاق .

أ ـ لاو ـ تسي Lao- Tseu

حكيم غامض ، أسس مذهب الطاويّة Taoism ومعنى هذه الكلمة هو الطريقة ، أي طريقة الحياة الحكيمة ، وهي نبذ العقل وجميع مشاغله والعكوف على حياة العزلة والخلوة والتأمّل الهادىء في الطبيعة . وليس العلم في هذه الطريقة فضيلة ، إنما الفضيلة تكون في الإبتعاد عن العلم ، فإن السفلة ما زاد عددهم إلا يوم أن انتشر العلم . وليس العلم هو الحكمة ، فلا شيء أبعد عن الرحل الحكيم من « صاحب العقل » . وشرّ أنواع الحكومات التي يمكن تصورّها حكومة الفلاسفة ، فمن شأن هؤلاء دائماً إقحام النظريات في كل نظامٍ طبيعي . إنهم أقدر على إلقاء الخطب والإكثار من الآراء منهم على العملِ الجدي الرصين المنتج . إنّ المهرة لا يعرفون الجدال ، والمجادلون لا يحسنون شيئاً . وإذا ما نبذنا المعارف نجونا من المتاعب . والحكيم الحكيم هو الذي يدع الناس وشأنهم بلاّ علم ولا شهوة ، فالعلم يمنع من الإقدام على العمل ، ناهيك بالشهوة . إنّ القدماء الذين أظهروا براعتهم في العمل بما في (الداو) لم يفعلوا ما فعلوه لينيروا عقول الناس ، بل ليجعلوهم سذّجاً جهلاء . . . والصعوبة التي يواجهها الحكام إنما تنشأ من كثرة ما عند الناس من العلم . فمن حاول حكم دولة من الدول بما أُوتي من علم وحكمة ، جار بها عن القصد وأفسد شؤونها ، أمّا من لا يفعل هذا فهو الحفيظ عليها ، إنه نعمة لها وبركة[2] .

الحياة وفق الطبيعة

إن لاو ـ تسي يدعو إلى الحياة وفق الطبيعة ، بلا تكلف ولا اصطناع .

(١) قد لا تشفي هذه العجالة القصيرة لمن يطلب المزيدلا غله . لذلك نحيله على الفصل الخامس من كتابنا السالف الذكر .
(٢) ول ديورانت : قصة الحضارة ، ٤ / ٣٠ ـ ٣٢ .

ولذلك فإن صاحب الفكر خطر على الدولة لانه يرغب في إقامه المجتمع على قواعد هندسية دقيقة صارمة ، دون أن يعلم أن هذه القواعد من شأنها أن تقضي على ما يتمتع به المجتمع من حريّة وحيوية وما في أجزائه من نشاط وقوة . أما الرجل البسيط الذي يعرف من تجاربه ما في العمل الذي يتصوّره ويقوم به بكامل حريته من لذة وما ينتجه من ثمرة ، فهو أقلّ من العالم خطراً على البلاد إذا تولّى زمام أمرها . فهو لا يضع للناس من الأنظمة والقوانين إلا بقدر الحاجة بلا تنطّع ولا تعقيد ، ويقودها في طريق البساطة العادية التي تسير فيها الحياة سيراً متّئداً حكيماً على النهج الطبيعي الخالي من التفكير والتكلّف ؛ بل حتى الكتابة نفسها يهمل أمرها في هذا النمط من الحكم لأنها أداة غير طبيعية تؤول إلى الشر . فإذا تحرّرت غرائز الناس من القيود التي تفرضها الحكومات ، دفعت عجلة الحياة في الطريق البسيط الصحيح . وفي هذه الحال تقلّ المخترعات التي لا تفيد إلا في زيادة ثروة الأغنياء وتسلّط الأقوياء ، وتنمحي القوانين والكتب والصناعات ، ولا يبقى إلّا التجارة القروية[١] .

بين لاو ـ تسي وروسو

لذلك يفرّق لَوْ ـ دزه (لاو ـ تسي) بين الطبيعة والحضارة كما سيفعل روسو من بعده بعشرين قرناً أو يزيد . فالطبيعة في نظره هي النشاط التلقائي وانسياب الحوادث العادية على أعنّتها ، وهي النظام العظيم الذي تسير عليه فصول السنة وتتبعه السماء ؛ وهي الدّاو (الطاو) والطريقة المجسّمة التي تتجلى في كل مجرى وكل صخرة وكل نجم ، وهي قانون الأشياء العادل الذي لا يحفل بالأشخاص ، ولكنه مع ذلك قانون معقول يجب أن يخضع له قانون السلوك إذا أراد الناس أن يعيشوا بحكمة وسلام . وقانون الأشياء هذا هو الدّاو أو طريقة الكون ، كما أن قانون السلوك هو الدّاو أو طريقة الحياة . هناك في الظاهر داوّان : الدّاو بمعنى قانون الأشياء والدّاو بمعنى قانون السلوك ، ولكنهما في الحقيقة داوٌ واحد ، لأن الحياة في تناغمها الأساسي السليم إنما هي جزء لا ينفصل عن تناغم الكون . وفي هذا الدّاو الكوني تتوحّد جميع قوانين الطبيعة لتكوين مادة الحقائق كلها التي سيقول بها أسبينوزا ، وفيه تجد كل الصور الطبيعية على اختلاف أنواعها مكانها

(١) المصدر السابق ، صفحة ٣٢ .

الصحيح ، وتجتمع كل المظاهر التي تبدو للعين مختلفة متناقضة ، وهو الحقيقة المطلقة التي تتجمّع فيها كل الخصائص والمعضلات لتتألّف منها وحدة هيغل الشاملة .

ويقول (لاو) : إن الطبيعة قد جعلت حياة الناس في الأيام الخالية بسيطة آمنة ، فكان العالم كله هنيئاً سعيداً ، ثم انتحل الناس « المعرفة » ففقدوا الحياة بالمخترعات ، وخسروا كل طهارتهم الذهنية والخلقية ، وشرعوا يؤلفون الكتب ، فنشأ من ذلك كل ما أصاب الناس من شقاء ، وجرت من أجل ذلك دموع الفلاسفة . فإنما العاقل إذن من ينأى بنفسه عن هذا التعقيد وهذا التيه المفسد للذهن ، تيه القوانين والحضارة ، ويختفي بين أحضان الطبيعة ، بعيداً عن المدن والكتب والموظفين المرتشين . إنّ سرّ الحكمة كلها هو الطاعة العمياء لقوانين الطبيعة ، ونبذ أفانين الخداع وأساليب العقل والجري على سنن الطبيعة الصافية ، وتقليدها بتواضع . أجل هنا يكمن سرّ الحكمة كلها وسر القناعة الهادئة ، وهي وحدها التي يجد فيها الإنسان السعادة الأبدية .

ب ـ كنفوشيوس

لقد اشتدت الحركة الفكرية منذ أواخر القرن السادس قبل الميلاد في بلاد الصين . إذ ظهر في هذه الحقبة الرجل الذي سيكون له أكبر الأثر في الحياة الصينية العقلية : كنفوشيوس (كونغ ـ فو ـ تسيه[1] Koung- fu- Tseu) وقد وُلد سنة ٥٥١ ق . م . بمدينة تشو ـ فو . ولما بلغ الثانية والعشرين من عمره أخذ يشتغل بالتعليم واتخذ داره مدرسة له ، وكان يتقاضى من تلاميذه ما يستطيعون أداءه من الرسوم ولو قلّ . وكانت الموادّ التي تشملها برامج التدريس ثلاثاً : التاريخ والشعر وآداب اللياقة . ومن أقواله : « إنّ أخلاق المرء تخلقها القصائد وتنمّيها المراسم[2] وتعطّرها الموسيقى »[3] .

وكان تعليمه كتعليم سقراط شفهياً بلا تدوين . ولذلك فإنّ أكثر ما نعرفه من أخباره قد وصل إلينا من طريق أتباعه ومريديه ، وهذا مما لا يوحي بالثقة .

---

(١) كلمتا فو ـ تسي معناهما الأستاذ المبجل وأما كونغ فهي اسم الأسرة .

(٢) أي آداب المقالات والمجاملات .

(٣) نقلاً عن ول ديورانت : قصة الحضارة ، ٤ / ٤١ .

وكان يوصي تلاميذه بألاّ يهاجموا قط غيرهم من المفكرين وألاّ يضيعوا وقتهم في إفحامهم ودفع حججهم وتسفيه أقوالهم .

فيلسوف واقعي على خلقٍ عظيم

لم يكن كنفوشيوس من دعاة إنكار الذات كما كان أستاذه لاو ـ تسي . فبدلاً من الدعوة إلى طابع هزيل من إنكار الذات كان يغرس في نفوس قومه مثلاً أعلى من العزّة والكرامة الشخصية . كذلك لم يكن يؤمن بسياسة « من ضربك على خدّك الأيمن فأدر له الأيسر » رغم أنه من أعظم دعاة المحبة ، فهو من هذه الناحية أقرب إلى الإسلام منه إلى المسيحية : ﴿ **فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم، واتقوا الله**﴾، ﴿**وأن تعفوا أقرب للتقوى ، ولا تنسوا الفضل بينكم ، إن الله بما تعملون بصير** ﴾[1] . فقد كان واقعياً حريصاً على كرامة أتباعه ومريديه ، لأن المذلّة لم تكن يوماً قيمة خُلقية . إنه لم يكن يرغب فيما يرغب فيه لاو ـ تسي ، وهو أن يقابل الشر بالخير . فلما أن سأله أحد تلاميذه : « ما قولك في المبدأ القائل بأن الإساءة يجب أن تُجزَى بالإحسان ؟ » أجاب كنفوشيوس بحدّة لم يألفها تلاميذه : « وبأي شيء إذن يُجزَى الإحسان ؟ لتكن العدالة جزاء الإساءة وليكن الإحسان جزاء الإحسان »[2] . لقد كان يقول دائماً : أحبّوا أصدقاءكم ولكن أدّبوا أعداءكم ولا تكرهوا هؤلاء الأعداء ؛ فالكراهية لا تولّد إلا الكراهية . لا تردّوا الكراهية بالمحبة لأن محبّتكم هذه ستُحمل محملاً سيئاً وستفسَّر بأنها محاولة منكم لستر ضعفكم ، بل إنها ستشجع أعداءكم على إبداء المزيد من الكراهية لكم . من سوء خُلق المرء أن يثأر إذا ما أصابه أذى ، لكن من الحماقة أيضاً أن يتجاهل الأذى ويصفح عمّن أساء إليه . فقلّبوا الأمر على وجوهه لتصلوا إلى قرارٍ عادل وليكن سلوككم طبقاً لهذا القرار ، على أن ترعوا كرامتكم الشخصية دون أن تنسوا حقوق أعدائكم »[3] . »

إن كنفوشيوس لا يوصي بالإفراط في المحبة وإلا فمن الصعب القضاء على جرثومة الكراهية : «إن المحبة يمكن أن تتغلّب على الكراهية ، كما يمكن أن تتغلّب

---

(١) قران كريم ٢ / ١٩٤ و٢ /٢٣٦ .
(٢) ول ديورانت : قصة الحضارة ، ٤ /٥٨ .
(٣) د . هنري توماس : أعلام الفلاسفة صفحة ٦٠ بتصرف .

المياه على النار . ولكن يجب ألا يفوتنا أن النار القوية المتأجّجة يمكن أن تجفّف بركة من الماء »[1] . إن ما تستطيعه المحبة قليلٌ في جنب ما تحفره الكراهية في القلوب . فمخزون المحبة المتناهي في الصغر والذي يحتلّ مكانه في داخل القلب البشري ، ليس له من الطاقة ما يستطيع به أن يقضي على القوة المعتدية ويطفىء لهيب الكراهية فيها . ولذا ينصحنا كنفوشيوس بأن نُلمّ بهذه الحقيقة وننظر إلى الآخرين لا كما نريدهم أن يكونوا بل كما هم كائنون بالفعل ، وهذا هو المعنى الحقيقي للعدالة[2] . ولله در الشاعر العربي حين قال :

إذا كنت في كلّ الأمور معاتباً   صديقك لن تلقى الذي لا تعاتبه

فكنفوشيوس كما نرى فيلسوف واقعي عرك الحياة وعرف مداخلها ومخارجها ، وليس أخا طوباوية مثالية يعيش في برجه العاجي « فلا تفسد الآخرين بفرط حبك ، ولا تَقْض عليهم بفرط كراهيتك . وخير الأمور أوساطها »[3] .

والحكمة في هذا كما أوضح كنفوشيوس أننا لا نتعامل مع ملائكة في السماء وإنما نحن نتعامل مع بشر مثلنا من لحم ودم ، نصفهم خير ونصفهم الآخر شرير . فلنشجّع جانب الخير فيهم ولنقاوم الشر ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً بتطبيق مبدأ العدالة المتبادلة . وفي ذلك يقول فيلسوف الصين العظيم : « إذا تقرر هذا المبدأ أضحى العالم كله مدينة فاضلة . . . فيها يخاطب الناس بعضهم بعضاً بإخلاص ، ويُخيّم عليهم السلام الشامل . . . وتكبت شياطين الأنانية . وأما اللصوص والنهّابون والخونة فلن تُبتلى بهم الأرض بعد ذلك . إنْ أريدُ إلا الإصلاح !! فإنّ غاية ما أتمنى أن أرى الوئام يعمّ الجنس البشري بأسره وينشر لواءه فوق الناس جميعاً »[4] .

الإنسان الأعلى

هذا ولم يكن شعور الأخوة نحو الآخرين عند كنفوشيوس إلاّ مزيّة من مزايا الإنسان الأعلى . وقد تحدث كنفوشيوس عن الإنسان الأعلى قبل أن يجيء نيتشه

(١) المصدر السابق .
(٢) المصدر السابق ، صفحة ٦١ .
(٣) المصدر السابق ، صفحة ٦١ - ٦٢ .
(٤) المصدر السابق ، صفحة ٦٢ بتصرف .

بنظرية السوبرمان بما يقرب من خمسة وعشرين قرناً . ولكن هناك اختلافاً بين الإثنين ، فإنسان كنفوشيوس المثالي يرى أن في استطاعة الآخرين أن يصبحوا نظراءه ، أما سوبرمان نيتشه فهو إنسان صلِف متعجرف يحتقر الآخرين وينظر إليهم من عليائه شزراً كأنهم خولٌ له وعبيد قائمون على خدمته لا يفتُرون(١) .

إن الإنسان الأعلى في نظر كنفوشيوس هو الذي تجتمع فيه الفلسفة والقداسة فيتكوّن منها الحكيم . وهو يتحلّى بثلاث فضائل كان كلٌّ من سقراط ونيتشه والمسيح يرى الكمال كلّ الكمال في كل واحدة منها على حيالها . هذه الفضائل هي : العقل والشجاعة وحبّ الخير . وفي ذلك يقول : « الإنسان الأعلى يخشى ألا يصل إلى الحقيقة وهو لا يخشى ألاّ يصيبه الفقر . . . وهو واسع الفكر غير متحيّز إلى فئة . . . وهو شديد الحرصَ على ألاّ يكون فيما يقوله شيء غير صحيح »(٢) . والإنسان الأعلى عند كنفوشيوس يحاسب نفسه على ما عمل . فعندما سأله أحد تلاميذه عن الإنسان ذي الخُلق الكامل ، أجابه بأنه هو من لا يحزن ولا يخاف . وكان السائل رأى أنّ من الكثير أن يُعدّ كامل الخلق من انتفى عنه الحزن والخوف . فأوضح له فيلسوف الصين مقصده من هذا الجواب فقال : « إنّ من يحاسب نفسه ولا يعثر لها على خطيئة ، فماذا يحزنه ويخيفه ؟ »(٣) .

إنه لعلى خلق عظيم !! ولا غرو في ذلك ، فهو دائب البحث عما في نفسه . أما الرجل المنحطّ فهو دائب البحث عما في غيره . . . والإنسان الأعلى يحزنه نقص كفايته ، ولا يحزنه . . . ألاّ يعرفه الناس ، ومع ذلك فهو يكره ألاّ يُذكر اسمه بعد موته . وهو متواضع في حديثه ولكنه متفوق في أعماله . . . إنه امرؤٌ دأبُه الصمت ، فإذا تكلم أصاب هدفه . وإن الشيء الوحيد الذي لا يُداني فيه الإنسان الأعلى هو عمله الذي لا يطّلع عليه أحد سواه . وهو مقتصد في القول والعمل ، لا يشطّ ولا يشتطّ ، بل يلتزم حد الوسط في شأنه كله . فإن الأشياء التي يتأثر بها الإنسان كثيرة لا حصر لها . فإذا لم يكن ما يحبّ وما يكره خاضعين للسنن وقواعد السلوك جنحت طبيعته إلى طبيعة الأشياء وانجرف في تيار الأشياء . والإنسان الأعلى يتحرّك بحيث تكون حركاته في كل الأجيال منهجاً

المصدر السابق ، صفحة ٦٠ .

ول ديورانت : قصة الحضارة ، صفحة ٥٧ ـ ٥٦ .

(٣) نقلاً عن د . محمد يوسف موسى : تاريخ الأخلاق ، صفحة ٣٣ .

للناس جميعاً ، ويكون سلوكه بحيث يتخذونه قانوناً عاماً ، وإذا تكلم كانت ألفاظه على الدوام معايير لقيم الألفاظ . وقد نادى بالقاعدة الذهبية قبل المسيح ومحمد بقرونٍ طويلة : « الفضيلة المثلى ألاّ تعامل الآخرين بما لا تحبّ أن يعاملوك به » وكان كنفوشيوس يرى أن القاعدة الأساسية التي تقوم عليها أخلاق الإنسان الأعلى هي العطف الفيّاض على الناس جميعاً . فالإنسان الأعلى لا يُغضبه أن يسمو عليه غيره من الناس ، فإذا رأى أفاضل الناس أراد أن يتخذهم أسوة له ، وإذا رأى السفهاء عاد إلى نفسه يستقصي حقيقة أمره ، فقلّما توجد أخطاء لا نشترك فيها مع جيراننا . وهو لا يُبالي أن يفتري عليه الناس الكذب أو أن يسلقوه بألسنة حداد ، إنه يجامل الناس جميعاً ويبشّ في وجوههم ، ولكنه لا يكيل المدح جزافاً ؛ وهو لا يحقر من هم أقلّ منه ، ولا يسعى لكسب رضى من هم أعلى منه . وهو جادّ في سلوكه وتصرّفاته ، لأن الناس لا يوقّرون من لا يلتزم الوقار في حديثه معهم ؛ متريّث في أقواله حازم في أفعاله . وأعمالُه مرآة صادقة لقلبه ؛ وهو غير متعجّل بلسانه ولا مولع بالإجابات البارعة التي لا يرى الخصم إزاءها إلاّ أن يتوقّف ويخرس عن الكلام . فليس من المروءة في شيء أن تتغلّب على الآخرين بالحيل والألفاظ الفارغة . وهو رصين لأن لديه عملاً يريد إنجازه ويحرص على أدائه قبل أيّ شيء آخر . وهذا هو سرّ مهابته التي لا تصنع فيها ولا صناعة . وهو شديد الإحترام لذاته يصون نفسه عن التبذّل ويعفّ عن النقائص والدنايا(١) .

ويجمع كنفوشيوس صفات الإنسان الأعلى في هذه العبارة :

« يضع الإنسان الأعلى نِصب عينيه تسعة أمور لا ينفكّ يقلّبها في عقله . فأمّا من حيث عيناه فهو يحرص على أن يرى بوضوح . . . وأمّا من حيث وجهُه فهو يحرص على أن يكون بشوشاً ظريفاً ؛ وأمّا من حيث سلوكه فهو يحرص على أن يكون وقوراً ؛ وفي حديثه يحرص على أن يكون مخلصاً ؛ وفي تصريف شؤون عمله يحرص على أن يبذل فيه عنايته وأن يبعث الإحترام فيمن معه ؛ وفي الأمور التي يشكّ فيها يحرص على أن يسأل غيره من الناس ؛ وإذا غضب فكّر فيما قد يجرّه عليه غضبه من الصعاب ؛ وإذا لاحت له المكاسب فكّر في العدالة والإستقامة »(٢) .

(١) ول ديورانت : قصة الحضارة ، صفحة ٤ / ٥٧ ـ ٥٩ .
(٢) نقلاً عن المصدر السابق صفحة ٥٩ .

والخلاصة ، لقد كانت الأخلاق مطلبه الأول ، وكان يرى أن الفوضى التي تسود عصره هي قبل كل شيء فوضى خُلقيّة ، لعلها نشأت من ضعف الإيمان القديم وانتشار الشكّ « السفسطائي » في ماهية الصواب والخطأ . وعلاج هذه الفوضى لا يكون في رأيه بالعودة إلى العقائد القديمة بل بالبحث الجديّ عن معرفة أتمّ من المعرفة السابقة ، وبتجديد أخلاقي قائم على تنظيم حياة الأسرة على أساس صالح قوي .

الإصلاح يبدأ بالأسرة

« إن القدماء الذين أرادوا أن يبثّوا أرقى الفضائل في أنحاء الأمبراطورية ، قد بدأوا بتنظيم ولاياتهم أحسن تنظيم ؛ ولمّا أرادوا أن يحسنوا تنظيم ولاياتهم بدأوا بتنظيم أسرهم ؛ ولما أرادوا تنظيم أسرهم بدأوا بتهذيب نفوسهم ؛ ولما أرادوا أن يهذبوا نفوسهم بدأوا بتطهير قلوبهم ؛ ولما أرادوا أن يطهّروا قلوبهم عملوا أولاً على أن يكونوا مخلصين في تفكيرهم ؛ ولما أرادوا أن يكونوا مخلصين في تفكيرهم بدأوا بتوسيع دائرة معارفهم إلى أقصى ما تتّسع له طاقاتهم ؛ وهذا التوسع في المعارف لا يكون إلاّ بالبحث عن حقائق الأشياء .

« فلما بحثوا عن حقائق الأشياء أصبح علمهم كاملاً ؛ ولما كمُل علمهم خلصت أفكارهم ؛ ولمّا خُلُصت تطهّرت قلوبهم ؛ وعندما تطهّرت قلوبهم تهذّبت نفوسهم ؛ وإذا تهذّبت نفوسهم انتظمت أحوال أسرهم ؛ ولما انتظمت أحوال أسرهم صلح حكم ولاياتهم ؛ وعندما صلح حكم ولاياتهم أضحت الأمبراطورية كلها هادئة سعيدة »[1] .

حكمة بالغة ! إنّ الإصلاح يبدو لأول وهلة أن منطلقه الأسرة ، إذا صلُحت صلُح المجتمع كله ، وإذا فسدت فسد . وهذا يعبّر عن جزء من الحقيقة . فالأسرة لا يمكن تنظيمها قبل تقويم النفس ؛ وتقويم النفس لا يكون إلا بتطهير القلب أي بتطهير النفس من الشهوات الفاسدة الدنيئة . إنّ القلب لا يطهُر إذا لم يكن مخلصاً في تفكيره ، وهو لا يخلِص في التفكير لأنه قد غلب عليه الهوى ، فتشوّهت الحقائق ، ولم يعد ممكناً البحث في طبائع الأشياء بحثاً موضوعياً

---

(١) نقلاً عن المصدر السابق ، صفحة ٥٥ .

منزّهاً عن الأغراض والأهواء . فإذا سعى الناس إلى المعارف المنزّهة عن الغرض والهوى أخلصوا في تفكيرهم ! وإذا أخلصوا في تفكيرهم تطهّرت قلوبهم من الشهوات الفاسدة ؛ وإذا تطهّرت قلوبهم صلَحت نفوسهم ؛ وإذا صلَحت النفوس صلَحت الأسرة . سلسلة مترابطة من الحلقات يأخذ بعضها بأعناق بعض . إن المواعظ التي تحثّ على الفضيلة لا تجدي شيئاً ، كما لا يجدي العقاب الرادع . فللإصلاح أبوابه ، فلا تأتوا البيوت من ظهورها وأتوا البيوت من أبوابها .

لقد كان رائد كنفوشيوس دائماً الإصلاح . وهناك قصة في حياة هذا الحكيم لها مغزى ودلالة . فقد قدم لزيارته مجموعة من الأشرار ، واعترض تلاميذه على مقابلته لهم وجلوسه إليهم وحديثه معهم . ولما روجع في ذلك أجاب : إني أُقابل الشرير وأتحدث إليه وأرشده ولا يعنيني بعد ذلك ما هو صانع بما بذلت له من نصح ، تُرى ! هل يستقيم عوجه أم يبقى كما هو ؟ لا أدري . كلّ ما أدري أنه كان وهو يتجه إليّ ويحرص على لقائي متجهاً إلى الخير .

والعبرة في هذه القصة أن كنفوشيوس الحكيم كان يتلقّف تلك اللحظات التي تصفو فيها النفس ويطهُر القلب ، ليغرس في هذه اللحظات غرساً جديداً لعله ينبت ويعلو ويثمر يوماً ما ثمرة الخير .

الأخلاق تنبت من الأرض لا من السماء

إن دعوة الفضيلة والخُلق والضمير تنبت من الأرض لا من السماء ، ويمكن لعقل الإنسان أو قلبهَ أن يُنادي بها ويحيا عليها دون أن يهيب بالملأ الأعلى، فليس لزاماً على هذه الدعوة أن تشرئبّ إلى السماء بوحي أو سبب. فإنّ كنفوشيوس لا يهتم بالعالم الأخروي ، ولا بالروح ولا بالأفكار الغيبيّة . والمؤمن الحق في نظره هو المنهوم بالعلم والبحث والمعرفة ، إنه الأمين الصادق الشجاع البعيد عن الترف والجشع والطمع وسائر الدنايا . إن كنفوشيوس يذكر كل هذه الصفات على أنها من صفات الرجل المؤمن دون أن يذكر إلى جانبها شيئاً من الطقوس والعبادات والقرابين الدينية ، أو أن يحثّ عليها ملوّحاً بالثواب في حياة أخرى غير الحياة الدنيا ، أو مخوّفاً من عذاب النار . بل السبيل إلى « التديّن » أو « الإيمان » عنده إنما هو سبيل المعرفة والدرس وتأمّل التاريخ والموسيقى . فلم يكن كنفوشيوس نبيّاً، ولم يدّع أنه نبيّ يكلّم من السماء. كلاّ ولم يكن قديساً ووليّاً وإنما كان إنساناً

كسائر الناس بل اقل منهم شانا لانه ثمرة زواج غير شرعي ، ثم رعي الماشية والأغنام . فلما دعا إلى فلسفته كان للخُلق والضمير فيها المقام الأول . فهناك في نظره ثلاثة شروط لحكم العالم وليستقرّ سلطان كل حاكم وهي : الأخلاق والسلطة والتاريخ . فهو يجعل الأخلاق وفهم التاريخ شرطين ضروريين لصلاح الحكم واستقراره . وهو لم يذكر بين هذه الشروط شرط العقيدة ، بل هو في ذلك شكوكي « يعبد الإله الأعظم والآلهة الأخرى على غير معرفة بها ، ودون تثبّت من حقيقة الآراء الدينية التي لا يستطيع أحد أن يبرهن على صحتها على نحوٍ مقنع مفحم لا يترك مجالاً للشكّ أو البلبلة »[1] . وهو إذا دعا إلى صلاة فهي تأمّل وتفكير بلا صوتٍ ولا كلام . ثم يرى مع ذلك أنّ الصلاة لا غاية لها إلاّ تنظيم السلوك وتمكين المحبة بين الناس. بل ليس للدين نفسَه غاية سوى ذلك . « ولم يكن يرجع في فلسفته إلى الأفكار الدينية إلاّ بالقدر اليسير الذي كان يراه ضرورياً لكي يتمسك الناس بالقانون الأخلاقي والحياة الفاضلة[2] .

لقد انفصلت الأخلاق عنده عن الدين كشأنها دائماً عند قادة الفكر الصيني . فهو حين يجلس إلى تلاميذه لا يحدّثهم عن الغيب والمجهول ، بل ليدرس معهم ويدعوهم إلى قراءة الشعر والأدب والتاريخ والموسيقى . وكانت كتبه وكتب أتباعه نصائح وإرشادات وتوجيهات للتهذيب والسلوك والمعرفة دون أي إشارة إلى السماء أو وعودٍ خلاّبة بنعيم الجنان في الآخرة . فإنما هو مصلح ملتصق بأديم الأرض متّصل بقوانين الحياة يعمل ويدعو إلى تهذيب الأخلاق وتمكين الفضائل واتخاذ الضمير فيصلاً وسلوك الإنسان المهذّب قسطاساً للحياة ومنهاجاً . ولا يعترف بالمُثُل العليا التي تقوم على الفكر المجرّد والأماني . فمن كانت نفسه أميل من نفس غيره إلى الخير وأطوع ، وعمله في هذا السبيل أغزر وأسرع ، فهو عند كنفوشيوس « الرجل الصالح » الخيّر المقدم في مذهبه وشريعته وبين قومه وعشيرته . حتى نظامه السياسي وقوام دولته أساسه الأخلاق والمبادىء العقلية والعلم فهذه الأشياء وحدها هي التي تمنح المؤمن الإنسجام وسكينة النفس ، وهذا الإنسجام هو نواة المجتمع الصالح والحياة القومية المستقيمة ، دون أي إهتمام بالعالم الآخر والروح والحياة بعد الموت . سأله بعض تلاميذه عن

(١) د . حسن شحاتة سعفان : قادة الفكر في الشرق والغرب كنفوشيوس ، صفحة ٢٣ .
(٢) المصدر السابق ، صفحة ٢٤ .

الموت فقال : « إننا لم ندرس الحياة بعد ، فكيف ندرس الموت ؟ »[1] . فليس هناك غير الإنسان ما ينبغي أن يشتغل به العقل، وإن واجبات الإنسان نحو أخيه الإنسان أولى من واجباته نحو الله . فلا ترهيب ولا ترغيب في كتب كنفوشيوس ، ولا محلّ في دينه لثواب أو عقاب أخرويين ، وإنما هي كتب تتحدّث عن التاريخ والشعر ، وعن الفصول وتغيّرها ، ومظاهر الطبيعة وتعليلها ، تكلّم فيها على العلاقة بين الملك والرعيّة ، بين الوالدين والأولاد ، بين الرجل والمرأة ، بين الأخ وأخيه أو بين الأصدقاء والأصدقاء . ولكنّه لم يذكر كلمة واحدة عن العلاقة بين الإنسان وخالقه ، كما لم يُبد في هذه الكتب أيضاً رأياً واحداً بخصوص صلة العبد بالمعبود والرب بالمربوب وما بينهما من حقوق وواجبات[2] .

هيمنة فكرة الواجب على كنفوشيوس

إن الرباط الحقيقي هو ما يربط الإنسان بأخيه الإنسان . فلا رباط إلا بين الإنسان والإنسان ، وباطل كل رباط آخر لا يكون هاجسه الإنسان أو يدور في فلك غير فلك الإنسان . وذلك نابع في نظري من هيمنة فكرة الواجب على كنفوشيوس . إذ تحتلّ مسألة الواجب في تعاليم كنفوشيوس الأخلاقية المقام الأول : فهو شيء « مقدّس وعظيم » . ولذا كان المهم أولاً وقبل كل شيء معرفة الواجب الذي إنما تكمن قيمته في ذاته ولا يستفيدها من غيره. أجل هو لا يستمدّ سلطانه إلا من نفسه التي بين جنبيه . من هنا ينبثق القانون الذي يجب أن نصدر عنه في كل ما نأتي ونذر . إنه قانون عام للناس جميعاً ، إنه قانون الإرادة ، أو هذا ما ينبغي أن يكون . فليس لأحد أن يحيد عنه إذا كان حريصاً على الإلتزام بالقانون الخلقي ، قانون الإرادة الطيّبة المتحقّقة بالواجب ، وبالتالي ليس لأحد أن يتطلّب من أعماله إلاّ أن تكون صادرة عن هذا القانون . فلا يكون له من القيام بها إلا أداء الواجب للواجب « لا لجرّ منفعة ولا لدفع مضرة » كما سيقول إخوان الصفا فيما بعد ، الواجب الذي لا يُطلب لغاية أخرى غير ذاته . وإن أيّ عمل يُقصد به شيء غير مراعاة الواجب لذاته من لذّة أو ثروة أو جاه أو أي حظ من حظوظ النفس ومتاع الحياة الدنيا ، يفقد قيمته الأخلاقية ولا يكون جديراً بأن يوصف بأنه عمل فاضل . فإذا كان المرء يتخذ الواجب والقيام به رائده وباعثاً

(١) المصدر السابق ، صفحة ٥٣ ـ ٥٤ .

(٢) انظر محمود الشرقاوي : الدين والضمير ، صفحة ٤٤ ـ ٤٨ .

له في سلوكه، ملأه عند أدائه شعور غامر بالسعادة الكاملة التي لا يشعر بها النفعيّون والأنانيّون وأصحاب المصالح والمآرب والأغراض[1] .

فإذا سألنا كنفوشيوس عن الواجب وكيف نعرفه وكيف يثق الإنسان بأنه يتبع أوامره ، كان جوابه سهلاً واضحاً لا التواء فيه ولا إبهام : ما عليكم في هذه الحالة إلا أن تصغوا إلى الصوت الذي يحسّه كل منكم في قرارة نفسه وإلاّ أن تستجيبوا له . هكذا يكون إداء الواجب وهكذا يكون الإنسان فاضلاً سعيداً[2] .

هذه هي نظرة حكيم الصين ومعلمها العظيم إلى الواجب وتقديسه له . فالعمل الذي لا ينبعث عنه لا قيمة له بحسب القانون الخلقي . والسبيل إلى معرفة ما يأمر به لا عِوَج فيه ولا التباس : إنه الإصاخة إلى الصوت الباطن الذي ينبعث من أعماق وجودنا . وبعبارةٍ أخرى الإصغاء إلى صوت الضمير . أليس في هذا ما يجعل فيلسوف الصين العظيم أسبق من كنط فيلسوف المانيا العظيم ، إلى بعض ما ذهب إليه في فلسفة الواجب ؟ أو لا يرفع هذا كثيراً من شأن كنفوشيوس في هذه المسألة على الأقلّ مع أنه مات قبل أن يولد كنط بأكثر من اثنين وعشرين قرناً ؟ .

ج ـ منشيوس

شاءت الأقدار أن يكون منشيوس Mencius أنبه الفلاسفة الصينيين بعد كنفوشيوس ، وما أحفل تاريخ الصين بالفلاسفة . فالفلسفة ليست حكراً على اليونان وحدهم ، وإنْ كان اليونان سادة فيها ، وعنهم لا عن الصينيين تلقّاها العالم ، ولهم تتلمذوا ، وعلى أيديهم تخرجوا .

وهو يُذكرنا بأفلاطون من نواحٍ عدة : فهو مثله أرستقراطي من سلالة عريقة ، ومثله يريد إقامة حكومة الفلاسفة . كان اسمه في بادىء الأمر (منغ ـ كو) ، ثم صدر مرسوم امبراطوري بتغييره إلى منغ ـ دزه (أو منغ ـ تسي Meng-tseu ٢٧٢ ـ ٨٨ ق . م) . أي منغ المعلم أو الفيلسوف . وقد بدّل علماء أوروبا الذين ألِفوا الأسماء اللاتينية هذا الاسم إلى منشيوس كما بدّلوا كونغ ـ فو ـ دزه إلى

---

(١) انظر : د . يوسف موسى : تاريخ الأخلاق صفحة ٣١ ـ ٣٢ .
(٢) المصدر السابق ، صفحة ٣٢ .

كنفوشيوس كما يقول ديورانت[١]

كان كأفلاطون يرى أن تقويم الحاكم كفيل باستقرار شؤون المحكومين . وافتتح مدرسة لتعليم الفلسفة جمع فيها حوله طائفة من الطلّاب ذاع صيتهم في الآفاق . وبعث إليه الأمراء من كافة أنحاء البلاد يدعونه ليناقشوه في نظرياته في الحكم . كان مثل ڤولتير يفضّل الملكية المطلقة على الديمقراطية . وتتلخص وجهة نظره في ذلك في أنّ الديمقراطية تقتضي تعليم جميع أفراد الشعب إذا ما أريد للحكم أن يكون حكماً ناجحاً، وأمّا النظام الملكي المطلق فيكفي فيه أن يكون الحاكم فيلسوفاً لكي ينشيء الدولة المثلى . ومن أقواله في هذا الصدد : « اصلح ما في عقل الأمير من خطأ ، فإنّك إن قوّمت اعوجاجه استقرّت شؤون الدولة »[٢] .

قام بأول محاولة للإصلاح عندما سافر إلى (تشي) لتقويم أميرها (شوان) . لكن الأمير خيّب آمال الفيلسوف ، لأن الفلسفة آخر ما يخطر له على بال . فغادر تلك الإمارة إلى إمارة (تنغ) الصغيرة ، ووجد في حاكمها تلميذاً مخلصاً ، ولكنه تلميذ عاجز ضعيف . وسمع منشيوس أن أمير (سنغ) يريد أن يحكم بلاده حكم الفلاسفة ، فهُرع إلى عاصمته وسرعان ما تبين له أن الأمر مبالغ فيه وأنّ الأمراء لا يصلحون للفلسفة وأنهم أبعد الناس عن الإستقامة والخضوع لمشورة الفلاسفة[٣] . فإغراءات الغريزة أقوى من وعود العقل ، وأبّهة الكرسي الوثير أملأ لفراغ النفوس التي غاية سعيها تحصيل الشاء والبعير . وهذا يذكرنا برحلة أفلاطون إلى سيراقوسة بصقلية وخيبة أمله في أميرها .

هذا الواقع المرير اضطر فيلسوفنا إلى الخلوة والعزلة . . . ولا أدلّ على سخريته بالحياة والحكم وملوك العصر والزمان من قضاء أيام شيخوخته وضعفه في تعليم الكلاب ، كأنه يريد أن يقول : إنّ تعليم الكلاب أجدى من تعليم الأمراء الذين أوصدوا في وجهه جميع الأبواب . ولكن هل فطن الملوك لهذا المعنى أم ظلّوا

---

(١) قصة الحضارة ، ٤ / ٧٧ انظر أيضاً : Jacques Chevalier: Histoire de pensée. I. le pensée antique. p. 47 .

(٢) نقلاً عن المصدر السابق ، صفحة ٧٩ .

(٣) المصدر السابق .

يتمرغون في التراب ؟ لقد آثروا الراحة فهم ليسوا أهلاً للتبعات والصعاب ، واتّبعوا أهواءهم وغرّهم السراب ، ولم يعتبروا بل لجّوا في عُتُوٍّ ونفور حتى مضى عهد الشباب ، واتبعوا الشهوات ورأوا فيها فصل الخطاب . لقد مَرَدوا على النفاق حتى قضوا فيه العجب العجاب .

الإنسان طيّب بالفطرة

«كان منشيوس فيلسوف أخلاق أكثر منه فيلسوفاً في المنطق أو المعرفة أو ما بعد المطبيعة . فالبحوث الأخلاقية وسياسة الحكم أولى عنده من كلّ ذلك . لقد كان أكبر همه أن يرسم منهجاً للحياة الصالحة وكيف يتولى خيار الناس مقاليد الحكم . وكان مبدؤه الأساسي أن الناس أخيار بالفطرة وأن المشاكل الإجتماعية ليس منشؤها طبيعة الناس إنما منشؤها فساد الحكومات . فلو أصبح الفلاسفة ملوكاً أو تبدل ملوك هذا العالم فلاسفةً إذن لحصل الكمال ! . »

الحاكم الصالح

والحاكم الصالح في رأيه هو رجل سلام ومحبة لا رجل عدوان. وإذا أراد أن يشنّ الحرب على أحد فإنه لا يشنها على العدو الخارجي . فهناك عدو شرير يربض بيننا أشدّ خطراً علينا من أي عدوٍ آخر ، إنه الفقر ، إنه الجهل . وما أدراك ما الفقروالجهل ! فالفقر والجهل هما منشأ الجرائم والفساد والإخلال بالنظام ، وإنّ إنزال العقاب بالناس لما يرتكبونه من جرائم ألجأم إليها ما يعانونه من تعاسة وشقاء شَرَك دنيء يُنصب للإيقاع بهم ، لأنّ الدولة لم تهيّىء لهم فُرص الحياة الكريمة وظروف العمل الكفيلة بانتشالهم من وهدتهم . فواجب الدولة إذن أن تتيح هذه الفُرص لرعاياها فتقطع بذلك دابر الجريمة وتجتثّها من جذورها . فالحكم الصالح هو أساس الأخلاق والنظام . لذلك ينبغي للدولة أن ترفع الظلم عن رعاياها وتضع الخطط الإقتصادية المدروسة للقضاء على الفساد وتأمين التعليم الإلزامي ، لأنّ هذا هو أقوم السبل لتقدّم الإنسان والحضارة . فالتعليم واجب أساسي من واجبات الدولة التي تتحسّس مصالح الرعية وتهتمّ بخيرهم . ليس ما يفرّق بين الإنسان وأخيه الإنسان بالشيء الكثير ، ولكن معظم الناس يطرحونه وراءهم ظِهْرِيّاً ، ولا يحتفظ به إلاّ الأكفاء والمتفوّقون(١) ، وقليل ما هم ! فالحكومة

---

(١) المصدر السابق ، صفحة ٧٩ ـ ٨١ .

الرشيدة إنما يتولاها الراشدون الأكفاء ، وهم الفلاسفة ، ولا خير في حكومة لا يتولّاها الراشدون . فإذا وُسّد الأمر إلى غير أهله اضطرب حبل الأمن واختلّت أمور البلاد والعباد . بالتعليم صار الفلاسفة فلاسفة ، وإلّا لظّلوا في جهلهم يعمهون . فحرمانهم من التعليم حرمان للبلاد من أسباب وجودها وعوامل تكوينها ، وتلك لعمري جريمة لا تُغتفر . إنهم الأمل والذخيرة والرصيد . مَن قتلهم فكأنما قتل الناس جميعاً ، ومَن أحياهم فكأنّما أحيا الناس جميعاً ، ومايـذَّكّر إلّا أولو الألباب[1] .

(١) للنظرة الشمولية عن الفكر والأخلاق في الصين ، را : زيعور ، الفلسفة في الهند . . . (جزء سابق من هذه السلسلة ، مؤسسة عز الدين ، ١٩٩٣) .

الباب الثاني

الأخلاق في الفكر اليوناني القديم

إن الغرض الذي أبتغيه من هذا الكتاب هو أن أُجيل العقل والنظر في الفكر السياسي اليوناني والثقافة اليونانية والحضارة اليونانية في أصلها ونشأتها وترعرعها واضمحلالها منذ أقدم العهود حتى الفتح الروماني . فأنا دائماً مغرم بالبدايات الأولى للأشياء والأفكار وبالبحث الدائب عن البدايات ، لأن في البدايات التفسير الصحيح للنهايات ، وإلاَّ اختل البحث وتخبط النظر . وإني لشديد الرغبة في تتبع الحياة اليونانية في توثبها وتفاعلاتها وانتفاضاتها حتى آتت أُكُلها وانثالت عليها دررُ المعاني ولآلِئُ الأفكار . وسأحاول التغلغل فيما اشتمل عليه الفكر اليوناني والحضارة اليونانية من عناصر حية كثيرة التباين متعددة الأنواع : منها طريقة أهلها في الحكم والإدارة وما قاموا به من ثورات وإصلاحات ، بل وما أصابهم من انتكاسات ؛ ومنها عاداتهم العقلية والخلقية وطقوسهم الدينية ومنازعهم الأسطورية وعلاقاتهم الإجتماعية والجنسية . . . أُريد أن أتتبع هذه العناصر وكثيرا غيرها وأن أحسَّ بها لا في عزلتها النظرية ، بل في تفاعلها الحي وأثر كل عنصر منها في سائر العناصر الأخرى ، وأن أبحثها من حيث هي حركة عامة شاملة يقوم بها كائن حي ثقافي عظيم له ألف عضو وعشرة مليارات خلية ، ولكن له جسماً واحدا وروحاً واحدة .

دائماً كنت أتساءل : ما هي أصول الفلسفة اليونانية وحدودها ؟ هل بدأت حقاً في القرن السادس قبل الميلاد في الجزر الإيونية كما يفترض مأثور يرقى بأصله إلى أرسطو ؟ أم إن لها أصلاً أقدم وأبعد ايغالاً في الزمن سواء في هيلاس أو في بلاد البرابرة ؟ وهل في مقدور مؤرخ الفلسفة ومن واجبه أن يقتصر على تتبع تطور

الفلسفة في اليونان وفي ديار الحضارة ذات الأصل الإغريقي ـ اليوناني ؟ أم يتعين عليه أن يتوسع في نظرته لتشمل الحضارات الشرقية ؟ إلى أي حد يتمتع الفكر الفلسفي بتطورٍ مستقل ؟ كيف حدثت « المعجزة » (أو ما يُسمى كذلك) وبرز اليونان على المسرح بما يشبه الطفرة ؟ أم ليس في الأمر طفرة بل تطور وتدرج ؟ لماذا رفض سقراط الهرب من السجن وآثر الموت على مخالفة القانون ؟ ما هي المقدمات التاريخية (لجمهورية أفلاطون) وشيوعية النساء والأولاد ؟ هل صحيح أن اليونان القدماء كانوا يحتقرون العمل اليدوي ؟ وهل يمكن لحضارة عظيمة كالحضارة اليونانية أن تتجاهل أهمية العمل في حياة البلاد بحيث تنيط أمره إلى سواعد غير سواعد أبنائها ؟ وأخيراً كيف تقوم الدول والأمم وكيف تسقط وتنهار ؟

النص المبتور

أسئلة كثيرة من هذا القبيل تراودني وأنا أقرأ تاريخ الفلسفة اليونانية فأحسُّ كأنما أقرأ نصّاً مبتوراً . أنا إنما أُريد النَّصَّ كاملاً فلا أعثر إلاّ على شذرات مقتَطعة من نص كبير ، إيتوني بالنَّص كما هو وأنا زعيم بالإجابة عن كل سؤال من هذه الأسئلة أو عن عددٍ كبير منها ! ولكن أين النص ؟ أين النّص ؟ لقد مضى عليَّ زمن طويل وأنا أكتفي بمقاطع من النَّص وأمري إلى الله ، ظنّاً مني أن النص الكامل غير متوافر في « الأسواق » . وأما الآن وقد تسنى لي بعض الإطلاع المعمَّق على التاريخ السياسي لأثينا القديمة حيث بدأت تَرِد إليَّ أجزاء كثيرة من النص ، فإني عاكفٌ على استجماع بَقية النص . أنا أعرف أن ذلك طمع في غير مطمع ، ولكن ما لا يُدرك كله لا يُترَك جُله كما يقول المثل .

والخلاصة ، في النص فراغ كبير لا يمكنني به فهم تاريخ الفلسفة . فلا بد من ملء هذا الفراغ بالعبارات المناسبة كما كنا نفعل في كتب القراءة ونحن صبية صغار نتلقى العلم على مقاعد الدراسة . جُمل مفيدة وغير مفيدة نُزعت من سياقها فُرضت عليَّ وأنا أدرس تاريخ الفلسفة وطُلب مني حفظها عن ظهر قلب وإلا سقطتُ في امتحانات آخر السنة . فكل ما كنتُ أعرفه في تاريخ الفلسفة أن فلاناً قال كذا وردَّ عليه فلان بكذا أو أن فلاناً يختلف عن فلان بكذا ! مساجلات ومناقشات ومطارحات تبدأ بطاليس وتنتهي بأرسطو ، وقد يعود بها البعض إلى ما قبل طاليس ويربطها بأصولها الشرقية ، وقد يمتد بها إلى ما بعد أرسطو حتى يصل

إلى الأفلاطونية الجديدة .

لقد امتلأت ذاكرتي بالكثير الكثير عن الفلسفة اليونانية وعظمة الفلسفة اليونانية من غير أن أعرف شيئاً عن القوم الذين أنجبوا هذه الفلسفة أكثر من أنهم أول أُمة في التاريخ وضعت أسس الفلسفة وأرست قواعدها ، يتلو ذلك بعض المماحكات عن تأكيد المعجزة اليونانية أو رفض هذه المعجزة . لكن الماركسيين خرجوا على هذا التقليد وأرادوا التجديد في الكتابة التاريخية غير أنهم وقعوا في العمى المذهبي ، فأرادوا اقحام الإقتصاد وحرب الطبقات في كل صغيرة وكبيرة تمخّض عنها الفكر اليوناني . وكذلك وقعت المدرسة الجغرافية في العمى المذهبي أيضاً عندما أبرزت أهمية المناخ والجبال والموقع الجغرافي . . . في ظهور العبقرية اليونانية . وهذا ما فعلته أيضاً المدرسة البيولوجية العنصرية التي تنطلق من المركزية اليونانية ـ الرومانية الأوروبية . لكن يُحمد لهذه المدارس جميعاً أنها لم تقتصر على التأريخ للفلسفة بالفلسفة نفسها ، بل لقد أدخلت عوامل جديدة هامة لا يخلو كل منها من بعض التأثير في مسار التفكير الفلسفي .

لماذا تبدأ الفلسفة اليونانية بطاليس وكيف كان الوضع قبله ؟ ولماذا كل هذا الإصرار على إلتزام القانون عند سقراط ؟ وما سبب هذا الوعي المبكر في أثينا ؟ . . . إن الجغرافيا والاقتصاد لا مدخل لهما هنا إلا بطريق غير مباشر ، إنهما لا يكادان يفسران شيئاً إلا بالإقحام والتصنع والقسر والإفتعال ، وهو ما نجده في جميع الكتب المذهبية . إن منحنى الحياة الفكرية والروحية معقد غاية التعقيد . وليس لغير الدراسات التكاملية أن تكشف لنا عن التواءاته وتعرجاته . إن قيمة مذهب من المذاهب العقلية أو السياسية أو الإقتصادية . . . غير مستقلة عن التوثب الروحي الذي أوجده . فالمطلوب من البحث التاريخي ، والتاريخ العقلي بنوع خاص ، وتاريخ الفلسفة بنوعٍ أخص ، أن يمكّننا من الإمساك بالتوثب الأصلي ، والكيفية التي يتدفق بها مدّه ، أو يتوقف ، أو يُعاد بين الحين والآخر تدفقه . ولا شك أن من أجلّ الخدمات التي يمكن أن يسديها المؤرخ العقلي هي تفسير نشوء الأفكار واستقصاءها وتعقب أحوالها وتفاعلاتها والأطوار التي تطرأ عليها .

تصوري لتاريخ الفلسفة

إنّ تاريخ الفلسفة لا يصح أن يكون مجرد عملية سرد زمني للمذاهب

والأفكار ، أي لا يصح أن يكون تاريخ الفلسفة منفصلاً عن مقاصد من يؤرخ لهم وعن المناخ الفكري السياسي والاجتماعي والديني . . . الذي يعيشون فيه . وبعبارةٍ أخرى إن تاريخ الفلسفة يجب ألا يقتصر على تاريخ الفلسفة ، بل يجب أن يشمل أيضاً تاريخ القوم الذين صنعوا هذه الفلسفة ، فإن سمات أي فلسفة من الفلسفات لا تكون قد حُددت تحديداً كاملاً إذا اكتفينا بالإشارة إلى ما تنطوي عليه من أفكارٍ ومعانٍ ، بل المهم أن نعرف بأي روحٍ تفعلٍ ذلك ؟ وما النظام العقلي والحضاري الذي تنتمي إليه ؟ فمن عزل مذهباً معيناً عن حركة الأفكار التي حبلت به ، وعن العاطفة والنية اللتين تبثان فيه الروح والحياة ، ورأى فيه مجرد نظرية أو قضية مطلوب البرهان عليها ، فقد استبدل بفكرٍ نابض حي ودالٍ فكراً ميتاً فقد معناه ومبرر وجوده . فنحن لا نستطيع فهم فكرة من الأفكار الفلسفية إلا من خلال صلتها بالكل الذي هي أحد مظاهره . ونتيجة ذلك بطبيعة الحال أن الفلسفة ليس من الممكن فصلها عن سياق الحياة الروحية التي تعبر عن نفسها أيضاً بالعلوم والدين والأدب والفن وغط الحياة الإجتماعية والأخلاقية . . . وتأخذ الفلسفة في اعتبارها جميع القيم الروحية السائدة في عصرها لتقرها أو تنقدها أو تشكك فيها أو تنقضها أو تكتفي بتغييرها بعض التغير . لا وجود لفلسفة تنشأ من فراغ أو تتحرك في فراغ ، أو تعيش في صومعة مقفلة منعزلة لا تؤثر ولا تتأثر بل تنكفىء على ذاتها وتبقى الدهر كله أو بعضه مشلولة ، بلا فعل ولا تفاعل كأنها قُدّت من صخرٍ . بل إن من الصخر لما يشّقق وتتفجر منه الأنهار ! إن الفيلسوف لا يكون فيلسوفاً حقاً إذا لم يبقَ على تماسٍ دائم بالواقع السياسي والنظام الإجتماعي والمرحلة التاريخية وجميع هواجس العصر الذي يعيش فيه . وهكذا فإنه بدلاً من أن يتطلع إلى عزل الفلسفة عن ضغوط الزمان والمكان ليبقى مطمئناً في برجه العاجي ، فإنه لا يملك إلا أن يزج بها في هذه الضغوط ويخوض بها ـ على طريقته الخاصة ـ معامع التاريخ وتنازع البقاء .

إنهم يتصورون تاريخ الفلسفة تاريخ مذاهب فلسفية ، أنا أتصوره تاريخاً سياسياً وحضارياً وعسكرياً وثقافياً . . . أيضاً إنهم لا يرون غير مقاطع أو شذرات من النّص ، فيظنون أنها هي النص . طاليس قال : أصل العالم ماء ، وقال أنكسيمنس : لا بل هو الهواء . هذه هتامات في النص ولكنها ليست النص ، ولذلك فأنا لا أفهم النص . دائماً كنتُ أبحث عن بقية النص . فالتاريخ العقلي معجون بالتاريخ السياسي والتاريخ المدني والعسكري والإداري والإجتماعي . . .

وسأحاول هنا ، وبقدر ما يسمح حجم الكتاب ، إعادة تركيب هذه العناصر وأمثالها لإعادة تركيب ما يمكن تركيبه في النَّص وقراءة النَّص . لن أبحث في هذا (المدخل) ماذا قال فلان وماذا قال فلان ، بل سأضعك في الأجواء التي بها قال وسأترك للكتاب القادم الحديث عما قال . أنا لا أدَّعي ـ كلا ولا المنجم يدَّعي ـ أنني سأضع أمامك النص بكامله ، لأن ذلك من قبيل المستحيلات ، فالنَّص بكامله غير موجود وإن كان من الممكن ترميمه جزئياً واستجماع عدد لا يُستهان به من الكلمات والجُمل المفيدة .

النص العربي

هناك نصّ آخر حاولت ترميمه وتجميعه ولكنه يتعلق هذه المرة بتاريخ الفكر العربي الإسلامي . وأعتقد أني قد قطعت شوطاً لا بأس به في هذا السبيل ولكنه لا يزال حتى الآن مشروعاً نظرياً . فقد أدركت منذ وقتٍ طويل أن النص العربي الإسلامي رغم أنه أحدث عهداً من النص اليوناني وأكثر شحناً وأقل فراغاً فإنه من المستحيل إعادة تركيبه كاملاً ولا تجدي جميع الوسائل التقليدية في صياغته مرة أخرى . فلا بد من استعمال تقنية جديدة في البحث والتنقيب تعيد الأمور إلى نصابها أو تكاد . وأزعم أني قد توصلت إلى هذه التقنية فيما أسميته **السُّيْكوسوسيوديناميكا** ، وهي نظرية بسطتها في كتابي **الفكر العربي في مخاضه الكبير ـ أضواء من السُّيْكوسوسيوديناميكا** في محاولة لتفسير نشأة الفكر العربي الإسلامي وعوامله ونوابضه ومحركاته واتساع آفاقه . وسنرى في الجزء الثاني من الكتاب المذكور التطبيق العملي لهذه النظرية ، وهو الآن تحت الطبع[1] . في الإمتحان يُكرم المرء أو يُهان . فهل تنجح هذه النظرية في الإمتحان ؟ لقد كنت أود تطبيقها على **الفكر** اليوناني أيضاً لكن ينقصني العديد من المعطيات فضلاً عن أن التاريخ اليوناني القديم فيه فجوات كثيرة . لذا سأكتفي ببعض الملاحظات السُّيْكوسوسيودينامية التي قد تُلقي بعض الأضواء على الموضوع الذي يهمني هنا . وأما التكثيف فموعده هناك .

تاريخ الفلسفة لا يكفي لمعرفة تاريخها

قلت ان تاريخ الفلسفة يجب ألا يقتصر على تاريخ الفلسفة بل يجب ان

---

(١) سيصدر عن دار الجيل في غضون شهر أو شهرين على الأكثر إن شاء الله .

يسجل أيضاً تاريخ أولئك الذين صنعوا هذه الفلسفة لأعرف كيف صنعوها ؟ ولماذا صنعوها ؟ وما هي الظروف والملابسات التي فيها صنعوها ؟ وقد جرت العادة على دراسة الفلسفة اليونانية على حدة والتاريخ اليوناني على حدة دون ان يبغي أحدهما على الآخر ، فلكل ميدان منهما رجاله ولكل متخصصوه وخبراؤه ، بل لقد أُفرِد كل وجه من وجوه الحياة اليونانية في كتاب خاص لا يعرفه إلاّ ذووه . ولذلك فقلما تجد في كتاب في تاريخ الفلسفة أكثر من إشارات عابرة إلى الفن والأدب والسياسة والإدارة ونظام الحكم ، وإن خرج الماركسيون عن هذا التقليد اليوم فجمعوا بين الفلسفة والاقتصاد وتوسعوا في ذلك توسعاً يختلف من كتاب إلى آخر . وسأسير هنا على سُنَّة الماركسيين الذين أضافوا عاملاً يبدو للنظرة السطحية المتعجلة غريباً عن عملية الإنتاج الفلسفي دخيلاً عليها . فليس الإقتصاد وحده في نظري ونظر الكثيرين غيري يتدخل في توجيه الفكر الفلسفي ، ولست أول من قال إن السياسة والحرب والدين والأسطورة ونظام الحكم - إن كل أولئك عوامل فعالة في الإبداع الفلسفي ، وإن كانت تبدو للوهلة الأولى منقطعة الصلة به غير ذات تأثير فيه . فالجمع بين هذه العوامل كلها على صعيد واحد خير معوان لنا على قراءة قسمٌ كبير من النص اليوناني الأصلي . فإذا ألقينا عليه بعد ذلك أضواءً من السَّيْكوسوسيوديناميكا استقام أمره وصح عزمه ودبت في عروقه نبضات الحياة ، أو هذا على الأقل ما أزعمُهُ وأرجو ألا يكون في ذلك ادعاء كبير . فالسَّيْكوسوسيوديناميكا تُجيب عن كثير من الأسئلة المتعلقة بأسباب قيام الدول وانهيارها ، وكيف تولد وتنمو ثم تُصابُ بالهرم والشيخوخة ؟ ولماذا لا يتاح لها إلا فرصة واحدة للخلق والإبداع ثم تهوي إلى غير رجعة ؟ ورغم اختلاف الظروف بين اليونان والعرب فإن ظهورهما وانهيارهما كانت تحكمهما قوانين سيْكوسوسيودينامية واحدة . ولذلك سنرى أوجهاً كثيرة للشبه بينهما كأنهما أختان شقيقتان ، كما سنرى أوجها كثيرة للإختلاف تفرق بين الأمتين العظيمتين حتى لظنَّ البعض أنهما قُدَّتا من طينتين مختلفتين لا يجمع بينهما أي جامع مشترك . وإني لأزعم أنه على ضوء هذه القوانين يمكن أن تنحل عقد كثيرة في تقويمنا لهاتين الأمتين العظيمتين وأن تخرج إلى النورنقاط لا تزال حتى الآن يغمرها الظلام . هذه بضاعتي أعرضها على القراء ، وأرجو ألا تكون بضاعة مزجاة !!

وعلى كل حال ، سأُعيد في هذا الكتاب تركيب الصورة من جديد ، لأضع القارىء في الجو اليوناني عامة والجو الأثيني خاصة ، فيرى الأشياء « على

الطبيعة » ، إذا صح التعبير ، في توثبها وتقلبها ونبضها ، بل في تشنجها وانتكاسها . ولذلك فلن أفصل بين التاريخ السياسي والتشريعي والتاريخ الفلسفي والعقلي والأخلاقي . فمتى كانت السياسة والتشريع معزولين عن العقل ؟ إن العقل الذي يضع الخطط والبرامج والقوانين هو نفسه الذي يضع المذاهب الفلسفية والأخلاقية . أُريد في هذا الكتاب إكمال النص المبتور الذي عودوني على قراءة كلماته الأخيرة . أنا إنما أُريد قراءته من أوّله ما استطعت إلى ذلك سبيلاً . فأنا لا أدعي ـ وما كان لي أن ادعي ـ أني أعدت النص كله ، فقد انفرط العقد منذ زمنٍ طويل ، وحسبي أني التقطت أكثر جواهره ولم يبقَ إلا القليل . أما النص العربي فإني أزعم القسم الأكبر منه .

نحن ندرس في هذا الكتاب تاريخ الأخلاق عند اليونانيين وتاريخ الفلسفة عامة عند اليونان . وتاريخ الفلسفة هو تاريخ التفكير الإنساني في نشأته وتطوره . كيف ظهرت الفلسفة والدين ؟ وكيف انبثق منهما المبدأ الخلقي ؟ كيف عالج العقل مشكلة الإنسان ؟ وكيف تحرك العقل محاولاً اكتناه الحقيقة والنفاذ إلى أغوارها ، حتى ظهرت المشكلة الميتافيزيقية بكل كثافتها وكامل أبعادها ؟ كيف حاول العقل ـ والزمان طفل ـ أن يتلمس الحلول لهذه المشكلة ؟ وما هي الأجوبة التي قدمها لها ؟ .

فالكتابُ إذن كتاب طموح جداً يَعِدُ بالكثير ، ولكن هل سينجزكل ما وعد ؟ لا أعتقد ذلك . فلا يذهبن بك الشطط وحُسن الظن إلى أنه كتاب المعجزات ،وإن كنت لن آلو جهداً لكي يكون كذلك . فالحلم كبير ، والعمر قصير ، والجهد مهما عظم صغير ، وإني في هذا الإسهام المتواضع لا أطمح إلى أكثر من لفت النظر ، وتحريك المشاعر ، واستحثاث الهمم ، وإثارة القضايا المتعلقة بضرورة البحث عن أفقٍ علمي جديد .

وإني ، لأرجو أن تكون الصورة واضحة موفقة بعيدة عن الزخرف والطلاء . فلن أُحاول تصوير الأشياء في صورة المثل الأعلى رغم أني أُعالج أمر عظماء الناس دون صغارهم ، وأمر الفلاسفة دون الصعاليك ، ورغم أن الإنسان يشاهدأحسن المناظر من فوق قمم الجبال لا من السفوح . إن اليونان أُمة عظيمة ولكن ذلك لا يعني أنها أُمة قُدَّت من العظماء . إنها أمة من الأمم وإن كانت في عصرها الذهبي أعظم الأمم . وقد كانت كذلك بفضل ثلة من الأفراد النادرين

اجتمعوا في مكانٍ واحد وفي زمانٍ واحد ، أما سواد الناس فهم مثلي ومثلك ومثل سائر خلق الله ، فيهم الصعلوك وفيهم الأحمق ، وفيهم الغبي وفيهم الذكي ، وفيهم اللص وفيهم الحقير ، وفيهم الخائن الذليل . فلا تكونن في غفلةٍ من هذا ، فالإنسان هو الإنسان في كل زمانٍ ومكان !!!

الفصل الأول

اليونان منذ أقدم العصور

ديانة الطبيعة :

لم يكن قدامى اليونان الذين كُتب لأحفادهم وأسباطهم فيها بعد أن يحملوا لواء الفلسفة إلا كما كان معاصروهم من الشعوب البدائية الأخرى . فلكل شعب بدائيوه ، وليست البدائية هامش المجتمع البشري ، بل هي قلبه النابض لأنها ثاوية في أعماقه تضطرب بها روحه ويجيش بها وجدانه . فالحضارة البشرية ميراث مشترك بين الإنسانية جمعاء ، إلا أن هناك ثقافات وطنية مختلفة المشارب والمقاصد المنازع تشدها إنسانية واحدة وعقلية منطقية لا تختلف بين شعب وآخر أكثر مما يختلف أفراد الشعب الواحد فيما بينهم . إن البدائية لحظة من لحظات التطور التقني والعلمي العام اجتازت بها جميع الأمم والشعوب ، فهي بمثابة الماضي الغابر للعقل المتحضر .

في تلك الفترة كانت الأخيلة والأساطير هي دين القوم وديدنهم . فقد كانوا يعيشون مع الطبيعة وجهاً لوجه ليس لهم من دونها ستر من ملبس أو مسكن أو سلاح . فكان جمالها يسحر بصر إنسان ذلك الزمان وكانت عظمتها تبهره . كان يستمتع بالضوء أكثر مما نستمتع نحن به اليوم ، وكان يخشى الليل خشية لا نكاد نفهمها . وعندما كان يرى عودة « نور السموات المقدس » على حد تعبير سوفوقليس[1] كان يشعر بالعرفان بالجميل . لقد كانت حياته تحت سيطرة الأقدار

(١) نقلاً عن فوستيل دي كولانج : المدنية العتيقة صفحة ١٦١ .

التي لا تعرف الرحمة والحنان إليها سبيلاً . لقد كان يشعر في كل لحظة بضعفه وبقوة ما يحيط به من أشياء وظواهر وأفاعيل ، وكان يحس على الدوام بمزيجٍ من التبجيل والمحبة والرهبة نحو هذه الطبيعة الجبارة .

في هذا الوقت لم يستطع الإنسان القديم ـ يونانياً كان أم غير يوناني ـ الوصول إلى إدراك إلَهٍ واحد مدبر للكون ، إذ لم تكن لديه عندئذٍ فكرة واضحة عن الكون الواحد . لقد كان الكون في إحساسه وشعوره أكواناً وعوالم متعددة ، لكل واحد منها إلَهه المدبر . إنه لم يكن يعلم أن الأرض والشمس والقمر والكواكب أجزاءٌ من مجموع واحد يهيمن عليه كائن واحد . لقد كان العالم في نظره مجموعة مشوشة من القوى المتنافسة التي يصطرع بعضها ببعض في حرب لا تنتهي . ولما كان حكمه على الأشياء الخارجية مشتقاً من تكوينه هو وأحواله ، وكان يشعر في نفسه بأنه شخصٌ حُر ، فقد رأى كذلك كل جزء من الخليقة في الأرض أو فوقها ، في الشجر وفي السحاب وفي ماء النهر ، في الشمس والقمر والكواكب والنجوم ـ رأى في كل ذلك أشخاصاً يشبهون شخصه فنسب إليهم الفكر والإرادة والعزم والتصميم . ولما كان يشعر بأنهم أقوياء وبأنه خاضع لهيمنتهم فقد اعترف بتبعيته لهم وتضرع إليهم وإليهم أيضاً توجه بالدعاء والعبادة . إنهم آلهته القادرون على كل شيء وبأيديهم زمام أمره ومفتاح سعادته وحياته(١) .

إن العناصر الأولى لديانة الطبيعة هذه قديمة جداً ، وقد احتاجت إلى وقتٍ طويل لكي تثبت في صورة واضحة المعالم ، وهي لم تظهر جملة واحدة ، ولم تخرج مكتملة النمو تامة الخلق والتكوين في عقل رجلٍ واحد ، بل لقد اشتركت فيها عقليات مختلفة وعصورٍ متباينة ، فكانت كل عقلية تصنع آلهتها على صورتها ومثالها ، وكان هناك تنوعٌ كبير في القوى والآلهة يفوق الحصر ، وكانت مملكتها تزداد كل يوم اتساعاً .

ديانة الموقد

ولكن هل كان هذا هو الشكل الوحيد للديانة عند اليونان ؟ كلا ، إذ يحدثنا فوستيل دي كولانج أن هذه الديانة (وتُسمى بديانة الطبيعة) ديانة حديثة

---

(١) المصدر السابق ،صفحة ١٦٠ .

نسبياً . فقد سبقتها ديانة أخرى أقدم عهداً وهي ديانة الموقد وديانة الموتى وغير ذلك من الأسماء . فقد كان بيت اليوناني القديم (أو الروماني) يحوي مذبحاً ، وكان لا بد أن يوجد على هذا المذبح قليل من الرماد وفحم متقد . ولقد كان التزاماً مقدساً على رب كل بيت أن يتعهد النار ليل نهار ، والويل للمنزل الذي تخبو ناره . ففي كل مساء كانوا يُغطُّون النار بالرماد لكي يحولوا دون انطفائها . فإن فكرة الثواب والعقاب في تلك العصور لم تكن متوقفة على السلوك الذي يسلكه الإنسان في حياته بل على ما تسلكه ذريته نحوه من بعده . ولذلك فإن أول ما كانوا يعنون به عند القيام من النوم هو إحياء هذه النار وتغذيتها ببعض أغصان الشجر . ولا تنقطع النار عن التوهج على المذبح إلا بفناء الأسرة . فكانت عبارتا « نارٌ خابية » و« أسرة فانية » مصطلحين مترادفين عندَ القدماء[1] . ولا يجوز أن يُلقى في هذه النار بأي شيء قذر ولا يُرتكب أي إثمٍ في حضرتها . وكان الجندي الذي يعود من الحرب يشكر موقده ويقدم له القرابين[2] . لقد كانت هذه النار شيئاً إلَهياً ، فكانوا يعبدونها ويؤدون لها الشعائر ويقربون لها القرابين ويتوجهون إليها بالعبادة والدعاء[3] . وكان لا يخرج أحدهم من منزله قط دون أن يصلي لموقده ، وكان عند عودته لا بد من أن ينحني أمام الموقد ويدعوه قبل أن يرى زوجته ويعانق أولاده[4] .

ولم تكن عبادة النار المقدسة هذه مقصورة على بلاد الإغريق ، إنما كانت تشمل أيضاً إيطاليا ، بل إننا نعثر عليها في بلاد الهند . فعند البرهماني موقده الذي لا ينطفىء أبداً . ففي كل صباح وكل مساء يمده صاحبه بغذائه من الخشب . وكان الهنود كالإغريق والرومان يعتقدون أن الآلهة نهمة للطعام والشراب فضلاً عن التبجيل والإجلال والإحترام[5] . لقد كانت نار الموقد في بلاد الهند كما كانت في بلاد الإغريق ظاهرة واسعة الإنتشار ، فكان من المحرم على البرهماني أن يُلقي فيها بأي شيءٍ قذر ، بل حتى أن يدفيء بها قدميه . كما كان يُحرَّم على الرجل

---

(١) المصدر السابق، صفحة ٢٨ .
(٢) المصدر السابق، صفحة ٣١ .
(٣) المصدر السابق، صفحة ٢٩ .
(٤) المصبدر السابق، صفحة ٣١ .
(٥) المصدر السابق، صفحة ٣٣

المذنب أيضاً أن يدنو من موقده قبل أن يتطهر من دنسه[١] .

إن الأغارقة والإيطاليين لم يستعيروا هذه الديانة من الهنود كلا ولا هؤلاء استعاروها من أولئك ، بل إن هؤلاء وأولئك ينتمون إلى جنسٍ واحد هو الجنس الهندي ـ الأوروبي أو الجنس الآري نسبة إلى آريا ـ وهو شعبٌ كان مهده النجد الفارسي من بلاد الأفغان وما إليها على ما يزعم علماء تاريخ اللغات . فيجب إذن أن ترجع ديانة النار المقدسة إلى تلك الحقبة البعيدة الغامضة التي لم يكن فيها إغريق ولا إيطاليون ولا هنود ، والتي لم يكن فيها إلا الآريا ، وعندما انفصلت القبائل بعضها عن بعض نقلت معها عباداتها إلى الأماكن التي استقرت فيها ، ثم أضافت إليها بمضي الزمن عباداتٍ أخرى[٢] .

وكانوا يعتقدون اعتقاداً راسخاً أنهم عندما كانوا يدفنون أحداً إنما يضعون في القبر شيئاً حياً ، ولذلك لم يفتهم أن يدفنوا معه الأشياء التي يظنون أنه يحتاج إليها من ملابس وأوانٍ وأسلحة . وكانوا يريقون الخمر على قبره ويزودونه بالطعام ، وكانوا يذبحون الخيل والعبيد إيماناً منهم بأن هذه المخلوقات إذا ما حُبست مع الميت قامت على خدمته في القبر كما كانت تخدمه في أثناء حياته . بل إن الميت يطلب حصته من الحسناوات اللواتي تُسْبَيْنَ في الحروب . فقد ذكر يوريبيدس أنه بعد استيلاء الإغريق على طروادة هموا بالعودة إلى بلادهم ومع كل منهم سبيته الجميلة ، لكن أخيليا (أشيل) وهو تحت الثرى من حقه هو أيضاً أن يحظى بسبيته فأعطوه بوليكسن Polyxène[٣] فدُفنت المسكينة معه . فقد كان للجمال ثمن باهظ في تلك الأيام !

الحاجة إلى الدفن

من هذه العقيدة القديمة نشأت الحاجة إلى الدفن . فلكي تستقر الروح في عالمها السفلي كان لا بد أن يكون البدن الذي ظلت مرتبطة به محجوباً بالثرى ، فالروح التي لا قبر لها لا مقر لها ، إنها روح هائمة مشردة بلا قربان ولا غذاء . لقد جلب لها هذا الحرمان من القبر التعاسة والشقاء ، وبذلك تنقلب شريرة

---

(١) المصدر السابق، صفحة ٣٤ .
(٢) المصدر السابق، صفحة ٣٤ .
(٣) المصدر السابق، صفحة ١٤ .

تعذب الأحياء وتُرسل عليهم الأمراض ، وتتلف محصولاتهم الزراعية وتثير الذعر فيهم ليل نهار وتؤرق حياتهم ، ومن هنا جاء الإعتقاد بالأشباح(١) .

ولا بد من مراعاة بعض الشعائر وتلاوة بعض الأدعية وإلا بقيت الروح هائمة على وجهها ولا يقر لها قرار حتى يُخرج الجسد من القبر ويُدفن مرة أخرى طبقاً للأصول الشعائرية . فالشعائر هي التي كانت تقر الروح في قبورها وتحبسها فيها . إن أخوف ما كان يخافه القديم عدم مراعاة الشعائر نحوه بعد موته . ولذلك فلا نذهلنّ عندما نرى الأثينيين يُعدمون القواد الذين أهملوا دفن موتاهم بعد انتصار بحري . إن الأثينيين لم يغفروا لهم هذه « الكبيرة » رغم انتصارهم الساحق على أعدائهم ! فما جدوى هذا النصر بعد أن أضاعوا آلافاً من الأرواح باهمالهم ؟ فجاء أقارب الموتى إلى المحكمة في ملابس الحِداد وهم يفكرون في العذاب المقيم الذي سيحيق بهذه الأرواح ، وطالبوا المسؤولين بالانتقام من هؤلاء القواد وإنزال أشد العقاب بهم(٢) .

ولمعرفة أهمية الدفن عند القدماء يكفي أن نذكر في هذا السياق أن القانون في المدن القديمة كان يُنزل بكبار المذنبين عقاباً اشتهر بفظاعته وهو الحرمان من الدفن ، فقد كانوا بذلك يُعاقبون الروح ذاتها ويصبون عليها عذاباً يكاد يكون سرمدياً(٣) .

لقد كانت عقيدة القوم إذن أن الإنسان يعيش في القبر ، وأن الروح لا تنفصل عن الجسد بل تبقى ثابتة في ذلك الجزء من الثرى الذي كانت العظام مدفونة فيه . وجدير بالذكر أنه لم يكن على الإنسان حسابٌ يؤديه عن حياته الأولى . وما دام قد وُضع في القبر فلم يكن عليه أن ينتظر ثواباً ولا عقاباً . من هنا ستنطلق فكرة الحياة الأخرى والدار الآخرة(٤) .

ففكرة الحياة بعد الموت فكرة قديمة قدم طقوس دفن الموتى . فإن أقدم الأجيال قد اعتقدت ـ قبل أن يوجد الفلاسفة بزمنٍ طويل ـ بحياة أخرى بعد هذه

---

(١) المصدر السابق، صفحة ١٥ .
(٢) المصدر السابق، صفحة ١٦ ـ ١٧ .
(٣) المصدر السابق، صفحة ١٧ .
(٤) المصدر السابق .

الحياة ، ولم تواجه الموت على أنه إنحلال نهائي للبدن لا رجعة بعده ، بل على أساس أنه تبديل يسير للحياة . هذه العقيدة لا تقتصر على بلاد اليونان وحدهم ، بل هي عقيدة شرقية قبل أن تكون عقيدة غربية ، ومن الشرق إنما انتقلت إلى الغرب . والأصل المشترك لها إنما هو شعب (أو إقليم) آريا الذي يقع على هضبة إيران الحالية أو المنطقة المجاورة لبحر قزوين . ومهما ارتقينا في تاريخ الجنس الأوروبي الذي من فروعه الشعوب الإغريقية والإيطالية مثلاً فإننا نرى أن هذا الجنس لم يصدق يوماً أن كل شيء إلى زوال بعد هذه الحياة الدنيا[١] .

كان الموتى في عقيدة هؤلاء جميعاً كائنات مقدسة . وقد خلع القدماء عليهم خير ما كان في جعبتهم من ألقاب الإحترام والتبجيل ، فكانوا يسمونهم الطيبين والقديسين والسعداء ، وكانوا يُكنون لهم كل تقدير وإجلال . ولا غرو من ذلك فكل ميت إنما هو في عقيدة القوم إله[٢] ، لا فرق بين أن يكون رجلاً صالحاً أو رجلاً شريراً ، فجميع الموتى في الألوهة سواء[٣] . لذلك لم يكن غريباً أن تكون القبور معابد[٤] . فلم يكن للقوم معابد بعد ، إنما المعبد موزع حتى الآن بين المذبح حيث الموقد داخل الدار وبين القبر خارجه .

ويبدو أن ديانة الموتى هذه هي أقدم ديانة عرفها الإنسان . فقد عبد الإنسان الموتى قبل أن يتصور الهندي أندرا Indra واليوناني زيوس Zeus ويتوجه لهما بالعبادة والصلاة[٥] . ويعتقد فوستيل دي كولانج أن العاطفة الدينية بدأت من هنا . ومن الجائز في رأيه أن الإنسان القديم عندما رأى الموت شعر لأول مرة بفكرة ما فوق الطبيعة وأراد أن ينفذ إلى ما وراء ما يراه . لقد كان الموت أول الأسرار وهو الذي وضع الإنسان في طريق الأسرار الأخرى ، ورفع فكره من المرئي إلى الخفي ، ومن الطارىء إلى الخالد ، ومن البشري إلى الإلهي[٦] . وإنني لا أشاطر دي كولانج هذا الرأي أبداً . فالإنسان في نظري ميتافيزيقي بطبعه ، ومن هذه الميتافيزيقا نشأ الدين والأخلاق . وقد تحدثت عن ذلك في الجزء الأول

---

(١) المصدر السابق، صفحة ١١ .
(٢) المصدر السابق، صفحة ٢١ .
(٣) المصدر السابق، صفحة ٢٢ .
(٤) المصدر السابق .
(٥) المصدر السابق، صفحة ٢٧ .
(٦) المصدر السابق .

من هذا الكتاب ، كما عرضت له أيضاً بتوسع واستفاضة مع الأمثلة والشواهد في الفصل الثالث والرابع والخامس من كتاب (الفكر العربي في مخاضه الكبير) .
فلولا أن الإنسان ميتافيزيقي بطبعه ، ولولا ما فيه من كثافة ميتافيزيقية تفوق كثافته الترابية ، ولولا أن له أبعاداً ميتافيزيقية تتخطى حدوده الجسمية ، لولا ذلك لما أدرك أن في الأمر سراً . فلا معنى للسر عند الجماد أو النبات أو الحيوان ، ولكنما السر يأخذ كل معناه عند الإنسان ، أيِّ إنسان ، وإلى أيِّ شعبٍ انتمى . إن التمييز بين ما هو سر وما هو غير سر عملية لا تتاح لكل موجود ، بل إن البشر أنفسهم يتفاوتون في هذه العملية المعقدة التي تبلغ في بعض الأشخاص النادرين حداً من النضج والتفوق بحيث تسم بالسرية ، وبالتالي بالحاجة إلى التفسير والتعميق ، كل ما هو في نظر التافهين والعاديين سطحي لا يستحق أي بحث أو نظر ، ومن هنا انطلقت الفلسفات الكبرى في التاريخ . فإدراك السر سر ، ولا يدرك السر إلا صاحب السر ، وهنا يكمن المعنى الكبير للسر وقدرة الإنسان وحده على إدراك السر . أرأيت إلى التلازم بين الميتافيزيقا والسر وإلى انفراد الإنسان بالعبقرية الخارقة لإدراك السر ؟! فالميتافيزيقا ليست إذن شيئاً طارئاً على الإنسان ، إنها من صميم وجوده .

وعلى كل حال ، للقدماء عاداتهم وشعائرهم في الدين والعبادة . فتلك عقائد موغلة في الماضي السحيق ، وهي تبدو لنا اليوم على درجة كبيرة من الخطأ ومثيرة للسخرية ومع ذلك فقد كان لها سلطان ـ وأي سلطان ـ على الإنسان الأول منذ نشأته الفطرية ، فهيمنت على المشاعر واستحكمت في الأذهان ووقرت في نفوس الأفراد والجماعات حتى كانوا عبيداً لها لا يستطيعون فكاكاً عنها . وكم نشبت حروب واحتدمت معارك وقامت مجازر من أجل صنمٍ لا يسمع ولا يرى . إن الأساطير والعقائد والشرائع والأديان والآداب والفلسفات والفنون والأنظمة العائلية والإجتماعية ، إنما نبعت من هذا المورد ، ومن هذا المنبع تفجرت وعنه صدرت كما سنرى .

لقد كانت الفكرة الدينية عند القدماء هي النسمة الملهمة والمنظمة للحياة والمجتمع ، فما من سلطان أقوى من سلطانها . إن العقيدة من صنيع فكرنا ، ولكنها ما إن تخرج من هذا المصنع حتى تكون لها السيادة علينا(١) . إنها أثر من

---

(١) انظر الفصل السابع من كتابنا(الفكر العربي في مخاضه الكبير) وهو بعنوان قوة الأفكار صفحة ٢٦٨ ـ ٣١٠ .

آثار قوتنا ، غير أنها أقوى منا ، إنها من خلقنا ، ولكننا إنما ننسبها إلى سلطان غير سلطاننا ، إمعاناً في الإقرار بعجزنا ، سلطان الغيب والسماء لا سلطان الأرض وعالم الشهادة . ليتَ شعري ! لِمَ هذا الإقرار بالعجز مع أنه عنوان قوة ؟ إن الإنسان يستطيع أن يقهر الطبيعة مع أنه أحد إفرازات الطبيعة . إنه خاضع لإفرازات فكره الذي استقوى به على الطبيعة مع انه ابن الطبيعة . فقل لي بربك هل هو ابن بار للطبيعة أم تراه عاقاً لها ؟ .

هنا تناقض الإنسان وهنا مبرر وجوده . فيه يجتمع الداء والدواء ، والصحة والمرض ، والكل والجزء ، والعيني والمجرد ، والمفهوم والماصدق ، والمعلوم والمجهول ، والهدم والبناء . إنه علة ذاته ومعلول ذاته . إنه الراوي والرواية والقاصّ أو القَصص والقصة والحكاية . فهل هذه الآيات البينات لها وجود في غير حيز الإنسان الذي شاهت له الوجوه وخشعت له أبصار الكوائن والأكوان !! فسبحانه جلّ وعلا بالفكر والبيان !! فأعِظمْ بهذا الإنسان !!

لكل أسرة آلهتها

لقد كانت عبادة الموقد عبادة خاصة بكل أسرة لا تتعداها إلى غيرها من الأسر . فقد كان لكل أسرة آلهتها ، ولم يكن الإنسان ليتصور أو ليعبد إلا آلهته المنزلية . فقد كان الناس يجدون داخل منازلهم معبودهم وملاذهم الذي كان يحميهم فرداً فرداً ويسمع دعاءهم ويشفي مرضاهم ويستجيب لتوسلاتهم . أما خارج المنزل فلا يشعر المرء بإلَهٍ ما ، وكان إله الجار إلهاً عدواً . فكان المرء آنذاك يحب منزله كما يحب المسلم اليوم مسجده والمسيحي كنيسته . لقد كان البيت معبداً إلى جانب كونه منزلاً[1] .

وقد تغيرت رموز هذه الديانة بتغير العصور . فعندما اعتادت شعوب بلاد الإغريق (وايطاليا) على تصور آلهتها أشخاصاً ، وأعطت لكل واحدٍ منهم اسماً علماً وشكلاً آدمياً ، خضعت عبادة الموقد القديم للقانون المشترك الذي فرضه الإدراك البشري في تلك الحقبة على كل ديانة . فنظروا إلى مذبح النار المقدسة على أنه شخص وسموه استيا Hestia إلهة النار عند الإغريق (ويقابلها فستا Vesta عند الرومان) . وهكذا جعلوا من اسم الجنس (نار) اسم عَلَم ،

(١) المصدر السابق، صفحة ١٢٨ .

وتكونت أسطورة إلّه النار رويداً رويداً . فتمثلوا هذا المعبود امرأةً لأن الكلمة التي كانت تدل على المذبح مؤنثة ، بل لقد خرقوا لها تماثيل خاصة ، ولكنهم لم يستطيعوا قط أن يمحوا أثر العقيدة البدائية التي بمقتضاها كانت هذه المعبودة نار المذبح [1] .

بين عبادة النار وعباده الموتى

ولكن ما وجه العلاقة بين عبادة النار المقدسة هذه وبين عبادة الموتى التي تحدثنا عنها منذ قليل ؟ .

إن هذه النار لم تكن في ذهن أولئك المتعبدين لها ناراً مادية ، بل هي ذات طبيعة مغايرة لها ، إنها نار طاهرة ليس من الممكن توريتها إلا بالقيام ببعض الشعائر ، كما لا يمكن إمدادها إلا بأنواع معينة من الخشب ، وبالتالي فهي كائن إلهي حي كالأسلاف الذين غادرونا إلى العالم الآخر سواء بسواء . وكما كانوا يتوجهون إلى هؤلاء بالعبادة والدعاء ، كذلك كانوا يطلبون من النار الثراء والصحة وطهارة القلب والعفة والحكمة . إذ تقول أنشودة أورفية : « إمنحينا الغنى والميسرة ، وآتينا أيضاً الحكمة والعفة » [2] .

فنار الموقد إذن وإن كانت ذات صفات مادية ، فإنها في نفس الوقت أيضاً ذات فكر ولها وعي . إنها تدرك الواجبات وتحرص على تأديتنا لها . حتى ليمكن القول أنها إنسان ، فلها من الإنسان طبيعته المزدوجة : فهي من حيث طبيعتها المادية تلمع وتتحرك وتتغذى . . . ومن حيث حقيقتها البرزخية لها عواطف وأحاسيس وإنفعالات ، فتمنح الإنسان الطهارة وتأمر بما هو جميل وحسن ، وتغذي القلب والروح . فهي منبع الثراء والصحة والفضيلة في وقتٍ واحد معاً . إنها الإلّهة العذراء ڤستا العظيمة تحب البشر وتحدب عليه . إنها روح عامة تنظم حركات الأفلاك والعوالم المختلفة كما تنظم روح الإنسان حركات البدن [3] .

إن الأرواح البشرية التي ألّهها الموت هي ما يُطلق عليه الإغريق اسم الجن démons والأبطال هيروي héros ، وما يطلق عليه الرومان اسم لاريس Lares

---

(١) المصدر السابق صفحة ٣٥ ـ ٣٦ .

(٢) نقلاً عن المصدر السابق صفحة ٣٦ .

(٣) المصدر السابق صفحة ٣٧ .

«مانيس Manès وعبقر Génies ، وأن عبادة هؤلاء مرتبطة عند الأولين بعبادة الموقد ارتباطاً وثيقاً بحيث لم يجعلوا منهما سوى ديانة واحدة . فالموقد والجن والبطل واللاريس ـ كل أولئك كان مختلطاً يتداخل بعضه في بعض . فهؤلاء الذين يسميهم القدماء لاريس أو هيروي إنما هم أرواح الموتى الذين كان ينسب إليهم الإنسان سلطة إلٓهية تفوق سلطة البشر . وكانت ذكرى كل من هؤلاء الموتى المقدسين مرتبطة دائماً بالموقد ، فلم يكن من المستطاع عند عبادة أحدهما نسيان الاخر ، بل كان يُجمع بينهما في إحترام الناس وفي صلواتهم . فالصلة قديمة بين عبادة الموتى وعبادة الموقد . وعلى هذا يمكن القول أن الموقد المنزلي لم يكن في الأصل إلا رمزاً لعبادة الموتى ، لأنهم كانوا يدفنون موتاهم في المنازل . فتحت حجر الموقد كان يرقد أحد الأسلاف ، فكانت النار توقد فيه لتمجيده وعبادته ، وكانت النار تعمل على بقاء الحياة فيه ، ولعلها كانت رمزاً لروحه اليقظة الساهرة التي لا تأخذها سِنة ولا نوم . إن هذا مجرد فرض يُراد به تفسير الصلة بين العبادتين : عبادة الموتى وعبادة الموقد ، فقد كانتا عبادة واحدة موجودة لدى أقدم الأجيال في الجنس الهندي ـ الأوروبي الذي خرج منه اليونان والرومان ، وهي ديانة لا تتخذ آلهتها من الطبيعة المادية بل من الإنسان ذاته ، وكان موضع عبادتنا ذلك الكائن الخفي الذي يقبع بين جوارحنا ، أي القوة المعنوية والمفكرة التي تحرك جسمنا وتُسيِّر أعضاءنا[1] .

هذا وإذا كانت دياناتنا الحديثة منفتحة تُنادي بعبادة إلٓهٍ واحد ولا تألو جهداً في التبشير بها ودعوة الناس إليها ، فإن ديانة العصور الأولى كانت ديانة وثنية تقول بتعدد الألهة ، كما كانتَ ديانة منغلقة كديانة اليهود لا تقبل في حظيرتها جميع الناس . فكما أن يهوه لا يحظى بشرف عبادته إلا اليهود ولا يقبل أي متطفلٍ خارجي ، كذلك كانت آلهة القدماء . فإن آلهتهم لم تكن تقبل العبادة من جميع الناس بل تقصر هذا الفضل على المحظوظين من أتباعها الشرعيين . ففي الديانة البدائية لم يكن في استطاعة أي إلٓهٍ أن يقبل عبادة أكثر من أسرة واحدة يتفرغ لها ، وكان يرفض إقحام أي عنصرٍ غريب فيها . هكذا حال يهوا إلٓه اليهود وهكذا حال أيضاً الديانة القديمة[2] .

---

(١) المصدر السابق صفحة ٢٦ و٣٧ ـ ٣٨ .
(٢) المصدر السابق، صفحة ٤٠ .

فإن ديانة الموتى كانت تقضي بأنه لا يجوز لأي أسرة أن تؤدي فروض العبادة إلا للموتى الذين ينتمون إليها بطريق النسب ، فالأسرة وحدها كان لها حق الإشتراك في هذه العبادة ، وكان كل غريب يُقصى عنها بالقوة والعنف ، لأن القوم كانوا يعتقدون أن الميت لا يقبل القربان إلا من ذويه هو ويرفض عبادة أيُّ أجنبي غريب عن أسرته . فإن حضور رجلٍ من غير الأسرة كان يعكر صفو الأرواح ، ولذا كان القانون يحرم على الغريب أن يقترب من أحد القبور ، فإذا لمس بقدمه مدفناً ولو سهواً لزمه استرضاء الميت والتطهر من هذا الإثم القبيح . فعبادة الموتى إنما هي في حقيقة أمرها عبادة الأسلاف والويل للميت الذي لم يخلف ولداً يقرب له القرابين ، لأن قرابين غير الأبناء لا تجدي الميت شيئاً ، بل هي تقلق روحه . فذرية الميت وحدها إنما يُخوَّل لها هذا الحق[1] .

فضل هذه الديانة

وإذا لم يكن لهذه الديانة من فضل إلا توحيد أعضاء الأسرة وجمعها فناهيك بها نفعاً . فإن عبادة الموقد والأسلاف شيء أقوى من المولد ومن العاطفة ومن القوة الجسمانية . فهي التي جعلت من الأسرة هيئة متماسكة في هذه الحياة الدنيا وفي الدار الآخرة ، فالأسرة القديمة هي رابطة دينية أكثر منها رابطة طبيعية . وكانت اللغة الإغريقية القديمة تستعمل كلمة ذات دلالة واضحة تطلقها على الأسرة ، فكانوا يقولون أبستيون épistion ومعناها الحرفي : « المجاور للموقد » . فالأسرة كانت مجموعة متماسكة من الأشخاص تعيش حول موقد واحد وتتوجه له بالدعاء والعبادة . إن أفراد الأسرة مرتبطون فيما بينهم بشيء أقوى من كل ما في هذه الحياة الدنيا من مصالح ومنافع : إنهم مرتبطون بالمشاركة المقدسة في عبادة موقد واحد .

لقد ساهمت هذه الديانة كثيراً في تقوية أواصر الأسرة وتعزيز الروابط بين عصابتها ولكنها أضعفت بنفس المقدار الروابط بين الأسرة والأسرة لاختلاف الآلهة بين أسرة وأسرة ، فآلهة كل أسرة ترفض عبادة آلهة كل أسرة أخرى وتعاملها معاملة العدو . لقد كانت ديانة هذه العصور منزلية خالصة تهتم بأعضاء الأسرة الواحدة أكثر من اهتمامها بالمدينة أو مجموعة الأسرة التي تعيش في منطقة

---

(١) المصدر السابق صفحة ٤٠ ـ ٤١ .

واحدة . فبين الأسرة والأسرة حدود وحواجز لا يمكن اختراقها وهي اختلاف العبادات . ولذلك كان لا يجوز لمسكنين أن يتماسًا ، فالحائط المشترك كان يُعدُّ شيئاً مستحيلاً ، إذ لا يمكن أن يكون جدار واحد مشتركاً بين منزلين متجاورين ، لأنه في هذه الحالة يختفي سور الآلهة المنزلية المقدس[1] ، فقد كانت الديانة المنزلية تعزل كل أسرة عن جميع الأسر الأخرى لا في هذه الحياة فقط بل في الحياة وبعد المهات ، وكانت بالتالي تقصي بشدة كل مظهر من مظاهر المشاركة . فلم يكن من الجائز أبداً الجمع بين أسرتين في قبرٍ واحد ولا بين موقدين منزليين في بيتٍ واحد . وكما أنه لا يجوز أن تتجاور المنازل كذلك لا يجوز أن تتماسَّ القبور . فكان لكل واحد منها كما لكل منزل نوع من السور العازل[2] .

انعكاس هذه العقائد على الأخلاق القديمة

إن موضوع هذا الكتاب هو التأريخ للأخلاق ، فما علاقة كل ما أتينا على ذكره بموضوع الأخلاق ؟

العلاقة وثيقة جداً ، وإلا ما كان لنا أن نخوض في هذه التفاصيل المتشعبة الطويلة . فقد كان لجميع هذه العقائد آثار لا تُنكر في الأخلاق . فإذا لم تكن هذه الديانة القديمة هي التي خلقت الإحساسات الخلقية في قلب الإنسان لأن الإنسان كائن خلقي كما بيَّنا ذلك في الجزء الأول من هذا الكتاب ، فإنها على الأقل قد عززتها ووطدت سلطانها وتبادلت مزاياها أفاعيل التأثر والتأثير . لقد كانت ديانة هذه العصور ديانة منزلية خالصة كما رأينا ، وكذلك كانت الأخلاق . فلم تكن الديانة تأمر الرجل بحسن معاملة رجلٍ آخر غريب عنه ، بل على العكس كانت تحذره منه ، لأنه ينتمي إلى أسرةٍ غير أسرته لها موقدها وقبرها وآلهتها وشعائرها . إنه عدو له ، فليتخذه عدواً !! وهكذا لم يكن أفقه الأخلاق ليتجاوز دائرة الأسرة الضيقة ، إن إرتباط الأخلاق بالدين جعلها متأثرة به قوة وضعفاً وتطوراً ومراحل تقدم وتخلف . فكما كان إله الأجيال الأولى صغيراً جداً ، ثم جعله الناس أكبر فأكبر ، كذلك الأخلاق كانت في البدء ضيقة ثم أخذت دائرتها تتسع شيئاً فشيئاً اتساعاً غير محسوس ، إلى أن وصلت ـ من تقدمٍ في إثر تقدم ـ إلى إعلان واجب

---

(١) المصدر السابق، صفحة ٨١ .

(٢) المصدر السابق، صفحة ٨٣ ـ ٨٤ .

المحبة للناس الآخرين .

لقد كان الموقد هو المعبود ، فكان الإنسان اليوناني القديم يراه على مقربة منه . إنه يشهد أعماله كلها لا تخفى عليه خافية . إنه رقيب حسيب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها . إنه بمثابة ضمير الفرد يراجع صاحبه ويناقشه الحساب . إنه لا يفارقه بل هو دائماً على بعد خطوات منه فلا يتيح له أن يعمل ما يحلو له ويشتهي . إن الفرد في هذه الحالة لا يشعر أبداً بأنه وحيد في هذا العالم ، فإن له بجواره ، في منزله وفي حقله ، حماةً يحفظونه ويعينونه على نوائب الدهر وما في الحياة من مشاقٍ وصروف ومعاناة ، ومن حوله قضاة عدول يجازونه على ما يأتي من أفعالٍ إن خيراً فخير وإن شراً فشر . وهكذا خلق الإنسان بنفسه رقيباً على نفسه[١] .

وكان هؤلاء الأوائل يحبون أن ينعتوا الموقد بالعفيف ، ويعتقدون أنه يأمر الناس بالعفة ، وأن من الواجب ألّا يقترف بمشهد منه أي دنس مادياً كان أو معنوياً[٢] ، ولم يكن الرجل المذنب يستطيع أن يقترب من موقده قبل أن يتطهر من دنسه[٣] . ويؤكد دي كولانج أن الأفكار الأولى المتعلقة بالخطيئة والعقاب والتكفير إنما جاءت من هنا . فالرجل الذي يشعر بأنه مذنب لا يستطيع الدنو من موقده بعد ذلك ، فإن إلّهه يصده . إنه لا يسمح لمجرمٍ سفك دماً بأن يُقرب له قرباناً أو أن يشارك في أي طقسٍ من طقوس العبادة حتى يتطهر . لقد كان هذا الإلّه من الصرامة بحيث لا يقبل أي عذر . إنه لا يميز بين قتلٍ متعمَّد وقتلٍ غير متعمَّد ، فاليد الملطخة بالدم لا يجوز لها أن تمس الأشياء المقدسة . فإذا أراد استئناف العبادة من جديد والعودة إليها وتقديم فروض الطاعة لإلّهه من جديد ، فلا بد له من التطهر في حفلة تكفيرية لها طقوسها وشعائرها . إن هذه الديانة لا تخلو من الرحمة ، فلها مناسكها التي تساعد على طلب الغفران والتطهر من الأدناس . ومهما كانت ضيقة وجافية صارمة فإنها تعرف كيف تعزِّي الإنسان وتُخلصه مما كسبت يداه . ولئن كانت تجهل واجبات الإحسان جهلاً يكاد يكون تاماً ، فإنها كانت ترسم للإنسان على الأقل واجباته نحو أفراد أسرته بوضوحٍ

---

(١) المصدر السابق، صفحة ١٢٢ ـ ١٢٣ .
(٢) المصدر السابق، صفحة ٣٤ .
(٣) المصدر السابق، صفحة ١٢٣ ـ ١٢٤ و١٢٧ .

يدعو إلى الإعجاب حقاً . فقد كان القدماء يطلقون على الفضائل اسم البر والتقوى والورع pietas فمن البر طاعة الوالدين وملازمة الأب لابنه وعطف الأم عليه . لقد كان كل شيء في الأسرة مقدساً . فالشعور بالواجب والمودة الطبيعية والفكرة الدينية ـ كل أولئك كان شيئاً واحداً متداخلاً بعضه في بعض يعبر عنه بكلمة واحدة(١) .

وتسهر هذه الديانة أيضاً على طهارة الأسرة . فإن أشنع جريمة يمكن أن تُرتكب في نظرها هي جريمة الزنا . إنها كبيرة الكبائر ، إذ إن القاعدة الأولى في العبادة تنص على أن الموقد ينتقل من الأب إلى الابن ، والزنا يدخل الخلل والاضطراب في نظام المولد . كما تنص القاعدة الأخرى على أن القبر لا يجوز أن يحوي غير أعضاء الأسرة ، وأما ابن الزنا فهو غريب مقحم على القبر . إنه عدوان صارخ على مبادىء الديانة التي يجب الحفاظ عليها وصيانتها من كل دنس . بل هناك ما هو أدهى وأمرُّ : إذْ يحطم الزنا سلسلة الذرية . فالأسرة قد انقرضت حتى دون أن يعلم الأحياء بذلك وضاعت على الأسلاف فُرص السعادة الإلهية . وهذا هو السبب في أن قوانين اليونان (والرومان) كانت تخوِّل الوالد حق إنكار الوليد وقتل الزوجة الزانية وبيع البنت التي ارتكبت الفاحشة بيع الرقيق(٢) .

وكان حب البيت من الفضائل ، وكان هذا الإحساس عميقاً وقوياً عند القدماء . وهذا هو أنخيسيس Anchise يرى طروادة تحترق ومع ذلك لا يريد أن يغادر منزله القديم ، وهذا هو أوديسيوس Odusseus تعرض عليه جميع كنوز الدنيا بل الخلود ، ولكنه لا يرضى دون العودة إلى وطنه بديلاً ليرى لهيب موقده من جديد . وها هو شيشرون ـ وهو الخطيب ورجل الدولة الروماني المعروف ـ يقول مشير إلى بيته : « هنا دیانتي ، هنا أرومتي ، هنا آثار آبائي . لا أدري أي سحر هنا يتغلغل في قلبي وحواسي » . إن شيشرون هذا رجل حديث العهد نسبياً (١٠٦ ـ ٤٣ ق . م) فيجب أن نعود بذاكرتنا إلى الأجيال الموغلة في القدم لكي ندرك إلى أي حدٍ كانت طاغية وقوية ، هذه المشاعر التي كانت قد أصابها الضعف والوهن في عصر شيشرون . فالمنزل عندنا لم يعدو أن يكون مسكناً نغادره في الصباح ونؤوب إليه في المساء ولا نرى أي حرج في هجره ونسيانه ، وإذا

(١) المصدر السابق، صفحة ١٢٣ ـ ١٢٤ أو ١٢٧ .
(٢) المصدر السابق، صفحة ١٢٤ ـ ١٢٥ انظر أيضاً حاشية صفحة ١٢١ .

ما تعلقنا به فيما ذلك إلا بحكم العادات والذكريات . فالديانة عندنا خارج المنزل ، وإلهنا في كل مكان . فحيثما تُولوا فثم وجه الله . هذا هو شأن الدين والعبادة عندنا . وأما القدماء فقد كان لهما عندهم شأن آخر . فالله قابع في عقر دارهم لا يريم عنه ولا يحيد . وكان يحميهم فرداً فرداً ويُجيب دعاءهم . أما خارج الدار فالفراغ والعدو والأعداء والعدوان .

تلك هي إذن القوانين الأولى للأخلاق المنزلية ، وها هي ذي ديانة تنصُّ على المبادىء الأساسية للحقوق والواجبات . ومن هنا أتت جدية الإرتباط الزوجي عند القدماء وقداسته ، والطهارة التي احتفظت بها الأسرة زمناً طويلاً . إنها تأمر الزوجة بطاعة زوجها والولد بطاعة والديه والأب يتعهد ابنه والأم بالعطف على ابنها ، وتعلم الجميع أن يحترم كل واحد منهم الآخر . وإذا لم يكن في المنزل مساواة في السلطة ـ إذ السلطة دائماً هي للأب فهو الكاهن والقاضي ـ فقد كانت فيه على الأقل مساواة في الكرامة والإحترام والعطف المتبادل .

وهكذا لم تكن عقائد القرون الأولى بمعزل عن التطور الأخلاقي لهذا الجزء من الإنسانية البدائية . فحسبُ الديانة في هذا التطوّر في هذه المرحلة انها فرضت الطهارة وحرَّمت سفك الدماء . وإذا كانت فكرة العدالة لم تنبثق من هذه الديانة بعد فإنها على الأقل قد استمدت منها القوة والدعم . فقد كانت آلهتها تبسط أجنحتها على جميع أعضاء الأسرة التابعة لها بلا تمييز ولا محاباة . إنّها تعاملهم بالعدل والقسطاس المستقيم . وهكذا وجدت الأسرة نفسها متحدة برباط وثيق لا تنفصم عراه ، كما أنّ جميع أعضائها قد تعلموا أنّ يتحابوا وأن يحترم بعضهم بعضاً : لقد كانت هذه الألهة تعيش داخل كل منزل وترأم بأهله وتحنو عليهم فلا غرو بعد ذلك أن يحبّ الإنسان منزله ولا يطيق فراقه ، فهو مسكنه الثابت الدائم الذي تلقاه من الآباء والأجداد وسينتقل إلى الأبناء والأحفاد ، إنّه المعبد والملاذ وقدس الأقداس .

إنّ الأخلاق القديمة التي نشأت عن هذه العقائد لا تزال بكراً ، فأول الغيْث قطر ثمّ ينهمر . فكما أنّها تجهل العدالة فهي أيضاً تجهل الإحسان لأنّ كلاً من العدالة والإحسان يتخطى مجتمع الأسرة الصغير إلى المجتمع الكبير . لقد أوفت بجميع واجبات المجتمع الصغير . وسنرى كيف ستسلك وتتصرف عندما تخرج الأسرة إلى المجتمع الكبير . فالأخلاق نسبية ولكل مرحلة حقوقها

والتزاماتها ، ولها مبادؤها وتصوراتها التي تبني عليها معاملاتها . ولها تطلعاتها وحاجاتها التي هي منطلق أحكامها على الأعمال والأفعال .

ديانة الطبيعة

ومما هو جدير بالملاحظة إننا عاجزون حتى الآن عن تقديم أي تاريخ . فإنّه لأيسر لنا في التاريخ لهذه المجتمعات القديمة أن نميّز بين العصور بتوالي العقائد والأنظمة والآراء من أن نميز بينها بتوالي السنين والأعوام . فلم يكن هناك تاريخ وتدوين ، وإنّما هي اشارات واقتباسات نجدها عند المتأخرين من اليونان القدماء ، وألواح موغلة في أفق ما قبل التاريخ يقتضي حل رموز كتاباتها الكثير من الجهد والمعاناة . فنحمدالله على معرفة الكثير من الأحداث وتعاقبها بعضها وراء بعض على نول الزمن ، ولا ضير علينا بعد ذلك أن يفوتنا التاريخ الدقيق لهذه الأحداث .

قلنا أنّ اليونان القدماء عرفوا ديانتين لعلّ أحداهما أسبق من الأخرى : ديانة الموقد والموتى والأسلاف وديانة الطبيعة . وبقدر ما كانت الديانة الأولى ديانة إنغلاق وتقوقع فقد كانت الديانة الثانية ديانة انفتاح وتوسع . ورغم أنّ الديانة الأولى ظلّت راسخة على الدوام في شعائرها فقد كانت قواعد مذهبها تزول شيئاً فشيئاً . إنّها عقيدة جامدة متخلفة يصعب جداً التخلّص منها جملة واحدة . وأما الديانة الأخرى فقد كانت أكثر ميلاً إلى التقدم والإنطلاق ، وقد تطورت بحرية خلال العصور المتعاقبة . وكانت طوال هذه الفترة تغير أساطيرها ومذاهبها بالتدريج وتزيد بلا انقطاع في سيطرتها على الإنسان ، ومنها ستنبثق العلوم والفلسفات والمعارف التي هي أقرب إلى هذه الديانة الحيّة نسباً وأشد لحمة وأدنى مسافة منها إلى ديانة الأموات والقبور التي يدلّ اسمها على حقيقة أمرها .

إنّ عبادة الطبيعة قديمة جداً ، وربما كانت تضاهي عبادة الأموات في القدم . ولكن بما أنّها كانت تنطوي على أفكار أعم وأسمى من هذه فقد كان لا بدّ لها من وقت أطول لكي تثبت في صورة مذهب متبلور واضح . ومن الثابت أنّها لم تبرز إلى الوجود في يومٍ واحد وإنها لم تخرج مكتملة النمو من عقل رجلٍ واحد ، بل أرجح الظنّ أنها انبثقت من عقليات مختلفة ، فتصورتها كل عقلية على طريقتها الخاصة . لقد كانت كل عقلية تصنع آلهتها على حدة وبقيت هذه الآلهة مستقلة بعضها عن البعض الآخر زمناً طويلاً .

وحيث انّ أوّل ظهور لهذه العقائد كان في عصر لا زال الناس فيه يعيشون طبقاً لنظام الأسرة ، فقد كان لهذه الآلهة طابع المعبودات المنزلية . لقد اتخذت كل أسرة آلهتها لذاتها واحتفظت بها كل منها لنفسها لتكون حماةً لها لا يشاركها الأغراب فيما تسبغ عليها من نِعَم . وهي فكرة كثيراً ما تظهر في أناشيد الفيدا الهندية . ولا بدّ أنها كانت ماثلة في ذهن اليونان (والرومان) أيضاً لأنها تركت آثاراً واضحة في ديانتهم . فكلّما خلقت أسرة إلٓهها بتشخيص أحد العوامل الطبيعية أشركته في موقدها وأدرجته بين آلهتها المنزلية وأضافت إليه بضع كلمات في صيغة دعائها . ولهذا السبب كثيراً ما نجد عند القدماء تعبيرات كهذه : « الآلهة الجالسة بجوار موقدي »[1] .

من هنا آلاف العبارات المحلية التي لم تستطع الوحدانية أن تجد طريقها إليها .

ومن هنا المنازعات بين الآلهة التي تملأ عصر تعدّد الآلهة والتي هي في الوقت ذاته مظهر لمنازعات الأسر والمدن والأقاليم أيضاً . ومن هنا أخيراً هذا الجمهور الذي لا حصر له من الآلهة والآلهات التي لا نعرف عنها غير الجزء الأصغر فقط ، والتي فاتنا الكثير منها لأنه هلك دون أن يخلف وراءه أثراً يُذكر . حتى اسمه ضاع في زحمة الأحداث ، لأنّ الأسر التي كانت تعبد هذه الآلهة قد انقرضت أو لأنّ المدن التي تدين لها قد دُمّرت . وكان لا بدّ من انقضاء زمن طويل قبل أن تخرج هذه الآلهة من أحضان الأُسر التي صنعتها والتي كانت تعدّها ميراثاً لها ، بل أنّ بعضها لم يتخلص مطلقاً من هذا النوع من الصلة المنزلية . فقد بقيت ديمتر الإيلوسيةDéméter d'Eleusis معبودة خاصة لآل ايمولپوس Eumolpides كما كانت أثينا يا شفيعة أثينا تابعة لأسرة بوتسButades . وقد حدث بمضي الزمن أن حظي معبود إحدى الأسر القوية بسلطانٍ كبير على خيال الناس فاتخذته مدينة بكاملها معبوداً لها وأدت له فروض العبادة لتنال بركاته السنية . وهذا ما حصل لديمتر ربة آل أيمولپوس وأثينا يا معبودة آل بوتس[2] .

إنّ ديانة آلهة الطبيعة هذه أكثر استعداداً للتطور والتقدم من ديانة الموقد التي

---

(١) نقلاً عن المصدر السابق، صفحة ١٦٣ .
(٢) المصدر السابق، صفحة ١٦٣ ـ ١٦٤ .

كانت رهينة أسرة واحدة لا تتخطاها . فمع أنّها بقيت زمناً طويلاً حبيسة الأسرة التي كانت مهداً لها إلاّ أنّه لم يكن هناك ما يحول دون انتشارها خارج أفق الأسرة . إذ لم يكن في الطبيعة الباطنة لهذه الآلهة ما يقصرها على أسرة واحدة فقط لا تتعداها ويحرم الأجنبي من بركاتها .

وكلّما تطوّرت هذه الديانة تجاوزت نطاق الأسرة واجتذبت المزيد من الأتباع والأنصار . وبالتالي اتسع نطاق المجتمع . وهكذا ، فإنّ هذه الديانة التي كانت ديانة ضعيفة في مبدأ أمرها قد اتسعت فيها بعد اتساعاً عظيماً . لقد كانت في الأصل ديانة ضعيفة تعيش تحت حماية الموقد المنزلي جنباً إلى جنب مع الديانة القديمة . فهناك حصل الإلّه الجديد على رقعة صغيرة من الدار أو صومعة ضيقة تقوم بمرأى من الموقد المعظم وبجواره ، تعيش في حماه وتقتسم وإيّاه إحترام الناس وخضوعهم . فلما زادت سلطة هذا الإلّه على النفوس تطلع إلى التخلص من هذه الوصاية شيئاً فشيئاً فهجر الموقد المنزلي واتخذ لنفسه هيكلاً أو محراباً خاصاً تُقرَّبُ إليه فيه القرابين[1] . لقد كان صومعة ثمّ أصبح معبداً ، وتنحّى الموقد ليستقر في مدخل المعبد . إنّه ضيف ثقيل حقاً غزا صاحب الدار في عقر الدار واحتل موقعه ، فشاه وجه الموقد المسكين وضمُر وطفق يلعن الغازي الكبير ويُقلّب كفّيه على ما أسبغ عليه من رفد ووسع له في الحمى . فإنّما الغدر من شيم النفوس المريضة ! لقد ندم على ما فرطت يداه ، ولات حين مندم . لقد كان رب الدار فأصبح ملحقاً بالدار في ركن منسي صغير من الدار . لقد كان إلّها فأصبح مذبحاً للإلّه ، وكانت إليه تُقرّب القرابين فأصبحت منه تقرّب القرابين . لقد اصبحت وظيفته إحراق لحم الأضاحي وحمل القربان . وبعد أن كان الإنسان يتوجه إليه بالدعاء والتضرع رغب عنه وزهد فيه وانصرف إلى ذلك المعبود الدخيل الذي اقتحم عليه وحدته وانتهك حرمته وجعله عبرة لمن اعتبر!

ولا يفوتنا أنّ نذكر أنّه بهذه الديانة التي بدأت آلهتها تتخطى عتبة الدار اخذت الأخلاق أيضاً بالقدر ذاته تخرج من ربقة الأسرة لتتعداها إلى ما وراءها وتكون بالتالي أكثر إنسانية . فهذه الديانة الجديدة لم تقتصر على تعليم الإنسان واجبات الأسرة بل أخذت تفرض عليه واجبات أخرى . فكان زيوس (أو جوبتر عند الرومان) إلّه الضيافة ، ومن قِبله يأتي الأجانب والمتوسلون والمعدمون ،

---

(١) المصدر السابق، صفحة ١٦٥ .

أولئك الذين يجب معاملتهم معاملة الأخوة . وكانت هذه الآلهة كثيراً ما تتمثل للناس بشراً وتتراءى لهم في غدواتهم وروحاتهم ، وكان ذلك في بعض الأحيان لتشهد معاركهم وتشترك في قتالهم ، وفي أكثر الأحيان أيضاً لتوصيهم بالوفاق والتعاون وأنّ يحبّ بعضهم بعضاً ، ويرأف بعضهم ببعض[1] ، وقد آتت هذه التعاليم ثمارها . وبالفعل فقد تغيرت أخلاق الإغريق مع الزمن ، وإنّا لنجد في الإلياذة عواطف جديدة وأخلاقاً أخرى سنبينها فيما يتلو من الكتاب . فقد كانت الجماعة البشرية والفكرة الدينية والفكرة الأخلاقية تسير جنباً إلى جنب ، فتمشي معاً وتتوقف معاً وتنمو معاً .

هيلاس

كانت بلاد اليونان القديمة تُسمى هيلادHellade (هيلاسHellas) نسبة إلى مقاطعة صغيرة في تساليThessalie بهذا الإسم تقع شمال جبل أوترس M Othrys ويُطلق على سكان هذه البلاد اسم الهلينيينHellènes .

ويرجح توينبي في تحقيقه لكلمة (هيلاس) أنّها كانت في الأصل تفصل بين وسط اليونان الذي أُطلق على المنطقة الواقعة حول رأس خليج مالياك على الحدود بين وسط اليونان وشماله ، وهي المنطقة التي كانت تحوي معبد إلّهة الأرض ومعبد أبولون في دلفوس ومعبد ارتميسArtémis في أنثيلاAnthela بالقرب من ثرموبولاي (وهو الممر الضيق بين البحر والجبل والطريق الرئيس الذي يصل بين وسط اليونان وشماله[2] .

وقد خرجت الحضارة الهلينية إلى الوجود في أواخر العصر الالفي الثاني قبل الميلاد واحتفظت بشخصيتها منذ ذلك التاريخ حتى القرن السابع بعد الميلاد . وكان أول ظهور لها على بحر إيجه ، ومن هناك انتشرت إلى ما حول شواطىء البحر الأسود والبحر المتوسط ، ثمّ اتسع نطاقها برّاً فتوغلت في بلاد الشرق حتى آسيا الوسطى والهند ، وامتدت غرباً إلى شواطىء شمال أفريقيا وأوروبا المطلّة على الأطلنطي ، بما في ذلك جزء من الجزيرة البريطانية[3] .

---

(١) المصدر السابق، صفحة ١٦٥ .
(٢) ارنولد توينبي : تاريخ الحضارة الهلينية صفحة ١١ .
(٣) المصدر السابق، صفحة ٧ .

وقد شهدت بلاد اليونان قبل الحضارة الهلينية حضارة أخرى هي الحضارة الموكينية mycénienne التي ترتد إليها جذور الدين والميثولوجيا في اليونان القديمة كما أوضح ذلك نيلسون M . P . Nilsson [(١)] وقد انهارت هذه الحضارة الأخيرة في القرن الثاني عشر قبل الميلاد .

يعتقد اليونان أنهم أصيلون في جزيرتهم ، والمعتقد أنّهم جاءوها من آسيا ، فهم آريون أو هنديون أوربيون كما يظن علماء تاريخ اللغات . وكانوا يُسمون سكان بلادهم الأولين بالبيلاجيين Pélesges ويُسمون أنفسهم بالهلنيين . وكانوا أربع قبائل كبرى مختلفة خلقاً ولهجة : الإيوليون والدوريون في الشمال ، والآخيون والإيونيون في البيلوبونيوس Péloponnèse (المورة اليوم) . ولكنّ هذا التقسيم اضطرب في القرن الثاني عشر ق . م . إذ أغار أهل تساليا على شمال اليونان ، فهاجر الإيوليون إلى آسيا واحتلوا لسبوس أكبر جزر الشاطىء الآسيوي ، وسيطروا على هذا الشاطيء من الدردنيل إلى خليج أزمير ، فسُميّت هذه المنطقة باسمهم (ايوليا) . أما الدوريون فهبطوا المورة واخضعوا الآخيين وتهددوا الإيونيين ، فجلا هؤلاء : فريق منهم صعد إلى أتيكا (المنطقة المحيطة بأثينا) في شمال المورة إلى الشرق ، وفريق أبحر إلى آسيا فاحتلّ جزيرتي خيوس وساموس والشاطىء الآسيوي من أزمير إلى نهر مياندر ، فعُرفت هذه المنطقة باسم إيونية ، وقامت فيها مدن شهيرة أهمها أزمير (التي اغتصبوها من الإيوليين) وأفسوس وملطية[(٢)] . وقد ذكرنا هذه الأسماء والمواقع لأنها ستتردد كثيراً في سياق هذا الكتاب .

عندما جلا الإيونيون إلى أتيكا ، وجدوا فيها شعباً نشيطاً مغامراً كان قد استقر هناك منذ العصر الحجري المتأخر أو قبله ، فأكرم وفادة القادمين الجدد ، فلم يكن هؤلاء القادمون فاتحين من الأجانب يستغلون أهل البلاد الأولين ، بل كانوا سلالة مختلطة من شعوب البحر الأبيض المتوسط ورثوا دم الحضارة الهلينية وثقافتها ، وكانوا يعتزون بنشأتها وصفاتها الأصيلة . وكان نظامهم الإجتماعي مستمداً من صلة الدم هذه . فكانت كل أسرة تنتمي إلى قبيلة من القبائل يدعي أفرادها أنّهم من نسل بطلٍ مقدّس واحد ويعبدون إلهاً واحداً ، ويشتركون في

---

(١) نقلاً عن جان بيار فرنان : أصول الفكر اليوناني ، صفحة ٥ ـ ٦ .
(٢) يوسف كرم : تاريخ الفلسفة اليونانية ، صفحة ١ ـ ٢ .

حفلاتٍ دينية واحدة ، ولهم أرخون (حاكم) واحد ، وخازن على المال واحد ، ويقتنون مجتمعين بعض الأراضي العامة ، ويستمتعون بحق التزاوج والتوارث ، ويقبلون ما تفرضه عليهم واجبات التعاون والثأر والدفاع . وكانت كل قبيلة من قبائل اتيكا الأربع تتألف من ثلاثة بطون ، وكل بطن من ثلاثة أفخاذ ، وكل فخذ من ثلاثين من آباء الأسر أو نحوهم . ويغلب على الظن أنّ كلّ بلدة أو قرية كانت في الأصل موطن بطن من البطون ، وكانت تُسمى أحياناً بإسم هذا البطن أو بإسم الإله أو البطل الذي تعبده ، وكانت هذه هي الحال في أثينا نفسها[1] .

وهكذا فقد كانت حياتهم الأولى محصورة فيما يمكن أن يوصف بأنّه دوائر ولاء متمركزة (الأسرة ـ القبيلة ـ الأخوية . . .) . وكان الفرد في هذه الدوائر يتلقى أول دروسه في حقوق المواطن . ففي هذه الدوائر الداخلية ، وقبل كل شيء في الأسرة ، كان اتصال الفرد بالحياة اليومية وثيقاً . فقد كان طوال عمره ، منذ صباه محاطاً بالنظام القبلي يعيش بجمودٍ وتهيب في عالم مليء بالمخاوف والأحلام والقوى الخفية والآلهة التي تملأ عليه دروب حياته ومنافذ تفكيره . هكذا كان حال اليونان حين دخلوا هيلاس في جموع عديدة متفرقة أثناء الألف سنة الثانية قبل الميلاد . لقد كانوا قوماً متوحشين أو يكادون . لقد كانوا قبائل رُحَّلَ أو شبه رُحَّل ، وكانوا غير مستقرين وغير آمنين ، حتى إنّهم لم يفكروا في أنّ الأمر يتطلّب منهم أن يزرعوا شجرة فاكهة ، أو أن يبنوا بيوتاً جميلة أو أن يقوموا بأي عملٍ دائم في المستقبل .

لقد كان العالم اليوناني في الواقع عالماً يسير في الطريق المضاد لعالمنا اليوم ، عالماً لا يسير من الفوضى إلى النظام ، بل من الرقابة الإجتماعية إلى الحرية الفردية . ففي عالمهم الأول عالم القبائل والعشائر والأسر ، لم يفكّر أحد في حقوقه ولم يناقش مطالب الجماعة . فمن الوجهة العملية كان كل ما في حوزته ملكاً للعشيرة ، ولن يدعي حقاً له في حياته إذا ما طلبوه منه . فلماذا إذن يفكّر في المطالبة ببيته وبحقله أو بماشيته . إنّه يحتفظ بثروته من أجل الجماعة الصغيرة التي حوله ، لإنّه إذا كانت هذه الثروة تخصُّه من حيث هو رب الأسرة أكثر مما تخصهم ، فذلك لأنّه خلال تطور الأجيال البطيء ، روئي أنّ الملكية الخاصة بهذا الشكل المحدود خير للجماعة وحفاظاً على حدتها . فإن الملكية التي تكون بهذه

---

(١) ول ديورانت : قصة الحضارة ٦ / ٢٠١ ـ ٢٠٢ .

الصفة لا تنطوي على حقوق وإنّما هي تفرض واجبات فقط[1] . إنّهم منذ الآن لن يكونوا عبيداً يكتفون بأن تُفرض عليهم الواجبات ، إنّهم طلاب حقوق ، ولن يتأتى لهم ذلك إلا في المدنية .

النظام القصري

لكن قبل ظهور المدينة قامت الدولة في شكلها البدائي الأول حيث كانت الحياة الإجتماعية متمركزة حول القصر الذي كانت مهمته دينية وسياسية وعسكرية ، وإدارية واقتصادية في وقت واحد ، وفي هذا النظام القصري كان الملك يجمع في يده ويُوحِّد في شخصه كل عناصر السلطة ومظاهر السلطان ، وكان يراقب وينظم بدقة جميع قطاعات الحياة الإقتصادية وكل مجالات النشاط الإجتماعي بواسطة كتبة وقيّمين مخصوصين تتألف منهم طبقة مهنية حددتها التقاليد بفضل تنظيم هرمي معقد من رجالات القصر الكبار والمفتشين الملكيين[2] .

هكذا كان الحال في عصر البطولات أو عصر الفوضى كما يُسمى أحياناً ، أي العصر السابق على هوميروس ، عصر الدولة المينية الموكينية . وعندما انهارت هذه الدولة في القرن الثاني عشر قبل الميلاد تحت ضربات القبائل الدورية التي دخلت إلى اليونان القارية ، لم تكن مجرّد سلالة ملكية هي التي سقطت في الطوفان الذي غمر بيلوس وموكينا ، بل لقد اجتاح الطوفان أيضاً نظام الحكم الملكي والشكل الكامل للحياة الإجتماعية المتمركزة من حول القصر ، واختفت في إثر ذلك من الأفق اليوناني كلّه شخصية الملك الإلّهي الذي لا يُسأل عمّا يفعل ، وهم يُسألون ! وقد تجاوز انهيار النظام الموكيني والقوة الموكينية في نتائجها نطاق التاريخ السياسي والإجتماعي ، فانعكس على الإنسان اليوناني نفسه ، إذ غيَّر عالمه الروحي وأحدث تبديلاً عميقاً في بعض أوضاعه النفسية . ومنذ ذلك الحين أدّى غياب الملك ـ في نهاية حقبة طويلة وقاتمة من العزلة ومن عودة ما يُسمّى بالعصر الوسيط اليوناني ، إلى تجديد مزدوج وتضامني تجلى في تأسيس دولة المدينة ونشوء الفكر العقلاني[3] .

---

(1) الفرد زيمرن : الحياة العامة اليونانية صفحة ٣٤٥ .
(2) جان بيار فرنان : أصول الفكر اليوناني صفحة ١٧ ـ ١٨ .
(3) المصدر السابق، صفحة ٦ .

كان اليونان القدماء إذا ما أغار عليهم عدو شديد ولم يستطيعوا له دفعاً تركوا قراهم إلى جهاتٍ منيعة قد تكون أحياناً من أعالي الجبال وظلوا معتصمين بها إلى أن يتراجع العدو . وكانت هذه الحصون الأولى تحمل اسماً مشهوراً بوليصPolis وهي الكلمة التي ستتجمع حولها منذ الآن ذكريات الوطنية بدولة المدينة . يقول توكيديدس :« لهذا السبب ظل الأكروبوليص[1] يُعرف عند الأثينيين باسم المدينة حتى الآن »[2] .

كانت المدينة حلفاً يتألف من عدة قبائل ، والقبيلة تتألف من عدة أخويات ، وكل أخوية تتألف من عدة أسر . وعندما كانت تنضم هذه المجموعات المختلفة بعضها إلى بعض لم تكن تفقد الواحدة منها شخصيتها أو استقلالها . فعلى الرغم من أنّ عدّة أسر قد اتحدت في أخوية مشتركة ، فإنّ هذا لم يؤثّر في تكوينها الداخلي ، إذ بقيت كل واحدة منها كما كانت في أيام عزلتها لم يتغير فيها شيء ، لا عبادتها ولا كهنوتها ولا أعيادها أو اجتماعاتها أو رئاستها . . . كل شيء بقي على حاله كما لو كانت المدينة غير موجودة . فكل ما حدث من جديد إنّما هو اضافة عبادة مشتركة إلى العبادات الصغيرة ، وحكومة مشتركة إلى الحكومات الصغيرة ذات الوظائف المحدودة[3] .

ومعنى ذلك أنّ المدينة كانت معروفة عند اليونان القدماء قبل نشأة دولة المدينة ، ولكنها لم تكن تجمعاً من الأفراد كما هو حال مدننا الحديثة وإنّما كانت حلفاً من مجموعات أو وحدات قديمة كانت موجودة من قبل فبقيت كما كانت . لقد كانت مدينة بدائية بكل معنى الكلمة قبل أن تنبثق منها دولة المدينة . هكذا كانت مدينة أثينا في العصور العتيقة . يقول فلوطرخس : كانت أتيكا[4] مقسّمة في الأصل إلى عدة أسر . وهذه الأسر التي ترجع إلى العهد البدائي . . . ظلّ بعضها قائماً حتى العصور التالية . لم تكن المدينة الأثينية موجودة عندئذٍ ، بل كانت كل أسرة ـ تُحيط بها فروعها الصغرى ومواليها ـ تحتل ناحية وتعيش فيها مستقلة استقلالاً مطلقاً ، وكان لكل منها ديانتها الخاصة وشفيعها ،

(١) من المقطع aeros بمعنى مرتفع وبوليص حصن .
(٢) نقلاً عن الفرد زيمرن : الحياة العامة اليونانية ، صفحة ٨٤ .
(٣) موستيل دي كولانج : المدينة العتيقة ، صفحة ١٦٧ ـ ١٦٩ .
(٤) الإقليم المحيط بأثينا الذي كانت أثينا عاصمة له .

فالإيموليون Eumolpides المقيمون في أليسيس Eleusis يعبدون ديمتر، والشكروبيونCécropides الذين كانوا يسكنون الرابية التي تأسّست عليها أثينا فيما بعد كانت معبودتهم الحامية أثينايا Alhéné وبوسيدونPoséidon ، وبجوارها على أكمة الأريوباغوسAréopague الصغيرة كان الإله الحامي هو آريسArès وفي ماراثون هيراقليسHeraclès وفي براسيسPrasies إله يحمل اسم أبولون، وكان هناك أبولون آخر في فليبسPhlyes والديوسقورانDioseures في كيفالي Céphale وهكذا كان الحال في جميع المقاطعات الأخرى(١) .

وهكذا فقد كانت هناك مجتمعات صغيرة حوالي المئة تعيش منعزلة في البلاد لا يجمعها أي رباط ديني أو سياسي ، ولكلّ منها منطقتها وكثيراً ما كان بعضها يغير على بعض . تلك هي دول الأسر . وهي مجتمعات من الصغر بحيث تستطيع كل أسرة تصريف شؤونها بالإتصال المباشر بين أفرادها . لقد كانت سابقة على دولة المدينة وكانت منفصلة احداها عن الأخرى إلى حدّ أن الزواج فيما بينها كان محرّماً أو يكاد . لكن الحاجات والعواطف قد قربت بينها فاتحدت تدريجياً في مجموعات أربع . وهكذا ورد في الأخبار أنّ البلاد الأربع في سهل ماراثون قد تجمعت لتعبد سوياً الإله أبولون في مهبط وحيه ، وتجمع أهالي بيراتوسPirée وفاليرونPhalère ومحلتين أخريين متجاورتين ، وبنوا معاً معبداً لهراقليس . وبمضي الزمن اختُزلت هذه الدويلات المئة إلى حوالي اثني عشر اتحاداً مستقلاً استقلالاً تاماً لكلٍ شفيعه ومذبحه ورئيسه وناره المقدسة . وتنسب الأساطير هذا الإنجاز العظيم إلى جهود شكروبس . فبه انتقل شعب اتيكا من حالة الأسرة الأبوية القديمة إلى مجتمعٍ أكبرَ بقليل ، وقد حدث ذلك في القرن السادس عشر قبل الميلاد تقريباً . ويجبُ ألاّ ننسى أن شكروبس هذا لم يكن يحكم سوى جماعة واحدة من الجماعات الإثني عشرة ، وهي التي ستنبثق عنها مدينة أثينا فيما بعد(٢) .

وكانت الحرب سجالاً بين هذه المجموعات . وبمضي الزمن اشتدّ نفوذ الشكروبيين حتى كانت لهم السيادة على الإحدى عشرة دولة الأخرى ، وأما رابيتهم فقد تطورت فيها عبادة أثينايا شيئاً فشيئاً ، وانتهت بأن اتخذت اسم أثينا

(١) نقلاً المصدر السابق، صفحة ١٧٠ .
(٢) المصدر السابق، صفحة ١٧٠ ـ ١٧٢ .

تيمناً بإسم إلهتها الرئيسة التي ورد ذكرها الآن . عندئذٍ ظهر ثيسيوسThesée الذي انتهت إليه رياسة الشكروبيين ، فنجح في توحيد المجموعات الإثنتي عشرة في مدينة واحدة وعبادة واحدة هي عبادة ايثنايا بوليص (أثينايا المدينة) عمَّت منطقة أتيكا كلها ، وجعل بيت نار أثينا هو المركز الديني لكل اتيكا ، بعد أن كان لكلّ قرية نارها المقدّسة وبيت نارهاPrytanné وهكذا قامت الوحدة الأثينية ، الدينية والسياسية ، رغم احتفاظ كل ناحية برؤسائها وقضاتها وعباداتها القديمة وحقها في الإجتماع . غير أنها جميعاً اتخذت عبادة مشتركة وخضعت لحكومة المدينة المركزية[1] .

لقد كان من الصعوبة بمكان إقامة الرباط الإجتماعي بين هذه الكائنات البشرية الكثيرة التي تعددت منازعها واختلفت مشاربها . إذ إنّ اعطاءهم قواعد مشتركة واخضاعهم لقيادة واحدة وعبادة واحدة لم يكن أمراً سهلاً في ذلك العصر لأنه يتطلب شيئاً أشدّ من القوة المادية وأكثر رسوخاً في قرارة النفوس : ذلك الشيء هو العقيدة ، فما من شيء أقوى سلطاناً على القلوب منها . فالعقيدة هي التي جمعت الأسرة حول المذبح وهي التي وحّدت غاياتها ومشاعرها . من هنا جاءت الديانة الأولى والصلوات الأولى ، ومن هنا انبثقت الأخلاق الأولى . وفي مقدمتها أخلاق الواجب . ثمّ كبرت العقيدة واتسعت الجماعة وشعر الناس بأنّ لهم آلهة مشتركة ومنافع مشتركة . ثمّ كبرت العقيدة واتسعت الجماعة : فكلّما شعر الناس بأنّ لهم آلهة مشتركة دخلوا في جماعات أكبر .

ويجب ألّا يغيب عن أذهاننا أن رباط المجتمع بأكمله في العصور القديمة هو العبادة . فكما أنّ الموقد المنزلي كان يجمع حوله أعضاء الأسرة ، كذلك كانت المدينة هي مجتمع أولئك الذين يتخذون نفس الآلهة الحماة والذين كانوا يقومون بالعمل الديني لدى نفس الموقد . ولم يكن في المدينة شيء أقدس من هذا المذبح الذي كان يُعنى فيه بالنار المقدسة دائماً ، كما لم يكن في المنزل أيضاً ما هو أقدس من الموقد المقدّس . وكان أمام القبر مذبح للضحايا كما كان الحال أمام معابد الآلهة سواء بسواء . وكانوا يعتقدون أنّ المعبود هو الذي يجب أن يختار موقع المدينة وأن يكشف لهم عنه ، لذلك كانوا يستشيرون وحي دلفوس عندما كانوا

(١) المصدر السابق، صفحة ١٧١ - ١٧٢ .

يريدون تأسيس إحدى المدن . والسبب في هذه الشعائر ، هو تطلّع هؤلاء الناس إلى جعل الآلهة يستقرون معهم في المدينة ، ويكونون حماة لهم من النوائب والرزايا وغدر الأيام والسنين[1] .

لم يكن في المنزل أو المدينة شيء أقدس عند اليوناني القديم من القبر أو المذبح الذي كان يُعنى فيه بالنار المقدسة دائماً . لكن هذا التقديس الكبير أخذ نصيبه الضعف والفتور . ومع أنّ وضع العبادة واحد سواء من بلاد اليونان أو في العالم الروماني ، فإنّ هذا النضج قد حدث في وقت مبكّر في بلاد اليونان الذين كانوا أكثر تطوراً من الرومان ، إذ إنّ الخيال الإغريقي قد استمالته معابد أكثر جمالاً والمساطير أكثر خصباً وتماثيل أكثر بهاء ، لكنّ شيئاً من ذلك لم يحدث في روما . فإنّ الرومان لم ينفكوا عن الإعتقاد بأنّ مصير المدينة مرتبط بالموتى حماة البلاد ، وبالموقد الذي كان يرمز إلى آلهتها . فإذا لم تقدم العبادة للموتى أو انطفأت النار أو دُنست العبادة بإرتكاب ما ينافي واجب العفة كانت المدينة تعتقد أنّها مهددة بفقد آلهتها . وهذا ينذر بشر مستطير[2] .

الجهل بعقيدة التوحيد

ويجب أن نعترف منذ الآن بأن القدماء ـ اللهم إلاّ إذا استثنينا بعض النادرين من النخبة المفكّرة ـ لم يتصوروا الله قطّ ذاتاً واحدة تهيمن على الكون ، بل كان لكل واحد من الهتهم التي لا تُحصى نطاقه الصغير الذي يقع تحت إشرافه : فلهذا الإلّه أسرة يحنو عليها ويحتضنها برعايته ، ولذاك قبيلة يحميها من الأعداء ، ولإلّه آخر مدينة يكلؤها بعينيه ويجيرها كلما استجارت به ، وهكذا دواليك . أما الله الواحد الأحد الذي يحكم الكون بأسره والذي يجب أن يدين الناس جميعاً له بالطاعة والعبادة ، فإنّ بعض الفلاسفة ، فقط استطاع أن يتصوره تكهناً ورجماً بالغيب . لكن العامة لم تستطع أفهامها بلوغه والاعتقاد به . وقد ظلّ دهراً طويلاً لا يرى في الذات الإلّهية إلاّ قوّة حامية له هو شخصيا .

ويريد كل منا أن يكون الله على حسابه ويتصوره مسؤولا عن كلّ خطوة يخطوها أو تحرك يقوم به كأن الله لا عمل له إلاّ رعاية أخينا هذا !! ولا زلنا حتى

---

(1) المصدر السابق،صفحة ١٧٨ ، ١٨٣ ـ ١٨٥

(2) المصدر السابق، صفحة ١٩٥ ، ١٩٩ .

اليوم « نرى عند سلالة هؤلاء الإغريق فلاحين جفاة يدعون القديسين بحرارة . لكن يخالجنا الشك في أن تكون لديهم فكرة عن الله ، كل واحد منهم يريد أن يكون له بين هؤلاء القديسين حامٍ منقطع له ، منعم مقصور عليه . وفي نابولي ، لكل حيّ سيدة (مادونا = السيدة العذراء) . فالصعلوك يركع أمام سيدة شارعه ويقذف في حق سيدة الشارع المجاور له ، وليس من النادر أن نرى اثنين من الحمّالين يتشاجران ، ويتضاربان بالمِدى ، من أجل أعطيات سيدتيهما . . . » على حدّ قول فوستيل دي كولانج[1] .

وهكذا فقد كان لكل مدينة هيئة كهنتها المستقلة التي لا تتبع أي سلطة أجنبية ، فلم تكن هناك أي رابطة بين كهنة مدينتين ولا أي صلة ولا أي تبادل في التعليم أو الشعائر . فإذا ما انتقلنا إلى مدينة أخرى وجدنا آلهة أخرى وتعاليم أخرى وأعياداً واحتفالات أخرى[2] .

لم يكن الإنسان يعرف سوى آلهة مدينته ولم يكن يمجد غيرها أو يحترم سواها . وكانت كل مدينة تنتظر سلامتها من شفعائها وآلهتها هي . لذلك كان الناس يؤدون لها فروض العبادة لكي يضمنوا لأنفسهم الحماية والسلامة . وكان بهذه الآلهة نهم شديد للقرابين فكانوا يغدقونها عليها شريطة أن تسهر على سلامة المدينة وتنصرها على أعدائها . ويجب ألا ننسى أن فكرة العبادة كانت مقصورة على تغذية الإله وإشباع نهمه للحوم والكعك والخمر والعطور والملابس والحِلى والرقص والموسيقى . ولما كانت العبادة محلية مقصورة على مدينة بعينها لا تتعداها إلى غيرها ، فقد نتج عن ذلك أنه ما من مدينة كانت تسمح للأجانب بتقريب القرابين لآلهة المدينة ولا حتى بدخول معبدها . فإذا أُريد للآلهة ألا تتعهد غيرها من المدن كان لزاماً عليها ألا تتلقى العبادة إلا من المدينة التي تتقرب إليها بالشعائر والقرابين . وكان الآلهة والمواطنون معاً يعملون متكافلين متضامنين لتحقيق النصر ، فإذا ظفروا بأعدائهم فرحوا واستبشروا ، وإلا فالويل للآلهة ، إنهم وحدهم يتحملون تبعة الهزيمة ، ولذلك كانوا يلومونهم على هذا التقصير بل كانوا يذهبون في بعض الأحيان إلى حد هدم مذابحهم وقذف معابدهم بالحجارة ، وكانوا في أحيانٍ أخرى يلومون أنفسهم ويأخذونها بالتقريع والتوبيخ ظناً منهم أن

---

(١) المصدر السابق، صفحة ٢٠٢ .
(٢) المصدر السابق، صفحة ٢٠٢ ـ ٢٠٧ .

المدينة لا يمكن أن تؤخذ ما دامت آلهتها فيها ، فإذا أسقطت فما ذلك إلا لأن هذه الآلهة قد هجرت المدينة إما بدخول بعض الأجانب خلسة إلى معابدها وسرقة تماثيلها ، أو باغرائها بالخروج من المدينة بتلاوة بعض الأدعية والتعاويذ وبذل الوعود السخية لها .

ولا تحسبن هذه العقائد قاصرة على العصور البدائية للشعب اليوناني بل إننا لنجدها على عهد صولون (٦٤٠ ـ ٥٥٨ ق . م) المعاصر لأول رجل بدأت به الحركة العقلية الخالصة في بلاد اليونان وأعني به طاليس ، أول فيلسوف يوناني شب عن الطوق وحطم القيد ودخل الصرح العظيم ، صرح الحكمة الخالدة . ومن بعده تعاقب الفلاسفة بعضهم في إثر بعض يرفعون عقيرة العقل ويُنادون بحقوق العقل ويدعون إلى حرية العقل !! .

في عصر طاليس هذا وقعت هذه القصة التي يرويها لنا أفلوطرخس : أراد صولون أن تكون الإلَهة أثينا هي سيدة جزيرة سلامين الصغيرة التي كانت عندئذٍ تابعة للميغاريين . فاستشار الوحي فأجابه : « إذا أردت الإستيلاء على الجزيرة فإنه لا بد أن تحصل أولاً على عطف الأبطال الذين يحمونها والذين يسكنون فيها » . فأطاع صولون ، وباسم أثينا قرَّب القرابين لبطلي سلامين الرئيسين . فلم يقاوم هذان البطلان الهبات المقدَّمة لهما وانتقلا إلى جانب أثينا . [وهكذا] فإنه لما حُرمت الجزيرة من حماتها استولوا عليها[1] .

وإذا حاول المحاصرون في زمن الحرب الإغارة على معبودات المدينة تشبث أهلها بهذه المعبودات ولم يدخروا وسعاً للحفاظ عليها . فكانوا في بعض الأحيان يربطون الإلَه بالسلاسل ليمنعوه من الفرار ، وفي أحيانٍ أخرى كانوا يخبئونه في قرارٍ مكين لا تدركه الأبصار ، وبذلك لن يستطيع العدو له طلباً ، كما كانوا أيضاً يقاومون دعوات إغراء الإلَه بدعوات مضادة من شأنها أن تحجزه في مكمنه . وقد « ابتكر » الرومان وسيلة أخرى للإحتفاظ بآلهتهم سبقوا بها جيرانهم اليونان ، وذلك بكتمان اسم أهم آلهتهم وأقواها ، ظناً منهم أنه ما دام الأعداء لا يستطيعون دعاء هذا الإلَه باسمه فلن يغادر أصحابه إلى مكانٍ آخر قط ، وبالتالي سَتَسْلَم مدينتهم ولن تسقط أبداً »[2] .

---

(١) نقلاً عن المصدر السابق، صفحة ٢٠٧ .
(٢) المصدر السابق، صفحة ٢٠٧ ـ ٢٠٨ .

ليتَ شعري ! كم تبدو لنا هذه العقائد اليوم سخيفة جافية بعيدة عن الطبع ، ولا سيما إذا تذكرنا أنها كانت عقائد شعبٍ عظيم ، بل أعظم شعوب ذلك الزمان خيالاً وروحانية . وكان لها على هذا الشعب (وعلى الشعب الروماني أيضاً) سلطان بلغ من قوته أن أكبر جزء من قوانينها وأنظمتها وتاريخها هو وليد هذه العقائد نفسها منبثق عنها يدين لها بالخيال والإبتكار والعبقرية .

الفصل الثاني

من الديانة إلى السياسة

كان الدين طاغياً على جميع أفعال القدماء ، مالكاً عليهم أحاسيسهم وتصرفاتهم ، فلا يتحركون إلاّ به ، ولا يصدرون إلا عنه ، ولا تخفق أنفاسهم إلا بنسماته . لقد ملأ التعبير الديني دروبهم واستحوذت الآلهة على آفاقهم ، فكان لكل شيء معناه الديني ودلالته الروحية وأبعاده اللاهوتية ، فكل شيء إنما هو آتٍ من الآلهة ومصدره إرادة الآلهة وهو بالتالي تعبيرٌ عن إرادة الآلهة ، وتلك بيئة خصبة مثالية لنشأة الأحلام والرؤى والأساطير .

لم يكن هناك عمل واحد من أعمال الحياة العامة والخاصة لا يُقحمون الآلهة فيه ، ولم يكن هناك مظهر من مظاهر الطبيعة ، إلا وللقوى الخفية منفذٌ إليه . لقد كانت الديانة قوية راسخة سواء في زمن السلم أو في زمن الحرب . لقد كانت حاضرة على الدوام ، محيطة بالإنسان ، فكان كل شيء تحت سيطرة ديانة المدينة : الحياة الخاصة والحياة العامة ، والطقوس والشعائر والأعياد ، في الحياة وبعد المات . لقد كانت تُنظم كل أفعال الإنسان وتتصرف في جميع لحظات حياته ، وتُعينّ كل عاداته وأنماط سلوكه . لقد كانت تحكم الكائن البشري بسلطان مطلق بلغ من أمره أنه لم يبقَ أي شيء خارجاً عنها .

لقد كانت الديانة تنص على أن يكون للموقد كاهن أعلى دائماً ، ولم تكن أبداً تسمح باقتسام السلطة الكهنوتية . فكان للموقد المنزلي كاهن أكبر هو رب الأسرة ، وكذلك كان لكل قبيلة رئيسها الديني الذي كان الأثينيون يسمونه ملك القبيلة ، ومن الطبيعي أيضاً أن يكون للمدينة كاهنها الأكبر وحبرها الأعظم . إنه سادن الموقد العام وراعيه ، أو حارس بيت النار Prytane إنه ملك المدينة الذي

كانوا يسمونه أيضاً الأرخون archonte (arkhôn) أن كثرة الأسماء تدل على شرف المسمى . فالملك والأرخون والكاهن الأكبر والحبر الأعظم ، وسادن بيت النار كلها أسماء مختلفة تدل على شخصٍ واحد هو رئيس العبادة الذي كان يشرف على الموقد ويقدم القربان ويتلو الدعاء ويرأس الحفلات الدينية[1] .

وهكذا فقد كان ملوك بلاد الإغريق القدماء (كذلك ملوك ايطاليا) كهنة بقدر ما كانوا ملوكاً ، يؤيد ذلك قول أرسطو : « ليست العناية بالقرابين العامة للمدينة تابعة لكهنة مخصوصين ، بل لأولئك الرجال الذين يتلقون وظيفتهم في الموقد والذين يسمونهم هنا (ملوكاً) ، وهناك (قيِّمين) على بيت النار ، وفي مكانٍ آخر (أراخنة) ، وذلك طبقاً للعادة الدينية »[2] .

لقد كانت السلطة على الأسرة في الزمان الأول ملازمة للكهنوت ، وكان الوالد ـ من حيث هو رئيس العبادة المنزلية ـ قاضياً وسيداً . لقد كان كل شيء مما يختص بالأسرة في قبضته . وكذلك كان كبير الكهنة في المدينة . فهو الرئيس السياسي والرئيس الديني في وقتٍ واحد . وهذا الخلط بين الديانة والسياسة ، بين الكهنوت والسلطان ، نجده في أصل جميع المجتمعات القديمة . فقد كانت ديانة المدينة متشابكة في كل شيء ، فكان الإنسان يشعر دائماً أنه يستمد العون من آلهته ، وبالتالي من هذا الكاهن القائم بينه وبينها . وهذا الكاهن هو الذي كان يسهر على النار المقدسة ، وكانت عبادته اليومية هي التي تنقذ المدينة في كل يوم كما يقول أفلوطرخس على لسان بنداروس »[3] ، وهو الذي يعرف طريقة الأدعية التي تستجيب لها الآلهة ، وهو الذي يقدم الذبائح والأضاحي في ساعة القتال ويجلب للجيش حماية الآلهة . وبذلك أصبح الكاهن رجل دولة وقاضياً ورئيساً حربياً في وقتٍ واحد . وسواء كان الموقد موقد الأسرة أو موقد المدينة فقد كانت الديانة تنص على انتقال مهمة القيام عليه من الوالد إلى الابن دائماً . وهكذا كان الكهنوت وراثياً وكانت السلطة وراثية[4] ، ومن هنا أصل وراثة العرش .

ومعنى ذلك بطبيعة الحال أن ملوك أثينا القدماء لم يحصلوا على سلطتهم

(١) المصدر السابق، صفحة ٢٣٦ .
(٢) نقلاً عن المصدر السابق، صفحة ٢٣٦ ـ ٢٣٧ .
(٣) نقلاً عن المصدر السابق، صفحة ٢٤٠ .
(٤) المصدر السابق، صفحة ٤٠ ـ ٢٤١ .

بطريق البطش والعنف ، بل لقد انتقلت السلطة إليهم تلقائياً وبحكم طبيعة الأشياء . فلم تكن القوة إذن هي التي خلقت الرؤساء والملوك في هذه المدن القديمة . إن السلطة كانت مستمدة من عبادة الموقد . فالديانة خلقت الملك في المدينة كما أنها هي التي خلقت رئيس الأسرة في البيت . حسب الكاهن أن يكون مستودع الأشياء المقدسة وحارس الآلهة والقيِّم على بيت النار حتى يكون مصدراً لجميع السلطات في المدينة كما كانه في الأسرة . فكيف يمكن التفكير في عدم طاعة مثل هذا الرجل ؟ كان الملك ذاتاً فوق جميع الذوات ، إنه الذات المقدسة كما يقول بنداروس . إنهم لم يكونوا يرون فيه إلهاً بكل معنى الكلمة ، ولكنه يظل على الأقل « أقوى رجل في تسكين غضب الآلهة » كما يقول صوفوقليس ، الرجل الذي لولاه لا يُستجاب الدعاء ولا يُقبل القربان[1] .

وهكذا استقرت المَلَكية التي نصفها ديني ونصفها سياسي في جميع البلدان منذ نشأتها ، بلا جهدٍ يبذله الملوك أو مقاومة يبديها الرعاية . فقد تكوَّن المجتمع اليوناني (والروماني) ببطء مع طول الزمن وعلى درجاتٍ ، بالإنتقال من الأسرة إلى القبيلة ، ومن القبيلة إلى المدينة ، بلا هزات ولا انتفاضات . لقد استقر النظام الملكي بطريق طبيعي في الأسرة أولاً وفي المدينة فيما بعد . لم يبتدعه طموح إلى الرياسة أو مطمع في الحكم ، وإنما ولدته الحاجة الحازبة والضرورة الواقعة ، وكان على تتالي العصور والدهور هادئاً نافذاً يتمتع بالإجلال والإحترام . لم يكن الملوك في حاجة إلى القوة المادية ، لم يكن لهم جيش ولا بيت مال ، لكن كانت تعضدهم عقائد لها على النفوس سلطان أقوى من المنافع والمصالح والأطماع[2] . لقد كانت سلطتهم مقدسة تحرسها القلوب وتصونها المشاعر والعواطف ، وهنا معقد الطرافة فيها .

الثورة على القديم

لكن كل حال يزول ، فقد حدثت فيها بعد ثورات أطاحت بالنظام الملكي وقلبته رأساً على عقب ، ولا نستطيع أن نقول على وجه الدقة متى بدأت هذه الثورات ، وإن لم يكن من الضروري أن تبدأ في وقتٍ واحد في البلاد اليونانية

---

(١) المصدر السابق، صفحة ٢٤١ ـ ٢٤٢ .
(٢) المصدر السابق، صفحة ٢٤٢ .

(والرومانية) . لكن المؤكد أنه منذ القرن السابع قبل الميلاد وهذا النظام الإجتماعي عرضة للنقاش والهجوم في كل مكان تقريباً بعد أن كان مستقراً لا يجرؤ أحد على النيل منه طوال التاريخ القديم كله . فإنه ابتداء من ذلك الوقت بدأ يفقد تماسكه ويترنح حتى لم يعد من الممكن الحفاظ عليه إلا بشق النفس وإلا بالمزيد من الحذق والمهارة ، بل بالمكر والمراوغة ، حتى سقط أخيراً ، وبالتالي سقط مبرر وجوده ومركز الثقل فيه وأعني الملك .

والأسباب التي أدت إلى سقوطه متعددة . فهناك أولاً قانون التغيير الذي لا بد أن يطرأ على الأفكار والآراء والمعتقدات بمرور الزمن تبعاً للتطور الطبيعي في العقلية الإنسانية ، حيث تتهافت العقائد القديمة وتنهار معها البيئة الإجتماعية التي نسجتها هذه العقائد والتي كانت قادرة وحدها على دعمها ومساندتها . وهناك أيضاً وجود طبقة من المتمردين والناقمين الذين لا يلبي النظام القائم حاجاتهم ، فمن مصلحتهم إذن التعجيل في القضاء عليه وتدميره ، وما تزال قوتهم تتعاظم وتتعاظم حتى يتمكنوا من الإطاحة به . فما من مدينة تستطيع أن تصمد إلى الأبد أمام رياح التغيير التي تهب عليها من كل جانب . فقد كان هناك دائماً أفراد قلائل لا يخلو منهم زمان ولا مكان يُحذرون ويُنذرون ويرون ما لا يرى الآخرون . وما تزال الضربات تتوالى حتى يهوي نظام ويقوم على أنقاضه نظام . فما من شكل من لأشكال الإجتماعية التي يتصورها الإنسان ويقرها يستطيع الصمود طويلاً دون أن يُصيبه قانون التغيير . فالنظام الملكي ـ ككل نظام ـ يحمل بذور فنائه . فالمجتمع الذي يحكمه هذا النظام لا يخلو في جميع الأحوال من التناقضات والصراعات التي مهما كانت خفية بعيدة عن السطح في العصور السابقة ، فلا بد بمضي الزمن أن تخرج إلى السطح في يوم من الأيام . وقد حصل ذلك بالفعل تدريجياً ، وأهم هذه التناقضات على سبيل المثال لا الحصر عدم المساواة بين المواطنين والأجانب ، بين السادة والعبيد ، بين الحاكمين والمحكومين ، بين النساء والرجال ، بين المحرومين والمتخمين ، بين الأخ البكر وسائر الأخوة ، بين العلم والجهل ، بين الريف والمدينة . إلخ . .

أجل إن كل نظام مهما بدا كاملاً لا يخلومن التناقضات والصراعات ، فما ظنك بالنظام المتخلف . لقد كان للكثير من الناس ـ من القمة إلى السفح ـ مصلحة أكيدة في التغيير والقضاء على نظام اجتماعي بالٍ ينخر فيه السوس لم يكن هم فيه نفع . هذه إرادة التاريخ ولا معقب لحكم التاريخ وإن طال الزمن . لقد

نمت الثورة في كل مكان في بلاد اليونان ولم تختلف من بلدٍ إلى آخر إلا إختلافاً طفيفاً ، لأن التناقضات واحدة أو تكاد . لقد تفجرت الثورة في أثينا وأسبرطة أولاً ثم عمت جميع المدن التي نعرف تاريخها . ففي حياة المجتمعات انقلابات كثيرة لا تمدنا بذكراها أي وثيقة . إن أحداً لم يتفطن إليها لأنها تمت ببطء وعلى وجهٍ غير محسوس ومن غير نضالٍ ظاهر . تلك هي طبيعة الإنقلابات العميقة والخفية التي تحرك قاع المجتمع البشري دون أن يظهر شيء منها على السطح ، وقد بقيت غير ملحوظة حتى من قِبل نفس الأجيال التي كانت تعمل فيها ، بحيث أن عالم التاريخ لم يستطع أن يدركها إلا بعد أن نمت وكبرت بزمنٍ طويل ، عندما أخذ يقارن ويوازن بين حقبتين مختلفتين من حياة الشعب الواحد . وهكذا يتحرك التاريخ وهكذا تحدث التغيرات وتنشب الثورات والإنقلابات ، والحركات الصغيرة التي تتراكم آثارها على مدى التاريخ . هناك باستمرار سعي دائم إلى الأفضل ، هذه هي الطبيعة الإنسانية . فكلما طرأ تحسن على وضع البشر زادت مرارة شعورهم بما لا يزال باقياً عليهم بلوغه . لقد لجّوا في طلب الأفضل ، فلما أدركوه زهدوا فيه . لقد أصبح الأفضل مفضولاً فراحوا يبحثون عما هو أفضل منه وهكذا دواليك .

لم يكن للعبد حقوقه ثم صارت له حقوقه . كان السيد يحتقر مولاه ويستغله ثم أصبح يدافع عنه أمام القضاء ويعضده بماله ويقوم على تربية أطفاله ، كيف حدث هذا التغيير ؟ ومتى ؟ كان الأخ البكر هو الذي يرث أباه دون إخوته جميعاً ثم تمت المساواة بينهم . كان حق التملك في أثينا محصوراً في السيد ثم أصبح في متناول الجميع . ينسب البعض هذا التغيير إلى صولون ، ولكن قبل صولون كان هناك في رأيي صولونون كثيرون ـ إذا صح هذا الجمع ولم يُفقد سادتنا النُحاة رشدهم ! ـ سابقون مهدوا لصولون اللاحق ! مَنْ هؤلاء ؟ لم يكن الموالي مواطنين ثم أصبحوا منذ السنوات الأولى من الجمهورية مواطنين ، ما هي الخطوات التي اتبعوها لتحقيق ذلك ؟ إن كل ذلك حدث ببطء كبير وعلى نهج لا يكاد يحسه إلا الآحاد . . . ويستحيل أن ندخل هنا في تفصيل الجهود التي بُذلت والوسائل التي اتُبعت ، والصعوبات التي ذُللت . فقد لبث ذلك العمل فردياً مدة طويلة ، ولذلك بقي سراً في وجدان كل فرد وأعماق كل ضمير ، ولذلك فنحن لا نستطيع أن نبصر سوى نتائجه .

وعلى كل حال لقد قلبت الثورة النظام الملكيَّ في جميع البلاد الإغريقية لكنه

عندما سقط لم يترك أي ضغينة في النفوس فلم يلحقه في يوم ما هذا الإحتقار المزوج بالسخيمة الذي يُلازم عادةً العظمة المنهارة . وعلى الرغم من سقوطه فقد بقي احترام الناس وعطفهم ملازماً لذكراه ، بل حدث في بلاد الإغريق شيء ليس مألوفاً في التاريخ ، وهو أنه في البلدان التي لم تنقرض فيها الأسرة المالكة لم يقتصر الأمر على تأمين البقاء لها وعدم نفيها إلى خارج البلاد ، بل أن نفس أولئك الذين جردوها من السلطة لم ينقطعوا عن تعظيمها وإجلالها . ففي إفسوس وغيرها من البلدان . ظلت الأسرة الملكية بعد حرمانها من سلطتها محاطة بإحترام الشعوب ، بل لقد احتفظت أيضاً بلقب المُلك وشاراته(١) .

أجل لقد أقامت الشعوب النظام الجمهوري ، لكن لقب (ملك) كان بمنأى عن أي شعور بالتشفي والإنتقام ، بل بقي لقباً مبجلاً محترماً ، وربما كان الأجدر أن نقول أنه كان لقباً مقدساً . لقد أُعيدت الملكية مراراً في بلاد الإغريق ، لكن السلاطين الجدد لم يعتقدوا قط أن لهم الحق في تسمية أنفسهم (ملوكاً) وقنعوا بأن يُدعوا (طُغاة) . ولم يكن الفارق بين هذين الاسمين يرجع إلى الصفات الخلقية التي كانت في شخص السلطان الجديد أو الطاغية ، فإنهم لم يكونوا يسمون الأمير الصالح ملكاً ولا الطالح طاغية ، وإنما كانت الديانة ، على الأخص هي التي تميز بينهما . فقد كان الملوك الأولون يقومون بوظائف الكهنة ويستمدون سلطانهم من الموقد ، أما الطغاة في الفترة المتأخرة فإنهم لم يكونوا سوى رؤساء سياسيين ، ولم يكونوا مدينين بسلطنهم إلا للقوة(٢) .

ومن الطريف أن نذكر هنا قبل الفراغ من الكلام على ملوك ذلك الزمان أنهم كانوا ملوكاً بمعنى خاص وضيق جداً . فرغم أن الحكومة كانت في أيديهم فإن ملكيتهم كانت على درجات متفاوتة من السلطة والثراء . فمثلاً كان يمكنك أن تتحدث عن ملك « أكثر ملكية » من الآخر . فقد كانت الإمتيازات الممنوحة لهم محدودة جداً . وكان هناك ملوك أفقر من كثير من رعاياهم العاديين ، بل إن أبناءهم المرشحين ليخلفوا آباءهم على العرش في يوم من الأيام لم يخجلوا من العمل في الحقول أو من الخروج لرعاية الأغنام . حتى إن بعض الملوك مثل منيلاوس قد طلب من ضيوفه احضار طعامهم معهم ! كما أن الأميرات كن

---

(١) المصدر السابق، ٢٤٣ .

(٢) المصدر السابق، صفحة ٢٤٣ .

يباشرن غسل ملابس أخواتهن[١] ، فالمساواة في الأرض والحقوق كانت تقاليد راسخة في الحياة اليونانية متأصلة فيها . لقد كان بعض الأسر أكثر ثراءً من البعض الآخر ، لكن أرستقراطيتهم لم تكن إلا مظهراً فقط يُدخر لوقت الملمات . وهكذا لم يكن في شبه جزيرة اليونان الأصلية فوارق كبيرة بين النبلاء والشعب . وحتى الطغاة لم يكونوا طغاة بالمعنى الشرقي للكلمة . فقد عرف حكم الطغاة ازدهاراً يفوق ما عرفه الحكم الجمهوري كما سنرى . فاليوناني القديم لا يطيق الدكتاتورية بوجهٍ من الوجوه . وقد استمرت تلك المساواة القبلية القديمة قائمة رغم ما تدفق على المجتمع اليوناني من ثرواتٍ وأموال في عصر الفتوح والغزوات . وقلما يوجد أي أثرٍ للأرستقراطية باقٍ في التاريخ فيما لدينا من وثائق سواءٍ في أسبرطة حيث محت نظُم ليكورغ كل تفاوت بين المواطنين ، أو في أتيكا بعد قيام ديمقراطية القرن الخامس . كما لم يعرف الأرستقراطي اليوناني ما في أيامنا من تقاليد اجتماعية تفصل الطبقات بعضها عن بعض ، لأنه لم يكن لديه ما لدينا من مصادر للثروة ولا عربات الدرجة الأولى ، ولا مئات غيرها من وسائل المتعة والرفاهية[٢] ، ومع ذلك ظل يتطلع إلى الأفضل ، وهذا التطلع هو الذي فجر الثورات . ولم يكد القرن السادس ينتهي ويبدأ القرن الخامس حتى كان الأثيني قد ألغى الغاءً تاماً الأرستقراطية الإقتصادية والسياسية وقطع دابرها شكلاً ومضموناً . ففي ذلك الوقت كانت أثينا قد ألغت الألقاب الموروثة إلا فيما يتعلق بقليلٍ من الكهنة[٣] .

استمرار الكهنوت مظهراً لا سلطة

هذا ورغم انقضاء الملكية فقد ظلت السلطة السياسية ممتزوجة بالكهنوت في شخصٍ واحد . فإن الثورة التي أقامت النظام الجمهوري لم تفصل الوظائف والمهات التي كان يبدو أن اختلاطها شيء طبيعي جداً ، وكان هذا الإختلاط عندئذٍ هو القانون الأساسي للمجتمع البشري . فكان رجل الدولة الذي حل محل الملك ، كاهناً ورئيساً سياسياً في وقتٍ واحد[٤] . وكان هذا الحاكم في بعض

---

(١) الفرد زيمرن : الحياة العامة اليونانية صفحة ٩٧ ـ ٩٨ .
(٢) المصدر السابق، صفحة ٩٨ .
(٣) المصدر السابق، صفحة ٩٨ ـ ٩٩ .
(٤) فوستيل دي كولانج : المدينة العتيقة صفحة ٢٤٤ .

الأحيان لا يتخلى عن اللقب المقدس : الملك . وفي مكانٍ آخر كان اسم (سادن بيت النار Prytane) الذي احتُفظ له به ، يدل على وظيفته الرئيسة . وفي بلدانٍ أخرى ساد لقب أرخون archonte وهذه الوظيفة ذات المظهر السياسي لم تكن تختلف عن الكهنوت إلا قليلاً كما يؤكد ذلك أفلوطرخس . وكان يجب على هذا الأرخون أن يلبس تاجاً في أثناء ولايته على نحوما يفعل الكاهن . وكانت الديانة تحرم عليه أن يترك شعره ينمو أو أن يحمل أي شيء من الحديد معه ، وهي التزامات تذكرنا بالفلامين الرومانيين . لقد كان لبلدة بلاتيا أرخون كذلك ، وكانت ديانة هذه المدينة تفرض عليه اللباس الأبيض ، أي اللون المقدس طوال عهد ولايته[١] .

وكان الأراخنة الأثينيون يصعدون إلى ربوة المدينة (الأكروبولص) يوم استلامهم مقاليد الحكم وعلى رأسهم تاج من الآس myrte ويقدمون قرباناً لشفيعة المدينة . . . وكذلك جرى العرف في تلك الأيام أن يضع هؤلاء الأراخنة عندما يباشرون سلطاتهم تاجاً من ورق الشجر على رؤوسهم . ولذلك فيكاد يكون في حكم اليقين أن التاج الذي أصبح بمضي الزمن رمزاً للسلطة العليا ولم تفارقه هذه الصفة حتى الآن ، لم يكن آنذاك سوى رمز ديني ، علامة ظاهرة تصحب الدعاء والقربان والقيام على الطقوس والمراسم . فالفكرة التي كانوا يتصورونها عن رجل الدولة هي فكرة القربان وتقريب القربان ، ويقول بنداروس عن هذه الشخصيات أنهم يضمنون سلامة المدينة بفضل القرابين التي يقدمونها للموقد[٢] .

وإذا كان الحكم الأمثل يتوخّى اليوم في اختياره لتنفيذ مهماته خير العناصر القادرة على تسيير دفته فإنّ الحكم القديم كان يتوخى إرضاء الآلهة . هذا ما كانت تتمنى المدينة أن تراه في رجل الدولة . إنّها لم تكن تسعى وراء أشجع رجل في الحرب ولا أمهر شخص في توجيه سياسة البلاد ولا أعدل رجل في السلم ، كلا ، إنّها إنّما كانت تسعى وراء أكثرهم محبة من الآلهة . فحسب المرء أن يكون محبوباً من الآلهة حتى يرشدوه إلى خير سياسة وأعظم نظام حكم . فلا خوف على البلاد ما دامت تحرص على الشعائر وتؤدي وظائف العبادة . وهكذا فإنّ مجلس الشيوخ

---

(١) نقلاً عن المصدر السابق .
(٢) المصدر السابق،صفحة ٢٤٥ .

الأثيني كان يسأل المنتخب الجديد عمّا إذا كان له إله منزلي ، عمّا إذا كان له قبر عائلي ، وعمّا إذا كان يقوم بجميع واجباته نحو الموتى . هنا كانت تنحصر هموم القوم ! والحكمة في هذه الأسئلة هي أنّ الذي ليست له عبادة عائلية لا مكان له في العبادة القومية ، وليس أهلاً لتقريب القرابين بإسم المدينة .

فمَن أهمل عبادة أسلافه الموتى صبوا عليه جام غضبهم ولعناتهم وجعلوه هدفاً لمطاردة أعداء غير مرئيين ، وذلك هو الخسران المبين ! إنّها لمخاطرة كبير تُقْدِمُ عليها المدينة إذا وكلت حظها إلى رجل من هذا القبيل . إنّ رجل الدولة يجب أن يكون بعيداً عن الأعمال التي تسيء إلى الديانة ، فإذا اقترف أحد أسلافه عملاً من هذه الأعمال ظلّ موقد الأسرة مدنساً إلى الأبد وبقيت الذرية ممقوتة من الآلهة . كذلك كانوا يحرصون على أن يكون الرجل المرشح لتولي مسؤوليات الحكم أن يكون مبرءاً من كل عيب جسماني[١] . فقد كانوا يُقصون عن منصب الأرخون كل مصاب بعاهة أو تشوبه في بدنه ، ذلك لأنّ العيب الجسماني كان يعدّ علامة على غضب الآلهة يجعل صاحبه غير جدير بتولي أي كهنوت وبالتالي غير لائق للقيام بأي منصب من مناصب الدولة[٢] .

ذلك كل ما كان يعني القدماء من أمر رجل الدولة . إنّهم كانوا لا يهتمون بطبعه ولا بذكائه ، إنّما كانوا يهتمون على الأخصّ بأن يكون أهلاً للقيام بالوظائف الكهنوتية ، وإلاّ تعرضت الديانة للخطر وبالتالي هلكت المدينة .

حكم الطغاة

ومع ذلك فقد حدث شرخ صغير في هذه الديانة لعلّ أحداً لم يتنبه إلى ذيوله ولا إلى ما ينطوي عليه من خطر على الديانة . ويمضي الزمن اتسع الخِرْقُ على الراقع ، فلم يستطع له بعد ذلك رقعا . ومن هنا سيتخذ تاريخ اليونان منعطفاً جديداً يدينون به لحكم الطغاة الذين تحدثنا عنهم منذ قليل . فإنّه عندما غُلب الملوك على أمرهم وأصبح الحكم أرستقراطياً ، لم يقتصر الشعب على إبداء الحسرة على عهد مضى وانقضى كان الملوك فيه سادة البلاد ، بل لقد تطلّع إلى إعادتهم في صورة أخرى . وفي القرن السادس نجح في منح نفسه رؤساء تلمسوا الحكم على

(١) المصدر السابق، صفحة ٢٥٢ .
(٢) المصدر السابق، الحاشية رقم ٤ .

أنقاض الملكية البائدة . ولمّا كان لا يستطيع أن يسميهم ملوكاً ـ لأنّ هذا اللقب كان يتضمن فكرة الوظائف الدينية ولا يمكن لأحد أن يتقلده إلاّ إذا كان من أبناء الأسر الكهنوتية ـ فقد سماهم (طغاة) Turannos ومهما يكن المعنى الأصلي لهذه الكلمة ، فمن المؤكد أنّها ليست مستعارة من لغة الديانة ، ولم يكن من الممكن أن يوصف بها الآلهة خلافاً لكلمة (ملك) . كما لم يكن يُتلفظ بها من الأدعية والصلوات . إنّها بالفعل كانت تدل على شيء جديد جداً بين الناس . ، على سلطة غير مشتقة من العبادة ، على سلطة لم تفرضها الديانة . هنا حدثت النقلة النوعية . إذ يدلّ ظهور هذه الكلمة في اللغة اليونانية على ظهور مبدأ ثوري جديد كل الجدة لم تعهده الأجيال الغابرة ، وأعني به طاعة الإنسان للإنسان ، بعد أن كانت هذه الطاعة ممحضة للآلهة لا يشاركهم فيها أحد من الخلق . فإلى ذلك الحين لم يكن هناك رؤساء للدولة غير أولئك الذين كانوا رؤساء للديانة ، ولم يكن لأحد أن يصدر الأوامر والنواهي في المدينة غير أولئك الذين يقرّبون القربان ويدعون الآلهة لها . فمن أطاعهم فقد أطاع القانون الديني وأعلن خضوعه للمعبود دون سواه . أما طاعة الإنسان للإنسان ، والسلطة المعطاة لهذا الإنسان من قِبل أُناس آخرين ، أي سلطة بشرية صرف في أصلها وطبيعتها ، فذلك ما كان يجهله القُدماء ، ولم يدخل في الأذهان إلاّ عندما خلع الشعب نير الأرستقراطية وجدّ في البحث عن حكومة جديدة[1] .

الآن حدثت القطيعة بين السماء والأرض . لقد وقعت الواقعة . لقد بدأ الإنسان يستقلّ بوجوده وكيانه بعد أن كان ذيلاً لغيره . لقد أخذ يتحرر وينفض عنه غبار الذل والتخاذل . فلا إبداع بلا تحرّر أو استقلال : التحرر من استغلال الإنسان أو استغلال الآلهة ، والإستقلال عن تبعية الإنسان أو تبعية الآلهة . ومنذ الآن لم يكون اليوناني ذيلاً لأحد ولا عبداً لأحد ، لا فرق بين أن يكون هذا الأحد إنساناً أو إلهاً ، لأنّ العبودية هي العبودية ، سواء كان موضوعها الإنسان أو إله الإنسان ، لأنّ المستعبد لأي منها ليس إنساناً ، بل هو شبه إنسان . فهو بدلاً من أن يكون تتمة ذاته وغاية ذاته ، تتمة غيره وغاية غيره وأداة لإستكمال غيره وتحقيق مآرب غيره . وسيخلع اليوناني الأصيل عمّا قريب عنه هذه الربقة ليقمع الآلهة ويشد عليهم وسيخرج المارد الجديد من القمقم ليعيد الآلهة في هذا القمقم . لقد

(١) المصدر السابق، صفحة ٣٧٥ ـ ٣٧٦ .

ولّى عهد الآلهة وأقبل عصر الإنسان ، فاستبشري بالمجد والخلود أيّ بلادَ اليونان !

إنّه حكم الطغاة لم يكن له جذور في قلوب الناس قط . فقد كانوا يتخذون طاغية للقضاء على حكم الأقلية الأرستقراطية ، ثمّ يتركون له السلطة عرفاناً بالجميل أو بحكم الضرورة . لكن بعد أن تمضي بضع سنوات وتُمحى ذكرى حكم الأقلية القاسي كانوا يستطيعون إسقاط الطاغية . المهم أنّ حكومة الطغاة لم تنل عطف الإغريق على الإطلاق ولم يقبلوها إلّا وسيلة موقتة وإلى أن يجد الحزب الشعبي نظاماً خيراً منها ويشعر بالقدرة على حكم نفسه[1] .

ظهور النقد

وجاءت الثورات الإقتصادية والسياسة الدينية تترى لتزلزل المجتمع اليوناني وتهزّه من الأعماق . ففي حوالي القرن السادس قبل الميلاد رأت بلاد الإغريق (وايطاليا) ظهور مورد جديد للثروة . لم تكن الأرض كافية للوفاء بحاجات الإنسان واتجهت الأذواق نحو الجمال والترف ، وأخذت الفنون تولد وبرزت المواهب السياسية والعقلية في نظام الحكم والفلسفة والعلوم . وعندئذ أصبحت الصناعة والتجارة أمراً ضرورياً .

فتكونت الثروة المنقولة شيئاً فشيئاً . وسُكَّت العملة وظهر النقد .

وكان ظهور النقد ثورة كبيرة . فهو ينتقل من يد إلى أخرى دون أي إجراء ديني ويصل إلى الطبقات الدنيا في المجتمع بلا عوائق ولا عقبات ، خلافاً للملكية الأرض التي لا تتحرك والتي كان يحكمها نظام الإرث الضيق وحق البكورة واستئثار الذكور دون الإناث بأكثر الحقوق المدنية والسياسة والإقتصادية . . . فلم يكن في استطاعة الديانة التي طبعت الأرض بطابعها أن تفعل شيئاً في النقد أو توقف تياره .

لقد كانت أعمال أفراد الطبقة الدنيا محصورة في فلاحة الأرض . وأما الآن فقد انفتحت لهم آفاق جديدة وهي المشاركة في الصناعة والتجارة والملاحة ، فأثرى منهم من أثرى وانتقلوا إلى البحبوحة وانغمسوا في حياة الترف . فيا لها من

(١) المصدر السابق ،صفحة ٣٧٧ .

نُقلة فذة رفعت الكثيرين من الحضيض إلى القمة وهوت بآخرين في البؤس والمخمصة . وهكذا قامت بين الناس فوارق ودرجات من نوع جديد . فبرز بعض الأسر وكبر بعض الأسماء ، ورفضت الطبقات الدنيا منذ الآن أن تكون مجرّد كتلة مختلطة مهملة ، لا أثر لها في سير الأحداث ، وأصبحت قوة جديدة ضاغطة تعمل ليل نهار في تنظيم صفوفها وتوحيد كلمتها ليكون لها رأي في تطوير مجتمعها ، واتخذت لها من أوساطها هي رؤساء مستقلين لا شأن لهم برجال الكهنوت والحكام التقليديين من صناديد العهد البائد . وسرعان ما أصبح لمحدثي المال هؤلاء تلك الصفات التي ترافق في العادة الثروة المكتسبة في العمل ، أي الشعور بالقيمة الشخصية ، وحب الحرية الهادئة ، وتلك النظرة الحكيمة التي تتطلع إلى الإصلاح ولا تخشى المغامرات . . . وعزفت الطبقات الدنيا عن الطغاة ما دامت قد شعرت أن في استطاعتها أن تجد في صميمها هي عناصر لحكومة أفضل . هكذا فالمجتمع الذي تتحول فيه الثروة لا تلبث درجات الناس فيه أن تنقلب رأساً على عقب . لقد اقترب الوعد الحق وبدأت عملية التطور ، والتطور يجرُّ التطور ويعجل بحركة التطور . ولن يتوقف التطور حتى يستنفذ جميع طاقته ويحقق كل إمكانياته . وسينضب المعين في نهاية المطاف . لقد كان يوماً مشهوداً حقاً ، ولن تقوم لليونان قائمة بعد ذلك اليوم . فللتاريخ نفحات لا تلبث إلا يوماً أو بعض يوم ، ثم يحل ظلام المغيب .

التغييرات الشاملة ·

وهكذا ارتفع قوم وانخفض قوم ، وانحلت الروابط القديمة ، وضعفت الأسرة واختفى حق البكورة الذي كان من شروط وحدتها . ولم يكن للشعب غير كثرة عدده . كان ينقصه كل مبدأ للنظام ولم يكن له رؤساء . فقد كان في البدء جمهوراً بلا رابط أكثر منه هيئة حسنة النظام . وإذا تذكرنا أن الناس وقد خلعوا الربقة لم يكونوا قد وجدوا بعد مبدأ آخر للتجمع يضاهي ديانة الأسرة الوراثية وأنه لم تكن قد طرأت على خاطرهم فكرة عن سلطة غير مشتقة من العبادة ـ إذا تذكرنا ذلك أدركنا عظم الفراغ الذي خلفته العبادة المثلومة وراءها ومدى الحاجة إلى القيادات الواعية القادرة على سد هذا الفراغ والوفاء بمتطلباته . ولا ينبغي أن نتوقع من أي كاتبٍ في الزمن الأول أن يمدنا بالتاريخ الدقيق لهذه التغييرات الكبيرة . ومن المحتمل أنه لم يكن لها تاريخ لأنها لم تتم في عام أو بضعة أعوام ، بل حدثت على مر الأيام والسنين في هذا البلد أولاً ثم في ذاك . وشيئاً فشيئاً عمت

هذه التغييرات بلاد اليونان جميعاً[1] .

كان هناك نظام المدينة وكان هناك نظام الأسرة وكان النزاع بينهما شديداً . أحدهما يدفع إلى الأمام والآخر يشد إلى الوراء . أحدهما يرمز إلى قوى التحرر والآخر يجسد قوى التخلف . أحدهما يعمل للثورة ، والآخر يخطط لإغتيال الثورة . الثورة والثورة المضادة يعيشان معاً عنف المواجهة . وفي عصور الثورات يكون النصر دائماً لقوى التحرر وإلا لم تكن ثورة .

وعلى كل حال ، فإنه عندما تحطمت الأسرة انتقل الناس إلى نظام المدينة ولم يكن ذلك دفعة واحدة . فحتى في ظل نظام المدينة ظلوا يحتفظون بالكثير من نظام الحياة في عصر ما قبل المدينة ، فلم تكن الأسر تعيش مجتمعة في المدينة ، بل ظلت تعيش في النواحي المختلفة بأتيكا ، كل أسرة على ممتلكاتها الواسعة محاطة بخدمها العديدين يحكمها رئيسها وتؤدي عباداتها الوراثية مستقلة عن غيرها من الأسر تمام الإستقلال . لم تكن أثينا طوال أربعة قرون غير تحالف من رؤساء الأسر القوية الذين كانوا يجتمعون في أيام معينة للإحتفال بالديانة المركزية أو للسعي وراء المصالح المشتركة . لقد كان التاريخ صامتاً فيما يختص بهذه الفترة الطويلة من وجود أثينا والمدن الإغريقية الأخرى . ولعل سبب ذلك أنه لم يحدث إلا النزرَ اليسير من الأعمال ذات الأهمية العامة . لقد كان الناس يعيشون منفردين أولاً إذ لم يكن لهم إلا القليل من المنافع المشتركة . كان أفق كل منهم الرهط الصغير والمحلة الصغيرة ، وبدخول الصناعة والتجارة ازداد الاختلاط وازداد التداخل وتبادل المنافع والمصالح . ومنذ ذلك اليوم تبدلت أثينا غير أثينا وأخذت آفاقها تتفتح . لقد بدأت أثينا مسيرتها العالمية !! .

قانون المنفعة العامة

كانت الثورة التي قلبت سيادة الطبقة الكهنوتية ورفعت الطبقات الدنيا بداية فترة جديدة في تاريخ المدن . لقد تم نوع من التجديد الإجتماعي . فلا يقتصر الأمر على أن طبقة من الناس قد حلت محل طبقة أخرى في السلطة وظهرت عليها ، بل هي المبادىء القديمة قد زلزل زلزالها وأوشكت قواعد جديدة أن تقوم على أنقاضها .

(١) المصدر السابق،صفحة ٣٥٢ ـ ٣٥٦ .

نحن لا ننكر أن المدينة لم تتخل عن الأشكال الخارجية التي كانت لها في العصر السالف . فقد بقي النظام القديم أو كاد ، واحتفظ الحكام في كل مكان تقريباً بأسمائهم القديمة ، وما زالت لأثينا أراخنتها وعباداتها ، ولم يتغير شيء في الإحتفالات الدينية العامة . . . كل ذلك وكثير غيره قد ظل محفوظاً ، ومع ذلك كل شيء قد تغير وإنما بقيت القشور الخارجية . فإنه من المألوف في عادة الإنسان عندما ينبذ أنظمة قديمة ألا ينبذها جملة واحدة ، بل يتشبث بمظاهرها الخارجية على الأقل قبل أن يلقي بها في النار .

أجل كل شيء قد تغير وإن كانت ظواهر الأمور توحي بغير ذلك . فلم تبقَ الأنظمة ولا الشرائع ولا العقائد ولا الأخلاق في هذه الفترة الجديدة كما كانت في الفترة السابقة ، لقد اختفى النظام القديم وأخذ يجرُّ وراءه القواعد الصارمة التي قررها في كل شيء وقام نظام جديد ، وتبدل وجه الحياة البشرية[1] .

لقد ظلت الديانة القديمة هي المبدأ الوحيد للحكومة قروناً طويلة ، فكان لا بد من إيجاد مبدأ آخر يقوم مقامها ويسد الفراغ الذي خلفته وراءها ، بحيث يستطيع أن يهيمن مثلها على المجتمعات فيضعها بقدر الإمكان بمنأى عن التقلبات والخصومات والمنازعات ، وهذا المبدأ سيكون منذ الآن هو المنفعة العامة . فعليه ـ لا على حقوق الديانة ـ ستتأسس حكومة المدن .

عقيدة جديدة أخذت طريقها إذن إلى أذهان الناس وعقولهم . فبعد أن كانت الشعائر الدينية والتزامات العبادة هي العروة الوثقى التي تشد الناس بعضهم إلى بعض وتوجه أفعالهم وسلوكهم ، فيستمسكون بها ويعضون عليها بالنواجذ ، جاءت المصالح المشتركة والمنافع العامة لتوجه هذا السلوك وتوحي بهذه الأفعال . وانتصبت قوانين العدالة وقواعد المناقشة الحرة لتزع الناس بعضهم عن بعض وتمنع عدوان بعضهم على بعض وتنظم علاقاتهم بعضهم مع بعض . لم تسأل المدينة القديمة نفسها عما إذا كانت الأنظمة التي تمنحها لنفسها مفيدة أم ضارة ، إنها أسست هذه الأنظمة لمجرد أن الديانة أرادتها هكذا ! أما لماذا أرادتها وهل هذه الإرادة سليمة ، أم لا ؟ فذلك طمع في غير مطمع . فما كان للناس إذا قضت الديانة أمراً أن تكون لهم الخيَرة من أمرهم . ومنْ يعْص الآلهة فقد ضل

(١) المصدر السابق ، صفحة ٣٢٩ .

ضلالاً مبيناً . فلم يكن للمنفعة والمصلحة كبير وزن في هذا ، إنما الوزن كله كان لقرار السماء ، وللطبقة الكهنوتية ظلها على الأرض !

وأما الآن فإن مركز القرار هو المنفعة العامة وهو الوحيد الذي يعلو على كل قرار . فالمنفعة العامة هي التي تقرر الأنظمة والقوانين ، وإليها وحدها ترجع جميع التصرفات الهامة للمدن . ومنذ الآن فلن يتساءل الناس في مناقشات مجلس الشيوخ وفي المجامع الشعبية عما تأمر به الديانة ، بل إن جميع مناقشاتهم ستدور على ما تتطلبه المنفعة العامة ، لا فرق بين أن يتناقشوا في وضع قانون من القوانين أو في أي شكل من أشكال الحكومة ، في نقطة معينة من نقاط القانون الخاص أو في نظام سياسي يُراد تبنيه أو رفضه[1] .

والطريقة المثلى لمعرفة ما تتطلبه المنفعة العامة هي جمع الناس واستشارتهم لمعرفة رأي كل واحد منهم في المسألة المطروحة للحوار والنقاش . لا بد من أخذ آراء الجميع للتأكد من معرفة مصلحة الجميع . وإن خير وسيلة لذلك هو التصويت . وهكذا أصبح التصويت منبع الأنظمة وقاعدة الشرع . إنه هو الذي يقرر النافع والعادل الصالح لأكبر عددٍ ممكن من المواطنين . لقد أصبح فوق الحكام بل فوق القوانين ، لقد أصبح السيد المطاع في المدينة والفيصل الذي لا رادَّ لحكمه ولا معقب لقضائه .

ثورة الحكم

وتغيرت الحكومة أيضاً . لم تعد وظيفتها الجوهرية القيام بالإحتفالات الدينية فقط بل المحافظة على الأمن والسهر على المصلحة العامة في الداخل ، والسيادة والدفاع والمعاهدات والأحلاف في الخارج . وما كان في الدرجة الثانية في الزمان الأول إنتقل إلى الدرجة الأولى الآن . فتقدمت السياسة على الديانة ،وتحول الحكم إلى أيدي البشر بعد أن كان حكراً على الآلهة . لقد أصبح الإنسان شيئاً بعد أن لم يكن شيئاً وتولى بنفسه تقرير مصيره بلا وصاية من أحد خارج الإنسان . لقد بلغ الإنسان اليوناني رشده ، فلا غرو أن يتولى هو جميع أمره .

---

١) المصدر السابق، صفحة ٤٢٩ ـ ٤٣٠ .

لن تقبل المدينة بعد اليوم أن ترتبط بمن كانوا يزعمون أنه إرادة الآلهة ، وتشبثت في أن تكون حرة في سلوكها ومناهج حياتها وإختيار رؤسائها . وجاء تقدم الصناعة والتجارة الذي تحدثنا عنه قبل قليل ليجعل الإنسان أكثر إلتصاقاً بحكومة الأرض منه بملكوت السماء ، وأصبحت حياة الإنسان لابد لها من المهارة والسياسة وروح الإقدام والمبادرة الشخصية . وكل أولئك دفع بالمجتمع والذكاء في إتجاه جديد . وهكذا منح النظام الجديد أكبر قيمة سياسية وإجتماعية لا لأشد الناس إلتزاماً بالشعائر والطقوس بل لأكثرهم جهداً ونشاطاً ومهارة . وهذا من شأنه أن يشجع التقدم العقلي وأن يجعل مصير الإنسان متوقفاً على المواقف الشخصية والكفاءات العقلية ، وأن يجعل التعليم أول الحاجات والذكاء أقوى دوافع النجاح . فلا عجب إذن أن وسعت بلاد الإغريق في هذا التطور حدود ثقافتها الذهنية ودفعت حضارتها إلى الأمام . لقد ظل الإنسان يركع زمناً طويلاً أمام التفوق الديني للكاهن الذي يتلو الدعاء ويستحوذ على الآلهة . وأما الآن فهو يتهيأ للركوع أمام التفوق العقلي للإنسان الذي يثبت جدارته في القول والفكر والعمل في القيادة والإدارة والحكم . . . كل الطرق تؤدي منذ الآن إلى مدينة العقل ، وجميع التطلعات محصورة في آفاق العقل . فالعقل هو الطريق والمبدأ والغاية والمصير . فالمدينة هي مدينة أولي النُهى ، عند سدرة المنتهى . عندها جنة المأوى . إذ يغشى السدرة ما يغشى ، ما زاغ البصر وما طغى . هنالك الولاية للعقل ، هو خير ثواباً وخير عقبى .

أنت الآن في معبد الرّوح . فطوبى للداخلين . ها هنا ميلاد العقل فهلموا نحتفل به . فإذا دخلت الهيكل بالمدينة المقدّسة فإخلع نعليك ، إنّك بالوادي المقدّس طوى . هنا اجترأ الإنسان فنحّى الآلهة وقبل التحدي ، فهتك الأسرار واستشرف إلى عين الوجود . هنا قدس الأقداس ، هنا أنبياء العقل يرقون في السماء لينزّلوا علينا كتاباً نقرؤه ونلتزم بتعاليمه . ها هم أولاء يتفرسون كلمة اللغز ويتسمعون إلى الصوت الهاتف من أعماق الوجود .

أول الغيث قطر ثمّ ينهمر ، وغيض الماء

وتشاء الأقداء أن تهبّ لليونان وهي تصحو من نوم عميق وتنفض عنها غبار الأجيال ، رعيلاً من الرجال الأفذاذ جاء بعضهم في أعقاب بعض وما زالوا يتزايدون حتى بلغ عددهم القمة في القرن الخامس قبل الميلاد ، ثمّ أخذ المدُّ

ينحسر شيئاً فشيئاً حتى جف النُسغ ونضب المعين .

ولعلَّ أوّل الغيث تاسيوس بن إيجه THésée fils d'Egée ملك أثينا الذي نسب إليه المؤرخون اليونان أنه كان أول من نظم أتيكا وأوّل من سنّ قوانين أثينا . ثمّ توالى القطر فجاء هوميروس وهزيودس ودراكون وقليستيز clisthène وبرميندس وأكزينوفانس . وانهمر الغيث فرأينا هرودتس واكزينوقراطس وزينون الأبلي وفيدياس وسقراط وأرسطوفانس وأبقراط وبروتاغوراس وغورجياس وبرقليس وصوفوقليس ولوقيبوس وديمقريطس وأدوكسوس وانكساغوراس وتوقيديدس وأفلاطون ، ثمّ بدأ الجزر والتراجع فكان فيليبوس والإسكندر وأرسطو وبيرون وديموستيونس وتيوفراسطس وزينون الرواقي وابيقور واقليدس وارخميدس وارسطرخس . . . وآذنت الشمس بالغروب . وأبت اليونان حتى في ساعة الإحتضار إلاّ أنّ تودّع العالم بالإبتسامة العذبة وترشقه ببعض الزهور ، فوهبته وهي في الرمق الأخير فيلون الإسكندري وافلوطين وجالينوس وبطليموس . . . ثمّ دخلت أخيراً في ليل طويل لا صباح بعده . لقد انتهى الوجود اليوناني الحضاري وبدأ الوجود البيولوجي ! أرض تبلع ، وأرحام تدفع وانفاس تخفق ، وألسِنةٌ تُلفِّق !!! لقد أدّت أثينا رسالتها وآن لها بعد ذلك أن تغفو وتنام . هؤلاء وأمثالهم هم الذين صنعوا مجد اليونان وتاريخ اليونان حتى جعلوها على كل لسان . لا يتسع لي المقام هنا لأستوفي جميع أسماء الرجال الذين انجبتهم أثينا وما حولها في ميدان الأدب والفن والفلسفة والتاريخ والجغرافيا والرياضة والفلك والسياسة واللغة . . . لقد اكتفيت بغيض من فيض وبقطرة من مطرة . فالبحر لا تدرَك أعماقه والغيث لا تُعدّ قطراته . إنّ أمة تنجب هذاالعدد الكبير من الرجال في حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً ، لا يمكن إلاّ أن نجترح المعجزات ، مهما تكن هذه الأمة وإلى أي جنس انتمت ، شرقية كانت أو غربية ، ساميّة أو آرية(١) . فإنما التاريخ يعمل بالأفراد ، وأدواته الأفراد . فمن الأفراد ينطلق ركب التاريخ . إنّهم الطليعة الذين يتحسسون الطريق ويقودون القافلة حتى لا تضيع في وعثاء السفر .

أهمية الفرد في التاريخ

فالناس فريقان : فريق ينتمي إلى الرعاة وفريق ينتمي إلى القطيع . الفريق

---

(١) انظر الفصل الأول من كتابنا : أصالة الفكر العربي .

الأول هو فريق العظماء والنابغين والمبتكرين والمخترعين والقادة ، وأمّا الفريق الثاني فهو فريق سائر عباد الله ، وبينهما درجات وظلال تسدّ الفجوة وتمنع القطيعة وتحقق الوحدة بين البشر .

إنّ الأمم لا تقاس بعدد وأفرادها مهما كان هذا العدد كبيراً ، وإنّما هي تقاس بعدد أولئك القلائل الذين يشقون لها الطريق ويذللون لها الصعب ، ويحيون لها القفر ، ويرسمون لها منهاج العمل ، ويجددون لها قيمها ومُثلها ومعاييرها كلما تقادم بها الزمن أو طال عليها العهد أو تقادفتها الأعاصير .

فالعظماء في حياة الأمم هم القمم التي تتطلع إليها بين المهاوي والمنحدرات ، وهم المنائر التي تكشح الدياجير وتُفرى الظلمات كأنها كواكب درية يهتدي بها الناس في البر والبحر والجو . إنّهم أنداء الغمام التي تجود بها الطبيعة على مواكب البشر فيسبحون في اللج ويعمرون القفر ، ويضربون في مناكب الأرض . إنّهم الشمس تغمر الدنيا جميعاً ، فيستنير الإنسان بضوئها ويتدفأ بحرارتها ، ويستمتع بجمالها .

إنّ الظلال الوارفة التي نتفيأ بها في العلم والفن والحضارة وما هي إلّا أكف أولئك الأفذاذ الذين مروا على هذه الأرض مرور السحاب على الفيافي والقفار ، فهطلت ومضت تاركة وراءها الخضرة والنضرة لقوم غرات جياع عطاش يائسين .

إنّ الرجل العظيم ينتصب هامة في التاريخ . إنّه مثلٌ على ما تستطيع الموهبة تحقيقه في مدة قصيرة جداً في مقاييس الزمن هي حياة إنسان عندما يغذيها المثل الأعلى والفكر الخصب والرأي الأصيل والعمل الدائب المستمر . فما من عظيم مهما سما قدره إلّا كان مُعرَّضاً لأن ينساق في هنات الطبيعة البشرية إذا لم يكن رائده الثبات والتضحية والفداء ، وإذا لم يمدُّه بالطاقة والقوة والعزيمة إيمان راسخ بجبروت العقل وقدرته على صنع المعجزات . وما من عبقري فذّ مهما سطع نجمه إلّا كان مهدداً بالسقوط إذا لم يكن دأبه العمل والجهد والتعب فضلاً عن التفكير والتخطيط ، وإذا شكّ يوماً في الطاقات الخلاقة للإنسان وقوى الإبداع فيه . وهكذا فالمثل الأعلى والجهد والتعب ويقظة الفكر وإشراق الوعي شروط ضرورية لكل عمل عظيم يُراد به بثّ الحركة في أوصال التاريخ وتجديد الحياة في عملية التاريخ . فالتاريخ هو أولاً وقبل شيء تاريخ الثورات

والإنتفاضات والحركات المبدعة الخلاقة ، وما عدا ذلك فغثاء كغثاء السيل . فأما الزبد فيذهب جُفاءً ، وأما ما ينفع الإنسان فيمكث في الأرض .

ما حدث لليونان سيحدث للعرب أيضاً

وستتكرر هذه الظاهرة في خطوطها الأساسية بعد حين على أيدي العرب المسلمين . لكن الفرق بين العرب واليونان أنّ هؤلاء قد وصلوا إلى القمة بعد تطور طبيعي بطيء ومسيرة طويلة تخللتها ثورات هادئة نسبياً نقلتهم من التخلف البدائي إلى قمة الرقي والحضارة . وأمّا العرب فإنّنا لا نعرف عن مسيرتهم ـ طويلة كانت أو قصيرة ـ شيئاً ذا بال قبل أن يقفزوا إلى القمة . كل ما نعرفه أنّه عشية الإسلام قام نفر من العرب بحركة احتجاج على الوضع السائد ورفعوا عقيرتهم بالدعوة إلى التغيير ، هؤلاء هم الحنفاء ، ولكن أحداً منهم لم يُكتب له النجاح على المدى القريب .

غير أنّ دعوتهم على المدى البعيد كانت لها نتائج وتفاعلات وأصداء بعيدة الأثر . إنّها أول تعبير وصل إلينا عن التخلخل وحالة اليأس وخيبة الأمل التي كانت تعانيها النخبة الواعية قبل الإسلام . لقد كان هناك نصارى وكان هناك يهود ولكنهم لم يكونوا في مستوى الحدث الكبير ، إلى أن جاء محمد عليه السلام . فهو الحنيف الوحيد والأخير الذي وعي هموم شعبه التي استغرقت تفكيره كلّه . لقد عَرَف الداء والدواء . وهذا سر نجاحه الخارق . فقلّما نجد إنساناً غيره حقق في حياته كل ما كان يحلم به من إصلاح وتغيير وتطوير . ثمّ توفي قرير العين ناعم البال مرتاح الضمير ، لأنّ دعوته قد ظهرت وأفكاره قد عمّت وتعاليمه قد انتشرت . لقد احيا شعباً ، ووحّد أمة ، ووضع نواة لإمبراطورية عظيمة ظلّت لها الصدارة والتأثير وتوجيه الأحداث أجيالاً طويلة وعصوراً مديدة . فالإسلام كما سنرى في حينه ليس حركة دينية صرف ، والا لكان لنا مندوحة عن ذكره هنا ، وإنّما هو حركة حضارية أيضاً ، طبعت كل ما ظهر في العالم الإسلامي من آراء ومذاهب وآداب وفلسفات بطابعها .

وكما يشقّ المحراث الأرض ويقلبها رأساً على عقب ، كذلك فعل الإسلام في عقول العرب وأفئدتهم وقلب أوضاع المنطقة كلها حتى لجعل عاليها سافلها . فاعتناق العرب للإسلام لا يدلّ على مجرّد القضاء على مجموعة من العادات والأعراف التي كانت شائعة بينهم ، وإنّما كان انقلاباً شاملاً لُمثل الحياة السابقة

وقيمها ، وتبدلاً عميقاً في المفاهيم والغايات وشؤون المصير . . . فقد كان ظهور الإسلام حدثاً عالمياً ضخماً ترتبت عليه نتائج هائلة لم تقف عند الحدود الجغرافية للبلاد التي شهدت بوادره الأولى ، بل تجاوزت هذه الحدود إلى ما وراءها وظلّت تفاعلاتها الفكرية والروحية تنتقل من بلد إلى بلد ، ومن أفق إلى أفق ، ومن عصر إلى عصر ، حتى فرضت نفسها على تطور الفكر البشري والحضارة العالمية ، وأصبحت إحدى الظواهر الأساسية لحركة التاريخ وتطوّر الحياة والمجتمع .

والخلاصة لقد كان الإسلام في عصره حركة ثورية شاملة بكل معاني الثورة وأعمق أهداف الثورة . الثورات هي التي تصنع الشعوب ولا ابداع بلا ثورة . هنا يبدأ التاريخ وهنا أيضاً يبدأ الإبداع . إنّ الإبداع اليوناني كان نتيجة مجموعة من الثورات البطيئة الهادئة ، وأمّا الإبداع العربي فهو نتيجة ثورة صاعقة لا تبقي ولا تذر . إنّ الثورات اليونانية كشفت مواهب الرجال وانجبت عدداً من الرجال . وبقدر ما تصنع الثورات الرجال فإنّ الرجال يصنعون الثورات أيضاً . وإستمرّ ذلك في بلاد اليونان في حركة مطردة ديالكتيكية فاعلة ومنفعلة أنتجت تراثاً غنياً هائلاً سيكون عبئاً على أصحابه في نهاية المطاف بقد ما كان زاداً وغذاء في بدايته . لقد أصبح اجترارا عقيماً بعد أن كان إبداعاً منتجاً . وهكذا سيكون التراث العربي الإسلامي . لقد كان أداة للتطور ثمّ أصبح عقبة في طريق التطوّر . وهكذا كل تراث .

وكما وهبت الأقدار بلاد اليونان القديمة ثُلّة من الرجال الأفذاذ جاء بعضهم في أعقاب بعض في حركة مطردة متصاعدة بلغت القمة ثمّ أخذت في الإنحسار والتراجع ، كذلك ستختص الأقدار بلاد العرب بثُلّة من الرجال الأفذاذ الذين لا يُحصي عديدهم . وإذا كان العصر الذهبي لليونان القديمة (القرن الخامس) ، نهاية حقبة طويلة من التطور البطيء نعرف الكثير من خطواته ، فإنّنا لا ندري إلى أي حدّ كان القرن الأول للهجرة استمراراً لحقبة أقدم . ولمّا كانت الثورات اليونانية ثورات طبيعية بطيئة فإنّه ينطبق عليها القول المأثور : « أوّل الغيث قطر ثم ينهمر » . وأمّا الإسلام فإنّه لما كان ثورة صاعقة فإنّه منذ اليوم الأول لميلاده شهد انجاب الرجال . لقد انهمر الغيث على شبه الجزيرة العربية جملة أو كاد ، وظلّ ينهمر طيلة ثلاثة قرون أو أكثر .

لم تكن الساحة خالية عندما ظهر محمد عليه السلام . إنّه لم يكن وحيداً في

المعركة ، بل لقد وافته الأقدار بجهاز كامل من الرجال الأفذاذ كانت تزخر بهم شبه الجزيرة العربية ناضلوه وحاربوه وأبدوا في مقاومته كل ضروب العنف والشراسة أولاً ثمّ تجنّدوا لرسالته أخيراً . لقد كشفت الثورة مواهبهم . إنّها فرصة العمر تريد أن تستخلفهم في الأرض وتجعلهم الوارثين لملك كسرى وقيصر . وجاء وعد الخلود السعيد بعد هذه الحياة ليزيدهم بها التحاماً . وكل هذا في رأينا مما جعلها ثورة صاعقة . والرجال يكشفون مواهب الرجال والرجال يعجلون بالرجال وهكذا يتسلسل الرجال .

فمنذ الأيام الأولى للإسلام برز أبو بكر وعمر وعلي وأبو سفيان ومعاوية وخالد بن الوليد وأبو عبيدة وأبو ذر وعمرو بن العاص وأبو موسى الأشعري والزبير وحمزة وابن عباس وابن مسعود وكثيرون آخرون لا تحضرني أسماؤهم الآن ، لا فرق بين من أسلم في الحال كأبي بكر أو عارض وقاوم حتى انتصر الإسلام وأصبح أمراً واقعاً . المهم أنّهم أصبحوا جميعاً في نهاية المطاف جنوداً للإسلام وأدوات متحركة لخدمة أغراضه ومُثُله . تُرى أين كان هؤلاء قبل ظهور الإسلام ؟ وماذا كانوا عساهم فاعلين لولا ظهور الإسلام ؟ وكيف لم يتحركوا إلّا بظهور الإسلام ؟ إنّهم كانوا ينتظرون الشرارة ، فلو لم تكن شرارة لمضت عجلات الحياة كما كانت تمضي من قبل ولتبدد الوقود ولذهب مع الريح . فكم مضت عجلات دون أن يسمع بها أحد لأن أصحابها لم يجدوا الشرارة ! فما أكثر الطاقات المهدرة في هذا العالم ! ما أعظم الخسارة إن لم تكن شرارة حيث يجب أن تكون شرارة ! وإن كانت شرارة فلتلتهب المنطقة ولتَمِدْ الأرض تحت أقدام الوقود بحيث يكاد يلتهب ولو لم تمسسه نار . وستتلو الشرارة شرارات وستتفجر الساح كلها بالشرارات . فتربصوا حتى يأتي التاريخ بأمره . ولن يُعتّم التاريخ وسيجيء من وادي عبقر بنبأٍ يقين ! .

إن كل واحد من هؤلاء الرجال رهط بل أمة . وبعد أن كان يعيش حياته بلا أمل ولا أفق ولا أهداف ولا عمق يتسكع في الفيافي والقفار أصبح بلمح البصر صاحب مهمات وتبعات وامتدت أمامه الآمال وانفسحت الآفاق . فهو منذ الآن صاحب رسالة وموقف وقضية . إنه جندي في معركة أو قائد لفيلق أو مفسر لآية ، أو مستقص لحديث ، أو طالب لعلم ، أو استاذ يتحلق من حوله الطلاب في ركن من أركان المسجد ، أو واضع لعلم جديد أو باحث عن علم قديم . . . لقد أصبحت شبه الجزيرة خلية كخلية النحل تكتظ بالرجال والأعمال

والمسؤوليات ، بعد أن كانت فراغاً قاتلاً يقطع صمته بعض الأعراب العطاش الجياع الذين لا عمل لهم إلا السطو والغزو والإغارة على حدود الدولتين العظميين . أرأيت إلى صنيع محمد ؟ بل أرأيت إلى معجزةِ محمد ؟ هكذا ينتصب رجل التاريخ هامةً في وجه التاريخ ليصنع التاريخ !! .

لقد بدأت هذه المعجزة منذ الجيل الأول للإسلام ، ثم انفتحت أبواب السماء بماء منهمر من المعجزات والآيات البينات ، وأقلعت السفينة براكبيها بين العواصف والأخطار والأمطار لا تلوي على شيء ، وهي تجري بهم في موجٍ كالجبال لم يَمسسهم سوء ، لأن الربان قائد ماهر والبحارة اخوان متعاونون ، وقيل : بُعداً للقوم الظالمين ، ولكن دوام الحال من المحال ، فقد دب الخلاف بين البحارة ، فخرقوا السفينة وهجموا على الربان ، وانتهى عهد وبدأ عهد .

لقد جف النُسغ وغيض الماء ونضب المعين ، وعدنا ـ والعود أسوأ ـ إلى حياة القفر والجدب نستجدي الماء ونسأل الصَدَقَة ، ونعيش بين العويل وصرير الأسنان كما سنرى ذلك بالتفصيل في كتاباتنا القادمة(١) . ولا يقدح من أهمية عظماء الإسلام أن عدداً كبيراً منهم من الأعاجم كما يقول ابن خلدون ويؤيده في ذلك كثيرٌ من المستشرقين ومن المستغربين من مفكرينا . نحن لا ننكر أبداً ـ وليس لنا أن ننكر ـ أن فريقاً لا يُستهان به من مفكري الإسلام قد تحدَّروا من أصول غير عربية . هذه مسألة مقررة واضحة لا يُنازع فيها إلا مكابر ، ولكنها في نفس الوقت مسألة ثانوية جداً ليست لها كل تلك الأهمية التي يُراد إضفاؤها عليها . فالأصول التي يُراد إرجاع عظمة العرب المسلمين إليها لم يكن لها قبل الإسلام أي إسهام في العلم أو الفلسفة ، ولكن إسهامها إنما بدا في اليوم الذي انتمت فيه إلى جو الإسلام ـ الإسلام بالمعنى الحضاري الواسع لا المعنى الديني الضيق ـ وسواء اعتنقت الإسلام أو رفضته وأعلنت الحرب عليه . ومعنى هذا أن الفكر العربي يدين بمواهب أبنائه في الفلسفة والرياضة والعلوم لا لأصولهم الأعجمية بل للحضارة العربية الإسلامية الكبرى التي نشأ هؤلاء فيها ، للمواقف التي وقفوها

---

(١) سنعرض لهذا الموضوع بتفصيل أوفى في الجزء الخاص بالأخلاق في الإسلام . ولكننا سنستفيض فيه في الفصل الثاني من الجزء الثاني من كتابنا : **الفكر العربي في مخاضه الكبير** . الذي صدر منذ وقت قريب جداً عن دار الجيل ـ بيروت .

من هذه الحضارة ، للقيم الباطنة التي تثيرهم فيها وللمسؤوليات التي وُسدت إليهم وهم يعيشون في ظلها وينعمون بخيراتها ، للمعاني والدلالات التي تنطوي عليها ، وبعبارةٍ مختصرة للمثل الأعلى الجديد الذي كان العرب يحملون رايته . . . .

بل إن الفلاسفة والعلماء والمفكرين النصارى واليهود والوثنيين والزنادقة والملاحدة والمؤمنين والكافرين ممن يعزو إليهم السطحيون عظمة الفكر العربي لأن بهم نفحة آرية مزعومة ، إنما يدينون بعبقرياتهم لا إلى تكوينهم النصراني واليهودي والوثني و . . . بل إلى الجذوة التي لمعت مع الإسلام والتي ترعرعوا في وقدتها ، ولذلك فإني أعدهم نتاجاً عربياً إسلامياً حتى ولو كانوا شعوبيين ناقمين على العرب ومناهضين لكل ما هو عربي ، وكذلك رَغم أنهم لم يعتنقوا الإسلام وإنهم نددوا به وأعلنوا الحرب عليه . إذ ليست العبرة في اعتناق الإسلام بقدر ما هي في التنفس في جوه والتنقل في ظله والتمتع بخيراته . لقد كان كل من العروبة والإسلام حافزاً لهم على التفكير والعمل ، وفرصة العمر لشحن أذهانهم وتفجير طاقاتهم ، وبالتالي لكشف مواهبهم الكامنة التي ظلت مقبورة في بيئاتها الأصلية . إن جوهر العروبة ليس جغرافياً أو لغوياً أو دموياً ، وإنما هو إجتماعي ثقافي . فالعروبة لم يعد معناها اليوم الإنتساب إلى جنسٍ بعينه ، بل الإشتراك في حضارة بعينها وفي تجربة تاريخية وعقلية لها مثلها وأهدافها ومفاهيمها . كما أن الحديث عن الإسلام هنا لا يعني الإسلام بالمعنى الديني الضيق ، بل الإسلام بالمعنى الحضاري العريض المنفتح المتسع الأكناف والأبعاد . فالفرص التي كان يتيحها لأبنائه وغير أبنائه ممن كانوا يطلبون رفده ويعيشون في حماه في عصوره الذهبية الرائعة كانت فرصاً نادرة حقاً لا نظير لها إلا في بعض الشعوب المتقدمة في العصر الحديث[1] .

وقد لا يقبل المرء بسهولة أن يكون العرب والمشركون رعاء الإبل البعيدون عن مراكز العلم والحضارة والغارقون ـ كاليونان القدماء من قبلهم ـ في الخلافات القبلية والنزاعات العشائرية ـ أقول من الصعب أن يقبل بسهولة أن يكون هؤلاء العرب هم أبطال هذه الإنتفاضة العظيمة التي كانت لها أبعاد وآفاق ليست بالحسبان .

---

(١) من أراد التوسع في هذا الموضوع والإستفاضة فيه فليرجع إلى الفصل الأول من كتابنا : **أصالة الفكرة العربي** .

لذلك أحب أن أقول لهؤلاء الذين يميلون إلى التشكيك بالعرب والزراية بماضيهم الجاهلي أن العبرة ليست بالأفراد بل بالأفكار التي تحرك الأفراد والمُثل التي تثيرهم . فالأفراد هم الأفراد في كل زمانٍ ومكان ولكنها الأفكار هي التي تصنع الأفراد وهي التي تختلف باختلاف الزمان والمكان . فالتاريخ كما سنرى بعد قليل لا تصنعه الثوابت وإنما تصنعه المتغيرات . هذا ما طلعت علينا به نظرية السّيْكوسوسيوديناميكا في لُبها ولُبابها .

إن المُثل والمبادىء عندما تغزو الناس في بعض مراحل الإشراق من حياتهم - وأكثر ما يكون ذلك في عصور الثورات والتغييرات الكبيرة حيث يفيض شذى التاريخ - إن المُثل والمبادىء عندما تغزو الناس في هذه الأجواء العطرة تفتنهم بل تقتنصهم وتستولي عليهم ، حتى ليصبحوا وقد اعتنقوا هذه المُثل شيئاً آخر لم يكونوه قبل اعتناقها . لذلك فعرب ما قبل الإسلام ليسوا في نظري هم أنفسهم عرب ما بعد الإسلام . وكذلك الأمم المغلوبة وقد دخلت في الدين الجديد لم تظل هي نفسها بعد أن دخلت فيه . إنهم فئة من الناس ألهبتهم مُثل جديدة وأفكارٍ جديدة . فأصبحوا فئةً من الناس جديدة . وهذا لا ينطبق على الإسلام وحده ، بل ينطبق أيضاً على جميع الحركات الدينية والمذهبية والايديولوجية المختلفة ، فالبشر إنما هم أوعية متحركة بمبادىء ومُثل وقيم أي بأفكارٍ تثيرهم وتغزو مشاعرهم أو قل هم ثوابت كل واحد منها محل لمتغيرات متعددة . إن الفرد عندما تغزوه فكرة جديدة لها بريق فإن ثورة حقيقية تنشب في رأسه ، وعندئذٍ لا مفر له من أن يصبوا إلى آفاقٍ غير التي كان يصبو إليها من قبل ، وأن يتحول إلى مفاهيم وشعارات وعقائد جديدة ، ويهيم بقيمٍ وأهداف ومُثل جديدة لم يكن له عهد بها ، فإذا به بين عشية وضحاها يغير ولاءه وإنتماءه ويُحدث تبديلاً شاملاً في علاقاته الشخصية والإجتماعية والسياسية ، ويصبح شخصاً آخر غير الذي كانه بالأمس . ويتضح ذلك جلياً في الأخوين نشأ في بيتٍ واحد تلقيا تربية واحدة فانتمى أحدهما إلى حزب وانتمى الثاني إلى حزبٍ آخر ، فأصبحت تفصل بينهما أبعاد شاسعة وحدود غير مرئية ، وغدا الإلتقاء بينهما صعباً والتفاهم متعذراً دونه خرط القتاد .

وهكذا فإنّ الفلاسفة والعلماء والمفكرين المسلمين من الأعاجم لا يدينون بعبقرياتهم السامقة لأصولهم الأعجمية ، وإنّما هم يدينون ويدينون فقط للجو العقلي الجديد وللصراع الفكري اللذين قد اتاحهما لهم الإسلام ولتفاعلات

الأفكار والآراء والعقائد التي تفجرت فيها ، أي للقاعدة الفكرية والبوتقة التي تذيب وتصهر ، أو ما سبق لي أن أطلقت عليه في أحد كتبي مصطلح الجذوة (السِّيْكوسوسيودينامية) المسبوقة ضرورةً بما أسميته كذلك (التعبئة السِّيْكوسوسيودينامية) التي لاحظت أنّها لا تحدث إلاّ مرّة واحدة فقط في تاريخ الأمة الواحدة ثمّ تنطفيء إلى الأبد . هنالك فقط تتفاعل الأفكار والآراء بصرف النظر عن الأصول العرقية والسلالية والتأثيرات الخارجية التي لا تعمل إلاّ في أجواء ملائمة للعمل . فلكي تشتعل هذه الجذولا لا بدّ لها من تعبئة ، والتعبئة لا تكون إلاّ بعد نشوب ثورات داخلية هادئة ومتلاحقة كما حدث في بلاد اليونان ، أو ثورة صاعقة لا تُبقي ولا تذر كالثورة المحمدية في القرن السادس للميلاد ، أو الثورة الفرنسية في القرن الثامن عشر . الثورات هي التي تصنع الأمم ، ولا ابداع بلا ثورة . هنا يبدأ التاريخ ، وهنا يبدأ الإبداع ، وهنا بالتالي يبرز الرجال . فالثورة الداخلية هي التي تُمكِّن العوامل الخارجية من أن تفعل وتتفاعل . الثورة قادرة على أن تخلق ظروفها وأفاعيلها وجهازها الكامل من القادة والرادة وأصحاب المواقف الحاسمة في التاريخ في هذه الفترة القصيرة جداً يبدأ اجتراح المعجزات .

فإنّما التاريخ هو تاريخ الأمم التي تصنع المعجزات ، فلا تاريخ بلا معجزات .

إنّ جميع علوم الدنيا وفلسفاتها ومذاهبها ما كانت لتحرك شعرة واحدة في شبه جزيرة العرب لولا ثورة محمد التي حملت العرب إلى آفاق العالم المعمور . لقد اشتعلت الجذوة فأشعلت معها هذه الآفاق ، وأصاب اللهب بلاد الشام وفارس أولاً . هنا بدأ العطاء ، وأعقب العطاء بعد ذلك في كل أفق ألف عطاء ! .

تُرى كيف كان ذلك ؟ أي كيف تقفز الأمة ـ أيّ أمّة ـ من السفح إلى القمة ، ثمّ تهوي كأن لن تَغْنَ بالأمس ؟ كيف يتألف البرق ثمّ ينطفيء فكأنه لم يلمع ؟ كيف انتقل اليونان من حال البدائية الهمجية إلى سدة القيادة الفكرية ، حتى أنّ أثينا وهي مقهورة مغلوبة على أمرها غزت قاهريها في عقر دارهم حتى إنّهم لم يملكوا إلاّ أن ينحنوا إجلالاً لها ؟ كيف تبدل العرب من رعي الشاء والإبل إلى سدانة الحضارة ؟ لقد كانت فرنسا بلداً متخلفاً تمزقه الأطماع والأهواء والخلافات ، تعيش على هامش الأحداث فإذا هي في بؤرة الأحداث تصنع

الأحداث ، كيف حصلت المعجزة ؟ وما هي الآليات التي فجّرتها ؟ .

إذا أردنا الدقة ليس في التاريخ معجزات ، وكلّما استخدمتُ هذه الكلمة فإنّما استخدمها بمعنى مجازي صرف ، أي بمعنى النُقلة النوعية والتحول الجذري الذي ينتهي به عهد ويبدأ به عهد . المعجزات إنّما يصنعها الأفراد ، أي الأبطال التاريخيون الذين ينجزون في زمن قصير مهمات تحتاج إلى قرون . بل قد لا تكفي القرون لتحقيق خطوة واحدة إلى الأمام ، ثمّ تأتي لحظة فيتغير كل شيء . إنها اللحظة الثورية التي يتكثف فيها الزمان ليكون ازماناً ، بل فيها يتبوأُ الزمان ليكون أجيالاً .

إنّ اللحظات الثورية قليلة جداً في التاريخ . غير أنّه لهذه اللحظات وحدها إنّما يدين التاريخ ، فلولاها ما كان تاريخ . وهذه اللحظات تتولد عنها لُحيظات ترفد الثورة بالشحن تلو الشحن وتجدد طاقاتها . وتتوالى اللُحيظات بعضها في إثر بعض بحيث تكون اللحيظة الخالفة أضعف قليلاً من اللحيظة السالفة . وما يزال التوتر يتراخى والإيقاع يتباطأ والنبض يضعف حتى يتوقف القلب الكبير . ولن تجدي زراعة القلب هنا شيئاً . لقد جفّ القلم وطويت الصحيفة .

إنّ اللحظة اليونانية وليدة ثورات صغيرة متعددة تخللتها لحيظات ثورية لم تتوقف عن الشحن والتجديد حتى بلغ الكتابُ أجَله . إنّ أحداً لم يتنكّر للحظة الثورية اليونانية ، ولكنّ اللحظة الثورية العربية قد عانت الكثير من العقوق والإنكار والتنكّر . إنّ سجّل « أدب » التجني والتشكيك والتشهير لم يشهد تنكراً مثلما شهد سجل العرب الذين مروا يوماً على هذا العالم كما يمرّ الغمام على الأرض العطشى بعد سنوات عجاف جفّ فيها الضرع وهلك الحرث والنسل ، فاهتزت الأرض وربت ، وانبتت في كل زوج بهيج . لقد أتى القومَ عامُ لا كالأعوام ، عام مدرار فيه يغات الناس وفيه يعصرون .

وأقبل بعضهم على بعض يرقصون ويهزجون ، بعد أن عصفت بهم الليالي والسنون . هكذا كان العرب بعد احتضار أثينا واجتياح ريب المنون وأشرقت الأرض بنور العلم والفكر وأنواع الفنون ، ووُضع الكتاب وتفجرت الأرض بالينابيع والعيون ، وجيء بالجهابذة والأساتذة والطلاّب يُعلّمون ويتعلمون ، لقد نفضوا عنهم غبار الأجيال فهم الآن صاحون ، لا يشكون بثاً ولا حزناً ولا يتلاومون ، لقد فارقتهم الأحزان ولم تعاودهم الهموم والشجون ، ولكن إيّاك أن

تغترُّ بظواهر الأشياء فالمرض في حال الكمون ، وسيستأنفون النوم الطويل بعد قليل و يهجعون وجاء الإستعمار بخيْله ورَجْله يدك متون الحَزْن والحصون ، ويل لهم فهم نيام لا يستيقظون . لقد استعذبوا حياة الرقاد واغماض الجفون ! فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي كانوا يوعدون !!!

كيف تتبدل الأمم ؟

ولنرجع الآن إلى ما كنا فيه بعد هذه الجولة المسجوعة المقصود بها الدرس والعبرة وإعداد النفس لأمرٍ جلل . فنتساءل : كيف تتبدل الأمم غير الأمم ؟ كثيرون يتساءلون هذا السؤال كل يوم وقليلون جهدوا غاية الجهد للإجابة عنه . ومن حق كل إنسان أن يدلي بدلوه بين الدلاء ، ولا مانع أن أكون أحد المدلين ، عسى أن يكون في دلوي صيد ثمين ، وقد أكون مدعياً وقد أكون من الصادقين الصديقين ، وكل صاحب صيديغري بصيده الناس أجمعين ، ويزعم أنه خير صيد بل إنه وحده الصيد الثمين ، وأنا صياد أعرض صيدي الذي لا أشك لحظة أنه صيدٌ ثمين ، أنا أغري به الناس بل أنا سيد المغرين ، تعالوا أنظروا هل تنكرون أنه صيد ثمين ؟ اسألوا أهل الذكر إن كنتم بالصيد جاهلين . إي وربي إنه صيدٌ ثمين ! صدقوا أو لا تصدقوا ، فهو بهذا الوصف قمين !! وإن لم تؤمنوا فتربصوا حتى حين ، فالعقل يحكم بيننا بالحق وهو خير الحاكمين !!

ان جوابي على السؤال المطروح قبل سطور ينطلق من السِّيْكوسوسيودناميكا التي ترصد الأفكار وتفاعلات الأفكار وقوى الأفكار وعلاقات الأفكار . إنها تتبع توالد الأفكار وكيف تنشأ الأفكار ؟وما هي المسيرة التي تحكم مسيرة الأفكار ؟ وعمليات تفجر الأفكار في قلة من صُناعَ الأفكار ؟ هؤلاء هم الأبطال الذين أحب تسميتهم بمضخات الأفكار . فالناس ليسوا سواء في إنتاج الأفكار وضخ الأفكار . فهناك القاعدة العاجزة التي لا تعي شيئاً من دنيا الأفكار . وهناك القمة التي تضطلع بضخ الأفكار وبينهما درجات لاحصر تتفاوت في وعي الأفكار وصنع الأفكار .

سُلَّم من هذه الأفكار ينتصب ببطء في أعقاب الثورات الطبيعية الهادئة كما حصل في بلاد اليونان القديمة . وآخر ينتصب بسرعة في أعقاب الثورات الصاعقة كالثورة المحمدية في القرن السادس للميلاد والثورة الفرنسية في القرن الثامن

عشر . لقد حدثت التعبئة السّيكوسوسيودينامية في كلا الحالين واشتعلت الجذوة . فارتقب يوم يأتي أصحابُها بالمعجزات والآيات البينات .

الأفكار هي إذن رصيد الشعوب ، وبحسب ما يكون للأمة من أفكار يتحدد المصير ويتحدد القرار . فالأفكار هي سبب الغنى والقوة والنصر . وكلما وخفّت موازين الأفكار خفّت موازين القوى والمال والسؤدد . هناك صراع بين الأفكار ، ولا ينتصر في معارك الأفكار إلاّ أملكُهم للأفكار واقدرهم على صناعة الأفكار . وفي هذا الصراع تنقلب موازين القوي . فالقوي قلّما ـ بل من المستحيل ـ أن يحتفظ بقوته إلى الأبد . فهناك دائماً من يتربص به ويحاول إرهاقه بشتى الوسائل وانتزاع ما بيده من قوة ، والصراع بينهما سجال . إنهما في سباق مع التاريخ ، فيتحاذيان أحياناً ، ويتقدم أحدهما على الآخر أحياناً . وقد تحدث انتكاسات في هذا السباق تصيب الفريق المتقدم ولكن النتيجة محسومة منذ الآن . فالقوي لا يمكن أن يحتفظ بقوته إلى غير نهاية كما قلنا لأنه عريق في موازين القوى فدفع بكل قوته للحفاظ على قوته حتى أنهك نفسه ولم يبقِ لديه مزيد من القوة . لقد استنفد جميع الإمكانات التي كانت مفتوحة في أفقه حتى سدها جميعاً ، وأما الأقل قوة فإن كلِ الإمكانيات لا تزال مفتوحة أمامه . إنه حديث النعمة فهو أقدر من الآخر على حفظ النعمة ، وأما الآخر فقد أتخمته النعمة حتى أفسدته ، وقطّعت أمعاءه . وهكذا فما تزال موازين القوى تتبدل ، فتثقل بعد أن كانت خفيفة أو تخف بعد أن كانت ثقيلة حتى يخرج أحدهما من المعركة ، وقد دُكت أضلاعه ولا يسقط إلاّ الرجل الهرم ، ولا ينتصب إلا ذلك الذي تجري في عروقه دماء الشباب . انظر إلى الأمبراطورية العربية ، كيف سادت ثم بادت . وانظر أيضاً إلى بني عثمان ودولة الخلافة التي سُميت في أواخر عهدها ، بالرجل المريض . بل انظروا في هذا الزمان إلى الإمبراطورية البريطانية التي كانت لا تغرب عنها الشمس ، وانظروا إلى أميركا التي كانت مستعمرة بريطانية . فما زالت أميركا تناضل بريطانيا وتلحق ببريطانيا حتى سبقت بريطانيا وحتى حق القول على بريطانيا ، بريطانيا التي ما انفكت تصارع قدرها وتدفع بالمنزع تلو المنزع حتى لم يبقَ في القوس منزع ، بينما كان قوس أميركا قوساً جديداً لا يزال ممتلئاً بألف مَنزع ومنزع ! لقد تهتك القوس القديم فسقط على الأرض ، وأما القوس الآخر فلم تَبْلَ جدته بعد . ولكنه سيتهتك ويسقط هو بدوره في نهاية المطاف أمام الأقواس الصاعدة في الشرق الأقصى . القوس الملآن فقط هو الذي ينعقد له لواء النصر .

إنه لا يكون ملآن إلا في عهد الصبا والفتوة والشباب ولكنه يفرغ في سن الشيخوخة . ولو اجتمعت الأنس والجن على أن يملأه بعد ذلك فلن يملأوه ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً !! فالنصر دائماً للقوس الأكثر امتلاءً . فويلٌ لصاحب القوس الذي فرغت منازعه . إنه قوس الهرم وأرذلُ العمر ! هذا قانون تاريخي لا يتخلّف . النصرة دائماً للأقوى : الأقوى بالفكر والمال والسلاح ، والفكر هو الذي يأتي بالمال والسلاح . فالفكر إذن يأتي أولاً وبالأصالة ، والمال والسلاح يأتيان ثانياً وبالتبع . هذا هو حكم التاريخ وهذا ما يشهد به منطق التاريخ : فلا مهادنة ولا محاباة ولا تحيف في عمليات التاريخ ، بل يقذف بالفكر (أو العلم أو القوة) على الغباء (أو الجهل أو الضعف) فيدمغه ، فإذا هو زاهق . والويل لمن لا يعتبر بحكم التاريخ وقوى التاريخ ! .

قل لي ما عندك من أفكار وأنا أقول لك ما عندك من مال ورجال وعتاد . آتني أفكاراً خذ ما تريد : خذ قوة ونصراً وثراء . . . فثروة الأفكار هي أصل كل ثروة ، وما عداها ففقر ومخمصة وتخلف وضعف وخزي وذل واستخذاء . فإذا عدمت الأمة الأفكار فقد عدمت كل شيء ، وذلك هو الخسران المبين ! .

قلنا إن التقدم هو مسألة أفكار ، مسألة إضطرام الأفكار وإنطفاء الأفكار ، وخبو الأفكار وإنقداح زناد الأفكار ، هنا يكمن السر . والناس يختلفون في حيازة الأفكار إختلافهم في اللون وطول القامة وقوة البنية وضعفها . . . إنهم متفاوتون في المواهب العقلية والمزايا الروحية والإستعدادات الخلقية أي في حظهم والأفكار ، كتفاوتهم في القوى الجسدية سواء بسواء .

التقدم بحسب نظرية السّيكوسوسيوديناميكا يعتمد على الأفراد والنخبة حيث تركيز الأفكار على أشده . النخبة موجودة في كل زمان ومكان ، في جميع الشعوب والأمم ، ولا يخلو شعب من الأفراد النادرين . ولكن هذه النخبة متفرقة . ومن الصدف القليلة جداً في التاريخ أن تجتمع في مكانٍ واحد وفي عصرٍ واحد ، على هدفٍ واحد . إن التقدم يعتمد على هذه الصدفة التي هي فرصة العمر بالنسبة إلى الأمم . هكذا حصل في اليونان القديمة وهكذا حصل في مكة على عهد النبي وهكذا حصل في باريس الثورة . فلم نسمع أن أمة تقدمت تلقائياً بلا أفراد ، بلا نخبة . وأقولها بملء فمي : الشعوب نعاج تحتاج إلى راعٍ . كل من يتحدث عن الشعب الذي يصنع المعجزات فإنما يضحك على الشعب . إن

هذا الشعار الكاذب لا يتردد إلاّ على ألسنة الأفاكين والديماغوجيين والغوغائيين لأهدافٍ وغاياتٍ نعرفها جميعاً . لاتصدقوا أبداً أن الشعب يجترح المعجزات ، المعجزات إنما تجترحها القيادات التي خرجت من صفوف الشعب ، والتي تعمل بأيدي الشعب ، وإلا فإن هذه الأيدي لا تتحرّك إلا عشوائياً تدفعها الغريزة والأهواء وتقع فريسة الأساطير والأضاليل ، بل كثيراً ما صفقت هذه الأيدي لقتلتها وقاهريها ونثرت الأكاليل في طريق أولئك الذين داسوا كرامتها وخربوا ديارها ، وأذاقوها الوبال والهوان والحرمان وأوردوها موارد الهلاك ! !

إننا نرى كل يوم كيف تهتف الشعوب بملء الحناجر للسفاحين والمجرمين وتنقضُ على منقذيها من براثن أعدائها فتجوس خلال الديار وتعيث فيها الفساد ! أجل ، لقد خرجت النخبة من الشعب وبأيدي الشعب تُقوِّم الشعبَ وتصحح مسيرة الشعب ، فلا هاجس لها إلا قضايا الشعب ودفع الغوائل عن الشعب . وكم تنكّر لها الشعب وكم حفظ لها العهدَ الشعبُ ومحضها الوفاءَ الشعبُ .

قد تقول أن في هذا تبسيطاً شديداً للأمور ، وهذا حق ففيه التبسيط كل التبسيط ، فالتبسيط لا بد فيه لأغراض التحليل والغوص على المعاني لمعرفة الهيكلية أوالبنية الثابتة للأشياء . التبسيط هنا هو ضرورة فينومنولوجية إذا صح التعبير ، يُراد بها الإبقاء على عناصر الموقف الأساسية واستبعاد جميع المتغيرات للوصول إلى الكنه والجوهر . والحقيقة أن النخبة لا تعمل في فراغ ، إنها إنما تعمل في مجموعة متشابكة من القوى وموازين القوى ، والقوى المضادة والعلاقات المحلية والإقليمية والدولية ، ومعادلات الصراع والصدام . إن النخبة تعمل على جبهات متعددة ، عريضةٍ وضيقة ومتوسطة . . . فهناك الثورة وهناك الثورة المضادة . هناك الشعب وهناك أعداء الشعب وهناك أعداء التغيير ممن باعوا أنفسهم لأعداء التغيير التقليديين بثمنٍ بخس : دراهم معدودة . فالشعب كثيراً ما يكون عدواً لنفسه ولا سيما إذا كانتِ السوق تكتظ بالسماسرة والسعاة والمرجفين وقطاع الطريق الذين يشرون الرقاب ، وما أكثرهم في كل سوق ! بل ما أكثر أسواق النخاسة في دنيا الشعوب ! يضاف إلى ذلك أن النخبة نفسها لا تكون دائماً على وفاق فيما بينها ، وقد يشتد الخلاف بين الأعضاء إلى حد الشقاق والتمزق . بل إن النخبة فيها من لا يثبت أمام العواصف فينسحب من المعركة ويخضع للإغراءات والمغانم العاجلة ويبيع نفسه للشيطان . لقد تنازعوا ففشلوا وذهبت ريحُهم تحسبهم جميعاً وقلوبُهم شتى . . لقد أصبحوا عبئاً على الثورة بعد أن كانوا

عوْناً لها . وهكذا فالنخبة نخبتان : نخبة النخبة ونخبة على النخبة . وكذلك الثورة ثورتان : ثورة للثورة وثورة على الثورة . والحرب سجال بينهما والفوز للأقوى . وأما الشعب فهو لا في العير ولا في النفير . إنه ممزق بين هؤلاء وهؤلاء ، بل قد يتذبذب لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء . إنه مادة خام ومادة للعمل في أيدي قيادات هؤلاء وهؤلاء . وهذا ما يفسر لنا أن أكثر الثورات تُخنق في المهد ، لأن الشعب هو عدو نفسه لا يرى ما هو أبعد من أنفه : فالفريق الأقدر على جذبه إليه والضحك على لحيته هو الأقدر على النجاح ، والأمر منوط بعد ذلك بمعادلات القوى وموازين القوى ومراكز القوى على الساحتين الداخلية والخارجية . فكل أولئك عناصر فعالة في توجيه الصراعَ ، لكن من ملك للشعب فقد ملك دفة السفينة في الرياحِ الهوجاء . ومن هنا تهافت جميع القيادات على خطب ود الشعب بالرشى وضروب الإغراء وإغداق الوعود وجميع وسائل الترهيب والترغيب ، كيف لا وذاكرة الشعب ذاكرة ضعيفة كثيرة النسيان إلى حد عدم التفرقة أحياناً بين المحسن والمسيء ؟

وعلى كل حال ، يجب لقاء عدد كبير من النخبة في مكانٍ واحد وزمانٍ واحد لإرساء قاعدة راسخة للعمل الثوري وتكوين بؤرة تلتقي فيها الأهداف وتتكثف من حولها الجهود وينطلق منها الإشعاع . فإذا سارت الأمور على ما يُرام اكتملت التعبئة السَّيْكوسوسيودينامية ، وأقلعت السفينة ، باسم الله مَجْريها ومرساها وهي تسير بهم في موج كالجبال . وكلما اقتحمت اللج وأمعنت في التسيار وخوض البحار وتغلبت على الإعصار بعد الإعصار ، انتصرت قضية الأحرار .

وهكذا ترتفع باستمرار حرارة الجذوة وتتوهج الشعلة وتنتظم المسيرة وكل يومٍ يأتي بنبأ عظيم . إن كل نجاحٍ يهيىء لنجاحٍ أكبر ، وكل خطوة سديدة تُعبِّد الطريق لخطوة أكثر سداداً ، هنا ينتصب ما أسميناه السُّلَّم السَّيْكوسوسيودينامي ، أي الرأي والرأي المضاد والآراء المندرجة بين الرأيين . هذا السُّلم هو رمز الثورة وضمان وجودها والمحافظ على بقائها . وبانهياره تنهار الثورة وتمضي إلى غير رجعة .

إن أصل العالم هو الماء عند طاليس ، والماء محسوس ومحدود ومتعين ، فجاء انكسيمندر بأصلٍ جديد للعالم هو اللامحدود واللامحسوس واللامتعين . وجاء أكسيمنس بأصلٍ للعالم يأخذ من كل منهما بطرف ومع ذلك يختلف عن كل منهما

وهو الهواء . فهو محدود وغير محدود ، ومحسوس وغير محسوس ومتعين وغير متعين وبين هذين الأصلين : الأصل المادي والأصل اللامادي أو المثالي يندرج جميع فلاسفة اليونان ، لقد كانت الفجوات بين الأصلين كبير جداً ، لكن كل فيلسوف من فلاسفة اليونان أخذ يُلقي فيها بحجر . وما زال هذا يسد ثغرة هنا وذاك يردم ثغرة هناك حتى سُدت جميع الثغرات واكتمل السُلَّم بأفلاطون وأرسطو . ومن بعدهما بدأت طريق العودة . لقد بلغت الفلسفة قمتها بهذين العملاقين ، فما بعد التصعيد في القمم إلا التصويب والإنحدار إلى السفوح والوديان كما قال الشاعر :

لكل شيء إذا ما تم نقصان   فلا يُغرَّ بطيب العيش إنسان

إن أحداً لم يكن ليسمع ببلاد اليونان لولا هؤلاء العظماء ، لولا صولون وبرقليس وكلستنيز و . . . هؤلاء هم الذين صنعوا مجد اليونان وتاريخ اليونان ، لقد جاءوا معاً في عصرٍ واحد تقريباً في مكانٍ واحد حتى امتلأت الساحة بهم . ومن كان في مكانٍ غير مكانهم جذبوه إلى مكانهم لأنه لا يستطيع العمل إلا من خلالهم وبأدواتهم اجتمعوا أولاً في إيونية ، ثم في جنوب إيطاليا ، ثم في أثينا ، وكان عددهم يتضخم كلما انتقلوا من هذه الأمكنة إلى مكانٍ آخر إلى أن استقروا في أثينا وكانوا ينقلون معهم كنوزاً ونفائس لا تُقدر بثمن تزيد يوماً عن يوم وتأتي كل يومٍ بجديد . أفكار في أفكار طبقاتٍ بعضها فوق بعضٍ ، إن كنوزالعالم كلها قد اجتمعت هنا . فإذا رأيتَ ثمَ رأيتَ نعيماً ومُلكاً كبيراً !! لو أنفقتَ ما في الأرض كلها ما جمعت هؤلاء على صعيد واحد في وقتٍ واحد كأنهم على ميعاد ، ولو تواعدوا لأختلفوا في الميعاد ولكن التاريخ جمعهم . هنا المعجزة إن كانت معجزة !! وأشعَّت أثينا بالأفكار وغدت بين عشية وضحاها مصنعاً للأفكار أو تعجبون بعد ذلك أن تجوب في الأقطار ؟ أقطار السموات والأرض ، فتؤسس أمبراطورية أرضية متسعة الأكناف ، وعوالم عقلية تنكسف دونها جميع أمبراطوريات الأرض وتفقد كل لألآء وألق ، لأن العقل هو الذي يصنع الأمبراطوريات ويبني العوالم والبرازخ ويخترق الحدود والسدود .

وقد تقول : كيف اتفق لهذا العدد الضخم من القادة والقادة أن يجتمعوا في تلك البقعة المباركة . لقد كان للصدفة نصيب كبير في هذا اللقاء . فهيهات أن يجتمع مثل هذا العدد في ساحة أخرى . فللتاريخ نفحات ألا فتعرضوا لها ! ثم جاءت الوراثة الإجتماعية لتفيد من هذه النفحات وفي نفس الوقت لتضاعف هذه

النفحات . إنها تقويها وتستقوي بها .

الوراثة الإجتماعية

فالوراثة نوعان : وراثة بيولوجية ووراثة اجتماعية . إن الوراثة البيولوجية لا شأن لها هنا وإن كان العنصريون ينسبون إليها شأناً وأيَّ شأن . ونحن نرفض أن يكون لها هنا أي شأن . وقد عرضت لها عرضاً علمياً وافياً في أحد كتبي[١] فلن أعود لها مرة أخرى . وأما الوراثة الإجتماعية فلها شأن آخر ، ورغم أني استوفيت هذه المسألة أيضاً في كتابي المذكور فإني أود أن أعرض لها هنا من زاوية جديدة . إن الفرق بين الوراثة الإجتماعية والوراثة البيولوجية أن هذه الأخيرة تنتقل بقدّها وقديدها من السلف إلى الخلف ، وبالتالي لا يمكن إجراء أي تغيير فيها ـ باستثناء التغييرات التلقائية أو الطفرات التي تحدث في باطن الخلية ذاتها بحكم قوانين الوراثة دون أن يكون للإنسان أي دخلٍ فيها .

وأما الوراثة الإجتماعية فيتلقاها الفرد من البيئة التي نشأ فيها ، وبالتالي فهي خاضعة للتغيير والتبديل ، وهنا يأتي دور العظماء وهنا تكمن مهماتهم ، بل هنا أيضاً تتفاوت معادنهم . لقد كان الكهنوت في بلاد اليونان وراثياً ، والصنائع وراثية والملكية وراثية ، وعدم المساواة بين الأخوة وراثياً ، وكان عدم الإعتراف بحقوق المرأة وراثياً أيضاً ، وكذلك كانت العبودية وراثية ، ثم تغير ذلك كله بعد كفاحٍ طويل أبداه الرجال . وهؤلاء الرجال منهم من قصَّ علينا التاريخ ومنهم من لم يقصص علينا . لكن أشهرهم على الإطلاق صولون وبرقليس وأكلستنيز .

إن مجيء هؤلاء بعضهم في إثر بعض كان صدفة ، فقد كان يمكن ألا يجيئوا ، كما كان يمكن أن يجيئوا على فتراتٍ متباعدة وأمكنة متفرقة يعطل بعضها فعل بعض . والإحتمالات في هذا الشأن لا حصر لها . كما حدثت أحداث لا بد أنها كانت هي أيضاً وليدة الصدفة ، وكان لقاء بين الصدفة والصدفة ، وكان تفاعل وكان حوار ونقاش ، ووصل صولون إلى قمة السلطة وركب الموجة كما لم يركبها أحدٌ من قبل . وكان يمكن أن يكون جماعاً للقوانين مثل أدراكون ، أو طاغية مثل بيزستراتوس ، ولكنه أبى إلا أن يكون صولون ، أي رجل الحدث الذي يقتنص الحدث ليصنع منه أعظم حدث . وهذا ما حدث . لقد وطّأ

---

(١) اصالة الفكر العربي . الفصل الأول .

الأرض لخلفائه من بعده ، برقليس ، أكلستنيز ، مجلس الشيوخ ، الجمعية ، المؤسسات العامة . . . إن الصدفة لا قيمة لها إذا لم يُقيِّض لها من يقتنصها . الصدفة فرصة العمر لا بد من انتهازها في حينها وإلا أفلتت من الأيدي كما يفلت الزئبق ويتبدد في التراب . فإذا لم يحصره وعاء ضاع إلى الأبد . والعقل هو الذي يحتويه في الوعاء ، وكذلك الصدفة تتاح لكل أحد ولكن لا يتنبه إليها كل أحد وقد لا يتنبه إليها أحد . هنا يعمل العقل إذا كان عقل . فالعقل هو الأول والآخر والظاهر والباطن . وهو وحده القادر على استيعاب الأشياء والأحداث واحتضارها واستخلاص ما يمكن استخلاصه منها . فكل شيء دون العقل ، قليل ، وأقل الأشياء ، بالعقل كبير .

وتلاحقت الأحداث بسرعة وظهرت تقاليد جديدة على أنقاض التقاليد القديمة ، وظهرت أعراف وظهرت مبادىء ومُثل . وتوارث القومُ ذلك كله . فالقوم هم القوم ولكن لا عبرة بالقوم . القوم ثوابت والعبرة بالمتغيرات . أرأيت إلى الفرق بين الوراثة البيولوجية والوراثة الإجتماعية ؟ وكل يوم سينضم إلى هذه الوراثة الأخيرة عنصرٌ جديد وستأتينا بمولود جديد .

إن أثينا الآن تمضي في طريقها المحتوم ، ولكنها في رحلة الوداع تود أن تترك لنا رسالة خالدة . لقد تطهرت الأجواء من الشوائب والطفيليات أو كادت ، وأصبحت الأجواء مهيأة للتفكير والتأمل واستعراض المواقف ومراجعة الأحداث . ولا يذكر لنا التاريخ أول من بدأ هذه الملحمة ، ملحمة التفكير الحر والتأمل الموضوعي البعيد عن هموم الحياة العملية ومشاغلها ، التي تستغرق في العادة عامة الناس . وكل ما نعرفه في هذا المضار أنه منذ القرن السابع قبل الميلاد بدأت هذه الملحمة تتحدد معالمها في ذهن أول فيلسوف يذكر لنا التاريخ اسمه وأعني به طاليس (حوالى ٦٤٠ ـ ٥٤٧ ق . م) . فقد كان هاجسه الأكبر وهمه الشاغل التفكير في أمر السموات والأرض . لقد كان معاصراً لصولون (٦٤٠ ـ ٥٥٨ ق . م) ، ولكنه قُدَّ من معدن غير معدن صولون . فقد انحصرت هموم صولون وهواجس صولون في أمر أثينا وإصلاح أثينا وإيقاظ الروح الوطني في أهل أثينا ، أثينا الأرض والتاريخ . وأما طاليس فقد ترك أثينا في أيدٍ أمينة ، ترك الأرض لأهل الأرض وترك التاريخ وترك الجغرافيا ليقوم بجولةٍ خارج الأرض والتاريخ والجغرافيا ويطوف بعوالم وأكوان لا تمت بأي صلة إلى الأرض والتاريخ والجغرافيا ويرسي قواعد جديدة للتأمل والتفكير يورثها أهل أثينا . وهكذا يُدخل

عنصراً جديداً في الميراث الإجتماعي ونواة لتفكير جديد لن تتوقف عن النُموُّ والرُبُوّ يوماً . لقد ألقى البذرة في تربة خصبة وستنمو البذرة حتى تصير دوحة . وسنشهد بعد قليل شجرة باسقة دانية الظلال مُذلَّلة القطوف تؤتي أُكُلها كل حين بأمر رجالها والقيمين على شؤونها .

وجاء أنكسيمندريس بعد طاليس لينمي البذرة ، وجاء بعدهما انكسيمنس ليزيدها نمواً . وجاء هرقليس وجاء فيثاغوراس وجاء الأيليون والبذرة تنمو . وجاء أمبيذوقليس وجاء الذريون وفي أعقابهم ألكساغوراس والسفسطائيون والبذرة لم تنفك عن النمو والرُّبُو يوماً حتى أصبحت شجيرة ذات أغصان وأوراق وبراعم ولها ظلّ ظليل . ثم أصبحت شجرة بمرور الزمن بفضل سقراط وأفلاطون وأرسطو وانتصبت في مكانها تتحدى العصور والدهور : لا تهزها الرياح ولا تحركها الأعاصير ، وهي الآن شجرة قديمة ولكنها قوية لم تقتلعها العواصف بل زادتها رسوخاً ، أصلها ثابت وفرعها في السماء . لقد هلك الزارعون وبقي الزرع . ويتجدد الزرع بالزرع ويتعاظم الزرع بالزرع ، ويأكل الناس الزرع بعد الزرع والزرع باق كأن لم يُمسَّ الزرع ، بل هو في ازديادٍ الزرعُ ، أرأيتَ زرعاً مثل هذا الزرع ؟ .

وهكذا ففلسفة اليونان كانت طوال عشرين قرناً أو تزيد غذاء دسماً للعقول والأذهان دون أن ينفذ الغذاء أو تشبع العقول والأذهان . بل لقد بورك في الغذاء فخرج من الرغيف مئة ألف وألف رغيف . ولا تزال الأرغفة تتوالى رغم صعوبة صناعة الرغيف وارتفاع سعر الرغيف . ورغم أنّ الفلسفة الحديثة قد قامت على أنقاض الفلسفة اليونانية ، فإنّ الفلسفة اليونانية تظلّ هي الأصل والينبوع ، ولولا الفلسفة القديمة ما كانت فلسفة حديثة . فهذه الأخيرة إنّما هي تجديد للفلسفة القديمة ، وإن كانت ثورة عليها . إيتوني بفيلسوفٍ واحد من فلاسفة عصر النهضة دون أن نجد عنده رواسب من الفلسفات القديمة . ودعك من الرواسب الفرعية ، فهناك الأصول الجوهرية التي اكتشفها اليونان ولم يستطع أحد ـ بل لن يستطيع أبداً ـ التخلص منها ، لأنّ أي تفريط فيها يهدد الفكر بالتفكك والتفتت ويُفقده وحدته وانسجامه لمبدأ الذاتية أو الهوية ومبدأ عدم التناقض والثالث المرفوع وما إلى ذلك من المبادىء الأساسية للمنطق ـ أيِّ منطق ، المنطق الصوري أو المنطق الرياضي أو المنطق العلمي الوصفي .

أرأيتَ إلى عظمة اليونان وعمق تفكير اليونان وقدرتهم الخلّاقة الخارقة التي نفذوا بها إلى صميم العقول التي تمردت عليهم ونسبتهم إلى السخف واللغو وسوء الأحدوثة . ومهما تنكرنا لليونان وكفرنا بفلسفة اليونان وعلوم اليونان فإنّنا لا نستطيع أبداً أن ننكر التقدم الهائل الذي حققته الإنسانية على أيدي اليونان . فالإنسانية بعد اليونان لم تعد تفكر كما كانت تفكر قبل اليونان . وحسب اليونان فخراً ومكرمة أنّهم وضعوا ضوابط للتفكر فرقوا بها بين التفكير والتفكير ، وحتى لا يختلط التفكير والتفكير . نحن لا ننكر أنّ الفلاسفة الإغريق قد حاولوا تفسير الطبيعة « وعيونهم مغمضة ، على حد تعبير دامبرغ : [1] لقد استخدموا التفكر المنطقي حيث كان يجب استخدام الطرق العلمية . لكن ذلك ليس معناه أن نبخس هؤلاء القوم حقاً من حقوقهم التاريخية .

فقد تركوا لنا شيئاً آخر مفتوحاً على مصراعيه وهو عقولهم . ومع أنّ إغماض العيون قد أخّر نمو العلم ، فإنّ تفتح العقول قد أدّى إلى انجازات هائلة في الرياضة والمنطق . كما أنّ الفلسفة التأملية التي هي عنوان عبقرية اليونان ، لا يجوز التنكّر لها إلى حد الكفر بها وبأصحابها . كفى المرء نبلاً أن تعد معايبه . إنّها لا تخلو من المثالب ، ولكن عطاءها الكبير لا يجحده إلّا مكابر . إنّها العلوم وصرخة العقل في وجه اللاعقل . فلو لم يكن لها من المزايا إلّا هذا الإيمان الراسخ بالعقل ، فناهيك بها نفعاً . هل تطلبون منها معجزة ؟ يكفيها مجداً أنها استطاعت أن تبذر بذور الشكّ في الأسطورة حتى تهاوت قلاع الأسطورة ودالت دولة الأسطورة ! .

إنّ طاليس قد زرع بذرة جديدة في مجتمع متماسك مكتمل يدأ يعي وجوده . هذا الشرط لا بدّ منه لنمو البذرة ، ونمت البذرة وكبرت . ويعبر عن ذلك في اصطلاح السّيْكوسوسيوديناميكا بأنّ سُلّماً سيْكوسوسيودينامياً قد انتصب ليقتنص المواهب ويتغذى بها . إن الفتح لا يتأتى إلّا بلقاء أصحاب المواهب واجتماعهم في فترات متقاربة في إبّان عصر النهضة أو عندما تبلغ غاية نضجها . فهناك يكون الحوار والنقاش وهناك يكون الفتح . فالسُّلّم السّيْكوسوسيوديناميكي هو كشاف مواهب يستقطب أصحاب الطاقات والفعاليات ، فتشحن المواهب

---

(١) نقلاً عن كيتو : الإغريق . صفحة ٢٤٩ .

وتفجر الطاقات وتنثال المعاني على أهل المعاني .

سُلَّم آخر في بلاد العرب

وفي بقعة مباركة أخرى زُرعت بذرة وانتصب سُلَّم . حدث ذلك في شبه جزيرة العرب فكان لقاء ، وكان حوار ، وكان فتح ، وكانت معجزة . وكان ما كان مما لست أذكره الآن . إن السُلَّم السَّيْكوسوسيوديناميكي تقاس فاعليته من خلال قدرته على شحن المواهب وتفجر الطاقات والقدرات في جميع الحقول الفكرية والإجتماعية . وقد فعل محمد بن عبد الله ذلك على خير وجه من خلال طلائع قيادية نصروه وعزَّروه واتبعوا النور الذي أُنزل معه ، فبدّ لهم رجالاً غير الرجال وجعل منهم قادة من أعظم قادة العالم في عصرهم وحتى الآن . ولا تنحصر القيادة هنا في القيادة السياسية والعسكرية . إنّها قيادة الرأي ، الرأي في كل شيء في الدين والسياسة والإجتماع ؛ في العقل والمنطق ، في العلم والفلسفة ، في الأدب والتاريخ والجغرافيا إلخ ... فقد استطاع بعد سنوات من التشرّد والنفي والجوع والعطش ، والجهاد والعذاب ، أن يفرض نفسه قوةً طليعية تقدمية استطاعت استقطاب صناديد العرب ورجالاتهم . وفُتحت أبواب مكة أمامه وأمام أصحابه ، وكانت بطولات وكانت معجزات . وكان في علاقاته مع المؤمنين يسعى دائماً إلى غرس الثقة المطلقة بأصالتهم وقدرتهم الإبداعية . ولذلك فإنّ عبيداً لا حول لهم ولا قوة كبلال الحبشي وسلمان الفارسي وصهيب الرومي أصبحوا قادة عصرهم وقادة التاريخ ، حتى لقد قاربت ـ بل جاوزت ـ مكانتهم في الأمة العربية مكانة أكابر العرب في الإنتساب الدموي . لقد مسَّتهم روح القائد ، لقد تقمصوا النموذج القيادي وعايشوه ، فأصبحوا من أعظم القادة . هذه هو نداء البطل الذي اخترق اللحم والعظم فجعل من البطل الواحد أبطالاً . لقد ترسّخ النموذج القيادي في النفوس المؤمنة في عالم يشعّ بالأفكار . إذ تقاس قوة الأفكار بمدى قدرتها على توليد الأفكار وتفجير الأفكار في حملة الأفكار . ولا يستطيع ذلك إلاّ القادة والرادة ومن إليهم ممن انتهت إليه رياسة الأفكار .

بين اليونان والعرب

لقد بسَّطت السَّيْكوسوديناميكا هنا تبسيطاً في غاية الإيجاز ، بل لعلّي جاوزت الحدود حتى ولجت باب الإيجاز المُخل . فقد لخصت في أسطرٍ قليلة كتاباً يتألف من جزئين أحدهما نظري والآخر تطبيقي تزيد صفحاتها على خمسمئة وألف

صفحة من القطع الكبير ، فلا مجال للمزيد من الإيجاز ، وإلاّ دخلت في المعميات والألغاز إن لم أكن قد دخلت بالفعل . وكلّ ما أحبّ توكيده هنا والإلحاح عليه أنّ التشابه كبير بين اليونان وأخلافهم العرب . فهناك طاقات وشحنات متفجرة في الفريقين ، وهناك ثورات على القديم وحركات تمرّد لا تُبقي ولا تذر ، هناك أطلال وانقاض عندهما وهناك أبنية وعمائر . كلاهما تعدّى أفقه الجغرافي والتاريخي وتدفق فوق الحدود والسدود . كلاهما صنع إمبراطورية أكبر منه ، وكلاهما انهكه التوسع وقضى عليه . لقد انطلق المدُّ في كليهما حتى بلغ غاية المدّ ، وفي كليتهما انحسر المدّ حتى لم يكن مد ، ورجع كلٌ إلى قواعده وكأنه لم يكن مد . . . كلاهما كان حدثاً فذاً كبيراً وكلاهما صار حديثاً قميئاً صغيراً . هكذا كانت روما من قبل ، وهكذا ستكون بريطانيا من بعد ، لقد حقَّ على التاريخ ألاّ يرفع شيئاً إلاّ وضعه .

لكنّ ذلك لا يمنع من وجود فروق كبيرة بين الفريقين ترجع إلى التاريخ والجغرافية والمناخ والبيئة جعلت لكلٍ وجهةً تولاها . إحداهما فلسفية سياسية عسكرية فنية أدبية . . . والأخرى دينية عقلية سياسة عسكرية . . . إحداهما بلغت أشدّها وفاض عطاؤها والديانة في أدبار[1] ، والأخرى صنعت مجدها وأتت اكلها والديانة في اقبال . . إحداهما تكفر بالمادة وتحتقر المادة وتربأ بنفسها عن الإتصال بالمادة ، والتعاطي مع المادة . وجميع العلاقات المادية ـ لأنّ المادة دنس وشر وعدم ـ ، والأخرى تؤمن بالمادة ولا تحتقر المادة ولم تتوقف يوماً عن التعاطي مع المادة وعلوم المادة . إحداهما كان رائدها الجدل والمنطق والمنهج المنطقي للوصول إلى الحقيقة ، والأخرى كان رائدها فوق ذلك أيضاً التجربة والملاحظة والمنهج التجريبي. والحقّ إنّ الأمور لم تكن تجري بمثل هذه البساطة وسنشرح ذلك الآن .

إنّ الظاهرة الأساسية التي نستقرؤها في الفكر اليوناني القديم هي المنهج العقلي والبحث الفلسفي، وهو مهما اتجه الوجهة التجريبية واقترب من الواقع فإنه

---

(١) والغريب أنّ هذه الظاهرة بقدها وقديدها قد تكررت مرة أخرى في أوروبا عصر النهضة بعد خروجها للتّوه من ظلمات القرون الوسطى . فكأنما كتب على أوروبا منذ النشأة الأولى أن يكون الدين حجر عثرة في طريقها ! .

يظلّ على كل حال مطبوعاً بالعبقرية النظرية . وهذا ما يفسّر لنا وجهة العلم الطبيعي عند اليونان ،لقد كان علماً فلسفياً غائياً قوامه الإنتقال من الخاص إلى العام ، من الجزئي إلى الكلي ، في حركة منطقية مطردة تتصاغر فيها الأشياء والمجردات لتتعاظم الماهيات وتتوطد ، حتى ينتهي بها الأمر إلى عالم من العقول والمجردات لا أثر فيه لشوائب المادة ومعاطيها ، عالم جميل ساحر لا حكم فيه إلا للمنطق ، ولا مطلب له إلّا اتفاق الفكر مع ذاته . فالعقل أساس المادة ، والشيء انما يُعرف بتجاوز المحسوس إلى المعقول والبحث عن العلل الأولى والمبادىء الأساسية التي تكمن وراء الأشياء .

ولكن العلم الطبيعي في الوقت الحاضر شيء غير هذا . فنحن لا نجد في العلوم الطبيعية اليوم جدلاً فلسفياً كالذي نقرؤه في علوم الأقدمين : إنّه ليس علماً غائياً ولا علماً منطقياً ، ولا يهتم بتطهير النفس من أدران المادة للوصول إلى الحقيقة . إنّه أكثر واقعية وأقرب إلى مناهج الحياة ، وأكثر إلتصاقاً بالمادة ، هذه المخلوقة الآثمة اللعينة التي أعلن العلم القديم براءته منها . أجل لقد أصبح العلم اليوم أمسَّ بحياة الإنسان من العلم القديم . إنّه يُعدّه للحياة في هذا العالم والتأثير فيه والتفاعل معه وتسخيره لأغراضه وحاجاته ، بعد أن كان العلم القديم يُعدُّه لعالم آخر غير هذا العالم ويهيئه للحياة فيه ، فأصبح لا يبتغي إلّاداراً غير هذه الدار ، وتعلق بأشباح وآمال إن تكن قد أشبعت بعض حاجاته النفسية ، فإنّها قد أفقدته فاعليته وشلّت حركته ومنّته الأماني .

مقارنة بين العلم العربي والعلم اليوناني

والآن أين يقف العلم العربي من هذين العلمين : الحديث والقديم ؟ .

إنّ العلم العربي تلتقي فيه خصائص العلم القديم والعلم الحديث .فهو في طور وسط بينهما.لقد كان يجتاز مرحلة انتقال من الطريقة القديمة في البحث إلى الطريقة الحديثة التي استقرّ عليها منذ بداية العصر الحديث في أوروبا . فلم يكن ممكناً أن يحدث التحول الكبير طفرة وعلى غير انتظار . وهذا ما يفسّر وجود التأمل الفلسفي في تراث العرب العلمي إلى جانب المنهج التجريبي ، واعتماد البحث على النظر العقلي المجرد إلى جانب أخذه بالواقع العيني المحسوس . فاليونان أورثوا العرب طريقتهم التجريدية ونظرهم العقلي وتأملاتهم الفلسفية الرائعة ، فتلقف العرب ذلك كلّه وفهموه وتوسعوا فيه ، لكنهم أضافوا إليه ما يتميز به

العرب من اليونان ، وهو اختبار معارفهم واخضاعها للتجربه . فالعرب هم الذي اكتشفوا مزايا التجربة والمنهج التجريبي العلمي . إنّهم أوّل من أوجد طريقة التجربة والملاحظة ووضعوا لها القواعد والأصول ، فخلقوا بذلك علم الطبيعة التجريبي بمفهومه العلمي الحديث ووصلوا به إلى مستوى لائق لم يخطر لليونان على بال ، بل إلى مستوى لو أدركه اليونان لدانوه ولوصفوه بلا تردد بالإسفاف والهرطقة من فورهم ، ولنددوا به وبأصحابه ولحكموا عليه بالخزي والعار : لأنّه يفسد المبادىء الشريفة التي يجب أن تظلّ بمنأى عن المادة الخسيسة ، وأن تبقى في عالمها السامي موضوعاً للتأمل والنظر ومتعة العقول والأذهان !!

لقد كفر اليونان بالمادة وأشادوا بالعقل وعالم العقل ، إلاّ قليلاً منهم لم ينجحوا في تغيير ما هو عميق وأصيل في الفكر اليوناني ، ورغم أن أرسطو كان أكثر واقعية من أفلاطون ، إلاّ أن يونانيته أبت عليه إلاّ أن يسير في ركابه ، فهما يتساويان في توكيد التنافر بين المادة والعقل ، ولم يفلحا قط في توثيق العرى بينهما برباط من الألفة والإنسجام .

وأمّا العرب فقد آمنوا بالمادة دون أن يكفروا بالعقل ، بل لم يزدهم الإيمان بالمادة إلاّ زيادة إيمان بالعقل ، وهذا مما يُسجَّل لهم بالفخر والإعتزاز . لقد جمعوا بينهما في إطار من الوحدة والتناسق لم يُعرف من قبل ، وكان ذلك واضحاً في نهضة علوم المادة بينهم ، كالكيمياء والفلك والطب والعلم الطبيعي وعلم الحيل وغيرها . نعم لقد كانت هناك تيارات أفلاطونية صوفية ، ولكنها لم تستطع القضاء على التيارات المادية ، بل لقد ظل التعايش والتفاعل والحوار قائماً بينهما ، خلافاً لما كان عليه الحال عند اليونان حيث لم تنجح التيارات المناوئة لأفلاطون وأرسطو أن تعلن عن ذاتها . فقد بقيت غريبة في عقر دارها ، فلم تؤثّر ولم تفعل ولم تتفاعل ، كأنّها نشاز مزعج من سمفونية رائعة[١] .

والآن كيف نفسر هذه العبقرية النظرية عند اليونان ؟ لقد اختلفت الآراء في ذلك كثيراً ، وإنّي أحبّ أن أدلي برأيي بين هذه الآراء . فاستمع إليه ، أرجوك غاية الرجاء . ولا تبادر إلى التسخيف والتجهيل كما يفعل الصبية والحمقى وغير ذوات الرأي من النساء . فليس الرأي حكراً على قوم لا يحتمل المراء ، حتى لكأن

---

(١) انظر كتابنا : **الجامع في تاريخ العلوم عند العرب** . صفحة ٣٣١ ـ ٣٦١ .

أقوال الآخرين هراء في هراء . وليكن دأبك سماع الرأي والرأي المضاد ففي ذلك وجاء لك بل خير وجاء . وفيه العصمة والسماحة والوقاية والوقاء ، كيف لا وبه يبدأ كل نقاش وحوار بل كل تفاهم ولقاء . فلا تتعصب لرأي دون رأي قبل اصطراع الرأي بالرأي وتتبلور الآراء ، فالرأي كفيل بتصحيح الرأي وهكذا تنضج الآراء ، فقل إنّك صاحب رأي ولا تقل إن رأيك سيد الآراء . فالمهم أن تدلي بالرأي لا أن تشاحن الآراء . فلا يفلّ الرأي إلّا الرأي ، وكذلك الآراء ، فلا تُسفّه الرأي ، فتقعد ملوماً محسوراً وتدوسك الآراء .

الصدفة صنعت اليونان

إنّ أسهل تفسير للعبقرية اليونانية هي نسبتها إلى الجنس والعرق ، وهو تفسير خامل يتهرب من التفسير وهو بدوره يحتاج إلى تفسير . إنّه من قبيل تفسير المشكل بما هو أكثر إشكالاً ، فضلاً عن أنه يصب في قناة المركزية الأوروبية . إنّه يقدّم سلاحاً جديداً لدعاوى التفوق العنصري وإثبات حق الغرب التاريخي في حكم الشعوب .

إنّ أذواقنا لم تعد تقبل تفسير الخصائص الذهنية على أساس عنصري . وقد عرضت لهذه المسألة في أحد كتبي وفصّلت القول فيها فلا أعود لمثله هنا . ولكني أضيف إلى ما ذكرته هناك[1] بعض الحقائق الجديدة . لقد كنت قبل اليوم أنقل الرأي واتطفل على الرأي ، وأمّا الآن فقد حان الوقت لأن أصنع بنفسي الرأي ، فضلاً عن أنّه ليس من المروءة في شيء اجترار لرأي الواحد مرتين في كتابين مختلفين إلّا على سبيل الإشارة العابرة ، ولا سيما إذا استغرق الكتاب فصلاً بكامله .

إنّ هذه العبقرية لا ترجع إلى أسباب تكوينية متميزة في تسيج الفكر اليوناني ، كلا وألف كلا . إنّها تشبه أن تكون وليدة الصدفة ولا شيء غير الصدفة ، ورب صدفة أصدق من ميعاد ، فما أكثر الصدف التي ارتفعت بأصحابها إلى القمم ، وما أكثر الصدف التي هوت بهم إلى القاع ! ولا يستطيع أحد أبداً أن ينكر أهمية الصدفة في تركيب الأحداث وإعادة خلط الأوراق وتنظيمها من جديد . كم حرمتنا الصدفة أشخاصاً لو ظلّوا على قيد الحياة لتغيّر

(١) **اصالة الفكر العربي** : الفصل الأول .

وجه التاريخ ، كالإسكندر الذي تسرب إلى بدنه ـ وكان يمكن ألاّ يتسرب لو اجتاز بأرض غير تلك التي اجتاز ـ ميكروب صغير أودى بحياته وهو في شرخ الشباب أكداس مكدّسة من الأحداث بعد أكداس ، كانت في طريقتها إلى التفجر في تلك الأرض وراء الرجل الكبير الذي كان حيث يخطو كانت تنفجر مع خطوه الأحداث . ولكنَّ ميكروباً صغيراً لا تدركه الأبصار جاء ، وكان يمكن ألاّ يجيء ، فنقض الأحداث وإرادة الأحداث ، واستأصل شأفة الأحداث فلم تكن أحداث . إنّ تاريخ منطقة ـ بل مناطق ـ بأسرها كان معلقاً بميكروب مرّ صدفة هناك . يبحث عن صيد فوقع الرجل الكبير في مصيدة المخلوق الصغير لم يعبأ الكبير بالصغير ، ولم يرهب الصغير الكبير . فليس في التاريخ صغير وكبير . هكذا حكم التاريخ ولا حكم في نهاية المطاف إلاّ للتاريخ ، فالكبير صغير عنده والصغير كبير حتى يقضي حكمه التاريخ .

هل نسيتم الزوجين بيار وماري كوري ؟ صدفة غريبة جمعت بينهما . جاءت هذه من بولونيا ـ وكان يمكن ألا تجيء كآلاف غيرها قد يكونون أكثر موهبة منها ، لكن أقعدهم الفقر أو المرض أو أي صدفة أخرى ، فدُفنوا في بلادهم ودُفنت معهم مواهبهم ـ جاءت إلى باريس تطلب العلم ، فعرفت بيار ـ وكان يمكن ألاّ تعرفه ـ وكان لقاء وكان زواج وكان إنجاب ، وكان تفاعل تمخض عن اكتشاف الراديوم . ومنذ ذلك اليوم بدأ العلم منعطفاً جديداً .

ثمّ جاءت ـ وكان يمكن ألاّ تجيء ـ صدفة غريبة فرقت بين الزوجين : حادث سيارة أطاح بالعالِم الكبير فأوقف تياراً من الأحداث العلمية ، بل والسياسية والإقتصادية كان يمكن أن تقع ولكنها لم تقع ، فتبددت أيدي سبا . مختبرات ومعامل ومصانع ومكاتب ومتاجر وجامعات (حرب ذرية ؟) سلسلة طويلة من الأحداث كانت كلّها وليدة صدفة عابرة نقلت ماري من منزلها بفرصوفيا إلى جامعة باريس في وقتٍ معينّ كان فيه بيير يواصل دراسات معيّنة . وكان لقاء وكان زواج .

ما معنى الصدفة ؟ أنا لا أقصد بالصدفة اللغز الذي يستعصي على التفسير أو يتعارض مع السببية ، أي ليست الصدفة جعبة أو سلة ألقي فيها كل ما لا أستطيع فهمه . إنها تحدث كل يوم ولكل إنسان دون أن يكون في ذلك أي خروج على القانون الطبيعي للأشياء . فالصدفة لقاء حدثين أو سلسلتين من الأحداث

ليس من طبيعتهما أن يلتقيا أو ألاّ يلتقيا . فمن طبيعة الرصاصة التي تنطلق من فم المسدس أن تسقط في مكان ما على الأرض ، وقد يمكن معرفة هذا المكان مقدماً بالطرق الرياضية ، ولكن ليس من طبيعتها أن تسقط على رأس فلان ساقته الصدفة إلى ذلك المكان .

إن ذهاب مدام كوري من فرصوفيا إلى باريس نتيجة سلسلة من الأحداث المتعاقبة الخاضعة للقانون الطبيعي . كما إنّ وجود بيير كوري في الجامعة هو أيضاً نتيجة سلسلة أخرى من الأحداث المتعاقبة الخاصة للقانون الطبيعي . والسلسلة لها حلقات ، واللقاءات لا تعد ولا تحصى بين كل حلقة من إحدى السلسلتين مع كل حلقة من السلسلة الأخرى .

لكن ليس من طبيعة حلقةٍ في إحداهما أن تقابل حلقة في السلسلة الأخرى أو الا تقابلها . والأمر منوط بصدفة تجمع بين الحلقتين . وتزداد المسألة تعقيداً كلما زاد عدد السلاسل وبالتالي كلما ارتفع عدد الحلقات . وقد تعطّل حلقة معينة من الحلقات فعل حلقة أخرى وقد يحصل العكس أيضاً. وهكذا تتعطّل سلسلة من الأحداث بسبب حلقة معينة من سلسلة أخرى من الأحدث . والعكس صحيح . ولئن دلّ هذا على شيء فإنّما يدلّ على طبيعة الصدفة التي لا معنى لها إلاّ الجمع أو التفريق : الجمع بين ما افترق ، والتفريق بين ما اجتمع . ومعنى هذا النوع الأخيرمن الصدفة أن جندياً أنيط به حراسة مكان معين فغادره برهة في بعض شأنه فسقطت قنبلة على المكان الذي كان يرابط فيه فنجا من موتٍ محقّق ، فهنا حلقتان من الأحداث كان مُعدّاً لها أن تجتمعا : سقوط القنبلة ومقتل الجندي ، لكنّ الصدفة قد عطّلت الإجتماع . على ألاّ نفهم من الصدفة هنا وجود عامل خارجي غيبي تدخّل في الموقف فأفسد اللعبة في آخر لحظة ، إنّ اللعبة نفسها توقفت في وقت كان من مصلحة الجندي أن تتوقف فيه . أيّ انّ الصدفة لا معنى لها إلاّ بالنسبة إلى الإنسان الذي ينتفع بصدفة أو يستضر بصدفة ، أي أنّ مفهوم الإنسان جزء من مفهوم الصدفة : فحيث لا إنسان ـ على كوكب المريخ مثلاً ـ لا صدفة ، إلاّ بمعنى واسعٍ جداً لا يهمنا هنا .

أنا وأنت صدفة وكل إنسان على سطح الأرض صدفة ، فكلّ منا هو نتيجة إخصاب حيوانمنوي واحد ـ من ملايين الحيوانات المنوية ـ للبويضة في رحم الأم ، ونتيجة نجاح هذا الإخصاب وتغلب الجنين على كثير من العقبات التي

اعترضت طريقه . وما أكثر الذين سقطوا في هذا الطريق !وما أقل الذين استطاعوا مواصلة السير حتى أصبحت أنا أنا وأصبحتُ أنت أنت . وهل انتهت معركة الحياة بخروجنا من بطون أمهاتنا ؟ كلا ، فبعد الولادة بدأنا نخوض معارك أخرى من معارك البقاء ، فسقط من سقط وحيَّ من حيَّ . رصاصات كثيرة طاشت عني في هذه الحرب المجنونة فلم يمسني سوء ، وسقطت أخرى على صديق لي كان يقف على مقربة مني أصابت منه مقتلاً ، وارتطمت رصاصة ثالثة بالرصيف ، وما كادت ترتفع حتى احترقت أنف أحد المارة واستقرت ـ يا للأعجوبة ـ في دماغه وهو الآن حيٌ يُرزق ، ولكنه مقعد في داره لا يطيق حراكاً . لقد جعلته تلك الصدفة التي مرّ فيها بذلك المكان المشؤوم في تلك اللحظة المشؤومة عبئاً على نفسه وعلى ذويه . وكم يتمنى الآن لنفسه الموت للخلاص مما هو فيه . ولشد ما يرعبني أيضاً ذكرى أحد شوارع مدينة طرابلس يؤدي إلى الملعب البلدي . لقد كنت أتمشى في ذلك المكان ، وما إن غادرته حتى سقطت قذيفة على الطبقة العليا في أحد الدور هناك ، فانفجرت وكان في الدار مهندس ديكور يعمل في مكتبه في تلك اللحظة ، فتناثرت جثته أشلاء . وعلى مقربة من هذا الشارع أيضاً ترك صهري سيارته أمام أحد المخازن الكبيرة لشراء بعض البضائع . وما إن غادر المكان بسيارته حتى دوّى انفجار عظيم صمّ الآذان واشتعلت الحرائق في المنطقة ، وتصدّعت المباني القريبة من مكان الإنفجار . فقد عرف صهري فيما بعد أن سيارة مفخخة كانت تبحث عن موضع تقف فيه لأن المنطقة كانت مزدحمة بالسيارات . وعندما رأت سيارة صهري تهم بمغادرة المكان حلّت محلها في الحال ، وشاهد الناس سائقها يخرج منها مهرولاً ، وما هي إلاّ لحظات حتى دوّى الأنفجار المروع وشب حريق هائل . . .

بالصدفة نجا صهري من موت محقق وبالصدفة نجوت أنا . وبالصدفة أيضاً انتزعت رأس مهندس الديكور من بدنه الذي تناثر أشلاء ، وبالصدفة استقرت الرصاصة في دماغ أحد المارة وشلّت أعضاءه. انفجار واحد يحصد المئات ويسلم منه المئات ، ولا فضل للسالمين ولا ملامة على الهالكين . فهؤلاء وهؤلاء جميعاً ليس لهم من الأمر شيء . وللصدفة كل شيء . فما الذين هلكوا بإرادتي هلاكهم وما الذين سلموا بصانعي سلامتهم . إنما هي سلسلة من الأحداث تلاقي سلسلة أخرى من الأحداث ، ويعقب اللقاء النعمة أو النقمة ، وكثيراً ما يكون تقرير المصير مرهوناً بهذا اللقاء ، لا تقرير مصير الفرد فقط ، بل مصير

الأفراد والمجاعات والأمم . فالتاريخ نفسه كثيراً ما كان نتيجة هذا اللقاء .

ليس من طبيعة الإسكندر أن يسقط حيث سقط فالأرض كلها مفتوحة لسقوطه ، وليس من طبيعة الميكروب أن يصطاد الإسكندر بالذات فالبشر كلهم صيد مباح له . ليس من طبيعة مدام كوري أن تقترن ببيير ولا من طبيعة ببيير أن يقترن بماري ، ممكن لأي رجل أن يقترن بأي إمرأة : كذلك ليس من طبيعة الرصاصة أن تصيبني أو أن تخطئني ، ولا من طبيعة القذيفة أن تدمر البيت الذي دمرته وتمزق الشخص الذي مزقته وتشعل السيارات التي أشعلتها . . . إن كل سيارة معرضة للإشتعال إذا مستها النار ، نار القذيفة أو السيجارة أو عود الثقاب . . . أما أن تشتعل هذه السيارة بهذه القذيفة على التخصيص فهذه هي الصدفة . فالصدفة تركيب جديد للأحداث قد يفيدَ الإنسان وقد يؤذيه فإذا أفاد هذا آذى ذاك ، فمصائب قوم عند قوم فوائد . هذا هو المعنى الإنساني الصدفة ، لكن هناك ترتيبات أخرى لا تنفع الإنسان ولا تودي به كتلك التي تحصل على سطح المريخ مثلاً .

مصادفات من هذا القبيل وقعت في أثينا غداة يقظتها المباركة . وبالوراثة الإجتماعية ـ لا الوراثة البيولوجية ـ انتقلت نتائج هذه المصادفات من الأسلاف إلى الأخلاف . وقبل أن أمضي في توضيح ذلك ، أحب أن أضرب مثلاً . في لبنان قرية صغيرة مشهورة بالإجرام . بينما جميع البلدات الأخرى المحيطة معروفة بحبها للسلم والهدوء والنأي بنفسها عن كل ما يثير مشاعر الإستفزاز والغضب . ولي في هذه البلدة تلميذ يحلو لي مداعبته كلما رأيته قائلاً له : كم قتيلاً قتلتم اليوم ؟ فيستقبل مني هذا المزاح برحابة صدر ويقول : أربعة ، خمسة ، وأحياناً يقول بأسف : ما فيش سوق هذا اليوم ! وقد فكرت كثيراً في الأمر وتساءلت : لماذا توطن الإجرام في هذه البلدة وحدها دون جيرانها حتى أصبح عَلَماً عليها ؟ فلو تمكنت من فحص خلايا أهل هذه البلدة فهل عساي أجد شيئاً ؟ لقد استبعدت ذلك فضلاً عن أنه ليس بوسعي تحقيق ذلك . فإذا مسّت الحاجة إلى معرفة ذلك ، فلا بد من جهاز علمي كبير يتولى أمر ذلك ، وإني على يقين من أنه لن يجد شيئاً من قبيل ذلك . فمن الواجب في رأيي الإكتفاء ، في الوقت الحاضر على الأقل ، بفحص الأمر على الطريقة اليونانية ، أي على مقتضى النظر العقلي . وقد انتهى بي طول التأمل والتفكير إلى إتهام الوراثة الإجتماعية بدلاً من الوراثة البيولوجية . فالطفل في هذه البلدة لايسمع منذ نعومة أظافره غير أحاديث الثأر

والإنتقام كما كان الحال عند العرب قبل الإسلام ، بل وبُعَيْد الإسلام أيضاً . فلعل مجزرة حدثت في هذه البلدة [1] في الزمن القديم أو المتوسط انعكست نتائجها على عائلاتٍ كثيرة من سكان البلدة . وفيهم أهل الحل والعقد . وشاعت فيهم روح الثأر والإنتقام . ولم يكن بينهم رجل رشيد يكبح غرائزهم ، بل لعله كان يشجعهم على ذلك لأن هذا عرف تقضي به الحياة القبلية القديمة ، والعربية منها بوجهٍ خاص . وتتابعت حلقات السلسلة الملعونة ولم يجرؤ أحد على تحدي هذه العادات والوقوف في وجهها ، لأن الحياة القبلية والعشائرية تربط دائماً بين الأنفة والكرامة والكبرياء وحب الثأر والإنتقام . وتوارث الناس ذلك كابراً عن كابر رغم أنهم تركوا حياة القبيلة منذ زمن . وهم يعيشون الآن جميع مظاهر الحضارة وكل ما فيها من رقّة وفخامة . ولكن وجدانهم مليء بذكريات أليمة يثيرها الدم وأحاديث الدم . ألم يكن العرب كذلك قبل الإسلام ؟ ومن يدري فلعل قبيلة عربية قديمة أو أكثر من قبيلة انتقلت إلى هذه البلدة واستقرت فيها ونقلت معها خصوماتها ومشاحناتها ، ولعل هذه الخصومات والمشاحنات قد تفجرت بعد أن استقرت في البلدة على أثر خلافات نشبت بسبب التنازع على السلطة أو الماء أو الأراضي أو المراعي وما إلى ذلك ، وترسخ ذلك كله في وجدان القوم وعَوْهُ أو لم يعوه .

وعلى كل حال ، هناك نوعان من الوراثة : « وراثة بيولوجية ووراثة إجتماعية . الأولى تنتقل إنتقالاً مباشراً من الوالد إلى ولده إنتقالاً آلياً مباشراً لا حيلة للإنسان فيه ، وأما الثانية فتتسع للحيلة والتصرف ويمكن التحكم فيها بالتربية والتعليم والإقتباس والتحصيل . الأولى تتوقف على البيولوجيا ، دون نظر إلى الجنس أو اللون أو الشكل . . . . وأما الثانية فتتوقف على المجتمع ، ومن ثم فهي تختلف من مجتمع إلى آخر . وهكذا فالشيء الذي يُتوارث بيولوجياً ليس هو التصورات والمفاهم والمواقف وأنماط المعرفة والسلوك وما إلى ذلك مما لا سبيل إليه إلّا بالتعليم والتثقيف والإكتساب والتحصيل . . . كلا وإنما هو آلية النشاط الوراثي والعصبي الذي يقوم بدور الأساس الفسيولوجي لعملية المعرفة .

« أجل إن نتائج المعرفة لا تُورَّث بيولوجياً ، وإنما طريقها الوراثة

---

(١) وقد حصلت فيها بالفعل مجزرة رهيبة من هذا القبيل قام بها لبنانيون متصهينون منذ عشر سنوات أتت على أهل بيت بكامله .

الإجتماعية . إذ يرث الإنسان ـ بحكم إنتمائه إلى مجتمع معين ـ خبرة الأجيال السالفة ، بالتربية والتعليم بعد الإحاطة بلغة هذا المجتمع ، إنها إنما تُكتسب بالإتصال المباشر بالأشخاص الذين عانوها والإطلاع على كتبهم وآثارهم . فكل ما يملكه الإنسان بالوراثة البيولوجية ـ أيُّ إنسان ، وإلى أيِّ جنس بشري إنتمى ـ إنما هو الحد الأدنى من السلوك الفطري الغزيري الثابت ، ولكنه يملك في مقابلة ذلك مقدرة هائلة على التعلم والإكتساب يستطيع بها وبمساعدة الكبار أن يكيف محيطه ويتكيف به . إن هذا الحد الأدنى إذا أُحسن إستغلاله يكفي وحده لإمتلاك ناصية العلم وتذليله لحاجاته وضرورات وجوده على هذه الأرض . فلا حدود لما يمكن أن يتلقى أو ينهل ما دام قد تأمن له الحد الأدنى البيولوجي وما دام قد إستحوذ عليه وبالتالي ما دام أنه إنسان ـ إلى أي جنسٍ انتمى هذا الإنسان ـ على أن يتأمن له إلى جانب ذلك الحد الأدنى الاجتماعي ، بأن تتاح له أولاً الظروف والإمكانيات والفرص المتكافئة المتاحة لغيره ، دونما إعتبار للجنس أو اللون أو الشكل . . . وبعبارةٍ أخرى ، إن جزءاً يسيراً من أنماط السلوك ـ وهي التي تمكّن الإنسان من قضاء حاجاته الضرورية ، والتي بالتالي تُعطيه مفتاح هذا العالم ـ موروث ، ولكن القسم الأكبر الباقي من سلوكه ، مكتسبَ ومتعلَّم بالمخالطة والتقليد والإقتباس والتربية والقدوة و . . . وإن اعتماد الإنسان في سلوكه على الإكتساب والتعلم هو سر تفوقه على سائر المخلوقات وتمكُّنه من السيطرة على هذا العالم وما فيه من قوى تؤثر فيه وتتأثر به ، حتى لقد اتخذ سبيله إلى الفضاء سَرَباً ، ليبني لنفسه مجداً جديداً لم تتسع له الأرض على رحبها ، هذه الأرض التي تخطتها أحلامه ورؤآه ، فتطلع إلى الكواكب النجوم »(١) .

●

مصادفات في مصادفات تفاعلت إذن وترسخت في العقول والقلوب والمشاعر وشقت لها قنوات تتفاوت في العمق والدرجة بين هذا الشخص وذلك في النسيج الثقافي للبلدة المذكورة ظل يتجدد ويستقوي على الأيام كلما نشب خلاف أو دب شقاق . ولكن البنية والتكوين الخَلْقي البيولوجي لأهل هذه البلدة لا يزالان سليمين لم يمسسهما سوء . والدليل على ذلك أن المهاجرين منهم قد نبذوا هذه العادات ، وهم يعيشون بين أقرانهم في المهاجر إخواناً متعاونين متفاهمين .

---

(١) محمد عبد الرحمن مرحبا : اصالة الفكر العربي . صفحة ٨٦ ـ ٨٧ .

لقد ذابت خلافاتهم وحزازاتهم وانصهروا في المجتمعات الجديدة واستأنفوا حياة جديدة . لقد تبدلوا خلقاً جديداً لم يستطيعوه في مجتمعهم الأصلي . فليس الأمر هنا إذن هو أمر وراثة بيولوجية لا دواء لها ولا علاج ، وإنما الأمر هو ـ كما قلنا أكثر من مرة ـ أمر وراثة اجتماعية يمكن تغييرها وتبديلها بالتربية والتعليم والتثقيف ، أي بالإبتعاد عن الأجواء القديمة والدخول في أجواء حضارية جديدة كفيلة بطرد القيم القبلية والعشائرية القديمة وما تثيره في النفس من ذكريات وشجون ، وإحلال قيمٍ جديدة « نظيفة » محلها خالية من أي تلوثٍ أو عفن .

●

فإنّما الأمر اذن هو أمر مصادفات وملابسات وظروف خارجية صرف تعطي الشعوب طابعها وتضفي عليها سمات وخصائص متميزة فريدة . إنّها تعود إلى الوراثة الإجتماعية ، بينما يظنها السطحيون والجهلة من انصاف العلماء وليدة الوراثة البيولوجية . إنّ الخلط بين الوراثة البيولوجية والوراثة الإجتماعية هو في أساس القول بالتفوق العرقي اليوناني خاصة الغربي عامة . فهذا التفوق لا يرجع أبداً إلى أسباب تكوينية من نسيج البنية الأصلية لليونان والرومان وسائر امم الغرب الوثني والمسيحي . لقد كان هذا التفوق مجرد « فورة آنية » إذا صح التعبير ارتفعت ثم خمدت . إنها برق تألق بالحمى ثمّ انطوى فكأنه لم يلمع ! شعوب كثيرة « فارت » ثمّ خارت إلى غير رجعة . ائتني بشعب فار ولكنه ما خار . ما الفرق بين اليونان اليوم وبين أي بلد من بلاد البلقان ؟ ما الفرق بين أوروبا بالأمس وبين أي بلَد مُتخلف اليوم ؟ فللشعوب فورات وفورات تصول فيها وتجول ، ثمّ تخمد الفورات كأن لم تكن فورات ! فقط في هذه الفورات يكون عطاء الشعوب للشعوب ، ثمّ ينحسر العطاء لتتطفل الشعوب على الشعوب وتأخذ الشعوب عن الشعوب . وتلك بديهة أساسية من بديهيات السّيْكوسوسيوديناميكا ، فإنّ جميع الشعوب تقضي حياتها كلها في التطفل والسطو على مكاسب الآخرين ، ثمّ تدور الأيام ويبتسم لبعضها القدر فتفي ببعض الدَّيْنَ وتأكل الباقي . جميع الشعوب كانت دائماً عالة على جميع الشعوب إلاّ أويقات يحسبها الجاهل دهراً . يمنّون علينا أن أعطونا فلسفة اليونان وعلوم اليونان ، بل نحن نَمُنُّ عليهم أن هديناهم لفلسفة اليونان وعلوم اليونان . ولقد منّنا عليهم مرة أخرى ، إذ أغدقنا عليهم قبل ذلك ما أغدقنا من علوم الشرق وديانات الشرق وحضارات الشرق لنستنقذهم من بدائية متخلفة كانوا فيها لا يكادون يفقهون

قولاً . ولا يزال الغرب يدين للشرق بدَيْن لا يمكن أن ينساه ولن ينساه وهو المسيحية التي وفدت من الشرق إلى الغرب . هذا عطاؤنا فآمنن أو أمسك بغير حساب ! ولكن أبت المركزية الأوروبية إلّا افتراء الكذب والكِذّاب ، ومعاملة الآخرين معاملة البهائم والكلاب ، وعمّا قليل سيناقشها التاريخ الحساب .

من سلطة الكهنوت إلى سلطة المدينة

لقد تحرّر اليونان من الديانة عندما انتقلوا إلى السياسة وإن لم يتحرروا من شكلياتها وطقوسها . لقد تعوّد القوم ـ بل قياداتهم وأرباب الرأي فيهم ، التفكير خارج نطاق الدين وأسواره الحديدة . لقد استقلوا بأنفسهم بعد دهورٍ من ارتباط الدين بالسياسة ، وعبودية التفكير للدين والسياسة . إنّ تهريب برقليس لأناكساغوراس دليل ساطع على كفر الأثينيين ـ أو قادتهم على الأقل ـ بالديانة التقليدية . كما أنّ تحطيم شباب أثينا لتماثيل هرمس المبثوثة في المدينة بقيادة القبيادس حبيب سقراط وخلّه الأثير دليل آخر على ذلك . وثورة السفطائيين ـ وما أدراك ما السفسطائيون ! ـ أكبر دليل على ذلك . بل لقد تبدّل القوم غير القوم قبل ذلك . إنّ هؤلاء جميعاً ينتمون إلى القرن الخامس ، أي إلى العصر الذهبي ، عصر الأنوار ، ولكن الأنوار لم تسطع في هذا القرن فقط ، بل لقد سطعت من قبل ، لكن السطوع على درجات . فهناك الفلاسفة الطبيعيون ، وهناك الأيليون وهناك الإيونيون . فبالإيونيين بدأ السطوع ، وبطاليس الملطي (٦٤٦ ق . م ـ ٥٤٧ ق . م) يبدأ الإيونيون ، وفي أيام طاليس وضع معاصره صولون(٦٤٠ق . م ـ ٥٥٨ ق . م) دستور أثينا . ففي القرن السابع على الأقل كان الدين قد انفصل عن السياسة . فإنّ أول قوانين مدونة هي قوانين دراكون الصارمة التي تعود هي أيضاً إلى القرن السابع والتي جاء صولون لإصلاحها وتنظيمها والإضافة إليها .

في هذا القرن على الأقل ، وربما قبل ذلك أيضاً ، حصل الفراق بين الأختين الشقيقتين : الديانة والسياسة . لقد كانت مشكلة أصل الكون مطروحة منذ هزيود على الأقل ، ولكنّها كانت مطروحة ميثولوجياً ، وكانت تحلّ بطبيعة الحال حلاً ميثولوجياً فهو دائماً أسهل الحلول وأقربها إلى النفس . فإنّ أساطير أنساب الآلهة ونشوء الكون تروي لنا قصة الإنبثاق التدريجي للعالم المنظم . فهي معتقدات أسطورية تمجد قدرة الآلهة التي تحكم الكون كلّه ، وهي تحكي ولادته

وكفاحه وانتصاره . فما النظام الذي يسود هذا العالم سوى نتيجة لانتصار الإله السيد . فإذا أصبح العالم الآن غير معرَّض للإضطراب والفوضى ، فذلك لأنّ الإله اضطر إلى خوض المعارك للقضاء على الخصوم والمسوخ ، وهذا مما ضمن له التفوق عليهم نهائياً . وهكذا تظهر قصيدة هزيود Théogonie (أنساب الآلهة) بمثابة نشيد لتمجيد زيوس بن كرونوس . إنّ هزيمة الجبابرة ورئيسهم الأعلى Typhée على يد ابن كرونوس ليس الغرض منها تتويج بناء القصيدة كما يظنّ البعض ، بل لتخليد فكرة النظام التي انتصرت على الفوضى . من هنا انطلق هذا التصور للنظام والقانون الذي ساد في نهاية المطاف[1] ، ومن هنا سينطلق في نظري بالتالي الفكر الخلقي والسياسي كما سنرى في الكتاب القادم .

وهكذا نرى كيف طُرحت مسألة أصل العالم في بلاد اليونان قبل طاليس . فهي لن تغيب عنه عندما سيضع فلسفته في أصل العالم . وكانت قصيدة الخلق البابلية معروفة في بلاد اليونان وغيرها . وحتى لو لم تكن هذه القصيدة معروفة في بلاد اليونان فإنّ طاليس ـ وهو الذي يهمنا هنا لأنه هو المقصود بهذا الكلام ـ لا بد أنه سمع بهذه القصيدة ورعاها ، لا سيما وإنّ رجال الفكر أسبق الناس إلى تشمم آثار الفكر وتسقط أخباره والتقاط ثمراته ، لوجود ثغرات وفجوات في تفكيرهم لا تُسدّ إلّا بتحسّس الأفكار وطلبها من مظانها . فالمفكر العظيم بقدر ما هو مضخة أفكار هو أيضاً مصيدة أفكار إذا صح التعبير ، إنه مقتنص أفكار ، وطالب نَهِم للأفكار . فقد كان طاليس هذا تاجراً سافر إلى مصر وتعلم هناك شيئاً مَن الرياضيات المصرية والفلك الكلداني[2] . والفلك الكلداني هذا يجر معه سيلاً من الأساطير الكلدانية البابلية . ولمَاذا نذهب بعيداً ؟ فليس في وسعنا أن ننكر ما بين الحضارات القديمة ـ حضارة مصر وحضارة بلاد ما بين النهرين وبين حواضر إيونيا ـ مهد الفلسفة اليونانية وبالتالي مهد طاليس ـ من تماس وإتصال ، وإنّه لمن المتعذر أن يرفض المرء صلة القربى الفكرية بين قول طاليس إنّ أصل العالم هو الماء وبين مطلع (قصيدة الخلق) التي نظمت قبل ذلك بقرون عديدة في بلاد ما بين النهرين : « يوم لم تكن السماء في الأعالي قد سُميت بعد ، ويوم لم يكن للأرض في الأسفل من اسم . من آبسو الأوَّلي أبيهم ، ومن تيامات الصاخبة أمهم جميعاً ، امتزجت المياه في واحد »[3] . وكما صعق زيوس اليوناني تيفيه واستولى

(١) جان ڤرنان : أصول الفكر اليوناني ، صفحة ٩٦ ـ ٩٨

(٢) كيتو : الإغريق ، صفحة ٢٣٢ .

(٣) نقلاً عن برهيه .

على السلطة ، يعلن مردوخ البابلي نفسه ملكا على الآلهة ويقتل تيامات . فطاليس إذن لم يكن مبتدع نظرية مبتكرة في نشأة الكون ، بل هو مسبوق بتصورات قديمة في هذا الموضوع . ويتكهن برهييه بأنّ فلسفة الطبيعيين الإيونيين الأوائل ربما كانت شكلاً جديداً لتصورات سحيقة موغلة في القدم . وقد تمخضت ابحاث الأنتروبولوجيين في المجتمعات الدنيا عن معطيات قديمة زادت مشكلة أصل الفلسفة تعقيداً . وبالفعل تتصف الفلسفة اليونانية بسمات عقلية لا نجد لها نظيراً إلّا في ذهنية بدائية[1] . فإذا صح ذلك ـ وهو صحيح ـ فإنّ مذاهب الإغريق الفلسفية الأولى لم تكن خلقاً من العدم ؛ بل الأدق أن نقول أنها شكل مكتمل لفكر أقدم عهداً . فالأصل الحقيقي للفكر الفلسفي يجب البحث في العقلية البدائية تحديداً[2] . وليس معنى هذا أنّ الفلاسفة الأولين لم يبتكروا شيئاً ، كلا معاذ الله . لقد استعاروا المادة ولكن المهم إنّما هو تشكيل هذه المادة .

المطلوب والمعوّل عليه منذ الآن هو التشكيل ما دامت المادة قد حضرت . لقد كان قبل ذلك قد حضر شيء آخر أيضاً وهو الجرأة على الفصل بين السياسة والديانة وتحرير السياسة من الديانة . لقد فقدت الديانة سلطانها على مستوى القادة والطلائع الواعية المفكرة وإنْ لم تفقده على مستوى القاعدة والجماهير العمياء . ويبدو أنّ الأسطورة البابلية كانت قد أثارت اهتمام طاليس في هذه المرحلة من استقلال الفكر بذاته ، ولعلّها كانت الشرارة التي قدحت الزناد ، زناد من يملك الزناد . فالشرارة لا تنطلق إلاّ من حيث يكون وقود ، فإذا لم يكن وقود لم تكن شرارة ، ودماغ طاليس وامثال طاليس كان ذلك الوقود ، وأما الآخرون فلا وقود ولا أثر من وقود . إنّ الأسطورة هي في أساسها إحساس بالفضول وبالحاجة إلى إشباع هذا الفضول .

لقد عرضت مسألة بدء الخلق للبابليين فحلُّوها على طريقتهم الخاصة . وليس ما يمنع أن تكون هذه المسألة قد عرضت أيضاً لشعوب أخرى سابقة على شعوب ما بين النهرين ، فالمشكلة هي مشكلة إنسانية قبل أن تكون مشكلة ميتافيزيقية ، أو قل هي مشكلة ميتافيزيقية لأنها مشكلة انسانية ، أي إنّ المشكلة

---

(١) المصدر السابق صفحة ٨ ـ ٩ .

(٢) وقد خصصت لبحث هذه المسألة كتاباً بكامله هو بعنوان : الفلسفة قبل عصر الفلسفة وهو الآن تحت الطبع ولن يستغرق صدوره سوى أشهر قليلة .

قديمة قدم الإنسان . فمنذ وجد الإنسان وهو يسأل عن مصدره وعن مصير الكون الذي رأى نفسه موجوداً فيه . بل إنّ هذه المشكلة تعرض للأطفال . فكلنا صادفنا أطفالاً يسألون اباءهم من أين جاءوا إلى هذه الدنيا . لقد سدت قصة الخلق البابلية فراغاً كبير قبل طاليس وعلى عهد طاليس وربما بعد طاليس ، ولكنها لم تشبع نهم طاليس ، لا سيما وقد خرج للتوّ من عصر الأسطورة ودلف في عصر العقل . إنه لا يزال يحس بفراغ كبير . لقد كانت الأسطورة وافية بمقصود البسطاء السذج من أهل زمانه ، ولكنها لم تكن وافية بمقصوه هو . إنها قليلة النفع في حق من لا يسلم إلاّ بما يقضي به العقل . ولذلك فإنّ قبولها والتسليم بها لم يكن في حقّه كافياً ، ولا لدائه الذي كان يشكو منه شافياً . نعم لقد شفت العاديين من أشباه الرجال ، أمّا الرجال فهيهات ثمّ هيهات ! إنّها لم تبلغ الغاية القصوى من التفسير والتعليل ، ولذلك فلم يحصل منها ما يمحق بالكلية ظلمات الحيرة والشك في نفسه وإنّ كان لا يستبعد أن يكون قد حصل لغيره . بل إنه لا شك في حصول ذلك لسائر خلق الله ، ولكنه حصول مشوب بالتقليد الذي يربأ طاليس بنفسه عنه . والغرض من هذا الكلام حكاية حال طاليس لا الإنكار على من استشفى بهذه القصيدة ، فإنّ أدوية الشفاء تختلف بإختلاف المريض ، وكم من دواء ينتفع به مريض ويستضرّ به مريض !

ما العمل إذنْ ؟ يجب تنقية القصيدة وتطهيرها من شوائبها الأسطورية ، أي من جميع آثار الديانة ، كما تطهرت السياسة من الديانة . إنّ أسطورة الخلق البابلية محاطة بالكثير من الأطياف والأطناف التي يجب الخلاص منها . إنّها الزبد الراغي الذي لا يخدع العين الثاقبة ، فما تبقّى فهو الحق الصراح . لقد انخدع بها أول الأمر كسائر المخدوعين ولكنه سرعان ما اكتشف الخديعة . لقد أثارته ولكنها لم تكن في مستوى طموحه وآماله . لقد وعدته ومنّته الأماني ولكنها لم تنجز ما وعدت ولم تحقق ما عقده عليها من الأماني . إنّه يريد معرفة أصل العالم ولكن القصيدة مليئة بأشياءٍ غريبة عن هذا الأصل فليفصلها عنها وتنكشف الحقيقة الساطعة . أفلم يفصل الديانة عن السياسة فليفصل الوهم عن الحقيقة .

الحقيقة هي أن للعالم أصلاً واحداً هو الماء . والوهم هنا هو الأب أبسو ، والأم تيامات الصاخبة ، فللكون إذن أصل هو الماء ، وما عدا ذلك من نسبة الأبوة والأمومة والصخب وغيرهما إلى الكون العظيم ، فإنّما هو من اضافات خيال عجائز الحي .

إنّ الأسطورة هي الأسطورة ، سواء في حكاية قصة الكون أو في سياسة الحياة . فإذا انفصلت الأسطورة عن كلتيهما فقد حصل الكمال . والحقّ أن طاليس لا يتهم الأسطورة من حيث هي أسطورة ، إنّما هو يتهم الأسطورة إذا أُخذت بمعناها الحرفي . فالأسطورة لبُ وقشور ، فإذا انتُزعت القشور بقي اللُّب ، والحقيقة إنما تكمن في اللب . فإذا انتزعنا ما في قصة الخلق البابلية من قشور لإستخلاص اللب الكامن فيها ، فلا مندوحة لنا عن التسليم بأن أصل العالم هو الماء .

إنّ شيئاً من هذا القبيل كان يدور في خاطر طاليس وهو يتأمل قصة الخلق البابلية التي لم تستطع أن تشفي له عليلاً أو تروي له ظَمأً . لقد تمرّس اليونان قبله كثيراً ـ وبالأحرى قادتُهم ـ بعملية انتزاع اللب من القشور وهم بسبل فصل السياسة عن الديانة وقطعوا في ذلك مراحل . فلهم في هذا الميدان باع طويل وتجارب كثيرة حتى غدوا أساتذة وخبراء فيه . فما على طاليس إلا متابعة العمل فيما بدأ فيه الأسلاف المجهولون . وقد فعل ، فوصل إلى ما وصل . لقد قفز القفزة الرائعة . إنّ الخطوة الأولى هي دائماً أصعب الخطوات . لقد كفى تلاميذه والأخلاف من بعده مؤونة الانتقال من العدوة إلى العدوة وركوب الأخطار بين الضفة والضفة ، فالمطلوب الآن توطئة الضفة وتوسيع قاعدة العمل عليها . فمن لم يعجبه الماء أصلاً للكون فدونه أيُّ شيء آخر غير الماء . دونه الهواء دونه التراب ، دونه النار ، دونه العدد ، دونه العناصر الأربعة جميعاً ، دونه الذرة ، دونه الوجودكلّه ، دونه انكار ذلك كله . لقد انفتحت منذ الآن آفاق لا تُحدّ ، وما على الأجيال القادمة إلاّ استبدال كلمة بكلمة ، وضم الكلمة إلى الكلمة ، وحذف الكلمة من الكلمة ، وتخرج بتفسير للكون ونظام للأشياء يأتي كل يوم بجديد . لقد أصبحت الفلسفة منذ الآن عملية استبدال وضم وحذف . وبعد أن كان الفكر يجول في وقائع الأشياء فهو الآن يجول في حقائق الأشياء .

ها نحن أولاء منذ الآن أمام عالمينْ لكل منهما عشاقه ورواده : عالم الوقائع وعالم الحقائق . والناس معادن كلٌ يعمل على شاكلته : هذا يعمل للوقائع وهذا يعمل للحقائق . لقد كانت الوقائع والحقائق شيئاً واحداً قبل الآن ، لكنهما الآن شيئان منفصلان . لقد كان انفصالاً كبير الكلفة ، باهظ النفقة ، عسير التحقيق ، ولكن نتائجه لا تقدر بثمن . فما دام الإنسان رهين الواقع فإنّه يظلّ

أسير هذا الواقع مستعبداً له .

ولكن منذ أن اكتشف أن وراء الواقع عالما ما آخر ، انطلق انطلاقته العظيمة لا يلوي على شيء . والحق إنّ الإنسان قد اكتشف عالم ما وراء الواقع قبل طاليس بزمان طويل ، ولكنّه ظل عالماً من الرؤى والأحلام والأساطير ، حتى جاء طاليس وقام بجملته التطهيرية المباركة . من الأسطورة انبثقت الفلسفة ، ومع ذلك فالأسطورة هي عدوة الفلسفة . لكنْ من الفلاسفة من لم يستطع التخلص من الأسطورة كأفلاطون ، ومنهم من كتم أنفاسها واستبدل اسماء بأسماء كأرسطو رغم ما قام به من تصفية الأجواء . ولئن دلّ ذلك على شيء فإنّما يدلّ على وثاقة الصلة بين الأسطورة والفلسفة ، وعلى أن الأسطورة إنْ تمخضت عن شيء فإنّما تمخضت عن الفلسفة . لكن الفلسفة كانت من الجمود والعقوق بحيث أنكرت أمها وأعلنت الحرب عليها ، وهذا لعمري من حُولة الدهر ومفارقات الحياة .

ولا تحسبن ما وصل إليه طاليس هذا راجعاً إلى انتمائه العرقي المتميز كما كان يظنّ السطحيون والجهال والمتعلمون وأنصاف المتعلمين الذين يؤخذون بظواهر الأمور بلا نظر ولا تمحيص ؛ والعنصريون الذين يحتقرون الشعوب وينتحلون شتى الأعذار لاستعمار الشعوب ، ويُسخرُون خبراتهم العلمية وسمعتهم الأكاديمية لتوكيد المركزية الأوروبية . إنّ الإنتماء العرقي لا قيمة له هنا لأن الشعب اليوناني قد تقلّب في جميع الأطوار التي تقلبت فيها سائر الشعوب الأخرى من تخلف وتقدم وسخف وجهل وغنى وفقر وقوة وضعف وخضوع للآخرين وإخضاع الآخرين له ، ونهب ثروات الآخرين ونهب الآخرين لثرواته ، لقد استعبد واستُعبد وارتفع وانخفض وانبسط وانقبض ، وعزّ وذلّ ، ودان ودين ، وداس وديس كأي شعب آخر من الشعوب . إنّه مثل سائر الشعوب مزيج من أجناس مختلفة وليس جنساً نقياً صافياً بمنأى عن التماسّ والإختلاط ، بل إن موقعه الجغرافي وعمله في الصناعة والتجارة والملاحة والحرب ، واضطراره إلى الهجرة والتنقل لا سيما بعد إنشاء الإمبراطورية الأثينية ـ إنّ كل أولئك ينفي عنه صفة وحدة الدم العرق . لقد ضاع الدم الإغريقي الحقيقي ـ إنْ كان لهذه الكلمة معنى ـ في دماء الشعوب المجاورة والبعيدة ، وضاعت دماء هذه الشعوب في دمه . وكلها عوارض ومصادفات خارجية هي التي تصنع الشعوب أكثر مما يصنعها الدم والعرق ، بل إنّ صفاء الدم والعرق دليل تخلف . فكلّما اختلطت الشعوب

بعضها ببعض دخل فيها دم جديد وازدادت فيها احتمالات التفوق . إنّ صفاء العرق والدم خرافة ، وإذا صحت هذه الخرافة فإنما تصحّ في سكان استراليا الأصليين والأسكيمو ومن في حكمهم .

فمن نشد صفاء العرق فليذهب إلى أحد هَذَين البلدين . بل لقد تسربت عدوى الحضارة إلى هناك وبدأ الإختلاط والتماس . ولقد بدأت الأرض تهتز وتميد تحت أقدام سكان هذين البلدين . بل لقد روى لي أحد المغتربين اللبنانيين أنّ فتاة استرالية أصلية أبدت تفوقاً في إحدى جامعات أستراليا فمنّت عليها الحكومة بالجنسية الأسترالية ، لكنّ الفتاة رفضت هذه المنّة بشمم وإباء وقالت بإعتزاز وفخار : إنّها هي الأسترالية الحقيقية وإنّ الأستراليين الأوروبيين غزاة مستعمرون اغتصبوا بلادها بالقوة والقهر وسرقوا منها استراليتها !!! .

وعلى كل حال إنّ وحدة الشعب اليوناني القديم هي وحدة ثقافية حضارية ، وليست قط وحدة جنس وعرق . إنّها وحدة أهداف وتقاليد وقيم ومثل وليست وحدة دم . ليست الوراثة البيولوجية بحال من الأحوال هي التي تجمع بينها ، إنما تجمع بينها الوراثة الإجتماعية . وهي أمر عارض رهن بالمصادفات والظروف والأحوال وهي تتغير بتغير الزمان والمكان . فالشعوب إنّما تصنعها المتغيرات لا الثوابت . فالخلط بين الوراثة البيولوجية والوراثة الإجتماعية هو في أساس نظرة الإستعلاء والكبرياء التي ينظر بها الغربيون إلى شعوب العالم الثالث ، كأن شعوب الشرق لم ترتفع يوماً إلى مستوى شعوب العالم الأول وكأنّ الغرب لم يمر قط بتجربة العالم الثالث بل كان دائماً على رأس شعوب العالم الأول . تلك هي عصا التاريخ ترفع وتضع ، وذلك هو حكم التاريخ يُعزّ ويذلّ ، وتلك هي الأيام يداولها بين الناس ، وذلك هو الدهر يهلك جميع الناس[١] .

أساطير وأكاذيب نُراد على تصديقها ، وحقائق ووقائع ينازعوننا الحق في تصديقها أو على الأقل إبداء الرأي فيها . فالحق في عرفهم إنّما هو حق الأقوى ،

---

(١) لقد اجملت القول هنا اجمالاً شديداً فمن طلب مزيداً من الإيضاح والتوسع فليرجع إلى الفصل الأول من كتابنا : اصالة الفكر العربي الذي كان له عنوان آخر **الفكر العربي بين الوهم والحقيقة**. ولكن الناشر سامحه الله استباح لنفسه تغيير العنوان لاسباب تجارية صرف مستغلا صعوبة الوصول إلى المنطقة. الغربية من العاصمة التي تردّى الأمن فيها في تلك الأثناء حتى لكانت بالغابة أشبه لذلك لم أتمكن من الوصول لمعرفة ما حدث .

ولا حق عندهم إلّا للقوي بل للأقوى . أفما آن لنا أن تتسلخ بمنطق القوة حتى نكون الأقوى ؟ فإنّما الشعوب بأعمالها لا أفعالها بأعدادها ، بل قد تكون الأعداد ألدّ اعدائها ، ألم يأنِ للذين يصنعون القرار أن يتدبروا ذلك أم على قلوب أقفالها ؟

* * *

وخلاصة القول في أمر اليونان القدماء ان المصادفات والعوارض ، أي المتغيرات ، هي التي قفزت بهم من السطح إلى القمة . إنّها هي التي نقلت اليونان هذه النقلة ، وخطت لهم هذه الخطوة . لقد كانت الديانة والسياسة شيئاً واحداً فانشقّت إحداهما عن الأخرى . لقد كانتا رتقاً ففتقتهما العبقرية اليونانية وجعلت من الفكر اداة للتطور والتطوّر . لقد وضعت شِقّاً في مقابلة شِقّ ، واصطرع الشّق بالشّق ، وهزم الشقُّ الشقَّ . وكان صباح وكان مساء . وأخذ القوم يعملون في البناء .

لقد كانوا قبل الآن رجالاً عمليين ، وسيكونون منذ الآن فلاسفة نظريين . فالفعل في الأشياء لا يكون أبداً ، ولا سبيل إليه دون أن يستند إلى قاعدة عقلية . كما أنّه ليس من فكرة لا تكون في الوقت ذاته قاعدة للفعل في الأشياء . فالعقل الذي يفعل في الأشياء هو نفسه العقل الذي يفكر في الأشياء . العقل هو العقل ، والخطوة الكبرى هي عقل العقل . وقد خطا طاليس خطوة كبيرة في هذا السبيل . لا لأنه يجري فيه دم معيّن لا يجري في كل انسان ، بل لعوارض ومصادفات اتفقت له ، ولم تتفق لإخوانه اليونان فهو أولاً رجل متفوق على الأقران وإلّا فما تجدي العوارض ومصادفات الزمان ؟ يجب أن نمتلك العقل أولاً لتهيمن في الحال والمآل وتُشدّ إليك الرحال والركبان ، ويكون لك حضور فاعل في الآن بعد الآن .

لقد كانت بلاد اليونان في أواخر القرن السابع قبل الميلاد في نهاية الطريق الملكي . لقد كان كل شيء يتهيأ للعمل ويحفز على العمل بعد الإنفصال التاريخي العتيد ، انفصال الدين عن السياسة ، ذلك الإنفصال الذي كان منطلقاً للحدث الكبير . لقد اعتاد القوم ، بل قياداتهم ، استبعاد الدين عن الأشياء والتعاطي الكلي مع الأشياء . هنا جاء طاليس وفي هذه الأجواء أراد أن يجرب حظّه . فانطلق يفسر الكون بمعزل عن سلطة الدين ، فقصد إلى مصر في طلب العلم

والإستزادة منه . كان يمكنه أن يبقى في بلده ويقعد مخذولاً محسوراً ، ولكنه آثر الرحلة ولقاء المشيخة ، أي أصحاب الإختصاص ورجال العلم ، وفي ذلك مزيد كمال في التعليم . وهناك سمع بقصة الخلق البابلية ، وسمع بالفلك البابلي والهندسة المصرية ، وكان يمكن ألّا يسمع بشيء من ذلك ، فتفاعل ذلك كلّه في دماغه على نحو خاص كان يمكنه أن يتفاعل على نحو غيره ، وامتزج بعناصر الديانة القديمة والتصورات الأسطورية اليونانية المتعلقة بالخلق والنشأة الأولى للأشياء ، فتمخض ذلك كلّه عن نظرية في أصل العالم تعتمد على محض العقل وحده بلا أطياف ولا ألوان ولا ملاحم ولا بطولات ولا آلهة من نسج الخيال الأسطوري . لقد كان ذلك إنجازاً عظيماً في وقت كانت فيه مملكة الأسطورة لم تفقد بعد رواءها ولم يتسرب الضعف والوهن إلى الأسيس التي تقوم عليها . لقد خطا الخطوة التاريخية الحاسمة ، وأعطى الفكر اليوناني طابعه الأصيل .

وهكذا فإن المشكلة الأولى التي واجهها الفكر اليونان وهو يدق أبواب الفلسفة كانت المشكلة الميتافيزيقية .

أهمية المشكلة الأولى

جاء في القانون العاشر[1] من قوانين الإثارة السّيْكوسوسيودينامية « إنّ المشكلة الأولى التي يبدأ على إثرها انتصاب السُّلَّم السّيْكوسوسيوديناميكي تفرض وضعاً جديداً أمام القوى الفكرية الصاعدة وتُدخل اتجاهات معينة في معادلات الصراع بينها . . . ومنذ الآن ستتقرر احتمالات التطورالفكري اللاحق وستتكشف آفاقه المفتوحة أمامها . فقد دلّنا تاريخ المجتمعات خلال تطورها وانتقالها من تشكيلة فكرية إلى تشكيلة أخرى أكثر تطوراً ، على أهمية المشكلة الأولى في جميع التطورات اللاحقة . إنّ خصوصية الأمة [التي ستتبلور مع الزمن] تدين بالكثير للمشكلة الأولى ، المشكلة الأم التي عنها ستنبثق المشاكل الأخرى وبها سيتقرر مصيرها . وإنّ سّيْكوسوسيودينامية المشكلة الأولى وآثارها في مستويات التطور ونوعه ستفتح آفاقاً كانت مغلقة ، وستشقّ طرقاً كانت وعرة ، وستفجر طاقات كانت كامنة . وبها ستدقّ أبواب الفلسفة قوى عاشت الدهر كلّه

(١) سقط اسم هذا القانون في كتابنا **الفكر العربي في مخاضه الكبير** صفحة ١٦٥ والأصل أن يكون هذا بعد السطر الثالث : قانون المشكلة الأولى . فوجب التنويه .

في عالم الأسطورة . . . هذا ويجب أن ننبه الأذهان أيضاً إلى أن المشكلة الأولى ليست عشوائية ، وإنما هي بدورها تنبع من وجدان الجماعة وصميم حياتها ومعنى وجودها [وهذه كلّها وليدة متغيرات تصنعها المصادفات وعوارض الزمان والمكان وتجارب التاريخ والحضارة] . وبحل هذه المشكلة تُحلّ في نفس الوقت جميع المشاكل الأخرى التي تتصل بحياة الجماعة من قريب أو بعيد ، وهي مشاكل تتجدد بإستمرار ، بل أن تجددها دليل على تجدد الحياة واستمرارها ، على استمرار حركة التطور والتقدم . وبتدفق المشاكل واستمرار الحلول المطروحة تتجه الجماعة هذا الإتجاه أو ذلك ، فتبرز هويتها وتتحقق شخصيتها وتنمو خصوصيتها التي تميزها من أي جماعة أخرى غيرها . فلولا الخصوصية لاختلطت الأمم وتشابهت قسمات الأمم وما اختلفت الأمم عن الأمم . فإنّما الأمم ما يفرق بين الأمم ، وإنْ كان الكثير يجمع الأمم . فالأمم تفترق فلا تطمعنَّ بتوحيد الأمم . والمشكلات من أسباب الفرقة بين الأمم ، فلا تتكرر المشكلات بتكرار الأمم . وكذا الحلول التي تطرحها الأمم ، فلا يهولنَّك تعداد الأمم وتباين سمات الأمم . فلن تبقى الأممُ الأمم ، إلاّ بالحفاظ على سمات الأمم ، ولا تتغذى السمات إلاّ على موائد مشكلات الأمم [وكلها مشكلات خارجية عارضة تختلف بإختلاف الأمم] . فإذا توقفت أو لم تُستدرك بالحلول السريعة في أمة من الأمم ، جمدت في مكانها الأمم ، وكانت حديثاً بين الأمم ومضغةً في أفواه الأمم ، بعد أن كانت حدثاً فذّاً عارماً بين الأمم ، هكذا علمنا قانون الأمم ، وهذه هي حصيلة شرعة الأمم .

« أجل إنّ المشكلة الألى ذات أهمية مطلقة في تكوين المشاكل التي ستعقبها أو تلك التي ستتولد عنها والحلول التي ستُطرح لمواجهتها ، وبالتالي في التكوين الفكري للجماعة ومزاجها الروحي وتوجهها النفسي والثقافي وتطلعاتها العقلية . والمشكلة الأولى هي التي ستقرر مصير المشاكل التالية ، وتعطي التفكير في هذه الجماعة أو تلك نمطه وطريقته وملامحه ومنهاج عمله ووسائل تعبيره ، وتحدد له الخطوط العريضة التي ينبغي له السير فيها والإطار الذي يتحرك فيه ولايجوز له أن يتخطاه ويخرج عنه ، من لدن نشأته حتى تذهب ريحه . المشكلة الأولى إذن هي العمدة في طبع الجماعة بطابعها ، وعليها المعوَّل في تشكيل عقلية الجماعية ونظرتها إلى الكون والحياة والمصير .

« ولهذه المشكلة جوانب وعلاقات وآفاق وأطراف وأبعاد وأغوار لا تظهر لأول وهلة ، وهي إنّما تتكشّف وتبرز في الخطوات المقبلة كلما تقدم الفكر وأمعن

في بحث المشكلة واستبطانها وتحليلها والتعمّق فيها وسبر أغورارها . وما تاريخ هذه الجماعة سوى تاريخ الرحلة في عالم هذه المشكلة والغوص على دررها . فإذا أردت أن تتعرف الجماعة وتقف على دخيلتها ومعنى حياتها ومقتضيات وجودها ، فلا تتردد في المغامرة . ارحل داخل هذه المشكلة ، داخل عالمها الكبير الذي يلفُّ الجماعة من أقصاها إلى أقصاها . إقتحم اللجة واقطع الفجة ، تبدد الدُّجة ، وتوقد الوهجة ، وتحقق البهجة ، وتدرك المحجة ، ولا يبلغ هذا المبلغ إلاّ القوي المتين الحجة ! .

« عند الفراغ من المشكلة الأولى ، المشكلة الأم ، والمشاكل التي نشأت عنها والحلول التي اقتُرحت لها ، والإجتهادات التي كشفت جوانبها ، والإشعاعات التي أضاءت ظلماتها ، والمشاكلَ التي توجهت في طريقها ، والطاقات التي تفجرت بلقائها ـ أقول عند الفراغ من كل ذلك ونحو ذلك يكون تراث طويل قد برز إلى الوجود . أجيال جديدة من الآراء والأفكار والأنظار قفزت إلى المسرح لم تكن بالحسبان عند ظهور المشكلة الأولى التي عبأت الأذهان وقرّحت الأجفان وشحنت الأجواء ، وأطلقت الشرارة المعطاء ، فإشتعلت النار حتى بلغت عنان السماء . وكل جيل نواة لأجيال عديدة وذراري جديدة من الأفكار تزيد في وعي الناس ونضجهم وتشحن خيالهم بالصور والألوان والتجارب ، وتعمّق فهمهم لأنفسهم وواقعهم وللعالم من حولهم . فضلاً عمّا ذكرناه من أن كل هذا من شأنه أن يُسهم في توضيح شخصية الجماعة واعطائها هويتها وإضفاء طابع الخصوصية عليها[1] ، ومنحها الصورة النهائية التي ستستقر عليها وتُعرف بها ، إلى أن ينفرط عقدها وتدول دولتها . وتنطفي الجذوة التي أورت بيدها نارها . لقد احرقتها النار التي كانت حتى الآن دفئاً لها ووقوداً تسيِّر آلتها . لقد انقضى أمرها وأصبحت حديث الأجيال من بعدها ، وها هي ذي خاوية على عروشها . فحقٌّ لغيرها أن يتبوأ مكانها ، ويرفع القواعد والأساس على أنقاضها . لقد استوى على العرش الذي كان يوماً لها ! ولن يسلم له العرش أبداً ، بل سيطاح به يوماً كما أطيح بها .

---

(١) وهي كما ذكرنا خصوصية وليدة الظروف والأحوال والعوارض والمصادفات الطارئة لا شأن لها أبداً بالتكوين الوراثي للجماعة ، وهو تكوين لا تنفرد به جماعة عن جماعة ولا تتميز به جماعة من جماعة فالجماعات كلها واحدة وراثياً متعددة ثقافياً وحضارياً . انظر الفصل الأول من كتابنا : اصالة الفكر العربي .

« إنّ المشكلة الأولى ، المشكلة الأم قد لا تظهر للعيان لأول وهلة ، بل تكون محجوبة بطائفة أخرى من المشاكل ، لا سيما في المجتمعات الضخمة . وكلما كانت الجماعة صغيرة كان تبين المشكلة الأولى أسهل ، وحتى هذه الجماعة البسيطة قد يتشابه الأمر عليها ويختلط ، ومع ذلك فهذه المشكلة يجب ألاّ تخطئها العين . فلننظر في المشاكل التي أُثيرت أيُّها منها كانت لها المضاعفات والأصداء السّيْكوسوسيودينامية التي لم تتوقف عن الفعل والتأثير . هناك خيط واحد من التفاعلات السّيْكوسوسيودينامية يربط عصر يقظة الفكر في هذه الجماعة بعصر الإنحطاط والتدهور . وبقدر ما يكون هذا الخيط قوياً متيناً في أوّله يكون واهناً مهلهلاً في آخرهِ . إنّ روح الجماعة ومزاجها وجميع خصائصها كامنة في هذا الخيط الحافظ لها المعبر عن آمالها ومناط عبقريتها .

« فالمشكلة التي تصدى طاليس لحلّها منذ صحوة الفكر اليوناني وتفتحه على الوجود من حوله هي المشكلة الميتافيزيقية ، مشكلة أصل العالم ، فأدلى هو بدلوه أولاً ثمّ أخذت الحلول بعده تترى . ولكنها ظلّت كلها تدور في نطاق معيّن لا تتعداه . فكل قرائح اليونان ـ وبتعبير أدق النخبة الطليعية فيهم ـ قد تجندت لحل هذه المشكلة وكشف أبعادها وآفاقها وفتح مغاليقها ، بكل علاقاتها وتشابكاتها وبكل ما اتسعت له إمكانيات اليونان وقيمهم الثقافية والتاريخية وظروفهم الموضوعية ، حتى لقد امتدّ ذلك إلى الحرية والديمقراطية وأصول الحكم . وظلّ الحلّ يتغذى بالحل ، والتجريد يقوى بالتجريد ويشتد به ساعده ، حتى تكونت الفلسفة اليونانية من ألِفها إلى يائها ، وبرزت إلى الوجود نظاماً رائعاً من الآراء والأفكار والمفاهيم والمثل طبع الرَوح اليوناني كله بطابعه ووسمه بميسمه . وهكذا فالتفكير اليوناني إنّما كان رهناً بالشرارة الأولى التي أطلقها طاليس . وكان يمكنه ألاّ يطلقها . ولولا أنّ هذه الشرارة انطلقت من زناد الفكر اليوناني ، لولا أنّها صرخة خرجت من صميم هذا الفكرواحشائه ، من أغواره السحيقة وأعمق أعماقه ، ولولا أنّها صرخة قد جاءت في عصر انبعاث وانتقال ، وعند انتهاء عهد واقبال عهد ، إذن لما كانت لها تلك التفاعلات والأصداء التي كانت عنوان مجد اليونان وعنوان العبقرية اليونانية . لقد كانت هذه الصرخة نداءً للعقول ان هُبّي ! وللطاقات أن تفجري ! لقد كانت دعوة لها إلى استبطان الذات والغوص على الدرر واللآلِيء التي تزخر بها الذات ، وفضّ جميع الإمكانات والنفائس التي تنطوي عليها ، وتسخيرها لأغراض الحدث الجديد والهاجس الجـديد . إنّها لم

تكن صرخة في واد أو نفخة في رماد ، وإلاّ لما كانت لها تلك التفاعلات الفذة العملاقة ولا انتصب سُلَّم الإثارة السّيْكوسوسيودينامية بهذه الضخامة وهذا السموق الذي خلَّد الفكر اليوناني ، حتى لقد عاود الظهور في الفكر العربي والفكر اللاتيني ومشارف عصر النهضة في أوروبا ، بل لا تزال رواسبه تتفاعل فينا حتى اليوم ونحن نودع الفصول الأخيرة من القرن العشرين !! .

« لقد كان سُلَّم واحد كافياً لشعب صغير كالشعب اليوناني الذي مهما عظمت مشكلاته واهتماماته وتطلعاته ، فإنّها تظلّ محدودة نسبياً بالقياس إلى مجتمع كبير كالمجتمع العربي فيما بعد والمجتمعات الأوروبية اليوم . إنّ المشكلة الملحة بالنسبة إلى اليونان قبل أن يرحلوا عنا هي المشكلة الميتافيزيقية كما أسلفنا وما استتبع ذلك من مشاكل أخرى دونها أهمية لا يكتمل الحل الميتافيزيقي إلاّ بها . لذلك كان سُلَّم الإثارة السّيْكوسوسيودينامية مطبوعاً لدى اليونان بطابع التجريد الميتافيزيقي موجهاً للأغراض الميتافيزيقية تجول فيه العقول وتصول . وهي في هذا الصيال والتجوال لا تواجه مشكلات الحياة العملية الأخرى إلاّ بما استيسر من الحلول والإجتهادات »[1] .

وأمّا المشكلة الميتافيزيقة فإنها لا تزال تجهد فيها وتتوغَّر ، وتتوقد نشاطاً وتتوغَّر ، حتى تُفرغ غاية الوسع وتتبجَّر ، وتقول بعد نضاد الوقود الله أكبر !!

* * *

إن الإغريق منذ الآن هم في صميم عملية الخلق ، لقد بدأت الآلة العقلية تنشط وتتهيأ للوثوب . هنا اجترأ الإنسان على الأسطورة وهنا حمل الفأس لتحطيم الأسطورة . هنا افترع الكون فانفضت عنه أسراره واستشرف إلى عين الوجود . هنا بزغ الفجر وانبلج صبحه .

وأكثر المؤرخين على أن طاليس هو الفيلسوف الأول . هذا هو مذهب أرسطو وعلى آثاره سار جمهور المؤرخين من بعده . لكن وُجِد في اليونان أنفسهم مؤرخون آخرون رجعوا بأصول الفلسفة إلى ما قبل الحضارة اليونانية ، إلى الأقوام التي كان يُقال لها (برابرة) . فديوجين اللائرسي مثلاً يحدثنا في مقدمة كتابه **حياة الفلاسفة** عن الوجود القديم شبه الخرافي للفلسفة لدى الفرس والمصريين .

---

(١) انظر كتابنا : الفكر العربي في مخاضه الكبير صفحة ١٦٥ ـ ١٦٩ .

وهكذا تتواجه في العصور القديمة أطروحتان : هل الفلسفة ابتكار ابتكره الإغريق أم هي ميراث أخذوه عن البرابرة ؟ يبدو أنها إبتكار إغريقي صرف لم يشاركهم فيه غيرهم . فإننا لا نجد عند الأمم التي تقدمتهم فلسفة بمعناها الصحيح القائم على التفكير المستقل عن الدين . نعم يوجد شيء يمكن أن يسمى (فلسفة) تسامحاً عند الصينيين ، ولكن هذه الفلسفة تفتقر إلى النَفَس الإغريقي ، أي إلى العمق والتحليل والتنسيق والقدرة على سبر الأغوار والغوص على حقائق الأشياء . كما كان عندالهنود(فلسفة)، ولكن اللغة المستخدَمة فيها آنذاك لم تكن ملائمة للتعبير الفلسفي ، وهي تظل فلسفة صوفية أكثر منها عقلية ، وهي لم تنفصل عن الدين أبداً . فقط مع اليونان استُبدل بالتصورات الأسطورية للعالم نظام عقلي من الأفكار يستند إلى التفكير المستقل القادر على تفسير الحقيقة تفسيراً طبيعياً . كل عبقرية اليونان إنما تكمن في هذا الاستبدال ، على ألا نُرجِعَ ذلك إلى خصائص عنصرية ، وأن نحصره في نطاق الوراثة الإجتماعية . فحب الاستطلاع والتعلق بالحرية والإقبال على الحياة والإحساس بالجمال والإيمان القوي بالحقيقة والقدرة الفائقة على التعميم والتجريد وما إلى ذلك مما امتاز به العقل اليوناني ، فإنه إنما امتاز به فقط لحظاتٍ تاريخية معدودة ثم جاء الأجل فانطوى ذلك البساط بما فيه ، وذهب الأعيان والصدور وجميع المشيخة ، وهلك العلم والعلماء . إن الذهب يبقى أبد الدهر ذهباً . فلو كان اليونان من معدن الذهب كما تصورهم البعض لما ذهب إلى غير رجعة من ذهب ، ضلَّ سعي من شطر الأمم ، فنسب خِلقة بعضها إلى النحاس والقصدير وبعضها إلى الذهب ! .

إن الأثر الشرقي واضح ظاهر في الفلسفة اليونانية ، من خلال الأورفية على الأقل ، ولكن هذا لا أهمية له في نظري ، إذ ليست العبرة بالأثر ، إنما العرة بما فعله الشخص المبدع بهذا الأثر وبما استخلص من هذا الأثر ، وبالنتائج التي توصل إليها بفضل هذا الأثر . إن الأثر الخارجي معروض لكل إنسان ، إذ يراه صباح مساء ولكن هيهات أن يستوعبه كل إنسان ، إنه أداة ووسيلة في يد إنسان ، وهو نفسه غاية المنى في يد إنسان . إنه مناط العبقرية لإنسان ، ولكنه اجترار وتكرار لإنسان . وما بال صاحب الأثر يظل مغلولاً بالأثر ، بينما الذي استرق الأثر تخطّاه وأتى بالآيات والغرر ؟ فهل يستوي الوبر والمدر ؟ تالله إنها لأحدى الكُبر ! .

لم يصل إلينا التجريد والتعميم إلا عن الإغريق ، فهم أول من بدأ العلم

النظري والفلسفة التأملية ، وإن من سبقهم لم يصلوا إلا إلى طور العلم العملي . وهذا لعمري نابع من إيمان الإغريقي بالعقل واعتقاده الراسخ بالتفكير المنطقي ، فالعالَم في نظره ليس عشوائياً ، بل هو خاضع لقوانين ثابتة لا تتخلف . ولهذا فهو قابل للتفسير والتعليل . وإننا نكاد نجد هذه الفكرة حتى عند هوميروس الذي جاء قبل عصر الفلاسفة ، فوراء الآلهة توجد قوة غامضة (وإن كانت تغدُ أحياناً هي والآلهة شيئاً واحداً) يُسميها هوميروس (أنانكه Ananke) أي الضرورة أو نظام الأشياء الذي لا تستطيع حتى الآلهة نقضه . وتقوم المأساة (التراجيدي) الإغريقية على الإيمان بأن القانون لا المصادفة هو الذي يهيمن على الشؤون الإنسانية . فهناك هدف مقصود في أعقد الحوادث التي يبدو للشخص العادي أن بعضها يقترن ببعض بمحض الصدفة ،وإن كان هذا المقصود خافياً علينا . فإن أبولون في قصة (أوديبوس) لسوفوقليس استطاع أن يتنبأ بما سيفعله أوديبوس لأن الآلهة لا يخفى عليها شيء في الأرض ولا في السماء ، أما عند أيسخولوس فالقانون أبسط من ذلك ، إذ هو قانون أخلاقي : فالعقوبة تتبع الجريمة كما يتبع الليل النهار . وهذا الإيمان الراسخ بالقانون جعل هوايتهد يطلق على شعراء المأساة اليونان - لا على الفلاسفة الأوائل - اسم المؤسسين الحقيقيين للعلم والتفكير العلمي .

إن ما وصل إلينا عن اليونان يؤكد ذلك ، ولكن يجب ألا ننسى أن أشياء كثيرة عن الشعوب الأخرى قد ضاعت في وعثاء الطريق ، ولم يسلم منها إلا النزر اليسير بالنسبة إلى الفيض الهائل الذي وصل إلينا عن اليونان ، فإذا ما بدأنا تاريخ الفلسفة بطاليس الملطي فما ذلك إذن تجاهلاً منا لما قبل التاريخ المديد الذي اختمر فيه الفكر العلمي والفلسفي ، وإنما فقط لسبب عملي وهو قلة المصادر والوثائق والمنقوشات الكتابية لحضارات ما بين النهرين وصعوبة الوصول إليها . نعم يبدأ التفكير الإغريقي ووضع النظريات في أصل الكون وطبيعته بطاليس كما يقول أرسطو ، ولكن طاليس هذا ليس أول مفكر يوناني كما يُقال ، بل لعل الأصح أن نقول إنه أول من عبر عن أفكاره بعباراتٍ منطقية لا أسطورية حفظها لنا التاريخ . فالمهم في قول طاليس ليس أن الماء أصل الكون ، بل المهم قوله إنجميع الأشياء ترجع إلى الماء ، أي إن العالم كله يرجع إلى أصلٍ واحد هو الماء . ولا نعلم أن أحداً قبله من اليونان أو غير اليونان ربما سبقه إلى هذا القول . فالقول إن العالم وحدة وإن ههنا أصلاً واحداً هو الذي عنه تكونت جميع الأشياء ، هو الذي

يدعونا إلى القول بأن طاليس أول فيلسوف في التاريخ . ولا يهمنا بعد ذلك أن يكون هذا الأصل هو الماء أو غيره . وإلى أن تتكشف الوثائق والأسانيد التاريخية عن شيءٍ جديد ، فلا بد من الإعتراف حتى الآن بأن طاليس هذا هو أول فيلسوف ظهر في اليونان ، وبأن ظهوره يؤذن بوجود قفزة أو طفرة أو تبدل نوعي في مسار الحضارة الإنسانية حصل بمجيء الحضارة اليونانية ، إلا أنه تبدل كان نتيجة تراكم كمي لما أحرزته الإنسانية من تقدمٍ قبل اليونان ، ومن خلال ظروفٍ اجتماعية واقتصادية وسياسية وبشرية طبيعية تحدث كل يوم لمن أخذ باسبابها وسلك الطرق المؤدية إليها ، ولا يرجع هذا التبدل أبداً إلى تفوق رسيٍّ أو ميزة عرقية عنصرية ، أو إلى معجزةٍ خارقة للطبيعة لن تتكرر سموها (المعجزة اليونانية) . أنا لا أنكر المعجزات على ألا تكون حكراً على أجناسٍ بشرية دون أخرى ، فإنما التاريخ هو تاريخ المعجزات . فلولا المعجزات ما كان تاريخ وما كانت حضارة ، ولكان القرن العشرون قبل الميلاد والقرن العشرون بعد الميلاد من الكلمات المترادفات .

إن اليونان وإن لم يكونوا بِدْعاً من الشعوب فقد كانوا حدثاً هاماً في تاريخ الشعوب . فلا غرو بعد ذلك أن تظهر الفلسفة على أيديهم ، والفلسفة عنوان كبير من عناوين الشعوب . فبها كان اليونان سراجاً وقمراً منيراً ، ونموذجاً فذاً لمن أراد أن يذَّكَّر أو أراد شكورا . ولا عجب ، فمن يُؤْتَ الفلسفة فقد أُوتي خيراً كثيراً !! .

وأقولها بكل إخلاص وصدق للعلم والحق : إن الفلسفة إذا كانت هي التعميم والتجريد والبحث المنظم في ماهيات الأشياء وحقائق الكائنات ، فإن مكانها الأصلي هو بلاد اليونان بلا نزاع . إنه لا يسعنا أن ننكر أبداً أن نمطاً معيناً من التفكير في الوجود لا يخلو منه إنسان إينما وجد وفي صميم طور التخلف والبدائية ، كما تأكد لنا ذلك في الجزء الأول من هذا الكتاب ـ فالتخلف والبدائية لا يتنافيان مع طبيعة الوجود الإنساني وإلا فكيف انبثق التقدم من التخلف والتحضر من البدائية ؟ ـ وكذلك لا ننكر أبداً أن مراكز الحضارة الشرقية في الصين والهند وإيران قد قامت فيها حركات فكرية ووجهات نظر تأملية في العالم ، وهذا ما أثبتناه أيضاً في كتابنا السابق ، لكن هذه الحركات جميعاً ـ ما خلا تلك التي حدثت في الصين ، وحتى هذه الأخيرة تفتقر إلى النفَس اليوناني والباع اليوناني الطويلين وإلى العمق اليوناني ـ ليست حركات عقلية خالصة وإنما هي تخيلات

ذات طابع أسطوري تهيمن عليها أحاسيس دينية شعرية ، تجعلها غير قابلة لأن تكون فلسفة بالمعنى الدقيق للكلمة . وإذا كانت لا تخلو من بعض وجوه التفلسف فإنه تفلسف ضاعت معالمه ـ ولا سيما فيما يختص بالهنود ـ في ضباب كثيف من الهيستيريا الصوفية والشحن الديني المريض ، ويحتاج الدارسون إلى الكثير من عمليات التصفية والتنقية والتطهير والتشذيب والتصعيد ليستخلصوا منه بعض الشذور . هذا فيما يتصل بالحركات العقلية الشرقية ، وأما العلوم فهي كما قلنا أكثر من مرة علوم عملية موضوعاً وغرضاً وطريقة ، وهي لا تسمو بوجهٍ من الوجوه إلى مرتبة العلوم النظرية . وكما أننا لا نعزو التفوق اليوناني إلى الوراثة البيولوجية أي إلى ميزات تكوينية خاصة بالشعب اليوناني دون غيره من الشعوب وإنما هي وليدة الوراثة الإجتماعية ، كذلك لا نعزو التخلف الشرقي إلى نقائص وعيوب تكوينية خاصة بالشعوب الشرقية وبعدهاً عن التفكير النظري الخالص واكتفاءها بما هو عملي وديني صوفي . وإنما نعزو ذلك إلى الوراثة الإجتماعية أيضاً . فلكل شعب وراثته الإجتماعية الخاصة ، ومنها تنبثق أحاسيسه وهواجسه وتطلعاته . إن الفلسفة لم تنفصل عن الأسطورة والدين في الشرق لأن الشرق كان دائماً مهد الديانات ، كما أن الدين نفسه شأن عملي أو يغلب عليه الطابع العملي ، أي لا يهتم ألا بما تحته عمل ، وينفر من الخوض في النظريات أو على الأقل لا يشجع عليها . والدين يجرُّ التصوف والتصوف يجرُّ الشعر ، ويستقوي ذلك بعضه ببعض وتشتد أواصره ووشائجه بعضه ببعض . ويرسخ ذلك كله في وجدان الناس ومشاعرهم وعاداتهم . لقد فتح الشرقي عينيه على الدين والتصوف والعبادة وكل ما يتصل بعالم الغيب حتى نسي عالم الشهادة ، وأما اليوناني فقد كان خالي الذهن من كل هذا ، لقد تخفف من جميع القيود والأعباء وظل عالة على الشرق في أديانه وصناعاته . لقد عاش وحيداً أو كاد ، لقد ظل طوال حياته ـ وهي حياة قصيرة نسبياً إذا قيست بحياة الشرقيين التي لا تعي ذاكرة التاريخ بداية لها ـ بمنأى عما هو عميق وعريق وراسخ في الشرق ، فلم يشعر وهو يهبُّ من رقاده ويعي ذاته ـ بذلك الكابوس الخانق الذي يمنع صاحبه من ا لإتيان بأي حركة .
لقد انتفض دون شعورٍ بأي كابوس . إن كل ما كان يثقل حركته مستعار يمكن خلعه بسهولة ويسر ، وأما ما يثقل الحركة في الشرق فهو متوطن فيه يضرب في جذوره وأعماقه ، ومن هنا بطء الشرقي وسرعة الغربي . وإذا تحرك الشرقي فإنما يتحرك في نطاق المنقول المأثور أي الدين والتصوف والشعر ، وأما الغربي فإنه في

حل من كل هذا ، إنه يتحرك في فضاء واسع لا رقيب ولا حسيب . ومن هنا أيضاً أن تقدم الشرقي كان دائماً مرتبطاً بالدين ، وأما الغرب فقد كان الدين دائماً عثرة في طريق تقدمه . فما أن يقيل هذه العثرة حتى يطير في الآفاق . فإن أثينا لم تستيقظ إلا بعد أن تحررت من الدين ، أوعلى الأقل عندما فَقَد الدين عمقه في نفوس المواطنين وأصبح رسوماً وشعائر فارغة ـ كما أن عصر النهضة لم يتحقق في أوروبا إلا بعد سقوط السلطات الكهنوتية ، وانفصال الدين عن الدولة . من هنا جاء اختلاف الشرق عن الغرب !! أحدهما يقبل على الدين ويحتضنه ويؤوب إليه ويجعل الحياة منوطة به في كل صغيرة وكبيرة ، والآخر يدير عنه ويبرأ منه إلا في حدود ضيقة ، لأنه يرى فيه تهديداً لحريته واستقلاله وافتياتاً على حقوقه . وكلاهما لا مدخل للوراثة البيولوجية فيه من قريب أو بعيد . فالغربيون الذين ولدوا في الشرق وعاشوا فيه واعتنقوا دياناته تشرقوا في كل شيء ، في الدين والقيم والمُثل والنظرة إلى الكون والحياة والمصير ، ونسوا تراث الآباء والأجداد دون أن ينبض لهم عرق غربي ، وكذا الشرقي الذي أندمج في حياة الغرب ديناً وثقافة ومنهج حياة أصبح جزءاً منه دن أن يساوره شعور بالخزي أو الندامة .

لقد صنعت الوراثة الاجتماعية كلاًّ منهما على منوالها هي ، دون أن يتعارض ذلك مع الوراثة البيولوجية في قليل أو كثير ، لأن هذه الأخيرة إنما ينحصر عملها في تقديم المادة الخام ، ثم تتولى الوراثة الاجتماعية تشكيل هذه المادة وطبعها بطابع العصر والبيئة والثقافة ، والتاريخ الذي تنتمي إليه والذي وجدت نفسها ملقاة في أحضانه دون أن يكون لها رأى أو خيار .

أفول شمس اليونان

ولكن الفلسفة بقدر ما كانت يُمناً على اليونان فقد كانت أيضاً نذير شؤم . إنها النعمة والنقمة أو قل هي السم في الدسم ، وإن كان هذا التعبير جارحاً وغير مقبول . لقد أدت أثينا رسالتها فما تبغي من البقاء بعد أن توقف العطاء ؟ بل ما قيمة البقاء إذا كان بلا أمل ولا رجاء ؟ لقد مضى عهد الجمال والرواء ، تلك أيام خلت بالعز واللألاء ، وهي الآن يا حسرتي في طريقها إلى الفناء ! .

وداعاً يا أثينا ! من مهجة قلبك غَذَوْتنا ، وبِذَوْب أعصابكِ أضأتِ مشاعلنا . وقد أبيتِ وأنتِ في النّزع الأخير تئنين ، إلا أن ترشقينا بالزهور والورود وأنتِ بالروح تجودينَ . إيه أثينا إيه أثينا ! دام لكِ المجد والسؤدد في علّيين !

ودمتِ لنا ذخراً وملاذاً ومعينا ، فقد رأينا فيكِ الفتح المبينَ !!! .

فليت شعري ! ما عسى أن تكون زهور أثينا وورود أثينا ؟ إنها فلسفة أثينا ، وعلوم أثينا . إن العلم والفلسفة ، في تاريخ الأمم والدول يصلان إلى غايتهما بعد أن يبدأ فيها دبيب الإنحلال . ذلك أن الحكمة نذير الموت . إنها تحية الوداع الأخيرة . فبتأسيس دولة المدينة Polis التي سنتحدث عنها في الفصل القادم ، وانبثاق الفكر العقلاني فيها ، وفي نهاية مرحلة طويلة من التوسع السياسي والعسكري والكفاح المستمر لتكوين الذات ، وفي عملية تنقيب أخيرة عما عسى أن يكون متبقياً فيها من مدخرات لم تخرج إلى السطح بعد ، وقبل فترة الإحتضار وإتمام إجراءات الدفن ، وفي صحوة الموت التي لا أمل في الحياة بعدها ، وبعد أن لم يبق في القوس منزع ـ قذفت أثينا بآخر لؤلؤة لديها لتكون ذكرى قوم مروا على هذه الأرض مرور الغمامات على الفيافي والقفار ، فهطلت ومضت تاركة وراءها الخضرة والنضرة والسقيا لقوم غرات جياع عطاش بائسين . إن إزدهار الفلسفة إيذان بالنهاية المحتومة . إنها أول أعراض المرض . إنها الذبالة الأخيرة وبعدها ظلام دامس . لقد انتهت أثينا وانتهت العبقريات التي صنعت مجد أثينا . أجل إنها قبل أن تختفي وراء الأفق وتبتلعها أشداق اليم ، وفي نظرة وداع أخيرة ، أخذت تنثر خيراتها ذات اليمين وذات الشمال ، لقد انبثقت عن أول عطاء وأعظم عطاء جاد به التاريخ حتى آنئذٍ ، والعطاء أعقبه العطاء وظلت جميع العطاءآت تترى ، العطاء بعد العطاء ، إن الفلسفة اليونانية هي أول نقطة دم مسفوح قبل أن يلفظ الذبيح أنفاسه الأخيرة . فإذا لم يكن دم لم تكن شهادة ؛ لقد تفجرت العبقريات في أثينا تفجراً مثيراً ، لكنَّ أجَل هذه التفجر كان قصيراً كما ذكرنا أكثر من مرة . لقد كان لحظة من دهر ، إلاّ أن ثماره أصبحت تراثاً خالداً لليونان أنفسهم وللإنسانية جمعاء أبد الدهر . إن عبقرية هذه الفلسفة لا تذوي رغم مضي عهدها وإدبار عصرها . فعظمتها لا تكمن فيما بلي من أفكارها ، بل في النقلة النوعية التي أحدثتها على جميع الأصعدة والمستويات . فلا تُذكر الفلسفة إلا وتُذكر أثينا ، نعم حلت الاسكندرية محل أثينا ، ولكن إشعاع الإسكندرية إنما كان قبساً من إشعاع أثينا . ثم حلت دمشق وبغداد وقرطبة محل أثينا ، وجاءت البندقية وفلورنسا وباريس لترفع عقيرة أثينا ، والفضل ذلك كله إنما يعود إلى أثينا ، وإلى الشعلة التي أوقدتها أثينا !

وظلت أثينا منذ القرن الثالث أو قبل ذلك بقليل حتى الفتح الروماني سنة

١٤٦ م . تستمتع باستقلال فذ فريد في نوعه . فقد كانت لا حَوْل لها ولا طَوْل من الناحية العسكرية والسياسية . لكنها من الناحية العلمية والثقافية كانت سيدة روما . هنا القول المأثور « غزت أثينا غازيها » . فقد كانت جامعاتها حاضرة العالم اليوناني ـ الروماني ، وقطب الرحى فيه . وكأنها أحست أن ساعتها الأخيرة قد دنت فاستفرغت غاية الجهد لاستكمال الرسالة التي بدأها طاليس ، وتجندت جميع العقول والطاقات في هذا السبيل . لقد جنت على نفسها أثينا ، وهل يسعها غير ذلك ؟ ومنذ ذلك الحين اختفت من التاريخ السياسي . فسقراط وأفلاطون وأرسطو إنما ظهروا عند بدء انحلال البوليص Polis وكذلك الحال في المجتمع الإسلامي ، فهذا المجتمع أيضاً لم ينجب أعظم فلاسفته إلا في خاتمة المطاف ، أي منذ بدأ يدب فيه دبيب الضعف والإنحطاط . هنالك بدأت المواهب العقلية تتفتح . ويبدو أن ذلك يرجع إلى أن هذه المواهب كانت في الماضي يستغرقها العمل السياسي والعسكري ، فلم تجد لها من منفذ بعد ذلك إلا في الإشتغال بالمنطق والفلسفة والكلام وبناء الصروح العقلية ، بعد اليأس من إقامة الصروح المادية . وبهذا المعنى يمكن القول أن الفلسفة (والعلوم) هي الوهج الأخير للحضارة .

ولكن هل ينطبق ذلك على الحضارة الغربية اليوم ؟ لا أعتقد ذلك . إن الحضارات السابقة كانت حضاراة بسيطة نسبياً ، وأما الحضارة الغربية فهي حضارة معقدة جداً ، بل إن كلمة تعقيد لا تفي بالمراد هنا . إن هذا التعقيد يمنع من الرؤية الواضحة لما يأتي به كل يوم من « صرعات » و« تقليعات » تقلب المعادلات وتنسف جميع التنبوءات مما لم يكن له مثيل في التاريخ من قبل . لقد كان التاريخ في الماضي تاريخَ بلد واحد أو تاريخ بلدين على الأكثر ، ولم يحدث قط أن كان التاريخ تاريخ العالم بأسره ، لم يعرف التاريخ قط تشابكاً في العلاقات الدولية كما عرف الآن حتى أصبحت الحاجة ماسة إلى إعادة النظر في قوانينا القديمة ورصد الأحداث من جديد لضبط القوانين التي تضبط سير عالم متحرك سريع كان قبل اليوم ساكناً أو يكاد . لقد أصبح العالم كله مدينة واحدة . لقد وقف العلم على أسباب كثير من الأمراض ، أمراض الأفراد والجماعات ، وأصبح من الممكن منذ الآن تجنبها والتوقي منها ، وبالتالي أصبح من الممكن إطالة الحياة ، حياة الفرد أو الدولة ، والتحكم فيها . فكل شيء يجري اليوم بمقدار ، بعد أن كان بالأمس يجري بالصدفة والتخبط والعشوائية . . . كل شيء اليوم يمكن تداركه قبل

وقوعه أو التعجيل به قبل حدوثه . جميع النباتات يمكن أن تنبت اليوم في زمانها وفي غير زمانها . لقد كان نمو النبات طبيعياً وكان يعتمد على السماد الطبيعي ، وأما اليوم فقد أضيف إليه السماد الصناعي . كل شيء يمكن تصنيعه وإنتاجه بالجملة بعد أن كان إنتاجه بالقطعة . لقد تضاعف إنتاج الحيوان أضعافاً مضاعفة بالحقن والحواضن والهندسة الوراثية ، حتى أصبح من الممكن إنتاج نباتات وحيوانات جديدة لا وجودها في الطبيعة . وحدث شيء من هذا القبيل في العلم والفلسفة . لقد كان الكتاب يستغرق دهراً قبل أن يصل من يد المؤلف إلى يد القارىء ، ودهراً آخر ليتفاعل في ذهن القارىء . وما كان أقل القراء في الزمن الماضي والكتب التي كان يمكنهم الاطلاع عليها . ولذلك ظل الإنتاج العلمي والفلسفي محدوداً جداً ومحصوراً في قلة نادرة محظوظة . هذا هوالسير الطبيعي للأشياء . وأما اليوم فكل شيء يجري على عجلٍ بل بسرعة مجنونة . لقد اختل سير الأشياء ودخل الإقتسار والاصطناع في كل شيء والتصنيع . . .

وهكذا فإن الفلسفة والعلوم التي كانت في الماضي من إمارات المرض والشيخوخة تغير وضعها بالكلية بعد أن دخلت عناصر جديدة على الموقف وطرأت متغيرات نسفت جميع الثوابت وقلبت جميع المعادلات وخيبت جميع التوقعات ، حتى أصبح الإنتاج لعلمي والفلسفي الآن ضرورة حازبة من ضرورات التقدم بعد أن كان نافلة يمكن الإستغناء عنها ، أرأيتَ كيف تختل المعايير وتنقلب الموازين بين عصرٍ وآخر . متغيرة صغيرة واحدة تقلب وضعاً كبيراً ، كميكروب الإسكندر غيّر مجرى الأشياء ووجّه حركة التاريخ غير الوجهة التي كان يسير عليها ، فكيف إذا تعددت المتغيرات ؟ إن هذا لعمري من المفارقات !!! .

إن كل يوم يأتي في هذا الزمان يحمل أشياء جديدة ، وفي كل يوم ينشأ علم جديد . ولا بد أن ينعكس ذلك على الأفراد والجماعات والمؤسسات ، والنظم وأسس التفكير وأنماط الحياة . . . وهكذا يبلى القديم ويتجدد الجديد ويتضاعف العطاء ويتنوع ويغتني على وتيرة تزداد سرعتها ساعة بعد ساعة . عجيب أمر هذا القادم السحري الجديد الذي لا تنتهي حقائقه ولا تنقضي عجائبه : العلم . إن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإن أوله لمنعم ، وإن آخره لمنقذ . لقد اقتحم كل بيت ونشب في كل عقل ، وتدخل في كل أمر . أنّى اتجهت تجد له عرقاً نابضاً ووحياً سابغاً .

فاعظِمْ به من قادمٍ وأكِرمْ . في العقول كل شيء يزول ، إلا العلم المتجدد في العقول . . .

الفصـل الثالث

من القبيلة إلى المدينة

اليونان اسم بلد يحتل طرف شبه الجزيرة الواقعة في أقصى جنوب شرق أوروبا ، وقد وُجد على الخريطة الطبيعية لسطح كوكبنا منذ أن اتخذت الأراضي والبحار صورتها الحالية . وهكذا كانت بلاد اليونان قائمة بالفعل قبل أجيالٍ وأجيال من ظهور الحضارة الهيلينية ، وهي اليوم جمهورية لا تجد أي فرق بينها وبين جيرانها ، بعد أن كانت ـ يا أسفي ! ـ سيدة الدار والجار والأقطار ـ تهوي إليها أفئدة انفضّت من حولها منذ ما يقرب من ألفي عام فشتان بين اليونانَيْن : يونان الأمس ويونان اليوم . الجبال هي الجبال ، والوعورة هي الوعورة ، والمناخ هو المناخ ، والجدب والقحط هما الجدب والقحط قبل سطوع نجم اليونان وبعد أفول نجم اليونان ـ كل أولئك وما إلى أولئك مما يعزو إليه السطحيون من سخفاء الجغرافيا مجد اليونان ـ أقول كل أولئك لا يفسر شيئاً على الإطلاق . لا تصدقوا أن الثوابت تفسر شيئاً ، فإنما التفسير يكمن كله في المتغيرات . هذا ما قلته في الفصل الذي مضى وهذا ما أُعيد قوله الآن . فالتفسير يجب التماسه في التاريخ لا في الجغرافيا ، فمن دخل باب الجغرافيا لم يلق إلا الصخور والرياح والحر والبرد ولكنه لن يلقى بشراً أو أثراً لبشر . افتح باب التاريخ ، هناك فقط تسمع هدير البشر وتسمع صخب حياة البشر . هناك ترى مشهداً عظيماً وحدثاً جسيماً وخلقاً حثيثاً ، هنالك الولاية للإنسان الوجود الحق ، وكل ما عداه من صخور ورياح وحر وبرد ، إنما هي أدوات مسخرات بيمينه ، سبحانه وتعالى عما يشكرون !! لقد أشركوا به المناخ والإقتصاد والجنس . . . فوصلوا إلى دمى وتماثيل وأصنام وأسْقاطٍ من كل شيء إلا إلى الإنسان . لقد أرادوه ليكون موضوعاً فأبى إلا أن

يكون ذاتاً ، فمن لم يؤمن بالإنسان فليس جديراً بالبحث والنظر في أمر الإنسان ، ولا بالخوض في حديثٍ عنوانه « الإنسان » .

إنه يعلم ظاهراً من العلم لا علم الإنسان ، فالعلم الحقيقي لا يؤتاه إلا الإنسان ابن الإنسان . فإنما الإنسان إنسان بقدر إيمانه بالإنسان . فإما تريَنّ من البشر أحداً يتفيهق ويتحذلق ليُعلمن ويعقلن الإنسان ، فأعلمنْ أنه العدو اللدود للإنسان ، فالعلم براء وكذا العقل ممن يزيف ويشوه حقيقة الإنسان . لقد شيّأه ونسي أن ليس الإنسانُ للعلم بل العلم للإنسان ، لقد سلبه ما هو فريد وأصيل ، وما تبقّى فهو لعمري كل شيء إلا الإنسان . فدع عنك كل سحّار يخترع الألاعيب ليصدك عن الإنسان ، وذر الذين يلحدون في آياته ويكفرون بالإنسان ، هذا بعض إيماني وهذا مبلغ إيمانهم بالإنسان . إيماني وإيمانُهم تُرى هل يستويان ؟ .

ليت شعري ! من هو منا أجدر باسم الإنسان ؟

نبذة تاريخية

شهدت بلاد اليونان حضاراتٍ أخرى غير الحضارة الهلينية سادت فيها ثم بادت . فقد ازدهرت فيها أيضاً الحضارة المينوية الموكينية قبل ازدهار الحضارة الهلينية التي تلتها الحضارة البيزنطية ، وفيما بين العصر البيزنطي والعصر الحديث ضُمَّت اليونان على التوالي إلى العالم المسيحي الغربي في العصور الوسطى على يد الصليبيين ، ثم إلى العالم الإسلامي الشرقي على يد الأتراك العثمانيين ، وأخيراً عادت إلى أحضان الغرب بحكم الموقع الجغرافي والتاريخي .

وأول ما يسترعي نظر السائح في تلك البلاد مناظرها الطبيعية الخلابة التي اجتذبت الغزاة منذ عصورٍ موغلة في القدم ، عندما تدفق الدوريون شطر الجنوب . فقد كانت شعوب الشمال دائماً مفتونة جداً بجمال شواطىء البحر الأبيض المتوسط . وإذا ما ذكر المثقفون من أهل الشمال ، اليونان وإيطاليا فإنهم يقصدون أثينا وروما . فهذان البلدان يثيران في الأذهان جملة خواطر موروثة عن الفن والحرية والقانون ونظام الحكم ، وهما مهدا الحضارة الغربية ومنهما ستنهل الوحي والإلهام . لقد سمع البرابرة الأُوَل من مناطقهم الباردة نداء الجنوب واستجاب له منهم الألاف ، فظلوا يتدفقون نحو الجنوب الدافىء المشمس شهوراً

وسنين دأباً ، ومعهم أسرهم ومتاعهم وآلهتهم العائلية الحامية لهم ، مأخوذين بما ترامى إلى آذانهم من قصص عن مناطق عجيبة تقع وراء الحدود الجبلية . ولما اجتازوا بآخر ممر من ممرات البلقان الوعرة وضربوا خيامهم ذات يوم على أرض اليونان المنبسطة بين الجبل والبحر سحرتهم روعة هذه الدنيا الجديدة وجمالها وأحسوا بأنهم نزلوا مستقراً وظفروا بموطن . أجل لقد كان لمناظر الجنوب فعل السحر في عيون أهل الشمال التي لم تألف التضاريس الحادة والألوان القوية والشمس الساطعة والدفء الناعم ، فأحسوا أنهم وصلوا إلى أرض الآمال والأحلام . إنها أرض القرار والاستقرار والحل بعد طول الترحال . إنها أرض الميعاد ! لقد حدث ذلك حوالي سنة ١١٠٠ ق . م .

وتغنى شعراؤهم بهذا الفردوس الأرضي ورددوه في قصائدهم على مر الزمن . وانصهر القوم في الحياة الجديدة يوماً بعد يوم وجيلا بعد جيل ، واستقر بهم المقام وارتبطت مصالحهم ومشاعرهم بالبلد الجديد ، وإن ظل الحنين يُبرِّح بهم من وقتٍ إلى آخر إلى أرض الآباء والأجداد . ولكنهم تغلبوا أخيراً على الشعور بالغربة وطابت لهم حياة البحر وتعودوا الذهاب إلى الأكروبوليس في نزهات المساء ولم يرضوا عن أتيكا بديلاً . وكان برقليس على حق عندما قال « ان أثينا تظل تشرح القلب وتسر العين يوماً بعد يوم »[١] .

إن حضارة مادية عظيمة ازدهرت في اليونان قبل هوميروس بثمانية قرون وهي المذكورة في أساطيرهم وفي وقائع طروادة إلى أن دمرها الدوريون البرابرة . فالحياة التي يصفها الشعر الهوميروسي بما فيها من غنى وقوة وفن وترف وليدة تطور قديم[٢] يعود إلى الحضارة المينوية الموكينية ، وربما إلى ما قبل ذلك أيضاً . والغريب أن اليونان منذ عصر هوميروس لم يستطيعوا أن يفهموا بدقة وجه هذه الحضارة التي كانوا يرتبطون بها والتي كانوا يعتقدون أنهم يبعثونها من الماضي عبر الشعراء المنشدين[٣] .

لقد كانت مدينة موكينا Mycène ـ التي تنتمي إليها الحضارة الموكينية ـ أعظم عواصم اليونان قبل التاريخ . وقد نشأت حول قصر أو قلعة منيعة تتقارب

(١) نقلاً عن الفرد زيمّرن : الحياة العامة اليونانية ، صفحة ٥ .
(٢) يوسف كرم : تاريخ الفلسفة اليونانية ، صفحة ٩ .
(٣) انظر جان بيار فرنان : أصول الفكر اليوناني ، صفحة ٥ .

بيوتها لتحمي نفسها تحت أسوار القصر . وكانت تضم عدداً من السكان النشيطين ، وهم من الزراع والتجار والصناع والرقيق . وقد وصف هوميروس موكينا بأنها « مدينة حسنة البناء ، واسعة الطرقات ، موفورة الذهب »(١) .

لقد أبقى الزمان على أجزاءٍ من جدران هذه المدينة ، رغم ما مر بها من مئات الأجيال التي تكفي لتدمير الصروح العتيدة . وإن ما بقي منها ليشهد على رخص الأيدي العاملة وعدم اطمئنان الملوك على أنفسهم في تلك الأيام .

إن الآثار الدارسة التي خلفتها هذه المدينة ـ وأكثرها من القبور الفخمة المنهوبة ـ شواهد باقية على حضارة كانت قديمة على عهد برقليس (القرن الخامس ق . م .) . ويرجع المؤرخون تاريخ هذه المقابر إلى ما بين سنة ١٦٠٠ ـ ١٤٥٩ ق . م . والحق إنّ تأريخ ما قبل التاريخ عملية بعيدة عن الدقة كل البعد . فنحن لا نعرف كيف بدأت هذه الحضارة ، ولا من هم الأقوام الذين شادوا المدن المنثورة هناك ، وأغلب الظن أن هؤلاء الأقوام قد أصبحوا خليطاً من سلالاتٍ مختلفة ورثوا ثقافات متعددة . فلقد كان سكان بلاد اليونان مختلطي الدماء قبل غزو الدوريين Doriens ومبلغ ما نستطيع أن نتكهن به هنا أن الموكينيين ربما كانوا يمتون بصلة القربى إلى الفريجيين والكاريين سكان آسيا الصغرى ، وإلى المينويين Minoens سكان جزيرة أقريطش (نسبة إلى مينو Minos ملك الجزيرة) . هذا هو سبب تسميتها أيضاً بالحضارة المينوية الموكينية .

إن الدين والميثولوجيا في اليونان القديمة ، يجدان جذورهما في الماضي الموكيني القديم أكثر منهما في الماضي- الدوري المتأخر الذي قوَّض القوة الموكينية . فعندما انهارت هذه القوة أمام اندفاعة القبائل الدورية ، سقطت المَلَكية القديمة ، وسقط النظام الملكي بأسره إلى الأبد ، وسقط شكل كامل للحياة الإجتماعية المتمركزة حول القصر ، واختفت شخصية الملك الإلّهي من الأفق اليوناني اختفاءً تاماً . وقد تجاوز انهيار النظام الموكيني في نتائجه نطاق التاريخ السياسي والاجتماعي فانعكس على الإنسان اليوناني نفسه ، إذ غيَّر عالمه الروحي وأحدث تبديلاً في بعض أوضاعه النفسانية . ومنذ ذلك الحين وبعد حقبةٍ طويلة وقاتمة من العزلة ومن عودة ما يُسمى العصر الوسيط اليوناني ، أدى غياب الملك إلى تجديد

---

(١) نقلاً عن ول ديورانت : قصة الحضارة ، ٦ / ٥٦ .

مزدوج وتضامني تجلى في تأسيس دولة المدينة ، ونشوء الفكر العقلي . واستعادت اليونان - في أوروبا وإيونيا - العلاقات التي ظلت مقطوعة مع الشرق طوال عدة قرون ، وفي قمة التجدد ، ونتيجة لهذا التواصل المستعاد مع الشرق ، أكدت اليونان نفسها ووعت ذاتها . وانطلق معها موكب التاريخ يُغذُّ السير لا يلوي على شيء[1] .

لقد كان الغزو الدوري الآخي إذن خيراً وبركة على اليونان القديمة ، فحلَّت المجالس السياسية وسلطة الشعب محل القصر المنيع الذي كان الملك يُمارس فيه سلطته المطلقة بلا رقيب ولا حسيب . لقد انفتحت اليونان على العالم بعد عصورٍ طويلة من الإنغلاق المظلم ، وهبت رياح التغيير قادمة من الشرق تدمر كل شيء بأمر العقل الذي أخذ ينتفض ليعي وجوده ووجود الأشياء من حوله . ومنذ الآن سيقول « لا » بعد أن عاش دهوراً يطأطىء الرأس لا يعرف غير كلمة « نعم » . إنه الآن يدق أبواب التاريخ ومعه كلمة السر « لا » فلا تنفتح هذه الأبوابِ إلا بعد كلمة « لا » . إنها الكلمة السحرية التي تثير عمليات التاريخ وتُكثف جهود التاريخ .

لقد قالتها أثينا لأول مرة وهي بالوادي الخصيب ، وادي عبقر ، تُلوِّح بالغصن الرطيب . لبيك أثينا ففي تلبيتك الرأيُّ الحصيف الأريب ، وفيه اللقاء يجمع العاشق الولهان بالأمل الحبيب . أنْتِ جهيزةُ قطعتْ قول كل خطيب ، إن موعدكِ الغد ، أليس الغد بقريب !!؟

كانت الحياة السياسية في الماضي حكراً على القصر والحاشية والكهنوت ، وسائرُ الناس لا يتكلمون إلا مِن أذن له الملك ، فأصبحت الآن موضوعاً لنقاشَ علني عام يشهده جميع المواطنين ببيت الأمة في الأغورا Agora ساحة البيت الحرام . هنا يستوي الصغير والكبير ، والصعلوك والأمير ، لا فضل لمواطن على مواطن إلا بالعمل الكبير . هنا ستكون الدولة شأناً عاماً بعد أن كانت مسألة تخص الملك ورجال القصر . وبدلاً من التصورات القديمة لقصة الكون والحياة المصير وهي قصة تقترن بطقوس مَلكية ومعتقدات أسطورية خاصة بالسلطة ، كان فكر جديد في طريقه إلى الظهور ليتولى بنفسه التفسير والتأويل بلا طقوس ولا

---

(١) جان بيار فرنان : أصول الفكر اليوناني ، صفحة ٦ - ٧ .

تعاويذ ، وبالإعتماد على الذات المفكرة وحدها من غير أن تهيب بأي سلطة خارجية غير سلطة الإنسان والعقل الإنساني .

وإذا أردنا وضع صك ولادة هذا الإنسان الجديد ، وتتبع الطريق الذي قطعه قبل أن يتخلص من الإرهاب الفكري والسياسي الذي كان يعيش فيه ، فعلينا أن نقارن ونواجه بخلفية موكينية هذا المنعطف الذي حصل من القرن الثامن إلى القرن السابع عندما بُعثت اليونان بعثاً جديداً وتفتحت براعمها لحياة جديدة . إنه عصر التبدل الحاسم الذي أرسى القاعدة الأساسية لنظام دولة المدينة .

لقد بدأنا هذا الفصل بالكلام على الدوريين والغزو الدوري لأن الضربات التي أنزلها بهيلاد Hellade أو اليونان القديمة هي التي أيقظتها من رقادها ونقلتها من عصور ما قبل التاريخ إلى العصور التاريخية . فالضربة التي لا تقصم الظهر تحيي صاحبها الدهر . لكن الغزو الدوري كان مسبوقاً بغزوٍ آخر كاد يطيح بالبلاد لولا يقظة أهل البلاد . فبين الأعوام ٢٠٠٠ و١٩٠٠ قبل الميلاد اندفعت شعوب جديدة إلى اليونان القارية وكانت طليعة القبائل التي جاءت تستقر في هيلاد ، ثم حلت بالجزر واستعمرت شواطىء آسيا الصغرى ، كما اتجهت غربي البحر الأبيض المتوسط ، ويممت أيضاً شطر البحر الأسود لتكون نواة للعالم اليوناني كما نعرفه في العصر التاريخي . وسواء هبطوا في البلقان أو جاءوا من سهول روسيا الجنوبية ، فإن أجداد الإنسان اليوناني هؤلاء ينتمون إلى ما يحلو لعلماء تاريخ اللغات أن يسموه الجنس الآري الذي يقولون أنه أصل الشعوب الهندية ـ الأوروبية ، وهي شعوب تختلف أصلاً في لغاتها ولهجاتها . إن تدفق هذه الشعوب على سواحل المتوسط لم يكن ظاهرة منعزلة ، فثمة تدفقٍ آخر موازٍ له حصل في نفس الحقبة تقريباً في الجهة الأخرى من البحر مع وصول الحثيين الهنود ـ الأوروبيين إلى آسيا الصغرى وتوسعهم عبر هضبة الأناضول(١) .

وفي القرن السادس عشر كان المينويون المندمجون في السكان المحليين الذين هم من أصل آسيوي ، مستقرين منذ زمنٍ طويل في اليونان القارية حيث انطلقت حياة المدينة حول القلاع التي كانت مكان إقامة الطغمة الحاكمة . وقد أقاموا

---

(١) المصدر السابق، صفحة ١٠ .

علاقات مع أقريطش المينوية في إبان مجدها بعد التجدد الذي أعقب إعادة بناء القصور التي دمرت للمرة الأولى نحو سنة ١٧٠٠ ، فكشفت لهم أقريطش نمطاً من الحياة والفكر كان جديداً كل الجدة بالنسبة إليهم . وهكذا انطلقت عملية اضفاء النمط القريطي تدريجياً على العالم الموكيني ، تلك العملية التي أدت بعد عام ١٤٥٠ إلى حضارة قصرية عامة في الجزيرة وفي اليونان القارية على السواء[١] .

فقد كان القصر في هذه الحضارة محور الحياة الإجتماعية ، وكان دوره دينياً وسياسياً وعسكرياً وإدارياً واقتصادياً في وقتٍ واحد كما مر معنا في الفصل السابق . وفي هذا النظام من الإقتصاد القصري كما يُسمى في العادة يقبض الملك بيده على جميع عناصر السلطة وكل مظاهر السلطان ، وكان يراقب وينظم بدقة جميع قطاعات الحياة الإقتصادية وكل مجالات النشاط الاجتماعي ، بجهاز من الكتبة تتألف منهم طبقة مهنية حددتها التقاليد ، ذات نظام هرمي معقد من رجال القصر والحاشية الكبار والمفتشين الملكيين[٢] .

إن الملك في هذا النظام هو المسؤول عن الحياة الدينية ، فضلاً عن قطاعات الحياة الأخرى ، فهو الذي ينظم تقديم الأضاحي ويسهر على القيام بالطقوس والشعائر والإحتفال بالأعياد على شرف مختلف الآلهة . ورغم النُقلة النوعية التي قفزت باليونان من عصور ما قبل التاريخ إلى العصور التاريخية، فقد استمرت ذكرى الوظيفة الدينية للملكية حتى في إطار دولة المدينة ، وإن هذه الذكرى للملك الإلهي والساحر وسيد الأزمان وموزع الخصوبة بقيت حية في أشكال صوفية[٣] . كما أن الأسطورة القريطية الخاصة بمينوس الذي كان يخضع كل تسع سنوات في كهف (ايدا) للإمتحان الذي ينبغي أن يجدد سلطته الملكية بالإتصال المباشر بالإله زيوس ، يمكن مقارنتها بالمحاكمة التي كان يفرضها حكام إسبرطة كل تسع سنوات على مليكهم ، فيفحصون السماء في ظلمات الليل ليقرأوا فيها ما إذا كان الملك قد اقترف إثماً ينزع عنه صفة القداسة التي تهيؤه لممارسة الوظيفة

---

(١) المصدر السابق، صفحة ١١ ـ ١٢ .
(٢) المصدر السابق، صفحة ١٧ ـ ١٨ .
(٣) المصدر السابق، صفحة ٢٢ ـ ٢٣ .

الملكية[1] .

لقد انهار هذا الوضع بكامله وبجميع لواحقه على اثر الغزو الدوري . وبسقوط الأمبراطورية الموكينية سقط النظام القصري واختفى تعبير الملك anox من المصطلحات السياسية وحل محله تعبير آخر أكثر تواضعاً basilus ، وهو مجرد سيد من أتباع الملك ويخضع له وتمتد سلطته على منطقة ريفية محدودة . وكذلك اختفت الكتابة بين ركام العصور . وعندما يعيد اليونانيون اكتشافها في نهاية القرن التاسع تقريباً ـ بعد أن يقتبسوها عن الفينيقيين ، فإنه لن يقتصر أمر الكتابة الجديدة على أنها من نمطٍ مختلف ، أي نمط صوتي ، بل سيكون لها أيضاً وظيفة إعلامية . فبعد أن كان غرضها محصوراً في تدوين سجلات القصر لاستعمالها من قِبَل الملك ، أصبحت وسيلة للتعبير عن مظاهر الحياة الإجتماعية والسياسية ونشرها على الملأ . فهي منذ الآن لن تكون اختصاصاً لطبقة معينة ، بل ستكون عنصراً لثقافة عامة . لقد تغير معناها النفسي والإجتماعي ، وأصبحت أداة للتوعية والتربية والتعليم ، إن اليونان الآن على الطريق الملكي ، إنها تستعد للقاء كبير .

لكل شعب بدائيوه

لم يكن اليونانيون شعباً كثير العدد ، ولا عظيم القوة ، ولا رائع التنظيم ، ومع ذلك فقدذ تكشفت لهم أشياء لا شأن لها بالعدد ولا بالقوة ولا بالتنظيم . لقد أدركوا لأول مرة المراد من العقل الإنساني ، وكانت لديهم فكرة جديدة كل الجدة عن القصد من الحياة الإنسانية ، لقد قفزوا فوق العدد والقوة والتنظيم ، فكان لهم العدد والقوة والتنظيم ، ما داموا قد اكتشفوا العقل الذي لا يعجزه العدد أو القوة أو التنظيم . فالعقل هو الأول والآخر والظاهر والباطن ، وهو على كل شيء قدير ! من ملك العقل فقد ملك كل شيء ، ومن حُرم من العقل فقد حُرم من كل شيء ، وما يجدي المرء أن يملك العالم ويفقد العقل ؟

لم يكن اليونانيون شعباً متفوقاً بالفطرة والسليقة ، متميزاً من سائر الأمم والشعوب بالعرق وطيب العنصر ، إنهم قوم من أقوام كثيرة عرفت القمم والسفوح وتقلبت في مختلف الأطوار والمراحل والمناهج . لكن شاعت المركزية

---

(١) المصدر السابق، صفحة ٢٣ .

الغربية أن تُفرد لهم مقاماً لا تحلم به إلا أمم الغرب ، ولا تطمح إلى بلوغه سوى شعوب الغرب . فمن الخطأ البين الإنجراف في تيارات الأنثروبولوجيا الإستعمارية التي تقول بوجود عقلية راقية متحضرة بالفطرة خُلقت لتسود هي عقلية الإنسان الأوروبي ، وعقلية بدائية منحطة بالطبع والسليقة محكوم عليها بأن تظل متخلفة تسير وراء الرجل الأبيض وتدور في فلكه لا تريم عنه ولا تحيد ، فيبتزها ويمتص دماءها وينهب خيراتها ويسخرها لأغراضه ومشاريعه . إن هذه النظرة المستعلية قد انكشف زيفها وانقضي عهدها وذهبت ريحها ، وآل أمرها إلى سخرية أولى النُهى .

لكل شعب بدائيوه . وليست البدائية هامش المجتمع البشري ، بل هي قلبه النابض لأنها ثاوية في أعماقه . ولم يخرج اليونان على هذه القاعدة . فقد رأينا الكثير من البدائية اليونانية المتخلفة ، وقد نرى الكثير من هذه البدائية أيضاً . فلا تفاوت من حيث الفطرة والتكوين بين الشعوب التي توصف بالبدائية والشعوب الأخرى التي تُسمى شعوباً متحضرة . يجب الكف عن هذا المنظور الإستعلائي المركز على الغرب . فالبدائية هي لحظة من لحظات التطور التقني والعلمي العام . إنها الماضي الغابر للعقل المتحضر . وفي إنكار ذلك طمس للحقيقة وتغليف لعنصرية من نوع جديد تجعل من المجتمعات التي توسم اليوم بسمة « البدائية » موضوعاً « للفرجة » الفولكلورية ، يجب إبراز مظاهر النبوغ في التراث الثقافي للمجتمعات الهامشية . فالحضارة البشرية تراث مشترك ، إلا أن هناك ثقافات وطنية مختلفة المشارب والمنازع . ليس عيباً أن يكون هذا المجتمع أو ذاك مجتمعاً بدائياً ، ولكن العيب كل العيب أن يبقى بدائياً . فلا يضير اليونان في شيء أنهم كانوا في يوم من الأيام شعباً بدائياً لأن البدائية هي قدَرَ جميع الشعوب . فلا يجوز أن تتخذ البدائية مدخلاً إلى الطعن بهم والزراية بتاريخهم ، بل إن الخروج من البدائية انجاز عظيم يجب أن يضاف إلى مآثرهم . لقد أبوا أن يتسكعوا في السفوح وشمخوا بأنفسهم إلى القمم العالية . فطلب العلا مكرمة من المكرمات ، بينما ظل الآخرون في الضحضاح يتمرغون في التراب، وعاشوا الأجيال بعد الأجيال ولا أفق لهم أبعد من التراب !!

إن المجتمعات على نوعين : مجتمعات متقدمة راقية كالمجتمعات الغربية التي تحتل اليوم بؤرة التاريخ ، وتعيش في قلب الأحداث وتصنع الأحداث ، وكالمجتمعات العربية الإسلامية بالأمس القريب ، والمجتمعات اليونانية الرومانية

بالأمس البعيد ، وكلها مجتمعات تاريخها تاريخ ساخن يتفجر بالأحداث . وهناك أيضاً مجتمعات إيقاعها بطيء يحافظ على أشكال اجتماعية ثابتة ، كشعوب العالم الثالث اليوم . أي هناك دائماً شعوب البؤرة والمركز وشعوب المحيط . لم يَخْلُ التاريخ يوماً من شعوب تتولى القيادة وأخرى خاملة تجد العافية والسلامة في التبعية والإنقياد . الأولى عددها قليل لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة ، والأخرى غثاء كغثاء السيل . كلتا المجموعتين من الشعوب كانت غثاء في يوم من الأيام ، ولن تجد شعباً قط خُلق للقمة وآخر خُلق للسفح . فالشعوب هي الشعوب في كل زمان ومكان . مادة خام واحدة تتداخل فيها عناصر القيادة وعناصر الإنقياد ، ثم يأتي عرق الجبين والظروف الموضوعية والوراثة الإجتماعية وعوامل التاريخ والجغرافيا ، يأتي كل أولئك ليرفع هذا الى القمة ، ويُبقي على ذاك في الضحضاح والغثاء . إن حياة القمم لا تدوم إلا لحظات وتنتهي ، فالمكوث على القمم لا يطول ، إنما يطول المكوث فقط على السفوح حيث البقاء الدائم ، فلا يكاد شعب يرتفع من السفح إلى القمة حتى يهوي إليه ثانية ليكون غثاء في السيل من جديد . فلا بد من سيل يمتلىء بالغثاء ولا بد من قمم تشرف على السيل المحمَّل بالغثاء ، كالبحر المحيط تصطرع فيه العواصف والأعاصير . فمن استطاع أن يركب الموجة ويمتطي الصهوة نجا ووصل إلى بر السلامة ، وإلاَّ هلك وابتلعته أشداق المحيط ، وهنا تتفاوت أقدار السبَّاحين ، فليس السبَّاحون سواء .

ليس هناك إذن شعوب خُلقت للقمم وأخرى للحضيض . كل الشعوب خُلقت لإحتلال القمم ، ولكن التاريخ قد علَّمنا أن القمم لا يرقاها إلا قلة مختارة ، وكل يوم ينجلي عن قلة جديدة تخرج من الحضيض لتحتل مكان القلة السابقة وتقذف بها إلى قاعدتها في الحضيض . وهذا الحضيض يموج دائماً ببعض الحركات التي تختلف قوة وشدة ومدى من مكانٍ إلى آخر . والأكثر حركة ولغطاً هو الذي يتقدم المسيرة . ولا يكاد يمر يوم دون أن يحدث فيه بعض الإنفجارات والحرائق . فحيث تكثر الحركات وتعنف ، حيث تقع الإنفجارات وتنشب الحرائق تنفتح الطريق إلى القمم ويبدأ الهبوط في الوقت ذاته من القمم . دائماً تشهد القمم حركات صعود مستمرة توازيها حركات انحدار بقدرها مستمرة هي أيضاً ، لأن المكان ضيق جداً على سطح القمم لا يتسع إلا لعدد محدود جداً من سكان القمم فالقمم لا تدوم لأصحابها لأن ألسِنَة اللهيب التي تتصاعد دائماً من الحضيض قد وصلت إليهم وهم ينزلون إما ليطفئوا حريقاً أو ليتقوا حريقاً

ويتجنبوا حريقاً . لقد انقضى اليوم الذي كانوا فيه لا يخافون حريقاً وكانوا كلَّ يوم يشعلون حريقاً . إن القمم لا تدوم إلا للصخر والحجر ، أما البشر فإنهم يتناوبون القمم فلا تطمعنَّ في المقام على القمم وإلا كنت حجراً وشجراً أو أي شيء مما تزدان أو تعج به القمم . فكل شيء يبقى الدهر كله على القمم إلا الإنسان ، فلا يسعه إلا المرور يوماً على القمم ثم يهوي من أعالي القمم . مسكين هذا الإنسان الذي إنما خُلق للقمم . ومع ذلك فإنه محظور عليه البقاء في القمم . إما أن تكون أثراً أو أن تترك أثراً ، إياك أن تكون أثراً ، واطلب دائماً أن تكون مؤثراً ، فإنما أنت إنسان بقدر ما تثير وتؤثر وتطلب الذرى .

إن رحلة الألف ميل تبدأ بالخطوة الأولى ، والخطوة ا لأولى هي دائماً أصعب الخطوات . ثم تنتهي الرحلة . من سار على الدرب وصل . وحبذا لو كانت الرحلة لا تنتهي ، إذن لبقي المرتحل في صعود وارتفاع . ولكن لا ، فقد حق على التاريخ ألا يرفع شيئاً إلا وضعه . ليت الواصل لم يصل ، لأن الوصول إيذان بالعودة . ليت الوصال لم يتحقق لأنه مسك الختام ! وإذا كانت رحلة الذهاب بطيئة متئدة ممتعة يتقدم فيها الإنسان خطوة ، ويتأخر خطوات يتخللها الكثير من الإنتكاسات والتراجعات والمداورات ، فإن رحلة الإياب سريعة صاعقة مؤلمة ، ثم تهيج الذكرى فتزيدها غصة ولوعة ، وكلما اندفع المرء فيها خطوة زلَّت به القدم خطوات ، وكل انزلاق تتبعه انزلاقات ، وكل انهيار تعقبه انهيارات ، فإذا هو في الهاوية كلمح البصر بل في الهاويات .

أسطورة الحفاظ على الهوية

إن التغيير أصبح اليوم ضرورة ملحة سواء بالنسبة إلى المجتمعات الراقية أو المجتمعات التي تنتمي إلى العالم الثالث . وإذا كان التغيير هو مطلب الغرب الذي يسعى باستمرار إلى المزيد من التغيير فما ظنك بالشرق الذي كان يجب أن يكون سبَّاقاً إلى كل تغيير والذي يريدونه على عدم التغيير ؟! فإذا كان الغرب يجاهد لإبقاء العالم الثالث في حمأة الجهل والتخلف ويراهن على خموله وتحجره بعدما مكَّنه من نهب خيراته ومواده الأولية ، فقد آن لهذا الأخير أن يدرك أن ما أُخذ بالقوة لا يُسترد إلا بالقوة ، ولا يحصل على هذه القوة إلا بتغيير ذاته إلى أقصى حدود التغيير من غير أن يخشى ما يُسميه المتحذلقون التفريط في هويته . فالهوية التي بنتها الأجيال والقرون لا خوف عليها من التغريب ، أو ما يسمونه كذلك ـ الذي يحذر

منه الغربان والعجزة والمرجفون ولحى التيوس . لقد بقيت فرنسا في الجزائر ما ينوف على قرنٍ من الزمان من غير أن يتزعزع إيمان الجزائريين بأنفسهم ، بهويتهم ، وبتاريخ أمتهم ، رغم جميع الوسائل التي اصطنعتها الدولة الإستعمارية لتمزيق الهوية الجزائرية والقضاء عليها . كما لم يستطع الاستعمار الانكليزي للهند رغم قدرته على المراوغة والمناورة أن يثير أي شك لدى الهنود في تاريخهم وأن يقضي على ذكريات طويلة مليئة بالآمال والآلام والتجارب التي جمعت الهنود على صعيد واحد وأعطتهم انتماء واحداً لا يمنح صاحبه أي ميزة ولا يجلب له إلا الهم والغم والكرب ، ومع ذلك فهو يصر عليه ويتشبث به . إن الإستعمار الفرنسي والبريطاني بدلاً من أن يحطما أسطورة هشاشة الهوية فقد ساعدا ـ ببلاهة وحمق ومن حيث يشعران أو لا يشعران ـ على تعزيزها وتأجيجها في النفوس والقلوب وإمدادها كل يوم بوقودٍ جديد . ألم يبق العرب في الأندلس أكثر من ثمانية قرون فهل تخلى الإسبانيون عن هويتهم أم زادوا بها تعلقاً ؟ إيتوني بهوية استطاعت القوى الخارجية تحطيمها . إنها قد تموت ولكنها لا تُمات . وحتى الفُرس الذين اعتنقوا الإسلام فإنهم اعتنقوه ديناً لا فارسية ، والحركة الشعوبية أكبر برهان على ذلك . ولئن استطاع الإسلام أن يقضي على فارسية بعض الفرس المتحمسين للدين الجديد ، فإنه لم يفعل ذلك إلا بعد تقديم البديل . ورغم أن الإسلام ـ وأقولها للتاريخ والحقيقة لا لأني مسلم والشواهد على ذلك كثيرة ـ في اسبانيا لم يكن استعماراً بمعنى الإستعمار الفرنسي والبريطاني ، فإنه لم يستطع تقديم البديل ، ولذلك احتفظ الإسبان بهويتهم يعضون عليها بالنواجذ . فما أن خرج العرب من الأندلس ـ وبتعبير أدق ما أن أُخرجوا منها ـ حتى استأنف الأسبان بسرعة البرق تاريخاً انقطعت حلَقاته منذ ثمانية قرون خلت أو تزيد . إن ثمانية قرون كانت كافية للقضاء على الهوية الإسبانية لو صحت أسطورة إمكانية القضاء على الهوية ، إنها تضرب عميقاً في جذور التاريخ ، فلن تستطيع أي استراتيجية أن تنال منها .

أسطورة الحفاظ على الهوية ، الغرب هو الذي اصطنعها للحفاظ على مواقعه ، للحؤول دون رياح التغيير تهب من الغرب على الشرق . وسار في ركابه المرجفون والمنافقون ودهاقنة السياسة ، ومعهم حشدٌ كبير من البله ولحى التيوس الخائفين من التغيير ، فسموه التغريب ، والسير وراء كل ناعق . ولربما كنت أحد هؤلاء في يومٍ من الأيام . لا خطر على الهوية من شبح التغريب ، وحتى لو كان في التغريب خطر على الهوية ـ وهو خطر لا وجود له إلا في أوهام المتحذلقين

والمتعالمين والماكرين والمارقين من جمعية المنتفعين بالوضع الراهن ، والسذج الذين يسمعون القول فيتبعون أرذله ، أو يسيئون فهمه ويرددونه ترديد رواية لا تريد دراية ، وجميع أولئك الذين يعرفون الحق بالرجال لا الرجال بالحق ـ أقول حتى لو كان في التغريب خطر على الهوية وهو خطر يكذبه التاريخ والواقع كما مر معنا ، فلا مانع عندي من التضحية بالهوية والتمسك بالتغريب ! الهوية بعبع ، والتغريب واقع ، وليس من الحزم ترك الواقع والإستمساك بالبعبع .

بالغرب والتغريب نقضي على تخلفنا ، ولا مخرج لنا إلا بالغرب والتغريب . لم يخش العرب الغرب والتغريب عندما انطلقوا من شبه الجزيرة يغزون الآفاق . لقد سُمعت بعد الحشرجات والتشنجات ولكن لم يعبأ بها أحد ومرت القافلة بسلام . فالناس في شغلٍ شاغل لا يلتفتون إلى ثغاء هنا أو رغاء هناك أو فحيح هنالك . كل يوم هم في شأن ! وكذلك لم يشعر الغرب المسيحي بأي غضاضة عندما أقبل على تراث العرب العلمي والفلسفي ينهل منه بغير حساب رغم كراهيته التاريخية للعرب . لقد حاولت الكنيسة تعطيل المسيرة ولكن الركب مضى بسلام لا يلوي على شيء . لقد كان تصميم القوم أقوى من أن تزعزعه بعض الأوهام ، ولم يسع السلطات الدينية في روما إلا أن ترضخ وتنحني أمام إرادة التاريخ . لقد كان الشرق والتشريق الدواء الناجع لإخراج الغرب من تخلفه وإختراق الحاجز الحضاري الذي يفصل بين الغرب المتخلف والشرق المتقدم . لقد كان اليهود أكثر تخلفاً منا عندما قامت أوروبا بثورتها العلمية والصناعية ، وكانوا أكثر غيرة منا على تراث الآباء والأجداد وأشد حرصاً على الهوية التوراتية المهددة بالضياع في وسطٍ يحتقرهم ويُكِنُّ لهم مَشاعر الكراهية والعداء . لقد أغلقوا أبواب الغيتوات عبثاً أمام رياح التغيير . وقامت صراعات بينهم وقامت خلافات ، وانقسموا فريقين : فريقٌ ينادي بالحداثة وآخر يُنادي بالأصالة ، وانتصر الفريق الأول على الفريق الثاني ، ولم يكن ممكناً إلا أن ينتصر لأنه يعيش في أتون الثورة ويتلظى بنارها . لقد أدرك بحسه المرهف قبل فوات الأوان أن من السخف مقاومة التغيير في بؤر التغيير والإنكفاء في غيتو لا يُغني ولا يجير . لقد كاد الركب يدوسهم بالأقدام لولا أن انضموا إلى الركب وتولوا قيادته . لم يفقدوا شيئاً من هويتهم رغم تهديم الغيتوات التي كانت تجمعهم وتوحد بينهم وتجعل منهم شعباًهو نسيج وحده يرفض كل محاولة للإختلاط والإندماج في وسطٍ معادٍ له . ولكن اليهود اختلطوا أخيراً واندمجوا وسكتت أصوات طالما ارتفعت وفرض

التاريخ نفسه أرادوا أم لم يريدوا . لقد سرقوا الثورة بعد أن عارضوها حتى غدوا من أبطالها . لم تزل هويتهم غضة بضة ، سُداتها الفكر الغربي ولُحمتها التكنولوجيا الغربية ، وكان لها من البأس والقوة والشوكة أن فرضت نفسها على الغرب وأقنعته بقدرتها على أن تكون امتداداً له في البلاد التي اضطرته الأحداث إلى مغادرتها[1] . وهكذا خُلقت اسرائيل شرطياً للغرب وحارساً على مصالحه وحاجزاً يمنع أي لقاء أو اتحاد بين مشرقه ومغربه . لقد أقاموها خنجراً في وسط العالم العربي مصلتاً فوق رأس كل من تبدر منه بادرة تسلح أو استقواء أو محاولة للثورة والتغيير . وفي ذلك درس وعبرة لأولئك الذين يخشون على الهوية العربية أن يُطيح بها الفكر الغربي والتكنولوجيا الغربية . يجب تعزيز الفكر الغربي في بلادنا والتسلح بالتكنولوجيا الغربية ومكتسبات العصر الصناعي الغربي إذا أردنا أن ننتصر في معركة الحياة والموت وتنازع البقاء بين العرب وإسرائيل . بالغرب يجب مقاومة الغرب ، فالحضارة المتفوقة لا يمكن تحينها .

لابد أن يستجيب القدر

فإذا كان واقع اليوم هو تفوق إسرائيل والذين يقفون وراء إسرائيل وحق إسرائيل في الوجود ، فهناك الآن قوى تنازع إسرائيل والغرب هذا الحق وتشكك فيه وتدعو إلى انتزاعه من أيدي غاصبيه . ولا بد يوماً أن يستجيب القدر . لا بد أن ترتخي اليد التي تقبض على الزمام ولا بد أن تسقط اليد ويسقط الزمام . هذا قانون تاريخي لا يتخلف ولا يتبدل مهما اشتدت القبضة ، فلا يستطيع أحد الإبقاء على يده مشدودة إلى الأبد . اقترب للناس حسابهم ، وهم في غفلة معرضون ! غداً تقوم دول وتدول دُوَل . فإنما الأيام دُوْل .

السلام مع إسرائيل إنقاذ لإسرائيل

لا مصلحة لنا أبداً في السلام مع إسرائيل . إن هذا السلام هو نقطة الماء لإنسان في الصحراء يتلوى من العطش . فإما أن يموت وإما أن يعيش تبعاً لأن يُغاث أو لا يُغاث بالماء .

---

(١) تجد تفاصيل ذلك كلّه في كتاب الدكتور عبد الوهاب محمد المسيري **الإيديولوجية الصهيونية** في جزئين ، سلسلة عالم المعرفة (الكويتية) العددان ٦٠ و٦١ وريجينا الشريف : **الصهيونية غير اليهودية** العدد ٩٦ من سلسلة عالم المعرفة أيضاً .

أنا لا أرى أي جدوى لهذا الزحف على البطون لإبرام معاهدة الذل والعار لتحقيق السلام مع إسرائيل المرفوضة من قوى التاريخ والجغرافيا لكن يُراد فرضها علينا بقوة السلاح وانتهاك قوى التاريخ والجغرافيا .

فإن إسرائيل لا تملك شيئاً من مقومات الوجود : فهي أولاً لا تملك الأرض ، وهي فوق ذلك عبء على أميركا من رغيف الخبز حتى القنبلة النووية . إن أميركا تريد التخلص من هذا العبء على حسابنا نحن من غير أن تدفع شيئاً . فإسرائيل عميل مكلف باهظ الثمن وهي تريدها عميلاً بالمجان ، بل صفقة تجارية تدر عليها ربحاً كبيراً . إنها تريد أن تربح من زراعة إسرائيل في بلادنا كما ربحت من حرب الخليج . وأنا على ثقة أن أميركا ستستوفي منا كل ما تكبدته من تكاليف ونفقات على إسرائيل منذ نشأتها حتى اليوم. وقد استوفت منا أكثر هذه التكاليف من بترول منهوب ومن بيعنا أسلحة لا حاجة بنا إليها . مسرحيات ومشاهد وسيناريوهات تتخذ طابع المعارضة لبيعنا هذه الأسلحة من قِبل الكونغرس الأميركي تارة ، ومن قِبل إسرائيل تارةً أخرى . وأخيراً تتم الصفقة « رغم » الكونغرس وإسرائيل ويتم دفع الثمن ، وهذا هو المطلوب . توزيع للأدوار يضحك به الكبار على الأطفال الصغار ! متى نضع حداً لسياسة الدمى والإستسلام والصور المتحركة توجَّه بخيوط من الخارج ، وتعود ذلاً وهواناً على الشعوب من الداخل ! .

الغرب هو عدونا

الغرب السياسي هو عدونا وإن كان الغرب العلمي والتكنولوجي هو صديقنا .

لقد نجح الغرب المسيحي اليوم في أن يفرض قيمه ومعاييره ومشاريعه على بلدان العالم الثالث ، كما نجح العرب المسلمون بالأمس أن يفرضوا قيمهم ومشاريعهم ومعاييرهم على الشعوب المفتوحة . هذه شريعة القوة لا تفتأ تفرض نفسها بل ان أميركا فرضت نفسها على الغرب كله مثلما فرضتها على العالم الثالث . لقد بدأت بالشقيق قبل أن تبدأ بالرقيق ، فالكل أمام القوة رقيق . فالقوة لا تفرق بين رقيق ورقيق .

يجب التصدي للمقولات الغربية الأساسية التي يقيم الغرب عليها تصوره لذاته وتحليلها . فحضارة الغرب ليست حِكراً على اليونان والغرب الذي ينتسب

اليوم إلى اليونان رغم استعماره اليوم أيضاً لليونان . فلطالما نظرت الحضارة الغربية إلى نفسها على أنها حضارة العقل ، وإلى غيرها على أنها حضارة السحر والغيب ، مقيمةً بذلك تعارضاً بين فكر متحضر متقدم وآخر بدائي متخلف ، كأنما التقدم والتأخر أمران ثابتان في الأمم والشعوب . فجميع الشعوب غرقت في طوفان الأسطورة ، وعلى رأس هذه الشعوب بلاد الغرب قاطبة بما فيها اليونان ، وقلة هي الشعوب التي نجت من الطوفان ، وعلى رأسها اليونان والعَرَب بالأمس وأوروبا الغربية وأميركا اليوم .

يجب أن نتجنب السقوط في الإعتقاد في عالمية الفكر الغربي وعالمية ركيزته ومنطلقه ومهوى تفجر عبقريته : اليونان والفكر اليوناني . إن القيم والمعايير المسيحية الغربية مخالفة بطبيعة الحال للقيم والمعايير العربية الإسلامية ، ولكن ذلك لا يعني شيئاً البتة ، فهناك من القيم والمعايير بقدر ما هناك من الشعوب والجماهير . فالتنوع في أسِّ الوجود الإنساني . حتى الصخور والحجارة يختلف بعضُها عن بعض ، فما ظنك بالإنسان ! إن التنوع لا يعني التقوقع وعدم الإنفتاح على تجارب الآخرين . فكل تجربة كيفما كانت نتائجها كسب للمعرفة .

وهكذا ، فلئن كانوا يعيبون علينا غرقنا وإغراقنا في الأسطورة والسحر والغيب ، فقد غرقوا قبلنا فيما غرقنا وأغرقوا ، ولا أحسب أنهم ينكرون ذلك و يتنكرون له . وقد رأينا الكثير من شطحاتهم في هذا المجال ، وهذا شيء طبيعي ، ما دامت البدائية بجميع علاقاتها ومتعلقاتها مرحلة أساسية من مراحل النمو الإنساني . ثم اجتاز اليونان هذه المرحلة بسلام وانتقلوا إلى مرحلة تالية تتميز باليقظة والوعي ، واليها يرجع الفضل في قيام دولة المدينة أولاً وبروز الفكر الفلسفي بعد ذلك .

البعث الجديد

وعلى كل حال ، فإنه خلال القرون الأولى من العصر الألفي الأخير قبل الميلاد كانت الحضارة اليونانية في طريقها إلى الخروج إلى حيز الوجود في بحر إيجة . ويجب ألا نتوقع أن نعثر في هذه الفترة على أفكارٍ واضحة مميزة . فجميع الصور الأولية التي تكونت عن العالم كانت غارقة في خضم متلاطم من التصوف والسحر والخوارق . ولا غرو من ذلك ، فالفكرة التي تلتمس تفسيراً أولياً للكون تظل أقرب إلى عالم الأحلام منها إلى عالم الواقع . ومع ذلك فإن هذه اللاواقعية في

التفكير تخفي وراءها فاعلية عميقة نافذة هي فاعلية المخيلة الإنسانية التي آن لها ـ بعد أجيالٍ من الأحلام أن تشق لها طريقاً إلى عالم الواقع بأقل ما يمكن من اللامعقول لتحقيق المعقولية التامة أو تكاد . فالشخصية الساخنة بالأحاسيس والأخيلة المتدفقة النشوانة تفقد مع الزمن عنفوانها المشبوب الغامر ، فتبرد وتتبلور بالمعاني والصور المعقولة المتئدة الواضحة . لقد حل الوعي محل اللاوعي ، واندحرت ظلمات الغيب ليبزغ فجر العقل ، وانتصرت الإرادة على العفوية وبدأ الفكر منعطفاً جديداً . لقد دالت دولة الأسطورة وظهرت مملكة الحقيقة . لقد كان العقل ينسلُّ غير منظور في غمرة هذا الجهد اللاواعي ليستقر أخير في جهدٍ واعٍ أولاً ووعيٍ تجريدي بعد ذلك ، ويوماً بعد يوم يزداد تجريداً ويمعن ويمعن في التجريد . لقد جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً !!! .

وهكذا فرغم عذوبة المناخ وصفاء النور ووضوح أطر اليونان الطبيعية فإن الشعوب الأولى التي عاشت فوق أرضها لم تكن تمتاز كثيراً عن سكان بولينيزيا وافريقيا الغربية المتوحشين أو الذين يوصفون كذلك اليوم . إن هذه المعالم الطبيعية لبلاد اليونان لا تصنع شعوباً ولا تبيد شعوباً ، إنها ثوابت لا تقدم شيئاً ولا تؤخر شيئاً، فإنما التقديم والتأخير للمتغيرات التي إنما هي ترفع الشعوب وتضع الشعوب ، فالتحولات الكبرى في حياة الأمم والشعوب إنما ترجع كما قلنا أكثر من مرة ـ إلى التاريخ لا إلى الجغرافيا ، إلى الأفكار لا إلى الأنهار ، إلى الأحاسيس لا إلى التضاريس ، إلى الإختلاط والإمتزاج ، لا إلى الطرق والفجاج . لقد كان اليونان القدماء خليطاً من قبائل شتى ، وزاد اختلاطهم على مدى الأيام . وتغلغلت هذه القبائل في شبه الجزيرة وفي ملحقاتها وأخذت كل يوم تضخ دماً جديداً . وهكذا فكلما دخل البلاد فوج جديد دخل معه دم جديد وآلهة جديدة وأساطير جديدة . كل يوم هي في عالم جديد وكل يوم ترفل في حلة جديدة . . من الصعب إن لم يكن من المستحيل أن نعثر في العصر التاريخي على جماعة يونانية أصيلة لم تجرِ في عروقها دماء دخيلة من جماعاتٍ أخرى . واضطرت هذه الجماعات التي وضعتها الهجرة والاحتكاك وجهاً لوجه إلى أن تتفاعل وتتلاقح وإلى أن تقابل وتعارض وتوازن بين أساطيرها ومعتقداتها . وأثمر النتاج ثمراً طيباً ، فقد أحس القوم بتناقضات العقائد ونواقصها ، وبذلك خسرت الكثير من ميدان سيطرتها . ونشأ النزاع على الأرض والسلطة ، وأسفر النزاع عن فكرة العدالة والنظام والحقوق والواجبات . وجاءت المهن والتقنيات لترد الناس إلى

المزيد من الشعور بالحقيقة والصواب وتجعل التفكير أكثر تماسكاً . وهكذا فكلما زاد الإعتماد على الوعي والإرادة وعلى الفاعلية الإنسانية ، اشتد الصحو والحضور بعد أجيالٍ من المحو والغيبة والغيبوية .

إن الفصل الأول من التاريخ اليوناني كان عصراً مظلماً امتد قروناً عدة كما مر معنا . فقد كان اليونان قبل أيام هوميروس شعباً بدوياً متنقلاً ، وكانت شبه جزيرة البلقان كلها تضطرب بحركاتهم . وظل أمرهم كذلك حتى تبددت الظلمات في القرن الثامن تقريباً . وكان هذا العصر من العصور التي زادت فيها مشقات الحياة كما يشهد بذلك هزيود . بيد أنه على خلاف فترة الفراغ الإجتماعي التي سبقته ، كان عصر مشروعات بناءة ، فقد شهد استتباب النظام في حوض بحر إيجة من جديد نتيجة لإنتصار فلاحي السهل على رعاة الجبل(١) .

وقد بدأت الحضارة الهلينية حياتها التاريخية باتخاذها تراثين خلَّفهما البرابرة أسلوباً لحياتها هما :

أ ـ الملاحم التي تُنسب إلى هوميروس والتي أصبحت للإغريق بمنزلة الإنجيل للمسيحيين والقرآن للمسلمين .

ب ـ ومجموعة من الآلهة صُنعت على مثال اليوناني ، واليوناني البربري بوجهٍ خاص . فالبربري هو مراهق فقد براءة الطفولة دون أن يروض نفسه على الإنضباط الذي يتميز به الرجل البالغ . وهكذا اليونان القدماء وهكذا أيضاً آلهة اليونان . فقد كان هؤلاء عصابة من البرابرة يتمتعون بقوة تفوق قوة البشر . وقد استقرَّ بهم المقام على جبل أولمبوس ، ومن هذا الوكر الرائع للصوص والمجرمين وقطاع الطرق تولوا الهيمنة على الكون(٢) .

وتُعد الألياذة والأوديسة أكثر مصادر معلوماتنا عن عصرِ العنف والبربرية تفصيلاً وأعظمها سحراً ، ولكنهما في الوقت ذاته أعسرها فهماً وأقلها نصيباً من الصحة . فإن أي محاولة لإتخاذهما مصدرين تاريخيين دونها عقبات وعقبات . لذلك لا يجوز الإعتماد عليهما إلا بحذرٍ شديد . إن شعراء الملاحم كانوا حقاً

---

(١) ارنولد توينبي : تاريخ الحضارة الهلينية ، صفحة ٤٥ .
(٢) المصدر السابق، صفحة ١٧ ـ ١٨ .

فنانين مبدعين ولكن أصالتهم وعبقريتهم الشعرية تحول دون أن يكونوا مؤرخين صادقين . فعلى الرغم من أن الموضوعات التي عالجوها تناولت أحداثاً تاريخية ثابتة ، إلا أن جل اهتمامهم كان منصباً على إثارة المشاعر وجذب الإنتباه ، ولذلك فلم يكونوا يترددون في صناعة قصصهم في قالب فني براق على حساب الدقة التاريخية ، بل قد يدفعهم ذلك في بعض الأحيان إلى تغيير القصة بما يطمس معالمها ويخرج بها عن الأصل ، ولا ننسَ أن هوميروس كان يقصُّ علينا أحداثاً كانت قد انقضى على وقوعها أكثر من خمسة قرون .

وعلى كل حال فقد بدأ العقل اليوناني ينتفض في المدن البحرية على شواطىء آسيا الصغرى أولاً وستنتابه هناك موجات من الفضول والتطلع والرشاقة والانفتاح على وقائع الطبيعة ، والتفكير في قضايا الوَجود والحياة والمصير . هناك في إيونيا نشأت الفلسفة وهناك بزغ الفكر اليوناني .وكانت ملطية أغنى مدائن العالم اليوناني كله في القرن السادس . وأثمر رخاؤها المطرد وقد أصاب عقلاً خصباً ، أدباً وفلسفة وفناً في هذه البيئة المنعشة الباعثة على النشاط الذهني . فحيث تتلاقى الطرق تتلاقى كذلك الأفكار والآراء والعادات والعقائد المتباينة ، وينشأ من اختلاطها احتكاك فتنازع ، فمفاضلة فتفكير · لقد استكشف العقل ميداناً جديداً وطرح قضايا جديدة بعد أن كانت الخرافات والأساطير حاجزاً يحول دون التفكير السليم . لقد اصطدمت الخرافة بالخرافة ، فقضت الخرافة على الخرافة . وتجابهت الأسطورة والأسطورة فدالت دولة الأسطورة . وقد تلاقى في ملطية كما سيتلاقى في أثينا رجال جاءوا من أرجاء متعددة ذوو نشاط عقلي متحفز بعثه فيهم التنافس التجاري وقد تحرروا أو كادوا من أسر التقاليد لطول غيابهم عن أوطانهم وهياكلهم ومذابح آلهتهم ، وكان أهل ملطية أنفسهم يسافرون إلى المدن البعيدة حيث تفتحت عيونهم على حضارة ليديا وبابل وكنعان ومصر . وكان الثراء في هذه الأثناء قد منح الناس ـ أو المختارين منهم ـ الفراغ والخلوة إلى الذات والتأمل . ونشأت في البلدة أرستقراطية ثقافية امتازت بالتسامح الفكري ، ولم يكن يُضيق على عقول الناس وتفكيرهم قيود يفرضها رجال دين جهلة أقوياء متعصبون ، ولا نصوص قديمة منزَّلة ملزمة . وحتى القصائد الهوميرية كانت لا تخلو من أساطير دينية مطبوعة بطابع التشكك الإيوني والمرح المجوني . ومن ثم أصبح التفكير في هذه المدينة لأول مرة تفكيراً دنيوياً غير ديني يسعى وراء الأجوبة العقلية المتسقة عما يحير العقول من قضايا الحياة والمجتمع والعالم والمصير .

كان الفكر اليوناني في الأصل فكراً قبلياً بدائياً . هكذا كان الإنسان الأول ، يونانياً كان أو غير يوناني : شرقياً كان أو غربياً ، لا فرق بين أسود وأبيض ، بين ساميٍّ وآري ، بين أوروبي وأفريقي . فالناس من حيث التكوين سواء ، لا فضل لعربي على أعجمي ، لأبيض على أسود . . . إلا بما يحقق من إنجازات أو يقضي من حاجات أو يسدي من خدمات . إن الإنسان المتمدن متحدر من البدائي ، وإلا كيف حصل التمدن ؟ فلو لم تكن في البدائية البذور الأولى للتمدن ولكل انجاز وإعجاز ، لظلت الإنسانية تتسكع وتحبو على ركبتيها إلى أبد الآبدين ودهر الداهرين . نعم إن البدائي غير كامل ولكنه قابل للكمال كأيِّ إنسانٍ آخر يولد ناقصاً ثم يكتمل وينضج بالتربية والتعليم والتثقيف والتوجيه .

لم تكن اليونان في القرون الأولى دولة ذات شخصية ثابتة وتقاليد خاصة ، بل كانت لا تزال في دور التكوين ، وكانت معرضة دائماً لأن تبتلعها كلها ـ كياناً وروحاً ـ أي دولة أقوى منها تعترض طريقها . إنها لم تكن قد شعرت بكيانها بعد . لقد أيقظتها الحروب الفارسية ، أو على الأقل كان لهذه الحروب نصيب كبير في إيقاظها . ومنذ ذلك الحين أصبحت بلاد اليونان ، اليونان التاريخية التي نعرفها موئلاً للعلم والحضارة ، فخرجت من هذه الحروب حرة قوية تستطيع أن تسيطر على العالم كأنها عملاق هائل . وأثينا هي التي نلمس فيها هذا التغيير بكل وضوح . فهي التي جاهدت أكثر من سواها في سبيل الوصول إلى غاياتها العليا ، وبينما تخلف غيرها عن ركبها تقدمت هي الركب ومشت في الطليعة . وشق أهلها طريقهم إلى كل بحر وكل أرض . وهكذا جعلت أثينا من نفسها تدريجياً مدرسة اليونان جميعاً ، وفرضت سلطانها بحكمة وأناة على حلفائها الذين رضخوا لها بعد لأيٍ . وتبدل الحلف في القرن الخامس أمبراطوريةً عظيمةً كفارس وأشور ، ولم تتردد في أخذ الجزية ممن دونها من الدول الصغيرة .

وقد أقام اليونانيون حياتهم ـ بالقدر الذي استطاعوا ـ على زراعة الأرض واستغلالها إلى أقصى حدود الإستغلال . أجل ، لقد عاشوا على الزراعة . هذه هي الحقيقة الوحيدة الدائمة في الإقتصاد اليوناني ، منذ أيامهم الأولى . نحن لا ننكر أن الحضارة اليونانية هي حضارة مدن ، إلا أن أساس هذه الحضارة أساس زراعي . فالتقاليد الزراعية هي أقوى وأثبت قوة في الإقتصاد الإجتماعي اليوناني الموروث . إن اليوناني القديم هو المواطن انيقظ المخاطر . فالمزارع ينتظر رحمة

الطبيعة ولا يتطلع إلى تحسين الوسائل وإنما هو يتطلع إلى الجو المناسب والآلهة الرحيمة ، وكذلك الراعي . وهكذا تعلم اليونان الصبر والكفاح والرضى عن اليوم القليل الإنتاج . والزراع والرعاة هم حصن العادات والتقاليد في كل أمة[1].

لكن هناك من لا يرضى بما قسم الله له ويؤثر جمع المال كيفما اتفق ، حلالاً كان أو حراماً . إن الزراعة هي كما قلنا الإتجاه التقليدي لليونان العاديين لكسب رزقٍ شريف . غير أن فريقاً قليلاً من اليونان كرهوا حياة الرتابة والنشاط الذي يسير دائماً على وتيرة واحدة ؛ إنهم لا يحبون الكسب الضئيل بعرق الجبين ويفضلون حياة المغامرة والمخاطر . هؤلاء هم اللصوص ، فلم يكن هناك بعد حقوق أو قوانين أو عادات أو أعراف غير الأخلاق والآداب القبلية . لذلك اعتاد اليونانيون حمل السلاح في أيامهم الأولى حين كانت بيوتهم غير آمنة وعلاقاتهم بعضهم ببعض يشوبها العداء . فلا غرو بعد ذلك ألا يبالوا بزراعة الأرض إذ ذاك ، لأنهم لا يأمنون غارات بعض القبائل التي تعيش حياة النهب والإغتصاب . فقد كان الإيتوليون مثلاً ، على عهد يوليبيوس Polybe ملك كورنثة ، يعيشون ـ فيما يروي توقيديدس ـ « حياة كلها طمع ، تشبه حياة التوحش ، لا يرون في أحد صديقاً لهم ، بل يعدون كل امرىء عدواً طبيعياً »[2] . وقد احتل هؤلاء الأشخاص الفصول الإفتتاحية في تاريخ توقيديدس ، إذ كانوا يقذفون الرعب الدائم في قلوب أهل المدينة القديمة غير المحصنة . يقول توقيديدس : « عندما غدت المواصلات البحرية أكثر اعتياداً انقلب الهلينيون الأولون من سكان الجزر والسواحل وكذلك بعض البرابرة ، جماعاتٍ منظمة من اللصوص ، وعلى رأسهم زعماؤهم الذين يقودونهم إلى النهب ، تارةً حباً في الكسب ، وطوراً لمساعدة تابعيهم الفقراء . فكانوا ينقضّون على تلك البلدان ينهبونها ، وكانت حتى ذلك الحين لا تعدو أن تكون غير مجرد مجموعة من القرى . هذا هو مورد رزقهم الأساسي . ولم يكونوا يرون في ذلك أي عيب ، بل كان فيه شيء من المجد »[3] .

وكان الحد الفاصل بين الأعمال الحربية والقرصنة ضئيلاً جداً حتى في القرن الخامس[4] . وإذا ما حصلوا على بعض المغانم تقاسموها فيما بينهم بروح المساواة

(١) الفرد زيمّرن : الحياة العامة اليونانية ، صفحة ٢٧١ ـ ٢٧٣ .
(٢) نقلاً عن المصدر السابق، صفحة ٢٨١ .
(٣) المصدر السابق، صفحة ٢٨١ ـ ٢٨٢ . (٤) صفحة ٢٨٤ . انظر الحاشية .

والديمقراطية المطلقة ، والويل لمن يقوم بقسمة غير عادلة ، فهي جريمة لا تُغتفر ! وعندما اضطلعت أثينا بمهمة خفر سواحل بحر إيجة في القرن الخامس ولت أيامهم المجيدة إلى غير رجعة ، إلا أنهم كانوا يعاودون الظهور كلما سنحت لهم الفرصة وبذا ظل الأمن الذي كانت أثينا تتباهى به ، أمناً نسبياً لا شاملاً ، حتى إن السفر في العصر اليوناني كان على الدوام عرضةً للخطر . بل لقد ظهر في صميم القرن الخامس في أثينا ، قاطع الطرق المشهور أوريستيس الذي كان ينقض عليك في الطرقات المظلمة وأنت عائدٌ إلى منزلك بعد قضاء سهرة في الخارج[1] .

هؤلاء الناس هم الذين سيصنعون المعجزة اليونانية أو ما يُسمى كذلك في عرف أصحاب المركزية اليونانية الرومانية التي ستجد امتدادها في المركزية الأوروبية اليوم . إن الحياة القبلية والبدائية ليست حاجزاً يحول دون التقدم وتحقيق الإنجازات العظيمة وبلوغ الأهداف العليا . إن الإنسان الأول ليس فقط جد الافريقي والأوسترالي والآسيوي ، إنه أيضاً جد الآري الهندي ، وبالتالي جد اليوناني والروماني قديماً والأوروبي حديثاً . إن الإنسان وهو يناضل ويكافح في سبيل البقاء يخلق رؤى الكمال ويحس المتعة في تأملها ويسعى حثيثاً إلى الوصول إليها . إنه إنسان بادٍ بقدر ما هو متحضر . فالبادية التي هي في أصل تكوينه هي التي تقوده إلى الحاضرة . إنه إنسان مشبوب حالم ، ولكن أحلامه ليست دائماً أحلام يقظة ، وإلاّ لم يستيقظ أبداً . إنه أيضاً إنسان واقعي لأن الواقع أقوى من الأحلام ، فلا يلبث أن يوقظه من الأحلام ويرده إلى عالم الحقائق . فلو لم يكن الإنسان في الحالين واحداً فقل لي بربك كيف خرج الإنسان اليوناني المتطور من الإنسان الهمجي ؟ كيف خرج إنسان العصر الذهبي في القرن الخامس من إنسان القرون الأولى ، قرون الظلام والوحشية ؟ وبالتالي كيف خرج الإنسان الحكيم Homo Sapiens من الإنسان البربري Homo barbaricus ؟ نعم لم تكن المعقولية كافية عند الإنسان البربري لكن الإنسان الحكيم اكتملت له هذه المعقولية . إن الإنسان البربري عنده ما يكفي من المعقولية لحفظ بقائه واستمرار وجوده . إذ لا يمكنه أن يعيش لحظة واحدة بغير إعمال عقله . بل لعله كان أحوج إلى المعقولية من الإنسان الحكيم الذي يشق عليه أن يعرف مدى الأهوال والمخاوف والمصاعب التي تعرَّض لها آباؤه الأولون في معركة الحياة وتنازع البقاء .

---

(١) انظر المصدر السابق ، صفحة ٢٨٠ ـ ٢٨٩ .

ذلك أن تجربة الإنسان اليومية كانت في تلك الأيام مليئة بالحالات التي لا تنتهي من الصراع مع الطبيعة ومع الآخرين تختلف عنها تجربتنا اليوم كماً ونوعاً . فقد استطاع الإنسان أن يعيش ويكافح ويجاهد ويناضل وسط طبيعة عاتية مشاكسة متمردة لا ترحم ، وفي أجواءٍ من المعاناة والضيق والإحتمال والمكابدة لا يستطيع خيال الإنسان الحديث أن يتصورها . ولولا أن له طاقات تفوق طاقات إنسان هذه الأيام ، لما صمد هو وقبيله حتى هذه الأيام . هؤلاء هم أسلاف اليونان الذين يراد لنا أن نؤمن بأنهم من طينة غير طينة البشر . كلا إنهم بشر كسائر البشر ، ومن نفس الطينة التي صُنع منها جميع البشر ، بكل ما فيها من ضعف البشر وقوة البشر ومعجزات البشر . الطينة واحدة لكن تعددت أقوام البشر .

أنا لا أنكر التفوق اليوناني والعبقرية اليونانية . إياكم أن تظنوا ذلك . أنا إنما أنكر أن تكون العُنصرية والعرقية أهم أسباب ذلك . فالعنصرية ـ إذا صحت ـ هي من قبيل الثوابت . إنها كالجبال والأنهار والحر والبرد لا تفسر شيئاً ذا بال ، وإن كانت المركزية الأوروبية تريدها لتكون تفسيراً لكل شيء . فليس جوهر الهلينية عرقياً أو جغرافياً ، إنما جوهر الهلينية تاريخي إجتماعي ثقافي . أي هو يدخل في باب المتغيرات ولا تستطيع الثوابت بازائه شيئاً .

دولة المدينة

إن الديانة القديمة هي التي أسست الأسرة أولاً ثم المدينة بعد ذلك . لقد أقامت أولاً الشرع المنزلي ثم القوانين المدنية وحكومة المدينة فيما بعد. لقد كانت الدولة مرتبطة بالديانة ارتباطاً وثيقاً . فهي قد أتت منها وكانت ممتزجة بها . لهذا كانت الأنظمة السياسية في المدينة البدائية أنظمة دينية ، إذ لم يكن ثَمَّ فصل بين الدين والسياسة . وكانت الحرية مجهولة ، ولم يستطع الإنسان أن يخلص ضميره من هيمنة المدينة . فقد خضع رجال العصور القديمة لديانة كلما زادت خشوتها زاد سلطانها على نفوسهم . هذه الديانة هي التي صنعت لهم شرعهم كما أنها هي التي منحتهم أنظمتهم السياسية.ويجب ألا ننسى أيضاً ماذكرناه سابقاً وهو أن المَلكية البدائية كانت مقدسة . فكان الملك هو الذي يتلو الدعاء ويقدم القرابين ، وكان أخيراً هو القادر بمقتضى الحق الموروث على أن يجلب للمدينة حماية الآلهة . فلم يكن في الإمكان إذن مجرد التفكير في الإستغناء عنه . كان لا بد من ملك لسلامة المدينة . لذلك نرى في جميع المدن التي نعرف تاريخها في البدء أنهم لم يمسوا سلطة

الملك الكهنوتية ، وإنما اكتفوا بأن ينتزعوا منه السلطة السياسية فقط[1] . هذه أول خطوة تحررية في تحقيق دولة المدينة بالمعنى الاصطلاحي للكلمة : فصل الدين عن الدولة .

إن دولة المدينة Polis ليست اختراعاً هيلينياً صرفاً ، إذ ظهرت في سومر في الحوض الأدنى لنهري دجلة والفرات حوالي عام ٣٠٠٠ ، أي قبل ألفي عام من مولد الحضارة الهلينية . كما كانت دولة المدينة أيضاً من مميزات حضارة كانت سائدة في أرض كنعان وكانت معاصرة وشقيقة للحضارة الهلينية ، ومن الأمثلة الشهرة لدول المدن الكنعانية صور وصيدا وأرواد على ساحل الشام وقادش وقرطاجة وغيرهما من المستعمرات الفينيقية في جنوب إسبانيا وشمال غرب أفريقيا . كما أن هناك نصاً في العهد القديم يذكر تحويل إقليم يهوذا إلى دولة المدينة ، هي أورشليم على يد الملك يوشيا Yosiah في القرن السابع قبل الميلاد . وستظهر دولة المدينة أيضاً بعد الميلاد في البلاد المسيحية الغربية ، كالبندقية وميلانو وفلورنسا إلخ . بل إنه حتى يومنا هذا ، ما زال نظام دولة المدينة العقيم ـ الذي كان سائداً في العصور الوسطى ـ بارزاً في تلك المدن المتخلفة عن تلك العصور كسان مارينو مثلاً ، فهذه المدينة رغم صغرها وضآلة حجمها ما زالت تتمتع بالسيادة والاستقلال التام[2] .

ومعنى هذا أن نظام دولة المدينة ليس في حد ذاته سمة مميزة للحياة الهلينية . فإن ما يميز طريقة الحياة الهلينية في الواقع هو ـ كما سنرى ـ كيفية إفادتها من هذه الدولة باتخاذها إياها وسيلة للتعبير العملي عن نظرة خاصة إلى الكون والحياة . وتتلخص هذه النظرة في قول برتاغوراس المشهور في القرن الخامس : « الإنسان هو مقياس كل شيء » . فقد رأى اليونان في الإنسان سيد العالمين وعبدوه من دون الله . لقد كانت التجربة اليونانية أروع عبادة للإنسان وأصدق تعبير عن عظمة الإنسان سجلها تاريخ الإنسان ، حتى هذا اليوم من أيام الإنسان ! .

وعبادة الإنسان (أو مذهب الإيمان بالإنسان) ليست ضرباً من عبادة الأوثان يقتصر على اليونان وحدهم . فهناك ما يوحي بأنها كانت العقيدة المميزة للإنسان في طور تحضُّره في كل زمان ومكان . فإن دول أوروبا الغربية ، بل العالم

---

(١) فوستيل دي كولانج : المدينة العتيقة ، صفحة ٣٣٣ ، ٤١٦ ، ٤٧٣ .
(٢) ارنولد توينبي : تاريخ الحضارة الهلينية ، صفحة ١٣ .

الغربي كله اليوم على سبيل المثال يدين بهذه العقيدة منذ فجر عصر النهضة . فالغربيون يهيمون بقوة الإنسان الجماعية التي تتجسد في إيمانه بقدرته على السيطرة على الطبيعة وتسخيرها لأغراضه وغاياته ، والشاهد على ذلك الفلاسفة الإنسانيون الغربيون في القرن الخامس عشر الذين كانوا من عبدة الإنسان كلٌّ على طريقته الخاصة . وهكذا كان أيضاً أصحاب المذهب العقلي في عصر التنوير(١) . فالحضارة الغربية كلها هي امتداد للتجربة الإنسانية اليونانية الرائدة ، وإن كانت هذه الأخيرة أصدق وأصلب . وقد تجلى ذلك على خير وجه في عبادة القوة الجماعية المتمثلة في صورة دولة المدينة Polis المؤلّهة ، والمعنى الأصلي لهذه الكلمة هو القلعة(٢) . وكان من الطبيعي أن تقيم المجتمعات داخل دولة المدينة قلعة مشتركة تؤوب إليها في الملمات . وقد انتقلت هذه الكلمة إلى لغات العالم الغربي في العصر الحديث في الألفاظ الإشتقاقية Plitics, Policy, Police فقد عمد الهلينيون إلى عبادة مدنهم على إعتبار أنها آلهة ، بدلاً من أن ينظروا إليها على أنها مجرد مرفق عام . وذهب الأمر في النهاية إلى حد أن أصبحت المطالب التي فرضتها دول المدن المؤلّهة على مواطنيها تستلزم من التضحيات ما ساق هذه الدول إلى نهايتها المحتومة كما سنرى . فقد أثارت ثائرة أتباعها الذين عانوا في سبيلها الكثير زمناً طويلاً ، وهذا مما دفعهم إلى لاعصيان والثورة . فقد كانت مطالب دول المدن ـ شأنها في ذلك شأن جميع المنظمات المتشددة الصارمة ، ذات الأهداف العليا ـ شديدة الوطأة على كاهل المواطنين(٣) .

والحق أن ظهور دولة المدينة في تاريخ الفكر اليوناني حدث جديد حاسم . ومن المؤكد أنها لن تحقق كل نتائجها إلا بعد حين ، سواء على الصعيد السياسي أو الثقافي أو المؤسساتي ، وستعرف دولة المدينة مراحل متعددة وأشكالاً متنوعة ، إلا أنها منذ ظهورها الذي يمكن أن نحدده بين القرنين الثامن والسابع كانت اكتشافاً حقيقياً ، ومعها اتخذت الحياة الإجتماعية والعلاقات بين الناس شكلاً جديداً أدرك اليونان جميعاً أنه شيء فريد في بابه لا عهد لهم بمثله من قبل : فالمدينة اليونانية كما نجدها عند نهاية تطورها الطويل في القرن السادس تختلف اختلافاً تاماً عن

(١) المصدر السابق، صفحة ١٤ .
(٢) المصدر السابق، صفحة ٤١ .
(٣) المصدر السابق، صفحة ٥٣ ، ١٨٧ .

مدننا . فهي ليست مركزاً تجارياً ولا صناعياً ، ولكنها قرية زراعية كبيرة . إنها لم تنسَ أصلها الريفي قط . فقد ظلت دولة المدينة في كل مكان ، وفي كل أيامها زراعية قبل كل شيء . وكانت تتمتع ـ ولا سيما قبل العصر الامبراطوري ـ بما يشبه جداً تلك الألفة ومشاعر القربى التي تنشأ بين أفراد أسرة كبيرة ، وذلك خلافاً لما اتسمت به العلاقات الإنسانية من جمود وفتور سواء في الأمبراطورية الرومانية القديمة ؛ أو في الدول الغربية الحديثة . فاليونان كانت دائماً أقرب إلى روحانية الشرق وقيمه منها إلى مادية الغرب وتقاليده النفعية . ومن هذه الناحية فهي همزة الوصل بين الشرق والغرب ، وإن تعبير « الشرق الأدنى » الذي يدل على اليونان وقبرص وتركيا ذو دلالة في هذا الباب .

لقد حلت محل حكم الفرد حكومة المؤسسات ، وذهبت إلى غير رجعة صورة الملك المطاع الذي لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون . لقد مضى إلى الأبد جهازه الكامل من الكتبة والإداريين التابعين له شخصياً والمسؤولين أمامه وحده ، ليستقر في مكانها فكرة الوظائف الإجتماعية المتخصصة وفكرة المسؤولية الشخصية والمحاسبة الرقابة والضمير المسلكي . لقد كانوا من قبل مسؤولين أمام الملك أي أمام شخصية حقيقية ، وأما الآن فهم مسؤولون أمام الدولة ، أي أمام مؤسسة أو شخصية معنوية . وهذا تطور كبير أيضاً في مفهوم الشخصية عندهم .

لم تعد الأبنية كما كانت في السابق تتجمع حول القصر الملكي المحاط بالتحصينات والأسوار ، فالمدينة الآن متمركزة حول الأغورا agora ، الساحة العامة والحيز المشترك الذي تناقش فيه القضايا العامة . إن المدينة ـ لا القصر ـ هي التي تحاط منذ الآن بالتحصينات والأسوار التي تحمي وتحدد المجموعة المرتبطة بها ، وحيث كانت ترتفع القلعة المَلكية ـ مكان الإقامة الخاص والمتمتع بالإمتيازات ـ شيدت هياكل تُفتح للعبادة العامة . ومنذ أن تمركزت المدينة حول الساحة العامة أصبحت بوليس Polis بالمعنى الكامل للكلمة .

كما أن المعارف والقيم والتقنيات انتقلت هي أيضاً إلى الساحة العامة ، إلى الأغورا ، وخضعت للنقد والحوار والنقاش ، إذ لا معنى للساحة العامة إلا النقد والحوار والنقاش ، بقدر ما كان القصر الملكي يعني التكتم والسرية والاستئثار بالرأي . فهذه المعارف والقيم والتقنيات لم تعد محفوظة في الأدراج وخفايا التقاليد

الملكية بل ستغادر أماكنها إلى غير رجعة لتعرض على الملأ لمناقشتها ودراستها وإبداء وجوه الرأي فيها . ومنذ ذلك الحين أصبح النقاش والتعليل والجدل قواعد اللعبة الفكرية والسياسية . كما أن الرقابة الدائمة للجماعة يخضع لها حكام الدولة كما سيخضع لها الانتاج الفكري الذي سترتفع وتيرته يوماً بعد يوم(١) .

وهذا التحول للمعرفة من السرية، من النمط الخفي إلى نوع من الحقائق العامة العلنية المنتشرة بين الجمهور أعقبه تحول آخر موازٍ له طرأ على فروض العبادة فنقلها من الإستئثار الكهنوتي أي المشاعية الشعبية . فالكهنة القدماء الذين كانوا يحتفظون بالأسرار المقدسة صادرتهم المدينة وألحقتهم بمشروعها السياسي ، وجعلت من بضاعتهم عبادات رسمية لمواطنيها جميعاً . كما أن الحماية التي كانت الألوهة تقصرها في العهد السابق على محظييها سيتسع نطاقها منذ الآن لتشمل الجماعة كلها . وهكذا فإن المقدسات القديمة كلها ـ من شارات التنصيب إلى الرموز الدينية والشعارات التي تمت المحافظة عليها بكثير من الحرص والرعاية وكأنها طلاسم السحرة في خفايا القصور وفي أعماق بيوت الكهنة ـ أقول إن هذه المقدسات جميعاً ستهاجر الآن إلى الهيكل لتستقر فيه ، وهو المكان المفتوح الذي يغشاه العام والخاص . فلا أسرار ولا امتيازات بعد اليوم . لقد أصبحت التماثيل والأصنام في هذا المكان بضاعة معروضة للجميع ـ إذا صح التعبير ـ أي بلا حقيقة دينية أخرى غير مظهرها الخارجي ، لقد فقدت مع صفتها السرية فضيلتها من حيث هي رمز ، وأصبحت مشهداً يقع تحت نظر المدينة وأصبح الهيكل مدرسة يناقش فيها الحكماء حقائق الدين والألوهة وفلسفة العقيدة ، أو هذا على الأقل ما يفترض فيها أن تكون(٢) .

ومن الطبيعي ألا يحدث ذلك كله جملةً واحدة ، إذ لن تستسلم الحياة السياسية والدينية لعلنية كاملة بلا صعوبة ولا أي مقاومة . فإن مسيرة النشر قد حصلت على مراحل لِما قام في وجهها من عقبات حدَّت من تقدمها ، سواء على الصعيد السياسي ، وهو الذي يجب أن يكون قبل غيره بمنأى عن أي إلتزام سري ، أو على الصعيد الديني الذي هو بطبيعته تربة خصبة للأسرار وحاضن ممتاز لنمو الأسرار . فحتى في إبان الحقبة الكلاسيكية وعصرها الذهبي المتفوق ،

---

(١) انظر جان بيار فرنان : أصول الفكر اليوناني ، صفحة ٤٣ ـ ٤٤ .
(٢) المصدر السابق ،صفحة ٤٥ ـ ٤٦ .

نجد بعض الممارسات الحكومية لا تزال تحافظ على طابعها السري وإلا تعرضت المدينة « للخطر » فهناك العديد من المدن التي ظلت تضع خلاصها في اقتناء الذخائر السرية : رفات الأبطال التي لا يعرفها الجمهور وينبغي ألا يعرفها خشية أن يلحق الدمار بالدولة ، والحكام وحدهم هم المؤهَّلون لصون هذا السر المكنون عندما يتولون مهامهم . إن القيمة السياسية المنسوبة إلى هذه الطلاسم ليست مجرد استمرار للماضي ، فهي تستجيب لحاجات اجتماعية محددة . ألا يستثير خلاص المدينة بالضرورة قوى ليست في متناول حسابات العقل البشري ، وعناصر ليس ممكناً تقدير قيمتها في نقاش ما ، ولا توقعها في ختام جولة من المداولات ؟ هذا التداخل من قِبل قوة خارقة للطبيعة ذات الدور الحاسم في نهاية المطاف ينبغي أخذه بالحسبان والاعتداد به في تناسق العوامل السياسية . ومهما يكن وضوح الرؤية لدى القادة السياسيين وحكمة المواطنين ، فإن قرارات المجلس لا تستغني عن القوى الخفية ما دامت تتناول مستقبلاً تنعدم فيه الرؤية البشرية من حيث الأساس ، ولا يمكن للعقل أن يحيط به إحاطة كاملة . فمن الضروري إذن إعطاؤه ما تستحق من العناية بتدابير أخرى غير التدابير البشرية ، ولا يكون ذلك إلا بالقيام ببعض الطقوس الدينية وما تتمتع به من فعالية تخرج عن حد العقل . وهكذا ، فمع أن العقلانية السياسية التي تسود مؤسسات المدينة تتناقض مع الإجراءات الدينية القديمة للحكومة ، فإنها لا تستبعدها(١) .

فإذا كانت الوسائل الخفية لم تفقد تأثيرها في الحقل السياسي وظلت تنخر كالسوس في صميم العقلانية السياسية ، فأولى بها ألا تفقد هذا التأثير في الحقل الديني . فكيف لا تترعرع القوى الخفية في الدين وهما أخوان شقيقان ، بينما ترعرعت في السياسة وهما عدوان لدودان أو يكادان ؟ فعلى هامش المدينة ، وإلى جانب العبادة العامة ، ظهرت الجمعيات القائمة على السرية . فالطوائف والأخويات وسائر المجموعات المغلقة انتعشت من جديد ، وكانت مهمتها هي انتقاء أقلية تكون حارسة للمدينة ، وكان ذلك يجري بعد سلسلة من الاختبارات والتدريبات . وهؤلاء المختارون مطهَّرون وقديسون ينحصر عملهم في النطاق الديني المحض . إنهم القيِّمون على التحول « الروحي » دون أي أثرٍ سياسي . وبما أنهم قريبون من الآلهة فهم مدعوون إلى قدرٍ إستثنائي يصعب فهمه في هذا

---

(١) المصدر السابق صفحة ٤٦ - ٤٨ .

العالم . إنه من مكنونات العالم الآخر[١] .

كانت الجمعيات السرية تقدم للمريدين الوعد بالخلود السعيد الذي كان امتيازاً ملكياً ، وكانت تذيع الأسرار الدينية التي كانت حكراً على عائلات كهنوتية خاصة . وعلى الرغم من إضفاء الديمقراطية على امتيازٍ ديني ، فإن هذه الجمعيات لم تضع نفسها في أي وقتٍ من الأوقات ضمن منظورٍ إعلاني ، وكيف تفعل ذلك وهي لا تزال تدعي الوصول إلى حقيقة تستعصي على الأساليب العادية ، ولا سبيل إليها إلا بالحصول على وحي استثنائي يعمل على فتح الطريق أمام حياة دينية غير معروفة من عبادة الدولة ، ويهيىء للمتدربين مصيراً لا يقاس بالشروط العادية للمواطن . وهكذا يتخذ السر تفسيراً دينياً خاصاً متناقضاً مع علنية العبادة الرسمية : فهو يحدد ديانة للخلاص الشخصي ، رائدها تحويل الفرد وهدايته بمعزلٍ عن النظام الإجتماعي القائم ، لتبعثه بعثاً جديداً ينتزعه من الوضع العام وتجعله ينتمي إلى نهج حياتي مختلف[٢] .

ولكن جميع هذه العقبات التي أبقت على بعض الأسرار في المضمار السياسي فضلاً عن المضمار الديني وحالت دون الوصول إلى علنية كاملة ، أقول إن جميع هذه العقبات لا أهمية لها ولا غبار عليها لأنها عقبات طبيعية لا تزول بجرة قلم . إن كل أولئك لا ينفي الحقيقة الراهنة التي لا مجال لجحدها أو التشكيك فيها ، وهي أن يونان اليوم غير يونان الأمس . لقد اقترب الوعد الحق . غبرت يونان وجاءت يونان ! أوَ تعْجبون بعد ذلك أن تتفلسف اليونان وأن تجترح المعجزات اليونان ؟ لا المعجزات بالمعنى الأعجوبي الضيق الوسنان ، ولا بالمعنى العنصري الأسود المخالف للعلم والعيان ، الممعن في الغش والتضليل كسجع الكهان ، بل بمعنى الإعجاب الشعري الصادق الولهان . إي وربي إنني مفتون بهذه اليونان ، بل أنا بها مجنون على قيثارها أسمعُ أعذب الألحان . وهو في رأيي سيد الألحان ، فاللحن اللحن يتفجر أولاً في القلب قبل أن يصدح في عالم الألحان . وكلما كان أقرب إلى الشغاف وأدخل في الشغاف غزا سائر الألحان ، فإنما اليونان لحني ، فدونك مرة أخرى سيد الألحان وصدقوا أوْ لا تصدقوا ، إنه سيد الألحان !!! .

---

(١) المصدر السابق، صفحة ٤٨ .

(٢) المصدر السابق، صفحة ٤٩ .

هناك حقيقتان متناقضتان ولكنهما متكاملتان كقطبين مغناطيسيين ظهرتا في العالم اليوناني الجديد ، عالم ما بعد انهيار الملكية القديمة وهما قوة النزاع وقوة الوحدة ، النزاع على السلطة ، بعد شغور مركز الملك ، والسعي إلى الوحدة لمواجهة الأخطار الخارجية . فإن تمجيد قيم الصراع والمنافسة والخصومة اقترن في نفس الوقت بالشعور بالإنتماء إلى نفس الجماعة وإليها وحدها وبالتالي بالحاجة إلى الوحدة والتوحيد . وكما يلاحظ هزيود ، إن كل خصومة تفترض علاقات مساواة، فالمنافسة لا تقوم إلاّ بين مجموعة من الأنداد. إن روح المساواة هذه داخل مفهوم صراعي للحياة الإجتماعية هي إحدى السمات التي بدأت تطبع العقلية الجديدة بطابعها المميز والتي كان لها أثر في إعطاء فكرة السلطة محتوىً جديداً . فالقيادة لم يعد ممكناً أن ينفرد بها أي شخص كان ، إنها منذ الآن شأن جماعي يجب على الكل أن يكون له نصيب فيه ، والأفضل هو الذي سيُكتب له النجاح . إن القيادة المثلى لا تكون إلا بعد الدخول في امتحان يتخذ شكل المعركة : مبارزة خطابية ، مقارعة الحجة بالحجة . إن المداولات والقرارات يجب أن تُتخذ في الساحة العامة ، الأغورا ، وهو مكان للإجتماع قبل أن يكون سوقاً . فالذين يتجابهون في الأغورا إنما يتجابهون بواسطة الكلمة ويواجهون الكلمة بالكلمة ، دون أن يرفع أحدهم في وجه أخيه سلاحاً غير سلاح الكلمة . فالكلمة منذ الآن هي الكلمة ، ولا سلاح غير الكلمة[1] .

أجل ، لقد دالت دولة السلاح ، وقامت دولة الكلمة ، فإن ما ينطوي عليه نظام المدينة الجديد هو هذا التفوق الخارق للكلمة على جميع الأدوات الأخرى للسلطة . فقد أصبحت الأداة السياسية بامتياز ومفتاح كل سلطة في الدولة ، ووسيلة القيادة والسيطرة على الآخرين . هذه القدرة الجديدة للكلمة - التي سيجعل منها اليونان أحد الآلهة : البيثو Peitho قوة الإقناع - ستفتح أمام الجيل الطالع آفاقاً بقيت حتى الآن مغلقة . لم تعد الكلمة هي الكلمة الطقوسية والتعويذة السحرية والتميمة التي تجلب الحظ وتدفع الأرواح الشريرة ، وإنما هي المداولة والمحاورة والنقاش والتعليل والتفسير . لقد كانت حرفاً فأصبحت الآن

---

(١) المصدر السابق،صفحة ٣٧ - ٤٠ .

معنى ، لقد كانت سخفاً تلوكه الألسنة والأفواه فأصبحت صحفاً تتدبرها العقول والأذهان . لقد كانت دردشة وجعجعة فارغة وهي الآن تحفة وذخيرة وحكمة بالغة ! .

الكلمة تفترض منبراً تُلقى من فوقه وجمهوراً يستمع تتوجه إليه وكأنه قاضٍ يصدر الحكم الأخير برفع الأيدي بين الفريقين الماثلين أمامه . في هذا الامتحانٌ يُكرم المرء أو يُهان . فالخيار الإنساني هنا ـ لا المدد الإلهي ـ هو الذي يبتُّ ويقطع . إنه هو الذي يوازن بين الخطباء ويقيس قوة الإقناع فيها بلا تحيف ولا إنحياز بل بتجرّدٍ ونزاهة تقضي بفوز أحد الخطباء على خصومه . ولعل هذا ما يفسر لنا ظهور السفسطائيين في هذه المرحلة بالذات ، مرحلة دولة الكلمة والعصر الذهبي للكلمة . ثم جاء سقراط الذي جعل من الحوار وسيلة فذة للوصول إلى الحدود والتعريفات السديدة . وأعقبه أفلاطون الذي طبع الحوار بطابعه الخاص وأضفى عليه عبقرية خاصة ، حتى لكادت جميع تصانيفه مكتوبة بلغة الحوار . لكن أرسطو ذرّف عليهم جميعاً وتخطاهم جميعاً ، وإن كان قد أفاد منهم جميعاً . فالمنطق الذي وضعه أرسطو فيه تتويج وتعميق لجميع جهود سابقيه في هذا الباب .

وعلى كل حال ، إن جميع القضايا المتعلقة بالمصلحة العامة التي كان الملك يستأثر وحده بتنظيمها والتي هي من اختصاص القيادة ، أصبحت الآن خاضعة لفن الخطابة . وبالتالي ينبغي أن تحسم في نهاية المنافسة . إن هذا يقتضي أن يكون بالإمكان صياغتها في خطاب ، والإنكباب على البراهين المتناقضة والتعليلات المتعارضة . إن جميع بحوث الألفاظ قد نشأت في هذه المرحلة . وهكذا قامت بين السياسة والخطابة علاقة وثيقة وصلة متبادلة . فإن فن السياسة وبالتالي القيادة هو في الأساس معالجة اللغة والسيطرة على اللغة . ومن الناحية التاريخية كانت البلاغة والسفسطة متلازمتين ، وبالتحليل الذي قاما به لصيغ الخطاب من حيث هو أداة الفوز في صراعات المجلس والمحكمة ، فقد فتحتا الطريق أمام أبحاث أرسطو الذي عالج قضايا الإقناع وتقنية الجدال وقواعد البرهان . هذا هو موضوع التحليلات الأولى والتحليلات الثانية ، وهذه الأخيرة هي لب المنطق الأرسططاليسي وغايته . . . لقد كان العالم الروحي مقتصراً من قبل على الأرستقراطية الملكية والكهنوتية ، وأما الآن وقد اختفى الملك وصودر الكهنوت ، فقد فُتحت إمكانية الدخول إلى دائرة ظلت تزداد اتساعاً يوماً بعد يوم ، وستكون

لإشاعة الكلمة والنشر ـ نشر الوثائق التي كانت محبوسة في سراديب القصر ـ والمساواة بين المواطنين . . . سيكون لكل ذلك وما إلى ذلك نتائج حاسمة على الصعيد الفكري والسياسي . إن الحقبة الهوميروسية هي المثل الأول على هذه المسيرة . فشعر البلاط الذي كان يُنشد في قاعات القصور في عصرٍ مضى وانقضى خرج من الزنزانة ، ليحفظه القاصي والداني وينشده في روحاته وغدواته .

* * *

إن نظام الحياة في دولة المدينة يتطلب أيضاً ـ على عكس السلطة المطلقة للملك الحاكم بأمره ـ أن يخضع الجميع لتأدية الحساب . فلم يعد أحد يفرض نفسه بقوة المكانة الشخصية أو الدينية ، بل عليه أن يبرهن على سداد حكمه بطرائق ذات صفة جدلية[1] .

كانت الكلمة هي أداة الحياة السياسية في إطار المدينة ، وكانت الكتابة هي ـ على الصعيد الفكري ـ الوسيلة الصحيحة لتنمية الثقافة المشتركة وانتشار المعارف التي كانت في الماضي محتكرة أو ممنوعة . وستتمكن الكتابة ـ التي أُخذت عن الفينيقيين وتبدلت لكي تستطيع نقل الأصوات اليونانية بدقة ـ من الإستجابة لوظيفة الإعلان هذه ، لأنها أصبحت هي نفسها ملكاً مشتركاً لجميع المواطنين . إن أقدم التدوينات التي وصلت إلينا بالأبجدية اليونانية تبين أن الأمر لم يعد يتعلق ـ اعتباراً من القرن الثامن ق . م ـ بمعرفة متخصصة ومقتصرة على شؤون القصر ، وإنما تتعلق بتقنية ذات استعمال واسع ، منتشرة لدى الجمهور . وبالإضافة إلى قصائد هوميروس وهزيود التي يحفظها اليونانيون صغيرهم وكبيرهم عن ظهر قلب ، ستكون الكتابة هي العنصر الأساسي للعلم اليوناني .

ظهور القانون

وظهور المدينة كان ملازماً لظهور القانون . إن مجتمعاً يتعامل بالكلمة ولا شيء غير الكلمة قمين أن يهزم عدو الكلمة . فعندما اختفى الملك الذي كان يوحّد وينظم مختلف عناصر المملكة بقدرة أكبر من القدرة البشرية برزت قضايا جديدة هي : كيف يمكن أن يولّد النظام من النزاع بين مجموعات متخاصمة ، من

---

(١) المصدر السابق ، صفحة ٤٣ .

المجابهة بين الإمتيازات والوظائف المتناقضة ؟ كيف يمكن لحياة مشتركة أن تقوم على عناصر متنافرة ؟ لقد كانت إرادة الملك كافية لإقرار النظام واستتباب الأمن . فالسماء على عهده هي التي كانت تتولى شؤون الأرض ، بلا متاعب ولا إشكالات . أما الآن وقد اختفى الملك وحصلت القطيعة بين السماء والأرض ، فأين نجد البديل الذي يمكن أن يحل محل إرادة السماء ؟ البديل الوحيد هو القانون البشري يحل محل القانون الإلهي . فما دامت الواقعة قد وقعت ، وانفصل مفهوم القيادة عن أصله الملكي وحقق استقلاله ، فعلى القرار البشري أن يبت في الخلاف ويفصل في النزاع . وهكذا لا ينشأ فراغ في السلطة ، وتسير الأمور على خير ما يرام ، سواء بين الحاكم والمحكومين أو بين المحكومين أنفسهم بعضهم مع بعض . فالبشر هم الآن أصحاب القرار لا الآلهة ، والأرض هي مركز القرار لا السماء ، والقرار يفترض المواجهة والنقاش والحوار . كل الدروب في أثينا اليوم تؤدي إلى الحكمة والحكيم : التفكير الحكيم ، النظام الحكيم ، التدبير الحكيم ، الحكم الحكيم ، السياسة الحكيمة ، المنهجية الحكيمة ، المعاني الحكيمة ، النفثات الحكيمة ، الأخلاق الحكيمة . . . أرأيتَ إلى الفرق بين اليونان السالفة واليونان الخالفة ؟ أرأيتَ كيف تتلاحق التبدلات تلو التبدلات في هذا البلد الصغير الذي كان قادراً على اهتبال الفرصة وانتهاز السانحة ؟ إن فرصاً كثيرة تسنح للشعوب ، ولكن هيهات أن تقتنصها جميع الشعوب ! بل إن كثيراً من الدلائل تشير إلى أن اليونان لا تكتفي بتربص الفرصة والقعود كل مرصد انتظاراً للفرصة بل أنها أيضاً تصنع الفرصة وتوري الفرصة بالفرصة ، وهكذا تسنح الفرصة بعدالفرصة إنها على فوهة بركان تقذف بالفرصة تلو الفرصة !!

دراكون

في هذه الأجواء المشبوبة التي تقذف بالحمم ، في هذه الأوضاع المتفجرة المشحونة بالتبدلات والمفاجآت ، سنشهد كل عظيم وفذ وجليل . كل شيء فيها ينذر بالثورة ويؤذن بالثورة ويعمل للثورة . والويل لمن لا يستجيب لنداء الثورة . والثورة لا تقف عند حد ، بل تمهد الثورة للثورة ، لقد تمرس المجتمع اليوناني بالثورة حتى أصبح كل يوم يُعِدّ للثورة أو يَعِدُ بالثورة أو يَعُدُّ الثورة تلو الثورة . وفكرة القانون هي وليدة الثورة ، ولكنها لم تتبلور إلا بعد أكثر من ثورة .

وتوضيح ذلك أنه قد حُررت في أثينا في هذا العهد مجموعتان من القوانين

على الأقل يفصل بينهما ثلاثون عاماً . الأولى على يد دراكون Dracon (أواخر القرن السابع ق . م) والثانية على يد صولون ، فالأول لا يخلو من بعض الخطوات الإيجابية وإن كان لا يعدو في جملته أن يكون محاولة لتدوين العادات القديمة . وكان قانون دراكون هو الآتي : « يجب تمجيد آلهة البلاد وأبطالها وتقديم القرابين لها كل عام من غير الخروج على الشعائر التي اتبعها الأسلاف » . ولقد احتفظوا بذكرى قوانينه الخاصة بالقتل ، وكانت تنص مثلاً على اقصاء المذنب عن المعابد لأنه يدنسها ، وتحرم عليه أن يمسَّ أواني الإحتفالات،وكان ذلك حوالي سنة ٦٠ ق. م .ولقد بدت قوانينه قاسية للأجيال التالية ، فهي من إملاء ديانة صارمة لا ترحم ترى في كل هفوة إساءة للآلهة ، وتلك جريمة لا تُغتفر . وكان دراكون يقيم حاجزاً كبيراً بين الطبقات ، وكانت الطبقة الدنيا تمقته مقتاً شديداً ، وبعد ثلاثين عاماً طالبت بتشريع جديد[١] . والعنصر الإيجابي في قوانينه أنه أحلَّ القانون محل الغضب والإنتقام ، وأصبح مجلس الشيوخ الأريوباغوستي بعدئذٍ هو صاحب الحق في النظر في جميع جرائم القتل . وكان هذا التشريع الأخير الذي حققه دراكون خطوة تقدمية هامة ولكنه عندما عمد إلى تنفيذه قامت في وجهه صعوبات جمة . ولما أن حلت شرائع صولون محل معظم قوانينه هو ، كان كل ما يذكره الناس عنه هو ضروب القسوة والعقاب لا قوانينه نفسها . والحق ان دراكون قد جمع في قوانينه ما كان في نظام الإقطاع من عادات قاسية مهوشة خالية من النظام ، كما أنه قصَّر في إنقاذ المدنيين من الاسترقاق ولم يقض على استغلال الأقوياء للضعفاء . وإذا كان قد وسَّع دائرة من لهم حقوق سياسية بعض التوسيع فإنه أبقى على السيطرة التامة لطبقة الأشراف (اليوبترد) التي كانوا يمارسونها على دور القضاء ، والأنكى من ذلك أنه ترك لهم الحق في أن يفسروا وفق مصالحهم الخاصة كل ما يمس هذه المصالح من القوانين ومواضع الخلاف . وقد ضمنت شرائعه لأصحاب الأملاك حماية أكثر مما كان لهم من قبل ، وكانت السرقات الصغيرة ، بل التراخي في العمل ، يُعاقب عليهما بحرمان المواطنين من حقوقهم السياسية ، أما غير المواطنّين من الأجانب المقيمين في أثينا فكان عقابهم الإعدام[٢] .

---

(١) فوستيل دي كولانج : المدينة العتيقة ، صفحة ٤٢٤ - ٤٢٥ .

(٢) ول ديورانت : قصة الحضارة ، ٦ / ٢٠٧ - ٢٠٨ .

ومهما يكن مأخذنا على دراكون ، فإنه لا يجوز أن نجحد فضله أو أن نبخسه حقه . فإن تدوين القوانين يظل خطوة إلى الأمام ستعقبها خطوات كثيرة لتدارك ما فيها من نقص أو حيف . إن هذا التدوين كفيل بتأمين ديمومتها وثباتها ، كما يحميها من السلطة الخاصة للباسيليوس . وهي ستكون منذ الآن قاعدة عامة قابلة للتطبيق على الجميع على قدم المساواة أو تكاد . لقد كان الأمر من قبل قراراً عشوائياً مرتبطاً باعتباطية الملوك الذين كانت إرادتهم هي القانون . فبتدوين هذه القاعدة العامة أي بالإعلان الذي منحتها إياه الكتابة ، ومع بقائها قيمة مثالية ، ستتمكن من أن تتجسد على الصعيد الإنساني المحض وأن تحقق ذاتها في القانون ، لتكون قاعدة مشتركة للجميع ، قاعدة عقلانية خاضعة للنقاش والتغير بقرار ، ولكنها لا تفتأ تعبر عن نظام له صفة القداسة[1] ، وهكذا تكتسب قواماً وموضوعية ، إنها حقيقة يجب الخضوع لها حفاظاً على المصلحة العامة للمدينة ، فمن حق كل مواطن الاطلاع عليها بعد أن انتُزعت من الدائرة المغلقة . فلم تعد سراً يُحفظ في الهيكل في كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهّرون . هنا تكمن أهمية دراكون . فلو لم يكن في التدوين غير هذه الميزة فناهيك به نفعاً . فما ظنك إذا أضفنا إليه ميزاته الأخرى .

صولون

أما مجموعة قوانين صولون (٦٤٠ ـ ٥٥٨ ق . م) فكانت مختلفة اختلافاً كلياً عن قوانين سلفه . لقد كانت وليدة ثورة اجتماعية كبيرة ، ولذلك فهي تريد أن تكون مسايرة لها وتُلبي حاجاتها . وأول ما يلفت النظر في هذه المجموعة أن القوانين كانت واحدة للجميع بلا تفرقة بين الطبقات . ويفاخر صولون في أشعاره بأنه كتب نفس القوانين للكبار والصغار على السواء . فصولون هو الذي حرر أرض أتيكا من استعباد الأثرياء وأرسى قواعد الديمقراطية ، وأشرك الناس في السياسة العامة ، وكفل لهم العدالة في المعاملة والمساواة بين أفراد الشعب . وقد دمج هاتين الفكرتين خاصة في نظام حكومة أثينا مقتدياً في ذلك بسلفه دراكون ، وأباح لكل إنسان أن يرفع دعوى على أي اعتداء جنائي ـ باستثناء بعض الجرائم المعينة الخاصة كجريمة قتل الوالدين . ولكي نفهم معنى ذلك يجب علينا أن نُباعد

---

(١) جان بيار فرنان : أصول الفكر اليوناني ، صفحة ٤٤ ـ ٤٥ .

بيننا وبين التفكير في نظام الدولة الحديثة من شرطة ووزراء للعدل ، وأن نتصور أنفسنا في عالم يُلقَّن فيه الناس ببطء كيف يرتضون سلطة أوسع من سلطة البيت أو القبيلة . وقد سُئل صولون مرة عن أحسن مدينة آمنة مخفورة ، فأجاب قائلاً : إنها تلك « المدينة التي فيها يتعقب كل الأفراد ـ من عانى منهم الضيم أو من لم يعانه على حد سواء ـ الظلم ويعاقبون عليه » . إنه يرمي من وراء ذلك إلى أن يجعل كل أثيني يتحسس بمسؤولية كاملة عن الظلم وعدم شيوع العدالة ، ويعمل من أجل ذلك . إنه يشعر بأن ذلك واجب عليه لا بما هو فرد يواجه صديقاً وقع في ضيق ، بل بما هو مواطن في مدينة حرة . ففي الدولة التي يتوخى الناس فيها إقامة شريعة العدالة ، فيها وحدها تصان الحرية الفردية دائماً . يقول أفلوطرخس : لقد سمح صولون لأي مواطن أن ينصر المظلوم لينصف الضعيف . وكان مقيم الدعوى يتجه إلى الأرخون ـ وكان الرئيس الأعلى في أيام المدينة الأولى ـ ويرفع إليه مظلمته . وكانت الإجراءات المتبعة في هذا السبيل سهلة سريعة لا تعقيد فيها ولا تعسير . فكانت القضية تُطرح للمناقشة في خلال خمسة أيام بلا رسوم ولا مغارم . وكان فقدان الحقوق السياسية هو العقاب في حالة الظلم[1] .

لقد كان رائد صولون جعل المدينة حامية لمن لا حول له ولا قوة . لقد أراد ربط الدولة بمعاني الشفقة والرأفة فضلاً عن معاني القوة ، وما من عمل من أعماله أثبت وأرسخ من هذا . لقد نجح في إقامة تقليد دائم من الرحمة والشفقة والكرم بدا لأثينيي القرن الخامس من أقدم مفاخر أثينا الطبيعية . ومن أهم إنجازات صولون أيضاً جعل الشعب مصدراً لأحكامه وللشعب السلطة العليا على أحكامه . وقد أوجب صولون على كل حاكم يعتزل منصبه أن يقدم للمحكمة العامة للشعب تقريراً عما قام به طوال مدة اضطلاعه بالمسؤولية . وقد سهل صولون الحصول على حق الرعوية الأثينية للأجانب الراغبين في استيطان المدينة مع عائلاتهم ليقوموا ببعض الحِرف اليدوية ، وذلك خلافاً لأسبرطة التي كانت تتبع سياسة صارمة بإزاء الأجانب . وهذه سياسة جديدة انتهجها صولون مخالفاً فيها اسبرطة وسائر الدول اليونانية التي لم تكن تقبل غيرها معها . فقد كان القيِّمون على هذه الدول هيئات مختارة لا تقبل مشاركة غيرها في أعمالها ، وكانت

(١) فوستيل دي كولانج : المدينة العتيقة صفحة ٤٢٥ والفرد زيمرن : الحياة العامة اليونانية صفحة ١٥٢ ـ ١٥٣ .

مقسَّمة إلى دوائر أصغر فأصغر ومختارة اختياراً دقيقاً لا مكان فيه لأجنبي . وعلى ذلك فإن سياسة صولون تومىء إلى منعطف جديد في حياة اليونان ، وسيكون لهذا التغيير نتائج بعيدة المدى . ومنذ الآن لم يعد الوافدون الجدد يُحتقرون كما كانوا من قبل حيث كانوا يُعاملون معاملة الأفاقين الذين لا وطن لهم ولا بيت ولا أرض ، بل رحَّب بهم الأثينيون ووجدوا فيهم زملاء نافعين ومساعدين في أعمال الجماعة . وبعبارةٍ أخرى ، أصبحت أثينا على استعداد لقبول دم جديد ، غير ناظرة إلاَّ إلى الكفاءة والمقدرة ، ولا شأن لها بعد ذلك بدين هؤلاء المهاجرين أو قوميتهم . وسترى أثينا ثمرة هذه السياسة الحكيمة في ازدهار التجارة والصناعة ، وستراخى بفضلها شيئاً فشيئاً الروابط التي كانت لا تزال تشد الأثيني إلى قبيلته وإقليمه . وفي كلا هذين الاتجاهين كانت سياسة صولون الحذرة والجريئة أيضاً قد مهدت الطريق لظهور كلستنيز القدير كما سنرى[1] .

كان هناك فقر وكان استغلال وكان سوء توزيع للثروة ، وكانت العدالة مطلباً جماعياً ، ما خلا حفنة من المنتفعين بالوضع القائم . وبينا كان القرن السابع قبل الميلاد يقترب من نهايته كان حقد الفقراء على الأغنياء قد أوشك أن يتفجر ويقذف بأثينا في أتون الثورة . ذلك بأن المساواة ليست نظاماً طبيعياً وإنما هي نظام مصطنع يراد فرضه على الناس الذين جاءوا إلى هذا العالم وهم مختلفون في القوى والإستعدادات والمواهب . وحيث تطلق الحرية للكفاءة والدهاء فلا بد من أن تنشأ الفوارق وتبقى حتى تقضي على نفسها في الفقر الشامل الذي تؤدي إليه الحرب الإجتماعية . وقصارى القول أن الحرية والمساواة ليستا رفيقتين متلازمتين ، بل أكاد أقول أنهما عدوَّتان لدودتان . وهنا تكمن عبقرية صولون الذي جاء بثورته السلمية التي تعد حقاً من المعجزات التاريخية . فقد استطاع بغير عنف أن يحتوي الثورة ويمنع الإنفجار . فبحنكته وإخلاصه وسياسته الرشيدة تمكن من أن يقنع الأغنياء والفقراء على السواء أن يسووا أمورهم فيما بينهم تسوية لم يقتصر أمرها على أنها قد حالت دون الفوضى الإجتماعية فقط . بل إنها فضلاً عن ذلك قد أقامت نظاماً سياسياً واقتصادياً جديداً مختلفاً عن النظام السابق بقي ما بقيت أثينا مستقلة .

لقد قام صولون بانقلاب هائل في مجال تحقيق العدالة . فقد نحَّى جانباً

(١) المصدر السابق ، صفحة ١٥٤ ـ ١٥٧ .

ديانة الملك القديمة التي كانت تحفظ الأرض في عددٍ صغير من الأيدي باسم الإله الرابض على تخومها ، فانتزع صولون الأرض من الديانة ليجعلها قاعدة للعمل الأرضي . لقد أصبحت الأرض الآن حرة بعد أن كانت مستعَبَدة ، واستطاع أن يقول : « لقد حررت أولئك الذين كانوا يتحملون الاسترقاق القاسي على هذه الأرض ويرتعدون أمام سيدٍ ما »(١) . ولعل هذا التحرير هو ما أطلق عليه معاصرو صولون اسم (سامي اسكيتيا : القاء الحِمْلِ أو وضع الثقل أو الإصر) كأنه قد وضع عن أعناقهم حملاً ثقيلاً ، وهو أيضاً ما اكتفت الأجيال التالية بتسميته (إسقاط الديون) . فقد تعودت هذه الأجيال الحرية، فلم تكن تريد أو تستطيع أن تعتقد أن آباءها كانوا مسترَقّين . لكن هذه الكلمة فيها عنف يكشف لنا عن ثورة أكبر من مجرد إلغاء الديون ـ ولنضف إلى ما ذكرنا قول أرسطو في حديثه عن صولون : « لقد أوقف استرقاق الشعب »(٢) . لقد كانوا قبل ذلك يؤمنون أن سلطة السيد سلطة شرعية مقدسة ، وأما الآن فقد كفّوا عن هذا الإيمان وولجت قلوب الناس عندئذٍ رغبة ملتهبة في أن يكونوا أحراراً(٣) وجاء صولون فحقق الحلم الكبير .

واستتب الأمن في هذا العصر في طول البلاد وعرضها . وقد وصف لنا أفلوطرخس هذه المرحلة الإنتقالية في حديثه عن صولون وصفاً واضحاً . لقد حُلت مشكلة الأرض أو هي في طريقها إلى الحل ، وطفقت البحار تتحول بحاراً آمنة . واتخذت أثينا مقاييس وموازين جديدة ، ونشط الأثينيون في التجارة الداخلية والخارجية . يقول أفلوطرخس ما فحواه : لقد غُصت المدينة بأشخاص جاءوا من كل حدبٍ وصوب ليشهدوا منافع لهم . ويرجع السبب في ذلك إلى جو الطمأنينة الذي أظلّ الناس في أتيكا . وعندما لاحظ صولون ذلك ـ وهو يعلم أن معظم أراضي البلد قاحلة غير منتجة ، وأن التجار الذين يجوبون البحار لم يتعودوا إرسال البضائع إلى الأمكنة التي لا يمكن أن يجدوا فيها ما يقايضون عليه ـ وجه اهتمام الناس إلى الفنون والصناعات ، ولهذا الغرض سنَّ قانوناً ينص على أن الابن ليس مضطراً إلى أن يعول أباه ما لم يكن قد علمه حرفة . وذلك خلافاً

(١) نقلاً عن فوستيل دي كولانج : المدينة العتيقة ، صفحة ٣٦٨ .
(٢) نقلاً عن المصدر السابق .
(٣) المصدر السابق، صفحة ٣٦١ .

لمدينة اسبرطة التي لم تقبل أي غريب والتي تستطيع بلادها أن تستوعب ضعف سكان أتيكا ، فأرغمت الطبقات الدنيا (الهيلوت) وحدهم على العمل ، وأعفت مواطنيها من العمل المضني لتستخدمهم في الحرب ، وهي الفن الذي كان عليهم أن يتمرسوا به . ولكن صولون وقد أدرك بثاقب نظره أن القانون وُضع للبلاد ولم توضع البلاد للقانون ، فقد حرص على أن يكيفت قانونه لأثينا لا أن يكيف أثينا لقانونه . ولعلمه أن أرض أتيكا التي لا تكاد تفي بحاجات أهلها ، لا يمكن بطبيعة الحال أن تتسع للكسالى والعاطلين ، فقد أصدر أوامره بأن تُعد الفنون والصناعات أعمالاً شريفة ، وعلى مجلس الأريوباغوس أن يفحص الوسائل التي يتخذها كل مواطن لكي يعيش ويحيا حياة كريمة وأن يُعاقب العاطلين[1] .

إن هذا الكلام يحمل طابع عصر متأخر ، ولكن وقائعه صحيحة إلى حدٍ بعيد . فليس حقاً أن الفنون والصناعات كانت قبل صولون تُزري بصاحبها حتى حماه صولون بجرة قلم فحقق مكرمةً لا كالمكرمات ! كلا ، فالنصوص لا تغير ما في النفوس بعصا سحرية . فلولا أن اليونان كانت تُكن شيئاً من الإحترام للأعمال اليدوية ما كان في وسع صولون أو غير صولون أن يفرض هذا الإحترام للعمل على بلدٍ يحتقر العمل ويزدريه ، فالنُقلة أكبر من أن ينهض بها الرجل ، وإن كان من المؤكد أن صولون لم يدخر وسعاً ليجعل من أثينا مركزاً صناعياً ، فالثروة هي أولى حاجات البلد في ذلك الوقت . إنها هي التي تُمكّن الزراع من الوقوف على أقدامهم آمنين مطمئنين وتخفف من حدة النزاع المدني[2] . يضاف إلى ذلك ما ذكرناه من اهتمامه باجتذاب الأجانب وتشجيعه إياهم للإستيطان في أثينا والعمل فيها . إنه يريد مستوطنين لا تجاراً ، أي يريد رجالاً يقيمون بأثينا ليزيدوا ثروتها ، وليس هو بحاجة إلى « الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في أثينا ، بل يجمعونها أكداساً فوق أكداس ثم يقفلون راجعين إلى بلادهم ، من غير أن تجني أثينا منهم شيئاً . إنه بحاجة ألى الأيدي العاملة السخية المعطاء التي تأتي للإستقرار والتضحية والبذل وتهب نفسها وعقلها واندفاعها للمدينة ، وليس بحاجة أبداً إلى الأكف التي تنبسط للطلب والسؤال ولا غرض لها إلا الإستنزاف والاستغلال .

وكان صولون يسير على نفس المبادىء التي يدعو إليها ، فهناك تلازم عنده

(١) الفرد زيمّرن : الحياة العامة اليونانية ، صفحة ٤٢٧ ـ ٤٢٨ .
(٢) المصدر السابق،صفحة ٤٢٨ .

بين القول والعمل ، وقد اشتهر بين جميع طبقات الناس بالاستقامة . لقد وضع الشرف وسلامة الدولة فوق سلامته الخاصة ، ولم يدنس نفسه بعمل حقير دنيء . وليس الذي منعه من هذا قلة سلطانه ، وهو الذي طَبَّ لأدواء المدينة ، وقد ذكر ذلك أكثر من مرة في شعره ، والمؤرخون لا يختلفون فيه . فقد كان يقرض الشعر في شبابه ويتغنى بملاذ الصداقة. وعندماتقدم به الزمن أصبحت أشعاره فاترة هزيلة ولكن نصائحه أصبحت جيدة ، ولما حل بأثينا الشقاق والنزاع لم يتردد قط في التشهير بالوسائل التي سلكها الأغنياء لإذلال الفقراء . واشتغل صولون بالتجارة وأصبح من التجار الناجحين ، وكانت له مصالح كثيرة في أقطار بعيدة أكسبته خبرة واسعة ومكّنته من الأسفار والتقلب في أقاصي البلاد .

وقد أبقى دستور صولون على رأس الدولة مجلس الشيوخ القديم : الأريوباغوس ، بعد أن جرده من بعض ما كان له من سلطان . ولكنه ظل مع ذلك صاحب السلطة العليا المهيمن على سلوك الناس وعلى موظفي الدولة . ثم أنشأ البول Boule وهو مجلس جديد يتألف من ٤٠٠ عضو يلي مجلس الشيوخ في السلطة . وكان هذا المجلس ينظر في جميع الأعمال التي تعرض على الأكليزيا (الجمعية العامة ekklesia) ويدرسها . والإكليزيا هذه مؤسسة قديمة كانت قائمة منذ أيام هوميروس فأعاد صولون الحياة إليها ، ودعا المواطنين إلى الإشتراك في مناقشاتها . غير أن أعظم مأثرة له هي مساواته بين الطبقات الدنيا والطبقات العليا في حق انتخاب هيئة الخمسة آلاف محلَّف الذين تتألف منهم المحاكم التي تنظر في جميع القضايا ما عدا قضايا القتل والخيانة . وأضاف صولون إلى هذه التشريعات الأساسية ـ وهي أهم ما في تاريخ أثينا من تشريعات ـ طائفة أخرى أقل شأناً ، يُقصد بها معالجة مشاكل العصر . من ذلك حق الوصية وقانونها ، فإذا كان للرجل أولاد كان عليه أن يقسم ثروته بينهم قبل وفاته ، فإن لم يكن له أولاد كان له أن يوصي لمن يشاء بأملاكه التي كانت تؤول حتى ذلك الحين إلى قبيلته تلقائياً . هذا فضلاً عما ذكرنا من تشجيعه لقانون التجارة والصناعة ، ومنحه حق المواطنة لجميع الأجانب الذين يحذقون حرفة ما ، ومنعه الابن من مساعدة أبيه إذا كان هذا الأب لم يعلمه حرفة خاصة . فإلى صولون يرجع الفضل فيما حظيت به الصناعات على عهده من مكانة سامية ، فكان الإصرار على البطالة جريمة(١) .

(١) ول ديورانت : قصة الحضارة ٦ / ٢١٥ ـ ٢١٦ .

بل إن صولون لم يحجم عن التشريع في ذلك الميدان الخطر : ميدان الأخلاق والآداب العامة . فلم يكن يسمح للرجل الذي يعيش عيشة الدعارة والفجور أن يتقدم إلى الجمعية بطلب ، وجعل البغاء قانونياً وفرض له ضريبة ، وأنشأ مواخير عامة مرخّصة من قبل الدولة وخاضعة لرقابتها . حتى لقد تغنى بمدحه رجل من معاصريه فقال : « مرحباً بك يا صولون ! لقد ابتعت المومسات لخير المدينة ، ولوقاية أخلاق المدينة الغاصة بالشبان الأشداء . ولولا تشريعك الحكيم لضايق هؤلاء الشبان حرائر أثينا الفاضلات ونشروا في المدينة الفساد »[1] .

وأراد أن يُذْكي في الناس حسَّ المسؤولية ، فقرر أن الذين يقفون على الحياد في أوقات الفتن يفقدون حق المواطنة ، وذلك لأنه كان يرى أن عدم اهتمام الجمهور بالشؤون العامة يؤدي إلى خراب الدولة ، ومنع الإحتفالات الفخمة والقرابين الباهظة النفقات والنواح الطويل على الجنائز . وهو صاحب القانون العادل الذي ظل مصدراً لإستبسال الأثينيين في ميادين القتال أجيالاً طويلة وهو القانون الذي فرض على الحكومة أن تتولى بنفسها تربية أبناء من يُقتلون في ساحة الحرب على نفقتها الخاصة . ولما طُلب إليه أن يضطلع بالحكم مدى الحياة ، أبى وقال : إن الدكتاتورية « مقام جميل حقاً ، ولكن ليس ثمة طريق للنزول منه ! »[2] .

ورغم ماقدمه صولون للأثينيين من خدمات فإنه لم يتمكن من إرضائهم جميعاً . . فكان المتطرفون ينتقدونه لأنه لم يُسوِّ بين الناس في المُلك والسلطان . كما كان المحافظون يندددون به لأنه منح العامة حقوقاً سياسية ليسوا أهلاً لها ـ بزعمهم ـ وأجلسهم فوق منصة القضاء . وكان يتقبل هذا النقد بصدرٍ رحب ويعترف بما في شرائعه من نقص . ولما سُئل هل سنّ للأثينيين أفضل القوانين ؟ أجاب : « كلا ، بل خير ما يمكن سنه لهم » ، أي خير ما يمكن إقناع الجماعات والمصالح المتضاربة بأن تقبله كلها في ذلك الوقت . فقد اتبع طريقاً وسطاً في الإصلاح يضمن للمواطنين أكبر قسط ممكن من العدالة ، وبذلك أبقى على

---

(١) نقلاً عن المصدر السابق، صفحة ٢١٦ .
(٢) نقلاً عن المصدر السابق، صفحة ٢١٧ .

الدولة . فالظلم مؤذن بخراب الدولة كما يقول ابن خلدون ، والعدل كفيل بإطالة عمرها . سأله بعضهم : « متى تكون الدولة حسنة النظام ثابتة البنيان ؟ أجاب : « حين يطيع المحكومون الحكام ، ويطيع الحكام القوانين »[1] . وقد أجمع اليونان على وضعه بين الحكماء السبعة .

لا يزال ينقصنا الشيء الكثير لكي يكون دستور صولون معروفاً لنا بجلاء ويقول أرسطو في حديثه عن قوانين صولون وإصلاحاته السياسية ، ننقل فحواها عما وصل إلينا من كتابه **نظام الأثينيين** :

وضع **نظاماً** وشرع قوانين جديدة ، فقد نُسخت قوانين دراكون ما خلا ما يتعلق منها بالقتل ، ونقشت هذه القوانين الجديدة على ألواح مثلثة عُرضت في الرواق الملكي ، وأقسموا جميعاً أمام الحجر المقدس إنهم ليحتفظُنَّ بها ، وأخذوا على أنفسهم أن يقدموا تمثالاً من الذهب إن خالفوا أحد هذه القوانين . وحدَّد صولون نفسه مئة سنة لا تُنسخ فيها هذه القوانين .

وإليك النظام الذي وضعه :

احتفظ بما كان من تقسيم أعضاء الدولة إلى طبقات أربع . الطبقة الأولى تتألف ممن يملكون ٥٠٠ مديمنوس . والثانية من الفرسان والثالثة من الزوجيتاي ، أي الذين يملكون المحراث وما يجره من الثيرة وأرضاً يزرعونها ، والرابعة من الثيتيس وهم الذين لا يملكون شيئاً . وحفظ للطبقات الثلاث الأولى جميع المناصب . أما الطبقة الرابعة فلم يكن لها من الحقوق السياسية إلا الإشتراك في جلسات الجمعية العامة[2] .

وأحدث صولون الإقتراع لاختيار عمال الحكومة ، ولكن بعد أن وفق بينه وبين انتخاب سابق تقوم به كل قبيلة . فكانت كل قبيلة تختار من بينها عشرة عرفاء لانتخاب من يشغل منصب الأرخون ، ثم يكون الاقتراع بين هؤلاء المنتخبين[3] . وأقرَّ صولون ما كانت عليه الحال من قبل ، فظلت المدينة منقسمة إلى قبائل أربع لكل قبيلة ملك[4] . وأنشأ صولون مجلس شورى يتألف من ٤٠٠

(١) نقلاً عن المصدر السابق صفحة ٢١٨ .
(٢) طه حسين : نظام الأثينيين صفحة ٥٤ ـ ٥٥ .
(٣) المصدر السابق، صفحة ٥٧ .
(٤) المصدر السابق، صفحة ٥٨ .

عضو ، مئة عن كل قبيلة . أما مجلس الأريوباغوس فقد وكل إليه صولون حماية القوانين وكلفه مراقبة النظام كما كان ذلك من قبل . وحيث إنه كان يملك من السلطة السياسية أعلاها وأوسعها ، فقد كان يراقب أعضاء المدينة وينزل العقوبة بمن خالف القانون ، ولم يكن لقضائه مرد . وأضاف صولون إلى كل هذه الحقوق حقاً جديداً وهو صلاحية القضاء فيما يقوم به خصوم الديمقراطية من مؤامرات لإسقاطها(١) . وألغى صولون ما كانت قد جرت به العادة من تمكين الدائن من اخضاع المدين لأنواع القهر البدني ، ومنح أعضاء المدينة حق اتهام من اقترف ظلماً مهما تكن منزلته وحق الاستئناف أمام مجالس الحكم . هذا هو مصدر ما حصل عليه الشعب فيما بعد من قوة عظيمة . فإن جعل الشعب صاحب السلطان على الانتخاب يعدل جعل النظام السياسي خاضعاً لأمره(٢) .

ولم تكد تستقيم الحال على ما تقدم من نظام حتى أخذ الأثينيون يسعون إلى صولون ويثقلون عليه باللوم مرة وبالمسالة مرة أخرى ، لما اشتملت عليه قوانينه من قواعد . وإذ كان لا يريد أن يمس هذه القوانين ، ولاأن يبعث البغض والعداء بإقامته في أثينا ، فقد سافر إلى مصر للدرس والتجارة . وكان يعلن أن غيبته ستطول عشرة أعوام . فقد كان يرى أنه ليس من العدل أن يبقى في المدينة ليفسر القوانين ويؤولها ، إنما كان يجب على كل عضو أن ينفذ نصوص القوانين كما هي(٣) .

وفي الوقت نفسه رأى صولون أن عدداً غير قليل من الأرستقراطية قد أصبح له عدواً لمكان إسقاط الدَّيْن ، وأن خطة الحزبين قد تغيرت بالقياس إليه ، لأن قوانينه لم تحقق لكل فريق ما كان يتوقع . فقد كان حزب الشعب يعتقد أن صولون سيقسم الأرض بين الناس قسمة عادلة ، وان الحزب الأرستقراطي يعتقد أنه سيرد المدينة إلى ما كان لها من نظام قديم ، أو سيقلل من الفرق بين نظامه وبين النظم الأولى . ولكن صولون رفض أن ينصت إلى أيٍّ من الفريقين . ومع أنه كان يستطيع أن يعتمد على أحد الحزبين فيستأثر بالسلطان على المدينة ، فقد آثر استنقاذ وطنه وشرع أعدل القوانين ، وإن عرَّضه ذلك للبغض والمقت(٤) .

(١) المصدر السابق .
(٢) المصدر السابق، صفحة ٥٩ ـ ٦٠ .
(٣) المصدر السابق، صفحة ٦٢ .
(٤) المصدر السابق، صفحة ٦٢ ـ ٦٣ .

ويذكر صولون أنه منح الشعب من السلطان ما يكفي من غير أن يحرمه شيئاً من حقوقه أو أن يعطيه ما ليس له حق فيه . فكلاهما ظلم . أما الذين كانوا يملكون القوة وكانت ثروتهم تعرضهم للحسد فقد حظر عليهم كل إسراف ، ولم يسمح لأي من الفريقين أن يطغى على الآخر ظلماً وعدواناً(١) .

ويبين صولون كيف يجب أن يُساس الشعب بهذه القوانين فيقول : « إنما تحسُن طاعة الشعب لرؤسائه إذا لم يشتد لينُهم أو عنفُهم . فالرئيس كالفرس ينبغي ألا يغالي فارسه في إرسال اللجام أو قبضه . فإن إفراط الثروة يستتبع العنف حين تقع في أيدي رجال ليسوا أهلاً لها »(٢) .

لم يكن صولون يرضى أن يتخذ من القهر والطغيان سبيلاً إلى تحقيق ما يريد ، ولا أن يرى الأخيار والأشرار يتساوون في ملك هذه الأرض الطيبة ، أرض الوطن ، لقد وعد وأعانته الآلهة على الوفاء . ويشير إلى شقاء الفقراء الذين كانوا بالأمس أرقاء وهم اليوم أحرار لما أُسقط عنهم من دَيْن ، فيقول :

« وقد وضعت حداً لآلام الشعب ، ولِمَ ؟ إني لأستشهد أمام الزمان هذه الأم العظيمة الخيرة ، أم آلهة أولمبيوس ، هذه الأرض السوداء التي كانت أَمَة بالأمس ، وهي اليوم حرة. كثير عديد هؤلاء الذين رددتهم إلى أثينا ، هذا الوطن الذي أقامته الآلهة . لقد بيع كثير منهم عدلاً مرة وجوْراً أخرى .كل هؤلاء قضت عليهم الضرورة بالنفي. فهم لا يتكلمون لغة أتيكا، تراهم مشردين في كل أفق . وآخرون هنا أذلاء قد أذعنوا للسطوة القاهرة ، فهم يضطربون فزعاً أمام سادتهم . لقد رددتُهم جميعاً أحراراً . هذا ما فعلتُ بقوة القانون . لقد وفقتُ بين القوة والعدل فوفِّيت بكل وعودي . لقد شرعت القوانين للأخيار والأشرار ، وضمنت لكل منهم نصيباً من العدل . ولو أن غيري تولى هذا الأمر ، وكان له من سوء النية ومن الطمع ما ليس لي ، لما استطاع أن يحكم الشعب . فلو قد أردت أن أسمع لأحد الحزبين فانفذ ما يريد ، ثم أسمع للآخر فأحقق رجاءه ، إذن لفقدت هذه المدينة كثيراً من أبنائها . لهذا اضطرتني مقاومة الحزبين إلى أن أجدني بمكان الذئب قد حصرته الكلاب من كل جهة(٣) .

(١) المصدر السابق، صفحة ٦٣ .
(٢) المصدر السابق .
(٣) المصدر السابق، صفحة ٦٤ ـ ٦٥ .

ثم يقول معاتباً حين وصل إليه اللوم من كل جانب :

« لأقولنّ للشعب ـ فليس له بُد من هذه الصرخة المؤلمة ـ : إنه قد يملك الآن من الثروة ما لم يكن يحلم به . فأما العظماء الذين هم أشد قوة وبأساً فخليقٌ بهم أن يحمدوا بلائي وأن يتخذوني لهم صديقاً . فلو أن غيري مُنح ما مُنحته من شرف لما استطاع أن يحكم الشعب ويهدئه من غير أن يمخض اللبن ليستخلص منه الزبد[1] ، ولكني وقفت بين الفريقين كأنما أنا بين جيشين يقتتلان جداً في موضع لا سبيل إلى تجاوزه »[2] .

* * *

إنّ انجازات صولون انجازات عظيمة لا تُقدّر بثمن . لقد كان القانون من قبل قراراً يصدر عن الديانة ويحتكره الكهنوت . لقد كان يُعدُّ وحياً أوحت به الآلهة إلى الأسلاف ، إلى الملوك المقدّسين وإلى رجال الدولة الكهنة . وأمّا الآن فإنّ الشارع أصبح لا يتكلم بإسم الآلهة ، إنّه إنّما يتكلم بإسم الشعب ، والشعب هو الذي خوّل صولون حق صنع القوانين واصدارها ، ففي القانون مصلحة الناس جميعاً لا مصلحة فريق منهم ، وأساسه موافقة السواد الأعظم لا الإكتفاء بموافقة بعض الأوصياء الذين فرضوا عليه أنفسهم . وما دام القانون ليس من عمل الآلهة وارادتهم المطلقة وإنّما هو عمل انساني محضٌ فإنّه يظلّ عرضة للتغيير مهما بلغ من الكمال .

كما أنّ القانون الذي كان من قبل جزءاً من الديانة وكان ميراثاً للأسر المقدسة واحتكاراً لرؤسائها ، أصبح منذ الآن مشتركاً بين جميع المواطنين . لقد انتصرت شريعة البشر أو كادت على شريعة الآلهة ، فإنّ صوت الشرع الطبيعي بدأ يتكلم بصوت يضارع في ارتفاعه صوت الديانة الأولى . فالمجتمع الجديد قد وُلد له شرع جديد . أجل لقد تغير كل شيء أو كاد . فقد تبدلت الأنظمة غير الأنظمة ، والشرع غير الشرع ، وكذلك العقائد والأخلاق ستتبدل وستتطور في هذه الفترة الجديدة . لقد اختفى النظام القديم ومضى يجر معه القواعد الصارمة التي أفرزها تخلفه واستخذاؤه ، وتأسس نظام جديد وتغيّر وجه الحياة البشرية .

---

(١) اي دون أن يتخذ العنف والشدة سبيلاً إلى تثبيت النظام .

(٢) المصدر السابق صفحة ٦٥ .

لقد كانت الديانة لا المنفعة هي القاعدة العليا للنظام الإجتماعي . فلن يتساءل المواطنون بعد الآن في مناقشات مجلس الشيوخ وفي المجامع الشعبية عما تأمر به الديانة ، بل عما تتطلبه المصلحة العامة . لقد كانت الأنظمة والشرائع ذات حقيقة مطلقة وأمّا الآن فيجب أن تكون مرنة متغيرة أي نسبية . إنّها يجب أن تتمشى في المستقبل مع حاجات أهل كل عصر واخلاقهم ومصالحهم . فهي مرتبطة بتطور الحياة ، وبوضع اجتماعي واقعي متحرك في اطار تاريخي مطبوع بصراع القوى والمواجهة بين الكتل والمجموعات المختلفة ، محلية كانت أو اقليمية أو دولية .

والمساواة هي أحد اسس التصور الجديد للنظام الذي جاء به صولون . فبغير المساواة لا وجود للمدينة لعدم وجود روح الجماعة . « فالمساواة لا يمكن أن توّلد الحرب »(١) كما قال : والمساواة المقصودة هنا هي المساواة الهندسية لا المساواة الحسابية . إنّ المفهوم الجوهري عند اليونان هو مفهوم التناسب . فالمدينة هي كلٌ منسجمٌ ، إنّها عالم قائم بذاته ، يمكن أن يتحول إلى عالم منسجم إذا كان كل عضو من أعضائه في مكانه وكان يملك حصته من السلطة التي تخصُّه نتيجة لقدرته الشخصية . يقول صولون : « لقد اعطيت الديموس Démos (٢) مقداراً من السلطة يفيه حقه بلا زيادة ولا نقصان »(٣) .

ليس المقصود هنا حق المساواة في الوظائف . فإنّ المناصب العليا محفوظة لأصحابها الجديرين بها . كما ليس المقصود هنا أيضاً حق المساواة في الملكية العقارية . فقد رفض صولون تقسيماً للأراضي يقضي بمنح الجميع حصصاً متساوية من الأراضي الخصبة في الوطن . اين المساواة إذن ؟ إنّها في القانون المحدد الذي يطبق على جميع المواطنين الأحرار ، أي الذين يمكنهم أن يكونوا أعضاء في المحاكم أو المجلس . قبل الآن كانت الكبرياء وقلوب الأثرياء القاسية هي التي تنظم العلاقات الإجتماعية . لكن ذلك لم يقنع صولون فلم يرضخ ولم يستسلم ، فقد أبى إلاّ أن تكون القاعدة العامة العليا هي التي تحدد نظام توزيع الحقوق ، إنّها القوانين المكتوبة التي حلت محل خيار القوة الذي كان ينتصر فيه

---

(١) نقلاً عن جان بيار فرنان : أصول الفكر اليوناني صفحة ٨٢ .
(٢) أي الفلاحين .
(٣) نقلاً عن المصدر السابق .

الأقوياء دائماً ويفرضون قواعد عدالتهم كما يتصورونها هم . فالتوافق هو انسجام يتم الحصول عليه بنسب دقيقة ، إلى حد أنّ صولون اعطاها شكلاً شبه عددي[1] .

ويستمر تطور الفكر الخلقي والتفكير السياسي في هذا الخط : فثمة محاولة دائمة متواصلة من قِبل المسؤولين لكي يستبدلوا بعلاقات القوة علاقات من النمط « العقلاني » في جميع الميادين ، وذلك من خلال العمل على اقامة تنظيم دعامته الإعتدال وهاجسه التناسب ، أي تحقيق المساواة بين مختلف أنماط التبادل التي يتكون منها نسيج الحياة الإجتماعية .

وهناك ملاحظة منسوبة إلى صولون توضح معنى هذا التبدل الحاصل بفعل العقل والقانون كما يقول افلوطرخس . كان أناخارسيس Anacharsis يسخر من الحكيم اليوناني الذي يعتقد انه يستطيع بالقوانين المكتوبة منع الجريمة والرغبة في الإقتناء لدى مواطنيه ، فقال إنّ القوانين تشبه نسيج العنكبوت الذي قد يوقف الضعفاء والصغار ، وأمّا الأقوياء والأغنياء فإنّهم يمزقونه . كان صولون يواجه هذه الفكرة كما يواجه الإتفاقات التي يراعيها الناس ، لانّ أحداً من الفريقين المتعاقدين لا مصلحة له في خرقها . فالمقصود إذن بالنسبة إلى دولة المدينة إصدار قوانين يأخذ الجميع أنفسهم بها لأنّها تضبط العلاقات فيما بينهم على أساس نفس المبادىء الوضعية ذات الفائدة المتبادلة التي تضبط سريان العقد بين فريقين[2] .

بيزيسطراطوس

لقد مرّ معنا كيف كانت أثينا على أبواب ثورة وشيكة لولا أن تداركها صولون بأن الغى عقود ارتهان أراضي المدينين وصكوك عبوديتهم الشخصية وسنّ قانوناً يُحرم في المستقبل منح القروض أو الحصول عليها بناء على هذين الضمانين . لكن صولون لم يوافق على مبدأ تقسيم الضياع الكبيرة . وقد اتيحت له الفرصة لكي يقيم من نفسه طاغية على البلاد ولكنه رفض العرض الذي قدم له في هذا السبيل حفاظاً على العهد الذي قطعه على نفسه . غير أنّه عجز عن أن يجنّب أثينا مصير الوقوع في براثن أحد الطغاة في الجيل التالي . فإنّه ما ان غادر أثينا بعد

---

(١) المصدر السابق، صفحة ٨٢ ـ ٨٣ .
(٢) المصدر السابق، صفحة ٨٣ .

اعتزاله الحكم حتى عادت المنازعات التي تمكن من احتوائها والسيطرة عليها مدى جيل كامل من الزمان ـ أقول حتى عادت إلى سابق عهدها ورجعت الدسائس والمشاحنات تذُرُّ قرنها كما كانت من قبل .

وهكذا استطاع الطاغية بيزيسطراطوس Pisistrate (٦٠٠ ـ ٥٢٧ ق . م) أن يركب الموجة ويمتطي الصهوة . لم يكن بيزيسطراطوس هذا ـ كعادة الطغاة ـ شديد التمسك بالقيم . بيد أنّه كان يبدو عظيم الإعتدال مع ذلك إذا ما قورن بغيره من الطغاة . فقد اشتهر بأنّه شديد النصر للديمقراطية وأنّه قد احسن البلاء في حرب ميغارا . فأقبل ذات يوم وقد جرح نفسه بيده وأقنع الشعب بأنّ خصومه السياسيين هم الذين اعتدوا عليه وأنّه لا بدّ بالتالي من حرس خاص يحميه . فإستولى على الأكروبوليص وأعلن نفسه حاكماً بأمره . لكن الطاغية طُرد من البلاد قبل أن يستقر سلطانه . غير أنّه عاد إلى أثينا بحيلة تليق بالعصور القديمة وتبين مدى ما كان عليه الناس آنذاك من السذاجة المطلقة .

فقد أذاع الدعاة والمبشرون أنّ ربة المدينة وشفيعتها إثينا راغبة في إعادة السلطة المسلوبة إلى بيزيسطراطوس ، وأنّها ستتولى ذلك بنفسها . وأقبلت امرأة طويلة القامة حسناء تلبس لباس الإلّهة أثينا وعليها دروعها ، وكانت تجلس في مركبة جلسة العظمة والكبرياء ، ودخلت المدينة وإلى جانبها بيزيسطراطوس . وصدق الأثينيون أنّ هذه المرأة هي الإلهة نفسها فخروا سّجَّداً خاشعين قانتين ، شاخصة أبصارهم كان على رؤوسهم الطير !!!

ورغم مساندة الإلّهة الجميلة له فقد أُطيح به ، وبتعبير أدقّ ولّى هارباً من أثينا بعد أن حكم المدينة ستّ سنوات لأنّه أحسّ أنّ الأرضَ تميد تحت قدميه . فقد اخلَّ بوعد قطعه لميغاقليس الذي نصره ودبر له حيلة المرأة الفاتنة بعد أن شرط عليه أن يتزوج ابنته ، ولكن بيزيسطراطوس لم يرد أن يدنو من بنت ميغاقليس . فالصفقات قديمة قدم الإنسان ونقض العهود أقدم ، وليسا شيئاً من مخترعات هذا الزمان ، لا فرق في ذلك بين اليونان وغير اليونان . وهكذا فبعد أن مضى على فراره عشر سنين وكان قد جمع كثيراً من المال وحشد عدداً كبيراً من المقاتلة والمستأجرين والفرسان ، دخل أثينا وجرد الشعب من سلاحه بحيلةٍ أخرى . فقد استدرجه إلى مدخل الأكروبوليص ليخطب بالناس ، وهناك أخذ زبانيته ينتزعون منهم الأسلحة دون أن يُبدوا مقاومة ما . فقد كانت المفاجأة أكبر من أن تترك لهم

وقتاً للتفكير في المقاومة .

وحمدت سيرة الطاغية بعد ذلك . فقد كان أعقل من أن يستثير حفائظ القوم فوق ما استثار . بل لقد أراد التكفير عما كسبت يداه واستبداده بالأمر بالحيلة والمكيدة ، فوعد بالقيام بكل ما تحتاج إليه الأمور العامة من تدبير على أن يعود الناس إلى بيوتهم وألّا يتدخلوا فيما لا يعنيهم . وقد برّ بوعده . فكان في تدبيره للمدينة أقرب إلى رجال الدولة المخلصين منه إلى الطغاة الغاصبين . لقد حكمها وهو أدنى إلى إجلال قوانين صولون منه إلى انتهاك حرمتها . فقد أطاع هذه القوانين في كل تدبيره للمدينة من غير أن ينتحل لنفسه سلطة غير مشروعة . وقد دُعي يوماً للمثول أمام مجلس الاريوباغوس متهماً بالقتل ، فحضر مجلس الحكم كأي مواطن عادي للدفاع عن نفسه . لكن المتهم لم يحضر خوفاً من بطش الطاغية فآثر العاقبة . وكان يقرض الفقراء ما يستطيعون به استثمار أرضهم ليزرعوا الريف ويبتعدوا عن المدينة وشؤون السياسة ، كما أنّ الأرض كلما زُرعت واستُثمرت نمّت ثروته وكثر دخله لأنّه كان يجني الضريبة على ما تنبت الأرض[1] .

وكانت أخلاق بيسطراطوس مزيجاً نادراً من الثقافة والحلم والرفق وقوة العقل ومن الكفاية الإدارية والجاذبية الشخصية . وكان في وسعه أن يقاتل دون أن تأخذه بأعدائه رحمة ، وأن يعفو عنهم بلا تردد . وكان قادراً على التكيف لجميع الظروف والأحوال . فكان قادراً أن يعيش في جميع العواصف والتيارات ، وأن يحكم دون أن يتأثر بما يتأثر به الرجل المفكر من تردد في الهدف وإحجام عن البت في الأمور .

وكان دمث الأخلاق رحيماً في أحكامه كريماً في معاملته . لقد سار سيرة السياسي الحكيم لا سيرة الرجل الظالم . ولم ينتقم إلّا من عدد قليل من أعدائه ، ولكنه نفى من البلاد من عجز عن استرضائهم من معارضيه وقسّم ضياعهم على الفقراء ؛ كذلك أصلح الجيش وأنشأ الأسطول ، وعمل على استتباب الأمن في المدينة التي أنهكتها الحروب والمنازعات ، حتى أصبح من الأقوال المأثورة في حكمه أنّه أعاد إلى البلاد عصر أكرونوس[2] الذهبي ومن هنا طال سلطانه ، واستطاع أن يسترد المُلك كلما أحس بمحاولة لإقصائه عنه[3] .

---

(١) طه حسين : نظام الوثنيين صفحة ٦٧ ـ ٧٣ .
(٢) أبو كبير الآلهة زيوس ، وكان اليونان يزعمون أن عصره هو العصر الذهبي لا شقاء فيه .
(٣) ول ديورانت : قصة الحضارة ٦ / ٢٢٢ .

ولم يفرِّط بيزيسطراطوس في دستور صولون بل احتفظ به كما هو دون أن يدخل عليه سوى تعديلات طفيفة في التفاصيل لا في الأسس الجوهرية وبقي كل شيء يجري على المنوال السابق . فظل الأرخونون يُختارون كما كانوا يُختارون من قبل ، وظلّت الجمعية والمحاكم الشعبية ومجلس الأربعمئة ، ومجلس الأريوباغوس ، ظلت تجتمع وتقوم بواجباتها كما كانت تفعل قبل أيامه . وكل ما طرأ من جديد هو أنّ اقتراحات بيزيسطراطوس كانت تلقى في هذه المؤسسات أذناً صاغية . لقد كان من الذكاء وأصالة الرأي بحيث أدرك لأول وهلة أنّ من أفدح الخطر على حكمه تحقيق مخاوف الحريصين على المكاسب الديمقراطية التي تحققت للشعب قبله وإعطاء سلاح جديد للمناوئين للإنتقاض عليه وإثارة المتاعب في وجهه . المهم أن يستقر على الكرسي الوثير ويمتطي صهوة الأحداث وتظلّ كلمته هي العليا وكلمة خصومة هي السفلى . فبالمنح والهبات والخدمات والأشكال الديمقراطية يمكن تخفيف وطأة الدكتاتورية في النفوس التي تتسقط العثرة وتنتظر الكبوة لتفيد من السانحة . ورضي الناس بحكمه على مر السنين ، بل لقد بلغ من الحنكة والحكمة السياسية والكياسة وفنون الإرضاء أنهم أحبوه وأولعوا به . لقد بدّل أثينا من بعد خوفها أمناً ، ومن بعد اضطرابها نظاماً واستقراراً . وهذا ما غفر له جميع ما قدّمت يداه . فهو الرجل المناسب في الوقت المناسب للعمل المناسب . والحق إنّه بِدْعٌ من الطغاة ونسيجٌ وحده بين الطغاة . وسواء كان شاعراً بذلك أم لم يكن ، فإنّ مطامعه السياسية قد اتفقت مع مُثُل الحكم الديمقراطي . ولا عليه بعد ذلك أنّ يُسمى طاغية . فشتان بين طاغية وطاغية . وحسب الطاغية تحطيم الأرستقراطية حتى يحبه الشعب إنْ كان حقاً طاغية ، وإلاّ لم يكن طاغية .

فإنّ أثينا كانت بعد صولون في حاجة إلى رجل من معدن بيزيسطراطوس أوتي من الشدة ما استطاع به أن يُبدل ما كان في حياة المدينة من اضطراب أماناً ونظاماً ، وأن يقسر الناس في بادىء الأمر على تبني عادات النظام وطاعة القانون . وعندما تزول الدكتاتورية بعد جيل من الزمان ستبقى عادات النظام وسيبقى معها الإطار الخارجي لدستور صولون لترثها الديمقراطية . فكأن بيزيسطراطوس لم يأتِ لينقض الناموس بل ليكمله[1] .

---

(١) المصدر السابق، صفحة ٢٢٢ ـ ٢٢٣ .

أما سياسته الإقتصادية فكانت ـ شأنها شأن سياسة صولون ـ على جانب كبير من الأهمية . فقد واصل تحرير الشعب ، وهو التحرير الذي بدأه صولون .. بل لقد فعل ما لم يفعله صولون : إذ أقدم على الخطوة الثورية التي أحجم عنها صولون ، ألا وهي تقسيم الضياع الواسعة . فقد حلّ المشكلة الزراعية في البلاد بأن وزع على الفقراء أملاك الدولة وأملاك الأشراف الذين نُفوا من البلاد ، وبذلك رأينا آلاف الأثينيين يستقرون في الأرض الزراعية بعد أن كانت بطالتهم خطراً على أتيكا ، فضلاً عن أنّها كانت خطراً عليه هو بالذات . وظلت أتيكا بعده قروناً تنعم بالراحة والرفه لا تسمع فيها لاغية . وأوجد اعمالاً للمحتاجين فيما أقام من منشآت واسعة امتصت أعداداً كبيرة منهم ، وشاد الهياكل العظيمة للآلهة ، وسكّ للبلاد عملة جديدة خاصة بها ، وعقد معاهدات تجارية مع كثير من الدول ، وراجت التجارة في أيامه راوجاً عظيماً ، وازدادت الثروة القومية ، وارتفع دخل الفرد ، وقلّ تركيز الثروة في أيدي قلة ضئيلة تركيزاً كاد يقذف بالمدينة في أتون الحرب الأهلية ، وانتشر الرخاء وسنحت له الفرص الذهبية ، فوُضعت بذلك الأسس الإقتصادية للديمقراطية الأثينية[١] .

وصل بيريسطراطوس إلى الشيخوخة ، وهو قائم على تدبير المدينة . ومات وكان قد مضى على اغتصابه الملك ثلاث وثلاثون سنة ، قضى منها تسع عشرة سنة مالكاً للأمر وقضى ما بقي في النفي . وقام أبناؤه بالأمر من بعده ومضوا فيه على سُنَّة أبيهم . لقد كانت حكمته قد ثبتت أمام كل محنة إلا محنة لم يقدر عليها وهي أخفاقه في كسب ود أبنائه له . وكان قد وُلد له من زوجة أثينية شرعية ولدان هما هيبياس وهيبارخوس . كان هيبياس أكبرهما كثير الجد ميالاً إلى العناية بالأمور العامة ، فأخذ بيده أعنة الحكم[٢] . وكان هيبارخوس يميل إلى أخلاق الشبان ، وهو أيضاً ممن لا يستحون من عشق الغلمان . فقد كان يحب فتى « في ريعان الشباب ونضارته » كما يقول توكيديدس[٣] ـ اسمه هرموديوس Harmodius وكان

---

(١) المصدر السابق صفحة ٢٢٣ ـ ٢٢٤ .
(٢) طه حسين : نظام الأثينين ، صفحة ٧٥ .
(٣) نقلاً عن ول ديورانت : قصة الحضارة ٦ / ٢٢٧ .

ينافسه فيه رجلٌ كهل هو أرسطوجيتون Aristogeiton فقرر هذا الأخير قلب الحكومة الديكتاتورية ، وقتل هيبارخوس ليخلو له وجه الغلام ! وانضم إليه في هذه المؤامرة هرموديوس وغيره من الأثينيين . واغتالوا هيبيارخوس وهو يُعد العدة لموكب الألعاب الأثينية الجامعة . وارتاع هيبياس وعزم ليستبدلنَّ بحكمه الرحيم حكماً قمعياً إرهابياً يكون عبرةً لمن اعتبر ! وما زال بالمتآمرين حتى أتى على آخرهم . وثار الأثينيون ، لا سيما وأنهم كانوا ساخطين لانتقال السلطة بغير رضاهم إلى ابني بيزيسطراطوس ، وأخذوا يدركون أن الدكتاتورية قد مكنت لهم في كل شيء إلا حافز الحرية . لقد نعموا بالرخاء جيلاً كاملاً ، ولكن الحرية هي أغلى الأشياء في نظر الأثينيين فلا يعد لها في هذا العالم شيء من الأشياء . وزادت صرخة المطالبة بها دوياً كلما زاد الطغيان قسوة . وأصبح هرموديوس وأرسطوجيتون في خيال الشعب شهيدين من شهداء الحرية بعد أن لم يكونا سوى متآمرين يحيكان مؤامرة مبعثها الحب والهيام لا الديمقراطية . ورأى أعداء بيزيسطراطوس الفرصة سانحة لهم للإنقضاض عليه ، فجمعوا جيشاً وزحفوا على أثينا وأعلنوا أنهم لا غرض لهم إلا خلع هيبياس ، وكان لهم ما أرادوا .

أقلستنيز

ودخلوا دخول الفاتحين مدينة أثينا ـ وعلى رأسهم أقلستنيز Clisthènes الباسل ـ ظافرين ، وفي أعقابهم الأشراف المنفيون يستعدون للإحتفال باسترجاع أملاكهم وسلطاتهم . وكان ذلك سنة ٥١٠ ق . م[1] .

واختير إيزاغوراس Isagoras في الانتخابات التي أعقبت هذه الحوادث ليكون كبير الأرخونين . ولكن أقلستنيز ـ وقد انهزم في المعركة الإنتخابية ـ حرَّض الشعب على العصيان واستطاع بذلك إسقاط ايزاغوراس وإقامة دكتاتورية شعبية . لقد كان في سقوط أيزاغوراس نكسة لمدينة إسبرطة العدوَّة التقليدية لأثينا . فهو أسبرطي ، وكانت إسبرطة تبغي من وراء ترشيحه بسط هيمنتها على المدينة العظيمة ، لولا أن أقليستنيز أحبط خططها في اللحظة الأخيرة . لذلك غزا الأسبرطيون أثينا يريدون رد إيزاغوراس إلى منصبه ولكن الأثينيين قاوموا الغزو مقاومة عنيفة اضطرت الإسبرطيين إلى الهزيمة . فلما تم ذلك عكف أقلستنيز على

---

(١) المصدر السابق، صفحة ٢٢٧ ـ ٢٢٨ .

إنشاء حكومة ديمقراطية .

في حديثنا عن صولون وإنجازاته العظيمة ، رأينا كيف أرسى لأول مرة قواعد المساواة ونظام الحكم الديمقراطي في البلاد . لقد أرادها صولون نُقلة نوعية كبيرة وكانت كذلك بالفعل ، لأن أثينا لم تشهد لها نظيراً من قبل . ولكن هذه النُقلة لم تكن كاملة . وقد أدرك ذلك بيزسطراطوس وهو الطاغية الذي لم يكن يهمه من القيم إلا قيم المنفعة والفرصة السانحة ، فأقدم على ما لم يقدم عليه صولون . فمهما تكن الحرية التي منحها صولون للمواطنين فإنها تظل حرية ناقصة عرجاء . فإنه عندما غيّر الدستور السياسي أبقى على النظام الديني القديم للمجتمع الأثيني . وعبثاً يقول أن الأثينيين أحرار ما دامت الديانة القديمة تأخذ بخناق هذا المجتمع ، فقد استمرت العبادة الوراثية والامتيازات الكهنوتية وغير ذلك مما يرجع إلى ماضٍ يصعب زواله جملة واحدة . ومن هنا استمرت السنن والقواعد والفوارق التي كانت سائدة في الحالة الإجتماعية السابقة . هذه الإطارات أقامتها الديانة ، وهي بدورها تحافظ على الديانة ، أي على سطوة الكبراء وامتيازاتهم . فماذا يُغْني الإصلاح السياسي لنظام حياة المواطن إذا كانت الديانة والأخلاق متمسكة بجعله عبداً مسلوب الإرادة أو شيئاً من هذا القبيل ؟ فإن الإصلاح السياسي إذا لم يكن مقروناً بالإصلاح الديني لا جدوى فيه . وهذا ماقام به أقلستنيز . فهو يعلم تمام العلم أن القبلية عميقة الجذور في أثينا وأن الأثيني لا يمكن أن يتصور مدينته بالتالي بلا قبائل . لذلك فقد كان أول ما قام به أقلستنيز إنشاء قبائل جديدة ، لقد أبقى على النظام القبلي ولكنه أحدث فيه تغييرات جوهرية . فقد كان أول إصلاح له بعد سقوط آل بيزسطراطوس معولاً دك به قواعد الأرستقراطية الأتيكية القديمة . فقد عمد إلى إحلال عشر قبائل جديدة محل القبائل الأربع الدينية القديمة ، وكانت هذه القبائل تشبه في ظاهرها القبائل القديمة ، فكان في كل قبيلة منها عبادة وكاهن وقاضٍ وإجتماعات للإحتفالات الدينية ومجامع للمداولة في المصالح المشتركة . وهكذا خرج أقلستنيز بتقسيم جديد للقبائل ومجموعات جديدة تفككت فيها الروابط القديمة وحلت محلها روابط جديدة . بل لقد أدخل في هذه التقسيمات مجموعات من الأحرار الأثينيين كانوا دائماً لسببٍ أو آخر خارج النظام القبلي . لقد كانت التقسيمات القديمة مبنية على أساس المولد ، وأما الآن فهي مبنية على أساس المسكن . إصلاح كبير عومل به الناس على قدم المساواة ، فمُنحت الديانة لمن كانت لا

تزال تنقصه ، وأدخل في جماعة دينية من كانوا مقصيين عنها ، كما أن العبادة التي كانت تجتمع القبيلة أو الحي للإحتفال بها لم تعد هي العبادة الوراثية لأسرة قديمة . وكذلك لم يعد الكهنوت وراثياً بل أصبح منصب الكاهن في المجموعات الجديدة سنوياً وأصبح في إمكان كل عضو أن يضطلع به[1] . فلقد أنشأ أقليستينز لكل قبيلة حفلات دينية جديدة واختار أحد الأبطال القدماء ليجعله إلهاً أو قديساً أو شفيعاً يقوم برعاية القبيلة ، وأصبح الأحرار الذين ولدوا من أصل أجنبي مواطنين تلقائياً في القسم الذي يقيمون فيه . فإنه قلما كان هؤلاء يتمتعون بحق الإنتخاب في العهود الأرستقراطية السابقة التي كان حق المواطن فيها يعتمد على حَسَبه ونَسَبه . لقد ذهبت الامتيازات إلى غير رجعة وتضاعف عدد الناخبين وأصبحوا عوناً جديد للديمقراطية التي ما أنفكت منذ ذلك اليوم يشتد ساعدها ويقوى عودها وتكسب المزيد من المساندة والتأييد .

وهكذا زالت الطبقات الدينية وزالت إمتيازات المولد سواء في مضمار السياسة أو في مجال الدين . لقد أراد أقلستينز أن يشتد إختلاط الناس واتصال بعضهم ببعض وأن يكون الحكم في يد الكثرة المطلقة منهم . ومن هنا نشأت هذه الجملة التي كانت توَّجه فيما بعدإلى من كان يحاول الإصلاح : لا تمس القبائل[2] .

لقد تبدل المجتمع الأثيني الآن غير المجتمع ، وكل تبدل جديد إيذان بمخاض جديد . وهذا الإصلاح لم يكن حدثاً خاصاً في تاريخ أثينا ، بل لقد شمل التغيير مدناً أخرى كإسبرطة وإليس مثلاً . وقد بارك أرسطو هذه الحركة وعلق عليها قائلاً : « إذا ما أريد [حقاً] تأسيس حكم الديمقراطية ، فمن الواجب الإقتداء بما فعله أقليستنيز للأثينيين : إقامة قبائل وأخويات جديدة ، والإستعاضة عن قرابين الأسر الوراثية بقرابين مباحة لجميع الناس ، ومزج علاقات الناس بعضها ببعض بتحطيم جميع العلاقات السالفة »[3] .

وزاد أقلستينز عدد أعضاء مجلس الشوري فجعله خمسمئة يُمثل كل قبيلة فيه خمسون . وكان هؤلاء الأعضاء يُختارون مدة عام واحد بالقرعة لا بالإنتخاب ،

---

(١) فوستيل دي كولانج : المدينة العتيقة ، صفحة ٣٨٨ ـ ٣٨٩ .
(٢) طه حسين : نظام الأثينيين ، صفحة ٨٢ ـ ٨٣
(٣) نقلاً عن فوستيل دي كولانج : المدينة العتيقة ، صفحة ٣٨٩ .

من قوائم تشتمل على أسماء جميع المواطنين الذين بلغوا سن الثلاثين والذين لم يكونوا قد قضوا في المجلس السابق دورتين . وفي هذا النوع الجديد من أشكال النظام النيابي استبدل بالمبدأ الأرستقراطي القائم على شرف المحتد ، والمبدأ البلوتوقراطي القام على الثراء ، مبدأ الإنتخاب بالقرعة ، فأتيحت لجميع المواطنين فرص متكافة للإقتراع وأعطيت لهذا المجلس السلطات الهامة التي كانت لمجلس الأريوباغوس ، وكان يُعدّ جميع المسائل والإقتراحات التي تعرض على المجلس لإقرارها أو رفضها ، كما كان يحتفظ لنفسه ببعض السلطات القضائية المختلفة الأنواع ويُصرّف كثيراً من الشؤون الإدارية ويشرف على جميع موظفي الدولة(١) .

إن القالب القديم للمجتمع قد تحطم ، وإن هيئة إجتماعية وعقلية جديدة في طريقها إلى الظهور . إن الهيكل الإجتماعي الذي رسمته الديانة الوراثية القديمة كان يبدو لأول وهلة أنه غير قابل للتغيير والتبديل ولكن حصلت المعجزة ، وتلت المعجزات معجزات . لقد كان عهد وجاء عهد . لقد خرج الشرع من كتب الشعائر وأسفار الكهنة ، لقد فقد سره الديني المقدس وأصبح لغة يستطيع كل فرد أن يقرأها وأن يتكلم بها ، وأصبح المغمورون والمستضعَفون والمعذَّبون في الأرض هم أصحاب السيادة . لقد فقدت طبقة الكهنة قدرتها على احتكار السلطة ، ودخل المجلس عناصر لم تكن لتحلم بالدخول فيه . لقد قلبت هذه الإنجازات الكبيرة جميع القواعد القديمة للمدينة ، وتولت الطبقة الدنيا مناصب الدولة والكهنوت ، وحصلت على حق الإنتخاب بعد أن ظلت محرومة عصوراً طويلة لا أول لها من حقوقها المدنية والسياسية . وقد جرَّ مثلُ هذا التغيير في الحالة الإجتماعية والنظام السياسي تغييراً أكبر في الحالة العقلية ستشهد البشرية كلها فصوله وتقلباته ، وسيتفيأ الإنسان في كل زمان ومكان بظلاله الوارفة وسينعم بخيره العميم .

لقد مضت أثينا ، ومضت دولة المدينة ، ومضت بلاد اليونان ، ولكنها تركت شيئاً لن يمضي بل يبقى ما بقي الإنسان . لقد تركت تراثاً لن يموت ، تركت نظامها السياسي وفلسفتها العقلية ، تركت آدابها وفنونها التي صنعها رجال لا كالرجال . إن أمة تنجب رجالاً من هذا القبيل كيف لا تترك تراثاً من هذا

(١) ول ديورانت : قصة الحضارة ٦ / ٢٢٩ ـ ٢٣٠ .

القبيل . من هو الرجل العظيم ؟ من يأتي في الوقت المناسب ليقوم بالعمل المناسب . إن « مصانع » أثينا في هذه الفترة القصيرة من تاريخها كانت قادرة على صنع رعيل كامل من أمثال هذا الرجل . وهذا لعمري هو سر خلودها ، فإنما التاريخ هو تاريخ أمثال هذا الرجل ، وما تبقى فغثاء كغثاء السيل إثمه أكبر من نفعه ، لقد كانت أثينا تقذف بالرجل تلو الرجل ، وكان الرجل من هؤلاء خيراً من مئة ألف رجل . فكلما تعثَّر البلد أو زلَّت به القدم ، قام من يُقيل عثرته ويُنهضه من كبوته . لا أنساب بينكم اليوم . إيتوني بأعمالكم ولا تأتوني بأنسابكم ! هكذا كان شعار أثينا في أيام مجد أثينا . وما حدث لأثينا حدث للعرب في أيام مجد العرب ، وحدث في عصر النهضة لأوروبا الغربية التي تعيش اليوم في الرمق الأخير ، لقد خلفتها وليدتها أميركا واليابان . وستخلف الصين هذين البلدين في المستقبل المنظور . أما أنتم أيها العرب والمسلمون فإني والله في حيرة من أمركم . لقد أسرفتم يوماً في العطاء ، فهل يتجدد العطاء ؟ هيهات ، أنا والله متشائم ، فتجديد القديم ترقيع ، وأما العروبة فهي غضَّة بضَّة ، كاملة الدسم ، لم يُستهلك منها شيء ، بل يُنتظر منها كل شيء . وبعبارة أخرى ، ليس لنا تراث قومي ، وإنما كل تراثنا متخم بالدين والاحتياجات الدينية . فلا أمل في إحياء التراث لأن التراث أفكار مستهلَكة . هَلك من استهلك المستهلَك ورقَّع المستهلَك وعاش حياته كلها على خروق المستهلَك . فالمتشبث بالتراث هو في نظري كمن يغوص في الوحل كلما جاهد ليخرج منه أُركس فيه وازداد غوصاً ، والنتيجة الحتمية هي السقوط في القاع . فهو هالك إن تحرك وهالك إن توقف . ومن هنا فالتراث عائق . إنه هو الذي يمنع استئناف العطاء الحضاري لأن من يقول بإحياء التراث يظن أن الأفكار التي أجدت مرة يمكن أن تجدي كل مرة . ومن هنا تشبثه بها ، ومن هنا بالتالي تخبطه وإمعانه في التخلف . فإذا أردنا أن ننهض من كبوتنا فلنصرف النظر عن إحياء التراث . إن تراثنا بقدر ما هو متخم بالدين وبالأفكار الدينية ، ضحل وهزيل بالأفكار القومية . فلعل من هذه الثغرة يمكن أن ننفذ إلى التاريخ مرة أخرى . هذه هي الفرصة الوحيدة المتاحة لنا في هذا الوقت . يجب أن ندخل التاريخ خفافاً غير مقيَّدي الأرجل والأيدي بما يُثقل الخطو ويمنع الحركة ، وإلاَّ فالإنهيار الشامل يؤدي إلى المزيد من الإنهيار ، وستذكرون ما أقول لكم . فتربصوا إني معكم من المتربصين !

* * *

وظلت أثينا تعظم وترقى بعد هذه التغييرات البنيوية التي أحدثها أقلستنيز في الهيكلية القبلية ، وكانت الديمقراطية تحقق كل يوم نصراً جديداً . لقد كان أقلستنيز ـ حقاً ـ رجل الموقف ورجل الساعة . وما أكثر الرجال الذين أنجبتهم أثينا من هذا الطراز . لقد كان رجلاً ثورياً بكل معنى الكلمة ، فعرف كيف ينشيء وكيف يبني حتى اجتث أصول الشر ، أي القبائل الأربع القديمة ، فاختفت نهائياً ـ هي وكل ما يتصل بها : فروعها وأديانها وكهنوتها ـ من السياسة الأثينية .

والمعجزة الأخرى التي حققها أقليستنيز لا تقل عن هذه خطراً ، فقد تجلت عبقريته أيضاً في تعزيز سلطة الشعب ، بل جعله مصدر السلطات . فالأعمال هناك لم تكن في يد الأقلية بل في يد الأكثرية . فإن « في الأغلبية يوجد كل شيء » كما يقول هيرودوتس[1] . فقد وُضعت نظم أقليستنيز بحيث يدخل مجال السياسة ومراكز المسؤولية وصنع القرار ، أكبر عدد ممكن من عباقرة أثينا في عصره والعصور التالية . إن نظام الحكم الذي وضع أقلستنيز مقوماته والذي سيضيف إليه برقليس بعض التعديلات الضرورية والمنطقية نقوم على فكرتين بسيطتين وأساسيتين معاً :

أولاهما أن الشعب هو صاحب السيادة في ظل قوانينه وأن إرادة الشعب هي السلطة العليا بعد القانون ، وهي ليست مسؤولة أمام أحد والكل مسؤول أمامها .

وثانيتهما أنه لما كان لدى الناس كثير من الأعمال غير القيام بالحكم ، فلا بد أن يقوم بالحكم إذن أكبر عدد ممكن ومعقول من الممثلين ، يخضعون في فتراتٍ معينة لتأييد مجلس الشعب وتعديلاته . لقد كانت الحكومة الذاتية الكاملة ـ أي الحكومة التي يتولى السلطة فيها الشعب نفسه لا ممثلوه ـ هي المثل الأعلى ، لكن ما لا يدرَك كله لا يُترك جُله . فمن الممكن ـ على حد قول لنكولن المشهور ـ أن تجعل بعض الناس يحكمون الوقت كله ، وكل الناس بعض الوقت ، ولكن لن يمكنك أبداً أن تجعل الشعب كله يحكم طول الوقت[2] .

إن العالم لم يرَ في تاريخه كله قبل ذلك العهد نظاماً انتخابياً أكثر من هذا

---

(١) نقلاً عن الفرد زيمّرن : الحياة العامة اليونانية ، صفحة ١٨٤ .

(٢) نقلاً عن المصدر السابق، صفحة ١٨٦ .

النظام حرية ، ولا سلطة سياسية شعبية أوسع من هذه السلطة . واغتبط الأثينيون أشد الاغتباط بهذه المغامرة الفريدة التي تحرص على سيادة الشعب . لقد أدركوا أنهم كانوا مقْدمين على مغامرة شاقة خطيرة ، ولكنهم أقدموا عليها بشجاعة وأنفة ومسؤولية . وقد عرفوا منذ ذلك الوقت لذة الحرية في القول والعمل والتفكير ، وانعقدت لهم زعامة بلاد اليونان كلها لا في السياسة والحرب فقط ، بل في جميع ميادين الحياة . إن التجربة اليونانية في المضمار الحضاري . تجربة رائعة في تاريخ الإنسانية ، لما أسهمت به الحضارة اليونانية في الأفكار والمُثل ، ولا يستطيع من يتعمق هذه التجربة الرائدة أن يكتم إعجابه بها ، وإلا اتُهم في جوهر إنسانيته

هنا كانت بداية حكم القانون وهنا اكتُشف القانون . فالقانون يعلو ولا يُعلى عليه ، سواء على صعيد عالم الأشياء والظواهر الطبيعية ، أو على صعيد عالم الإنسان والظواهر الإجتماعية . وهي الفكرة التي تدل على الفرق الجوهري بين العلم والأسطورة، بين الإستبداد والديمقراطية، ولم يتحرر الإنسان إلا يوم أن اعترف أنه خاضع لحكم القانون . فرغم أنه حر فإنه يعلم أن حريته ليست مطلقة لأن عليه الآن سيداً هو القانون . يقول أرسطو : « القانون له قوة الإلزام ، وهو في الوقت ذاته ، أمر حكيم ناجم عن الحزم والتعقل . وحيثما نشتكي من [وجود] أشخاص يعارضون رغباتنا وميولنا ، حتى لو كانت معارضتهم على حق ، فإننا لا نشعر بأي غضاضة عندما يجبرنا القانون على انتهاج الصواب[١] ، وهكذا فإن من أكبر الأسباب التي جعلت اليونان ذوي خطر في التاريخ ورفعتهم إلى أعلى المراتب هو أنهم ـ على قدر ما وصل إليه علمنا ـ كانوا أول من اعترف بخضوع الإنسان لحكم القانون وبحقه في البحث والتفكير ، وفي اختيار الحكم الذي يرتضيه .

عصر برقليس

إن الفترة التي نتحدث عنها الآن ، وهي لا تكاد تزيد عن نصف قرن ، كانت من أخصب فترات التاريخ . لقد كان العالم اليوناني كله يتحرك إلى الأمام بسرعة مذهلة ، جارفاً في طريقه كل ما يعترضه كالتيار المندفع . وما أكثر ما تحقق في هذه الحقبة التي ليست شيئاً مذكوراً في مقياس التاريخ . لقد كان اليونان

(١) نقلاً عن الفرد زيمرن : الحياة العامة اليونانية، صفحة ١٤٤ .

شاعرين بأنفسهم وعلى وعي تام بتفوقهم النوعي ، وأقصد باليونان هنا النخبة لا أفراد الشعب بل نخبة النخبة التي تجسدت في صولون أولاً ثم في أقلستنيز وهي الآن تتجسد في برقليس Périclès (٤٩٩ ـ ٤٢٩ ق . م) ، الذي طغت شهرته على زمانه حتى سُمي عصره عصر برقليس . لقد أدركوا أنهم يعيشون في مجتمع عظيم وفي عصرٍ عظيم . لقد كانوا في دهرهم أعجوبة الدهر . لقد كانوا حملة لواء الحضارة ورواد الجنس البشري ، وكانت مؤاخاتهم والإتصال بهم أسمى ما يمكن أو يوهبَ إنسان . لم يكن الإنضمام إلى دائرة نفوذهم قيداً بل هو ميزة وأيٌّ ميزة ! لقد أدركوا أن أنظمتهم السياسية فريدة رائعة ، ورأى فيها هيرودوتس وتوقيديدس وأفلاطون وأرسطو النظم التي ينبغي أن تكون قاعدة الحياة السياسية ، وإن عدم الأخذ بها إنما هو شذوذ ونشاز ، فهي الأساس الذي قام عليه شعورهم وتفكيرهم في الأمور السياسية ، وبذكائهم وتأثيرهم صيغت آراء المواطن الغربي في السياسة ونظام الحكم .

أجل لقد كانت أثينا في عصر برقليس في قمة الشعور بالذات والإيمان بالذات ، فكان كل شيء طوع يديها . فحيثما نظر الناس من حولهم كانوا يرون إمكانيات مثيرة وتحديات واعدة . هذا من الوجهة السياسية ، وأما من الوجهة الفكرية ، فكانت دنيا التفكير والعلم بأكملها آخذة في التفتح . لقد انتهت ببرقليس القيادة السياسية[1] وبدأت القيادة الفكرية ، فلعله كان مكتوباً لليونان ألا تجتمع فيها القيادتان في وقتٍ واحد . لقد كان برقليس ثالث ثلاثة صنعوا مجد أثينا وثبتوا دعائمها . لقد كان هذا المجد مجداً سياسياً أولاً أعقبه مجد فكري . فالقيادة السياسية مكّنت للقيادة الفكرية ، ثم ولّت إلى غير رجعة . فكأن القيادة الفكرية نمت على ضفاف القيادة السياسية ، وقبل أن تجف ينابيع هذه الأخيرة كانت القيادة العقلية قد ضربت جذورها في الأرض ونمت وربت وسمقت كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ، لقد غابت القيادة السياسية التي كانت دليل القيادة العقلية وسنداً لها ، فإذا غاب الدليل غاب المدلول وإذا انعدم السند انعدم المسنود . فكأن القيادة العقلية في هذه الحالة هي ظل للقيادة السياسية ، أو هي

---

(١) هذا على وجه العموم . والحق، إنّهالم تنته ، فقد ظلّت أثينا تقذف بعد برقليس بالقادة السياسيين وهم على الأقل رؤساء الأحزاب فيها ، ولكنهم لم يكونوا في معدن بريقليس ، بل لقد كانوا دونه منزلة وأقل بريقاً . وقد ذكرهم أرسطو في كتابه نظام الأثينيين صفحة ٩٧ ـ ٩٨ .

الرمق الأخير لها . ولعل هذا ما يفسر ما ذكرناه في فصل سابق من أن الفلسفة كانت تحية الوداع الأخيرة ألقتها اليونان وهي تعود أدراجها إلى النفق المظلم الذي خرجت منه . وبعبارةٍ أخرى ، لقد كانت الموهبة هي الخبز اليومي لأثينا . وقد برزت هذه الموهبة في إصلاحات سياسية أولاً ، وكلما مات سيد قام سيد حتى أتت على آخر ما في جعبتها ، ولما أنهكها الإصلاح السياسي غرقت في الأحلام الطوباوية والميتافيزيقية . لقد كان برقليس آخر الرعيل الكبير ، أي آخر رجل قد قذفت به أثينا على الصعيد السياسي ثم بدا بعده الشطط العقلي . الموهبة هي الموهبة ، فإذا سُدَّ أمامها طريق شقت لنفسها غير طريق . وهكذا حتى يجف الضرع وينضب المعين .

* * *

يقول شلي Shelley : « إن الفترة الواقعة بين مولد برقليس وموت أرسطو تُعد بلا شك أهم فترة في تاريخ العالم كله ، سواء نظرنا إليها من حيث هي ذاتها ، أو من حيث أثرها في مصائر الإنسان المتحضر من بعدها »[1] . وكانت أثينا هي المسيطرة على هذه الفترة ، وقد نالت ولاء معظم المدن الإيجية فأمدتها هذه المدن بالأموال لأنها قادتها في إنقاذ بلاد اليونان من الغزو الأجنبي . وكان برقليس من أهم أبطال هذه الفترة ورأسها المحرك . لقد كان صاحب السلطة العليا على جميع قوى أثينا المادية والروحية في إبان عصر عظمتها ومجدها . كان والده زانثيبوس Xanthippos ممن حاربوا في سلاميس ، وقد تولى قيادة الأسطول الأثيني في معركة ميكالي ، واسترد مضيق الهلسبونت Hellespont (الدردنيل حالياً) لبلاد اليونان . كما أن أمه أغارستي Agariste هي حفيدة المصلح العظيم إقلستنيز الذي تحدثنا عنه قبل قليل . وكان جسمه كاملاً سوياً في كل شيء إلا رأسه فقد كان طويلاً بعض الطول غير متناسب مع بدنه . وكثيراً ما سخر نقاده من هذا الطول . تلقى على فيثاغوراس الموسيقي والأدب واستمع إلى محاضرات زينون الإيلي في أثينا ، ثم أصبح تلميذاً وصديقاً للفيلسوف أنكساغوراس . فهو إذن ذو ثقافة عالية ، جمع في ذهنه واستخدم في سياسته كل نواحي الحضار الأثينية الاقتصادية والعسكرية والأدبية والفنية والفلسفية[2] .

' ديورانت : قصة الحضارة ٧ / ٦ .

حة ١١ .

انضم في بداية حياته السياسية إلى حزب الديموس (الشعب) أي سكان أثينا الأحرار . كان رجلاً شجاعاً متروياً لا يقدم على أي عمل سياسي قبل أن يستعد له أتم استعداد ، وكان لا يتكلم إلا قليلاً ولا يطيل الكلام إلا في المناسبات التاريخية العظيمة . وكانوا يسمونه **الأولمبي** ويصفونه بالفصيح اللسن الذي لم تسمع أثينا قبله مثل فصاحته في قوتها وعظيم تأثيرها . ومما يدلنا على عظمته وعلى عظمة الشعب الذي أنجبه أنه ظل خلال ثلاثين عاماً أو نحوها (٤٦٧ ـ ٤٢٨) موضع ثقة الأثينيين الذين كانوا ينتخبونه ويجددون انتخابه المرة بعد المرة ليكون واحداً من الأستراتجوي أي القادة العشرة . وكان بقاؤه في منصبه طوال هذه المدة مما جعله صاحب السلطة العليا في المجلس العسكري خاصة وشؤون المدينة عامة . واجتمعت لأثينا على عهده مزايا الحكم الأرستقراطي والدكتاتوري دون أن تفقد شيئاً من مزايا الديمقراطية . لقد جمعت المجد من أطرافه وأوتيت من كل شيء ودان لها كل شيء . شعبٌ عظيم وقائد عظيم ، فانتظر النبأ العظيم !! .

وهكذا ظلت أثينا تعظُم وترقى شيئاً فشيئاً مع الديمقراطية. وفي هذه الأثناء آلت زعامة الحزب الديمقراطي إلى أفيالتس Ephialtes وهو رجل قد يدهش القارىء إذا قلنا أننا لا نعرف عنه إلا القليل ، مع أن نشاطه عجّل في تغيير مجرى تاريخ أثينا . كان أفيالتس هذا رجلاً فقيراً ولكنه رجل مستقيم اشتهر بالعدل والحزم والبعد عن الفساد كما يقول أرسطو(١) . هاجم مجلس الأريوباغوس هجوماً عنيفاً لإستئثاره بالحكم بعد الحروب الميدية ، أي بعد موقعة سلامين وبلاتيا ـ من غير أن ينال هذا السلطان بقرار من الشعب ، ووجه تهماً شنيعة للكثيرين من أعضائه ، بل أمر بإعدام بعضهم وحمل الجمعية على أن توافق على إلغاء ما كان باقياً للأريوباغوس من سلطة إلغاءً يكاد يكون تاماً . غير أن المحافظين من أهل ذلك الوقت نقموا عليه وحاولوا بشتى الطرق إغراءه ليثنوه عن تنفيذ مشاريعه الإصلاحية ، ولما عجزوا عن شراء ضميره ائتمروا به ليقتلوه . ثم اختفى أفيالتس بعد ذلك بزمنٍ قليل . فقد اغتاله أرستيديكوس التنجري . وكان ذلك سنة ٤٦١ ق . م . وانتقلت بعد موته رياسة الحزب الديمقراطي إلى برقليس .

---

(١) طه حسين : نظام الأثينيين، صفحة ٩١ .

وواصل برقليس سياسة أفيالتس ، فنقل إلى المحاكم الشعبية ما كان للأراخنة وكبار الموظفين من صلاحيات قضائية ، ومنذ ذلك الحين أصبحت الأرخونية ، منصباً إدارياً أكثر منها سياسياً يوجه دفة الحكم أو يفصل في القضايا أو يصدر الأحكام والأوامر . وفي عام ٤٥٧ وسع حق الإنتخاب للأرخونية حتى شمل الطبقة الثالثة من الأهلين ، وكان هذا الحق من قبل مقصوراً على الطبقتين الأوليين : طبقة الأغنياء وطبقة الفرسان . بل لقد حصل على هذا الحق بفضل برقليس أيضاً الطبقة الرابعة ، وهي أحط الطبقات جميعاً . ومن إصلاحات برقليس أيضاً ـ وفي محاولة للحد من سلطان الطبقات الثرية ـ أنه دفع أجوراً للقضاة نظير عملهم في المحاكم فكان أول من أعطى القضاة أجراً . وقد أنكر عليه البعض هذه القاعدة وزعم أن هذه الأجور ستضعف قوة أثينا وستفسد أخلاق أهلها ، ولا نعتقد هذا الرأي لأنه لو صح لقُضي من وقتٍ بعيد على كل دولة تؤجر قضاتها أو محلفيها . ويبدو أن برقليس قرر كذلك مكافأة قليلة لمن ينخرط في سلك الخدمة العسكرية . بل لقد ذهب به الكرم والأريحية إلى حد تخصيص مبلغ أبولتين في العام من مال الدولة لكل مواطن من مواطني أثينا يؤديهما أجراً لحضور ما يُعرض من المسرحيات والألعاب في الأعياد العامة ، وحجته في ذلك أن هذه المسرحيات والألعاب يجب ألا تكون ترفاً تختص به الطبقات العليا والوسطى ، بل يجب أن تشمل جميع الناخبين وترفع مستواهم العقلي بلا تفرقة بين طبقة وأخرى[1] .

ولتنشيط الحركة الاقتصادية في البلاد جعل الدولة تستخدم من الأهلين عدداً كبير لم يكن له نظير في بلاد اليونان من قبل ، فزاد عدد سفن الأسطول وأنشأ دور الصنعة ، وبنى في بيرايوس Pirée مخزناً عظيماً لتجارة الحبوب . وأقنع الجمعية بأن توافق على صرف الأموال اللازمة لبناء أسوار لا يقل طولها عن ثمانية أميال سُميت (الأسوار الطويلة) تصل أثينا بالمرفأ بيرايوس وفالاروم phalerume وقد جعلت هذه الأسوار أثينا ومرفأيها كنفا واحداً حصيناً لا يمكن الوصول إليه في وقت الحرب إلا بطريق البحر الذي يسيطر عليه الأسطول . وللتخفيف من الضغط السكاني على موارد أتيكا الضئيلة ، عمل على نقل جاليات من فقراء المواطنين الأثينيين وإسكانهم في البلاد الأجنبية . كما اهتم أيضاً بتجميل أثينا ،

(١) المصدر السابق ، صفحة ٩٢ ـ ٩٣ .

فوضع منهاجاً ضخماً يرمي إلى الإنتفاع بجهود جميع عباقرة الفن الأثينيين ، ومن بقي فيها ممن لا عمل لهم استخدمه في تزيين الأكروبوليص ، وكان يرجو من ذلك أن يجعل أثينا مركز هيلاس الثقافي ، وأن يعيد بناء الهياكل القديمة التي خربها الفرس[1] . ويقول أفلوطرخس في هذا : « ولقد كانت رغبته وغايته ألا يحرم جمهور الصناع من نصيبهم من الأموال العامة ، على ألا ينالوا نصيبهم هذا وهم متعطلون لا يفعلون شيئاً ، ومن أجل هذا وضع البرنامج الضخم للمنشآت العامة »[2] .

قبيل تولي برقليس السلطة كانت بلاد اليونان قد سجلت ثلاثة انتصارات على الفرس . فقد استمر النزاع بين الفرس واليونان منذ أن فتح قورش إيونيا إلى أن هزم الاسكندر دارا الثالث . فقد طُرد الفرس من إيونيا في عام ٤٧٩ ، ومن البحر الأسود عام ٤٧٨ ، ومن تراقيا سنة ٤٧٥ ، وفي عام ٤٦٨ انتصر أسطول يوناني بقيادة سيمون الأثيني نصراً مؤزراً على الفرس في البر وفي البحر عند مصب نهر يوريميدون جنوبي آسيا الصغرى . وفي ذلك الوقت ألفت المدن اليونانية في آسيا وبحر إيجة اتحاد ديلوس بزعامة أثينا ، وتبرعت كلها بمقدار من المال أودع في هيكل أبولون في جزيرة ديلوس المقدسة[3] . وقدمت أثينا لهذا الاتحاد السفن بدلاً من المال ، وسرعان ما انعقدت لها ألوية الرياسة بفضل قوتها البحرية ، وسرعان ما تحول الإتحاد إلى امبراطورية أثينية . وإلى جانب هذا كانت أثينا تتمتع بمزايا عظيمة لا تقدر بثمن ، وهي مستمدة من استقامتها وأساليبها المبنية على الإدراك السليم . هذا فضلاً عن الإشعاع العقلي والتألق الفني والعمارة وصناعة الخزف وكتابة المسرحيات على اختلاف أشكالها . هكذا كان روح عصر برقليس الذي كان فجره قد أخذ يبزغ ، لا سيما إذا تذكرنا أنه كان غارقاً في أشعار هوميروس الخالدة . ولقد أدى التحالف الإغريقي واجبه كاملاً بإبعاد الفرس عن أوروبا وتحطيم قوتهم البحرية . وقد أبدت أثينا كفاية وجدارة فائقتين بوجهٍ عام في إدارة الحلف ، وسرت الروح الأمبراطورية إلى المواطنين الأثينيين ، كما تدفقت الأموال على أثينا لمكان سياسة برقليس في التعمير . لقد كان من خطة برقليس جعل أثينا حاضرة العالم الإغريقي ومركز الإشعاع الفكري والفني فيه . وتم له ما أراد .

(١) ول ديورانت : قصة الحضارة ٧ / ١٣ ـ ١٤ .
(٢) المصدر السابق، صفحة ١٤ ـ ١٥ .
(٣) نقلاً عن المصدر السابق، صفحة ١٥ ـ ١٦ .

هذا بعض منجزات برقليس ومشاريعه الإصلاحية . وقد كانت هذه المشاريع تحتاج إلى تمويل . والمال غير متوفر لديه . فخير وسيلة للحصول عليه هو أن يمد يده إلى ما تجمع من مال في خزانة حلف ديلوس واستخدام ما يفيض عن حاجات الدفاع المشترك في تجميل المدينة التي يرى برقليس أنها هي العاصمة الشرعية للأمبراطورية الجديدة . هذا ما اقترحه برقليسْ بحجة أن ديلوس غير مأمونة ، وقد ظل هذا المال فيها زمناً طويلاً لا يُنتفع منه بشيء ، فما يعود على حاضرة الحلف يرتد على الحلف[1] .

وترددت عواطف برقليس بين الأدب والفن والفلسفة ، فكان يناصرها جميعاً ويشجع أصحابها . ولعله كان يصعب عليه أن يقول أي الرجلين يحب أكثر من الآخر : فيدياس أو انكساغوراس . وكان يُكن لأنكساغوراس منتهى الإجلال والإعجاب . ولعل هذا الأخير هو الذي دفع برقليس إلى شؤون السياسة والحكم . ويعتقد أفلوطرخس أن اتصال برقليس الطويل الأمد بأنكساغوراس هو الذي أفاد منه سمو القصد وقوة اللغة ، التي سمت كثيراً على كلام الغوغاء وما فيه من سخف حقير دني ، هذا فضلاً عما أفاده من هدوء واطمئنان ووقار في جميع حركاته ، وثبات لا يتزعزع قط مهما تكن الظروف حوله في أثناء خطبه[2] .

وقد لا يصدق الإنسان لأول وهلة أن هذا الرجل الكبير ، هذا « الأولمبي » الصارم ، القوي في كل شيء ، يمكن أن يخضع للمرأة وأن يكون أسيراً لها إلى حد التفريط في مصالح البلاد وشؤون الحكم . إن سيطرته على نفسه كانت تدفعه إلى مقاومة حساسيته الرقيقة ، على حين أن متاعب المنصب قد عززت فيه الحنين إلى رقة الأنوثة حتى صرعته هذه الأنوثة وأصابت منه مقتلاً . فقد كان في أثينا على عهده امرأة مستنيرة من ملطية راجحة العقل بارعة الجمال ؛ وكان بيتها مجمعاً للفلاسفة والكتّاب والمفكرين المشهورين . ولولا أنها أصبحت عشيقة برقليس فلربما لم يسمع بها أحد . وهكذا يُخلد التاريخ كثيراً من التافهين . وما أكثر التافهين الذين شغلوا صفحاتٍ طويلة من التاريخ ! وما أكثر العظماء الذين صمت عنهم التاريخ ! وكان برقليس حين عرف أسبازيا Aspasie قد مضى على

---

(١) المصدر السابق، صفحة ٦ ـ ٧ .

(٢) المصدر السابق، صفحة ١٦ .

زواجه زمن لا يستهان به . لقد كانت امرأةً تأبى العزلة التي يفرضها الزواج على الحرائر في أثينا ، وكانت تؤثر حياة الإختلاط الجنسي غير المشروع ، لتستمتع بحرية الحركة وبالحرية الجنسية اللتين يستمتع بهما الرجال ، وأن تشترك معهم في الأعمال الثقافية . إنها ند للرجل ولا تقل توقاً إلى المتعة والجنس من الرجل . وكان الناس يتحدثون عن قدمها الصغيرة المقوسة إلى أعلى وعن « صوتها الفضي وشعرها الذهبي » ، لكن أرسطوفانس وهو عدو سياسي لدود لبرقليس ـ لا يتردد في وصفها بأنها عاهرة من ملطية أنشأت بيتاً فخماً للدعارة في ميغارا ثم جاءت في ذلك الوقت ببعض فتياتها إلى أثينا . ويزعم كاتبنا هذا ـ وهو كاتب الملاهي العظيم ـ أن النزاع الذي نشب بين أثينا وميغارا والذي عجّل بإشعال نار حرب البيلوبونيزوس إنما يرجع إلى أسبازيا التي أقنعت برقليس بأن يثأر لها من الميغازيين الذين اختطفوا بعض فتياتها ، ولا ننسَ أن أرسطوفانس كان كاتباً فناناً ولم يكن مؤرخاً .لذلك لا ينبغي حمل كلامه على محمل الجد بل يجب تناوله بمنتهى الحذر والتحرز[1] .

لقد كانت حرائر أثينا جاهلات قارات في بيوتهن لا يبرحنها إلا لضرورة حازبة . فإنما التعليم والخروج من البيت وغشيان الأسواق والأماكن العامة للرجال وللقينات والماجنات وبنات الهوى ، وأما الحرة فتقرُّ في بيتها وترعى أولادها وتدبر شؤون زوجها ومنزلها . فلما وصلت أسبازيا إلى أثينا ـ وكان ذلك سنة ٤٥٠ ـ أنشأت فيها مدرسة لتعليم البلاغة والفلسفة ، وأخذت تشجع بجرأة عظيمة خروج النساء من عزلتهن وتعليمهن واختلاطهن بالرجال وتربيتهن تربية عالية . ولقيت هذه الدعوة صدى طيباً في أثينا ، والتحقت بالمدرسة كثيرات من بنات الطبقات العليا ، وأرسل العديد من الأزواج زوجاتهن ليدرسن فيها . وكان الرجال أيضاً يستمعون إلى محاضراتها ، ومن بينهم برقليس وسقراط وأنكساغوراس ويوربيدس والقبيادس وفدياس . . . ويقول سقراط أنه تعلم فيها فنَّ البلاغة[2] .

وأخيراً سنحت الفرصة لبرقليس ليحقق حلمه الكبير وينفرد بالحسناء التي ملكت عليه لُبَّه ، فقد اكتشف ـ ويا لروعة ما اكتشف ! أن زوجه قد أحبَّت رجلا

---

(١) المصدر السابق، صفحة ١٧ .
(٢) المصدر السابق، صفحة ١٧ .

آخر . فأقرّها على هواها ولم ينكر عليها أن تستمتع بحريتها لقاء استمتاعه هو بحريته . وتعاهدا على ذلك ، بل إن زوجه اتخذت لها زوجاً ثالثاً أيضاً . والآن وقد فُتح له الطريق جاء بأسبازيا إلى بيته . لقد هام بها برقليس وشغفته حباً ، فكان لا يغادر منزله ولا يعود إليه دون أن يطبع قبلة على خديها . ثم أوصى بكل ما يملك إلى ولدها منه . ومنذ ذلك الوقت لزم داره وانقطع عن الحياة الإجتماعية كلها ، وقلما كان يخرج إلى أي مكانٍ غير ساحة المدينة أو قاعة المجلس ، حتى ضجَّ أهل أثينا بالشكوى فلم يأبه لهم . وأما أسبازيا فقد جعلت من بيته منتدى يشبه منتديات باريس في القرن الثامن عشر ، تناقَش فيه العلوم والفنون والآداب والفلسفة وشؤون السياسة والحكم . وكان سقراط يعجب بفصاحتها ويعزو إليها فضل إنشاء خطبة التأبين المشهورة التي ألقاها برقليس بعد الخسائر الأولى التي مُني بها في حرب البيلوبونيزوس . وما لبثت أسبازيا أن أصبحت ملكة أثينا غير المتوجة تشيع فيها آخر أنماط الحياة الإجتماعية ، وعنها تأخذ نساء المدينة « مُثل الحرية العقلية والأخلاقية التي يتطلعنَّ إليها والتي تثير حماستهن »[1] .

وكان هذا كله صدمة قوية لمشاعر المحافظين ، فأخذوا يندون ببرقليس ويتهمونه بأنه جعل من داره بيتاً من بيوت الفساد وبأن بينه وبين زوجة ابنه علاقة غير شريفة . وأخذوا منذ ذلك الوقت يكيدون لأصدقائه ومحبيه . فاتهموا فدياس بالإختلاس ، وأنكساغوراس بالإلحاد ، وأسبازيا بعدم الخضوع لأوامر الدين . وهجاها الشعراء وأطلقوا عليها بلغة يونانية صريحة اسم العاهر . . . وقُدمت للمحاكمة ، ونُظرت قضيتها أمام خمسمئة وألف من القضاة ، ودافع عنها برقليس بكل ما أُوتي من قوة الفصاحة والبيان ، بل لقد اشتركت دموعه نفسها في هذا الدفاع؛ ورُفضت الدعوى أخيراً . ومنذ سنة ٤٣٢ ـ أي قبل وفاته بثلاثة أعوام ـ بدأ يفقد سيطرته على الشعب الأثيني . لقد انتهى برقليس ، لقد سقط الرجل الكبير ، لقد قضت عليه أسبازيا كما قضت ديانيرا Deianeira زوجة هرقل على هرقل عندما قدمت له ثوباً مسموماً[2] .

لقد بدأ بطلاً وانتهى قزماً ، فيا لعبرة التاريخ ويا لسخرية التاريخ .

---

(١) المصدر السابق،صفحة ١٨ ـ ١٩ .

(٢) المصدر السابق،صفحة ١٩ .

ومهما قيل في حق الرجل الذي كبا في السنين الأخيرة من حياته فإن الديمقراطية التي كانت قائمة تحت سلطانه تظل أعظم مفاخر عصره . وحسبها مجداً أنها أنزلت الخليلة من عليائها وقدمتها للمحاكمة وجعلت من الرجل الكبير يذرف الدموع دفاعاً عنها ، إن هذه الديمقراطية تجربة فذة مريرة من تجارب تاريخ الحكم .

إن المجتمع الأثيني في عصر برقليس هو أروع مثل على التنظيم الإجتماعي عُرف في التاريخ حتى الآن . فقد استطاعت أثينا أن تستخلص من أعضائه كل ما يكمن فيهم من قوى وقدرات وميزات . ويكفي أن نلاحظ العدد الفذ الذي أخرجته أثينا من الشخصيات الممتازة في ذلك العصر ، فالمستوى الروحي والعقلي لهذه الجماعة كان حقاً مستوى مرتفعاً يثير الدهشة .

لقد أصبحت أثينا الآن امبراطورية ، ولم يكن عليها إلا أن تحتفظ بما كسبته لتُبقي على المجهودات التي بذلها آباؤها . إن أسباب الحضارة الآن بين يديها ، وأوتيت من كل شيء بوسائل قليلة ـ رغم حكم الطغاة لها واعتمادها على موارد أتيكا الضئيلة . كل شيء الآن طوع بنانها ، وهي في فيض من الحرية والقوة والثقة بالنفس بحيث إن العالم كله في وسعها أن تشركه في مشروعاتها ! لقد كانت أثينا من قبل عظيمة ، ولكنها الآن في عصر برقليس أكثر عظمة . فالأثينيون يجب أن يضربوا للعالم مثلاً على الولاء للمدينة والتفاني في خدمة المدينة ، يجب أن تكون المدينة رائدة للعالم في كل شيء وأن تقوده إلى الحضارة .

لقد كانت أثينا مجرد مدينة ريفية إذا ما قورنت بالمراكز الصناعية الحديثة ، أو حتى بالمراكز الهلينية كالاسكندرية في العصر القديم ، أو البندقية في العصور الوسطى لكنها لم تتوقف عن الحركة . وقد كانت في القرن الخامس تتقدم بسرعة مذهلة لم يحدث أن تقدمت بها أي جماعة سبقتها أو عاصرتها . فإذا كنتَ تبحث عن الدروس والعِبر فدونك هذا الدرس الذي يجب أن تأخذه عن اليونان . وبذلك جعلت أثينا من نفسها شيئاً فشيئاً مدرسة لليونان . لقد سارت هذه العملية بالتدريج سيراً وئيداً وفرضت أثينا نفسها بحكمة وأناة ، حتى إنه لم يكن سهلاً على حلفائها أن يجدوا ما يشكون منه . وهكذا أخذ النفوذ الأثيني بفضل

برقليس يمتد إلى ما وراء بحر إيجه ويخترق الحدود الأمبراطورية . وكان تجارها ينتقلون شرقاً وغرباً بحثاً عن البضائع التي كانوا يدفعون ثمنها نقوداً أو خزفاً . فذلك كان أيضاً جزءاً من رسالة الأمبراطورية : الاختلاط الحر والتبادل الحر ، وتقديم خير ما عندها للرجال والشعوب . فأنشأت صداقات وأبرمت معاهدات سواء مع اليونان أو مع البرابرة . لقد كانت الحرب سجالاً بينها وبين فارس فلا تكاد نارها تخبو وتنطفي حتى تتقد من جديد . لقد أصبحت أثينا الآن امبراطورية كفارس وآشور ، ولا عليها أن تأخذ الجزية ممن دونها من الدول . لقد كانت في حاجة إليها لإنجاز الأعمال التي كان عليها تنفيذها . لقد استيقظت أثينا لتجد نفسها امبراطورية ، فأصرت على تحمل تبعاتها ، وعلى هذا شرع برقليس في وضع أول نظام امبراطوري .

لقد رأى الأثيني مدن أتيكا تحترق ، والأكروبوليص خراباً بلقعاً ، والأرض المقدسة تدوسها أقدام الغزاة ، ومع ذلك فقد حصلت المعجزة وخرجت أثينا منتصرة ، كما عملت أكثر من غيرها على إنقاذ بلاد الإغريق من مصير أسود قاتم . إن مثل هذا النصر الذي يناله الناس لا بحسن الحظ بل بحسن الإدراك ، وبضبط النفس لا بالتسلط وفرض الذات ، كان بطبيعة الحال حافزاً على بذل مجهودٍ أكبر . ألا بالأفكار الصلبة وبنظام الأفكار ومغامرات الأفكارات وشجن الأفكار بالأفكار يكون النصر ويحسن البلاء . ولطالما امتلأ الأثينيون بهذه الأفكار ولا غرو ، فهم قادة ورادة وطلائع في دنيا الأفكار وعالم الأفكار ! لقد كان النظام الديمقراطي لدولة المدينة في أساس هذا النصر وهذا البلاء ، لقد استخلص القوى والإمكانات وصقل المواهب ونمّى العقول وهذب الميول وفجّر الطاقات ووسع الآمال والتطلعات . لقد تبدل القوم غير القوم ، ولولا دولة المدينة ونظامها الديمقراطي الحر لظل القوم هم القوم .

إن أكبر ميراث تركه اليونان للعالم الذي أتى من بعدهم كما أسلفنا هو دولة المدينة في مضمونها الجديد . لقد كانت المحور الروحي والوحي في كل أعمالهم التي تميزوا بها والتي بلغت أقصاها فيما كتبوه من أدبٍ وفلسفة وفيما تركوه من فنون ونقوش وآثار وإنجازات في القرن الخامس في أثينا لم يرَ العالم لها مثيلاً من قبل . فقد اتخذ الإغريق لهم شكلاً من أشكال الحكم يترجم في العادة ترجمة غير دقيقة بكلمة (دولة المدينة ، بولص Polis) وهي التي كانت في الأصل مجتمعاً محلياً للأمن المشترك ، ثم أصبحت مركزاً لحياة الإنسان الإنسانية والعقلية والخلقية ،

والجمالية والإجتماعية والسياسية والعملية ، تنميها وتزيد في ثرائها مجموعة من الأنظمة والقوانين والمُثل على وجه لم يحققه أي نوعٍ من المجتمعات من قبل ومن بعد . لقد كانت هناك في كل مكان أشكال أخرىً مستقرة للمجتمع السياسي ، أما دولة المدينة فقد كانت الوسيلة المثلى التي حاول بها الإغريقي أن يجعل حياة الفرد والمجتمع كلتيهما أسمى قدراً مما كانتا عليه من قبل . إن ما كان يضعه الإغريقي في طليعة مكتشفات أهل وطنه أنهم توصلوا إلى أحسن أسلوب من أساليب العيش . وهذا ما كان يراه أرسطو ، لأن قوله المأثور : « الإنسان حيوان سياسي أو مدني » معناه أن الإنسان حيوان يمتاز بسكناه البولص . فأنت إن لم تكن كذلك كنت أقل من الإنسان في أحسن حالاته وأخصها به . وأما البرابرة فلم يكونوا كذلك ، وهذا هو الفرق العظيم بين اليوناني والبربري .

إن اليوناني وإن كان من أنصار المذهب الفردي المتحمسين إلا أنه كان يحب أن يعمل مع الجماعة وللجماعة . فقد كان يريد أن يشترك فيما كان يدور حوله كما أنه كان يحب المنافسة حباً شديداً . وقد أتاح له نظامه الديمقراطي الحر الفريد ذلك على أحسن وجه ، فقد أعطى هذا النظام كل مواطن دوراً يضطلع به في الدولة . هذا ما بدَّل أثينا في أقل من قرن من بولص من الدرجة الثانية أو الثالثة قد مزقها النزاع الإقتصادي والسياسي إلى مدينة دولية رائدة مزدهرة ذات اشعاع كبير وعاصمة لأمبراطورية متسعة الأكناف مترامية الأطراف . فقد جعل الإدراك السليم السائد في أثينا ـ وهو الذي بلغ حدالعبقرية عند صولون وبيزيسطراطوس وأقلستنيز ـ جعل الطبقة الأرستقراطية الأثينية عامة تشترك في النظام الديمقراطي قلباً وقالباً حين كانت لا تزال في عنفون شبابها . . . وقد جاءت أغلبية رجال الحكم الأثينيين في الجيلين التاليين من أرقى العائلات وأكرمهم . وأبرز مثل على ذلك برقليس وما أدراك ما برقليس ! فالثقافة الأثينية في القرن الخامس كان لها رصانة المجتمع البرجوازي السليم(١) وتماسكه فضلاً عن رقة الأرستقراطية ، ورقيها وبعدها عن الغرض

لقد كان الإغريق يحسنون الظن بأنفسهم دائماً حين ينظرون إلى البرابرة . وقد وقرت هذه الفكرة في أذهانهم ، فكانوا يرون دائماً أن نظمهم الحرة أفضل

---

(١) انظر كيتو : الإغريق ١٣٤ ـ ١٣٩ .

كثيراً من الإستبداد الشرقي ، وقد أثبتت الأيام أنهم كانوا على حق . فبينما كان العاهل الآسيوي يسوق الناس إلى طاعته والإنصياع لأوامره بالتعذيب والتنكيل والضرب بالسياط ، كان الإغريق يتخذون قراراتهم بالحوار والإقناع والمناقشة ، ثم يتصرفون تصرف رجل واحد ، وبذلك انتصروا في مواطن كثيرة . فالنصر معقود دائماً للحرية والديمقراطية أكثر منه لحكم الطغيان والدكتاتورية[1] .

وكان هناك ما يبرر شعور أثينا بالزهو والفخار . فقد سمع الناس في أثينا من آبائهم كيف حرر صولون أرض أتيكا من استبداد الأغنياء وأرسى قواعد الديمقراطية . لقد رأوا بأنفسهم بيزسطراطوس ـ وهو الطاغية المعروف ـ يقرض الفقراء بذور القمح ، ويجعل بالتدريج من أثينا الهادئة مدينة تستحق أن تكون قدوة وأسوة لغيرها من البلاد اليونانية . كما شهدوا أيضاً إنهيار الدكتاتورية ووضع دستورٍ جديد حر على يد أقلستنيز . وقد حدثت في أثينا منازعات مريرة ، كما بلغ الشعور الحزبي فيها غاية الشدة ، واتخذ شكلاً مسرحياً في القصة التي رواها بعضهم عن المؤرخ اليوناني العتيد هيرودوتس، وخلاصتها أن أرستيدس Aristide العظيم ـ وهو زعيم حزبي منفي ـ قد انتقل ليلاً من مقره المؤقت في إيجينا إلى سلاميس قبل المعركة البحرية مباشرة بين الفرس واليونان واستدعى من فوره تيمستوقليس من مجلس الحرب وقال له : « كنا ـ أنا وأنت ـ [قبل اليوم] عدوين لدودين ، وأما الآن فالمنافسة بيننا قائمة على أيُّنا يمكنه أن يسدي إلى أثينا أعظم خدمة . ولقد تسربت من بين الفرس لأقول لك أن أسطول الفرس يحيط بنا فادخل المجلس وأخبره [بذلك] » . فقال تيمستوقليس : « الحمد لله ، بل ادخل أنت وقل لهم ذلك فسيصدقونك »[2] . لقد رأى الأثيني ديمقراطيته الناشئة تثبت أمام هذه المنازعات الحزبية من غير أن تنال منها ، كما رأى جيش أثينا منتصراً في ماراثون ، ثم رأى مدن أتيكا تحترق والأكروبوليص يُدمَّر ، ومع ذلك فما وهن وما استكان وكان النصر حليفه دائماً . . . أفلا يحق له بعد ذلك أن يشعر بالعزة والأَنَفَة ولمدينته أن تتباهى وترفل بالمجد والفخار ؟

---

(١) المصدر السابق، صفحة ١٤٩ .

(٢) المصدر السابق، صفحة ١٥٠ .

وحتى الطغيان قد صقلته الديمقراطية الأثينية ، بحيث أصبح أقرب إلى حكم المستبد العادل ! ولذلك ظل الإغريق يذكرون بالحمد ما كانوا مدينين به للحكام المستبدين . فهذا ديونيسيوس طاغية سراقوصة يُنحي باللائمة على أحد أبنائه لسلوكه الوقح إزاء أحد المواطنين . كما أن بيرسطراطوس كان نموذجاً طيباً للحاكم المستبد . فقد عمل على رفع أثينا من مدينة ريفية-صغيرة إلى مدينة ذات أهمية دولية فضلاً عن أنه قد حافظ على دستور صولون لم يغير فيه شيئاً . وهكذا فرغم عيوب الحكم الاستبدادي فقد كان له فضل كبير على أثينا . فقد تلقى الأثينيون تدريباً في إدارة شؤونهم الخاصة مدة جيل من الزمان تحت الوصاية الرشيدة . وقد ظلت أمور أثينا تسير على ما يرام بعد سقوط الطغيان مع أن الذي كان متوقعاً هو حدوث رد فعل أرستقراطي ولكن رد الفعل هذا لم يحدث[1] .

من الطبيعي أن يأخذ حكم الطغيان في أثينا على الأقل في الإنحطاط . فإن قليلاً من الحكومات الاستبدادية استطاعت أن تعمر أكثر من الجيل الثالث . فقد ظل صعباً على الإغريقي ألا يتولى هو بنفسه إدارة شؤونه العامة . لقد كان يؤمن بنوعٍ غريب غير مألوف لنا من الديمقراطية ، شعاره « أن تحكُم مرة وأن تُحكَم مرة أخرى »[2] . أجل إن الديمقراطية كما كان يفهمها الإغريقي كانت نظاماً للحكم لا يعرفه العالَم الحديث ، بل لا يمكن أن يعرفه . فهو لا يريد أن يُمثله أحد ولا أن يحكمه أحد . إنه يريد أن يحكم نفسه بنفسه ، وقد كافح طويلاً لإلغاء أي نوعٍ من أنواع الحكم التمثيلي في بلاده أ إنه يستطيع أن يفاخر الآخرين بأن مدينته تفعلُ ما تفعله لا بواسطة حكام يعملون نيابة عنه ، بل بواسطة جميع الأثينيين العاديين في مجلسهم الأعلى .

وقد كان المجلس أسمى السلطات كلها ، وكان لا يدخر وسعاً للإحتفاظ بمكانته لا على الورق والمدونات الرسمية والنصوص القانونية فقط ، بل في وقائع حياة الناس العملية . وقد كان يتألف من كل أثيني بالغ تعترف وحدته الإدارية بشرعيته لم يكن قد سبق له أن حُرم من حقوقه عمداً بسبب جرمٍ خطير .

---

(١) المصدر السابق، صفحة ١٣٥ ـ ١٣٦ .

(٢) المصدر السابق، صفحة ١٦٥ .

وهو يتكوَّن من جميع المواطنين الذكور المقيمين في أتيكا ، إنه الهيئة التشريعية الوحيدة في البلاد ، وكان له حق الرقابة التامة على الإدارة والقضاء . وكان يناقش ويدرس جميع الأعمال التي ستعرض على الشعب ، ولا يمكن أن يمر قرار إلا بعد عرضه على المناقشة . وكان المجلس يجتمع يومياً للنظر في الأعمال العادية ، وكان يجتمع في الهواء الطلق ، ويأتي الأثينيون إليه ليفكروا لا ليتثاءبوا . ويبدأ العمل بعد شروق الشمس وقد يستمر إلى غسق الليل ، وكانت أثينا كلها تهرع إلى المجلس تسمع وتصغي ، وكانت الجلسة تُفتتح بنحر خنزيرٍ باسم زيوس . وقد جرت العادة أن تؤجل الجلسة على الفور إذا ثارت عاصفة أو حدث زلزال أو خسوف أو كسوف ، لأن هذه الظواهر كانت في رأيهم علامة على غضب الآلهة(١) . وكان كل عضو يمكنه أن يخطب إذا استطاع أن يجعل المجلس يصغي إليه . كما يمكنه أن يقترح ما يشاء على ألا يتعدى ضمانات دستورية دقيقة معينة ، غير أن مثل هذه الهيئة الكبيرة كانت تحتاج إلى لجنة لتحضير أعمالها والتصرف في أمورها الهامة العاجلة . وقد كانت هذه اللجنة هي مجلس الخمسمئة (البولية Boule) الذي كان أعضاؤه يُختارون بطريق التصويت السرِّي بمعدلَ خمسين عضواً عن كل قبيلة(٢) .

ولما كان خمسمئة شخص لا يمكن أن يظلوا مجتمعين في جلسة مستمرة ، كما أن عددهم كان أكثر جداً من أن يكون لجنة تنفيذية ذات كفاية ، فقد كان هناك مجلس داخلي (بريتاني Pritany) يظل في جلسة مستمرة عُشر العام ، وهو يتكون بدوره من الخمسين رجلاً المختارين عن كل من القبائل العشر ، وكان أحد هؤلاء يُنتخب بالإقتراع السري كل يوم ليكون الرئيس . وإذا كان هناك اجتماع للمجلس فقد كان يرأسه ، وكان هو يُعَد الرئيس الأسمى للدولة لمدة أربع وعشرين ساعة . وقد شغل سقراط هذا المنصب يوماً كاملاً(٣) . وكان أصحاب المناصب الكهنوتية يُختارون بالقرعة أيضاً(٤) .

---

(١) ول ديورانت ، قصة الحضارة ٦ / ٢٤ .
(٢) المصدر السابق ،صفحة ١٦٣ .
(٣) المصدر السابق صفحة ١٦٣ - ١٦٤ .
(٤) فوستيل دي كولانج : المدينة العتيقة صفحة ٤٤٣ .

لقد كان الإنتخاب يُعد من أقدس مصادر السلطة . ولم يكن يُطلب من أعضاء المجلس ذكاء فائق ولا مواهب فذة ولا تجربة كبيرة . أجل لم يكونوا يطلبون أدلة على الكفاءة أو الموهبة . بل كانوا يتجرون عن نزاهة الرجل وعن أسرته ، وكان يُستبعد إذا لم يكن يتمتع بدرجة كافية من الإحترام . ويرجح دي كولانج أن هذا المجلس لم يكن في الأصل سوى مجمع سدنة النار القديم التابع لكل قبيلة ، أي أعضاء هيئة الموقد السنـويين الذين احتفظوا بعادة تعيينهم بطريقة القرعة . ويُستدل على ذلك بأن هذا المجمع كان يتألف هو أيضاً من خمسين عضواً وهم الذين كانوا يمارسون الوظائف المقدسة ، كل في نوبته ، لكن بعد أن كانوا يتشاورون في مصالح المدينة الدينية ، أصبحوا الآن يقتصرون على مناقشة المصالح السياسية والمدنية(١) .

وكان هناك منصب واحد هام لا يمكن أن يترك لمخاطر الإقتراع ونزوات التصويت وهو قيادة القوات البرية أو البحرية . إذ كان القواد أو أمراء البحر العشرة (الأستراتيغوي Strategoi) يُنتخبون علناً كل سنة . وكان يمكن إعادة انتخابهم مرة أخرى . ولم يكن من غير المألوف أن يكون الأثيني قائداً في معركة وجندياً في معركة تالية(٢) ، فلا حرج على الأثيني القديم أن يكون حاكماً مرة ومحكوماً مرة ، بل هذا ما تقضي به الديمقراطية الأثينية . وجدير بالذكر أن هذه الأعمال جميعاً كان يتولاها الهواة . فالشؤون العامة أسمى من أن تُترك للمحترفين الذين لا همَّ لهم إلا الجمع والكسب . وكان هؤلاء الهواة يشغلون مناصبهم سنة كاملة ، وكانوا إلى جانب ذلك أعضاء في إحدى اللجان ، وذلك لكي يعاونوا أو يراقبوا بعضُهم بعضاً ، وكان بعضهم يُنتخب بالقرعة كالقضاة من قائمة تحتوي على أسماء مختارة من المرشحين(٣) .

ولم تكن وظيفة المجلس مقصورة على مراقبة التشريع والإدارة بل كانت

---

(١) المصدر السابق، صفحة ٤٤٣ ـ ٤٤٤ .

(٢) كيتو : الإغريق، صفحة ١٦٤ ـ ١٦٥ .
الفرد زيمرن : الحياة العامة اليونانية صفحة ١٨٨ .

(٣) محاورات افلاطون : (الترجمة العربية) صفحة ١١٤ . انظر أيضاً كيتو : الإغريق صفحة ١٦٤ - ١٦٦ .

تشمل أيضاً العدالة والقضاء . فكما لم يكن هناك إداريون محترفون كذلك لم يكن هناك قضاة أو محامون محترفون . وكان المحلفون قسماً من المجلس يتراوح عددهم بين ١٠١ ـ ١٠٠١ تبعاً لأهمية القضية . وكان كل من هؤلاء المحلفين من الثقات في القانون وواقع الحياة . وكان على القضاة الذين يتركون مناصبهم أن يقدموا للمجلس تقريراً عن أعمالهم الرسمية ، ولم تكن تنتهي مسؤولياتهم حتى يمروا بهذه المراجعة ، كما لم يكن يسمح لهم بمغادرة أثينا أو ببيع ممتلكاتهم إلا بعد إتمام هذه الإجراءات . وكان لأي مواطن الحق في أن يرفع دعوى على أي مواطن . فإذا كان الذنب مما لم يقرر القانون عقوبة محددة له ، كان على المدعي إذا كسب قضيته أن يقترح العقوبة وعلى المتّهم أن يقترح عقوبة أخرى ، وكان على المحلفين اختيار إحداهما بالتصويت . وهذا ما حصل لسقراط كما ورد في محاورة الدفاع Apologie لأفلاطون . فعندما دينَ سقراطُ طالب الإتهام بإنزال عقوبة الموت فيه ، أما هو فقد اقترح أن يظل أبداً في مجلس الدولة وبالتالي أن يعيش على نفقة الدولة . هذا هو الجزاء الأوفى الذي يرى نفسه جديراً به لقاء ما قدم للدولة من خدمات [1] .

قلنا إن الشؤون العامة في أثينا كان يتولاها الهواة بقدر الإمكان ، أما المحترفون فلم يكن يُترك لهم إلا أضيق مجال ممكن في أعمال الدولة ، بل أن الخبير بالفعل كان عبداً للجميع « سيد القوم خادمهم » كما يقول المثل العربي . وكان كل مواطن إما جندياً أو بحاراً أو مشرِّعاً أو قاضياً أو إدارياً . وقد انتقد سقراط وأفلاطون بالفعل هذا الاستخدام غير المألوف للهواة انتقاداً شديداً ، لا لشيء إلا لأنه يكل مهمة « الفن السياسي » الكبرى ـ وهي الإرتقاء بالناس إلى مستوى أفضل ـ إلى رجال يجهلونها ولا يدرون من أمرها شيئاً .

وكان وراء كراهية الأثينيين للإحتراف اعتقادهم الثابت ـ الذي يكاد يكون نظرية مستقلة في البولص ـ بأن واجب إشتراك المواطن في الوقت الملائم من حياته في جميع شؤون مدينته إنما هو دَيْنٌ واجب الأداء سواء لنفسه أو لمدينته . لقد كان ذلك جزءاً من الحياة المفعمة بالنشاط والحركة ، ولا يتيح مثل هذه الحياة غير

(١) المصدر السابق ،صفحة ١٦٦ .

البولص . فلم يكن الحصول عليها في مقدور الرجل المتوحش الذي إنما يعيش لنفسه فقط ، ولا في مقدور « البربري » المتمدن الذي إنما ألف الحياة في أمبراطورية متسعة الأكناف يحكمها دكتاتور وحاشيته وصنائعه وخدمه . فقد كان حكم الناس لأنفسهم بطريق المناقشة والحوار ، وكذلك رياضة النفس على النظام والمسؤولية الشخصية والإشتراك المباشر في حياة المدينة ، في كل صغيرة وكبيرة ـ لقد كان كل ذلك أنفاس الحياة لمواطني البولص[1] .

كان الأثيني يعشق مدينته إلى حد العبادة ، فمدينته هي المدينة الوحيدة ، وطرقها هي الطرق الوحيدة ، لقد أحب كل حجر وكل جدول ماء ينساب في ثنايا جبالها ، واعتز بكل معبد ومسكن داخل أسوارها ، إن خدمتها عبادة ، والتضحية في سبيلها شرف . لذلك كان الحكم عنده حكم الهواة بأدق معاني هذه الكلمة ، أي الحكم بواسطة أُناس يحبون الحكم والإدارة ويتفانون فيها ، لا لجر منفعة شخصية أو دفع مضرة ، بل ولاءً للمدينة ولما يحدثه هذا الولاء عند صاحبه من الشعور بالغبطة والسعادة عندما يخدم غرضاً من أغراضها . فالمشاركة في الحكم واجب وشرف قد نجد نحن اليوم صعوبة في فهمها ، لأن فهمنا للمدينة اليوم مفهوم نفعي ، بمعنى أننا نريد أن نأخذ » و« نتلقى » من المدينة لا أن « نُعطي » و« نمنح » . لقد كان الأثيني مهتماً ومشغوفاً بها إلى حد شغل كل وقته وجهده ، إنها جزء من الحياة الكاملة التي تفيض بالقوة والفاعلية . لذلك كان طبيعياً ألا يستخدم الأثينيُّ قط الإداريَّ أو القاضي أو المشرعَ المحترف ما دام ذلك ممكناً . لقد كانت البولص نوعاً من « الأسرة الفائقة » ، أو شيئاً من هذا القبيل . فلا معنى للحياة العائلية إلا الإشتراك اشتراكاً مباشراً في شؤون الأسرة ومشاورتها . وهذا ما يفسر لنا أيضاً أن الإغريقي لم يبتكر الحكومة التمثيلية ، إنه لا يريد أن يحكمه أحد حتى ولو كان يونانياً من أبناء جلدته . فليت شعري ! كيف عساه يبتكر شيئاً طالما كافح هو وجاهد في سبيل الغائه والقضاء عليه ؟[2] . لا حكومة في أثينا . وهذا ما يؤكده ثيسيس بقوله : لم تقم في أثينا حكومة بالمعنى الصحيح

---

(١) المصدر السابق، صفحة ١٦٦ ـ ١٦٧ .
(٢) المصدر السابق، صفحة ١٦٧ ـ ١٦٨ .

للكلمة ! .

إن الشعب كله ، سنةً بعد سنة ، وقد ساوى في الخدمة ، هو ملكنا[1] .

وقد كان نظام الحكم عند اليونان مستقراً ، ويبدو أنه حافظ على مستوى من العدالة العامة لم تبلغه حكومات معينة في زماننا . وكيف لا يكون الحال كذلك وقد كانت لكل مواطن أثيني حر تجربة مباشرة في الوظائف المحلية ، وفي المحاكم والإدارات العامة ؟ إنها حقاً تجربة فذة في الحكم الديمقراطي ، غير أنه لا يمكن تكرارها أبداً مرة أخرى إلا إذا نشأت دول مستقلة ، تكون من الصغر والضآلة بحيث يستطيع أن يقطعها الإنسان في يومين مشياً على الأقدام . كما أن الطريقة التي استحث بها الأثينيون رغبتهم في الإشتراك شخصياً اشتراكاً مباشراً في كل ناحية من نواحي الحكم إلى غاية مداها يبدو أن فيها تحدياً مقصوداً لضعف الطبيعة البشرية . فهل يمكن لشعب بأكمله أن يؤتى قسطاً كافياً من الحكمة وضبط النفس لإدارة شؤونه الخاصة إدارة رشيدة ؟ هل يستطيع شعب تصريف شؤون امبراطورية وأموالها الخاصة من غير أن يتطرق إليه الفساد ؟ وهل يستطيع أيضاً توجيه قضايا البلاد السياسية والعسكرية من غير أن يهن أو يستكين ؟ وما هي عوامل الإغراء والخطر التي تهدد الديمقراطية ؟ هي ذي أثينا تمدنا بتجربة ميدانية في الحكم الشعبي .

إن الديمقراطية اليونانية تختلف كثيراً عن الديمقراطية الحديثة من حيث إنها لم تأخذ بمبدأ التمثيل . إن العمل العام الوحيد الذي تقتضيه الديمقراطية الحديثة من مواطنها ، يكاد يكون مقصوراً على التصويت في البرلمان ، ثم يكون الفراق والمفارقة . فلا معنى للديمقراطية مطلقاً إذا لم يكن قوامها التعاون المجدي المستمر بين الحاكم والمحكوم ، بين الشعب وممثليه ، بين المواطنين والمواطنين . هنا لب الخلاف بين الديمقراطية الأثينية وديمقراطياتنا اليوم . إن ديمقراطية دولة المدينة (البولص) تختلف عن الديمقراطية الغربية في أنها تشرك أكبر عدد ممكن من المواطنين في الأعمال العامة . فالأكثرية هنا هي التي تتولى العمل بنفسها ، بينما نجد العكس في الديمقراطية الحديثة حيث إن أقلية ضئيلة جداً هي التي تعمل

(١) نقلاً عن الفرد زيمّرن : الحياة العامة اليونانية ، صفحة ١٨٨ .

للأكثرية ، هذا إن عملت . وما أكثر ما خانت هذه الأقلية المحظوظة تطلعات الأغلبية وخيبت آمالها . ولله در برقليس عندما قال في مرثيته المشهورة : « نحن نسمي دستورنا ديمقراطياً لأن الأعمال ليست في يد الأقلية بل في يد الأكثرية »[1] ، « فإن في الأغلبية يوجد كل شيء » كما يقول هيرودتس ، وكما يقول العرب : « يد الله مع الجماعة » .

نقد الديمقراطية الأثينية

تلك هي الديمقراطية الأثينية التي تمخضت عنها دولة المدينة ، إنها أضيق الديمقراطيات وأكملها في التاريخ . لقد كانت أضيقها لقلة عدد من يشاركون في امتيازاتها . وكانت أكملها لأنها تتيح لجميع المواطنين على قدم المساواة فرصة الإشراف بأنفسهم على التشريع وتصريف الشؤون العامة . وتتكشف عيوب هذا النظام على مر الأيام ، بل إن الناس بدأوا يتحدثون عن هذه العيوب منذ سقراط ، بل لقد كان سقراط من ألد أعدائها وهو أحد ضحاياها . وكان من أظهر هذه العيوب أيضاً أن قامت باسمها جمعية لا تُسأل عما تفعل ، تربط اليوم ما تحله غداً . لقد ضلت كثيراً وندمت كثيراً ، وهي عندما تندم لا تعاقب نفسها بل تعاقب من أضلوها . زمن هذه العيوب كذلك قصر السلطة التشريعية على الذين يستطيعون حضور الأكليزيا وتشجيع الزعماء الديماغوجيين ، ونفي القادرين من الرجال نفياً أفقد المدينة عدداً كبيراً من خيرة عناصرها ؛ وملء المناصب بالقرعة والنوبة ، وتغيير الموظفين في كل عام وإشاعة الفوضى في الأداة الحكومية[2] . ومن هذه العيوب أخيراً نزاع الأحزاب الذي لم ينفك يحدث الإرتباك في توجيه أعمال الدولة وشؤونها الإدارية . ولعل هذا ليس عيباً بقدر ما هو في نظري مزية من مزايا الحكم الديمقراطي . ولا يذهبن بك الشطط إلى حد الإعتقاد بأن الملكية والأرستقراطية كانت تستطيع أن تحكم أثينا خيراً من الديمقراطية ، أو أن تحفظ عليها حياتها أطول مما حفظتها هذه الأخيرة . كلا ، بل لعل هذه الديمقراطية المختلة النظام ـ دون غيرها من أنواع الحكم ـ هي التي استطاعت وحدها أن تفجر

---

(١) الفرد زيمِّرن : الحياة العامة اليونانية ، صفحة ١٨٤ .

(٢) ول ديورانت : قصة الحضارة ، ٧ / ٤٢ .

تلك الطاقات التي رفعت أثينا إلى أسمى مقام بلغته أمة أخرى في التاريخ . ذلك أن الحياة السياسية داخل نطاق المواطنية لم تبلغ قبل ذلك العهد أو بعده ما بلغته فيه من القوة والإبتكار . وأقل ما يقال في هذه الديمقراطية إنها كانت مدرسة ، لقد كان المقترع في الجمعية يستمع إلى أقدر الرجال في أثينا في الحكم والتشريع والقضاء ، فينضج عقله وفهمه وقدرته على الحكم والتمييز والاستبصار . ولا يقتصر أمر هذه الديمقراطية على أنها كانت نظاماً يفسح الطريق لكل إنسان ليعمل ما يحلو له في نطاق القانون والعدالة ، ورقيباً حسيباً على القانون وسياسة الحكم ، بل كانت فوق ذلك أيضاً تشجع بالمال المسرحيات اليونانية ، وتشيد البارتنون ، وتعمل لرفاهية الشعب وتقدمه ، وتهيىء له الفرص التي تُمكِّنه ليس فقط من أن يعيش ، بل من أن يعيش على خير وجه . ومن أجل هذا فإن التاريخ لا يجد أي حرج في أن يصفح عن جميع خطاياها[1] فحسبها أنها أول مشروع صادق مخلص قام به إنسان لإقرار العدالة والكفاية والمساواة .

ومما لا شك فيه أن أسلوب الحياة داخل دولة المدينة الهلينية كان خطوة حضارية تقدمية واسعة ، إلا أنه تقدم أعرج إذا صح التعبير خلَّف وراءه النساء والعبيد الذين عاد عليهم ، بل على نظام دولة المدينة نفسها بأفدح الأخطار وأوخم العواقب . فهاتان الفئتان محرومتان بحكم القانون من الإشتراك في عمل الجمعية العامة ، فلم تبلغ الشرائع الأثينية ما كنا نتوقعه لها من الإستنارة . فهي بقصرها الحقوق القانونية والمدنية على المواطنين الأثينيين الذكور الأحرار الذين لا يكادون يتجاوزون سُبع السكان قد وقعت في خطأ كبير ربما كان من أسباب التعجيل في انهيارها وهي في شرخ الشباب . ومع ذلك ففي أثينا نجد للمرة الأولى في التاريخ المعروف لدينا حكم القوانين لا حكم الناس ، لكن مما يشوب هذا الحكم أن المواطن اليوناني لم يكن يشعر بأي التزام قانوني نحو الأجانب إلا إذا كان البلدان مرتبطين بمعاهدة . فقد كان هؤلاء في عرفهم برابرة لا حقوق لهم وإن شجعوا دخولهم إلى البلاد لأسباب اقتصادية صرف ، فلم ترق بلاد اليونان الرقي الذي تدرك به وجود قانون أخلاقي يشمل الجنس البشري كله إلا على يد الفلاسفة الرواقيين في عصر متأخر ، أي في عصر استفحال الإنحلال وتآكل الجسم بالمرض الوبيل عندما كانت بلاد اليونان تفقد خصائصها القومية وتصطبغ بالصبغة

---

(١) المصدر السابق ، صفحة ٤٣ .

الشرقية .

لم يكن لدى الإغريق القدماء فكرة جلية عن الحرية . فقد كانت الحقوق الفردية عندهم ينقصها دائماً بعض الضمانات . فما كانوا يسمونه حرية معناه في مفهومهم أن يكون للمواطن حقوق سياسية . فالإغريق لم يعرفوا قط كيف يوفقون بين المساواة المدنية والتفاوت السياسي والإقتصادي . فلكي لا يؤذَى الفقير في مصالحه الشخصية بدا لهم أن من الضروري أن يكون له حق الإقتراع وأن يكون قاضياً في المحاكم وأن يستطيع أن يكون من رجال الدولة . وإذا تذكرنا أن الدولة عند الإغريق كانت سلطة مطلقة ، وأنه ما من حق فردي كان يمكنه أن يقف أمامها ، أدركنا أي منفعة عظيمة كانت لكل فرد ـ حتى لأكثر الناس ضعةً ـ في أن تكون له حقوق سياسية ، أي أن يكون عضواً في الحكومة . وما دامت لسيادة الدولة كل هذه الهيمنة، فإنه لم يكن في مقدور أحد أن يكون شيئاً ما إلا من خلال قنوات الدولة وإلا إذا كان شريكاً في الحكم ، فقدكان أمنه وكرامته مرهونين بذلك . وكان حق الإقتراع هو المدخل القانوني الطبيعي إلى هذه المشاركة ، لذلك كانت له قيمة لا تقاس أبداً بأي قيمة يمكن أن تكون له في الدول الحديثة . فقد كان أفقر المواطنين وأقلهم شأناً يضع يده ـ بمقتضى هذا الحق ـ في جميع شؤون المدينة ، فيعين رجال الدولة ويسن القوانين ويجلس للقضاء ، ويقرر الحرب والسلم ويعقد المعاهدات والمحالفات . لقد كان الإغريق يعتقدون أن هذا يكفي لحل مشاكل المواطنين جميعاً ، وبالتالي لكي تكون الحكومة حكومة ديمقراطية حقاً وصدقاً وقلباً وقالباً ومظهراً ومخبراً . . . لقد كان الفقير متمتعاً بالمساواة في الحقوق السياسية والمدنية ، ولكن هذه الحقوق لا تُطعم خبزاً « الثروة للبعض ، والحقوق للجميع » هذا هو شعار الديمقراطية الأثينية !!! فالمساواة في المال أفضل ألف مرة من المساواة في الحقوق التي تركت أصحابها جياعاً . فلم تكن الثروة والفقر منظمين بحيث يستطيعان التعايش بسلام وأمان . ثم إن الشعب لم يكن له ما يطلق عليه في المصطلح الحديث حق المبادأة . فقد كان مجلس الشيوخ يعدُّ مشروعاً بقرار ، وكل ما كان يستطيعه الشعب هو أن يرفض هذا المشروع أو أن يقبله ، لكنه لم يكن يملك المناقشة في شيء آخر . حسبه أن له حق التصويت[1] وكفى الله المؤمنين القتال .

---

(١) فوستيل دي كولانج : المدينة العتيقة ، صفحة ٤٤٤ .

لم تقضِ الديمقراطية الأثينية على الشقاء الإنساني وما كان لها أن تقضي ، وكل من يظن أنها قادرة على أن تقضي فهو واهم ، إنه يريد تحميل الأشياء فوق ما تحتمل . يجب ألا يصدر الحكم على هذه التجربة الرائدة بأنها لم تكن ناجحة . لنتذكر دائماً أن الخطوة الأولى هي دائماً أصعب الخطوات وأكثرها تعثراً . لقد تساءل سقراط وأفلاطون عما إذا كان نظام الحكم هذا قد درب الناس على الفضيلة . ويقول أفلاطون في محاورة غورجياس : أن ثمسطوقليس وقيمون وبرقليس قد « ملأوا المدينة بالتحصينات والسفاسف . . . ولكنهم فشلوا فشلاً ذريعاً في أول واجب من واجبات السياسي وهو جعل المواطنين أفاضل »[1] . كما أن أفلاطون قد أعرض عن الديمقراطية وهو يائس وأعلن فكرة الملك الفيلسوف ، ولم يكتف بذلك بل قام بزيارتين لصقلية يحدوه أمل يائس في أن يجعل من ديوينسيوس حاكم سرقوسة الشاب ملكاً فيلسوفاً !

على رَسْلك يا سقراط ويا أفلاطون . إن هذا طمع في غير مطمع ، نعم ، لقد كان للديمقراطية عيوب وأخطاء كثيرة ، غير أن أي تقديرٍ صحيح لها يجب أن ينظر إلى الأمور من جميع جوانبها المختلفة ، فإذا كان البعض يرى أنها فشلت فإن هذا الحكم إن كان صحيحاً يجب أن يصدر على مدى إمكانيات الطبيعة البشرية أكثر منه على نظام سياسي معين .

أجل لقد طمع أفلاطون في غير مطمع (وأكاد أقول أن الإنسان مشروع فاشل لصانعٍ أحمق لولا أن هذا الفشل هو ثمن العقل والحرية ، ما أطوع الأشياء بل والحيوانات ، لإرادة الإنسان ، ولكن الإنسان وحده هو المشاكس والمتمرد . إنه وحده يقف في الكون ليقول « لا » بينما كل شيء يقول « نعم » .

الإنسان دائماً هو الإنسان ، في كل زمان ومكان ، تارة يسيطر عليه العقل وطوراً تجرفه الغريزة ، وحيناً يوازن ويوفق . أحياناً يسير على قدمين بخطىً سليمة وئيدة ، وأحياناً يتعثر ويكبو ، فما من دستور في العالم استطاع أن يقضي على الضعف الإنساني ونوازع الشر في فطرة الإنسان . وكلما كانت القواعد دقيقة صارمة ، تكشفت نوازع الشر فيه ـ أو ما يُسمى كذلك ، لأن هذه الكلمة ميتافيزيقية ترجع إلى عصور أخلاق التقريع وليست كلمة علمية بحالٍ من

(١) انظر كيتو : الإغريق ١٦٩ .

الأحوال ـ وتبين أن توجيهه عملية صعبة مليئة بالأخطاء والأخطار . إن الحكم الديمقراطي الأثيني لم يكن في استطاعته أن يدوم إلا بالمبالغة في الفطنة والمزيد من الحذر والروية وذلك مصدر قوة ومصدر ضعف له في وقتٍ واحد معاً .

لقد حكمت اليونان حكومة ملكية وحكومة أرستقراطية وحكومة ديمقراطية على التوالي ، ولكن ما من واحدة من هذه الحكومات وهبت الناس الحرية الحقيقية . فليس الذنب إذن ذنب الديمقراطية وإنما هو بالأحرى ذنب الطبيعة الإنسانية وذنب التصور اليوناني للبولص أو دولة المدينة ، التي يفنى فيها الجزء في الكل ويتلاشى حتى لا يبقى له إلا أقل نصيب . والغريب أن هذا النصيب الذي تبقّى لعضو المدينة بعد أن استصفت ما استصفت وطرحت ما طرحت ، كان شيئاً كبيراً جداً ، شيئاً لا يُقدر بثمن لأنه فوق كل ثمن . وبعبارة أخرى ، لقد عمل المواطن الأثيني بجزءٍ منه فقط فأنتج لنا سياسة وإدارة وعِلماً وفلسفة وأدباً وفناً . . . فاق جميع التوقعات . فما ظنك بهذا الفرد العجيب ، هذا العضو في المدينة الرائدة ، لو عمل بكليته ، أي لو تركته المدينة يعمل من غير أن تنزع منه شيئاً ؟

* * *

يقولون أن ديمقراطية أثينا كانت دون مستوى الآمال المعقودة عليها لأن النساء والأجانب المقيمين بها والرقيق الذين يعملون فيها لم يكن لهم صوت في إدارة شؤونها . وهذا القول لا يخلو من الإسراف والمبالغة ، فقد كانت أثينا في معاملتها العامة والخاصة مدرسة اليونان ، وذلك بنُظُمها الحرة في الحكم الذاتي وأخلاق مواطنيها الشخصية السامية[1] . فقد كان من بديهيات الإقتصاد الأثيني في عصر برقليس أن الثروة إنما تكون بالعقول والأيدي ، وأن كل عامل يزداد فإنما هو زيادة محتملة في مصادر تلك الثروة . ولذلك « فقد حث ثيموستقليس الشعب على أن يمنح الأجانب المقيمين والصنّاع إعفاءً من بعض الواجبات الخاصة ، حتى يأتي المدن أناسٌ كثيرون من جميع الأرجاء ، وحتى يمكنهم بسهولة إقامة المزيد من الصناعات » كما يقول ديودوروس[2] . لقد رحبت أثينا بالعمال يأتونها من كل فجٍ عميق ، ولم تدخر وسعاً لإجتذابهم ودعوتهم إليها والإسهام في إقتصادها ورفاهية

(١) الفرد زِمْرن : الحياة العامة اليونانية صفحة ٥٢٧ .
(٢) نقلاً عن المصدر السابق، صفحة ٤٦٣ .

شعبها . وكان صولون وأقلستنيز وثيموستقليس وقيمون وبرقليس على رأس هذه الدعوة والمشجعين لها ، حتى كان في أثناء إلقاء خطاب التأبين المشهور الذي يُنسب إلى برقليس حوالى ١٢٥ ألف أجنبي في أتيكا ، وكان عدد الشبان المواطنين ونسائهم يناهز هذا العدد تقريباً أو دونه قليلاً . وهذا ما يفسر قول برقليس في مرثيته : « لقد فتحنا أبواب مدينتنا على مصراعيها للعالم ، ولم نتخذ قراراً لمنع الأجانب أبداً » .

وقد أقامت أثينا مساواة ديمقراطية بين مواطنيها والمقيمين الأجانب على السواء ، لا فرق في ذلك بين الرجال الأحرار والعبيد[١] . وقد تمتع هؤلاء جميعاً بكثير من امتيازات المواطنين ومسؤولياتهم ، وإن لم يكونوا مواطنين بالمعنى الدقيق للكلمة . لقد اجتذبتهم « مدرسة اليونان » ليس فقط لمجرد سياسة الباب المفتوح ـ فهذا الباب لم يكن ليعني شيئاً لو كان باباً عادياً بلا بريق ولا جاذبية ـ ولكن لأنهم أُعجبوا بمُثُلها العليا ، وكانوا متحمسين للتعاون معها ، وكانوا خليطاً من اليونانيين والبرابرة الذين عرفوا قدر أثينا وعظمتها ، فكانوا على استعداد ـ كالمؤمنين الجدد ـ لأن يكونوا أكثر التابعين والداعين حماسة لها[٢] .

وهكذا تحققت المساواة بين هؤلاء الغرباء ومضيفيهم المواطنين ، بل لقد اتسعت هذه المساواة حتى شملت العبيد والأجانب على حد سواء . بل لقد كان العبيد في أثينا ينغمسون في الترف ويحيون حياة فخمة أحياناً[٣] . لقد كانوا يتمتعون بحرية كبيرة وبحماية قضائية أكثر جداً مما يعانيه المواطنون الزنوج في الولايات المتحدة الأميركية اليوم ، حتى إن الأسبرطيين كانوا يسخرون من أنك لا تستطيع أن تُفرِّق في شوارع أثينا بين المواطن الحر والعبد . ومع ذلك فقد كانوا يستغلون شرار الأرقاء أبشع استغلال ، فيرسلونهم إلى المناجم ، وهناك يذوقون شتى ألوان العذاب[٤] . إن أكثر الحضارات لها فظائعها ومآسيها ، فإن أكثر من ٤٠٠٠ مواطن في بريطانيا وحدها مثلاً يقضون سنوياً في الطرقات لأن أسلوب الحياة الحاضرة لا يمكن استمراره بغير ذلك . وهكذا أصبح الرق جزءاً لا يتجزأ

---

(١) انظر المصدر السابق ،صفحة ٤٦٢ ـ ٤٦٤ .
(٢) المصدر السابق ،صفحة ٤٦٦ .
(٣) المصدر السابق ،صفحة ٤٦٧ ـ ٤٦٨ .
(٤) كيتو : الإغريق ، صفحة ١٧١ ـ ١٧٢ .

من حياة المدينة ، حتى لم يتميز العبد من الحر في مظهره الخارجي كما قلنا . أنا لا أنكر أن هذه الصورة للعبد العامل تخالف ما نقرؤه في كتابات أرسطو وفي كتابات المزارعين الجنوبيين . لقد لُقِّنَّا دائماً أن العبد في نظر اليونان شيء ، وإن العبيد من طبقة دون طبقة البشر . ونحن نجد آراء مماثلة عند كثير من المؤرخين اليونانيين القدماء مثل أفلوطرخس مثلاً . ولئن دل هذا على شيء فإنما يدل على وجود أشخاص غير راضين عن هذه المساواة . ولكن القوى الإقتصادية أشد منهم قوة . فالسبب في معاملة العبيد معاملة حسنة قد لا يكون سبباً إنسانياً صرفاً ، والأقرب أن يكون في نظري مزيجاً في الإنسانية والإقتصاد . وقد يكون السبب اقتصادياً عند البعض الذي اضطر إلى الإذعان له رضي أم لم يرض . فسقراط وقبيله أبوا الإذعان ، ولكن برقليس أذعن كارهاً .

وعلى كل حال ، لقد كان الرق جزءاً من نظام الطبيعة ، وقد شب اليونان عليه . فلم يكن امتلاك العبد واستغلاله جرماً أو خطأً أخلاقياً ، لقد كان جزءاً لا ينفصل عن نظام العالم القديم . هكذا كان تصور القوم وعلى ذلك نشأوا وترعرعوا . ويجب أن ننتظر الرواقيين حتى يتكسر الإطار وتتبدل الصورة ، ومع ذلك فالأدب اليوناني مليء بالعطف على الأسير ، مليء بصرخة الألم التي تصدر عن الرجل القوي الذي فقد بوقوعه في الأسر نصف رجولته »[1] . « ارحموا عزيز قوم ذل » . هذه قاعدة أخلاقية عربية أصيلة ، ويبدو أنها تنطبق على اليونان القدماء إلى حدٍ ما . وهذا أيضاً ما جعلني استبعد أن يكون العامل الإقتصادي وحده وراء حُسن معاملة العبيد والسماح لهم بالإثراء .

قلنا إن مما يطعن في ديمقراطية أثينا أن الرقيق والأجانب والنساء لم يكن لهم صوت في إدارة شؤونها . ولقد رأينا مدى المبالغة والإسراف في هذا الطعن عندما يتعلق بالرقيق والأجانب . ولكن النساء لهن شأنٌ آخر . فالمرأة الأثينية أقرب إلى المرأة الشرقية منها إلى المرأة الرومانية . إنها امرأة محجوبة عن الأعين ، وحجابها بيتها . فلم يكن لها من عمل إلا تربية أولادها وخدمة بعلها والقيام بشؤون منزلها . وكان تعليمها يقتصر على علم تدبير المنزل ، ولم يكن للبنات حظ من الألعاب الرياضية العامة باستثناء إسبرطة التي كانت تهتم بتنشئتهن تنشئة عسكرية ، وكانت أمهاتهن تعلمهن القراءة والكتابة والحساب والغزل والنسيج

(١) الفرد زيمّرن : الحياة العامة اليونانية ، صفحة ٤٧٢ .

والتطريز والرقص والغناء والعزف على بعض الآلات الموسيقية . ومن النساء اليونانيات عدد قليل تلقين تعليماً عالياً ، ولكنهن في الغالب كن من الماجنات ، وأما الحرائر فلم يكن تعليمهن يتجاوز المرحلة الإبتدائية ، حتى أغرت أسبازيا الملطية ـ عشيقة برقليس ـ عدداً قليلاً منهن على تعلم فنون البلاغة والفلسفة . تلك هي آفة الديمقراطية الأثينية(١) . وربما يشفع في ذلك أن الشعب اليوناني نفسه كان أمياً وكانت أقلية ضئيلة من الأهلين هي التي تُحسن القراءة(٢) .

فالحضارة اليونانية إذن ، قد قامت على أكتاف عدد قليل جداً من الأفراد الذكور ليسوا شيئاً مذكوراً ـ حتى ولو بلغوا المئات ـ بالنسبة إلى تعداد السكان . وأكثر الذين صنعوا هذه الحضارة كانوا من أتيكا أو من إيونيا . ولا ننسَ أنها حضارة لم تتح للرجل ـ فضلاً عن أن تتيح للمرأة ـ أن يستقل بذاته عن الدولة ويتحرر من ضغوطها ما دام لها السلطان الأكبر عليه كما رأينا . فإنما الإبداع شرطهُ الحرية والاستقلال بالذات ، وإلا انعدمت المرونة وتعسر التحرك . ومع هذا فقد كان عطاء دولة المدينة بغير حدود . فما ظنك بها لو فشا التعليم فيها ولو عملت المرأة والرجل جنباً إلى جنب بلا تمييز ولا تفرقة ؟ إذن لتضاعف العطاء أضعافاً مضاعفة ، ولكانت الثورة الواحدة أكثر من ثورة .

بل لقد اشتركت المرأة ـ رغم طبيعة الأشياء ـ في إنهاض أثينا ورفع وتيرة الوعي الثوري فيها ، فهذا أرسطوفانس يقدم لنا في إحدى مسرحياته السيدة أبراكساغورا Praxagora أول داعية شيوعية في التاريخ . إنها رائدة المساواة المطلقة بين جميع الناس ، وها هي ذي تلقي خطبة تقول فيها : « أُريد أن يكون لجميع الناس نصيب في كل شيء ، وأن تكون الملكية كلها مشاعاً فلا يكون بعد اليوم أغنياء وفقراء ، وألاّ نرى بعد الآن رجلاً واحداً يجني [وحده] محصول مساحات واسعة من الأرض وإلى جانبه رجل آخر لا يجد مكان يرقد فيه . وسأعمل على ألا يكون في الحياة إلا ظروف واحدة يشترك فيها جميع الناس على السواء . وسأبدأ بأن أجعل الأرض والمال وكل ما هو ملكية خاصة مشاعاً بين الناس أجمعين . . . » ولا تكفي أبراكساغورا بذلك ، بل من برنامجها أيضاً هذه

(١) ول ديورانت : قصة الحضارة ٧ / ٨٤ .
(٢) المصدر السابق، صفحة ٢١ .

البشارة التي تزفها إلى شباب أثينا الفقراء الملتاعين الذين يعانون من قوة الباه وسُدَّت في وجوههم أبواب إشباع جوعهم الجنسي : « وستكون النساء مُلكاً مشتركاً للرجال » تصفيق حاد !

أرأيتَ إلى أثينا وإلى الثورة التي نشبت في عقول أهل أثينا ؟!!

الإنهيار الكبير

إن الناس في أثينا القديمة كانوا بشراً مثلنا ، وهم عرضة لنفس التجارب التي يتعرض لها الآخرون من خفضٍ ورفع، وقبضٍ وبسط، وسقوط وصعود . إنهم بشر كسائر البشر وينطبق عليهم جميع القوانين التي تنطبق على جميع البشر ، بلا تفرقة بين بشر وبشر ، هذه بديهية أولية لا تخفي على أحد وربما يسخر بعض القراء لإيرادها هنا . وما أتيت عليها إلا ذكرى لمدعي التفوق اليوناني على أساس عرقي ، آري مثلاً . إن النظرة العلمية لا تنكر إمتياز شعب على غيره في وقتٍ ومكان محددين ـ لا في كل وقت وكل مكان ـ بمميزات معينة ، لا تتوافر لدى الآخرين، ولكنها تنكر القول بصفاتٍ وراثية ثابتة موهوبة قارَّة منذ الأزل وإلى الأبد في هذا الشعب أو ذاك مهما تبدلت الظروف والعلاقات والأوضاع ومهما اختلف الزمان والمكان .

إن شمائل الإنسان وصفاته وسجاياه في تغير مستمر وتفاعل دائم مع الوسط الذي يعيش فيه . وقد قضت هذه النظرة نهائياً على مفهوم الإنسان من حيث هو جوهر ثابت مجرد يتأمل العالم دون علاقات أو وشائج مع الوسط المحيط به ، لقد قضت أيضاً على أي مفهوم ينظر إلى الإنسان على أساس أنه مركب ذو تكوين ثابت منفصل عن حركة التاريخ والجغرافيا . إن الإنسان ليس كائناً بيولوجياً فقط تتحدد خصائصه بطبيعته الفيزيائية ، إنه فاعلية ذاتية تاريخية متطورة خاضعة لتغيرات الزمان والمكان وموجهة لهاً أيضاً . إن عملية التعقل لدى الإنسان لا تنجم عن طبيعته البيولوجية وحدها ، إنها إنما تنجم عن مجموع العلاقات الإجتماعية والثقافية و . . . التي ترتبط بها حياته ، وهذا ما يفرق بينه وبين الحيوان . فهذا الأخير لا يدرك المحيط إلا في تسلسل بيولوجي محدود من العوامل الفيزيولوجية والفيزيائية . إن إدراكه محدود بحدوده هنا والآن ، وأما الإنسان ،

فإن إدراكه مفتوح غير مقيد يشمل الآن وكل آن وهذا المكان وكل مكان[1] . فهو يدرك الأشياء في تسلسلٍ تاريخي واجتماعي وفي إطار زمكاني شامل يستوعب الأزل والأبد .

أجل إن التفوق الإدراكي للإنسان لا يعود فقط إلى التنمية البيولوجية التي لا مدخل للعرق أو الجنس فيها ، إنه إنما يعود أيضاً إلى التنمية التاريخية ـ الثقافية الاجتماعية ، إنه يعيش في عالم المعاني ويتغذى بالمعاني . فالمعاني أحد أهم أبعاده ، لأنه ثقل فيزيائي بقدر ما هو كثافة ميتافيزيقية . إن العوامل الفيزيائية البيولوجية هي الثوابت المشتركة بين الشعوب المتقدمة والشعوب المتخلفة ، وبالتالي فلا أهمية لها تذكر في حساب التقدم أو التخلف ، وهيهات أن يكون لأوهام العرق الجنس أي حساب هنا . يبقى أن الفارق بين التقدم والتخلف محصور في العوامل المتغيرة أو المتغيرات كما تُسمى في العادة . هناك ثوابت ومتغيرات في كل عملية إنسانية . فالثوابت لا تفسر شيئاً كما ذكرنا أكثر من مرة،فالتفسير إنما يجب التماسه في المتغيرات . وأهم هذه المتغيرات التاريخ والجغرافيا وظروف الزمان والمكان ودرجة النضج العقلي والنمو الروحي . . . وكل ذلك يوجه ضربة قاتلة ألى الهذيان العرقي والمركزية الأوروبية الاستعمارية . ولقد انتقلت المركزية من موقع إلى آخر ومن وقتٍ إلى آخر على امتداد الزمان والمكان . لقد كانت يوماً في مصر القديمة ، ثم انتقلت إلى أثينا فروما ، ثم حطت عصا الترحال في بغداد وقرطبة وأسطنبول ، ثم عرَّجت على دول أوروبا الغربية ، وهي الآن تتقلب بين اليابان وَواشنطن ، وغداً ستتنازعها بكين وفيتنام والبلاد المجاورة .

إن كل شعب ـ مهما كان متخلفاً ـ يعد نفسه في مركز العالم والأفلاك تدور من حوله . هكذا اعتقد اليونان القدماء ، ولا سيما عندما كانت أثينا في مركز العالم تدور الأفلاك من حولها ، وهي الآن تدور في فلك غيرها وكذلك العرب ، فقد كانوا يوماً في المركز والبؤرة . وهم الآن في الهامش وعلى الحافة . والأيام دُوْل بين الناس .

---

(١) المصدر السابق،صفحة ٧٤ .

فعَلامَ يدل كل هذا ؟ إنه يدل على أن المركزية ومضة وتزول . ولكنها ومضة تشعل في لحظات مصابيح تضيء بعضها أجيالاً . ولا يكاد ينحسر الضوء عن هذه الأجيال وقبيل حلول الغسق حتى يومض ومضة أخرى تشعل مصابيح تتكوَّن عنها مركزية أخرى في مكانٍ آخر وزمانٍ آخر لتضي أجيالاً أخرى لأسبابٍ سَيْكوسيوديناميةً صرف بحثتها في غير هذا الموضع فلا داعي لتكرارها هنا ، ثم ينحسر إلى الأبد . وهكذا الحال دائماً : ومضة بعد ومضة . وأجيالٍ تفصل بين الومضة والومضة . بهذه الومضة ، وبهذه الومضة تشتعل مصابيح بعضها احفظ للضوء من بعض وأولد للضوء من بعض ، وبعضها أفقد للضوء من بعض . بعضها لا خير فيه ، يحسبه الجاهل ضوءاً بينما هو مرآة عاكسة للضوء ، وهذا هو حال أكثر المصابيح ، ولكن أفضلها وهو القليل النادر يشع حقاً بالضوء إنه مصنع للضوء ، ومصدر ثرٌّ لإنتاج الضوء ، وقليل ما هو !

ومعنى هذا أن الضوء لا يُخلق من عدم وإن كان من الممكن تقويته . فهناك تقنيات خاصة لتقويته لها رجالها . الضوء يُتلقّى عن الضوء . يجب على المرء أن يأتي بقبسٍ من ضوء آخر يشعل به مصباحه ثم يمده بالزيت والوقود . وويلٌ له إذا أغفل هذا المدد أو كان جاهلاً به ، فالمصابيح لها آجال بعضها أطول من بعض ، لقد تلقت أثينا الضوء من مصر وبابل والهند و . . . ثم مضت أثينا بعد أن أشعلت مصابيح ومصابيح . ومن هذه المصابيح ما خبا باحتضار أثينا ومنها ما بقي زماناً بعدها . ومن أحد هذه المصابيح التي كانت منتشرة بين فارس وبلاد الشام وقبل أن توشك على الإنطفاء ، انتقل قبس إلى دمشق وبغداد وقرطبة . وهناك استقوى الضوء . فقد تعلم القوم زيادة الضوء ، وتوهجت المشاعل في هذه الأقطار لحظات ، وقبل أن تنطفىء أشعلت مصابيح بعضها أقوى من بعض . وكان أقواها في الأندلس التي كانت مصدراً للضوء . وتعهد الإسبان مصباحهم وأمدوه بالزيت والوقود . وقبل أن ينطفي أشعل مصابيح كثيرة في أوروبا اللاتينية ، وكم حورب هناك الضوء وكم تعصب القوم على الضوء وكم قامت محاولات لإطفاء الضوء ، ولكن أبى الضوء إلا أن ينتشر ويتم نورَه الضوءُ . فكما تعصب قوم على الضوء تعصب آخرون للضوء ، وكان سجال وكان نزاع وكانت حروب يريدون بها ليطفئوا الضوء ، ولكن لم ينطفىء بل استقوى وتوهج الضوء .

لقد مضت أثينا ويريد العنصريون ليوهمونا أنها لم تمضِ . كذلك

يزعمون . قُل فأدرأوا عن أنفسكم الموت فهل أنتم منتهون ؟ فإنكم أنتم ماضون أيضاً ، عاجلاً أو آجلاً فكيف تفترون ؟ هذا قانون تاريخي لا يتخلف أفلا تعقلون ؟ كذبت قبلكم أقوام ، إدَّرعوا زرد الحديد ، كانت لهم الجنات وحب الحصيد ، والنخل باسقات لها طلع نضيد ، فطاف عليهم طائف من ربك ، ذلك يوم الوعيد ، وأُحيط بثمرهم كأن لم يَغْنَ بالأمس وظنوا أنه أبداً لا يبيد . لقد ظنوا أن حصونهم مانعتهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وخاب كل جبارٍ عنيد . وجاءت سكرة الموت بالحق ما كان أكثرهم منه يحيد ، إن في ذلك لذكرى لمن له قلب أو ألقى السمع فهو شهيد . فلا يغرَّنك تقلبهم في البلاد وتربَّصْ حتى حين ، متاع قليل كالذين خلوا من قبلهم كانوا أشد منهم وكانوا في غيّهم سادرين ، كم تركوا من جناتٍ وعيون ؟ وزروعٍ ومقامٍ كريم ؟ ونعمة كانوا فيها فاكهين ؟ فتوارثها قومٌ آخرون . فما بكتْ عليهم السماء والأرض ، وما كانوا مُنظَرين ؟ فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا ، وتلك عاقبة المجرمين ، إن في ذلك لعبرةٍ لكل معتبر ، فهو بكل خير قمين . ذلك بلاغ للناس بلسانٍ عربي مبين !

* * *

إيه أثينا ! ماذا دهاكِ أثينا ؟ زعموا أنكِ من طينة أخرى ، وها نحن نرى الطين كله واحداً . لقد كنتِ يوماً في المركز ثم دارت بكِ الأيام فإذا أنتِ في الهامش . لقد كنتِ تصنعين الأحداث وكنتِ حدث الأحداث ، فإذا أنتِ همْل بين الأحداث وبقية من بقايا الأحداث . لقد كنتِ كل شيء ، وأنتِ الآن ليس لكِ من الأمر شيء .

يبدو ـ أثينا ! ـ أن الطين وحده لا يكفي ، الطين مجرد حامل للخصائص والخلال وليس هو الخصائص والخلال . فمن ظن الحامل والمحمول واحداً فقد ظن شططاً . ففي الإنسان صفات وسجايا لا تنبع من تكوينه الفسيولوجي والبيولوجي ، بل من تكوينه الثقافي والإجتماعي وظروف البيئة ، والتراث وحركة التاريخ . وهي إضافة جديدة من شأنها ـ إذا تعهدها وأحسن إستغلالها وعرف قوانين عملها ـ أن تقفز به قفزات نوعية إلى الأمام وتجعله من صنُاع الحضارة بعد أن كان عالة على الحضارة . فإن العناصر الحضارية يمكن أن تستغل من قِبل الناس بأشكالٍ وصور مختلفة كما يمكن أن تؤثر في تطور مجتمعهم بأشكالٍ وأنماط

مختلفة أيضاً ، وذلك تبعاً لمستوى الوعي ودرجة التطور الإجتماعي والمرحلة التاريخية التي يعيشون فيها .

إن الحكم الديمقراطي لم يكن في استطاعته أن يدوم إلا بالمبالغة في الفطنة والروية والمزيد من الحذر واليقظة . ولكن هل هذا شيء ممكن ؟ إن اليد التي تقبض على السلطة لا بد أن ترتخي مع الأيام ، وإن الإستمرار في الإنتباه وأخذ الحيطة إذا تأتي مرة فلن يتأتى في كل مرة . وكم بالغ أناس في الإحتراز والتحفظ فأُخذوا من حيث يأمنون على حين غرة ووقعوا حيث لا يتوقعون ؟! .

لقد كانت المدينة هي القوة الحية الوحيدة لا شيء فوقها وكل شيء تحتها . لقد كان عصر برقليس هو آخر عصور المدينة الزاهرة . فالمقابلة بينه وبين عصر ديموستنيز Démosthène ـ أعظم خطيب جاد به الزمان أو يكاد ـ بعده بقرن هي مما يثير الفزع حقاً ، فإن أثينا في القرن الرابع تعطينا صورة الخمول السياسي الذي كاد يصل إلى حد عدم الإكتراث بما يجري في الحياة السياسية والإجتماعية .

لقد بدأ الناس منذ ذلك الوقت يهتمون بأمورٍ أخرى غير البولص . ولم يتصرف الأثينيون تصرفاً جديراً باسمهم العظيم إلا في آخر يوم نزل به القضاء المحتوم ، غير أن الوقت كان قد فات . فقد كان هناك صراع مرير وطويل بين أعظم شخصيتين في سياسة ذلك القرن وهما ديموستنيز الخطيب والمواطن الأثيني الحر ، وفيليبوس المقدوني الذي أقدم على غزو بلاد اليونان الواحدة بعد الأخرى . لقد رأى ديموستنيز الخطر متأخراً أو لعله لم يره أولاً في صورته الكاملة . فأخذ يحرض الأثينيين في خطبة تلو أخرى على مقاومة الغزو، ولكن عبثاً ، فقد كانت أثينا في منتصف القرن الرابع على نقيض أثينا في منتصف القرن الخامس ، عصر برقليس . لقد تبدل الزمان غير الزمان والناس غير الناس . ففي منتصف القرن الخامس كانت قوات أثينا في كل مكان لأن العصر كان عصر الأمبراطورية ، حيث كان الأثينيون مستعدين لكل شيء ، أما الآن ، وبعد مئة سنة تقريباً من عهد مضى وانقضى ، فقد اضطر ديموستنيز أن يتوسل إليهم ليدفعوا العدوان عن مدينتهم ومصالحهم ويُنفذوا إلى الميدان قوة يكون جزء منها على الأقل من المواطنين ـ إذ أن استخدام المرتزقة كان شائعاً آنذاك ـ وأن يرغموا الجيش على البقاء في ساحة القتال حتى لا يذهب إلى موقعة أخرى يكون خوضها أكثر غنيمة . إن إنفاذ « جيوش على الورق » ذات قيادات تستخدم جنوداً مرتزقة أمر يجب

التوقف عنه . ولكن على من تقرأ مزاميرك يا داود ؟ إنهم لا يريدون ناصحين صادقين بل يريدون دجالين يتملّقون العواطف ويدافعون عن وعود فيليب . لقد فسدت أثينا ودب فيها الوهن . وجاء الاسكندر الأكبر بعد ذلك بسنتين فأنجز مشروع أبيه . ففي خلال خمسة عشر شهراً قمع فتنة في تساليا وزحف وسط بلاد الإغريق على مدن كانت تستعد للثورة ، وقاد معركة سريعة حتى نهر الدانوب ، وعبر البحر إلى آسيا ، ومات بعد إحدى عشرة سنة عن عمرٍ يناهز ثلاثة وثلاثين عاماً ، وكانت الأمبراطورية الفارسية قد أصبحت امبراطوريةً مقدونية كما أصبح البنجاب كذلك فترة قصيرة ، وهو الذي لم يكن الفرس قد حكموه قبل ذلك قط[1] . لقد ترك امبراطورية لم يحلم بها الأغارقة من قبل تمتد من الأدرياتيك إلى نهر السند ، ومن بحر قزوين إلى مصر العليا ، وقد أحدثت هذه السنوات الأخيرة تغيراً كبيراً ، إذ انتهت بلاد اليونان الأصلية وتلاشت في عالمٍ أكبر لم تعد فيه شيئاً مذكوراً

لقد سقط النسر من عليائه جملة واحدة . لقد حلّق طويلاً حتى لأنهكه التحليق . ما سبب هذا الإنهيار المفاجىء ؟ هناك أسباب عدة تواطأت لتقضي على ذخيرة عظيمة من الإنجازات والمشاريع وأعمال الحضارة لا عهد للإنسانية بها من قبل . وأول هذه الأسباب الحروب المدمرة التي خاضها اليونان بعضهم مع بعض أولاً وقبل كل شيء . فقد قام في بلاد اليونان عدد كبير نسبياً من دول المدن ذات سيادة ولكن هذه الدول احتدمت بينها الحروب والنزاعات التي لا تنقطع . فقد كانت كل دولة من هذه الدول الناشئة قد ألِفت خلال الفصل الأول من التاريخ الهليني عادة شن الحروب على سكان الجبل الذين يحيطون بها . وبعد أن يتم قهر سكان الجبل تواصل كل مدينة منها تنمية عادة شن الحروب بالدخول في معارك مع غيرها من المدن الأخرى المتاخمة لها . وهكذا أصبح نظام دول المدن المترامية الأطراف في البلاد اليونانية يحمل في ثناياه عنصر الحرب ،وذلك إلى أن اتخذت خطوات فعالة لتوطيد السلام . فهناك إذن نقطة ضعف جوهرية في هذا النظام هي كثرة دول المدن وتعددها بدلاً من اقتصارها على دولة واحدة . وهناك سبب آخر أيضاً وهو استخدام الجنود المرتزقة في بعض هذه الحروب ولا سيما بعد القرن الخامس ، وفي ذلك ما فيه من إنكار للبولص . لقد سئم القوم الدفاع عن

(١) كيتو : الإغريق ، صفحة ٢٠٢ - ٢٠٣ .

أنفسهم كما رأينا ، فوكلوا ذلك إلى محترفين لا يحملون للمدينة أي ود ولا ولاء ، ولا همَّ لهم إلا الكسب والربح . لقد طرأ تغيير كبير على مزاج الناس في القرن الرابع ، حيث أخذ المواطن العادي يُعنى بشؤونه هو أكثر منه بالبولص . فإن كان فقيراً فهو يميل إلى النظر إلى البولص على أنها مصدر للمنافع وجني الأرباح . فالشخصيات التي توجه المجلس والتي كانت تمحضه الود والإخلاص، لم تعد من الهواة المسؤولين بقدر ما كانت من الموظفين المحترفين ، كما أن المسؤولين الذين كانوا يتولون القيادة في ميدان القتال أصبحوا أقل من ذي قبل . لقد أخذ نظام البولص ينهار في بلاد الإغريق كلها ، كما أن البولص داخل أثينا كانت آخذة في التفكك والإنحلال .

لماذا انهارت البولص في القرن الرابع لا في القرن الخامس ؟ ولماذا استطاعت بلاد الإغريق أن تتضافر في وجه فارس ولم تستطع ذلك في وجه فيليبوس ؟ لقد أنهكتهم الحروب الداخلية والخارجية المتلاحقة فكفروا بكل شيء وأصبحوا ولا همَّ للفرد إلا أن ينجو بنفسه ويبتغي السلامة والعافية . لقد كان اليونان كالعرب ـ في هذه الأيام إذا لم يجدوا من يقاتلونه اقتتلوا بعضهم مع بعض ، وبالأحرى لقد انصرفوا إلى مقاتلة أنفسهم فراراً من مقاتلة الآخرين . إن هذه الأجواء بيئة خصبة للتشاؤم وظهور النزعة الفردية في جميع ميادين الحياة لا في الميدان السياسي والعسكري فقط . لقد كان الفرد في الماضي منصهراً في دولة المدينة لا يكاد يرى نفسه فيها ، ولئن رآها فإنما يراها من خلال المدينة ، إنها مبرر وجوده ومنها إنما يستمد وجوده . وأما الآن فإنه يرى المدينة من خلال نفسه . إنه هو مبرر وجود المدينة ، ولا وجود للمدينة إلاَّ فمنه إنما تستمد وجودها وكيانها . لقد كان موجوداً من أجل المدينة ، وأما الآن فإن المدينة موجودة من أجله ، لتأمين حاجاته وأغراض حياته . لقد كانت المدينة مدعاة لسعادته ، وأما الآن فهي خطر له . وبكلمةٍ واحدة : لقد كان هو للمدينة في زمن مضى وانقضى ، فأصبحت المدينة له الآن ، لقد كانت غاية ومطلباً ، فأصبحت الآن وسيلة ومطمعاً ، أرأيتَ إلى إنقلاب المعادلة من الضد إلى الضد ؟!

إن إندماج الفرد في المدينة شيء حسن ، لكن ذوبانه فيها شيء معيب . كما أن الفردية هي أيضاً شيء حسن ، لكن الأنانية شيء معيب . ففي الإندماج نجد نضجاً وتعاوناً وبُعد نظر وخُلقية تنم عن الكثير من الإيثار والتفاني ونسيان

الذات ، لكنه إذا جاوز الحد أصبح تبلداً وعبودية . وكذلك الفردية ، فهي دليل وعي وتفتح واستقلال على ألا تجمح بصاحبها إلى الأنانية والأثرة وعشق الذات ، وكأنما الضربات التي حلت بأثينا ابتداء من القرن الرابع - وربما قبل ذلك بقليل - جاءت لترد الأفراد إلى وعيهم . فالذوبان قاتل . كما أن « الفلتان » أَقْتَلْ . وبينهما برزخ خصب أو ما يُسمى بالوسط الذهبي . هناك وادي عبقر ، الوادي المعشوشب الممراع . ويمكننا أن نفسر هذا الإنهيار بلغة سَيْكوسوسيودينامية بقولنا أن الأحداث من قبل كانت تسوقها الأفكار وكانت ملجومة بالأفكار . وأما الآن فإن الأحداث تتطاير هنا وهناك ولا سلطان للأفكار عليها . لقد أفلت الزمام وسار كل من الأفكار والأحداث في طريقٍ خاص به بعد أن كانا معاً يسيران في نفس الطريق . أوليست الفلسفة أفكاراً سائبة لا يحكمها غير عقل صاحبها تسير مستقلة عن الأحداث وإن كانت لا تخلو من ذكرى الأحداث ؟ لقد تراخت اليد التي كانت تمسك بالعنان . إنها الآن عاجزة عن القبض على الأشياء فتناثرت الأشياء . إن الأحداث منذ الآن تتسارع وتتدافع بقوتها الذاتية العشوائية بعد أن كانت محكومة بقوى الفكر وتوجيهاته .

وكأنما أحست أثينا دُنُوَّ أجلها فأخذت ترسل إلينا بالتحف والهدايا ، وكلها تنم عن ذوقٍ فردي رفيع في الفن والفلسفة والحياة .

« فالنحت مثلاً يبدأ بالإتجاه إلى ذاته يفحصها وإلى الإهتمام بالخصائص الفردية والأمزجة العابرة ، بدلاً من أن يعبر عن المُثُل العليا والعموميات . فهو يبدأ في الحقيقة بتصوير الناس لا « الإنسان »[1] .

« وهذا عينه ما حدث للدراما . فنحن نرى في الدراما أن التغير لم يكن مفاجئاً . ففي العشرين سنة الأخيرة من القرن الخامس قبل الميلاد كانت المأساة قد اخذت تبتعد عن الموضوعات الهامة والعامة وتهتم بالشخصيات الشاذة . . . أو تعنى بالقصص الرومانسية التي تتحدث عن المخاطر الغريبة وضروب الفرار المثيرة . . . »[2] .

وحدث شيء من هذا القبيل للفلسفة التي قلبت قواعد السياسة القديمة

---

(١) المصدر السابق، صفحة ٢٠٦ - ٢٠٧ .
(٢) المصدر السابق، صفحة ٢٠٧ .

رأسا على عقب . فقد كان من المستحيل على الإنسان أن يتفلسف من غير أن يكون له رأي في الحكم والحكومة ذو تطلعات فردية . فقد نبذ فيثاغوراس من قبلُ نماذج الحكومة القديمة وحاول تأسيس مجتمع حديد على انقاض المدينة القديمة . وجاء السفسطائيون بشعارات مشبعة بالقيم الفردية من أمثال « الإنسان مقياس كل شيء » ، و« الحق للأقوى » . . . وأعقبهم سقراط الذي رفع عقيرته مطالباً كل فرد أن يعرف نفسه ويعكف على اصلاحها . ورغم أن جمهورية افلاطون نكسة في هذا الباب لأنّ الفرد فيها لا يزال كمية مهملة ، لكن تجري فيها أول محاولة لتأهيل الفرد واعداده للحكم ، والشرط الأساسي للحاكم الأمثل هو أن يكون فيلسوفاً .

« كما نجد في فلسفات ذلك العهد مدارس مثل الكلبيين الزاهدين في الملذات، أو القورينائيين الداعين إلى الملذات . وكان أعظم سؤال يتردد هو : أين يوجد الخير؟ خير الإنسان ؟ ولم يكن الجواب عن ذلك يقيم للبولص أي حساب . أما الكلبيون ـ ومثلُهم المتطرف هو ديو جينيس ـ فقد قرروا أن الفضيلة والحكمة تدركان بالحياة وفقاً للطبيعة ونبذ الوان الغرور كالرغبة في التكريم والراحة . وهكذا عاش ديوجينيس معتكفاً وكان على البولص أن تستغني عنه . وأمّا القورينائيون فقد كان مذهبهم طلب اللذات ، وهم يرون أنّ إدراك الحكمة يكون بإختيار الملذات اختياراً صحيحاً وتجنب ما يعكر صفو الحياة . ولهذا فقد تجنبوا البولص هم أيضاً . وقد صيغت كلمة Cosmopolis (الوطن العالمي أو المدينة العالمية) فعلاً في ذلك الوقت لتقول إنّ المجتمع الذي يدين له الرجل العاقل بالطاعة ليس. البولص الضيق المحدود الأكناف ، وإنّما هو البولص الواسع الشامل «فأينما عاش الرجل العاقل فإنّه كان مواطناً زميلاً لكل رجل عاقل آخر . ولكن بصرف النظر عن هذا المعنى الفلسفي ، فقد كانت فكرة الوطن العالمي هي التي تقابل بالضرورة فكرة الفردية الجديدة وتكملها ، أي إنّ الوطن العالمي كان قد بدأ يحل محل البولص »[1] .

وعلى كل حال إن نظام البولص قد أخذ ينهار فلم تعد دولة المدينة تقدم اسلوباً مقبولاً من أساليب الحياة ، لقد اجهدتها الحياة السياسية وانهكتها الحروب

---

(١) المصدر السابق .

والمنازعات والخلافات الداخلية والخارجية وأرهقتها مادياً وروحياً . لقد تبدل الحكم الديمقراطي ودب فيه الفساد منذ اللحظة التي تسربت إليه فيها الأطماع والمنافع المادية . لقد أعطى القدماء الدولة سلطاناً كبيراً على حساب الأفراد ، وهذا الوضع لا يمكن استمراره ، إنّه والحكم الديمقراطي على طرفي نقيض . فلا بدّ للفرد أن يثور يوماً ويتمرد . كما أنّ الطاغية إذا قبض على السلطة في دولة من هذا القبيل أصبح هو المهيمن المطلق على حياة الناس وأرزاقهم ، وأعقب ذلك تغيّر العقائد . فقد فسدت وهرمت الديانة البدائية التي كان رمزها حجر الموقد وقبر الأسلاف ، تلك الديانة التي انشأت الأسرة العتيقة . وكان كلما تقدم الزمن بهذه الديانة وازداد الذهن البشري حدة وتفتحاً واتسعت آفاقه ، ازدادت تهرؤاً وسقوطاً . وكل تغيير في العقائد لا يخلو من بعض الإنعكاسات وردود الأفعال السياسية . وهكذا فَقَدَ الحكم أسانيده الشرعية وصفته المقدسة وأوشكت تغييرات خطيرة تطرأ على تكوين الأسرة الداخلي .

نحن لا ننكر أن المعتقدات القديمة ـ مهما بلغت من الخشونة ـ لم تكن مما يسهل انتزاعه من ذهن العامة ، لكن المفكرين من الناس والحكماء ـ وهم أدوات التاريخ لإحداث التغيير ـ بدأوا يتحررون منذ القرن السادس قبل الميلاد ، فأصبحوا لا يقبلون فكرة أنّ الميت يعيش في القبر ويتغذى بالقرابين ، وقد خطوا في ذلك خطوات هامة حتى غدوا لا يؤلهون من الناس إلاّ من كانوا يضعونهم فوق مرتبة البشر ، اقراراً بفضلهم وعرفاناً لجميلهم ، أو تملقاً وزلفى إليهم .

وتبدلت فكرة المعبود شيئاً فشيئاً نتيجة لزيادة سلطة العقل وهوت عبادة الموقد . ثورة فكرية عارمة في كل مكان ، ولكنها ثورة بطيئة وخفية . ثمّ ظهرت الفلسفة وقلبت قواعد السياسة القديمة . فقد كان من المستحيل المساس بآراء الناس من غير المساس بمبادىء حكومتهم الأساسية . فقد كان لدى فيثاغورس فكرة مبهمة عن جوهر مفارق للكون وللإنسان ، ولذلك ازدرى العبادات المحلية . كما أنّ أكسينوفانس ندد بفكرة تعدد الآلهة وغدرهم وخسة طباعهم ، ونادى لأول مرة في التاريخ اليوناني بإلهٍ واحد منزه عن صفات النقصان . وأدرك أنكساغوراس وجود مبدأ منظم للأشياء ، وهو عقل صرف وجوهر مفارق للمادة . وبابتعاده عن السياسة القديمة ابتعد عن العقائد القديمة ، وكانت له آراء جريئة في الشمس والقمر وسائر الأجرام السماوية ، وحسبه انه نزع عنها صفة الألوهة ، وكان برقليس من تلاميذه . لقد كان مذهبه يضر بالدولة ، ولذلك

حكم عليه الأثينيون بالإعدام ، فساعده برقليس على الفرار من المدينة . وجاء السفسطائيون ليقضوا على البقية الباقية من ديانة الأسلاف . فقد كان دأبهم محاربة الأفكار القديمة والآراء القديمة ، والأخطاء القديمة ،وكلها آراء وأفكار ومعتقدات راسخة مستقرة في النفوس والأذهان . لقد فحصوا القوانين التي كانت لا تزال تحكم الدولة والأسرة ، وجادلوا فيها بجرأة شديدة . لقد شكُّوا في كل شيء ، وكان كل شيء عندهم موضعاً للنقاش والبّحث وإعادة النظر . وكانوا ينتقلون من بلدٍ إلى آخر يبشرون بمبادىء جديدة ويُعلمون عدالة جديدة ، عدالة أقرب للإنسان والعقلِ ، مجردة من صيغ العصور الخالية . واتهمهم المبطلون بأبشع التهم وقالوا إنّهم قوم لا دين لهم ولا أخلاق، مع أنّ الإصلاح كان رائدهم ، ولكن معاصريهم لم يفهموهم وأعلن سقراط وأفلاطون وأرسطو الحرب عليهم .

تغير كبير في تفكير الناس ومزاجهم وتطلعاتهم يدل على ظهور موقف مختلف من الحياة والكون والمصير . لقد كانت دول المدن في أيام سؤددها وشبابها بمثابة أندية ، وكانت أثينا مدرسة اليونان كما قال برقليس . لقد كانوا قمماً لا يفوقهم شعبٌ آخر في استقلال الروح وحب المغامرة وعشق الحرية وتشعب نواحي المعلومات والإعتماد على الذات في النواحي الصناعية والفكرية ، كما يقول برقليس أيضاً . فنحن نعجب بهم منذ أكثر من ألفي سنة ، نعجب لكتاباتهم وآثارهم ومنتجاتهم لما فيها من غنى وثراء وتعدد آفاق العقل وصفاء الروح . كما نعجب أيضاً بتلك الشجاعة النادرة التي تواجه بجرأة وسرعة حقائق الحياة القاسية . لقد أظهرت أثينا في كل سطر كتبته وفي كل حجر قطعته سداداً في العقل وقوة في الإرادة وعظمة في الفن . لقد أحبت الجمال وعشقت العقل وتعبدت للحكمة والقانون والنظام . لقد جُعلت البولص للهاوي فكان مثلها الأعلى ، فكل مواطن عليه أن يضطلع بمسؤولياته في أوجه نشاطها الكثيرة . لقد كان واجباً على المواطن نحو نفسه ونحو البولص أن يكون كل شيء وألّا يقف في وجهه شيء . لقد رأينا الديمقراطية تُدافع عن نفسها في ماراتون ، ثمّ تبعث فيها نشوة الظفر قوة على قوتها ، وتنظم نفسها على عهد برقليس فتزدهر وتثمر أغنى حضارة عرفها التاريخ . لقد أطلنا النظر مسرورين مغتبطين إلى العقل البشري وهو يتحرر من الأوهام والأساطير ، فينشيء علوماً جديدة ، ويبدع أفكاراً جديدة ، وينجب من الرجال ما فاق حدود الخيال . لقد آتت أثينا أكلها ولم تظلم منه

شيئاً ، وأغرقت العالم بفيض عطائها حتى لم تترك زيادة لمستزيد . . . لقد سارت أثينا بخطى حثيثة في طريق العظمة الفكرية والعزة القومية والمجد الحضاري حتى استنفدت كامل امكانياتها . وحقّ لها بعد هذا الجهد والجهاد أن تخلد إلى الراحة والسكوت . لقد حملت واحتملت ، ولكل حاملة تمام .

وقد ظهرت على أثينا منذ سنة ٤٣١ فصاعداً أعراض واضحة متزايدة من التوتر العصبي ، كانت تكشف عن نفسها في صورة نوبات هستيرية[١] . كما كثرت فيها عبادة الآلهة الأجنبية التي جاء بعضها من قوص وتراقية والأناضول[٢] ، بل وبعضها من مصر أيضاً . فقد كان الهلينيون ينظرون إلى آمون رع نظرتهم إلى زيوس زعيم المجموعة الأولمبية المقاتلة[٣] . وقامت في أثينا حركة اعتقالات سياسية واسعة سنة ٤١٥ على أثر حادثة تحطيم التماثيل النصفية للإله هرمس في إحدى الأمسيات على أيدي أشخاص مجهولين قيل إنّهم من تلاميذ سقراط . كما وقعت أيضاً مطاردة لبعض المفكرين بتهمة الإلحاد . وكان من السهل استثارة الرأي العام الأثيني باسم الدين وبالقول بأنّ الآلهة في خطر ، وكانت هناك دوافع سياسية لإستثارة الرأي العام على المفكرين . فأما أنكساغوراس أستاذ برقليس فقد لاذ بالفرار ، وأمّا سقراط فقد ثبت في موقفه حتى النهاية ، وآثر الموت على التنكر لمبادئه . وبموته استردت الديمقراطية الأثينية المدينة من أيدي « حكومة الثلاثين طاغية » الذين حكموها بالنار والحديد .

إنّ الأمم تولد رواقية ، وتموت أبيقورية . ففي العصر الرواقي ـ بالمعنى الواسع للرواقية لا بالمعنى الإصطلاحي التاريخي ـ انتشر اليونان في كل مكان في حوض البحر الأبيض المتوسط . لكنهم في العصر الأبيقوري ـ بالمعنى الواسع للأبيقورية أيضاً ـ ارتدوا على أعقابهم وبدأ انحسار المد وبدأ الإحتضار . فقد انتشر هؤلاء في كل جزيرة من جزر بحر إيجه ، ووصلوا إلى إيطاليا وغالة وصقلية واقريطش وقبرص ومصر وفلسطين ، واخترقوا سورياً وما بين النهرين وآسيا الصغرى وشمال أفريقيا . وقد أنشأوا في هذه الأقاليم جميعاً دول مدن مستقلة

---

(١) ارنولد توينبي : تاريخ الحضارة الهلينية ، صفحة ١٢٢ .
(٢) المصدر السابق .
(٣) كيتو : الإغريق ، صفحة ١٤٧ .

متفرقة ، تتكلم اللغة اليونانية ، وتكتب الآداب اليونانية وتقرؤها ، وتقوم بنصيبها في تقدم العلوم والفلسفة اليونانية .

لقد جعلوا حوض البحر الأبيض المتوسط بحيرة يونانية ومركزاً للعالم والعلم والحضارة[1] . هذا ما كان في عصر المدينة الزاهر ، عصر المواطن الهاوي ، أي عصر الإخلاص في خدمة المدينة والتفاني في سبيلها دونما نظر في حساب الخسائر والأرباح . أما الآن ، أي في عصر ما بعد دولة المدينة ، فإنّ فكرة الهاوي قد حلّت محلها فكرة المحترف ، وأصبحت الخسائر والأرباح جزءاً من الصفقة التي تباع بها وتُشرى المدينة . يا أسفي على دولة المدينة ! لقد كان خليقاً بالحلف الهليني الذي طرد الفرس من هيلاس الآسيوية ومنَ هيلاس الأوروبية أيضاً أن يحقق للعالم الهليني وحدته السياسية ، إذن لكان لليونان عندئذ شأن وأي شأن فوق ما كان له من عظم الشأن !! بيد أنّ الأمل لم يلبث أن تبدد . فالمعلوم أنّ برقليس قطع بأثينا أشواطاً طويلة في سبيل تحويل الإتحاد الهليني المعادي للفرس إلى امبراطورية أثينية ، لكن هذه الخطوة الإيجابية كان من نتيجتها إفساد العلاقات أكثر فأكثر بين أثينا وحلفائها السابقين ، وكانت هي السبب الأساسي في الحرب الثانية التي نشبت بين أثينا وبين الإتحاد البيلوبونيزي التي انتهت بتفكك الإمبراطورية الأثينية وانهيار الحضارة الهلينية[2] . ثمّ إنّ الحروب الطاحنة التي دارت رحاها بين الدول الشقيقة في العالم الهليني على مستوى دولة المدينة طوال ثلاثة وتسعين عاماً (٤٣١ ـ ٣٣٨) لم تلبث أن عادت إلى الظهور مرة أخرى على أوسع نطاق عقب وفاة الإسكندر . لقد أتاح الفرس لليونان فرصة ذهبية لكي يحلوا مشكلتهم السياسية . إنّهم ـ شاءوا أم أبوا ـ هم الذين دفعوهم إلى التكتل في سبيل الدفاع عن أنفسهم ، ولكنهم لم يكونوا على مستوى الحدث ، إذ لم يستطيعوا المضي في هذا الشوط إلى غاية مداه . لقد كانوا فعلاً قوة سياسية وعسكرية هائلة ، ولكنها قوة في وجه العدو الخارجي فقط ، وعندما ينعدم هذا العدو تتشرذم هذه القوة الكبيرة وتنقلب قوى صغيرة مجزأة يقاتل بعضها بعضاً ، تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ، كما كان العرب والمسلمون حتى عهدٍ قريب بل وفي الوقت الحاضر أيضاً . فالحقيقة التي أثبتتها معركتا ماراثون Marathon

---

(١) ول ديورانت : قصة الحضارة ، ٦ / ١٣٥ .

(٢) ارنولد توينبي : تاريخ الحضارة الهلينية ، صفحة ٢١١ .

وترموبولاي Trermopylae هي تفوق الجندي الهليني حامل الدروع على رامي السهام الفارسي . ومع هذا فإنّ الهلينيين قد عجزوا عن الإفادة من هذه الحرب بإهتبال الفرصة التي سنحت لهم لتحقيق الوحدة السياسية التي كانت ضرورة لازمة مكملة للوحدة الإقتصادية التي كانت قد تحققت بالفعل للعالم الهليني . فقد جاءت حرب البيلوبونيزوس لتقضي على جميع المكاسب التي حققوها ولتقوض أركان الحضارة اليونانية . لقد كان من دواعي سرور الفرس أن يشهدوا لعنة الحروب الأهلية تحل بالهلينيين وتشيع فيهم الخراب والدمار ، وذلك قبل مئة سنة من التاريخ الذي سيلقى فيه الفرس حتفهم على أيدي اليونان أنفسهم(١) .

وبالفعل لقد تطلع اليونان إلى أن يجعلوا من بلادهم دولة واحدة . فعندما رأوا أنفسهم صفاً واحداً في مواجهة العدو المشترك ، تنادوا من وراء المعسكرات وهم يصطلون بنيران المواقد ، قائلين عن بلاد اليونان : « إنّها بلا نزاع لديها جميع المقومات التي تجعل منها أمة واحدة . فماذا بينك وبيني [أيها الهليني] ؟ دم واحد يجري في عروقنا ، دم زيوس وأبينا هيلين Hellen ، ونحن نتكلم لغة واحدة ، وإلاّ لما أمكننا أن نتسامر ـ ولو بصعوبة ـ حول هذه النار ، ونعبد آلهة واحدة ، وهو ما نتداوله عندما نذهب إلى دلفوس واولمبوس ، ونشترك في أكثر العادات ويفهم بعضنا طرائق بعض . فلنعمل على تكوين دولة واحدة بعد الفراغ من هؤلاء البرابرة »(٢) .

ولكن هذه الأحلام قد تبددت سراعاً ، لأنّ ما فرقته القرون لا تجمعه مناسبات عابرة لا تلبث أنْ تزول . والحق إنّ الخلافات لم تتوقف حتى إبّان المعارك ، وما انتهت الحرب حتى عادت الخلافات سيرتها الأولى أكثر قوة ، واختفت الوحدة وخابت جميع الآمال التي كانت معقودة عليها .

وعبثاً تحاول أثينا أن تستجمع قواها وتعيد تنظيم ما اختلّ من أمرها . لقد نضبت مواردها وقل عامرها ، بعد أن دعت دعوتها ، وأوفت على الغاية في تبليغ رسالتها . لقد أعياها العمل حتى لم يبق في القوس منزع . فإنّ الوجهة التي اتخذتها أثينا بقيادة برقليس رغم ايجابيتها لم يكن من شأنها إلاّ أنّ تؤدي إلى تجدد

(١) المصدر السابق، صفحة ٩٦ ـ ٩٧ .

(٢) نقلاً عن الفرد زِمرن : الحياة العامة اليونانية صفحة ، ٢١٦ ـ ٢١٧ .

معارك الإقتتال بين الأخوة وإلى انهيار الحضارة الهلينية كما ذكرنا ، ثمّ توحيد العالم الهليني في النهاية سياسياً وعسكرياً على يد الجيوش الرومانية الجبارة . ومنذ الآن ستستسلم للأتوقراطية والخمول وتصوّف الشرق ، وجميع الدلائل تدل على أنّها سترحب في أخر المطاف بالرومان الفاتحين . وعلى أيديهم تورث بلادُ اليونان الميتةُ أوروبا آدابها وفنونها وشرائعها كما ستورث العرب والمسلمين من خلال البيزنطيين أو الروم ـ كما يسميهم العرب ـ علومها وفلسفاتها التي سيطورها العرب ويضيفون إليها إضافاتٍ جمة ، ومن طريق الأندلس ستنتقل هي أيضاً إلى أوروبا والعالم ، فتكون هي وتلك التي انتقلت إلى الرومان الأساس الثقافي الحي لعالمنا الحديث .

هذا ولم تكن الهزائم التي لقيتها أثينا لتعدو الجانب العسكري ، ولكن هزيمتها على يد سقراط كانت هزيمةٍ كبيرة يجب ضَمها إلى سلسلة هزائمها الأخرى . لقد جلبت الإلَهة أثينا على نفسها العار عندما أدلت بصوتها بإعدام سقراط سنة ٣٩٩ . وما من شيء أثار حفيظة الهلينيين على دول المدن جمعاء كإعدام سقراط بعد مثوله أمام القضاء . ذلك أنّ أثينا قد أقامت من نفسها مثلاً أعلى لما ينبغي أن تكون عليه سائر المدن الهلينية . وكان لسقراط أصدقاء ومعجبون ومريدون في غير ما مدينة من مدن اليونان إلى جانب مريديه في وطنه ومسقط رأسه .

لقد انتهت أثينا وما انتهت . لقد انتهت سياسياً وعسكرياً إلى غير رجعة ، ولكنها لم تنته فكرياً لأنّ لها في العقول والقلوب كل يوم ألف رجعة ورجعة !!! فقد كان التراث المتنوع الذي خلّفته للأجيال من بعدها ـ وعلى رأسه الفلسفة ـ بمثابة أداة فكرية على أكبر جانب من الأصالة والقوة ، وحسب هيلاس ذلك لتُكتب لها الحياة الأبدية والخلود السرمدي بعد انحلال المجتمع الهيلاسي . لقد كانت دائماً مهوى أفئدة العالمين ، طبعت بطابعها كل شعب يؤمن بالعقل ويعشق الحرية ويدين بدين الحب والجمال . لقد هُزمت أثينا عسكرياً وسياسياً ، ولكنها باقية في أذهان عشاقها والمؤمنين بمثلها وأهدافها يؤمها الأحرار من كل فج عميق رجالاً وركباناً ، تستهويهم ذكراها ويرنون إلى حماها ، ويجدون الأمن والمَثابة في جميع ربوعها وأطلالها وفي كل حبة من ترابها وكل نسمة من أنسامها .

لقد كان يمكن للحضارة الهلينية أن تعيش أكثر مما عاشت بالفعل لو أنها عرفت كيف تجعل من حلف ديلوس ، حلف الأخوة والأشقاء ، دولة موحدة

تضم تحت رايتها جميع الأخوة والأشقاء ، لكنها لم تفعل وعلى نفسها جنت براقش . إن أحداً لم يجن على اليونانيين بل لقد جنوا على أنفسهم وحاق بهم ما كانوا يعملون . وينطبق عليهم المثل العربي القديم : « أجناؤها أبناؤها » .

ولذلك فإنه لَوْ حقَّ لنا أن نستخدم لفظة « موت » للدلالة على زوال نظام من الأنظمة لوجب أن نقول مع توينبي بأن « موت الحضارة الهلينية كان عملية انتحار ولم يكن عملية اغتيال »[1] . لقد ماتت الحضارة الهلينية قبل أن تموت ، وكانت علة موتها هو عجز أصحابها عن أن يتوجوا الوحدة الاقتصادية بالوحدة السياسية ، فدبت فيهم العداوة والبغضاء التي ظلت تزعزع البنيان طوال مدة تكاد تكون متصلة تقدر بأربعة قرون وتبدأ سنة ٤٣١ عندما اندلعت أول شرارة لحروب البيليبونيزوس ـ حتى أتت عليه من القواعد . لقد كانت الجروح قاتلة مهلكة ، ولم يمكن إيقاف النزيف بوجهٍ من الوجوه . لقد حُمَّ القضاء فلا رادَّلإرادة القضاء ولا معقب لحكمه .

لكل أجلٍ كتاب . فالأمم لا بد أن تنتهي والنهاية هي دائماً نهاية محزنة . لقد بذلت أثينا المضطربة المختلة النظام مجهوداً جباراً ينطوي على الكثير من البسالة لتقف على قدميها وتستعيد قوتها . ولكن عبثاً ، فقد جاء هازم اللذات .

فإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيتَ كل تميمة لا تنفع !

خاتمة مفجعة لأمة عظيمة ، عظيمة حتى في اضمحلالها وسقوطها والدم ينزف من جروحها . في هذه اللحظات الدرامية من حياة أثينا اختارت أن تبذل آخر عطائها بل خير عطائها . فمع كل نقطة دم تسقط كان يرتفع أثر لا يُمحى . لقد رأينا الأثر تلو الأثر ونسينا رؤية الدم . إن للموت سكرات والغريب أن نحسب هذه السكرات صحواً لما صحبها من نشاط خارق غير عادي في كل فن من فنون الفكر والقلب والوجدان . كثافة هائلة في العطاء صرفتنا عن معاناة أثينا وما كان يحيق بها من آلام النزع الأخير . لقد انعدمت لدينا الرؤية حتى لظننا الخريف ربيعاً . لقد ولَّت أيام أثينا فَحَسِبْنَا تصرُّم الأيام إقبالاً للأيام ، وما كان ينبغي لنا ونحن الدهاقنة الأعلام أن نجلب لأنفسنا هذا الملام .

---

(١) ارنولد توينبي : تاريخ الحضارة الهلينية ، صفحة ٢٦٥ .

وعلى كل حال ، لقد كانت القرون الأخيرة التي شهدت تردي العالم الهليني في هاوية الإنقسام الداخلي الذي انتهى إلى الدمار والخراب هي ذاتها الفترة التي شهدت ازدهار والفلسفة والعلوم والفنون والآداب في هيلاس . فيها بالذات نشأت براعمها وتفتحت أكمامَها على حين غرة . وسرت عدوى التفتح ودب دبيبها في جميع الشعوب الهلينية التي اشتركت في الدفاع عن وجودها في مواجهة الفرس . وكان لاصطدام هيلاس الآسيوية التي كانت قد حصلت على استقلالها لفترة من الزمن بالأمبراطورية الفارسية ، أن اتسع أفقها الجغرافي واكتسبت خبرات جديدة ومعلومات جديدة . ومن ثَم قوي بهذا القدر أيضاًالحافز في نفوس بنيها على الخلق والإبداع . وفي حمأة هذه الفترةَ وُلد هيرودوتس أبو التاريخ وتوقيديدس وثيوافرسطس وسقراط وأفلاطون وأرسطو أعظم فلاسفة اليونان . وشهدت هذه الفترة أيضاً نشأة مدرسة تجريبية للطب في جزيرة قوص Cos تقترن باسم أبقراط . وبلغت فنون الدراما والمعمار والنحت جميعها في أتيكا غاية نضجها وازدهارها . وفي أعقاب الاسكندر ـ أي منذ أن أخذ الداء يتغلغل في الجسم المريض وتتفاقم ـ سنرى الحضارة اليونانية أعظم وأقوى من أن تحتويها شبه الجزيرة ، فتخترق حدودها الطبيعية وتفيض من جديد على آسيا وافريقيا وإيطاليا ، وتُعلم الشرق السادر في نومه ، المستغرق في تصوفه وباطنيته ، عظمة العقل وجلاله ، وتعيد مجد مصر في اسكندرية البطالمة ، وتُغني رودس بالتجارة والفن ، وتنهض بالهندسة على يد أقليدس في الاسكندرية وأرخميدس في سيراقوصة ، وتضع على أيدي زينون وأبيقور أبقى الفلسفات وأطولها عمراً في التاريخ ، ذلك هو عصر الإحتضار الخلاق ، على ما في هذه التسمية من الشناعة والتناقض والغرابة والمفارقة والنشاز والنشوز .

إن كتب تاريخ الفلسفة اليونانية لا تذكر كلمة واحدة عما رافق هذه الفلسفة من نزف ودم وإعياء ومرض قاتل . إن جل ما تفعل أن تقوم بعمليات سرد طويلة لحياة الفلاسفة اليونانيين وآثارهم وتلاميذهم ومذاهبهم ومجامعهم وأنديتهم ومن عسى أن يكونوا تأثروا بهم ونقلوا عنهم . . . وقد يأتي بعضهم بشيء من التحليل والتقويم والمقارنة يختلف في العمق والأصالة والإفتعال وتحميل الأشياء فوق ما تحتمل . ويقف المؤرخ ـ لا فُضّ قلمه ـ عند هذا الحد لا يتقدم خطوة واحدة . حتى لحسبنا أن اليونان نشأوا من العدم وأن فلسفتهم وليدة قرائح فياضة تعيش في فردوس أبدي بلا هواجس ولا هموم ولا أحزان . لقد كنت

أعتقد ـ وأنا على مقاعد الدراسة ـ أن الفلسفة اليونانية عبير فاح في نسمات الفجر ولم يكن ليخطر لي على بال أن ينابيعها قد انفجرت والضوء يجمع أشتاته عند الغسق بعد الغروب . لقد كنت أحسبها زهرة من زهرات الربيع فإذا هي زرع نبت في أواخر الخريف . لقد كنت أظن أنها أول الغيث فإذا هي قطرات آخر الموسم .

إن أساتذتنا ـ وكلهم ممن نجُل ونحترم ، عرباً كانوا أم أوروبيين ـ يعنون أشد ما يعنون بالشخصيات التي تجلت أكثر منهم بالأعصاب التي توترت ، والعيون التي تقرحت والدماء التي سالت ، والمشاريع التي أحبطت . إنهم إنما يهتمون بالثمرة التي يسهل قطافها ولا شأن لهم بعد ذلك بعملية الإثمار ومخاضها العسير . إنهم يقدمون لنا الثمرة ناضجة خالصة ندية كأنما الدنيا صفاء في صفاء وكأنما هبطت علينا من السماء ،ولذلك بقيت أبصارنا مشدودة إلى السماء ولا ترى الخير والحمد والنعمة إلا في السماء . وفي السماء رزقكم وما توعدون . حتى لقد نسينا الأرض وغبارها وأقذارها وأدرانها وما فيها من كدٍ وكديد وجهاد وجهدٍ جهيد . ولا أُبرىء نفسي فقد أتى عليَّ حين من الدهر كان تصوري لتاريخ الفلسفة كتصور سائر الرعيل ، وكنت زميتاً كتزمت سائر الرعيل ، ولا أتنفس إلا في أجواء سائر الرعيل ، حتى بدا لي أن انفصل عن الرعيل وأشق العصا على الرعيل ، رضي أم لم يرض الرعيل !! .

* * *

واشترك الوباء في المأساة التي وضعت نهاية لتاريخ اليونان ، فكان ضغثاً على إبالة . فلعل ما حل بهذه الأمة العظيمة من تمزق وخلافات ومشاحنات وحروب داخلية وخارجية ، لعل كل أولئك لم يكن كافياً ، فجاء الطاعون ليقضي على البقية الباقية مما لها من نبض وفاعلية وتصميم على تحقيق الذات . ومع ذلك فإنها لم تتوقف عن العطاء ، بل ظلت تعطي وتعطي حتى لا يمكن بعد ذلك عطاء ، فكأن العطاء ضربة لازب أو فرض واجب الأداء . بل لعل الطاعون مما يساعد على العطاء لأنه أخلى الساحة من كل مريض وسقيم وعاجز عن البقاء ، فترى الناس فيها صرعى من أثر الوباء . لقد اشتد بهم الداء وعز الدواء . وانقطع الأمل والرجاء ، نعوذ بالله إذا حُم القضاء وعمّ البلاء ، فيومئذٍ لا يجدي العويل ولا الصراخ ولا البكاء !

لقد أحبوا أثينا إلى درجة العبادة كما مرَّ معنا ، ولكنهم لم يعطوها حقها من النظافة والتنظيم والتنسيق . فقد كانت شوارعها ضيقة متعرجة قذرة غير مضاءة ولا ممهدة ، وليس بها مجارٍ ولا بالوعات . وخير لنا أن نسدل ستاراً كثيفاً على جميع المرافق الصحية الأخرى . لقد كان هاجسهم الأول أن يظفروا بتقدير الناس لا لكفايتهم بل للطفهم وكياستهم . إن كل ما حاولوه أحسنوا أداءه ، وما لم يحاولوه فلم يكن ليعني شيئاً بالنسبة إليهم .فهم لا يحاولون إلا ما هو عظيم وكبير ، وما عدا ذلك فلا يقحمونه في مشاغلهم ولا يعكرون به صفو تفكيرهم . فالكبير لا يليق به إلا ما هو كبير ، من هذا المنطلق نظر الأثينيون إلى مرافق المدينة. فهذه الأشياء وما إليها ـ كما يقول برقليس ـ ليست أساسية ، ولا ينبغي أن نطيل الكلام فيها . فيجب أن نتقبل الأبهة ونستمتع بها ، وأن ندع الأقذار بسلام ، فلنقصد إلى الأشياء العظيمة مباشرة ولنتجاهل ما عداها . والمهم إنما هو ما أنجزته أثينا من أعمال الحضارة [وهذا حسبها ،] لا تلك العقبات التافهة التي لا حصر لها . . .(1) .

أجل ، إن برقليس وصحبه من رجال الأعيان قد أهملوا عالم الأجسام والأبدان لينصرفوا إلى عالم العقول والأذهان ، لقد تركوا عالم الأشياء الصغيرة ليوغلوا في عالم الأفكار الكبيرة . إن أثينا قد جرفها تيار مغامرات روحية عظيمة حادت بها عن ضرورة الإهتمام بالتفكير في تفاصيل الحياة العامة . فقد عاش الأثينيون تحت الأكروبولص كما عاشت أجيال كثيرة تحت أبراج أكسفورد في أبهة قذرة . فمن الصعب على النفس البشرية حقاً أن تعمل في وقتٍ واحد عملين مجيدين . لقد أهمتهم اللوعة على حقوق العقل المنقوصة حتى همتهم . ولكن الوباء الذي لم يحفل بالعقل توجه إلى القذر رأساً فكان معولاً في تهديم أثينا والإسراع بها إلى مصيرها المحتوم . فقد فقدت أثينا ربع القوة البشرية بهذا الوباء الذي لا يبقي ولا يذر . وطوال فصل الصيف القائظ ، وطوال الشتاء الذي تلاه ، ثم لصيفٍ آخر وشتاء لاحق ، رفرف ملك الموت على أثينا وأخذ يجوس خلال الديار لينشر الخراب والدمار ! . وعندما غادر المدينة أخيراً استيقظت لتجد روحها قد وهنت ، وشجاعتها قد خارت . فالآمال القديمة ، وشعور القداسة والتنظيم الذاتي والمرح تبددت جميعاً ، وحلَّ محلها الحماقة والجشع والشك ونظرة الحسد الخسيسة واليأس الواهن ، بل وكل شرور

(1) انظر الفرد زيمّرن : الحياة العامة اليونانية ، صفحة ٣٥٤ ـ ٣٥٧ .

الإنحلال . . . لقد شاهت مثالية أثينا لأول مرة مع هذا الصدع وذهبت معها آمالها أو كادت . وكانت ذكريات أليمة مفجعة . لقد اختارت أن تضع الجمال قبل الأمن والسلامة ، وأن تبني معابدها على الأكروبولص ، بدلاً من أن تمد أنابيب المياه إلى بيرايوس . لقد شغلها تطلعها إلى الأعالي عن الإهتمام بالسفوح . . . ومنذ ذلك الوقت لم يكن ممكناً حتى ولا لبرقليس نفسه الذي أضناه المرض أن يبث الروح والشجاعة في عقول مواطنيها أو يسمو بقلوبهم[١] . لقد حصده الوباء فيمن حصد ، وتركه جثة هامدة لا تقدر على شيء بعد أن كانت كل شيء لا يعجزها شيء ولا يقف في وجهها شيء !!

وسرعان ما استجمعت أثينا بعض قواها ولو مؤقتاً لتمخض عن آخر مولود لها . فما أكثر مواليد أثينا ، إن أثينا لا تجهض . فقبل أن تموت يجب أن تضع حملها الذي أنقض بطنها ! والغريب أن كل ما طرأ على أثينا لم يزعزع تفكيرها ولم يصرفها عن أداء رسالتها . بل لعله زادها تصميماً على التفكير والقيام بأعباء الرسالة رغم خوَرها وتضعضع أركانها وذهاب ريحها . إنها صحوة الموت إنثالت فيها المعاني ثم نضب المعين . لقد أحست دنو أجلها فكانت كلما أسرعت نحو قدرها المحتوم زاد عطاؤها الذي بلغ قمته في الثلاثي سقراط وأفلاطون وأرسطو . ثم بدأ منحنى الهبوط . فهؤلاء العمالقة ينتمون إلى العصر المحاذي لعصر الطاعون . إنهم جميعاً من منتجات العصر المحاذي لعصر الطاعون . لقد تربصوا بها إثخان الجروح وريْب المنون ، فعلت على الجروح وعلت على المنون ، وكانت دائماً فوق الشبهات والظنون . فأكرِم بها من أمة أبلتها وما أبلتها السنون ، وتعاقبُ الأجيال والقرون!! .

ملاحظات عامة أخيرة :

تلك كانت نبذة عن حياة اليونان في دولة المدينة التي من أجلها إنّما عاشوا وناضلوا . وخشية فقدانها ماتوا وخلدوا ! هناك لم تهن القلوب ايثاراً للثروة على الشرف . كم هم كبار هؤلاء اليونان ! هم القوم لا يشقى جليسهُم .

لقد عاشوا سعداء وماتوا سعداء وهم يبنون أثينا ويحاربون أعداء أثينا .

---

(١) انظر المصدر السابق،صفحة ٥٢٧ ـ ٥٩ ، انظر أيضاً الصفحات المذكورة في الحاشية السابقة .

لقد انتصروا على العدو الخارجي ليتفرغوا للعدو الداخلي . لقد رجعوا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ، ألا وهو جهاد النفس . وعلى الجبهتين اجترحوا المعجزات .

لقد كانوا يجاهدون بقوتهم البشرية الضئيلة وحدها في سبيل المُثُل التي آمنوا بها والمدينة التي عبدوها . ففيها وُلدت قوتهم، وتكوّنت شجاعتهم، وحدة ذكائهم، وفيها نضجت شخصيتهم وشدة مراسهم وعشقهم للجمال والحرية . أجل في دولة المدينة اجتمعت هذه الصفات والخلال كلها وبلغت غايتها ، ويكاد لا يوجد في تلك الفترة شعب كان لهما للأثينيين من قوة الخيال، وروح المغامرة ،وحب الحقيقة، والشغف بالحرية ، والإيمان بالإنسان . لقد كان التفكير المنطقي الواضح ، والتعبير الصريح البعيد عن الغموض ، من الصفات القدسية لدى الأثيني ، فلم يكن يطيق التشويش والإرتباك العلمي ، وكان يرى أن الحديث الدقيق القائم على المعرفة والذكاء أرقى متع الحضارة . وهل السبب فيما امتاز به التفكير اليوناني وما امتازت به الحياة اليونانية في عصرها الذهبي من غزارة وقوة ، هو اقتناع اليوناني بأن الإنسان هو المقياس الذي تُقدَّر به الأشياء جميعها ؟ فالأثيني المتعلم يعشق العقل ، وقلما كان يشك في قدرته على إدراك العالم وتصويره . وكان حب المعرفة ، والرغبة في الفهم أنبل عواطفه وأعظم مشتهياته ، وكان شغفه بهما بغير حدود . ولكنه اكتشف أخيراً أنّ للعقل الإنساني والجهود البشرية حدوداً لا يمكن تخطيها ، ومن هنا تشاؤمه وانقباضه ، وهذا مما لا يتفق مع بهجته وفرحه ، وحتى في العصر الذي بلغ فيه إنتاجه الفكري غاية مداه . كانت آراء أعمق مفكريه ـ وهم كتّاب المسرحيات فضلاً عن الفلاسفة ـ يشوبها الإعتقاد في أن بهجة الحياة خداعة قصيرة الأجل لا تبعث على الثقة ، وأن الموت رابض له متربص به .

لقد شب اليونانيون على مُثل الحرية والديمقراطية والمساواة . لقد كان هواهم المتأصل في نفوسهم وأعظم مفاخرهم أن يظلوا هواة ممتازين وأن يكونوا قادرين على ارتجال العلاج الصحيح للأزمات المفاجئة . إنّ ثروتهم الحقيقية لم تكن في بيوتهم المعرضة للسرقة والبلى ولا في شوارع مدينتهم المليئة بالأقذار والروائح النتنة ، بل في روحهم العالية وأعمال فنانيهم وفيما خلّفوا لنا من إنتاج أدبي وفلسفي كان دائماً متعة للأجيال والعصور . فجماعة كهذه مهما كان مقرها عرفت كيف تفجر طاقات مواطنيها وتستغل قدرة فنانيها ومهندسيها ونقاشيها ،

وقد لا يكون لها حماة من الأغنياء ، ولكنها استطاعت أن تكفل لشعبها الغيرة والحماسة ، ولفنها الوحي والإلهام ولفلسفتها السمو والإرتفاع ، ولأبنائها المجد والخلود .

وإذا كان هؤلاء الحالمون الملهمون لا يزالون يذهلوننا ويخلبون عقولنا وألبابنا ، فلا يذهبن بك الشطط إلى حدّ الظن بأنّ جميع أفراد الشعب اليوناني متحلون بهذه الصفات والمزايا . كلا ، كلا ، فإنّ القوم ليسوا كلهم حكماء ، بل لا يُتوقع منهم أبداً أن يكونوا كذلك ، وطبيعي ألاّ يكونوا كذلك . لقد حفظ لنا التاريخ أسماء عباقرة اليونان ولكنه قد صمت عن ذكر أغبيائهم . إنّ عصرنا يبدو عظيماً لمن ينسى سواد الشعب ولا يذكر سوى الشوامخ . وإذا أخرجنا من حسابنا وتجاهلنا هالة القداسة التي تحيط بقدماء اليونان ، رأينا هذا الشعب الذي أنجب أعظم فلاسفة التاريخ لا يقل عن سائر الشعوب عيوباً وآفاتٍ كما سنرى في الفصل التالي .

ليس من الممكن أبداً لشعب من الشعوب أن يكون كله مدينة فاضلة أو مجتمعاً من اللصوص ، وإنّما الأفراد هم الذي يخلدون ذكرى الشعوب والأفراد هم الذي يلطخون سمعة الشعوب ، وأما الشعوب فهم دائماً لا في العير ولا في النفير ، تتحكم فيهم قلة خيرة أو شريرة فتسوقهم في مساقها وتجري بهم في دروبها . وأما القول الشائع « كما تكونوا يُولَ عليكم » فهو قول غير صحيح إلاّ في عصور الفساد بل هو تبرير للفساد . إنّه ينفي كل محاولة للإصلاح بل كل تفكير في القيام بأي إصلاح . فلولا السيف المصلت فوق الأعناق ، لولا اللجام ، لولا القانون لكان أمر الناس فوضى ، ولاستحبوا العمى على الهداية ، والغريزة على العقل ، ولكنه المصلح يحملهم على جادته .

فعصور الإصلاح ينطبق عليها قول آخر وهو أن « الناس على دين ملوكهم . ثمّ إنّ الثروات والأقوات محدودة ، وطلابها كُثُر لا هي جمعهم ولا يحصى عديدهم ، يودُّ كل واحدٍ منهم أن يمد يده إلى حاجته يأخذها من صاحبه ، فيمانعه عنها ويدافعه ، وهكذا يقع التنازع المفضي إلى المقاتلة وسفك الدماء . لذلك يستحيل بقاء الناس فوضى دون حاكم يزع بعضهم عن بعض .

وهذا الوازع يجب أن يكون واحداً منهم تكون له الغلبة والسلطان واليد القاهرة ، حتى لا يصل أحد إلى غيره بعدوان . فلا بدّ للبشر من الحاكم الوازع ،

وإلّا أفلت الزمام إيثاراً للظلم على الإنصاف وللهوى على الرويّة والإعتدال . والحاكم حاكمان : حاكم يسير مع التيار وحاكم يتصدى للتيار ويواجه التيار .

الأول شعاره : « كما تكونوا يولَّ عليكم » ، وأمّا الثاني فشعاره : « الناس على دين ملوكهم » . فشتان إذن بين الحاكم والحاكم وهيهات هيهات أن يستوي الحاكم والحاكم . كلاهما حاكم ، لكن أحدهما بئس الحاكم والآخر نِعَم الحاكم !

وعلى كل حال إنّ الأخيار قلة والأشرار قلة ، والأفذاذ قلة والعته قلة ، والقلة المتفوقة في تفاعلها مع المجموع هي التي تعطيه المزاج والطعم والنكهة ، ويترسخ ذلك يوماً بعد يوم ويتأسّس بحكم الوراثة الإجتماعية التي تحدثنا عنها في صفحاتٍ سابقة . هذه القلة هي لولب التاريخ وهي هي التي تحرّك التاريخ ، والآخرون يتحركون بحركتها ويسلكون الفجاج التي تشقها . أولئك هم الطليعة المتقدمة أو الرجعية المتحكمة يحملون المشاعل والرايات أو يُطفئون المشاعل ويسقطون الرايات ، وهؤلاء هم التُبع الذين يستضيئون ويتحركون ، لجامهم في أيدي سادتهم ، ما كان لهم إذا أمضى السادة أمراً أن تكون لهم الخِيرَة في أمرهم . السادة يختارون « ويفصّلون » ، والعبيد ينقادون ويلبسون .

وبعد أن كان هؤلاء مضلّلين يجهلون كل شيء عن الطليعة التي تدعوهم إلى ما يُحييهم ، وبعد أن كانوا أعداء لأنفسهم يسجدون للطاغوت، انقلبوا أعواناً مساهمين وإخواناً متعاضدين . لقد جرفتهم الحركة الصاعدة وهم الآن مصدر قوة للحركة الصاعدة ووقود متوهج يضيء طريقها . وليس من الضروري أن تكتسح هذه الحركة جميع قطاعات الشعب وتتغلغل في جميع شرائحه ، لأنّ المعارضة لا يمكن أبداً إستئصالها وقطع دابرها . فهناك دائماً حركة وحركة مضادة ولكل منهما أقطابه ورجاله ، والصراع سجالٌ بينهما ، والأمر مرهون بموازين القوى بين الفريقين . فهناك درجات في التحرك ودرجات في مقاومة التحرك . ومن هنا ما نرى من تنوع وأشكال وظلال في صميم الشعب الواحد .

هذا ما يُسمى بخصائص الأمم وشمائلها وسجاياها . ولأنّها نتيجة الوراثة الإجتماعية ، فهي دائماً مهددة بالزوال والإضمحلال . إنّها لا تبقى ولا تدوم إلّا بدوام الشحن واستمرار الضخ . فإذا انقطع المدد أو طوحت بالبلاد الطوائح ، تبدّل الحال غير الحال ، وهذا ما حصل لليونان وما سيحصل للعرب بعد فترةٍ من

الزمان . لقد كانت حفنة أو فئة قليلة من البشر تلك التي صنعت مجد اليونان . ومهما كان عددهم كبيراً نسبياً فإنّهم ليسوا شيئاً مذكوراً بالقياس إلى مجموع السكان ، فلم تكن لليونان خصائص وشمائل واحدة في جميع الظروف والأحيان ، بل لقد تبدل ذلك بتبدل الزمان والمكان . فليت شعري ! هل يونان اليوم يصدق عليهم ما يصدق على يونان ذلك الزمان ؟ أوَلم يتقلبوا من النقيض إلى النقيض في كل ما يخطر على بال الإنسان ؟ كفاكم هراءً أيها القائلون بالعنصرية والعرقية وتفوق البنية على البنية والبنيان . فإنّما البنية واحدة وما تبقّى فبهت وبهتان ، ولا فضل لبنية على أخرى إلّا بالمتغيرات وسوانح الأحداث والحدثان ، لا بثوابت اللون والجنس وما إلى ذلك من الأوثان . فالثوابت لا تفسر شيئاً إنّما التفسير في المتغيرات التي تختلف من آنٍ إلى آن . فهل يستوي الآن والآن ؟ فمن الآن ما فيه الشوك والعلقم ومنه ما فيه من كل فاكهة زوجان . لا إكراه في العلم وحقائق الأعيان . قد تبين الرشد من الغي ، بالتجربة والملاحظة وحقائق العلم فعليها يصح الرهن وينعقد الرهان . فالعلم ينفي تفوق الجنس على الجنس بغاية الوضوح والبيان ، فتبينوا يا معشر المتعاملين والمتفيهقين والكهان ، إنّي لكم ناصح أمين - إي وربي ! - فكفوا عن الهذيان ! لقد أبلغتكم رسالات ربي ، وما ربي سوى حقائق العلم والتاريخ والبرهان . ألا هل بلّغت ؟

كان المواطن الأثيني خاضعاً للمدينة في كل شيء وبلا أي تحفظ . لقد كان لها بكليته . وكان كل ما في الدولة التي ولدت الديانة والديانة التي ترعى الدولة ، تسند إحداهما الأخرى ، وهما شيء واحد في نظره واعتباره . إن أمجاد الهيلينيين قد بلغت مبلغاً عظيماً حدا بهم إلى أن يسموا بالبولص التي أطلقت العقلية الفردية من عقالها ، من كونها مشروعا سياسيا إلى مقام الآلهة المقدسة . وفي هذه الأثناء كانت قوة الإنسان الجماعية المجسمة في دولة المدينة قد حلت محل البانثيون الأولمبي ومجموعة الآلهة الأولمبية التي ترتبط بها الديانة الأولى للعالم الهيليني ، فكان المواطنون في دول المدن يعبدون مدنهم وهم يحسبون أنهم يعبدون الآلهة القديمة . فقد كانت الآلهة الحارسة للمدينة رمزاً للقوة الجماعية للمواطنين الذكور في دولة المدينة . ولذلك فإن هؤلاء المواطنين إذ يعبدون مدينتهم فإنما يعبدون أرواحهم الخلاقة المتوهجة . إن دول المدن جديرة بأن تنال التكريم والتقديس من جانب مواطنيها لا لشيء إلا لأنها قد أمدتهم بظروف إجتماعية شجعت مواهبهم وفتقت

قرائحهم وحفزتهم على إبراز أسمى قدراتهم وخير ما كمن من مواهبهم .

إنهم يدينون بالكثير لدولة المدينة.، فقد حررتهم من القيود الشديدة الوطأة التي تتجلى في حياة الأسرة القديمة التي كانت تُفقد الناس شخصياتهم المستقلة وما لها من فكر وإرادة ، حيث كانوا مجرد فرع من شجرة هي بدورها فرعٌ آخر من شجرة أكبر تضرب جذورها في أغوار الماضي . لقد كانت الواجبات العائلية المختلطة بالواجبات الدينية والطقوس والشعائر تجعل أصحابها يعيشون حياة خانقة لا تدع لهم مجالاً للتفكير والعمل المستقل ولا تتيح لهم الخلاص من المآزق النفسية التي كانت تجرهم إليها واجباتهم الدينية العائلية الإجتماعية. ولم ينجوا من هذه المحنة إلا عندما هبّت مدينة الدولة لإستنقاذهم . وهذه الناحية الأخيرة هي محور الثلاثية التي كتبها الشاعر المسرحي إيسخيلوس Aesehylus والتي تدور على قصة آل اتريوس Atreus حيث نقف على الصراع المرير الذي خاضه أحد أفرادها من أجل الخلاص من المآزق النفسي الذي جرته إليه واجباته العائلية [الدينية السياسية الإجتماعية] ، وكيف تخلص من هذه المحنة بتدخل إنساني كريم جاءه من دولة المدينة التي هبَّت لنجدته . فهو أمام إلتزامات فادحة لا سبيل إلى التوفيق بينها لعلاقتها الوثيقة بصراع الآلهة وتربص بعضها ببعض ووقوفها بالمرصاد لأي إنسان يقدم على الإعتداء على إحدى النساء التي يطمح بهنّ أحد الآلهة ، والويل لمن يُرضي بعض الآلهة ويتجاهل البعض الآخر(١) .

إنّ دولة المدينة قد حررت اليونان القدماء من كل هذا وكانت بلسماً لجراحهم ، فوجدوا فيها الملجأ والملاذ. لقد انتهى كل ذلك . لقد مضى عهد مدينة السماء وأقبل عهد مدينة الأرض .

لقد كانت الخدمات التي تسديها دول المدن اليونانية ـ ما عدا إسبرطة ـ إلى مواطنيها تفوق الواجبات التي تفرضها عليهم أو تكاد. فإنّ دولة المدينة بعد أن ساعدت الهلينيين على حل الكثير من مشاكلهم ، لم تكتف بأنْ جعلت في مقدورهم تنسم الحياة بعد طول اختناق ، بل لقد أرادت فوق ذلك أن يكون تنسمهم لها بسعة ووفرة . « فقد جاءت دولة المدينة إلى الوجود لكي تجعل الحياة

---

(١) انظر ارنولد توينبي : تاريخ الحضارة الهلينية ، صفحة ٥٥ ـ ٥٦ .

ممكنة » ـ كما يقول أرسطو : « فإنّ علة وجود هذا النظام هي أنّه يجعل الحياة جديرة بأن يحياها الناس »[1] . ولو قدر لأرسطو أن يكتب عبارته الأخيرة قبلما كتبها بالفعل بنحو عام ، لكان قد وجد المزيد من الحقائق لإثبات ما ذهب إليه . والحق، إنّ دول المدن الهلينية قد اتاحت لمواطنيها ـ طوال مدة لا تقل عن ثلاثة قرون تنتهي بعام ٤٣١ ق . م . ـ فرصاً نادرة عظيمة للإنطلاق والتطوّر .

لقد كان عبئاً ثقيلاً أن يكون المرء مواطناً في دولة المدينة ، ولكنه كان شيئاً كبيراً . فقد كان في ذلك ما يكاد يشغل الحياة بأكملها . فلم يكن يبقى إلاّ القليل من الوقت للأعمال الشخصية والحياة المنزلية . لذلك كان أرسطو على حق عندما قال إنّ الإنسان الذي يحتاج إلى العمل لكي يعيش لا يمكنه أن يكون مواطناً[2] . فقد كان لزاماً على المواطن أن يهب للدولة نفسه كاملة ، فكان يعطيها دمه في الحرب ووقته في زمن السلم . إنّه لم يكن يملك أن يتخلى عن الشؤون العامة ليُقبل على شأنه ، بل الأمثل أنّ شأنه هو ما يجب إهماله في سبيل شؤون المدينة . لقد محّض القوم مدينتهم كل الإخلاص والوفاء إلى حد التضحية بمصالحهم الخاصة . إن المرء ليدهش مما كان يؤدي الأثيني من أعمال لخدمة مدينته . فالجمع بين الشأنين : الشأن العام والشأن الخاص أمير عسير . فالإلزام الذي يشده إلى مدينته يجب أن يكون على الدوام أقوى من ذلك الذي يشدّه إلى نفسه التي بين جنبيه ، وإلاّ فلن يستحق أن يكون مواطناً أثينياً .

ولم يكن في مقدور الحكومة الديمقراطية أن تقوم وأن تدوم ألاّ بالعمل المتواصل من جانب جميع المواطنين حاكمين ومحكومين . فإذا ما أبطأت العجلة أو ضعفت القوى هلكت وذهبت ريحها ، ولات حين مندم ! فبالدأب والعمل واستمرار المهمات والمسؤوليات بلا كللٍ ولا ملل تكفل لنفسها البقاء وتكون جديرة بالبقاء . أن تستطيع البقاء وتكافح من أجل البقاء ، هذا شيء حسن ، لكن أحسن منه ألاّ تقبل بأي بقاء ، بل أن تختار نمطك في البقاء لتكون جديراً بالبقاء .

---

(١) نقلاً عن المصدر السابق، صفحة ٥٤ ـ ٥٥ .

(٢) انظر فوستيل دي كولانج : المدينة العتيقة، صفحة ٤٥٠ .

إنّ هذه الإعتبارات جميعاً هي التي جعلت الأثينيين ينذرون حياتهم لخدمة مدينتهم . لم يكن البيت مقراً لهم ، بل كان فقط مكاناً للنوم ، أما مقرّهم الحقيقي فهو السوق العامة والجمعية والمجلس والمحاكم وساحات الأعياد الكبرى والمباريات والمسارح . وهم يعترفون بحق الدولة في أن تجندهم وتستولي على أموالهم عندما تحتاج إلى ذلك . إنّهم لا يرون بأساً في إرهاقها إياهم وإستيلائها على أموالهم لأنهم بفضلها إنما جمعوا هذه الأموال ، ولأنها عندما تستولي على أموالهم فإنما هي تفعل ذلك لخيرهم . أجل لقد كان خاضعاً للمدينة في أمره كله وبلا أي تحفظ . لقد كان ملكاً لها : جسمه وروحه وثروته . فإذا احتاجت المدينة إلى المال أُمرت النساء بتسليمها جواهرهن والدائنين أن يتخلوا لها عن ديونهم . وأصحاب أشجار الزيتون أن يتنازلوا لها عن الزيت الذي عصروه . بل كان الإنسان لا يملك في المدن اليونانية أن يبقى أعزب . ولم تكن إسبرطة مثلاً تقتصر على عقاب من لا يتزوج ، بل كانت أيضاً تُعاقب كل من يتزوج متأخراً . لذلك لم يكن من المستطاع محاربة الفردية في مثل هذه الأجواء ، ولعلها لم تكن مطلوبة بالمعنى الحديث . فحسب المدينة أن تتيح لمواطنيها الفرصة للنمو الإنساني نمواً أكبر مما عرفه الإنسان في أي عصرٍ من العصور السابقة . حسبها أنها ميراث الآباء والأجداد ومهد الطفولة والصبا . إنها الحامية والحمى والملاذ ، إنها الموئل والمنزل والمستقر . إنها الماضي والحاضر واتلمتسقبل ، إنها الوسيلة والغاية والذكرى والأمل . إنها موطن حرياتهم والحارس الأمين لها . يقول هيرودوتس : « وبهذا تعززت قوة الأثينيين واشتد بأسهم . ويتضح كل الوضوح من هذا ومن شواهد أخرى كثيرة أن الحرية من أعظم النِعَم . ألستَ ترى أن الأثينيين ـ وهم خاضعون لحكم الطغاة ـ لم يكونوا يفوقون جيرانهم في الشجاعة أدنى تفوق . ولكنهم لم يكادوا يتحررون من نير الطغاة حتى أصبحوا أشجع الشجعان بلا منازع »(٢) .

أجل لقد حررتهم دولة المدينة من عبوديتهم القديمة للأسرة ولأجداد . ولكن كان ثمن ذلك دخولهم في عبودية من نوع جديد هي عبودية المدينة ، ولكن

---

(١) المصدر السابق، صفحة ٤٠٨ ـ ٤٠٩ .
(٢) انظر ول ديورانت : قصة الحضارة، ٧ / ١٠٢ .

ما أعزَّها من عبودية ! ولمعرفة مدى التطور الذي حققته المدينة الهلينية ، فما علينا إلاّ أن نقارنها بالمدينة الرومانية . ففي لاتيوم Latium الواقعة على الطرف الغربي لعالمٍ هليني مطرد الإتساع ، خاضت الأسرة معركة شرسة دفاعاً عن حقوقها البدائية الأولى ، فقد ظل رب الأسرة هناك يتشبث ـ طوال تاريخ القانون الروماني ـ بكثيرٍ من حقوقه الإستبدادية القديمة على زوجه وأبنائه البالغين حتى على عهد الأمبراطورِ يوستينيانوس yustinien ومجموعة القوانين المعدَّلة التي أمر بوضعها في القرن السادس المسيحي ، أي بعد مضي ما يقرب من ألف سنة على نظام دول المدينة اليونانية . وبعد أن تعرض القانون الروماني طوال سبعة قرون للتأثير الإنساني القادم من الفلسفة اليونانية ، وطوال قرنين للتأثير المهذِّب الرقيق الذي جاءت به المسيحية ، وطوال الجانب الأعظم من الرحلة التي قطعها التاريخ الروماني ، بقي المواطن الروماني البالغ من الذكور يُعدُّ في واقع الأمر عبداً لأبيه حتى يوم موت هذا الأخير . غير أن القانون الروماني قد أتاح له فرصة واحدة فقط يمكن أن ينال فيها حريته ، قبل موت أبيه ـ وذلك منذ تأسيس الدولة الرومانية ـ وهذه الفرصة هي المعسكر . فعندما كان يجند كل من الأب والأبن يصبح الابن نداً للأب لأنهما منذ هذه اللحظة قد أصبحا أخوين في السلاح في خدمة الدولة . وهكذا فالمعسكر هو الذي أعتق الابن من ربقة الأب في شريعة روما وهو الذي ساوى بين الابن والأب ، دون التفريط في شيء من حقوق الأب !

خاتمــة :

لقد بدت هذه الثورة الفكرية الهائلة للبعض ثورة مفاجئة وعنيفة إلى حد أنه ساد الإعتقاد في بعض الأوساط التي تميل إلى التبسيط والأخذ بظواهر الأشياء ، بأنه من غير الممكن تفسيرها بتعابير السببية التاريخية ، فما قام به اليونان هو عمل خارق للطبيعة ، إنه معجزة كالمعجزات التي تُنسب إلى الأنبياء والرسل ، إن هذا الإعتقاد يعود بنا في الواقع إلى ما قبل هذه الثورة ويقضي على جميع المكاسب والمنجزات التي حققتها . فإذا ما كان عصر ما قبل الثورة الإيونية يعج بالأساطير . وقوامُهُ القول بالأساطير ، فإن القول بالمعجزة اليونانية ـ يعود بنا مرة أخرى إلى عصر المعجزات والأعاجيب ، أي إلى عصر ازدهار الأساطير ، لأن أسطورة التفوق العنصري ، أسطورة تفوق الجنس اليوناني على

غيره من الأجناس والشعوب ، لا تقل في الواقع تهافتاً عن أي أسطورة دفع بها عصر الآلهة الهومريين مثلاً . والجديد فيها أن هذه الآلهة كانت وليدة الأخيلة البدائية ، بينما أسطورة تفوق الجنس اليوناني صدرت عن ذهنية غير علمية أو متعالمة وفي عصر افتضاح الأساطير العلمية . فلو صحت أسطورة التفوق العنصري اليوناني لما توقف العطاء اليوناني وإشعاع العقل اليوناني في كل زمانٍ ومكان . لو كان العطاء في الجنس فإن الجنس إما أن يعطي على الدوام أو ألا يعطي أصلاً . أما إذا كان يعطي تارةٍ ولا يعطي تارة ، فقد دلَّ على أن العطاء لا شأن له بالجنس والعرق إنما الشأن كله بعوامل أخرى على رأسها التاريخ ، ودرجة النضج والتطور . . . ليس في الأمر إذن إعجاز ومعجزات ، فكل ما يصنعه البشر هو مما يدخل في طوق البشرية . وما صنعه اليونان إنما هو نتيجة لتسلسل طويل من الأسباب الطبيعية والبشرية وصلت إلى غاية مداها .

لقد كانت أثينا مضخَّةً للأفكار ومصنعاً لإنتاج الأفكار ، تنثال عليها الأفكار بعد الأفكار ، ولا عمل لها إلا إغراق العالم بالأفكار ، ثم توقفت عن إنتاج الأفكار ، لقد انهار السلم السَّيْكوسوسيوديناميكي كما أسميناه في مكانٍ سابق من هذا الكتاب ، فانطفأت الجذوة التي طالما اتقدت وخبا النور الذي طالما أضاء الكائنات . ورجعت أثينا أمة كسائر الأمم ، لا ميزة لها ولا امتياز إلا ما تباهى به العالم من تراث عريض وتاريخ فريد ومجلدٍ تليد . لقد كان كل أولئك ثروة الأجداد الأولين ، فما شأن الأحفاد الآخرين به ؟ قوم صنعوا التراث وقوم تغنوا بالتراث وناموا على أنغام التراث وتقلبوا في حرير التراث، هل يستويان ؟

لا بقاء للأمم والدول والممالك إلا باليقظة والحذر ودوام التفكير ، أي بإنتاج الأفكار وصناعة الأفكار ، وويلٌ لها إذا توقفت . هناك يتحول الوجود الحضاري الغني المعطاء إلى مجرد وجود بيولوجي حشري طفيلي فقير . الأفكار هي أمضى سلاح للإنسان ، فمن فقد هذا السلاح فقدْ فَقَدَ وجوده بل فَقَدَ مبرر وجوده . لقد أصبح أداة بعد أن كان غاية .

إيه أثينا ! تلك أمة خلت . لقد مضت العقول التي تنبض ، والأذهان التي تقدح ، والقرائح التي توحي ، وحلَّت محلها الأنفاس التي تخفق والبطون التي تتخم ، والأرحام التي تدفع . . . أولئك كالأنعام ، بل أضل سبيلاً !!!

الفصل الرابع

من الهمجية إلى الأخلاقيات

البدائية قدر جميع الشعوب :

البدائية هي قدر جميع الشعوب ، وما من شعب خُلق متحضراً مكتمل النمو العقلي والروحي والنفسي ، فليست البدائية هامش المجتمع البشري بل هي قلبه لأنها ثاوية في أعماقه . نحن لا ننكر أن هناك ثقافات وطنية مختلفة المنازع والمشارب ، لكن ذلك لا ينفي وجود حضارة إنسانية واحدة عرفت لليونان والأوروبيين بدائيتهم كما عرفتها لغيرهم من الشعوب التي هي أقل منهم تطوراً . فلا أساس لدعاوى الأنثروبولوجيا الإستعمارية التي تفرق بين الشعوب فتقول بوجود عقلية متحضرة هي عقلية الإنسان الأوروبي الأبيض ، وعقلية بدائية هي عقلية باقي الشعوب . فكما أنه لا أحد يستنكف عن أنه خرج من رحم أمه بأوساخه وأقذاره ، كذلك البدائية ، فهي الرحم الذي خرجت منه جميع الشعوب . وليس في ذلك ما يضير أو يعيب هذه الشعوب . ولقد عرضنا لهذه المسألة في غير موضع من هذا الكتاب عرضاً سريعاً ، لكننا وقفنا علينا كتاباً بكامله سيصدر قريباً بعنوان الفلسفة قبل عصر الفلسفة .

ليس مما يشين الإنسان أبداً أن يكون متحدراً من أصل بدائي ، إنما يشينه كل الشين أن يبقى الدهر كله على بدائيته لا يتخطى عتبتها ولا يجاوز نطاقها ، بل يستمرىء الحياة في ضحضاحها ويجد المتعة في التقلب في أوحالها ! حركة دائمة مستمرة في الضحضاح تتفاوت من مكانٍ إلى آخر ، فالضحضاح لا يخلو من الحركة مهما تكن هذه الحركة بطيئة . قلة نادرة من الجماعات تغادر الضحضاح

لارتفاع وتيرة الحركة فيها . لقد سئمت حياة الضحضاح فتطلعت إلى الآفاق البعيدة ، إنها تحس بالضجر والملل في مقامها هذا ، وتعمل جاهدة على التخلص منه . كان كيركغارد يتساءل : كيف عسانا نتخلص مما في السأم من رتابة بحيث نجعل من العمل متعة ذكية محببة ؟ وهو يُجيب عن هذا السئال بأن ذلك يكون بطريق التناوب أعني تلك الطريقة التي ينتهجها الفلاح تغييره المستمر لوسائل استغلاله للأرض . فالسأم الجيد يفيد صاحبه نشاطاً وقوة . إنه يمنح الجماعة الصاعدة مرونة ذهنية متجددة بسبب ما ينطوي عليه من صعوبة تتحدى إرادة هذه الجماعة ، إذا كانت أهلاً للشعور بالتحدي والرد على التحدي . وفي حركة سأمها المنتج هذا تزداد وعياً كلما ازدادت الصعوبة حدة . وما هي إلا أويقات حتى تجد نفسها خارج الضحضاح ، ثم تُغذ السير وتُغَذ لا تلوي على شيء . وفي هذا الإغذاء يتفاوت القادة والرادة الذين يحركون الجماعات . فمنهم ناكص على عقبيه لأن السير قد أرهقه ، ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق في التصعيد والمغامرة وركوب الأخطار ومواجهة التحديات ، لكن أكثر الجماعات وسوادها الأعظم تستسلم للتحدي وتؤثر العافية والسلامة وتستحبُّ العمى على الهداية . وهكذا يصعد قوم ويهبط قوم ، ويبقى قوم بين المياه الراكدة لا يبغون عنها حِولاً . كل ذلك يحدث لأسبابٍ خارجية صرف لا شأن لها بإنسانية الإنسان ، وإنما الشأن كله لما يقهر قوة الإنسان ويشل عزيمته من عدوٍ غاشم أو مناخٍ قاتل أو مرضٍ فتاك لا يرحم .

ولقد رافقنا اليونان منذ خرجوا من الضحضاح حتى بلغوا القمة ، كما رافقناهم في حركة الإنحدار والتصويب . لقد خرجوا من الضحضاح وعادوا في الضحضاح وإن كان ضحضاح أرقى من ضحضاح . ولكن الضحضاح هو الضحضاح . لقد عاشوا في الأوج لحظات إشعاع وحضارة ، ثم ارتدوا على أعقابهم ليستأنفوا حياة الضحضاح ، وهي حياة بيولوجية صرف . لقد أرهقهم العطاء حتى لم يبقَ في القوسِ منزع ، ثم نُكسوا على رؤوسهم يسألون الناس العطاء . ولكنهم يظلون خيراً ألف مرة من كثيرين عاشوا الدهر كله عالة على الآخرين لا يعرفون العطاء ، لقد أدوا نصيبهم الكامل من العطاء ، ولا عليهم بعد ذلك أن يسألوا لأنه لا يتكرر العطاء . وكذلك العرب أغرقوا العالم بالعطاء ، لكن أجهدهم العطاء حتى لم يكن عطاء . لقد جفَّ العطاء . وهل يعطي من لا يملك العطاء ؟ فاقد الشيء لا يعطيه فكيف يكون بعد ذلك عطاء ؟ لقد أصبح

العرب من العجز بحيث لم تكن أيدي تسأل العطاء . فتناثروا في الضحضاح وجاء المحسنون يمدون إليهم يد العطاء . فمن أعطى يوماً سأل أياماً . فلا دوام للعطاء . هكذا التاريخ ينقل من هذا إلى ذاك عزَّ العطاء ، ثم يرده إلى ذل السؤال في الضحضاح ليبقى الدهر كله بعد ذلك بلا عطاء . عجيب أمر هذا السؤال والعطاء .

وقبل الحديث عن أخلاق اليونان ، أحب أن أُعرّج قليلاً على أخلاق الشعوب الشرقية القديمة التي فصَّلنا القول فيها في الكتاب السابق لمجرد التذكار وتسهيل المقارنة واستئناف المسار ، وربط ما فات بما سيلي من الأفكار .

فنقول : يجب ألا نتوقع في فجر الأخلاق الإنسانية أن نعثر على أفكار وتعاليم ومبادىء دقيقة واضحة كالتي وصل إليها الفكر الخلقي اليوم . فجميع المعاني الخلقية الأولية كانت غارقة في جو من التصوف والسحر ، وكان السلوك الخلقي مندمجاً في أنواع أخرى من السلوك العملي والنظري لم ينفصل بعضها عن بعض ولم تتبلور إلا في عصر متأخر فالفاعلية الواحدة تنطوي على فاعلياتٍ متعددة ظلت خلال أجيالٍ طويلة من الأحلام تتحرك لتشق لها طريقاً من الأعماق السحيقة إلى السطح وتخرج إلى النور ، فالشحنة الساخنة المحمّلة بالأحاسيس والأخيلة المتدفقة النشوانة تفقد مع الزمن عنفوانها المشبوب الغامض وتتبلور بالمعاني والصور المعقولة المتئدة الواضحة ؛ وهكذا يحل الوعي محل اللاوعي والتماسك محل التخلخل والسيلان ، وتنتصر الإرادة والحزم والإلتزام على العفوية والتراخي والإنفصام .

مقارنات عامة

وتتراوح حالات الإنسان في بلاد الشرق القديم ـ فضلاً عن الأقوام والشعوب البدائية ـ بين الصحو والمحو والحضور والغيبة تبعاً لدرجة التعامل بين الإنسان وواقعه . فالمهن والتقنيات ترد الإنسان إلى صوابه ثم لا يلبث أن يسدر ويتشتت في الرؤى والأحلام . والهند أكثر الشعوب الشرقية إستغراقاً في المحو والغيبة كما رأينا في كتابنا السابق[1] . فطبيعة المجتمع الهندي والحياة الهندية القديمة من شأنها تحطيم الإنسان وابتلاعه إلى حد التلاشي . فالقبيلة

(١) انظر الفصل الرابع من كتابنا : المرجع في تاريخ الأخلاق : الجزء الأول .

الموقد وفقدت الثروة صفتها المقدسة المصونة . إنها ليست رهبة من الآلهة ، بل هي وليدة الصدفة والعمل والكدح . لقد تفككت الروابط القديمة ، وتغيرت المعادلات وتبدلت ظروف الحياة كلها . لكن ثمن هذا التطور كان باهظاً جداً ففي اليوم الذي بدأ فيه الإنسان يستقل بنفسه ويقضي على تبعيته ، رأى ضرورات الحياة ومصاعبها تقوم في وجهه . نعم لقد أصبحت الحياة أكثر استقلالاً ، لكنها غدت أكثر عناء وأكثر عرضة للمحن والبلايا . لقد استيقظ الإنسان على الواقع المر الذي يحيط به . لقد كان يعيش بلا هموم ولا متاعب كالطفل يتولى غيره شؤونه . فإن كل ما كان مطلوباً منه تحمل بعض الأعباء ، وإن كانت أعباءً ثقالاً ، إنها أعباء اللامسؤولية مهما كان التعبير غريباً . لكن منذ الآن بدأت أعباء المسؤولية . لقد أصبحت الحياة أكثر استقلالاً ولكنها بالمقدار ذاته أكثر اخطاراً وأكثر هموماً . لم يكن يفكر في الغد ولكن منذ الآن سيستغرقه التفكير في الغد وكل هواجسه منحصرة في الغد . كم هو جميل أن يستقل الإنسان بنفسه فيصبح حراً طليقاً لا رقيب ولا حسيب . ولكن كم كان ثمن الحرية غالياً أيضاً ! لقد كان سلعة تُباع وتُشرى ، ولكنه الآن وعي وتيقظ لا يُقدَّر بثمن ، لقد كان منحنياً مطاطىء الرأس دائم النظر إلى الأرض ، وأما الآن فهو منتصب القامة يشمخ بأنفه إلى السماء . ولم يكن الشموخ واحداً ، فهناك شموخ وشموخ وهناك تفاوت في الشموخ مبعثه النشاط والاستعداد والموهبة الشخصية . درجات بعضها فوق بعض . فأثرى هذا وافتقر ذاك وتوسط ثالث بين هذا وذاك . إن التفاوت في الثروة أمر لا مفرَّ منه في المجتمع الجديد وفي كل مجتمع يتطلع إلى أفق أبعد من سلطة الأب والكاهن وحياة القبيلة والعشيرة ، يوم كان للأب والكاهن والقبيلة الصولة والدولة .

لم تقضِ التغيرات الجديدة على الشقاء وما كان لها أن تقضي ، وربما زادته حدة ، فكلما زاد عقل المرء زادت همومه وزادت متاعبه ، فعقل المرء محسوب عليه : إن الشقاء لا يكون شقاءً إلا بقدر ما يصاحبه من وعي ، فإذا انعدم الوعي انعدم الشعور بالشقاء . طوبى للبُله فإن لهم ملكوت السموات !! .

إن التغيير هو نتيجة كفاح طويل ، والكفاح مقرون بالوعي ، أو قل هو وعي في حال الحركة ، وعي يسعى إلى الأفضل والأحسن . ومهما كان الشقاء قليلاً فالوعي كفيل بتضخيمه وتكبيره وخلق هموم وغموم وهواجس لا أساس لها ، فكيف إذا كان كبيراً ؟

« القناعة كنزٌ لا يفنى » هذه الحكمة كانت هي قاعدة الحياة في زمن مضى وانقضى ، عندما كان هناك سلطة عليا تهيمن على الأغنياء والفقراء وتقي بعضهم بأس بعض ، وتبث فيهم روح الأمن والسلام والطمأنينة . أما الآن وقد تبدل الحال غير الحال فقد وجد القوم أنفسهم أمام خِيارين للخروج من المأزق : أحدهما مشروع والآخر غير مشروع ، أحدهما إيجابي منتج لا يتعارض مع المبادىء الخُلقية ، والآخر سلبي تخريبي يقضي على كل أخلاق وعلى كل تعليم خلقي . فالناس فريقان : فريق يتحمل المسؤولية ويواجهها برضى وإحساس بالتبعة ، وفريق مجرد من أي إحساس بالتبعة وليس مستعداً لتحمل أي قسطٍ من المسؤولية ولو اضطره ذلك إلى السقوط في الإثم . كلٌ يعمل على شاكلته ، ولا يختلف اليونانيون في ذلك عن أي شعبٍ آخر . هكذا الإنسان في كل زمان ومكان . جفَّت الأقلام وطُويت الصحف ! .

١ ـ فأما الخيار أو الحل المشروع فقد تولته القوانين الاقتصادية وظروف العمل المتاحة ، لتجبر الطبقتين ، الطبقة الغنية والطبقة الفقيرة على العيش المشترك بأقل ما يمكن من الصدام والنزاع . فمن غير الممكن لإحداهما أن تستغني عن الأخرى ، فالثري لا يثري إلا بعضلات الفقير ، ولا يجد الفقير وسيلة للعيش إلا بتقديم العمل للثري . وهكذا كان من شأن تفاوت الثروات شحذ الهمم وإعمال العقول وتجنيد الطاقات للوصول إلى حياة أفضل بلا شقاق ولا فراق ولا حروب أهلية إذا نشبت لا يعلم أحد متى تنتهي[1] . لكن هذا الحل لا يعني أبداً إنعدام وجود حد أدنى من الصراع والنزاع للأبقاء على حياة المجتمع وتحريك عجلته . فإن النزاع والصراع لا بد منهما في كل مجتمع يحرص على البقاء على أن يكونا بمقدار ، وإلاّ أفضيا به إلى الفناء . فحتى المجتمعات التي يسمونها مجتمعات المياه الراكدة ، لا تخلو من الحركة ، والنزاع والصراع هما في رأس العوامل والأسباب التي تثير هذه الحركة .

هذا ولا علاج للفقر إلا بالعمل في الصناعة والتجارة ، فهما عصب الحياة الإقتصادية ، غير أن أكثر المدن كانت تفتقر إليهما افتقاراً شديداً . ولا يمكن الإعتماد على التجارة وحدها للقضاء على الفقر ؛ فإن جميع فوائدها تقريباً تنصب

(١) فوستيل دي كولانج : المدينة العتيقة صفحة، ٤٥١ ـ ٤٥٢ .

وسلطة البراهمة الأخلاقية والدينية والنفوذ الذي يتمتع به الرهبان ، كل أولئك قوة هائلة على الأفراد والجماعات هناك . فترى الهندي لا يستطيع حتى بالموت أن يتخلص من هذا العالم المقفل ، لأن التناسخ يقف له بالمرصاد ، فأين المفرّ ؟ فهو عقيدة الراسخة تملأ حياة الهندي وتطبع بطابعها القوي مجتمعه وفلسفته وتسد عليه آفاقه . ولا أمل له للخلاص من هذا العالم إلاّ بالإنعتاق من الذات ، وذلك بالزهد والتقشف والمجاهدة . هنا موطن الضعف في الحياة الهندية وهنا أيضاً عبقرية الهند النظرية . فأما الضعف فيتجلى في وهن العلاقة بين الإنسان وواقعه وفي هذه السلبية التي تدمر حياته وتغلق جميع الأبواب والمنافذ في وجهه . وأما العبقرية النظرية فتبرز في وثبة الفيلسوف ـ وقد حُرم الصور الواضحة التي يقدمها العمل ، وحُرم الإرادة الحرة وتناقض الإرادات الحرة ـ وهي وثبة عفوية تكاد تكون لاواعية . ومع ذلك فإن توكيداتها الغريزية هي بمثابة إرتقاء حقيقي نحو المجهول : إنها تتغلغل في أعماق الأشياء وتوغل فيها حتى تنفذ إلى لب لُبابها . وبذلك تفصل بين الموجود ومظاهره وتنقب في أطواء هذا الموجود .

إن الزهد أو عملية الرفض للعالم هي توكيد للعدم الذي يحرر الفرد ، وفي هذا العدم تجد النفس الهندية غاية الوجود . إن مفهوم الألوهة يتدفق من هذا التكاثف النفسي والغنى الوجودي . إن هذا العدم هو شعور بالتمام الإلٓهي الذي يتغلغل في النخبة الدينية التي تقبض على زمام السلطة . وهذا لا ينطبق فقط على الهنود البراهمة ، بل ينطبق أيضاً وبالمقدار ذاته على جميع الملل النحل الهندية وعلى رأسها الجينية والبوذية . فمع أنهما كانتا ثورة على الديانة البرهمية ، فإن الهندي هو دائماً الهندي مهما إختلفت الأسماء وتعددت الطوائف التي ينتمي إليها . فلا يستطيع الهندي ـ ولعله لن نستطيع ـ أن يخرج من الجلد الهندي ، إذا صح التعبير ـ فكلتاهما ـ أي الهندية والبوذية ـ حركة رفض للعالم وكفر بالعالم وبالتالي فرار من العالم . وإذا كان بينهما وبين البرهمية من خلاف فإنما هو خلاف داخلي بين الفصائل المتناحرة لا يمس الجوهر أبداً . إختلفت الأسماء والمرض واحد ! .

لم يستطع الهندي القديم أن يفرق بين الأخلاق والدين والتصوف . وكذلك المصري القديم[١] . وإن كان هذا الأخير لا يعرف العدمية الهندية التي

(١) انظر كتابنا السابق ، الفصل الثالث

هي جزء لا ينفصل عن الديانة والأخلاق الهنديتين . فالدين المصري القديم معاملة بين الأحياء تلقى الثواب والعقاب في العالم الآخر . إن الأخلاق المصرية هي أخلاق وعي وصحو وحضور تفوق كثيراً جداً أخلاق المحو والغيبة الهندية . بل إن الأخلاق المصرية القديمة لا تعرف الهمجية التي اتسمت بها الأخلاق اليونانية في بعض مراحلهاوالتي ستأتي بعد عشرات القرون من الأخلاق المصرية كما سنرى .

أما الشعب الذي استطاع لأول مرة أن يميز بين الدين والأخلاق فهو الشعب الصيني القديم كما أسلفنا القول في الجزء الأول من هذا الكتاب[1] . فالفكر الصيني عبقرية حقيقية تتجلى في قدرتها الخارقة على الجمع بين التذوق الواقعي للأشياء وبين المثل الأعلى للأخلاق . فالتهذيبَ بين الأحياء ، وإكرام الأموات هما التعبير الصادق عن هذه العبقرية . وإذا كانت الصين القديمة قد عرفت الحِرفَ والصنائع الضرورية لواقع الحياة ، فإن الحكم الصيني قد احتقر جميع إيحاءاتها المادية في سبيل راحة النفس ونشر الفضيلة . إن الحكمة الصينية تظل حكمة سامية لا تنحط أبداً إلى دناءة منفعية . ولئن غشيتها في بعض الأحيان غاشية صوفية ، فإنها على كل حال لا تتجاوز الخط الفاصل بين الفرار من العالم والقرار فيه . إنها تؤمن بالعالم ولكنها تكفر بالتهالك عليه كجيفةٍ تغاوت لها كلاب مسعورة ، كما أنها تأخذ بالمثالية ، ولكنها مثالية لا تستجرها إلى حمَّيا الوجد والمحو والغيبة التي نراها في الصوفية الهندية . فهذه الأخيرة هي فرار من الأشياء ومن الإنسان إلى عدمية مطلقة عنوانها الفناء أو النرڤانا أو ما إلى ذلك من الأسماء . وأما الحكمة الصينية فهي فرار من الأشياء إلى الإنسان ،هنا تنشد البقاء. لقد انفصلت فيها الأخلاق عن الدين والتصوف وأصبحت سلوكاً ومثلاً يُحتذى .

بعد هذا انتقل إلى فارس[2] . فالأخلاق الفارسية مزيج من الأخلاق المصرية والأخلاق الصينية ، ولا تكاد تمت إلى الأخلاق الهندية بأي صلة . إنها أخلاق الدين والدنيا ، أخلاق العناية بالجسد والعمل على تقويته وحفظ صحته ، إنها أخلاق زراعة القمح وكفاية العيش . فمن زرع القمح في الأرض فقد زرع الإستقامة في النفس . إنك حين تبذر حبوب القمح تذعر الشياطين ، وحين تنبت

---

(١) الفصل السادس .

(٢) انظر الفصل الخامس من كتابنا المذكور.

تضطرب وتمرض ، وحين ترى سوقه ، تبكي ، وحين ترى سنابله ، تدير ظهرها وترتد على أعقابها ، وتُنادي بالويل والثور وعظائم الأمور . إنها تولّي الأدبار فراراً من البيت الذي يُخزن فيه القمح . هكذاتقول الأبستاق . إنها أيضاً أخلاق البيت السعيد ، بيت الزوج الصالحة ، بيت الحرث والنسل ، بيت الزرع والضرع والماشية والعلف والسماد . فدين زرادشت وأخلاقه هو دين الحياة والسعادة ، دين الخصب والعمل ، وهو دين لا يأمر بالصوم بل يحث على تركه حفاظاً على الصحة والنشاط وإبقاءً على شعلة الحياة ، والعبادة الصادقة التي يضعها زرادشت في المنزلة الأولى هي الصدق والوفاء بالعهد والعمل . لقد كان يرى في العمل رمزاً واضحاً لإخلاص العبد لله ويجعل من الزراعة خير ما يتقرب به الإنسان إلى ربه بالشكر والعبادة . والناس ثلاث منازل : منزلة الأشقياء في الجحيم وهي لمن خفّت موازينه ، ومنزلة ا لسعداء وهي لمن ثقلت موازينه ، والثالثة منزلة الفائزين الذين زُحزحوا عن النار وأُدخِلوا الجنة ، فهم في منزلة بين المنزلتين ، وإن كانوا أدنى إلى منزلة السعداء لأنهم من أهل النجاة . إن عَمل الخير يجب أن يكون ابتغاء مرضاة الله الذي يمنح القوة والبركة ويهدي إلى سواء السبيل . ولا يوجب زرادشت على المؤمن ـ إذا أراد أن يكون من أهل القربى ويحظى برضوان الله ونعيمه ـ أن يزهد في الحياة الدنيا وينصرف عن الطيبات من الرزق والمتاع ، فحسبه أن يعمل صالحاً ويتحقق بالفضائل ويتوجه إلى الله بالدعاء ليضمن جنة عدن هذه هي على الجملة أخلاق زرادشت وهذه هي في نفس الوقت ديانته ، وهي كما ترى كثيرة الشبه بالأخلاق الإسلامية ، وإن كانت كلتا الديانتين لم تفرق بين الدين والأخلاق وما يكون لها أن تفرق ، وإلا كانت فلسفة ولم تكن ديناً ، فالدين يفترض الأخلاق لا العكس ، ما عدا اليهودية التي تقصر الأخلاق على شعب الله المختار . فإذا لم تكن يهودياً فقد حقت عليك اللعنة ، ووجبت لك الأذية . والغريب أن اليهودية لا تسمح لك أن تكون يهودياً لأنك لست من السلالة الزكية الطاهرة . ونرجو أن نعرض للأخلاق اليهودية في حينه بموضوعية أكثر ودقة أعظم .

وهكذا تكون أُمم الشرق القديم قد خلقت أشكالاً من الحكمة ومُثلاً عليا للأخلاق تتفاوت في شحنتها الدينية الصوفية ، لكن أنقاها جميعاً بلا نزاع هي حكمة الصين وأخلاق الصين . هذه خلاصة ما رأيناه في كتابنا السابق ، الذي لخصناه في بداية هذا الكتاب في باب (الأخلاق قبل عصر الأخلاق) . وأما

الأخلاق البدائية فهي أخلاق الفطرة الأولى ، إنها المنبع الذي تفجرت منه جميع أشكال الأخلاق الأخرى . وبعبارةٍ أخرى إنها الأخلاق بلا دنس ولا خطيئة ولا افتعال . فلا تصدقوا كل ما يُقال عن الهمجية البدائية والتوحش البدائي وأكل لحوم البشر البدائي . فكل ذلك من اختلاق حملات التبشير الإستعمارية ، التي كان دأبها دائماً التزييف والتزوير والبُعد عن جادة الصواب .

* * *

قلنا أن أخلاق الصين هي أرقى أشكال الأخلاق الشرقية وأنقاها جميعاً ، ولكنها أخلاق النفحة العطرة لا أخلاق النظرة الواعية المتأملة التي كانت حِكراً على الإغريق وحدهم ، فقد اتخذ التفكير الخلقي صورته العلمية الدقيقة في فلسفة الإغريق ثم في فلسفة الإغريق أيضاً أخذ يتطور وينضج . هذا من حيث التفكير الخلقي الذي امتازوا به على الأمم السالفة والمعاصرة لهم . وأما من حيث السلوك الخلقي والحياة الخلقية فقد تقلبوا كسائر الأمم بين الهمجية الوحشية والدماثة الخلقية . وعلى ذلك فإن الميزة التي كانوا يتمتعون بها هي العبقرية النظرية ، وأما السيرة العملية فليس فيها أي جديد .

فلم يكن اليونان مثلاً طيباً في حُسن الخلق ، ففي أخلاقهم وتاريخهم مزيج عجيب يجمع بين النبل والقسوة ، والرفعة والخسة ، والمثالية والإنحطاط . إنهم بشر كسائر البشر ، لا فضل لهم في ذلك على أي فردٍ من البشر .

في الزمن القديم ، عندما كان كل إنسان عضواً في القبيلة وله سيد ، كاد البؤس أن يكون مجهولاً . فقد كان السيد يتكفل بأرزاق جميع أولئك الذين يقدمون له الطاعة ويلبي كل احتياجاتهم . لكننا كلما ابتعدنا عن النظام القديم تكونت طبقة فقيرة بائسة . رحم الله أياماً خلت ، حيث كان الفقراء يحترمون حق اقتناء الأشياء وتملكها لأن هذا الحق كان أساسه العقيدة الدينية . فلم يكن أحد يفكر في تجريد أحد من حقه في الميراث أو الأرض عندما كانت التقاليد الدينية تعد هذه الأشياء ملازمة للعبادة، ولا تنفصل أبداً عن الآلهة المنزليين للأسرة . لكن خلَف من بعدهم خلْف ثاروا على هذا الوضع القلِق وتصدوا لإبطاله . لقد أبوا إلا التغيير ولم يرضوا بديلاً عن التغيير . لقد هبت رياح التغيير في بلاد اليونان فكنتَ أينما تقلبتَ لا ترى سوى التغيير وإرادة التغيير .

وبعد سلسلة من الإنقلابات المستمرة والثورات المتلاحقة اختفت ديانة

على الأغنياء لأن المال يجر المال، هذا فضلاً عن مال الربا الذي يتقاضاه الأغنياء على أموالهم . إنما يمكن الإعتماد على الصناعة لأن مكاسبها تعم السواد الأعظم من الناس ، لكن آفة الشعب اليوناني حتى أيام صولون على الأقل أن اليد العاملة فيه كادت تكون مقصورة على الأرقاء ففي بيوت الأغنياء في أثينا (وروما) كنت ترى مصانع للنسيج والصياغة والسلاح ، وكان جميع الذين يتولون العمل فيها من الرقيق . وحتى المهن الحرة كانت موصدة تقريباً في وجه المواطن . فصناعة الطب مثلاً كان يتولاها الأرقاء لحساب سادتهم في غالب الأحيان . وكان مستخدمو المصارف وكثيرٌ من المهندسين وبناة السفن وصغار موظفي الدولة من الأرقاء أيضاً . لقد كان الرق طاغياً على المجتمع الحر حتى لم يبقَ أمام المواطن الحر إلا القليل من الوظائف والقليل من العمل ، وبذلك أصبح هذا المواطن خاملاً كسولاً لا يقوى على العمل بل ولا يشتهيه ، ولما كان لا يرى من يعمل غير العبيد ، فقد احتقر العمل والعمال . وهكذا تضافرت عوامل عدة ـ العادات الإقتصادية والاستعدادات النفسية والتقاليد الإجتماعية والآراء المبيتة ـ للحؤول بين الفقير وبين الخروج من بؤسه خروجاً شريفاً مشروعاً ، فلم تكن الثروة والفقر منظمين بحيث يستطيعان التعايش بسلام وأمن[١] .

تشجيع العمل

لذلك قامت حملة قوية لتشجيع العمل وجعله شيئاً محترماً ، يجب محاربة هذه العقلية المستعلية التي ترى في العمل مهانة واحتقاراً . فقد نصَّ قانون صولون كما مرَّ معنا في الفصل السابق من هذا الكتاب ، على أن كل رجل لا عمل له يحرم من حقوقه السياسية . كما أن برقليس منع الرقيق من إنجاز الآثار العظيمة التي أقامها وجعل ذلك حِكراً على الأحرار فقط . وهكذا أخذ العمل شيئاً فشيئاً يخرج من أيدي الرقيق ليتولاه الأحرار[٢] . ومن الغريب أن اليونان لم يكونوا يرون في فلاحة الأرض وزراعتها أي غضاضة ، فكانوا هم يتولون ذلك بأنفسهم . لقد كانوا دائماً ينظرون إلى الزراعة نظرة تقديس واحترام ، خلافاً للصناعات الأخرى ، لقد فتحوا أعينهم على الأرض والعمل فيها منذ أبعد العصور وقبل أن يقتنوا الرقيق والعبيد . وهكذا ، فبفلاحة الأرض وزراعتها وانتزاع الأعمال من

---

(١) المصدر السابق، صفحة ٤٥٢ .

(٢) المصدر السابق، صفحة ٤٥٧ الحاشية رقم ٢ .

أيدي العبيد استقامت الأحوال في بلاد اليونان شيئاً فشيئاً . لقد تولوا هم بأنفسهم جميع أمرهم ، فلا يمكن لحضارة عظيمة كالحضارة اليونانية أن تقوم على أكتاف غير اليونانيين . ولا ننسَ أخيراً أن الأرقاء لم يكونوا جميعاً من الأسرى الذين سقطوا في أيديهم في حربهم مع فارس ، بل يمكن القول أن أكثرهم أسرى يونانيون سقطوا في الحروب التي دارت بين دول المدن اليونانية كحروب البيلوبونيزوس مثلاً ومعنى ذلك أن الحضارة اليونانية العظيمة إنما صنعها اليونانيون أنفسهم الذين ينتمي بعضهم إلى الأحرار ، أي إلى يونانيين يتمتعون بحقوقهم المدنية وينتمي بعضهم الآخر إلى الأرقاء أي إلى يونانيين أسرى فقدوا هذه الحقوق . فالفارق بين الحالين هو فارق شكلي لا يمس الجوهر في قليلٍ أو كثير . فاليونانيون إذن ـ أسرى كانوا أم أحراراً ـ هم الذين صنعوا حضارتهم وليس لأي غريب أو دخيل سوى أثرٍ ضئيل فيها .

٢ ـ ولما انصرف قومٌ إلى العمل الشريف المشروع لتحصيل الرزق انصرف آخرون إلى وسائل غير مشروعة للحصول على المال كيفما اتفق وبأهون سبيل . كان الفقير كما تقدم معنا في الفصل السابق متمتعاً بالمساواة في الحقوق السياسية والمدنية ، لكن هذه الحقوق لا تطعم خبزاً . فالمساواة في المال أفضل ألف مرة من المساواة في هذه الحقوق التي لا تسمن ولا تغني من جوع . لذلك عمدوا إلى استخدام المساواة التي كانت في أيديهم للحصول على تلك التي ليست في أيديهم . فإنهم وهم يسيطرون على الأصوات يستطيعون أن يسيطروا أيضاً على الثروة . هذا ما تفتقت عنه قرائح الأذكياء منهم .

الكسب غير الشريف

بدأوا بأن جعلوا التصويت وحضور المجالس والمحاكم مهنة كسائر المهن محصورة بطبيعة الحال في الرجل الحر فلا أمل لمنافسيهم من العبيد في مشاركتهم فيها ، فأخذوا يتقاضون الأجور على حضور جلسات الجمعية والقضاء في المحاكم بعد أن لم تكن أجور . لقد كان التصويت وكل ما يعود على المدينة بالنفع هواية . فأصبح جباية ، وكان خدمة فأصبح رشوة ، كان التذاذاً فأصبح ابتزازاً ، كان وثبة فأصبح ضربة . لقد تغير كل شيء في دولة المدينة ، وهي الآن في طريقها إلى الإنهيار . فكل ذلك دلائل على بداية النهاية ، ولما كانت هذه الأجور من شأنها أن تفرض على الخزينة أعباء لا قِبل لها بها ، فقد قرر الفقراء بيع أصواتهم كما تُباع

السلع وتُشرى . إن مناسبات التصويت لا تُعد ولا تُحصى ، وهذا مورد جديد للرزق ساقه زيوس إليهم . هذا ما كان يحدث في بلاد الإغريق وفي الأمبراطورية الرومانية على السواء . لكنه كان في روما يحدث على رؤوس الأشهاد ، وأما في أثينا فقد ساروا على القاعدة الفقهية المشهورة : « إذا ابتُليتم بالمعاصي فاستتروا » . في روما حيث لم يكن الفقير يدخل المحاكم كان يبيع نفسه بشهادة الزور ، وأما في أثينا فقد كان يبيع نفسه بالقضاء وإصدار الأحكام . لكن جميع هذه الوسائل لم تكن كافية لإنتزاع الفقير من بؤسه بل لقد زادته مهانة ومذلة أيضاً[1] .

هنا تشتد حرب الفقراء على الأغنياء ، وتصبح الوسائل اللاشرعية أكثر ظهوراً ، بل سيصل الأمر إلى حد إضفاء الشرعية على اللاشرعية . لقد كانت هذه الحرب خفية أولاً لها غطاء شرعي ، فحمَّلوا الأغنياء جميع النفقات العامة من بناء السفن وتمويل الحروب والأعياد الشعبية والمقدسة إلخ . . . ثم أكثروا من الغرامات في الأحكام ، وحكموا بمصادرة الأموال لأيسر الهفوات ، بل بنفي الرجال لا لشيء إلا لأنهم أثرياء ، لقد كانت ثروة المنفي تذهب إلى بيت المال ، ومنه تتسرب إلى جيوب الفقراء أجوراً لحضور جلسات المجامع العامة . لكن جميع هذه الوسائل كانت غير كافية لسد حاجة الفقراء الذين كان عددهم يزداد يوماً بعد يوم . هنالك استخدموا حقهم في التصويت لإلغاء الديون المستحقة عليهم من قبل دائنيهم الأغنياء الذين كانوا قد استغلوا حاجتهم إلى المال أبشع استغلال ، كما عمد الفقراء أيضاً إلى المصادرة بالجملة والإستلاب التام[2] .

هكذا غلبت اللاشرعية على الشرعية بالتطلع إلى السلب والمصادرة والاستيلاء على أملاك الغير بغطاء من الشرعية ، ما دامت هذه القرارات تصدر عن الجمعية التي لا رادَّ لقضائها ، فإرادتها هي إرادة الشعب . كلهم مسؤولون أمام الشعب إلا الشعب الذي لا يُسأل عما يفعل . إنه صاحب القرار الأخير . إن هذه الرغبة التي كانت تبدو إثماً فيما مضى أصبحت الآن عملاً مشروعاً . لقد اختفى المبدأ السامي الذي كان يقدس حق الملكية وحل محله ضغط الحاجة وقياس الحق عليها .

---

(١) انظر المصدر السابق، صفحة ٤٥٢ ـ ٤٥٣ .
(٢) المصدر السابق، صفحة ٤٥٣ ـ ٤٥٤ .

فقد تقدم معنا أنه كان للمدينة في الدهر السالف سلطان لا حدَّ له ، وأن الحرية كانت مجهولة ، وأن الحق لم يكن شيئاً أمام إرادة الدولة . وقد نجم عن ذلك أن أغلبية الأصوات كان في مقدورها مصادرة أموال الأغنياء . ولم يكن الإغريق يرون في ذلك ظلماً أو خروجاً على القانونِ ما دام هو إرادة الدولة ، فإن ما تقرره الدولة هو القانون . إن انعدام الحرية الفردية هذا ـ وهو نتيجة طبيعية لقوة سيطرة الدولة على حساب الفرد ـ كان سبباً للمصائب والفتن في بلاد اليونان . أما روما التي كانت أكثر احتراماً بقليل لحقوق الإنسان ، فإن ما أصابها من ذلك قليل بالقياس إلى ما أصاب اليونان . فاليونان ليسوا إذن ملائكة أطهاراً هبطوا من ملكوت الرحمن .

ولم يكن ذلك مقصوراً على أثينا وحدها . ففي ميغارا قرر الفقراء على أثر فتنة نشبت بالمدينة أن تُلغى الديون وأن يرد الدائنون الأرباح التي دُفعت من قبل . وعندما انتزع حزب الشعب السلطة في هذه المدينة وفي بلدان أخرى حكم على بعض الأسر الغنية بمصادرة أموالها . وهو إذْ اندفع في هذا المنزلق الخطر فإنه لم يستطع بعد ذلك أن يكبح جماحه ويتوقف ويقاوم إغراءاته الواعدة ، فكان لا بد من ضحية جديدة كل يومٍ ، حتى لقد أصبح عدد الأغنياء الذين سُلبت أموالهم ونُفوا خارج البلاد عظيماً جداً . كما أباد شعب ساموس سنة ٤١٢ مئتين من خصومه ونفى أربعمئة آخرين واقتسم أراضيهم وبيوتهم . وفي سيراقوصة بصقلية ، لم يكد الشعب يتخلص من حكم الطاغية ديونسيوس حتى قرر الفقراء اقتسام الأراضي منذ أول اجتماعٍ لهم بعده[١] .

وفي مسينا اليونانية (لا الصقلية) ما إن تولى حزب الشعب زمام السلطة حتى بدأ بنفي الأثرياء واقتسام أراضيهم[٢] . ومن المشهور عن مولباغوراس Molpagoras الكيوسي (نسبة إلى كيوس Cios) أنه قد سلم الجمهور الغاضب جميع الأغنياء الذين كان في حيازتهم أموال ، وقتل البعض ونفى البعض الآخر ووزع أملاكهم على الفقراء[٣] .

وهكذا كانت المدن تتقلب دائماً بين ثورتين : إحداهما تسلب الأثرياء

(١) المصدر السابق ،صفحة ٤٥٤ ـ ٤٥٥ .
(٢) المصدر السابق .
(٣) المصدر السابق .

ثرواتهم ، والأخرى تردها إليهم . ثورات وثورات مضادة . ولم يكن الأغنياء من الحنكة والكياسة والكفاية والذكاء بحيث يحتوون هؤلاء الفقراء ويتفهمون ثوراتهم ليتمكنوا من توجيههم نحو العلا ومساعدتهم على الخروج من البؤس والفساد بطريق شريف . لقد كانوا أغبياء إلى حد يثير السخرية . بل لقد حاول ذلك بعض المخلصين فلم ينجح ، وذهبت جميع الجهود أدراج الرياح لقد كان الغني والفقير في كل مدينة عدو ين لدودين يعيشان جنباً إلى جنب : أحدهما يطمع في الثروة والآخر يُجرَّد من ثروته . فلا يمكن للفقير أن يحصل على المال إلا بسلب الغني ولا يستطيع الغني أن يدافع عن ماله إلا بمهارة فائقة أو بالقوة . لقدكان كل منهما يرمق الآخر بعين الحقد ، فكانت في كل مدينة مؤامرة مزدوجة : يأتمر الفقراء بالأغنياء بسائق الحاجة والجشع ، ويأتمر الأغنياء بالفقراء بدافع الخوف . ويذكر أرسطو أن الأغنياء أقسموا ليكونَنَّ كلٌّ منهم على الدوام عدواً للشعب، وليُنزلَنَّ به كل ما يستطيع من سوء وأذى[1] .

وهكذا ، فكلما رأينا حرباً أهلية ـ في تلك الفترة من التاريخ اليوناني ـ رأينا الأغنياء في حزب والفقراء في حزب آخر ، يريد الفقراء لينتزعوا أموال الأغنياء ، ويريد الأغنياء ليحتفظوا بأموالهم أو ليستردوها . لقد كانت الحرب سجالاً بين الفريقين كأنهم في ساحة قتال ، حتى ليقول مؤرخ إغريقي قديم : « إن الغرض من كل حرب أهلية هو نقل الثروة » .

لقد أزالت الأحقاد من القلوب كل إحساس إنساني . حتى لوصل الأمر بالإغريق ـ لا بسكان أواسط افريقيا ـ إلى الهمجية والتوحش . ومتى ؟ في بداية النهاية إيذاناً بأفول نجم اليونان ! لقد كانت الديانة القديمة ممسكةً بالزمام . أما الآن فقد أفلت الزمام . قال هيراقليدس النبطي في أثينايوس : « نشبت حرب في ملطية بين الأثرياء والفقراء . فتغلب الفقراء أولاً ، وأجبروا الأغنياء على مغادرة المدينة ، لكنهم أسفوا فيما بعد [لا لأنهم فعلوا ذلك ، بل] لعدم إقدامهم على ذبحهم [بالمدى والسكاكين . فما كان منهم إلا أن] عمدوا إلى أطفال هؤلاء الأغنياء وجمعوهم في حظائر ثم سحقوهم تحت أظلاف الثيران . [ودارت الأيام وكر الأغنياء على الفقراء] ودخلوا المدينة مرة أخرى وأصبحوا سادتها من جديد [وكان أول ما فعلوه أنهم عمدوا] بدورهم إلى أطفال الفقراء

(١) المصدر السابق، ٤٥٥ ـ ٤٥٦ .

وطلوا أجسامهم بالقطران وأشعلوا فيهم النار أحياء »[١]. هؤلاء هم أجداد الأوروبيين . بل إن الهمج لم يصلوا إلى هذه الدرجة في حروبهم مع أعدائهم ، فكيف فيما بين أفراد القبيل الواحد ؟!

وأحب أن استدرك منذ الآن فأقول : إن أثينا والحق يُقال كانت خارج هذه الدوامة من العنف والوحشية . فمن المألوف إتهام الحكم الديمقراطي الأثيني بأنه كان لبلاد الإغريق بئس القدوة والأسوة في هذه العداوات والإنقلابات . كلا ، إن هذا لا ينطبق على أثينا إلاّ على نطاقٍ ضيق جداً . لقد كانت أثينا هي المدينة الإغريقية الوحيدة التي لم تكد تعرف الحرب الوحشية بين الأغنياء والفقراء . فقد كان لها من اقتصادها وحُسن توزيع الثروة فيها رادع ووازع . نِعْمَ الرادعُ والوازعُ! حتى إن أكثر ما سنذكره عن سمو الأخلاق اليونانية إنما يسري على الأثينيين تقريباً . لقد فهم هذا الشعب العظيم أن الإنزلاق في هذا الطريق الخطر إذا استمر لا بد أن يفضي بالمدينة إلى كارثة وطنية . فلا مخرج إلا بالعمل الشريف . وهذا ما تنبه له أولو الأمر وعلى رأسهم صولون وبرقليس كما مر معنا . فمما ساعد على قلة أعمال العنف في إقليم أتيكا الصغير ـ وهو كما نعلم الإقليم الذي تقع فيه مدينة أثينا ـ أن الملكية في هذا الإقليم كانت مجزأة ، بحيث إن ثلثي السكان فيه (أكثر من عشرة آلاف مواطن) كانوا في نهاية القرن الخامس قبل الميلاد من الملاك العقاريين ، بينما لم يكن سوى الثلث محروماً من الملكية . ولذلك كانت أثينا أقل اضطراباً من سائر البلاد الإغريقية الأخرى ، لأنها كانت تعيش في ظل نظامٍ اقتصادي خير من نظام المدن الأخرى بقليل . لقد كانت حرب الفقراء على الأغنياء موجودة فيها كما كانت في سواها ، لكنها إنما كانت فيها أقل عنفاً وشراسة ، فاقتصرت على انتهاج طريقة لجمع المكوس والضرائب جلبت الخراب على الطبقة الغنية ، لكنها لم تذهب إلى حد إلغاء الديون واقتسام الأراضي[٢] .

الوثبة الكبرى

لما دخل اليونانيون بلادهم في جموعٍ جديدة متفرقة في أثناء الألف سنة

---

(١) المصدر السابق، صفحة ٤٥٦ .
(٢) المصدر السابق، انظر الحاشية رقم (٢) أيضاً .

الثانية قبل الميلاد كانوا متوحشين . وقبيل العهد الذي ألقى فيه برقليس مرثيته ، كانت أكثر جماعاتهم تقدماً في النضج السياسي ، أكثر منا حضارة في هذه الأيام . لقد كانوا فقراء في الرجال فانقلبوا بين ليلة وضحاها مصنعاً للرجال . ففي سنة ٤٣١ ق . م . ازدهت دولة المدينة بثُلة من الرجال باهت بهم الأمم في الفن والنحت والأدب والمسرح والفلسفة والرياضة . و . . . حتى إن برقليس تحدث عن أعمالهم ـ التي نعدها نموذجاً فريداً لكل العصور ـ كما لوكانت مجرد زينة وحلية مكملة للعظمة السياسية . فكيف حصل هذا الإنقلاب ؟ .

كانت الحكومات المقدسة القديمة حكومات بسيطة سهلة المراس لينة العريكة . ولكننا كلما ابتعدنا عن النظام القديم أصبحت حكومة البشر أكثر صعوبة وأشد مراساً وشكيمة . ففي الأيام الخوالي حين كان العرف سائداً وحين كان الأمر بيد شيوخ القبائل والعشائر كان كل شيء يجري بلا مناقشة ، وكانت المنازعات تنفض بالإلتجاء إلى الآلهة والعادات القديمة . ولكن إذا ما تعارضت العادة والعادة ، أو قامت منازعات بين بعض الأصدقاء بشأن بعض الحقائق، فإن الأمر يستدعي سلطة جديدة أكبر وأقوى . وهنا تشتد الحاجة إلى القانون . لكن من هو الكفؤ المهيأ لوضع القانون ؟ ففي ذلك الوقت حيث لم يكن تشريع ولا مشرعون كان الملوك هم الذين يتولون هذه المهمة . فهم وحدهم دون سائر العالمين قد جرت في عروقهم دماء قوية جديدة هي دماء أبي الآلهة(١) . فالملوك المتحدرون من الآلهة هم في منزلة القانون الدولي الذي هو الأساس بل الضمان الوحيد للتنظيم الدولي في هذه الأيام . وكلاهما معصوم عن الخطأ وكلاهما قمين أن يفض النزاع ويرضي جميع أطراف النزاع . « فمن عرائس الفنون بنات زيوس ، ومن إبنه أبولون العظيم ، يهبط الوحي والإلهام على المغنين والموسقيين ! ومن زيوس أيضاً « ينحدر الملوك . . . » كما يقول هزيود في قصيدته المشهورة أنساب الآلهة التي هي مصدر ثر للأساطير اليونانية(٢) .

لقد كان تعدد الإلهة عند الإغريق ديانة طبيعية زادها تعقيداً وتعدداً إنقسامات الإغريق وإندماج نوعين مختلفين من الديانات في طول البلاد وعرضها : ديانة(أو عبادة) الطبيعة وديانة الموقد أوعبادة الأسلاف كما تقدم

---

(١) الفرد زيمًرن : الحياة العامة اليونانية ، صفحة ١٠٢
(٢) المصدر السابق ، صفحة ١٠٤ .

معنافي الفصل الأول من هذا الكتاب . وقد تمت التفرقة بين الأساطير والتفكير في وقت متأخر نسبياً في اليونان الأوروبية نتيجة لفتوحات الإسكندر ، لكنها تمت قبل ذلك بكثير في إيونيا على شواطيء آسيا الصغرى الغربية . هنا في إيونيا إنتفض العقل اليوناني وهنا بدأت الحضارة اليونانية تفيق من العهد المظلم رغم تلكؤ الثقافة المينوية القديمة بعض الوقت فيها . فإن العناصر الجديدة لا تستطيع طرد العناصر القديمة جملة واحدة ، بل لا بد من التدرج والتؤدة . فهوميروس ـ وهو أول شاعر عظيم ـ كان إيونياً ، وكذلك طاليس وأنكسمينس وأنكسيمندر، وغيرهم. وتتابعت بعد ذلك حبات السبحة في الظهور في بلاد الإغريق الأوروبية .

مقولة الإنتفاضة

أجل إن الحركة الفكرية العظيمة التي سنناقشها فيا بعد قد بدأت في إيونيا بلا نزاع . فالإيونيون هم الذين بدأوا يرتادون البحار ويؤسسون المستعمرات ويرتفعون بالفنون ويعيشون تلك الحياة الكاملة الحرة التي ستكون من أخص خصائص الإغريق . وفي إيونيا كان الإتصال المباشر بحضارات الشرق العريق . ولكن هل كان هذا الإتصال هو الذي صنع مجد إيونيا ومجد وبالتالي مجد اليونان ؟ كثيرون يعتقدون ذلك . فالفكر اليوناني في أذهانهم إنما هو مجموع التأثيرات الشرقية من مصرية وبابلية وهندية و . . . أي إن هذا الفكر هو نتيجة للإتصال بالشرق وعلوم الشرق ، والعكس هو الصحيح في نظري . أي إن يقظة الفكر اليوناني هي التي دفعت به إلى وراء الحدود . فبدلاً من أن يكون الفكر اليوناني نتيجة للإتصال بالشرق هو سبب هذا الإتصال وعلته . فإنه « لتفسر التاريخ تفسيراً علمياً صحيحاً يستوعب الظاهرة الإنسانية بكل ما فيها من نبض وتلقائية وإستقلال وحرية وتفرد ، لا بد من إدخال مقولة جديدة نعتقد إنها تراعي العوامل الذاتية والموضوعية لهذه الظاهرة ولا تُفرّط في أيٍ منها ، ألّا وهي مقولة الإنتفاضة . إن هذه المقولة هي الأصل والمعاد . إنها المبدأ والغاية والواسطة بينهما : بها إنما يبدأ التاريخ ، وبها إنما يمضي ويسير ، وبها إنما ينجز أعماله ويحقق أهدافه وغاياته ، وبإنتفائها يقف ويتلاشى . لا شيء قبلها إلّا العماء والفوضى ، أما بعدها فإشعاع ونور . إن هذه الأنتفاضة تعبر عن المعنى العميق للذات ، كما تفسر نقاط التحول الكبرى في حياة الأمم والشعوب ، من غير أن تهمل في الوقت ذاته ضغط الظروف الموضوعية التي تحيط بها والعوامل الخارجية التي تهيء لها .

إنها عصا التاريخ وأداته الفعالة وسره المكنون ، كما هي الشحنة التي تفجر طاقات الأفراد والجماعات وتسمو بالإنسان إلى قمة تحقيق الذات . بكلمة موجزة : إنها التفسير الحقيقي للإنسان والتاريخ والحضارة . وسيتضح لنا ذلك كله عندما نتصدى للحديث عن إنتفاضة جزيرة العرب على يد نبي العرب وقائدهم الذي قذف بهم في الآفاق وطاول بهم الزمن ، وغزا بهم العقول والقلوب واستولى على المشاعر والأذهان .

« إن تفسير التاريخ بقانون الأسباب والمسببات وحده ، والإكتفاء بطريقة التحليل « الكيماوي » للأفكار من غير إدخال مقولة الإنتفاضة ، فيه جناية كبيرة على التاريخ والفكر والحضارة ، وتشويه لحقيقة الإنسان وبتر لذاته وتقطيع لأوصاله . فأنا أؤمن بالإنسان ولا أؤمن بغير الإنسان وكل ما عداه فإنما هو من صنعه وجبروته »[1] .

إن إلتزام التفسير العليّ في التاريخ ، ومحاولة رد جميع الحوادث إلى علل ومعلولات ، وأسباب ومسببات ، وتقطيع المسببات مِزَقاً على قدِّ الأسباب بلا زيادة ولا نقصان ، والنظر إلى العقل على أنه ظاهرة ملحقة لا فاعلية لها بذاتها ـ إن التزام هذا التفسير فيه إهدار لكرامة العقل فضلاً عن أنه يعود بأوخم العواقب على الفكر اليوناني أو العربي وأي فكر آخر يراد تفسيره . إن التفسير السببي قد يصلح في كل مكان إلّا ههنا ـ ماذا أقول ؟ ! إن مبدأ العلية قد أخذ العلماء يعيدون النظر فيه منذ وقت غير قصير في ميدان العلوم الطبيعية التي تُعدُّ نموذجاً للتفسير السببي ، فما ظنك بالعلوم الإنسانية وشؤون الفكر التي تعنو على كل علّية ولا تخضع لقانون الأسباب والمسببات إلّا بشق النفس وبالكثير من القسر والإفتعال والصناعة وتحميل الأشياء فوق ما تحتمل .

إنّ أصحاب هذه الطريقة ينكرون ما للفكر المبدع ، ما للفيلسوف العظيم ، ما للقائد البطل ، ما للفنان المطبوع الملهم ، ما لهؤلاء العمالقة من طرافة وجدة وشخصية وقدرة فذة على الإبتكار واجتراح المعجزات ، وبذلك يجردون الفكر من أخص خصائصه ، ولا يحسبون حساباً للإنتفاضات التي تحصل للشعوب وتتفجر في بعض المراحل المشرقة من تاريخها . فلو كان الأمر كذلك ،

---

(١) محمد عبد الرحمن مرحبا : أصالة الفكر العربي ، صفحة ١٧٢ ـ ١٧٣ .

أي لو كان الفكر مجرد رديف للأشياء ، مجرد آلة عاكسة لها منفعلة عنها محكومة بها ، لو لم يكن التاريخ قصة تفوُّق الإنسان على ذاته وعلى واقعه وعلى القوى الخارجية جميعاً ، لو لم يقع في التاريخ انتفاضات وثورات تقلب موازين القوى وتعصف بالأوضاع القائمة وتُخلّ بالمعادلات الثابتة ، لو كان التاريخ مجرد استمرار للحياة والموت والحب والبغض ، والنكاح والطلاق ، والأمن والخوف ، والكر والفر ، والإنتصار والهزيمة ، لو كان التاريخ مجرد حركات وانفاس كما هو الحال عند الحيوان ـ لو كان الأمر كذلك إذن لما كان هناك تاريخ ، بل لكان هناك فقط مجرد تعاقب وسيرورة لأشتات من الأحداث التي لا معنى لها ولا طائل تحتها . وبعبارة أخرى ، لو كان كل ما يحدث مجرد اضافة كمية إلى ما كان موجوداً من قبل بلا أي تبديل نوعي ، إذن لكان القرن العشرون قبل الميلاد والقرن العشرون بعد الميلاد قريباً من قرب !(١) .

إنّ المعجزة اليونانية حق مهما قال كيماويو الأفكار ومهما قال المنقِّبونُ والمنقِّرون . . . وكذلك المعجزة العربية ، وكذلك المعجزة الأوروبية . . . فكيما تتحقق انتفاضة رائعة ، وكيما تقوم حضارة زاهرة ، كيما يبرز عبقري فذٌّ تواكبه ثلّة من العباقرة الأفذاذ وجيل من العمالقة والعظماء يتابعون مسيرته ، لا بد من معجزة . فلقد كان من النتائج الضارة لتعليل التاريخ تعليلاً سببياً بحثاً وتحليل الأفكار بما يشبه التحليل الكيماوي ، جحود الفكر اليوناني وإنكار العبقرية اليونانية . فلعلنا نذكر جميعاً كيف أنّ النقد الحديث المتشدد الذي يشقق الشَّعر Hypercritique قد عمد منذ وقت ليس بالقصير إلى رفض ما يسمى **المعجزة اليونانية** ، لا لشيء إلّا لأنه ـ بالتشدد في البحث والتنقيب واقتناص الأشباه والنظائر ـ قد أمكن الوصول إلى بعض أوجه التلاقي بين الفلسفة اليونانية والفكر اليوناني وبين بعض أنماط التفكير القديمة الأخرى من مصرية وهندية وبابلية . . . إنّ الفكر اليوناني لا يمكن تفسيره إلّا بأنه معجزة ، ولكنها معجزة لا تكتنفها هالة من اللامعقول أو لا تزركشها أطياف من عالم الغيب والملأ الأعلى ، ولا تتدخل فيها الآلهة والأرواح والخوارق ، ولا ترجع في قليل وكثير إلى أسطورة تفوق بعض الأجناس والسلالات البشرية على بعض الأجناس والسلالات الأخرى تفوقاً تكوينياً عنصرياً . . . ليست المعجزة اليونانية شيئاً من ذلك ، إنّها ظاهرة طبيعية

---

(١) انظر المصدر السابق، صفحة ١٧٣ ـ ١٧٤ .

تحدث كل يوم ، وهي خاضعة للقوانين الطبيعية كأي ظاهرة طبيعية أخرى . فلا يحدث في العالم ، ما لا ينتمي إلى هذا العالم وإنْ كانت المعجزة تتمتع بقدرة فذة على السيطرة على هذا العالم بالتسلح بقوانينه ، سيراً على القاعدة المشهورة : « إذا أردت أن تقهر الطبيعة فإخضع لها أولاً » . فالمعجزة ظاهرة طبيعية تحدث كل يوم لتخلق بؤراً حضارية تنتقل من مكان إلى آخر ، وتتقلب في الأمصار والأقطار في عصور التاريخ المختلفة[١] .

ليست العبرة بالتأثيرات الأجنبية ، إنّما العبرة كل العبرة بالعقل الذي يستخدم هذه التأثيرات ويصوغ منها مادة جديدة . إنّ التأثيرات الخارجية لا تُغني شيئاً إذا لم يتوفر العقل المبدع الذي يعرف كيف يتناول هذه التأثيرات وكيف يفيد منها وينميها ويضيف إليها ما يزيدها عمقاً وتألقاً وإشعاعاً ، بينما تقرع هذه التأثيرات عقول الناس جميعاً وتزدحم في أذهانهم من غير أن يستخلصوا منها شيئاً أو تثير فيهم أي معنى . أجل إنّ التأثيرات الأجنبية لا خير فيها ما لم تصادف عقلاً لا كسائر العقول ، عقلاً خصباً يبث فيها الحياة ويسخرها لأغراضه ومصالحه ، ويعطيها من الصيغ والأشكال ما لم يخطر لأحد قبله على بال . إنّها لا تكفي أبداً وحدها لتفسير ما يومض في النفس من بدوات وسوانح ، وما يعنُّ لها من خلسات ولُمع ، وما ينبثق فيها من نفثات الإبداع ونفحات الإلهام . إنّها لا تصلح أبداً لتفسير إطلالة العظيم وإن كانت لا تخلو أن تكون عنصراً من عناصر وجوده . إنّ هذه الإطلالة ظاهرة فريدة هي نسيج وحدها تنبثق من أعماق الذات ، من ينبوعها الدافق السلسبيل ، وهي لا تتصل بالأسباب والعوامل الخارجية إلاّ بخيوطٍ أوهن من بيت العنكبوت . وإلاّ فما بال هذه الأسباب والعوامل تقرع جميع الأبواب فلا يستجيب لها إلاّ قلّة نادرة[٢] . فليست العبرة بالأثر الخارجي ، وإنّما العبرة بأن يصادف هذا الأثر تهيؤاً خاصاً في وعي الشخص ، فيقتنص هذا الأثر وتحدث المعجزة . تلك هي صعقة العبقرية وهذا هو مخاضها الذي لا يصفه لسان ولا يقوم به بيان . فهو لا يعرفه لا ذووه ، لأنه من طور غير طور الإدراك العادي . فمن ذاق عرف[٣] .

(١) المصدر السابق، صفحة ١٧٤ .
(٢) المصدر السابق،صفحة ١٧٥ .
(٣) المصدر السابق،صفحة ١٦٣ .

فما قيمة التأثيرات الخارجية إذا لم تجد العقل الذي تهزه ، والخيال الذي تثيره ، والوجدان الذي توقظه ، والوعي الذي يقبل عليها ويعانقها بحصافة العلماء ، ونشوة الصوفية ، وإخلاص العاشقين وتفاني الشهداء ، وبراءة الأطفال وفرحتهم وسذاجتهم ؟ وكأيِّنْ من عنصر ثقافي أو أثرٍ فكري أو معنى حضاري يمر عليه الناس كل يوم وهم عنه غافلون ، حتى يأتي من يقتنصه ويتدبره ويستخرج منه ما عميت عنه العيون وصُمَّت دونه الآذان ؟! .

الذات هي مصدر الإبداع

وبهذه المثابة ، يمكن القول أن المبدع الذي كثيراً ما يُتهَّم بالسطو على آثار غيره ، لا مصادر له بالمعنى الوجداني الدقيق إلا ذاته ، فإنما هي تجارب وخبرات تجيش في نفسه ، وبروق تومض إليه ثم تخمد عنه ، وخطرات وسوانح تهجم بين الحين والحين فيبادر بتدوينها قبل أن تفلت منه ، وقد يتخلل ذلك آثار وأفكار ترد إليه من خارج وتقفز إلى وجدانه الحي على علمٍ منه أو على غير علم ، فتتفاعل في عالمها الغض الجديد هذا وقد رَسَبت منها أشياء وتناثرت أشياء . فهو بحكم عكوفه على القراءة والكتابة والبحث،ومطالعة آثار أولئك الذين يشبهونه في المزاج والإتجاه الفكري والفني وويرتبطون معه بنوعٍ من الإرتباط الداخلي الوثيق ، يسري إلى نفسه منهم بعض الإيحاءات والمعاني ، فتغور فيها وتغور ، وهناك يعاد تنظيمها مرة أخرى . وبعد أن تخضع لعمليات كثيرة من المعالجة والإنضاج ، ويضاف إليها ما يضاف من عناصر عالمها الجديد الذي وجدت نفسها فيه ، تخرج إلى بؤرة الشعور في صيغٍ وأوضاع غير مسبوقة . لقد صهرتها عبقريته السامقة ، وخلقتها خلقاً جديداً نظَراتُهُ العميقة وخبراتُهُ الواسعة وتجاربُهُ ومعاناتُهُ . لقد تبدلت بما استقر في وعيه ووجدانه من عناصر الخلق والإبداع وبما أضافت إليها عبقريته وتفجرت به ينابيعه . ومهما يطرأ عليها من تبدلٍ في الملامح والصور ، فلا بد أن تحتفظ بخيوط واهنة من أصولها القديمة تكفي لجعل « شرطة الأفكار » يتهمون صاحبها بالإغارة على الآخرين والسطو على آثارهم ، والمسكين غافلٌ عن كل هذا . لقد قبضوا عليه متلبساً بالسرقة فلا بد أن ينال عقابه الأليم . كلا يا هؤلاء ! ليس في الأمر سطو وسرقة ، وإنما هناك هضم وتمثيل ، هناك خلق ، والخلق لا يكون من عدم ، الخلق منِ عدم مستحيل سواء على صعيد الأشياء أو على نطاق الأفكار . أفكار تثير أفكاراً وتتولد عنها أفكار وتكمن عملية الخلق في

أصالة هذه الأفكار . وإذا كان قد « سرق » حقاً فقد ألقى على ما « سرق » ظلّ شخصيته وطبعه بطابعه ، وأضفى عليه قبساً من روحه وبيانه حتى خلقه خلقاً جديداً فقَدَ أو كاد أي صلة بالأصل . ولكن كل هذا لا قيمة له في نظر « شرطة الأفكار » ما دامت « التحليلات الكيماوية » ، و« بصمات الأصابع » قد أثبتت ضلوع المتهم في « الجريمة » النكراء . لقد نسوا فكره المنظّم وعقله المرتّب ، وتحليله الدقيق ، وغاياته المنشودة . لقد نسوا ـ وهذا هو الأهم ـ التركيبة الجديدة التي صنعها والصيغة المبتكرة التي طلع علينا بها . إن الفلسفة التي انتهجها هي فلسفته هو ، وهو وحده ، رغم مشاركة الكثيرين فيها ، إنها فلسفة شخصية خاصة به وإن نحا بها نحو هذا الفيلسوف أو ذاك . إنها ليست مجرد اقتباس ، وإنما هي خلاصة تفكيرٍ عميق ، وتعبيرٍ شخصي أنيق . وإذا كان قد « سرق » حقاً فكما « يسرق » النحلُ رحيق الأزهارِ ! أجل إن الفيلسوف هوبالنحل أشبه ، فالنحل يمتص الرحيق من هذه الزهرة وتلك ، ولكنه بذلك إنما ينتج الشهد الذي هو صُنعُه الخاص ! فلا صعتر ولا ليمون ولا زيتون ولا تفاح ، إنه شهد والسلام . هكذا يقتبس الفيلسوف من سواه ، ولكنه يصنع مما يقتبس نتاجاً شخصياً فريداً ، فيه الكثير من نفثات نفسه التي امتزجت برحيق الزهور . إنه من قوة الإستيعاب والخلق بحيث يتحلل هذا الرحيق وينحل في حسه الفياض وقريحته المبدعة فيخرج عسلاً مصفًّى فيه شفاء للناس ولذة للشاربين . فهو يُركّب مواد في مواد ويضيف إليها مواد من ذوب عقله ومهجة نفسه ويستولدها وعليها سيماؤه وطابعه وكأنها تتفجر من أعماق ذاته . لكن شرطةً ملاحقة الأفكار له بالمرصاد . إنها في شغل شاغل عن جميع هذه العمليات الباطنة التي لا تعبأ بها في قليلٍ ولا كثير ، إنها شرطة فظة جافة غليظة لا تهادن ولا تساوم ولا تسالم ، رائدها هتك الأستار ، وفضح الأسرار ، واختراق الأسوار ، والتجسس بعيداً عن الأبصار . إنها شرطة جاهلة تتمسك بالقشور دون الزهور ، وليس لها القدرة على سبر الأغوار والوغول في الأعماق . إن « المسروقات » عليها بصمات « اللص » ، وحسب الشرطة هذا الدليل لإثبات الجريمة ، فَلِمَ العبث وإضاعة الوقت ؟ « النصوص قبل النفوس » هذا هو الشعار الذي تدين به وعلى منطوقه إنما تسير[1] .

---

(١) المصدر السابق، صفحة ١٧٥ ـ ١٧٧ .

إن هذا ينطبق على اليونان القدماء وعلى غير اليونان كالعرب مثلاً . كلاهما لم يبدأ من فراغ وكلاهما استعار وأعار ، وكلاهما استولد وخلق ، فكفوا عن هذه المعزوفة القديمة الحديثة . فليس عيباً على اليونان أن يستعيروا ويقتبسوا من الأمم الشرقية ، إنما العيب كل العيب أن يظلوا عاجزين مقصرين عمن كان نبعاً لهم ومستقىً لأفكارهم. فلكل فيلسوف الحق في أن يأخذ عن أي فيلسوف آخر ما شاء أن يأخذ ، فهذا لا أهمية له ، ولكن الذي له كل الأهمية إنما هو ما صنعه الفيلسوف بهذه الآراء ، وكيف سلك بازائها ، وما هي النتائج التي استخلصها منها .

وهكذا فما اقتبسه اليونان من المصريين والهنود وغيرهم لم يكن في أيديهم سوى أداة للعمل . وهم لم يقدموا على الإكتساب من تجارب الأمم السابقة إلا مدفوعين بتلقائية غنية خصبة تحدوها إرادة واعية تصارع طبيعة متمردة . وهذا لعمري دليل حيوية ونشاط وليس عرضاً من المرض والتخلف .

ولا يقتصر ذلك على اليونان وحدهم بل هو يسري أيضاً على العرب وعلى أوروبا عصر النهضة . ومعنى ذلك أن التأثيرات الحضارية والإستعارات الثقافية ، والآراء والأفكار والنظريات المتبادلة بين الأمم والشعوب إنما هي ظاهرة صحية طبيعية سليمة ، لا خطر فيها ولا خوف منها . وهي موضوع مألوف عالجته كتب الإجتماع ولا تزال تعالجه ، وبخاصة في كتب الأنثروبولوجيا . وهي لا تقتصر على عصر دون عصر ، وقوم دون قوم غير أنها تكون كالقَطْر أحياناً ، ولكنها تكون كالغيث في عصور التحولات الكبيرة والثورات الشاملة(١) .

وزبدة القول ، إن كل أمة هي - في إيديولوجيتها أو في تركيبها أو في تفكيرها - حصيلة تفاعل بين عدة ثقافات وعدة أعراق وعدة وحدات حضارية في بيئة جغرافية معينة . إنها نقطة تقاطع بين التاريخ والجغرافيا ، وجبهة صراع الأفكار مع الأحجار . والويل لمن يركن إلى الأحجار دون الأفكار . هنا يُصنع التاريخ وهنا أيضاً يُقبر التاريخ ، وتبور تجارة التاريخ . هنا يعمل الإنسان على مكاثرة حاجاته وتنمية قدراته وتطوير أنماط حياته ، وهنا يستسلم للرقاد العميق ويبتاع القشور بالرحيق،والأمر موكول إليه أهو يريد البقاء أو يبتغي الذل والفناء ؟ .

(١) المصدر السابق،صفحة ١٥٢ .

خلاصة القول في امر الإقتباس والإستعارة

وخلاصة القول ، يجب إعطاء ظاهرة الإستعارة والإقتباس حجمها الطبيعي بلا زيادة ولا نقصان ، فلقد عودنا المستشرقون على التقليل من أهمية هذه الظاهرة عندما يتصدون للحديث عن اليونان ، ولكنهم يضخمونها ويعطونها أحجاماً « فلكية » إذا صح التعبير عندما يحكمون على الشرقيين عامة والعرب خاصة حتى يجردوهم من كل موهبة أو مزية . يجب إعادة الأمور إلى نصابها الطبيعي . لا تبخسوا الناس أشياءهم لتردوها إلى غير أصحابها وزنوا بالقسطاس المستقيم . العدل أساس الملك ، والحق أحق أن يُتبع ، وليكن رائد الباحث المنصف قصد السبيل .

قلنا أن الحركة العقلية العظيمة قد بدأت في إيونيا ، أي في بلاد اليونان الشرقية ، ثم انتقلت الشرارة إلى بلاد اليونان الأوروبية . في هذين المكانين حدثت المعجزة وتمت التفرقة بين الأسطورة والحقيقة ، بين الواقع والخيال . ولم يكن ذلك نتيجة للإتصال بالشرقيين بقدر ما كان سبباً لهذا الإتصال . لقد انتفض القوم انتفاضتهم الرائعة ، وبالأحرى قلة مختارة منهم سرت منها الشرارة تريد لتتم نورها ولو كره الجاهلون . لا شيء قبلها إلا العماء والظلام . أما بعدها فدفء وإشعاع ، وانطلقت عجلة الفكر بعد ذلك تغُذ السير وتقتحم الآفاق . وبشيء من التحليل السْيكوسوسيوديناميكي يمكن رؤية حركة هذا الفكر بأم العين وسماع هديره بملء الأذن ، ويمكن أن يستولي جيشانه على الحس والوعي وجميع المشاعر المتفتحة لولا أني أدخر ذلك للفكر العربي لأنه أحق بهذا التحليل وأهله ، لِما عانى من ظلم الدارسين المتعصبين والمستشرقين المتحاملين ، وأما الفكر اليوناني فلا يحتاج إلى شيءٍ من ذلك ، لأن من حوله جوقة من المشيدين والمنشدين والمنافحين لا يكفون عن الثناء عليه والتسبيح بحمده ! ولكن الفكر العربي عانى الكثير من الجحود والإنكار حتى من قبل أهله وعشيرته ، لا لجناية جناها ، بل لكراماتٍ كان من السبّاقين إليها .

التشكيك في الفكر اليوناني نفسه

وهكذا فحتى الإغريق لم ينجوا من التشكيك في فكرهم وحضارتهم . فما ظنك بالعرب ؟ فقد ذهب هؤلاء المشككون إلى أنه لا يكاد يوجد شيء في الحضارة اليونانية الكلاسيكية دون أن يمكن إرجاعه إلى أصول خارجية . فالمنقب في أصل

هذه الحضارة يجد أن جذورها تمتد بعيداً جداً في أعماق الماضي ، وتتشعب في أغوار سحيقة من التاريخ بل ومما قبل التاريخ ، ولكن كل هذا لا أهمية له مطلقاً في نظري رغم أنه صحيح لا غبار عليه . ورغم أني لا أنكر أهمية المؤثرات الخارجية بحالٍ من الأحوال ، غير أني لا أذهب في ذلك إلى حد تأليهها وإسناد العجائب إليها لغاية في نفس يعقوب . فالعبرة ليست فيها استفاد اليونان من غيرهم ، بل فيها لا سبيل إلى استفادته ، وأعني به حب الإستطلاع الشديد وسعة الخيال ، والقدرة الهائلة على الإستدلال والإستنتاج والتحليل والتركيب والتعميم والتعليل واستخراج العلاقات . فالعنصر الفاعل المميز للإغريق في تلك المرحلة من تاريخهم هو مرونتهم العقلية الشديدة ، وقوة خيالهم ومقدرتهم الخارقة على الجمع والتأليف . وكل أولئك مما لا سبيل إلى تعلمه واكتسابه ، إنه إنما ينبع من الذات ولا يمكن استفادته من أي ذاتٍ أخرى . ولهذا فإن الأفكار التي كانت تتجمع بعضها إلى بعض في أذهانهم سرعان ما تتفاعل ، فكانوا يخرجون منها بنتائج وحلول ليست في الحسبان حتى إننا قد نجد صعوبة في فهمها ، نحن الذين نبتعد عنهم مسافة خمسة وعشرين قرناً ، فكيف تُراها خطرت لهم وهي على هذه الصعوبة ؟ بينما إن نفس هذه الأفكار التي تأتيٌ لهم اكتسابها ففعلوا بها ما فعلوا قد تظل لدى غيرهم من الشعوب متراكمة طبقاتٍ بعضها فوق بعض يعلوها الغبار إلى يوم يُبعثون ؟ ما قيمة الأفكار المستعارة إذا لم تقترن بالقدرة على التنظيم والتحليل والتركيب والتعليل والتعميم والجمع والتنسيق والتأليف واكتشاف العلاقات ؟ فليس من العار على الإغريق أبداً أن يُفيدوا من الفُرص التي خلقوا بعضها بأنفسهم وأتاح لهم كل من الزمان والمكان بعضها الآخر ، ولكن العار كل العار أن يقفوا مكتوفي الأيدي أمام سيل المعرفة الذي فاض عليهم من كل مكان . ليست العبرة بالمعارف التي قد نهلوها من الآخرين ، إنما العبرة كل العبرة بما فعلوا بهذه المعارف وأي النتائج استخلصوها منها . وهكذا فلئن استفادت حضارة الأغارقة شتى العناصر من الحضارات السابقة ، فإنها في الوقت ذاته قد أعادت ما استفادته أضعافاً مضاعفة وبلغت ذلك حد الإعجاز. هذا هو معنى المعجزة اليونانية ، وهكذا يجب أن نفهمها[1] .

إنّ النظر إلى الحضارة اليونانية من خارج لن يجدي شيئاً . إنّه لن يقدم لنا

(١) المصدر السابق، صفحة ١٨٥ ـ ١٨٦ .

سوى مجموع حسابي مبرقش من الصور الباهتة والأوضاع المقلوبة التي في متناول كل أحد الحصول عليها ، فضلاً عن أنّ ذلك من شأنه أن يبخس اليونان حقوقاً كثيرة ويجردهم من أخص خصائصهم التي اكتسبوها في مراحل التاريخ المختلفة والتي ليست في متناول كل أحد بل هي من المضنون به على غير القادرين وهم القلة النادرة في كل أمة . وأمّا إذا نظرنا إليهم من باطن ، أي من حيث الدوافع والإهتمامات والهواجس، أعني من حيث القوى الداخلية العارمة التي مكنت العوامل والأسباب الخارجية من الفعل والتأثير ، فسنجد ينابيع ثرة دافقة هي التي تصنع الأمم وتاريخ الأمم ، وهي التي تبني أمجاد الأمم وحضارات الأمم . غير أن ذلك ليس غرضنا في هذا الكتاب ، لا سيما وقد تبارى الكثيرون في الإشادة بالفكر اليوناني والمعجزة اليونانية ، وجندوا جميع طاقاتهم لإظهار مآثر الحضارة اليونانية وفضلها على الفكر العالمي ، وكان كل غواص يخرج بدُرّ جديد،حتى لم يتركوا زيادة لمستزيد أو كادوا . كيف لا وتاريخ أثينا يعني تاريخ أوروبا وإضافة أمجاد جديدة إلى أمجاد أوروبا ، وفي ذلك ما فيه من تسويغ للهيمنة الأوروبية وتوكيد لحقها التاريخي في السيادة على العالم . فبدلاً من أن نضيف إلى ما قالوه حجة جديدة تزيدهم استعلاء وغطرسة وتكون معولاً في إيديهم ليجوسوا خلال الديار،فإنه أولى بنا بدلاً من ذلك أن نتوفر على دراسة فكرنا الذي قلّ منصفوه وكثر شانئوه وعانى ما عانى منالجحود والنكران . فالفكر العربي لا يفهمه إلا عربي ، ولا يدرك أبعاده إلا عربي ، ولا يسبر أعماقه إلا عربي ! لقد آن له أن ينتصف لنفسه وعلى أيدي أبنائه . وأنا زعيم أن الدراسة الساخنة التي تتيحها لنا السّيْكوسوسيوديناميكا ستضيف جديداً في هذا السبيل(١) . وليسهمْ كل منا بنصيبه لنضع حداً للعربدة الإستعمارية والتجني المقصود .

شروط المعجزة

إنّ المؤثرات والعوامل الخارجية تذرع الأرض ذهاباً وإياباً كل يوم تطلع فيه الشمس . فَلِمَ اختصّبَ بالفعل والإنتاج في بلد بعينه في وقت بعين دون سائر البلاد الأخرى رغم ما يعاني هذا البلد من فقر وحرمان ؟ فإذا أجبنا عن هذا السؤال قطعنا شوطاً كبيراً في فهم **المعجزة اليونانية** وعرفنا الشيء الكثير عن القوى

---

(١) وقد أوضحنا ذلك بتفصيل وافٍ في كتابنا **الفكر العربي في مخاضه الكبير** دراسة ميدانية ساخنة ، وسيصدر في وقتٍ قريب جداً عن دار الجيل ، بيروت .

العارمة التي لا يتم اللقاح إلاّ بها . وسنرى كيف ينطبق ذلك على المعجزة العربية الإسلامية أيضاً . نعم المعجزة العربية الإسلامية رغم ما تحدثه هذه الكلمة الآن من صدمة لأصحاب المشاعر « الرقيقة » الذين لا يتصورون وقوع المعجزات في أي بلد لا يمت بصلة النسب والقربى إلى الجنس الأبيض المختار . فما المعجزة اليونانية سوى واحدة من معجزات متعددة سبقتها وأعقبتها . فالتاريخ حافل بالمعجزات كما قلنا أكثر من مرة ، وإلاّ لم يكن تاريخ ، فلا تاريخ بلا معجزات ، فإنّما التاريخ هو تاريخ المعجزات ، وإلاّ كان مجموعة قصص وحكايات ، وكتل من الأنفاس والحركات ، وأجسام تدب على الأرض كالحيوانات .

إنّ وجود المعجزة لا يمنع أن تكون البيئة التي حدثت فيها هذه المعجزة مشبعة بالعناصر الأجنبية ، بل إنّ هذه العناصر ضرورية أحياناً لإكتمال دورة حياة المعجزة ، ولكنها تظلّ مادة خام لا تضر ولا تنفع . إنّها إنّما تنتظر العقل الذي يستخدمها ويسخرها لأغراضه وحاجاته ، العقل الذي تحدث فيه الصدمة المطلوبة . ويبدو أنّ هذه الصدمة لا تحدث كيفما اتفق . فليست جميع العقول تنفتح للأفكار ذلك الإنفتاح الذي يؤدي إلى حدوث الصدمة ، وليست جميعها مهيأة لهذا الإنفتاح في كل زمان ومكان . إلاّ أنّه يبدو أن عصور الإنتفاضات والثورات والمعجزات الكبرى في التاريخ هي أكثر من غيرها مؤاتاة لشحن العقول والأذهان وتفجير الطاقات فيها . إنها أقدر من غيرها على كشف المواهب والعبقريات واستفراغ ما فيها من جهود وإمكانات ، واستجاشة ما تنطوي عليه من قوى كامنة مضغوطة تنتظر الشرارة الأولى لتتفجر وتثور كالبركان . إن هذه المواهب والعبقريات تكون راكدة في ظروف الحياة العادية يعلوهاالغبار والصدأ . لكن ما إن تسمع المنادي حتى تهب من رقادها ، ما إن يجلجل البطل بصوته وتتردد أصداؤه في الآفاق ، ما إن يؤذن الناس بالإنتفاض والثورة ، حتى يأتوه رجالاً وركباناً وتهرعوا إليه من كل فج عميق . لقد بُعثوا قوماً آخرين بعد أن كانوا غثاء كغثاء السيل[1] .

إنّ جميع علوم الأرض لا تكفي لإحداث الإنتفاضة إذا لم تكن إنتفاضة ، بل لقد تحدث الإنتفاضة مع انعدام المؤثرات الخارجية . فإذا حدثت عرفت كيف

(١) أصالة الفكر العربي ، صفحة ١٨٧ ـ ١٨٨ .

تجذب المؤثرات الخارجية إليها لتستدرك ما فاتها بسرعة خارقة . أجل ، إنّ علوم الأولين والآخرين لاتكفي لإحداث الإنتفاضة إذا لم تكن انتفاضة. وآية ذلك أنّ العلم الأوروبي منتشر اليوم في كل مكان لا تكاد تخلو منه لغة من لغات العالم ، ولا تكاد توجد عاصمة من العواصم في آسيا وأفريقيا وأميركا اللاتينية تخلو من جامعة من الجامعات ، ومع ذلك فإنّ هذه الجامعات لا تزال تعيش على هامش الحياة اليومية لهذه البلاد . إنّها في برزخ والحركة العلمية العالمية في برزخ . إنها عاجزة عن الخروج مما هي فيه إلى الفضاء الواسع العظيم . فعلى الرغم من وجود الجامعات في العالم الثالث فإنّنا لا نستطيع أنّ نقول إنّ هناك مناخاً علمياً بالمعنى الحقيقي للكلمة . هناك معامل ومختبرات وتكنولوجيا مستوردة ولكن العلم لا يُستورد ، وإذا استورد بالوسائل الصناعية إلى بلد فإنّه يُقحَم فيه اقحاماً لا ينتج عنه أي ثمر . وإذا لم تصدقوا فأنظروا إلى العالم المحيط بالجامعة ولو على بُعد خطوات منها فهل تجدون أي تناسقٍ وتواصل واستمرارية بين العالمين : عالم الجامعة والعالم المحيط بها ؟ أو لا ترونَ معي قطيعة قاتلة بين العالمين : عالم الناس والأشياء في كليهما ؟ بل أو لا ترون أنّ النفوس هي النفوس أساتذةً وطلاباً سواء في عالم الجامعة والعالم المحيط بالجامعة ؟ فهل أدخلت النصوص أي تغيير في النفوس ؟ عندنا جامعات تفوق آلاف المرات جامعة السوربون في الحي اللاتيني من حيث الشكل والمظهر ، أمّا من حيث المخبر فإنّ الفرق بين جامعاتنا وجامعاتهم هو من الحدة بحيث يفقأ العين . فعلامَ يدل هذا كلّه ؟ فهل هناك برهان على الإقحام والإفتعال أكثر من هذا ؟ إنّ كثرة خريجي الجامعات لا تعني وجود علم يساوي عدد الخريجين . ولا أدل على ذلك من أنّ الجامعات في أكثر دول العالم الثالث لا تنتج أرباب عقول وإنّما هي تطرح في الأسواق جيوشاً من حملة الشهادات يبحثون في نهاية التخرج عن عمل ، حتى إنّ بعضهم يرضى بأي عمل ! إنّها مطابع لطبع الشهادات لا أكاديميات للبحث وصقل العقول . فالطلاب فيها ـ بل والجهاز التعليمي نفسه ـ يعيشون بالغرائز لا بالمشاعر ، بالنقل لا بالعقل ، بالرواية لا بالدراية .

فالجهل والفقر والمرض والطغيان وبلادة البيروقراطية في هذه البلاد تهدر كرامة الإنسان وتقضي على مواهبه . ولا يغرنك أن يُقبل الكثيرون من خريجي هذه الجامعات على الكتابة والتأليف ، فيغرقوا الأسواق بالمجلدات التافهة الرخيصة التي تُكرِّر ولا تبصِّر ، وتُنفِّر ولا تُبشِّر ، وتقسُر لا تبذُر . إنها تتملق ولا

تخلق ، وتدافع ولا تعارض ، وتبرر ولا تُناضل ، وتُصانع ولا تتخذ المواقف الحرة الجريئة . وربما كان أحد أوبئة الحضارة الحديثة أنْ جعلت النشر سهلاً ميّسراً بعد أن كان في الماضي باباً ضيقاً لا يلجه إلاّ الجديرون الأكفاء الذين ينصَبون ويتعبون ويُرهِقون الناس معهم عملاً بالقول المأثور : « إجهد للوصول من الباب الضيق » !! .

انفصال الدين عن الأخلاق في العصور اليونانية الأولى

كانت بلاد اليونان في عصورها الأولى تحيا حياة غير آمنة فتجد بيوتها متقاربة لتحمي نفسها تحت أسوار قصر الملك وتدفع عنها غائلة الطبيعة وغائلة الغزو الخارجي . ولقد تجلى ذلك في الحضارة الموكينية نسبة إلى مَدينة موكينا Mycène وكانت أعظم عواصم اليونان قبل التاريخ[1] كما رأينا في فصل سابق . وانعدام الأمن بيئة خصبة لإستقواء الآلهة وترعرع الأساطير . لقد استغرقهم الدين حتى لم يكونوا يُعنون في ذلك الوقت بالمداولة في المصالح العامة ، بل كان إهتمامهم منصباً على تمجيد الآلهة والقيام بالإحتفالات والأعياد وطقوس العبادة . ولم يبدأ الإهتمام بالمصالح السياسية إلاّ فيما بعد وعلى عهد فيليوس المقدوني . وكان الملوك هم الممثلين الشرعيين للآلهة . وكان هذا على مايبدو تراثاً تراكم ببطء أثناء عزلتهم الطويلة التي امتدت من تاريخ استقرار الغزاة الإغريق الأول إلى أن ظهروا جنساً متحضراً بعد ذلك بعدة قرون . ولم يكن هؤلاء الآلهة على شيء من دماثة الخلق وكرم الطبع ، وإنّ قصص أهوائهم المتقلبة ووحشيتهم وعشقهم الآثم وغدرهم بعضهم ببعض وبالبشر تملأ صحائف التاريخ الأسطوري . فهؤلاء الآلهة لا يبدو أنّهم يلتزمون بالقوانين التي تتحكم في السلوك الإنساني ، بمعنى أنّه لم يكن هناك ارتباط جوهري بين الدين والأخلاق . فالعلاقة بينهما في الأزمنة الموغلة في القدم لم تكن كما يجب أن تكون في نظرنا . بل لم تكن في الحقيقية بينهما أي علاقة على الإطلاق . وكانت المرحلة الثانية هي الجمع بين الدين والأخلاق . ولم تكن هذه العملية بالطبع واضحة منظمة . وكان لا بد من عبور الفجوة التي بين الدين والأخلاق . وأرجح الظن أن ذلك كان متدرجاً . ولعله حدث على الوجه التالي أو بشيء من هذا القبيل . . . فقد كان تقديم القرابين للآلهة يتطلب طهارة دقيقة ، لسلامة الطقوس وصحتها فالرجل الذي سفك الدماءلم يكن يُسمح له بالإشتراك

---

(١) ول ديورانت : قصة الحضارة ٦ / ٥٦ .

في تقديمها إلاّ بعد أن يتطهر . والطهارة الظاهرية - وبالتالي طهارة الجوارح - استتبعت بمضي الزمن طهارة القلوب . كما أنّ ذنوباً معينة لم يكن قانون البشر يستطيع معاقبتها أو لم يكن الناس يستطيعون اكتشافها صارت مما يعاقب عليه الآلهة . كما أن الحنث باليمين كان ذنباً من المحال إثباته ، ولذلك كان هو أيضاً مما تمقته الآلهة[1] . فآلهة الدين وآلهة الأخلاق واحدة ، وهي نفسها آلهة الطبيعة . ومعنى هذا أنّ ارتكاب الآثام فيه مخالفة للدين والأخلاق والطبيعة معاً ، كما أنّ اعمال البر يحظى صاحبها برضى الآلهة لموافقتها للدين والطبيعة والأخلاق .

ارتباط الدين بالأخلاق

ومنذ ذلك الوقت ارتبطت الأخلاق بالدين في بلاد اليونان . فإنّ هذه الديانة التي أسست المجتمعات القديمة وحكمتها أمداً طويلاً كونت كذلك النفس البشرية وأعطت الإنسان القديم طابعه ، وبفضل تعاليمها وسننها جعلت لليوناني (والروماني) طريقة خاصة في القول والفكر والعمل وانشأت فيهما عادات معينة لم يستطيعا التخلص منها إلاّ بعد زمن طويل .

وجدير بالذكر أنّ هذا الإرتباط بين الدين والأخلاق كان معروفاً قبل ذلك بقرون طويلة في مصر القديمة كما مر معنا في الجزء السابق من هذا الكتاب . فمصر أعرق من اليونان في الأخلاق الدينية والديانة الخلقية . فلم تعرف مصر القديمة تلك الهمجية التي شهدنا الكثير من فصولها عند اليونان . وقد كان مما قاله أحد الكهنة المصريين لصولون : « إنّكم أيها اليونان لا تزالون أطفالاً ثرثارين مغرورين ، لا تعرفون شيئاً عن الماضي »[2] . وستبذل الإنسانية جهوداً مضنية لفصل الدين عن الأخلاق ، ولن يتحقق ذلك إلا في الأخلاق العلمية التي بدأها ابن خلدون والتي ستبلغ غاية مداها في العصر الحديث كما سنرى في حينه[3] .

لقد كان الشعب اليوناني دائماً شعباً متديناً كل التدين ، فلم ينسَ قط أي احتفال بإلّهٍ أو بطل ، وكان يمكنه أن يخبرك عن الطقوس التي تُتبع في كل مناسبة

(١) كيتو : الإغريق صفحة ٢٥٧ .
(٢) المصدر السابق ،ول ديورانت : قصة الحضارة ،٦ / ١٣٠ .
(٣) انظر كتابنا : جديد في مقدمة ابن خلدون . الفصل الخاص بالأخلاق عنده .

وخاصة فيما يتصل بالأضاحي . ومع ما حدث في أثينا من تقلبات وثورات ، فإنّها لم تستطع أن تزعزع ذلك الإحترام الخرافي أو تلك المهابة للديانة القديمة وللتاريخ المقدّس ، فما من أحد كان يجرؤ على نبذ الأشكال القديمة للديانة القومية . لقد بقيت الديمقراطية متمسكة بالعبادة القديمة تعضّ عليها بالنواجذ ، وإن كان هناك أفراد قلائل شمخوا بأنفسهم ، مثل أنكساغوراس وبرقليس . فكل حي من الأحياء وكل قبيلة وكل مجموعة بشرية في أتيكا لها ارخونها (رئيسها) وكاهنها وكاتم أسرارها ومحصلها وقائدها الحربي. ولا يكاد المرء يخطو خطوة في المدينة أو الريف دون أن يلقى واحداً من رجال الدين أو الدولة . بل لقد انتشرت في بلاد اليونان في العصر التاريخي عادة إدعاء الفرد الإنتساب إلى إلَهٍ أو بطلٍ يعتقد أن جماعته ترتبط به برابطة القربى . فالأثينيون مثلاً يتحدرون من سلالة زيوس من طريق إيون بن أبولون[1] . وهكذا كان قدماء المصريين . فإنّه عندما أخذ هيكاتيوس الملطي الحديث العهد بالأرستقراطية ـ يفاخر الكهنة المصريين بأنّه يستطيع أن يذكر سلسلة نسبه التي تنتهي بعد خمسة عشر جيلاً إلى أحد الآلهة ، اطلعوه على ٣٤٥ تمثالاً لكبار الكهنة كل منهم ابن الذي قبله ويتكون من مجموعهم ٣٤٥ جيلاً تبدأ من العهد الذي كان فيه الآلهة يحكمون الأرض[2] . لقد كان لا بد لكل عائلة يونانية نبيلة من الحصول على سلف تنتسب إليه ، وذلك كما فعل اقلسنتنيز عندما قسّم القبائل الأربع في أتيكا إلى عشر ، إذ ذهب إلى أبولون يسأل عن أسماء الأبطال الذين يجب أن يسمي هذه القبائل بإسمهم تيمناً بهم . والإلَهة في نظر اليونان ليست قادرة على كلِ شيء . فهناك قوة أقوى من الآلهة تعلو عليها جميعاً ولا تستطيع الآلهة بإزائها شيئاً . وهذه القوة الغامضة تُدعى إنانكي Ananke أي ما لا بد منه أو مويرا Moira ومعناها مقسّمة الأنصبة أو « القدر »[3] .

لقد كان يُفترض في اليونان ـ وهم شعب متدين عظيم ـ أن يكونوا سلوكاً واخلاقاً وفضائل في مستوى الآمال والتطلعات المعقودة عليهم . ولكن لا يذهبن

(١) الفرد زيمرن : الحياة العامة اليونانية ، صفحة ٩٦ .
(٢) المصدر السابق، صفحة ٨٧ .
(٣) كيتو : الإغريق، صفحة ٢٥٧ .

بك حسن الظن والإسراف في التفاؤل إلى هذا الحدّ من الشطط والبعد عن المنقول والمعقول . فليست القُدة التي قُدَّ منها اليونان مخالفة لأي قُدة قُدَّت منها أمم أخرى من قبل ومن بعد . هذا ما أكدناه مراراً وتكراراً ولا نمل من توكيده .

القطيعة بين القديم والحديث

إنّ الدين والميثولوجيا في اليونان القديمة يجدان جذورهما المباشرة في الماضي الموكيني أو الميني ـ الموكيني الذي تحدثنا عنه في فصلٍ سابق . هنا كانت الولاية لعبادة الأسلاف والموقد والأسطورة . وكان لكل قَبيلة ملكها وكاهنها وإلهها وسادن النار المقدسة فيها . . . كان الناس أُمة واحدة فجاء الغزو الدوري Dorien في القرن الثاني عشر قبل الميلاد يطرق الأبواب ويوقظ النائمين . واختفى من الأفق اليوناني أشياء وظهرت أشياء .

لقد بدأت القطيعة بين القديم والحديث في تاريخ اليونان عهداً قد ولّى وعهداً قد أقبل . فالعالم اليوناني القديم كما تذكره لنا الألواح الموكينية ، يتقارب في الكثير من خصائصه ـ كالتنظيم الإجتماعي وطريقة الحياة ـ مع ممالك الشرق المعاصرة له . إلّا أنّ الصورة تتغير منذ عصر هوميروس ، فثمّة عالم آخر ومجتمع إنساني آخر تكشفه لنا الإلياذة ، كما لو أن اليونان أصبحوا عاجزين منذ عصر هوميروس عن فهم الحضارة الموكينية التي يمتون إليها والتي كانوا يعتقدون أنهم يبعثونها من الماضي على ألسنة الشعراء المنشدين[١] .

إنّ هؤلاء الإغريق لم يكونوا أمة واحدة متماسكة ، بل طوائف من الناس ظلوا يتدافعون ويتصارعون قروناً . وكانوا ـ كسائر الشعوب الذين هم في مرحلتهم ـ يعيشون حياة قبلية بكل ما لهذه الكلمة من معنى . فلم تكن هناك بعد حقوق أو قوانين أو عادات غير الأخلاق والآداب القبلية ، وعلى رأسهم زعماؤهم يقودونهم للنهب طوراً حباً بالكسب ، وطوراً لمساعدة تابعيهم الفقراء . فكانوا ينقضّون على تلك البلدان غير المسوَّرة وينهبونها . لقد كان هذا هو المصدر الأساسي لكسب رزقهم ، ولم يكن يُرى في ذلك من عيب ، بل لقد كان فيه شيء من المجد والفخر . وكان الحد الفاصل بين الأعمال الحربية والقرصنة ضئيلاً جداً

(١) جان بيار فرنان : أصول الفكر اليوناني ، صفحة ٥ .

حتى في القرن الخامس ، وإذا ما حصلوا على بعض الغنائم اقتسموها فيما بينهم بروح المساواة والديمقراطية المطلقة . إذ كان القتل والسرقة لا يُعاقب عليهما في عرف القراصنة الأخلاقي البسيط ، لكن الويل كل الويل لمن يقوم بقسمة غير عادلة . فهي جريمة لا تُغتفر . وبمضي الزمن أخذ عددهم يقل شيئاً فشيئاً ليقظة الحراسة البحرية ، فإنّه عندما تولت أثينا حراسة بحر إيجه في القرن الخامس أفل نجمهم ، لكنهم ظلوا يعاودون الكرة كلما كانت الظروف مؤاتية لهم . وبذلك بقي حبل الأمن الذي طالما تباهت به أثينا مضطرباً حتى إنّ السفر كان حينذاك أمراً غير مأمون . وفي إبّان القرن الخامس ـ أي العصر الكلاسيكي لدولة المدينة ـ ظهر في أثينا قاطع الطريق المشهور أوريستيس الذي كان يقضّ مضاجع الأثينيين ويثير الهلع في نفوسهم لأنّه يختار الطرقات المظلمة لينقضّ على ضحاياه .

الأخلاق في عصر الأبطال

ولنتحدث الآن بشيء من التفصيل عن الأخلاق في عصر الأبطال ممثلة في الآخيين Achéens ، وهم كما يصفهم هوميروس شعب يتكلم اللغة اليونانية يسكن جنوبي تساليا . وإذْ كان هذا الشعب قد أصبح أقوى القبائل اليونانية فإنّ هوميروس يطلق اسمه على جميع اليونان الذين حاربوا طروادة[1] . فالآخيون (أو اليونان في عصر الأبطال) كانوا أقل حضارة من الموكينيين الذي سبقوهم وأرقى من الدوريين Doriens الذين خلفوهم[2] . غير أنّهم كانوا أحسن أجساماً من هؤلاء وأولئك . فرجالهم طوال القامة أقوياء البنية ، ونساؤهم ذوات جمال بارع فتان يسلب العقول بكل معنى الكلمة . وهم ينظرون إلى الثقافة الأدبية على أنها تدهور وتخنث . وهم لا يستخدمون الكتابة إلاّ مضطرين ، ولا يعرفون من الأدب إلاّ الأغاني الحربية وأناشيد الشعراء الجوالين غير المكتوبة[3] .

واليونانيون في عصر الأبطال هذا ، أي رجال هوميروس الذين جاء ذكرهم في الإلياذة ، عاشوا كثيراً في جو القتال والخطر ، فأصبحوا لا يشعرون بالإشمئزاز من رؤية الدم المراق . أو هذا على الأقل ما توحي به خرافات عصر الأبطال . فليس من حقنا أن نغفل هذه القصص ، فهي وإنْ سادها خيال القتل وسفك

(١) ول ديورانت : قصة الحضارة ٦ / ٣٤ .
(٢) المصدر السابق ،صفحة ٨٦ ـ ٨٧ .
(٣) المصدر السابق ،صفحة ٨٧ .

الدماء فلعلّ فيها من الحقائق التاريخية أكثر مما نظن . وهي ممتزجة بالشعر والمسرح والفن اليوناني امتزاجاً يجعل فهمها مستحيلاً بغير هذه القصص[1] .

فالأسطورة في أغلب الأحيان قطعة من الحكم الشعبية يخلق منها الشعر أشخاصاً ، وكثيراً ما تكون الأسطورة قطعة من التاريخ تضخمت بفضل ما اتصل بها وانضم إليها من قصص جديدة على مر السنين[2]

ولا سبيل إلى تصوير حياة اليونان الآخية(١٣٠٠ ـ ١١٠٠ ق .م) إلاّ بالإستناد إلى أقاصيصها . وأهم مصدر لهذه الأقاصيص هو أشعار هوميروس . وهو إنسان يكتنف الشك وجوده التاريخي كما سنرى في الكتاب القدام . وقد انتشرت ملاحمه بعد عصر الآخيين بثلاثة قرون على الأقل . وجدير بالملاحظة أن قصائد هوميروس ليست وثيقة تاريخية ، وكل ما في الأمر أنّها تعكس لنا الصورة التي كانت تتخيلها الرواية اليونانية كما جمعها هوميروس في أشعاره عن العصر الذي كان يعيش فيه لا العصر الذي يكتب عنه . ومهما تكن هذه الصورة فإنّها ترسم لنا حال بلاد اليونان في طور الإنتقال من الثقافة الإيجية الأولى إلى حضارة اليونان في عصورهم التاريخية .

وإذا جاز لنا أن نصدّق هوميروس فإن من أعظم نِعَم زيوس على بلاد اليونان الهوميرية أن جعلها جنة من الحور العين . وحتى رجالها كانوا على جانب كبير من الجمال . ويصف هوميروس هؤلاء الرجال والنساء بأنهم يحرثون الأرض ويروونها بالماء ويبذرون القمح ويقيمون الجسور ليتقوا بها فيضان الأنهار في فصل الشتاء . ولم تكن بلاد اليونان سهلة الفلاحة لأنّ الكثير منها جبال أو مناقع أو تلال كثيفة الأشجار ، وكانت الحيوانات البرية تغير على القرى والأرياف فكان الصيد ضرورة قبل أن يصبح رياضة أو هواية . وكان الفقراء يأكلون لحم السمك والبقول والخضر أحياناً ، وأمّا المحاربون والأغنياء فكان اعتمادهم على اللحم المشوي الكثير وكان فطورهم اللحم والنبيذ . ولم يكن اليونانيون يستعملون الشوكات أو الملاعق أو الفوَط، وكانوا يأكلون بأيديهم وأصابعهم[3] .

---

(١) انظر كتابنا الفلسفة قبل عصر الفلسفة : فهو يعالج هذا الموضوع بكل تفاصيله . ونعتذر عن ذكر رقم الصفحة لأنّه لا يزال تحت الطبع .

(٢) المصدر السابق ، صفحة ٧٧ .

(٣) انظر ول ديورانت : قصة الحضارة ٦ / ٨٧ ـ ٨٨ .

وكانت الأرض ملكاً للأسرة أو العشيرة لا للفرد . وكان الأب هو الذي يشرف عليها ولكنه لم يكن يحق له بيعها . وكانت الأسرة تقوم بصنع أكثر حاجاتها . وكان ربّ الأسرة ، بل كان الملك نفسه يصنع ما يحتاجه بيته من سُرُر وكراس وما يلزمه هو من أحذية وسروج ، وكان يفخر بمهارته في الأعمال اليدوية . وكان الصنّاع من الأحرار لا من الرقيق ، ويبدو أن اليونان في ذلك العهد لم يعرفوا الأقنان الملتصقين بالأرض . ولم يكن الأرقاء كثيرين ، ولم تكن منزلتهم منحطة ، وكان معظم الرقيق الجواري خادمات في المنازل ، وكنّ يُشترين أو يُبعن لآجالٍ طوال لا للقيام بأعمال قصيرة غير ثابتة . وكن في بعض الأحيان يُعامَلن بقسوةٍ ووحشية . لكنهن كن في العادة يُعامَلن معاملة أعضاء الأسرة التي يعملن فيها ، فيُعنى بهنّ في مرضهن أو عجزهن أو شيخوخَتهن . وإذا ما ولدت الجارية ولداً من سيدها كان هذا الولد من الأحرار(١) .

والمجتمع الهوميري مجتمع ريفي ، وحتى مدنه لا تعدو أن تكون قرى تشرف عليها قلاع قائمة فوق التلال المجاورة لها . وكانت التجارة البحرية أقل مشقة من التجارة البرية رغم القراصنة والعواصف . ولم يكن عند اليونان الهوميريين نقود ، بل كانوا يستخدمون بدلاً منها سبائك الذهب والبرونز والحديد . وكانت المقايضة كثيرة رغم ما كان عندهم من وسائط متعددة للتبادل . وكانوا في العصر الذي نتحدث عنه يحتقرون التجارة ويؤثرون القرصنة عليها(٢) .

والمجتمع الهوميري مجتمع بدائي متخلف ، بل هو أكثر بدائية من المجتمع الموكيني وأقل خضوعاً للقوانين . فبدلاً من أن يسبقه ويتقدم عليه نكص على عقبيه ورجع خطوة إلى الوراء . والحياة الهوميرية فقيرة في الفنون غنية في النشاط والعمل . وهي حياة سطحية خفيفة ينقصها التفكير والتأمل ولم تكن تُعنى بالأخلاق أو الفلسفة .

ومع ذلك فإنّ هذه الثقافة لا تخلو من الصفات والمناقب الرقيقة الرحيمة ، فنرى المحارب كريماً يعطف على أخيه ، كما ترى بين الأب والإبن حباً به من العمق قدر ما به من السكون والصمت . والصداقة بين الأبطال في هذه الثقافة قوية متينة ، وإنْ كانت هذه الصداقة تتصف أحياناً بالطابع الغرامي وبشيء من الصلات الجنسية الشاذة . وهم شديدو السخاء على الأضياف لأنّ « الغرباء

(١) المصدر السابق، صفحة ٨٨ ـ ٩٠ . (٢) المصدر السابق، صفحة ٩٠ ـ ٩٢ .

والمتسولين هم أبناء زيوس » . ومن مظاهر تكريم الضيف أن يغسل العذارى قدميه أو جسمه ويدهنه بالأدهان وربما قدّمن له ثياباً غير ثيابه . وهو يجد الطعام والمأوى إذا كان في حاجة إليهما ، وقد يتلقى الهدايا أيضاً . فقد كان هناك حنو انساني وشعور رقيق يختفيان حتماً في الإلياذة بين نقع الحرب وقعقعة السلاح(١) .

وكانت الحياة في نظر الرجل الآخيّ قليلة القيمة لا يُعدُّ سلبُها من الأمور الخطرة ، وكانت لحظة من السرور كفيلة بردها إلى من قُضي عليه بفقدها . وإذا ما غُلبت مدينة على أمرها قُتل رجالها أو بيعوا بيع الرقيق ، واتُخذت النساء خليلات إنْ كنَّ حسناوات ، وإلاَّ ضُرب عليهن الرق . وكانت القرصنة لا تزال من المهن المحترمة ، وكان الملوك أنفسهم يغيرون على المدن والقرى وينهبونها ويتخذون أهلها عبيداً . وفي ذلك يقول ثوقيديدس : « والحق أنّ هذا العمل قد أصبح أهم مورد من موارد الرزق لليونان الأولين ، ولم تكن هذه المهنة حتى ذلك الوقت مما يعيب صاحبه ويجلب له العار » ، بل كانت على العكس تكسبه المجد والتقدير . وكان من عادة القوم مهاجمة الأمم الضعيفة واستتباعها من غير أن يُعدّ ذلك مخالفاً للعدل أو الكرامة ، كما هي شريعة الأمم القوية في هذه الأيام . فإنّ أوديسيوس مثلاً يتحدث بزهو وخيلاء عما فعله وهو عائد من طروادة ، إذ قل ما كان لديه من المؤن فنهب مدينة إسمروس Ismarus وملأ منها سفينة بالطعام . كما صعد في نيل مصر لينهب الحقول النضرة ويسوق أمامه النساء والأطفال الصغار ، ويقتل الرجال . وزبدة القول إنّه لم تكن ثمّة مدينة من المدن بمأمن من غارات القراصنة المفاجئة ولو لم تقم بأي عدوان أو استفزاز يكون ذريعة لهذه الغارات(٢) .

وإلى جانب حب النهب والقتل بلا أي شعور بالإثم أو وخز الضمير يتصف الآخيون بالكذب والغدر والخداع . فأوديسيوس لا يكاد ينطق بكلمة من غير أن يكذب ، أو يقدم على عمل من غير أن يغدر فيه . فهو عندما قبض على دولون Dolon الجاسوس الطروادي وعده بالإبقاء على حياته إذا أدلى إليه بما يطلبه منه من المعلومات ، وما كاد الجاسوس يفعل حتى أرداه قتيلاً . ولئن كان غيره من الآخيين أقلّ منه غدراً وخيانة فإنّهم يُعجبون به ويرونه نموذجاً للخلق الطيب . ويعدُّه الشعراء بطلاً يستحقّ التقدير ، بل إنّ الإلٓهة أثينا نفسها لا تتردد في مدحه وإطرائه لكذبه ، فهذه الصفة من محاسنه التي تحببه إليها . إنّنا لا نستطيع أن

(١) المصدر السابق ، صفحة ٩٢ - ٩٣ . (٢) المصدر السابق ، صفحة ٩٤ - ٩٥ .

نكتم اعجابنا بهذا البطل المحتال الذي فيه من الصفات ما يستثير الحب . فهو أب لطيف رقيق القلب ، وهو في بلده حاكم عادل لم يسيء إلى أحد في أرضه لا بالقول ولا بالفعل . ويقول فيه راعي خنازيره : « إنّي لن أجد بعد اليوم سيداً يضاهيه في شفقته وحنانه مهما بعدت البلاد التي أذهب إليها ، حتى لو عدت إلى أبي وأمي » . ولا يسعنا إلّا أن نغبطه على شكله الشبيه بأشكال الآلهة المخلدين وعلى ثبات جنانه ، وهو في جسمه وعقله رجلٌ من حديد ، وإنّ كل قطعة فيه مهما صغرت قطعة من انسان ، فحقيق بنا أن نعفو عنه ونتجاوز عن خطيئاته[1] .

إنّ المعايير الخلقية عند الآخيين هي وليدة ظروف حياتهم الشاقة وشظف عيشهم . فالرجل الآخي يعيش في عالم مضطرب ، كدر جائع ، على كل إنسان فيه أن يعنى بحراسة نفسه وأن يكون على الدوام حذراً ممسكاً بقوسه ورمحه ، قادراً على أن ينظر بهدوء إلى الدم المسفوح . وإذا كان لا يجد إلّا القليل من الأمن والسلامة في بلاده ، فإنّه في خارجها لا يرعى إلاًّ ولا ذمة ،ويرى أنّ من حقه أن يقضي على كل ضعيف . وأسمى الفضائل في رأيه فضيلة الذكاء المقرون بالقسوة والشجاعة . والرجل الصالح عنده ليس هو الرجل اللطيف الأمين الرزين المُجدّ الشريف المتسامح ، وإنّما هو الرجل الذي يحارب ببسالة وكفاية ، كما أنّ الرجل الطالح في نظره ليس هو الذي يكذب ويقتل ويغدر ويدمن الشراب ، وإنّما هو الجبان الغبي أو الضعيف[2] . فشريعة الغاب وحق الأقوى شريعة قديمة وُجدت قبل نيتشه وقبل السفسطائيين بقرون ، إنّ هؤلاء لم يخترعوها بل لقد اكتشفوها وكانوا اللسان الناطق بإسمها ، إنّها قديمة قدم الإنسان . فالإنسان يسطو على الإنسان منذ أول الزمان .

كان المجتمع الآخي مجتمعاً أبوياً استبدادياً يمتزج به جمال المرأة وغضبها بحنان الأبوة وحبها القويين . وكان الأب صاحب السلطة العليا ، وكان له أن يتخذ من السراري ما يشاء ، وأن يقدّمهن لضيوفه ، وأن يضع أطفاله على قمم الجبال ليموتوا ، أو يذبحهم قرباناً للآلهة . لقد كان مجتمعاً بدائياً متخلفاً لم يبلغ نظام الدولة فيه مبلغاً يكفي لحفظ النظام الإجتماعي . وإنّ الأسرة فيه تحتاج لخلق هذا النظام إلى القوى التي ستؤول فيما بعد إلى دولة المدينة . فكلما تقدم التنظيم الإجتماعي وارتقى انعكس ذلك سلباً على سلطة الأب وتفككت وحدة

(١) المصدر السابق، صفحة ٩٥ ـ ٩٦ .

(٢) المصدر السابق،صفحة ٩٦ ـ ٩٧ .

الأسرة ، ونمت الحرية والفردية [1] .

وكان مركز المرأة في نطاق هذا العصر الأبوي أرقى في بلاد اليونان الهومرية منه على عهد برقليس الذي كان عهد انتكاسة لها بقدر ما كان مشجعاً للرجل ودافعاً على تقوية حوافزه . فلا الحجاب ولا البيت بمانع لها من الخروج والسير حرة بين الرجال والنساء على حد سواء ، وغشيان مجالس الرجال أحياناً والإشتراك في مناقشاتهم. ولم يكن الزعماء الآخيون ـ عندما يريدون أن يستثيروا نقمة الشعب على طروادة ويستنهضوا هممه ـ يضربون على وتر المبادىء السياسية أو العنصرية أو الدينية ، وإنّما كانوا يهيجونه ويحركون كوامنه بجمال النساء . ومن أجل ذلك كان وجه هيلان الجميل هو الحجة التي تذرعوا بها لإيقاد حرب لا هدف لها إلا التجارة واقتناء الأرض . فلولا المرأة لكان بطل هوميروس فظاً غليظ القلب يعيش بلا هدف ولا غاية . فهي تعلمه الأدب والمثالية ودماثة الخلق .

وكانت المرأة أكثر وفاء من زوجها ، فهي مهذبة رقيقة تخلص لبعلها وتربي أطفالها وتعلمهم عادات القبيلة وأخلاقها وتقاليدها الموروثة ، وكانت البنات يتعلمن الفنون المنزلية ، بينما يتعلم الصبيان الصيد والحرب . وهكذا تتجدد الأجيال جيلاً بعد جيل ، فيتبدَّل أفراد الأسرة وتبقى الأسرة محتفظة بكيانها ووحدتها . وقد تظلّ محتفظة بها عدة قرون . فينصهر الأفراد في بوتقة واحدة من قواعد النظام والأخلاق والعادات [2] .

وكان للملك سلطان على رعيته ولكنه سلطان ضيق محدود بحدود مملكته الصغيرة ، وكان حكمه وراثياً . وَهو الكاهن الأكبر الذي يُقرِّب القرابين باسم الشعب ، أوامره هي القانون ، وأحكامه نهائية لا معقب لها . ولم يكن لفظ القانون قد وجد بعد . ويليه المجلس الذي يجتمع أحياناً ليفصل في المنازعات ويسوي الخلافات . على أنّ المحاكمات على أنواعها كانت نادرة في المجتمع الهوميري ، وكان على كل أسرة أن تدفع الأذى عن نفسها وتتولى الثأر ممن ظلمها . ولم يكن من عادة الملك جباية الضرائب ، بل كان يتلقى من حين إلى آخر الهدايا والهبات من رعاياه . ولكن هذه الهدايا كانت دون مستوى حاجاته

---

(١) المصدر السابق، صفحة ٩٧ .
(٢) المصدر السابق، صفحة ٩٧ ـ ٩٨ ـ ٩٩ .

الضرورية وحاجات جيشه الذي يتوقف عليه مصيره . لذلك كان له مورد آخر لا ينضب معينه ، وهو الرسوم التي يفرضها على ما ينتزعه جنوده وسفنه من الأسلاب في البر والبحر . لقد كانت القرصنة في ذلك الوقت صناعة رائجة يقرها العرف والعادة وإنْ كانت تنشر الذعر والهلع وتمنع الأمن وتقض المضجع[1] .

الأخلاق الدورية

وجاء الغزو الدوري (حوالي عام ١١٠٤) في أعقاب الغزو الآخي ليقضي على ما تبقى من الحضارة الموكينية أو يكاد . وإذا كان الآخيون دون الموكينيين حضارة فإنّ الدوريين الذين خلفوا الآخيين هم دون هؤلاء حضارة وأكثر بدائية . فقد قدِموا من الشمال القلق المضطرب المتطلع إلى الغزو والتوسع ، واجتاحوا بلاد اليونان في موجة عارمة كالسيل لا يقف في وجهه شيء . وهم شعب ذو روح حربية صلبة طويل القامة مستدير الرأس معدوم الصلة بالأدب ، وكل ما يقال عن أصلهم وعن الطريق الذي سلكوه لا يعدو أن يكون من قبيل التكهن والتخمين والرجم بالغيب . وأمّا أخلاقهم وأثرهم في البلاد التي فتحوها فإنّ معرفتنا بها ترقى إلى مرتبة اليقين فقد كانوا في الفترة التي نؤرّخ لها لا يزالون في مرحلة الرعي والصيد ، ولا تخلو حياتهم مع ذلك من بعض الإستقرار من حين إلى آخر للقيام على الأرض وفلاحتها ، لكن جل أعتمادهم إنّما كان على الماشية .

وكان الحديد موفوراً بين أيديهم وفرة لم يُسمع بها من قبل . وكانت صلابة سيوفهم وقلوبهم وشدة بأسهم في تفوقهم على الآخيين وفيما عرفوا به من قسوة وبطش وجبروت . أمّا الآخيون فقد كان معوَّلهم على البرونز ، وهو غير صالح لصناعة السلاح .

وقد أعاق الغزو الدوري تقدم بلاد اليونان ونموها زمناً طويلاً واصابها بمحنة شديدة . فقد ظلّت أحوالها السياسية مضطربة قرنين من الزمان ، حتى لقد كان كل شخص فيها شاكياً سلاحه لأنّه غدا غير مطمئن على حياته . وزادت أعمال العنف زيادة مطردة فعطلت أعمال الزراعة والتجارة ، واشتعلت نيران الحرب واشتدّ أوارها وإزداد الفقر والجوع ، واصبحت الحياة قلقة مضطربة لأنّ الأسر أخذت ترتحل من مكان إلى آخر هرباً من الحروب والقلاقل وطلباً للأمن

(١) المصدر السابق، صفحة ١٠٣ ـ ١٠٤ .

والسلم . ويُسمي هزيود هذا العصر بعصر الحديد ويأسف على فساده وانحطاطه وتخلفه عن العصور الزاهية التي سبقته ، وكان كثير من اليونان يؤكدون أن الحديد قد أضرّ بالإنسان[1] .

ورغم إصرار الدوريين على الإحتفاظ بدمائهم نقية طاهرة بمعزل عن دماء أهل البلاد المغلوبين ، وعلى الرغم من الكراهية التقليدية التي شهدتها بلاد اليونان كلها بين الدوريين والأيونيين ، فقد امتزج الشعبان امتزاجاً بطيئاً في جنوب بلاد اليونان(البيلوبونيسيا) وامتزاجاً سريعاً فيما عدا ذلك . كما امتزج دم الآخيين والدوريين بدم الشعوب التي هي أقدم منهما وأرقّ حاشية . وقد احتاج امتزاج السلالات وأساليب الحياة المختلفة قروناً عدّة حتى استقرّ بعض الإستقرار ، ولكنه ساعد على خلق ما في التفكير اليوناني والحضارة اليونانية من تنوع ومرونة ودقة وعمق وخصوبة . وجاءت الحوافز والتطلعات لتغذي الذكريات وتنوع الدماء . وخرج من الجموع الهمجية شعب يختلف عن الشعوب التي كانت تعيش من قبل في تلك البلاد ، وامبراطورية لا عهد للأجداد بها ، وحضارة أشعّت على العالم كلّه بالنور والحياة . وهناك في آسيا الصغرى بدأت يقظة اليونان التاريخية الكبرى[2] . هناك انسحبت جيوش الظلام وهناك لاحت طلائع فجر جديد . . .

لقد كانت ومضة في بحرٍ مظلم من الهمجية ، ثمّ انطوت لتومض في بحرٍ مظلمٍ آخر في شبه جزيرة العرب التي كانت فضاء بلا أفق تحيط به حضارات راقية عريقة بقيت دهوراً منفصلة بعضها عن بعض بحواجز وحدود جغرافية ودينية وتاريخية وـــية جعلت التفاعل بينها مطلباً عسيراً ليس إلى تحقيقه من سبيل ـ أو يكاد . وسيخرج المارد العربي من القمقم ليفجر الطاقات ويلهب المشاعر . وإذا به بين عشية وضحاها يربط بين هذه الحضارات جميعاً ويعزز امكانيات الإتصال والتفاعل فيما بينها . وهنا أيضاً ستحدث معجزة لا تقل عن المعجزة اليونانية عظمة وإنْ كانت تختلف عنها في الشكل والمضمون والتوجه والوسيلة والغاية كما بحثنا ذلك بالتفصيل في الجزء الثاني من كتابنا **الفكر العربي من مخاضه الكبير** . فإنّما التاريخ هو تاريخ المعجزات ، فلا تاريخ بلا معجزات كما قلنا أكثر من مرة . وكما لاح الوميض في بلاد اليونان فجأة ثمّ خبا ليتركها في

---

(١) المصدر السابق، صفحة ١٢٠ .

(٢) المصدر السابق، صفحة ١٢٠ ـ ١٢١ .

ظلام دامس ويتنقل إلى أفق آخر ، كذلك خبا وميض الجزيرة العربية والمنطقة المحيطة بها ليومض في عصر النهضة في دول أوروبا الغربية التي كانت تعيش هي أيضاً في بحر لجي مظلم من الهمجية والتخلف . ظلمات يشقها الضوء ثم ينكفيء عنها الضوء ، ليعيد سيرته في مكان مظلم آخر حيث يكون الزمان راكداً فيشتعل بالحركة والنشاط إلى أجل ، ثمّ يركد ويرقد إلى الأبد . هكذا علمنا التاريخ ، ولن تجد لسنة التاريخ تبديلاً ، ولن تجد لسنة التاريخ تحويلاً ! .

ربيع الفكر اليوناني

هذه هي حال بلاد اليونان قبل أن تشرئب وتشمخ بأنفها إلى العلاء ، وهذه هي البيئة التي ستشهد أعجوبة الإنسان اليوناني ومأساة التاريخ اليوناني ومصرع الفكر اليوناني . لقد كان العالم اليوناني يسير في الواقع من الفوضى إلى النظام ، ومن الرقابة الإجتماعية إلى الحرية الفردية ، ومن سلطة القبيلة إلى سلطة القانون ، ومن وصاية الكاهن إلى مسؤولية الذات ، ومن عبادة الأسلاف إلى تأليه الفكر ، ومن أوامر الدين إلى التزامات الأخلاق . . . ففي عالمهم الأول ، عالم القبائل والعشائر والأسر ، لم يفكر أحد في حقوقه وواجباته بل كان يفكِّر له ، أو قل كان ينساق عفوياً وينجرف في تيار الأعراف والتقاليد وما تقضي به إيحاءات الجماعة ومقتضيات الحياة في القطيع . . . هكذا كانت تجري الأمور في زمان مضى وانقضى . لكن دارت دورة الزمان ، (وانفصلت السياسة والشرائع والآداب والأخلاق والبحوث واحدة بعد الأخرى عن السلطة الدينية وتحررت من ربقتها ، وبدأت الفلسفة تفسر العالم والإنسان والمصير ، ووضع العلم الذي لم يكن له وجود من قبل ، قوانينه الأولى وأرسى القواعد الأساسية التي سيقوم عليها ، وظهرت الهندسة والحساب والفلك والموسيقى ، وأضحى وجود التفكير وتنظيمه وصدقه المثل الأعلى الذي تنشده أقلية من الرجال هي التي أخرجت العالم من ظلمات الجهل إلى نور العلم . وبذلت جهود مضنية جسمية وروحية جبارة للمحافظة على هذه المكاسب والإنجازات وما تبعثه من آمال وتثيره من تطلعات ، وانقاذها من أيدي من ينكرها ولا يقدرها حق قدرها، فكسبت للحضارة اليونانية أولاً وللحضارة العربية ،بعد ذلك مكان الصدارة وجعلت منها منارة تُفري الظلمات وتضيء دياجير الفقر والمرض والجهالات . . .)

وهكذا استيقظت أثينا لتجد نفسها قوة عسكرية، وامبراطورية سياسية،

ومدرسة فكرية وعقلية وقطعة فنية ومركزاً عظيماً للتبادل التجاري والإقتصادي . لقد كانت ورشة عمل متعدد الأوجه والسمات كل شيء فيها يتحرك وينشط على قدم وساق . لقد أصرَّت على القيام بدورها على خير ما يكون القيام . لم ينسّ المواطنون يوماً أنّهم يونانيون وأنهم فنانون وأنهم مبدعون . وبنشوة المبتكر ، وبجرأة الجندي المحارب ، وخيلاء القاتح المنتصر ، وإدراك الباحث الممحص الواثق ، وقدرة الرجل الناجح على السيطرة على نفسه ومصيره ، أحسوا في دخيلة نفوسهم أنّهم أحرار سعداء مفعمون ثقة وأملاً . إنّ دولة المدينة التي تفتقت عنها أذهانهم كانت مصدر إلهامهم والوحي الذي تنزَّل عليهم في كل أعمالهم التي تميزوا بها والتي بلغت أقصاها في القرن الخامس . في هذه الفترة بالذات عاش الفكر اليوناني ربيعه وأخصب أيام حياته ، ثمّ بدأ ينزف دماً ، وكانت الفلسفة أول نقطة دم في هذا النزيف . وكلما ازداد النزف زادت الفلسفة نصحاً . ولما أن انقضت المدينة في القرن الرابع وحيث لم تكن مدينة ، أي حيث توقف النزف إذ لم يبقَ دم ينزف ، بلغت الفلسفة غايتها في شخص أرسطو . ومعنى ذلك أن الفلسفية اليونانية انثالت واليونان في الرمق الأخير ، وفي الفصل قبل الأير من السنة : فصل الخريف . ففي الربيع كانت دولة المدينة وفي الخريف كانت دولة الفلسفة فلم تتطابق الدولتان في الزمان والمكان ولم تتعايشا ، بل أنّه عندما ولّى عصر دولة المدينة أقبل عصر دولة الفلسفة . وسيكون لذلك آثاراً واضحة في إرتباك الأخلاق اليونانية واضطرابها اضطراباً عجيباً كما سنرى بعد قليل .

ومهما يكن من تطابق عصرَيْ الدولتين أو تغايرهما وتمايزهما ، فإنّنا لم ندرك ـ ولو ادراكاً غامضاً ـ موقع دولة المدينة اليونانية والعقول التي غذّتها والعواطف التي ألهبتها ، فقد يبقى أحسن ما في البلاد اليونانية القديمة وأعظم ما حققت من إنجازات لغزاً يصعب حلّه . ولم أدخر وسعاً في أن أحل بصبر وحذر تلك الخيوط العديدة التي تربط اليوناني بمدينته ـ وما أحسب ذلك هيناً ـ مستعيناً بالتاريخ والجغرافيا وبكل ما يساعدني على أن أقوم بدور الشارح لأسمى تعبير عن فن الحياة عرفه انسان ! لقد اشتدّ حبهم لمدينتهم وازداد رسوخاً بذلك النجاح المفاجىء الذي ساقهم إلى العظمة والتفوّق ، والذي اتسع باتساع تجاربهم وأطراد أعمالهم من غير أن يتزعزع أو ينتابه فتور ، بل دفعهم إلى القيام بأعمال جديدة أروع وأمجد ، كما يقول برقليس في مرثيته التاريخية المشهورة : لقد كانوا جديرين بمدينتهم وكانوا مولعين بها ، وما زالوا يمحضونها الحب والود والوفاء ، حتى جعلوا

منها وطن المختارين من صحاح العقول والأجسام . ولِنِصفِ قرنٍ رابع أو يزيد يكاد يكون أغنى فترة سطرها التاريخ لأي جماعة وأسعدها ، سارت السياسة والأخلاق قُدُماً متهاسكتين إلى مثل أعلى مشترك هوالمواطن الكامل في الوطن الكامل ، المواطن الفاضل في المدينة الفاضلة . وقد غُصَّ هذا الطريق بكل ما هو سام ورفيع وعظيم في الحياة الإنسانية : الحرية والقانون والتقدم والحق والخير والجمال .

لقد كان من تقاليد المدن الإغريقية ودواعي فخرها أنّها كانت ذات سيادة مستقلة عن أي نفوذ خارجي . وقد دعمت تلك القرون الطويلة من العزلة حبها العنيف للإستقلال ، وكان هذا الحب أحد الدوّافع القوية في الحياة القومية . فحيثما اتجهتُ في بلاد اليونان وجدتَ روحاً قومية عارمة عنيدة لا تعرف ولاء لحاكم خارج أفق دولة المدينة ، وتَعُدُّ استقلالها الداخلي أساس كيانها الروحي . ولم يتعلم اليونان تقدير قيمة استقلالهم المحلي بمشقة وآلام ، بل لقد نشأوا غير قادرين على تصور أي وضع آخر للحكومة .

مفارقات عجيبة في الأخلاق اليونانية

في أخلاق اليونان نفحات عطرة حقاً ، لكن تشوب هذه الأخلاق أحياناً رائحة تزكم الأنوف ، وذلك رهن بظروف الزمان والمكان والمرحلة التاريخية والحضارية وتبعاً لما هم عليه من سلم أو حرب ، وغنى أو فقر ، وصحة أو مرض ، وتقدم أو تخلف . . . وهذا هو السبب فيما نرى في أخلاقهم من اختلافات ومفارقات تصل إلى حد التناقض أحياناً . وسنجد عندهم عادات خلقية غريبة كنا نجلهم عنها إلى حد الظن بأنه لو اتصف الناس جميعاً بها لكان الإغريق وحدهم قمينين أن يربأوا بأنفسهم عنها . ولكن الطبيعة البشرية هي الطبيعة البشرية .

فقد كان الإغريقي حساساً جداً بكل ما يتعلق بمكانته بين زملائه . إنّه كان لا يتساهل أبداً في المطالبة بما هو واجب له . وهنا مفتاح الأخلاق عنده ومنطلقها . وبعبارة أخرى أن التواضع لم يكن يُنظر إليه بإحترام كبير . فمن الحمق عمل الفضيلة (الأريتي) لذاتها . فالفضيلة إنّما تُعمل لنيل ثناء زملاء الإنسان وذريته عليه . هذا هو جزاء الفضيلة وما عدا ذلك من المطالب فسراب

خادع[١] . فكلما ازداد نبل المرء عمل ما يخلد أسمه . فالإغريقي متعطش للشهرة ليترك وراءه ذكراً للعصور التالية ، فالذكر عمر ثانٍ . إنّه على استعداد لمواجهة أي خطر في سبيله ، ولو كان خطراً أشدّ مما يواجهه في سبيل أولاده . فلولا أن الكستيس Alcestis كانت تعتقد أن ذكراها ستكون خالدة على الدهر لما كانت على استعداد لأن تضحي بحياتها من أجل ادميتوس Admetus ، وكذلك لولا أنّ اخيليس كان يعتقد ذلك لما أقدم على بذل حياته اثئآراً لباتروقلوس Patroclus هذا مؤدى كلام ديوتيما الحكيم وهو يُعلِّم سقراط في مأدبة أفلاطون . إنّها نظرية إغريقية طبيعية ، ونحن نلقاها عند الفلاسفة والشعراء والخطباء السياسيين[٢] ، كما نعثر عليها في كتاب الأخلاق لأرسطو أيضاً . فذو العقل الكبير بحسب المعلم الأول إنّما يضع نُصب عينيه أسمى شيء نعرفه في هذا العالم وهو ما نقدمه للآلهة : أي التكريم ، فإنّ الحياة لا تستحق أن نحياها بلا تكريم .[إنّ صاحب النفس الكبيرة قوي الشعور بقيمته ورغبته في الكرامة حتى يلقى من الناس ما يستحق من التقدير . إنّ تقديره لقيمته الذاتيه يأتي أولاً . أمّـا تقديره للثروة والقوة السياسية فهو دون ذلك بكثير ، لأنّ الثروة والقوة لا يُطلبان لذاتهما بل يُطلبان من أجل التكريم وهو المطلوب بالذات . وهو لا يحمل حقداًلأحد،ولا يهمه أن يمدحه أحد ويتجاوز عن اساءة كل أحد . وهو لا يمدح أحداً ولا يغتاب أحداً حتى ولو كان عدواً له . هذه هي أخلاق الرجل الأمثل في نظر أرسطو[٣] .]

ولكن الأخلاق اليونانية ظلّت هي الأخلاق اليونانية . فاليوناني العادي لا يتنازل أبداً عن حقه في الثأر لنفسه والإنتقام من عدوه . فمن الخطأ أن نتوقع منه أن يكون اعجابه بالرجل الأمثل بقدر اعجاب الفيلسوف . فلو كان الفيلسوف يفكر كسائر الناس لما كان فيلسوفاً ، ولو كان الناس يفكرون كالفيلسوف لما كان بهم حاجة إلى الفيلسوف . إنّ تحمل الإساءة فيه اعتراف صريح بأن المسيء أفضل من المساء إليه[٤] . وهذا ما لا يقبله الإغريق بحال من الأحوال . فالأخذ بالثأر أصيل فيهم ، مُتمكّن منهم يخترق كيانهم حتى العظم . فمن أقبح القبائح عند الإغريق عدم الصراحة وظهور المرء بخلاف ما يُبطن ، فيتملق الأعداء

(١) كيتو : الإغريق ،صفحة ٣٢٢ - ٣٢٣ .
(٢) المصدر السابق ،صفحة ٣٢٣ .
(٣) المصدر السابق ،صفحة٣٢٣ - ٣٢٤ .
(٤) المصدر السابق ،صفحة ٣٢٥ .

ويصانعهم بدلاً من أن يواجههم ويبدي لهم البغضاء ـ بل ـ امعاناً في النفاق ـ يثني أمامهم على أولئك الذين كان يهاجمهم في غيبتهم ثمّ يظهر العطف عليهم في هزائمهم ، فليت شعري ! كيف يتسنى له وهذه حاله أن يثأر لنفسه منهم ؟ والأحقر من ذلك أن يصفح عمن شتمه ويعفو عمن ظلمه ، فأين شعوره بالكرامة والتقدير ، أين اعتباره لذاته وكيف عساه يُبقي على احترام الآخرين له ؟ كيف يستطيع الإنسان أن يكون أكثر حقارة من تكلف الصفح عن أعدائه ؟ إنّه حتى ادعاء القيام بذلك أمر مثير للإشمئزاز . فما ظنّك بالقيام به حقاً ؟ ما هذا لعمري إلاّ غاية الدناءة ![1] .

« أحب اصدقاءك وأكره أعداءك » . هذه هي روح الأخلاق الإغريقية ، ولا أحد قبل سقراط على حد علمنا فكّر في تحديها[2] . وأعقبه بعد ذلك أرسطو . وتبدلت الأخلاق بعد ذلك بالفلسفة الرواقية ثمّ بدخول المسيحية . فالرجل الأمثل عند أرسطو هو « الرجل ذو العقل الكبير » أو « ذو النفس العظيمة » ، إنّه ذلك الرجل الصريح في صداقته وعداوته ، لأنّ إخفاء المشاعر وإبطانها علامة ضعف واستخذاء[3] . إنّ عدم الإخلاص أمر منكر ، وهذا أمر لا غرابة فيه ، ولكنّ الغرابة أن الصفح عن الأعداء أمر منكر أيضاً ، وأمّا الثأر منهم فواجب واضح[4] .

ولعلّ تفسير ذلك يرجع إلى ضعف شأن الفرد في دولة المدينة التي تقدم الجماعة على الفرد وتعطيها أولوية مطلقة . فالفرد عضو في أسرته أولاً ثمّ في دولته ثانياً ، وبالتالي فإنّ أي إساءة إليه هي في نفس الوقت اساءة إلى المجموعة التي

---

(١) انظر المصدر السابق ، صفحة ٣٢١ ـ ٣٢٢ .

(٢) ومع ذلك يُروى ـ والعهدة على الراوي ـ أن برقليس عاد من وليمة إلى بيته ليلاً ومعه شعلة يحملها عبد له كان في حراسته ، وكان يتبعه رجل يكيل له السباب والإهانات طوال الطريق ، ولكن برقليس لم يفكر في الإنتقام منه ، وربما ظنّ في ذلك تعظيماً لشأن هذا الرجل لأنّ الإنتقام يكون بين الأنداد . وعندما وصل برقليس إلى بيته التفت إلى عبده وقال : « رافق هذا الرجل لبرى الطريق حتى يبلغ بيته ! » . انظر المصدر السابق صفحة ٣٢٥ و ٣٢٧ ـ ٣٢٨ .

(٣) المصدر السابق ، صفحة ٣٢٢ .

(٤) المصدر السابق .

ينتمي إليها ، تبعاً للحالة المعتبرة[١] . فالثأر إذن هو حق عام ليس أمره متروكاً للفرد يتصرف فيه كما يشاء ، وإنّما هو أمر منوط بالجماعة التي لحقتها الإساءة . فأي تفريط من قبل الفرد في هذا الحق إنّماهو تفريط فيما لا يملك . كمثل أمين الصندوق في أيامنا لا يحق له أبداً أن يفرِّط في الأموال العامة التي أؤتمن عليها .

لقد قلنا الكثير عن تعلق اليوناني بمدينته وهيامه بها واستبساله في سبيلها ، إحقاقاً لحقها وإبطالاً لباطل غيرها ، وليجعل كلمة الذين عادوها السفلى وكلمة مدينته العليا ! هناك لم تهن القلوب إيثاراً للثروة على الشرف ، فإنّ أحداً لم يتخل عن المعركة أملاً في الثراء . لقد هجروا كل شيء ليضربوا ضربتهم من أجل المدينة مطالبين بالثأر لكرامتها ، كما يقول برقليس في مرثيته المشهورة . فالثأر في مثل هذه الحال هو أعظم المغامرات جميعاً وأروعها . وعندما حمي وطيس القتال اختاروا أن يقاسوا أخطر الشدائد وأعظمها وأشدها بأساً وبلاء ، وآثروها على الفوز بالحياة المستسلمة المتخاذلة . وهكذا سلمت ذكراهم من قدح البشر وإنْ حملت أجسادهم بدلاً منها طعنات العدو . وفي لحظة من الزمن ، إذا بهم وهم في ذروة حياتهم ، يُختطفون وعيونهم المحتضرة مفتوحة على عالم مليء بالمجد والشرف لم يساورهم فيه يوماً أي شعور بالخوف أو الوجل . هؤلاء هم الرجال الذين يرقدون هنا ، وهذه هي المدينة التي كانت مصدر حبهم وإلهامهم ، واضعين نُصب أعينهم أنّها إنّما تدين بكل هذه العظمة لرجال لهم جرأة المحارب وإدراك الرجل الحكيم لواجبه ، وأَخْذُ الرجل الصالح نفسَه بأدائه حتى غاية المدى . لقد احتقروا أن يضنوا على المدينة بخدماتهم ، بل لقد ضحّوا على مذبحها بأرواحهم وجعلوها قرباناً لها وفداء . وهكذا وهبوا أنفسهم لصالح الدولة ، فنالوا - كلٌ لذكراه - ثناءً لن يُنسى . لقد ثووا في أحسن المقابر ، لا في هذا الذي ووريت فيه عظامهم ، بل في عقول الرجال حيث يبقى مجدهم حياً وقصتهم مندمجة في جوهر حياة الآخرين . لقد عرفوا أن سرّ السعادة الحرية ، وسر الحرية قلب شجاع .

إنّ الضعف أمام المحنة أشدّ ايلاماً للرجال ذوي الروح العالية من مجيء الموت المفاجيء في ساعة القوة والحماسة . إنّهم يعلمون أنّهم وُلدوا في عالم متنوع الحظوظ ، وأنّه لسعيد ذلك الذي تؤاتيه أحسن الحظوظ : أحسن الأحزان وأفضلها ، أي حزنكم [على أبنائكم] . إنّها خير ميتة تلك التي ماتوها : فما من

(١) انظر الفرد زيمّرن : الحياة العامة اليونانية ، صفحة ٢٤٣ - ٢٤٥ .

إنسان يتسنى له بذل نصيحة عادلة مخلصة في المجتمع إذا لم يكن لديه مثل أقرانه عائلة معرضة للخطر المحدق بالمدينة . يا لعظمة هذه النهاية المجيدة ! فحبّ المجد وحده هو الذي لا تبليه السنون ، وإنّه بالمجد لا بالمال تضفَى البهجة والسرور على نهاية الحياة المحتومة . [لقد فرغنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر : ألا وهو جهاد النفس] فالمعركة التي ستخوضها أثينا منذ الآن ليس مع أعداء الخارج ، وإنّما هي مع العدو الجاثم في حناياها ، مع الشهوات والأطماع التي غذتها هي نفسها[1] .

الإنسان حيوان سياسي

من أهم حقائق الحياة أن لاحياة للبشر بغير طعام وشراب وملبس ومأوى . وهذه الحقائق هي أهم الحقائق كلها في نظر معظم الناس إلاّ اليونان القدماء . إنّهم لم يعطوا هذه الحقائق الأولوية على غيرها من الحقائق الأخرى اللامعة التي تكشف عنها الحياة لمن يبحث عنها . لقد واجهوها كما واجهوا سائر حقائق الحياة ووضعوها في مكانها الذي تستحقه واطلقوا على اشتغالهم بها اسماً عُرفت به منذ ذلك الوقت وهو (تدبير المنزل) . إنّهم لا ينكرون هذه الحقائق ، ولكنهم إنّما ينكرون أن تكون لها الأولوية وحدها ، ينكرون أنّ تستأثر وحدها بالإهتمام والعناية . فالرجل الأمثل عندهم لا يكتفي بشؤون تدبير المنزل بل يضيف إليها أيضاً الإشتغال بسياسة المدينة . إنّ تدبير المنزل يتصل بالعمل الفردي من أجل السعادة الفردية ، أما الإشتغال بالسياسة فيخصّ العمل الإجتماعي من أجل سعادة الحياة الإجتماعية . فالإشتغال بتدبير المنزل أنانية يربأ اليوناني القديم بنفسه عنها[2] . إنّ الرجل اليوناني ليس رجل أسرة بل هو كما يقول أرسطو حيوان سياسي ، فقد ترك لزوجه مهمة تدير المنزل . لقد كفته هذه المؤونة وأطلقت يديه في قضايا المدينة . فمن شرف المرأة الحرة أن تقرَّ في بيتها وتخدم بعلها وتعكف على تربية أولادها ، كما أنّه ليس من المروءة أن يبقى الرجل في بيته ويتخلى عن العمل خارجه ، حيث يناقش كل أمر يُعرض عليه . فقد كان قول كل شيء حقاً من حقوقه التي تمسك بها ، وكان يُمارس هذا الحق بروحٍ حرة

---

(١) المصدر السابق، صفحة ٢٤٥ ـ ٢٤٨ .

(٢) المصدر السابق، صفحة ٢٥١ ـ ٢٥٢ .

كبيرة ، لا يأمل المشتغلون منا بالأمور العامة ولا صحفنا الوصول إلى درجته فيها . لقد كان حال السياسة في اليونان في ذلك الوقت ـ كما هو في أيامنا ـ يقوم في ملته على المناقشات الشخصية ، وكل ما يفعله المرء أو يقوله أو يشتريه أو يلبسه قد يكون ذا أهمية سياسية . فقد كانت أثينا تفخر على عكس الدول الأخرى بسماحها لأفرادها بحرية واسعة في أن يسلكوا السلوك الذي يحلو لهم ويتفق مع مزاجهم كما ذكرنا أكثر من مرة[1] .

في كل جماعة عدد قليل من الأفراد لهم من الثروة ما يفوق حاجتهم فيدخرون هذا الفائض لأغراض مختلفة . وهكذا كان اليوناني القديم الذي تعلّق بمدينته وشغف بها حباً ، حتى إنّه إذا ما طلبت منه ممتلكاته هبّ لنجدتها ولم يتردد في تلبيتها . وما من يوناني صادق الولاء لمدينته كان يتطلع إلى استثمار ماله في إقراض مدينته وبذلك يستغلّ محنتها . فلم يكن من شيمة اليوناني ولا في وسعه تكديس المال وجمعه ، لأنّ آلهة الفقر لا تفارق أرضه تحرسها وترعاها من شياطين الغنى وأبالسة المال . وقد ظلّت على العهد لا يغمض لها جفن ولا تنام لها عين ! والرجال القلائل الذين كان عندهم فائض من المال أكثرهم من السكان الأجانب المقيمين في المدينة .

كما أنّه لم يكن هناك ما يدعو المرء إلى جمع الثروة ما دام الرأي العام يرقب استغلال الفرد لثروته . فالرجال في مثل هذه المجتمع ـ حتى من شاخ منهم وهرم كما يقول برقليس ـ كانوا يُعدون الشرف خيراً من الثروة ، إذ إنّ حصول الإنسان على الفضيلة (الأريتي) قد يؤدي إلى إسعاده أكثر مما يؤديه إليه أي شيء آخر[2] . ومع ذلك فهناك نص يذكره ول ديورانت على لسان أفلاطون يندد فيه بحب الثراء المستولي على مواطنيه ، فيقول مبالغاً على عادة علماء الأخلاق : « إنّ حبّ الثراء يستولي كل الإستيلاء على قلوب الناس ، فلا يفكرون إلاّ في أملاكهم الخاصة التي تتعلق بها نفس كل مواطن »[3] .

والرأي عندي أنّ هذه الكلمات صرخة حزين يعيش مع أشباح من نسج

---

(١) المصدر السابق، صفحة ٥٨ ـ ٦٤ .
(٢) المصدر السابق، صفحة ٦٤ .
(٣) ول ديورانت : قصة الحضارة ، ٧ / ١٠٠

مخيلته محكمة الصنع متقنة التركيب تتجسد فيها كل آمال صاحبها في الإنسان الفاضل . إنّها كائنات مثالية يريدها معياراً للحكم والتقويم . لكن الفرق كبير بينها وبين الواقع ، فكل واقع لا بد أن يتخلف عنها مهما بلغ من السمو . فأفلاطون إنّما يبحث عن مثَل أعلى لا عن واقع هو أفضل ما يمكن أن يكون . إنّه لا يريد أن يرى الأشياء كماهي ، بل كما يجب أن تكون . إنّه يطلّ من صومعته فلا يرى الأشياء خارجها كما هي في الداخل . لقد نسي أنّ هذه أشباح وتلك حقائق . إنّه لا يطيق رؤية الأشياء في الخارج مختلفة عما يرى في داخل الصومعة . إنّه دائماً يتطلع إلى المثل الأعلى ، ومن يتطلع إلى المثَل الأعلى لا يرى غير الفراغ . وهذا لعمري يذكرني بشبه مشكلة فلسفية تنبه لها الفيلسوف الإنكليزي العظيم دافيد هيوم وكشف ما فيها من زيف وفساد . فالناس كثيراً ما يتساءلون : لماذا لا تكون جميع النساء جميلات ، بل يقتصر الجمال على نسبة ضئيلة جداً منهن ؟ إنّ مجرد طرح السؤال يعني ـ من حيث ندري أو من حيث لا ندري ـ أننا لا نفهم من الجمال إلّا الحدّ الأعلى من الجمال ، وبذلك نخرج الكثيرات من الجميلات عن حدّ الجمال وندرجهن من عداد القبيحات . هكذا أفلاطون، فهو لا يرى من الفضيلة إلّا الحدّ الأعلى من الفضيلة . وما عداه فليس فضيلة . فلو كان أكثر الأثينيين على درجة من الفضيلة تقارب أفضلهم لوجدناهم تافهين ، ولقصرنا وصف الفضيلة على الأقلية الضئيلة منهم ، وهم الذين يتصفون بفضله خارقة وهم الأشباح الذين إنّما يعيشون في صومعته . إنّ أفلاطون يريد أن يكون قومه خيراً مما هم . وهذا لا غبار عليه ، أما أن ينفي عنهم كل خير فهذا ما لا نوافقه عليه . إنّ الأثينيين ليسوا ملائكة طهاراً هبطوا من السماء ، ولكنهم أيضاً ليسوا أبالسة خرجوا من الجحيم . إنّهم في مقياس البشر من نخبة الشر ، وإنْ لم يكونوا شيئاً مذكوراً في مقياس الملائكة الذين هم ليسوا من البشر بل من طبقة فوق طبقة البشر . ونحن هنا إنّما نتحدث عن البشر . فليس في الإمكان أبدع مما كان ، هذا قانون البشر ! إنّ الرجل المثالي هو بطبعه زميت متشائم لا يعجبه شيء ولا تأخذه في مبدئه هوادة . وهو دائماً ينتقد كل شيء . إنّ دأبه التقريع والتنديد والتحذير والمناداة بالويل والثبور وعظائم الأمور . إنّ الدنيا بألف خير ولكنه لا يرى فيها إلّا الشرور والآثام . فيتسقط العثرات وينقب عن السوءات ، ويُنقّر على الناس أجمعين . وأخيراً ليس من الممكن الزام الشعوب بما يلتزم به بعض الأفراد . فقد يتأتى للمصلح أن يصوغ ابنه أو تلميذه على صورته ومثاله ـ هذا إذا استطاع

ذلك ـ ولكن هيهات أن يكون قياد الشعوب كقياد الأفراد . القياد السلس والقياد الصعب ، هل يستويان مثلاً ؟ ما لكم كيف تحكمون ؟

لا مبرر لتحامل أفلاطون على الأثينيين ، فالوقائع التالية تؤكد علو كعب قومه وسموهم وترفعهم النسبي عن جمع المال للمال .

فقد شاد البارثنون Parthenon ذلك الأثر الفني الخالد الذي أهداه الأثينيون للآلهة ليكون هيكلاً لها ومثوى للعاكفين والفاتنين الذين يدينون لها بالإجلال والتعظيم ـ أقول لقد شاد البارثنون هذا صناع مخلصون مدفوعون إلى تكريم آلهتهم الأثيرة . وقد أُعطُوا أجراً زهيداً نظير خدماتهم المتفانية . فالفنانون الأثينيون لا يعملون للمال وإنْ كانوا كغيرهم بحاجة إلى المال ليحيوا حياة كريمة . لقد كانوا عشاقاً للجمال لا للمال[1] ، ولا عليهم بعد ذلك ألّا يكون تكافؤ بين الأجر القليل والعمل الكبير ، لقد صدقت النية وصحت العزيمة ونجح المسعى وتحققت الغاية ، وكل شيء بعد ذلك يهون ! .

وكذلك الفلاح ليس بأقل من الفنان زهداً بجمع المال . فهو يعمل في الأرض ليقوم بأود نفسه وعياله ومن أجل مدينته ، لا أملاً بأجر عال أو ثروة عظيمة . إنّ كل ما يطمح إليه هو تموين بيته وكفاية أهله ، وإذا اقتضت الظروف فإنّه لا يتردد أيضاً في مد الجماعة بالمؤونة . إنّه لا يريد أن يكون غنياً بين الناس ، إنّه إنّما يريد أن يكون غنياً عن الناس ، والحمد بعد ذلك لكرونوس وزيوس وأبولون وسائر أفراد العائلة المقدّسة التي أعطته الكفاف وكفته السؤال ! إنّ أكثر الثروات الزراعية الكبيرة لم تعرفها اليونان ، وإذا لم تكن تجهلها فقد كانت أمراً شاذاً ممقوتاً على كل حال ، حتى إنّه ليخرج عن حدود الصورة العامة المألوفة . فإذا ما اقتنى أحد المواطنين جزءاً من أرض الجماعة بدا أنّه أكبر مما ينبغي وضجَّ الرأي العام في السوق بالشكوى مطالباً بوجوب نزع هذا الجزء منه وإعادة تقسيمه . أمّا إذا أثرى تاجر أو صانع فلا يشكو من ذلك أحد ، بل قد لا يحسّ به أحد ، وعلى كل حال لا يبدو ثراؤه سبباً في إفقار غيره من الناس . ففي المدينة الصغيرة حيث الأرض محدودة المساحة ، فإنّ كل زيادة في أرض المالك الكبير لا معنى لها الإنتقاص من أراضي الآخرين وعلى حسابهم . ولذلك كان الفلاح

---

(١) الفرد زِعِّرن : الحياة العامة اليونانية ، صفحة ٥٠٤ .

اليوناني على حق ـ سواء من ناحية التقاليد أو السياسة ـ في أن ينصرف عن احلام الطموح إلى الثراء وإلى تنمية نواح أخرى من حياته . حسبه أن يهتمّ ببيته وحقله وآلهة الحقول والينابيع القريبة المألوفة، وأشجار الزيتون التي زرعها آباؤه وإجداده . فهدفه الفلسفي ـ مهما كان إدراكه له ضئيلاً ـ هو أن تكون طبيعته منسجمة وأن يتعاون كل جزء من كيانه مع الأجزاء الأخرى كالبنيان المرصوص إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر[1] .

والصناع هم أيضاً لا يعملون للثروة وجمع المال بل للشرف وكسب العيش . وقلما كانوا يعملون من أجل الأجر ، لأن الأجر يتعارض وعاداتهم اليومية . فهم يفضلون التكريم وحُسن التقدير العام لأنهم أعضاء في المدينة وحراس لتقاليد الأجداد . إن العمل في سبيل الأجر يأخذه الصانع من بذله كفيل بأن يضعه في مركز عبد تقريباً . إنه حر ولا يتنازل عن حريته أبداً ولا سيما عن حريته في العمل ، بل يحافظ عليها كاملة غير منقوصة ، إنه يريد أن يعمل لا في أي وقت اتفق ولا خضوعاً لأمر آمر ، إنه يريد أن يعمل فقط عندما يحسُّ ميلاً إلى العمل، وعندما تسمح له واجباته من حيث هو مواطن ـ لا من حيث هو أجير ـ أن يوفق بين عمله وسائر المشاغل والإلتزامات الأخرى التي تملأ حياة الرجل اليوناني ، فيشترك في الحكومة ، ويجلس في المحاكم ، ويعمل في فرق الرياضة ، والإحتفالات . . . إن كل هذه أشياء لا تتفق والعمل بأجرٍ معلوم . ومن هنا نفهم مصدر الفكرة الزائفة التي شاعت في أيام الإنحطاط والتدهور ، والتي تقول : إن اليوناني كان يحتقر العمل اليدوي ويعده شيئاً مهيناً . والحق أنهم كانوا يكرمون العمل اليدوي أكثر منا ، لكنهم كانوا يرفضون ـ كالفنانين ـ القيام بأي عملٍ زيادة عما هم بحاجة إليه إذا لم يَعُدْ عليهم من ورائه مسرة وبهجة ولذة . والأهم من ذلك أنهم كانوا يكرهون كل نشاط يجري على وتيرة واحدة ، وكل عملٍ ينطوي على الرتابة والجلوس فترة طويلة جلسة غير مريحة وغير صحية ، وخاصة في جوٍ حار فاسد . فالأعمال الحقيرة عندهم هي أعمال الكتبة والسكرتيرين على أنواعهم ، لا تلك التي يقوم بها عمالنا الذين يلبسون الملابس الخشنة . إنهم ينشدون الفن ، والفن لا يتأتى في أحوالٍ كهذه انعدمت فيها البهجة والمتعة والسرور ، وهذا مبعث تقزز اليوناني من الوظائف الدنيا . لكن

---

(١) المصدر السابق، صفحة ٢٧٤ ـ ٢٧٥ .

الكُتَّاب المتأخرين شوهوا الحقائق وأحاطوها بالإبهام والغموض ، حتى لساد الإعتقاد أن أي طريقة لكسب العيش ، من معلم الفلسفة إلى أصغر الأعمال - هي غير جديرة بالرجل الحر ، ما لم تكن محصورة في نطاق التأمل والسياسة والحرب ،وحتى لكأن القوم نزل عليهم المنّ والسلوى وأمطرتهم السماء لبن الجنة[١] .

ولا يقتصر الأمر على هذا ، بل إن أغنياء المدينة كانت لهم مواقف مشهودة في الأريحية والسخاء لا يصح إنكارها أو التعتيم عليها . فقد كانت خدمة المدينة رائد الجميع أغنياء وفقراء على السواء ، هؤلاء بقوة العمل وأولئك بقوة المال . « ولينفق ذو سعة من سعته » هذه هي قاعدة الحياة في البولص. والحق، «إن الأغنياء لم يُقصروا يوماً في البذل والعون ، فقد كانوا أسخياء في عطائهم الخاص والعام ، وكان الإحسان charitas من طباعهم ، وكان لديهم هيئات خاصة للعناية بالفقراء والمرضى والمحتاجين والطاعنين في السن[٢] . وكانت جوانب كثيرة من نفقات الدولة الأثينية العامة يؤديها النبلاء طيبةً بها نفوسهم ، وكانوا يفخرون بمنافسة أسلافهم في قيامهم بهذا الواجب . وبهذه الهبات الحرة سلَّح الأثينيون أسطولهم الذي كانت له السيادة مدة طويلة على البحار . فالعظمة القومية تأتي أولاً ، وكل ما عداها يأتي بالتبع . إنها أجدى وأنفع للمواطنين من أي سعادة فردية يصحبها الفقر العام كما يقول برقليس . وكانت الحكومة تُجري الأرزاق على الجرحى من الجنود وتربي أيتام الحرب على نفقة الدولة ، وكانت أيضاً تقدم إعانات يومية للمعسرين في أوقات الجدب والحرب وغيرهما من الأزمات[٣] . ويحضرني هنا مثل الجنرال كيمون cimon (٥١٠ - ٤٤٩ تقريباً) بن ملتيادس Miltiade بطل معركة ماراثون المشهورة : فقد كان كيمون هذا ذا ثروة ضخمة هائلة ، فكان لا يكتفي بأن يقوم بما تكلفه به الدولة من نفقاتٍ باهظة بل كان فوق ذلك يغذو عدداً غير قليل من مواطنيه الفقراء ، فكانت داره مفتوحة مشرعة الأبواب يُقدَّم فيها الطعام لكل طارق ، وفضلاً عن ذلك فإنه لم يتخذ سياجاً ما حول ما كان يملك من أرض . فكان لمن شاء أن يطأ هذه الأرض ويجني منها ما طاب له من الثمر والفاكهة[٤] .

(١) المصدر السابق،صفحة ٣٢٥ - ٣٢٦ .
(٢) ول ديورانت : قصة الحضارة ، ٧ / ٩٤ .
(٣) المصدر السابق .
(٤) طه حسين : نظام الأثينيين ، صفحة ٩٥ - ٩٦ .

نحن لا ننكر ثورة الفقراء على الأغنياء وانتفاضتهم عليهم ، ولكنها ثورة الجوع الذي لا يرحم . فالجوع كافر كما يقولون . إن الصدقات وأعمال البر والإحسان لا تروي ظمأ ولا تشفي غليلاً . لقد عضهم الجوع بنابه فما يجدي فُتات الموائد ؟ إنما يجدي العمل المنتج والمشاريع الصناعية ، وما عدا ذلك فترقيع وتخدير ، وإلاَّ فالثورة هي الحل الوحيد ومتى ؟ كان ذلك بعد أن أخذت الأرض تميد تحت أقدام أثينا وبداية احتضار أثينا ، أي بعد القرن الخامس .

وعلى كل حال وفي نطاق هذا التحفظ يمكن القول أن اليونان القدماء لم يرغبوا في الثروة لذاتها ، لقد كانوا أحكم وأكثر اتزاناً من أن يضمروا رغبة كهذه . وشعورهم بالأتساق والتناسب هو إحدى الحقائق المهمة في حياتهم ، وقد تجلى مراراً في فنهم وسلوكهم ونظمهم . فقد تغلبوا على شهوة الأطفال المتوحشين ، أي على شهوة الطمع ، وما طلبوا الثروة إلا إذا اعتقدوا أنها ضرورية للحياة وللسعادة الاجتماعية . لقد أدركوا بحدسهم العميق أن ما قيمته درهم من الراحة لا يجوز الحصول عليه بما قيمته درهمان من القلق والأرق والاضطراب والسهر والضنى . . . لقد كان لهم من الفطنة ما يعرفون به إلى أي حد ترتبط قيمة الثروة بأهمية السعادة . فإن أغنى الرجال ليس أسعد من هذا الذي لا يملك إلا قوت يومه . إن كثيراً من الذين يرتعون في الثروة تعساء ، على حين أن كثيرين ممن ليس عندهم غير الكفاف سعداء . فالذي دفع بهم إلى النشاط الإقتصادي وإلى التطور ليس مجرد طمعنا الأخرق في تحصيل المزيد من المال ، ولا الشره المُلح الذي يخالف كل المخالفة بعضاً من أعمق غرائزهم ، ولكنه الإعتقاد الراسخ بأنهم إنما يطلبون المال لأغراض مدينتهم وحضارتهم .

لقد كان الشرف والواجب العام يفوقان في الأهمية الذهب والفضة ، وذلك عندما كانت أثينا فقيرة . أما فيما بعد فلم يكن لهما هذا الأثر ، وذلك حين أصبحت أثينا امبراطورية ، فلم يكن عليها آنئذٍ ـ كما يقول برقليس ـ إلا أن تحتفظ بما كسبته لتُبقي على المجهودات التي بذلها الآباء والأجداد . إن الحضارة الآن كلها بين يديها وأوتيت من كل شيء بوسائل قليلة . لقد زارتها آلهة المال والثراء وعقدت صفقة عظيمة معها على حساب حلفائها الأقربين . فإنه ابتداء من العام ٤٥٣ صار الأثينيون في الظاهر والحقيقة هم المسيطرين على أموال الحلفاء . فأودعت الأموال في الأكروبوليص ، بل لقد جعلت الحلفاء يسهمون في مشروعاتها . وفي عام ٤٨٨ عُقد الصلح بين أثينا وفارس ، وفي عام ٤٤٧ بُديء

ببناء البارثنون العظيم . وفي عام ٤٤٥ عُقد الصلح بين أثينا وأعدائها في بلاد اليونان نفسها . وفي عام ٤٤٣ ـ ٤٤١ قُسم الإتحاد أو الأمبراطورية كما سُميت آنذاك خمس مناطق ضرائبية تيسيراً لجباية الأموال التي أخذت تتدفق على المدينة الخالدة من كل مكان . حتى لقد شهدت أثينا في السنوات السبع السابقة على حرب البلوبونيز ذروة الغنى والثراء[١] . والخلاصة كما يقول أفلوطرخس : لقد « أخذت أثينا تُثري على حساب أعدائها »[٢] بوسائل السلب القديمة .

وقد يتبادر إلى الذهن لأول وهلة أن في هذا تناقضاً مع ما جاء في الفقرة السابقة . والرأي عندي ألا تناقض في الأمر . فإن أثينا ـ الدولة غير أثينا ـ الأفراد . ولبيان ذلك يجب أن نفرق بين نظرة الأثيني إلى الأثيني ونظرة الأثيني إلى الأجنبي . فالأثيني أخو الأثيني : دمه وماله وعرضه عليه حرام . وأما غير الأثيني فهو له عدو مبين . كل شيء مستباح في حقه ، وهو لا يتورع عن الإقدام على أي شيء لإلحاق الأذى بعدوه : الكذب ، الغدر ، الخيانة . . . ولا سيما إذا كان يخدم أغراض بلده . هذه قاعدة عامة تنطبق على جميع بلاد اليونان من أثينا إلى أسبرطة ، إلى طيبة . . . فعندما استولى فويبيداس Phoebidas اللقديموني (الاسبرطي) على قلعة طيبة غدراً وخيانة على الرغم من معاهدة الصلح المعقودة مع الطيبين وسُئل أجيسيلوس Agesilus ملك اسبرطة عما في هذا العمل من الإخلال بالعهود المقطوعة ، أجاب بقوله : « ليس لك أن تسأل : هل هو نافع [لبلدنا] أو غير نافع ؟ لأن العمل النافع لبلدنا هو العمل الصالح »[٣] . وكثيراً ما كانت تُخرق شروط الهدنة وتُنقض العهود وتُقتل الوفود . والحق إن اليونانيين كانوا في غاية الوحشية في أثناء الحروب ، فلم يكن ثَم شيء يسمو بمشاعر المنتصرين في القتال أو يكبح جماحهم . فقد كان من الأمور المألوفة ، سواء في الحروب الأهلية أو الحروب الخارجية ،أن تُنهب المدن المفتوحة وأن يُقتل جميع الجرحى ، وأن يذبح جميع أسرى الحرب أو من يُقبض عليهم من المدنيين ، وأن يُتخذوا عبيداً إذا لم يُفتدوا ، وأن تُحرق البيوت وأشجار الفاكهة والمحصولات الزراعية التابعة لهم ، وأن تُباد الحيوانات وتُتلف البذور لكيلا تزرع في المستقبل .

---

(١) المصدر السابق، صفحة ٥٠٤ .

(٢) المصدر السابق، صفحة ٢٦٨ ـ ٢٦٩ .

(٣) نقلاً عن ول ديورانت : قصة الحضارة، ٧ / ٩٦ .

وقد ذبح الإسبرطيون في بداية حرب البلوبونيز كل من وجدوهم من اليونانيين في البحر وعاملوهم معاملة الأعداء ، سواء كانوا من أحلاف أثينا أو من المحايـدين . وقتل الاسبرطيون في المعركة الأخيرة التي انتهت بها هذه الحرب ثلاثة آلاف من الأسرى الأثينيين ، ويكاد هؤلاء أن يكونوا صفوة المواطنين الأثينيين الذين قضت الحرب على الكثيرين منهم . لقد مزقت الحروب اليونانية ـ اليونانية بلاد اليونان . إن هذه البلاد التي هزمت ملك الملوك ـ ملك الأكاسرة ـ يُقاتل بعضها بعضاً كما نقتتل نحن العرب اليوم . وهكذا فلم يكد يمضي قرن واحد على معركة ماراثون Marathon التي انتصر فيها القائد الأثيني ملتيادوس على الفرس سنة ٤٩٠ حتى أخذت الحضارة اليونانية تُفني نفسها بهذا الإنتحار القومي الطويل الأمد(١) .

من شمائل اليونان وعاداتهم الخلقية

إن شعباً لم يكن كثير العدد ، ولا عظيم القوة ، ولا رائع التنظيم ،أخذ يظهر شيئاً فشيئاً في جزءٍ من العالم بعيد عن مواطن الحضارة ، ولم يلبث طويلاً حتى أصبح مركزاً يشع بالحضارة وبؤرة ينطلق منها كل جديد وأصيل . لقد أدرك لأول مرة المعنى العميق للإنسان والعقل الإنساني .وكانت لديه فكرة عظيمة عن القصد من الحياة الإنسانية ومن الوجود الإنساني . وإذْ عرف أهمية اكتشافه ، ولما كان قد اعتبر أحوال الأقوام الآخرين ولم ير فيها ما يظن به أنها وصلت إلى ما وصل هو إليه ، اهتز طرباً ، وتمايل عجباً . لقد ملأه ذلك شعوراً بالزهو والنشوة والخيلاء والعظمة حتى لقطع بأنهِ هو الموجود الوحيد الجدير بالحياة . ولقد تبين له أنه نوع مباين لسائر البشر ، وأنه إنما خُلق لأمرٍ جلل وغاية عظيمة لم يُعَدَّ لها أحد من قبل . وكفى به شرفاً أن العقل هو أخصّ صفاته . إنه يحس الآن إحساساً طبيعياً بسيطاً بأنه من طينة أخرى غير طينة سائر الشعوب وأنه ينتمي إلى شعب مختلف عن سائر الشعوب . فالناس فريقان : هلينيون وغير هيليين (أو برابرة) ولا وسط بينهما . « إن البرابرة عبيد ، أما نحن الإغريق فرجال أحرار » هذا لسان حال الإغريقي القديم ولا سيما إذا كان أثينياً . فقد كان عشقه للحرية والديمقراطية يتجاوز كل حد ، وكان يأخذ على بلاد الشرق أن الحكم فيها حكم

(١) المصدر السابق،صفحة ٩٦ ـ ٩٧ .

مطلق غير خاضع للقانون وإنما هو يخضع لإرادة الحاكم ، ومن كان من رعايا هذا الحاكم فقد كان عبداً . فعادة الخضوع الشرقية فيها إساءة إلى الكرامة الإنسانية ، هذا رغم اعتراف الإغريقي أن بلاد الشرق كانت أكثر ثراء من بلاد اليونان وأعرق حضارة[1] ، ولكن الثراء والحضارة ليسا كل شيء في هذه الحياة . فمهما كان لون الحكم في دولته ، فإنها كانت تحترم حقوقه خلافاً لبلاد الشرق التي تنعدم فيها الحقوق والحريات وتخضع للقمع والإرهاب الفكري الجسدي .

هذا والبرابرة لا يقتصرون على الشرقيين ، فقد كان هناك أيضاً شعوب الشمال الذين كانوا يحيون حياة قبلية ، وهم الذين لم يكن الإغريق قد مضى وقت طويل على خلاصهم منهم وتحررهم من ربقتهم . فإذا أنت لم تتكلم الإغريقية كنت بربرياً سواء كنت تنتمي إلى قبيلة همجية من قبائل تراقيا Thrace في الشمال أو كنت تسكن مدن الشرق المترفة كمصر وفارس اللتين كان يعرف الإغريق أنهما بلدان عريقان . فالمصريون والفرس وأهل تراقيا وأسكوثيا Scythie لم يكونوا يعيشون أو يفكرون كالإغريق الذين اكتشفوا أحسن وسائل الحياة وبحثوا في أهدافها وغاياتها . فقد كانت البولص بالنسبة إلى الإغريقي هي التي تحدد الفرق بينه وبين البربري . فهي التي مكنته من أن يعيش الحياة الديمقراطية الحرة المسؤولة المليئة بأوجه النشاط العقلي والسياسي التي أراد أن يحياها . أمم وشعوب متحضرة كثيرة كانت تحيط ببلاد الإغريق ، لكن قلما كانت هذه الأمم والشعوب تُعنى بما كان يعدّه الإغريق جوهر الحياة ولُب لبابها : ألا وهو الحرية ، حرية الفكر والقول والعمل . وكان كل شعب من هذه الشعوب تقريباً يرزح تحت حكم الطغاة المستبدين ، ويسلم أرواح بنيه للخرافات والأوهام ، ولا يعرف إلا القليل من بواعث الحرية والحياة العقلية . هذا بالضبط ما أدركه الإغريق . إنهم ليسوا عبيداً ، وأنهم لا يحنون اهامات لحكم أي حاكم . فلا سيطرة لأحد ما على هذه الأرض حتى ولو كان إلهاً .

لقد كان الإغريقي رجلاً مرفوع الرأس حتى وهو يصلي للآلهة . ومع أنه كان كغيره من الناس يعرف الفرق بينه وبين الآلهة ، فإنه كان يعلم أيضاً أن الآلهة والبشر من أرومة واحدة مهما اختلف الآلهة عن البشر . يقول بنداروس : « إن

---

(١) انظر كيتو : الإغريق ، صفحة ١ ـ ٤ .

الآلهة والبشر من جنس واحد ، فكلانا نستمد أنفاسنا من أم واحدة (أي الأرض) ومع ذلك فشتانٌ بين قوتينا . فنحن لسنا شيئاً [بالنسبة إليهم] وأما هم فالسماء الصلدة مقرهم الوطيد ثابتة إلى الأبد »[1] .

إن الإغريق دأبهم التدبر والتفكر وتقليب الأمور على وجوهها المختلفة . إنهم يفكرون دائماً في تدابير جديدة . وهم سريعون في إعداد خططهم وتنفيذها ، جريئون محبون للمغامرة وأصحاب مزاج دموي . وهم عندما ينتصرون يفيدون من ذلك حتى غاية المدى ، وإذا انهزموا كان تراجعهم أقل من أي شعب آخر . وهم يَنذرون أنفسهم للمدينة كما لو كانوا مُلكاً لها . وهم يضعون الخطَّة ، فإذا فشلت ظنوا أنهم قد خسروا شيئاً هاماً ، وإذا نجحت رأوا هذا النجاح تافهاً إذا قيس بما سيفعلونه بعد ذلك .

لقد كانت أثينا غنية بأبنائها فخورة بهم ، عظيمة الثراء في أمور الحضارة الروحية والفكرية والمادية . يقول برقليس معرِّضاً بأسبرطة عدوة أثينا التقليدية :

« . . . إننا نسمح لأي إنسان بدخول مدينتنا ، فأبوابها مفتوحة على مصراعيها للعالم . ونحن لا نباشر النفي الإداري ، ولا نمنع زائرينا من رؤية ما قد يكون نافعاً للعدو فيستغله لأغراضه ، لأننا لا نعتمد على تدابير التسليح المادي وإنما نحن نعتمد على روحنا العامة في القتال .

« . . . إن تدريبنا يختلف عن تدريب خصومنا . فغيرنا يكدح منذ الطفولة ويعمل في سبيل الشجاعة ، وترويض النفس عليها ، وأما نحن فإننا نستمتع بالحياة . إننا أحرار في معيشتنا ، نطوف في البلاد كما نحب ونهوى ، وهذا لا يجعلنا أقل جرأة في مواجهة الأخطار من الأعداء الذين يتربصون بنا . وبالفعل لم يجرؤ الإسبرطيون على مهاجمتنا بغير مساعدة حلفائهم . . . إننا نواجه الخطر بنفوس مطمئنة أكثر مما نواجهه بعد مرانٍ طويل صارم . ونحن نعتمد على رجولتنا الفطرية لا على شجاعة من صنع الدولة . . . وبذلك إنما نتفادى متاعب التمرين المضني لمواجهة الصعاب المستقبلة . . . فهنا إذن كما في أي مقام آخر تقدم مدينتنا مثلاً عالياً جديراً بكل إعجاب .

---

(١) المصدر السابق ، صفحة ٥ .

« إننا محبون للجمال ولكن بغير إسراف في حب الظهور ، ومحبون للأمور العقلية ، ولكن بلا ميلٍ إلى النعومة واللين . وليس المال عندنا أداة للعظمة الزائفة ، ولكنه فرصة لإنجاز الأعمال . ولا نرى الفقر عاراً نخشى الإعتراف به ، ولكن العار ألا يعمل المرء شيئاً للتغلب عليه ، ومواطنونا يقومون بالواجبين الخاص والعام ولا يسمحون بأن يتعارض والمامَهم بأمور الدولة إنهماكُهم في أعمالهم الخاصة المتعددة . ونحن نخالف الدول الأخرى في النظر إلى الرجل الذي يقف بعيداً عن الحياة العامة . فهو عبدنا لا يُعدُّ رجلاً هادئاً بل هو رجل لا خير فيه . إننا نُفصِّل الأمور بدقة ونناقش بأنفسنا جميع قضايا السياسة واثقين بأن الأعمال مقضي عليها بالفشل إذا لم تكن موضع مناقشة . إننا أكثر الناس إقداماً على العمل ، كما أننا في الوقت ذاته أكثرهم تفكيراً قبل أن نُقدم عليه . إن غيرنا من الناس لا يخلون من الجرأة ولكنها جرأة تقوم على الجهل ، بينما يجدُّ التفكير من اندفاعهم . ومن الجلي أن أشجع الناس هم أولئك الذين لهم نظرة ثاقبة فيما يعرض لهم ، مجداً كان أو خطراً ، ورغم ذلك لا يترددون في مواجهته . . . ونحن نحافظ على أصدقائنا لا بقبول المساعدات بل بتقديمها . إننا وحدنا بين الناس نعمل للمصلحة العامة لا لجر منفعة شخصية بل لإيماننا الكامل بالحرية . إن مدينتنا هي مدرسة لكل بلاد اليونان ، وإنه إذا ما قيس أبناؤها بغيرهم رجلاً برجل ، فلن يدانيهم أحد في استقلال الروح وسعة الأفق وتنوع المعلومات ، والإعتماد على الذات إعتماداً كاملاً سواء في التفكير أو العمل .

« وليس هذا من قبيل الكلام الأجوف ، ولكنه حقيقة واقعة ، يدلُّ عليها ذلك السمو الذي بلغناه في عاداتنا وأخلاقنا . وما من مدينة أخرى في عصرنا هذا غير مدينتنا تخرج إلى محنتها أقوى منها بما لا يخطر على بال ، وما من سواها في قدرتها ، بحيث لا يشعر المهاجم بذلة ومرارة عند هزيمته على يديها ، وبحيث لا يحس أتباعها بخجل لمهانة تبعيتهم لها . والحق، إن شواهد عظمتنا وأدلتها بالغة ، وسيدهش لها أولادنا كما يدهش لها الناس جميعاً . فلسنا بحاجة إلى هوميروس أو أي آخر من أمراء البيان ليشيد بنا . . . فقد شق روادنا طريقاً في كل بحر وفي كل بر ، وخلّفوا وراءهم ذكريات خالدات . . . .

« هذه هي المدينة التي من أجلها وخشية فقدها مات الرجال الذين نؤبنهم . . . فإذا ما تغنيتُ بأمجاد هذه المدينة ، فتخليداً لذكرى هؤلاء الرجال

وأمثالهم الذين صنعوا هذه الأمجاد . . . إن الكلمات لا تكفي لتخليد ما قاموا به من أعمال . . . فحتى لو انطوى ماضي حياتهم على هفوات وأخطاء ، فمن الإنصاف أن نقول إنَّ تلك الساعة الأخيرة من الشجاعة والتفاني لَترجح كل هذا الماضي . لقد محوا هناك الشر بالخير ، وقدموا لمدينتهم وهم جنود خدمات أكثر مما ألحقوا بها من ضررٍ في حياتهم الخاصة . . . »(١) .

قد لا تخلو هذه الأقوال التي جاءت في خطبة برقليس التأبينية من الغلو والمبالغة على طريقة أمراء البيان ، وبرقليس من فحولهم ، ولكنها رغم ذلك تقدم لنا صورة تقريبية جداً عن حال أثينا . إن البولص أينما وجدت كانت تجعل الحياة كاملة ممتلئة كما كانت تجعل لها معنى . وقد بلغت الديمقراطية في أثينا أقصى حدودها المنطقية على عهد برقليس ، ورغم ما يؤخذ على هذه الديمقراطية من مآخذ فإن أي تقدير صحيح لها لا بد أن يضع موضع الإعتبار تأثيرها الكبير في القوة العقلية والخلقية للشعب الأثيني .

إن الحرب لم تنل من عزيمة هذا الشعب أو تخضد شوكته أو تفت في عضده . فإن نظم أثينا السياسية وجوها الإجتماعي والفكري قد أثَّرت في حياة الأثيني وروحه ، فهي تعمل تحت ضغط الحرب وعندما صطلام نار الحرب كما تعمل في أوقات السلام . فلم تكن الحياة السياسية هي وحدها التي استمرت والحرب في أشد أوارها واضطرام وقودها بين الأمبراطورية الأثينية وبين اسبرطة وعدد من الولايات المتعاطفة معها ، بل إن الحياة الفكرية والفنية قد استمرت أيضاً في أثناء هذه الحرب التي كانت نقطة تحول في تاريخ البولص الإغريقية . فإنه عندما تعرض الأثينيون لأشد المخاطر واقترب منهم العدو حتى عسكر في أتيكا وقُتلت نسبة كبيرة من المواطنين واشتد عوز العائلات ، ظل الأثينيون يحتفلون بأعيادهم ، لا على سبيل اللهو والمتعة ، بل من حيث أن هذه الأعياد جزء لا ينفصل عن الحياة التي كانوا يقاتلون من أجلها . فكان القواد يُنتخبون ، وتُفتح الجبهات ، وتُناقش شروط الصلح وتُعدّ الخطط وتُدرس التقارير الواردة من الجبهة . بل لقد كان سقراط طوال هذه المدة في أثينا يُناقش ويحاور وينتقد ويقرع الحجة بالحجة ـ إلاعندما كان يحارب في بوتيديا في صفوف الجيش ـ محاولاً أن يقنع

---

(١) نقلاً عن ألفرد زيمَّرن : الحياة العامة اليونانية، صفحة ٢٤٠ ـ ٢٤٦ .

كل من يريد أن يصغي إليه أن الخير الأسمى هو خير النفس ، وأن الحوار والنقاش والجدل هو الوسيلة الوحيدة لإدراكه . ولم يتوقف صوفوقليس عن التفكير في المشاكل النهائية للحياة الإنسانية والخلق الإنساني ، من غير أن يذكر كلمة واحدة عن الحرب التي تدور رحاها ، كما أن يوربيدس ظل يقلل من أهمية النصر ويُقبح الأخذ بالثأر . بل إن الكاتب الساخر أرسطوفانس لم يتوقف عن الإستهزاء بقادة الشعب المحبوبين ويعلن بأعلى صوته عن كراهيته للحرب وحبه للسلام بأسلوبٍ جميل آخاذ يجمع بين حضور الذهن وقوة الخيال وطرافة التهريج ، وجمال الشعر ، وقلة الإحتشام ووضع الجد في قالب الهزل[1] .

لقد بقي الأثينيون يعملون كأن شيئاً لم يكن ، إنهم لا يريدون أن يتخلوا عن أعمالهم ، ولا أن يتولى أمرها أحد عنهم . بل لم يطلبوا إلى آلهتهم أن تتبنى أعمالهم ، ولكنهم واصلوا هذه الأعمال وثابروا عليها بقوة وشجاعة وبروح ترضي الآلهة الذين يعبدونهم ، لأنهم يعرفون جيداً ما يطلب هؤلاء منهم . لقد كانوا مدركين لقوتهم شاعرين بتفوقهم ورهافة حدهم وكرم شمائلهم ، هذه هي على كل حال مشاعر النخبة إن لم تكن مشاعر الجماهير ، بل نخبة النخبة التي تجسدت في برقليس وأمثاله . إنهم يرحبون بكل ذي موهبة في أي ناحية من نواحي العمل والنشاط ويكرمونه لا لغرض خاص ، بل لتفوقه الذي سينعكس إيجاباً على المدينة .

خضوعهم للقانون

قلنا في فصلٍ سابق إن رباط المجتمع بأكمله في العصور القديمة كان الدين والعبادة ، وإن ملوكَ إيطاليا وبلاد الإغريق كانوا كهنة بقدر ما كانوا ملوكاً . وكان القانون عند الإغريق وعند الرومان وكذلك عند الهنود القدماء جزءاً من الديانة ، وكانت مجموعة قوانين المدينة هي مجموعة من الشعائر والمناسك والأدعية ، كما أن تشريع صولون كان مجموعة قوانين وكتاب شعائر في وقتٍ واحد . وظلت القوانين شيئاً مقدساً زمناً طويلاً . وحتى في العصرِ الذي تقبل الناس فيه أن إرادة الإنسان وأصوات الشعب تستطيع أن تضع قانوناً ، كان لا بد

(١) كيتو : الإغريق، صفحة ١٧٨ ـ ١٧٩ .

أن تستشار الديانة أو أن تكون راضية[١] . فالقدماء لم يروا في القوانين عملاً بشرياً بل كان لها أصل مقدس بزعمهم . لذلك لم يكن غريباً أن يقول أفلاطون أن طاعة القوانين هي من طاعة الآلهة[٢] . وما دام القانون شأناً إلهياً . فهو غير قابل للتعديل والتنقيح ، إنه لا يناقَش بل يُفرض فرضاً لأن الآلهة هي التي أمرت به[٣] . وجدير بالذكر أن قيمة القانون الخلقي لم تكن مستمدة من المبدأ الخلقي المستكن فيه ، بل من الكلمات المقدسة التي تنطوي عليها صيغته ، إذ لم تكن فكرة الحق عند القدماء لتنفصل عن إستعمال بعض الألفاظ المقدسة . فالملزم للإنسان في هذا الشرع العتيق لم يكن الضمير ولا الشعور بالعدالة ، بل العبارة المقدسة[٤] .

لقد كان في أخلاق القدماء دائماً سهولة كبيرة في الخضوع للنظام العام . إذ كان يكفي أن نقول إن هذه مسألة يفرضها القانون حتى تُقبل بلا مناقشة فتطأطىء لها الرؤوس وتنصاع لها الأعناق . وذلك بطبيعة الحال نتيجة لعادة الطاعة التي عودتهم عليها الحكومة الكهنوتية السابقة . لقد نشأوا على احترام الدولة وكل من يمثل الدولة أو يمتّ إليها بصلة أو سبب ، ولم يكن يخطر لهم على بال أن يحتقروا رجل الدولة ، وما ذلك إلا لأنهم هم الذين انتخبوه . إنه لم يفرض نفسه عليهم بل هم الذين جاءوا به ووضعوه في مركز المسؤولية[٥] .

لقد كانت هذه التذكرة التاريخية الصغيرة ضرورية لمعرفة مدى إيمان اليونان بالقانون وتعلقهم به، وما هي الأسباب العميقة التي تكمن وراء ذلك ؟ وهذا ما يسهل علينا فهم موقف سقراط من القانون والتزامه به وإيثاره الموت على عصيانه والمخالفة عن أمره ، وإصراره على البقاء في السجن وعدم الفرار منه ولو كان في ذلك قضاء على حياته . لقد تجند الكثيرون لتسهيل هذا الفرار وبذلوا طاقاتهم المادية والمعنوية في سبيله ، بل لقد شاركهم في ذلك المسؤولون من خصومه في المدينة وأبدوا استعدادهم للتغاضي إذا قرر الفرار حقاً ، لأنهم لا يريدون إزهاق

---

(١) فوستيل دي كولانج : المدينة العتيقة ، صفحة ٢٥٤ .
(٢) نقلاً المصدر السابق .
(٣) المصدر السابق، صفحة ٢٥٩ .
(٤) المصدر السابق، صفحة ٢٥٩ ـ ٢٦٤ .
(٥) المصدر السابق، صفحة ٤٤٣ ـ ٤٤٤ .

حياة مواطن من بطن أثينا لا سيما إذا كان من طينة سقراط . لقد أغروه بكل وسائل الإغراء المتاحة آنذاك فاستعصم ! ما معنى ذلك ؟ لم أكن أصدق ما أقرأ عن سقراط ولا ما كنت أسمعه من أساتذتي في الجامعة ، وكنتُ أظن أن في الأمر غلواً على طريقة علماء الأخلاق ، وأنها مسرحية يُراد بها إسناد دور خاص إلى سقراط فأجاد تمثيله . إن أحداً من أساتذتي لم يفسر لي هذا اللغز . وكانوا يكتفون بالإشادة بعظمة سقراط وثباته على المبدأ ، بل إن بعضهم كان لا يكتم سخريته من سقراط ويستسخف موقفه ويقول إنه عناد في غير موضعه . وأزعم أني قد كشفت جانباً من اللغز وهو الجانب التاريخي ، وأترك للمستقبل كشف ـ أو محاولة كشف ـ الجانب النفسي والأخلاقي ، فهو أعصى من الجانب التاريخي وأشد إلغازاً . إنه يتصل بصميم المعنى الخلقي في الإنسان وأظن أن السّيْكوسيودياميكا قد وضعت يدها على طرف الخيط ، بل على طرف أحد الخيوط المتشابكة التي يتداخل بعضها في بعض . وإن تتبع بعض الخيوط واستفراده ليس عملية سهلة ولكنها ليست عملية مستحيلة أيضاً . هنا سر السر ، فيجب كشف السر أولاً والتأدي منه ـ إذا كان ذلك ممكناً ـ إلى سر السر . هيهات هيهات كشف السر ! فما ظنك بسر السر ، ومع ذلك يراودني أملٌ كبير في هذا المقام ، لأن السّيْكوسوسيوديناميكا ميدانها الأفكار وعلاقات الأفكار وقوى الأفكار ومغامرات الأفكار وتفاعلات الأفكار واصطراع الأفكار بالأفكار ، والمعنى الخلقي لا يخرج عن أن يكون من قبيل الأفكار . إنه نوع فائق من الأفكار ، بل هو أنقى أنواع الأفكار ، لأن فيه تجتمع قوة الأفكار وإلزام الأفكار وقدرة بعض الأفكار على السمو بصاحبها سمواً لا تبلغه سائر الأفكار . فليست الأفكار نمطاً واحداً فهناك أفكار وأفكار وشتان بين الأفكار . عجيب حقاً أمر عالم الأفكار .

* * *

ومهما يكن من أمر لغز سقراط وموقف الأثينيين من المعلم العملاق ، فإن أهم ما تفخر به أثينا هو حكمها الديمقراطي القائم على القانون ونظامها الليبرالي الحر ، وإن كان مفهومها للحرية والديمقراطية يختلف عن مفهومنا لهما في هذه الأيام . يقول برقليس : « إن حكومتنا لم تؤخذ عن البلدان المجاورة ولم تقلدها ، فنحن مثال لهم يحتذونه لا العكس . وقد سُمي دستورنا ديمقراطياً لأن الحكم عندنا في أيدي الكثرة لا الأقلية ، وتكفل قوانينا المساواة في العدالة للجميع . وإن الرأي العام عندنا ليرحب بكل ذي موهبة من أي نوعٍ من نواحي العمل ويكرمه

لا لغرض خاص بل لتفوقه فقط . وكما أننا نتيح الحرية للجميع في حياتنا العامة ، فنحن أيضاً نتعامل بهذه الروح بعضنا مع بعض في علاقاتنا اليومية . . . إن علاقاتنا الشخصية تقوم فيما بيننا على الصداقة والصراحة ، وفي أعمالنا العامة نخضع خضوعاً مطلقاً للقانون . . . »[1] ! لقد كان للديمقراطية الأثينية قواعدها وضوابطهاومعاييرها،وفي ظل هذه الديمقراطية كان الأثيني يحظى بنصيبه الكامل في الحكم لا سيد ولا مسود ، بل الكل في السيادة سواء . إنه حكم القانون ، والقانون لا يميل مع الأهواء كما يقول برقليس في مرثيته . إن الأثينيين يعشقون الحرية ، ويضحون في سبيلها بالمهج والأرواح ، ولكنها حرية ملتزمة مسؤولة . فالأثيني في القرن الخامس لم يكن يعرف في حياته الخاصة ، ولا في حياة الهيئة التي ينتمي إليها ، معنى أن يعيش بلا رقابة وبلا قانون . فعلى الرغم من كل الحرية التي يتمتع بها ، فإن الطاعة كانت قانون وجوده : إنه لم يعترف بالسيادة عليه إلا لسيدٍ واحد ، وهذا السيد لم يكن بشراً مثله،بل لقد كان معنىً، على طريقة اليونان في عبادة المعاني . « فرغم أنهم أحرار ، فإن حريتهم لم تكن مطلقة ، لأن عليهم الآن سيداً هو القانون » كما يقول هيرودوت[2] . إنه دستور البلاد الذي نُقشت بنوده على أعمدة من حجر ليطلع عليها الرائح والغادي ، ويأخذ نفسه بها كل حين . وقد أطاع أوامرها بحريته واختياره لأنها من عمل العقل الخالص البعيد عن النقص والهوى . فصوتها هو هو دائماً لا يتغير ولا يتبدل،وأوامرها عادلة لا تفرق بين فردٍ وآخر ، بل الناس أمامها سواء بسواء .

لا غضاضة في طاعة القانون ولا حقارة ، إنه الضمان الأكيد والوحيد للعدل والمساواة . يقول أرسطو : « القانون له قوة الإلزام ، وهو في الوقت ذاته أمر حكيم ناجم عن الحزم والتعقل ، ومع أننا نتبرم بالأشخاص الذين يعارضون رغباتنا وميولنا . . . فإننا لا نشعر بأي غضاضة عندما يجبرنا القانون على إنتهاج طريق الصواب »[3] . فإن كل ما كانت الدولة اليونانية بحاجة إليه في ذلك الوقت ليكون محركاً لها وضماناً لحياة المواطنين ، إنما هو لوح قوانين مكتوب . ومن حظ اليونان والعالم أيضاً أن الحاجة والظروف قد خلقت الرجال ، كما أن الرجال هم

(١) نقلاً عن الفرد زيمرن : الحياة العامة اليونانية صفحة ٢٣٩ .
(٢) نقلاً عن المصدر السابق،صفحة ١٤٠ .
(٣) نقلاً عن المصدر السابق، صفحة ١٤٤ .

الذين يحسون قبل غيرهم بالحاجة ، وهم الذين يقرأون الرسالة التي تبعث بها الظروف . فلولا الرجال لم تُقرأ رسالة . إن ما قام به صولون لأثينا ، قام به ليكورغ لأسبرطة ، وقام به موسى للعبرانيين . . . وقام به الكثيرون غير هؤلاء من المشرعين في الشرق والغرب الذين لا نعرف عنهم إلا القليل . وكانت القوانين الأساسية التي أصدرها اليونان قاعدة وطيدة لطريقة الحكم المشهورة المعروفة في القرن الخامس .

فالقوانين من عمل الآلهة ، وبالتالي من عمل العقل . فصوتها صوته ، وأوامرها أوامره والإذعان لها إذعان له . القانون معناه العدالة في الحكم والحكومة ، والعدالة في الرأي والمشورة ، والعدالة في القول والعمل والسلوك . لذلك كانت فضيلة العدالة الشغل الشاغل لسقراط ، فاهتمامه بها نابع من اهتمامه بالقوانين وخضوعه الكامل لها . إن صوتها واحد لا يتغير ولا يتبدل ، ولا هو ينجرف مع الأهواء والنزوات « فبالقوانين المكتوبة يكون أصغر رعايا الدولة شأناً على ثقة تامة بمساواته بأي عظيم أمام العدالة » ، وهو ما يقوله ثيسيس في (يوربيدس)[1] . وهكذا رأي الأثينيون أنه من السهل أن يعيشوا معاً بعدل في ظل قوانين صولون العادلة . إن سقراط عندما رفض دعوة أصدقائه إياه إلى الهرب من السجن لم يفعل ذلك تحذلقاً أو نفاقاً ، ولكنها العادة وإخلاص العمر كله هما اللذان جعلاه يؤثر الموت على مخالفة القانون . إن طاعة القانون هي من طاعة الآلهة ، هذا ما يقوله أفلاطون الحكيم الإلهي . فهذا الأخير إنما يعبر بصدق وبلا أي مبالغة عن الروح الإغريقية ذات الحساسية البالغة للقانون وضرورة طاعة القانون حينما أظهر في أقريطون أستاذه سقراط وهو يشرب السم مضحياً بحياته ، لأن القوانين قد طلبتها منه . فما من رجل يفوق سقراط في رجاحة العقل وقوة التفكير ، ولكنه لم يكن حراً حرية مطلقة ، لأنه كان يعلوه سيد واجب الطاعة يناديه ألا يعصي له أمراً . فلبى سقراط النداء . فنِعْم المنادي ونِعْم النداء ! وطوبى لمن سمع النداء وأخذ نفسه بقدسية النداء وألزمها كلمة النداء .

وهذا الإيمان بقدسية القانون وعدم قابليته للتعديل والتنقيح بحكم أنه شأن إلهي هو الذي أورثهم حب النظام والتناسق والمنطق . يجب الإذعان لحكم القانون ، لأن القانون يرعى العدالة ولا يميل مع الأهواء والرغبات . فالأنظمة والشرائع

(١) نقلاً عن المصدر السابق ، صفحة ١٤٦ .

حقائق مطلقة لا رادَّ لها، ولا معقب لحكمها. وقد انعكس ذلك على الميدان الحقوقي والقضائي ، وكانت له نتائج إيجابية حاسمة صبت في قناة التفكير العقلي الحر للإغريق وتخليصهم من شوائب الأسطورة .لا يمكننا إدراك بدايات الحقوق والتفكير خارج مناخ ديني معين . وقد أفاد الإغريق كثيراً من هذا المناخ وسخروه لخدمة مدينتهم وأغراض وجودهم . لقد كانوا مفكرين في سلوكهم وتطلعاتهم ، محبين للنظام والإنسجام والتنسيق ، فكان مشرعوهم كالمهندسين يعملون بالمسطرة والبيكار إذا صح التعبير . إنهم يعشقون النظام والتناسق في كل شيء ، فإن لم يجدوه اصطنعوه . إن كل شيء عندهم تام ومنطقي كتصميم مدينة أميركية اليوم . ففي لغتهم نجد أن النظام والعالم معنيان تدل عليهما كلمة واحدة هي كوسموس cosmos ولذا طفقوا يبحثون عن الإنسجام والوحدة في العالم الخارجي كما يطلبونه في عالمهم الداخلي ، فالصلة بين الطبيعة الداخلية والطبيعة الخارجية هي صلة إنسجام وصلة وحدة لا تفرقة فيها[١] ، بل إن الآلهة لا يخرجون عن وحدة الأشياء والنظام الكلي للأشياء . ولا غرو من ذلك فالإنسان والآله من أرومة واحدة كما رأينا في صفحة سابقة . فالناس والآلهة والأشياء يتكون منهم عالم واحد ويخضعون لقانون واحد . إنهم مظاهر لنظام كلي واحد يمكن الوصول إليه بواسطة العقل الإنساني . إن الطبيعة لم تعمل في البدء خلافاً لعملها الآن . فالماضي أشبه بالحاضر من الماء بالماء على حد تعبير ابن خلدون . فانون واحد يسري عنيها في كل زمان ومكان .

وهكذا نرى كيف كان الحافز الديني في أساس فلسفة اليونان وكيف كان القانون في أساس هذه الفلسفة ، وفي أساس الأخلاق الفلسفية . فالعالم واحد وله أصل واحد وطبيعة واحدة . وهذه سمة بارزة في الفكر الإغريقي الذي لا تخدعه المظاهر ولا يضيع في تشتتها . ولا يقتصر ذلك على الفيلسوف ، فالفنان المعماري والمؤلف المسرحي الإغريقي كان كل منهما يفكر على هذا المنوال[٢] فوراء التنوع الخادع حقيقة واحدة بسيطة يحكمها القانون لا المصادفة ولا الأهواء والنزوات ، والكون قائم على العقل لا على الحس ، والتفكير المنطقي يمكنه الكشف عن حقيقته الكامنة ، وإن الطريق إلى الحق يمر بالعقل لا بالحس . كل

---

(١) عبد الرحمن بدوي : ربيع الفكر اليوناني ، صفحة ٥٥ .
(٢) كيتو : الإغريق ، صفحة ٢٣٨ ـ ٢٤٤ .

هذه كانت حقائق أساسية في الفكر الإغريقي الذي كان دأبه وأكبر همه وشغله الشاغل البحث عن الوحدة والنظام في العالم . إنه لم يكن يشعر بالسعادة والغبطة إلا إذا استطاع إيجاد الصلة بين الحالة الخاصة والقانون العام . ففي التعميم يمكن رؤية الحقيقة كاملة غير منقوصة . إنه يوناني يفكر لنفسه وبنفسه ، ومن دأبه ألا يوافق على شيء إلا بعد معرفة السبب أو الدليل . فالأسباب تجمع ولا تفرق ، والدليل يوحد ولا يبدد ، وكلاهما يوفق طلباً للإنسجام ووصولاً إلى الحقيقة القصوى والمبدأ الأسمى والمقصد الأسنى .

الإعتدال وضبط النفس

يقول الإغريق إن فكرة الإعتدال وضبط النفس فكرة مأخوذة عن أبولون . وأبولون هذا هو ابن زيوس ، وهو الوسيط المعين بين الإلّه الأكبر والإنسان الضعيف . وهو يبث تعاليمه من طريق معبده في دلفوس الذي كان طوال أجيال عدة أكبر قوة روحية في العالم اليوناني القديم . ولم يكن هذا المعبد قوة روحية فقط بل لقد كان أيضاً قوة زمنية فاعلة . وكان الناس والملوك يحجون إلى أبولون كما يحجون إلى رئيس روحي يسألونه النصح . وزيادة على ذلك فإن أبولون كان أولاً وقبل كل شيء يساعد بعض الولايات اليونانية المستضعفة على استعادة نشاطها وقوتها ، لا بالنصح وإلقاء المواعظ فقط ، بل بما يقدمه من اقتراحات مفصلة ونظم معينة . لقد كان اليونان ينسبون أعمالهم إلى أبولون كما كان الشعراء المنشدون ينسبون أشعارهم إلى هوميروس(١) .

وقد صار مذهب أبولون الإنساني في ضبط النفس والإعتدال جزءاً لا ينفصل من الحياة السياسية في اليونان . ففكرة الإعتدال كانت فكرة عميقة راسخة بينهم رسوخاً قوياً . فعندما أدلهمت الأمور في البلاد وزادت حلكة ، بدأ وحي دلفوس الكلام . لقد كان دلفوس مثابة للناس وأمناً ، كان مرجعاً روحياً يأتونه رجالاً وعلى كل دابة ليشهدوا منافع لهم . لقد كان مركزاً قوياً لرسالة اتجهت إلى اليونان كلها تدعوها لما يحييها ، ألا وهي واجب ضبط النفس . وهي تتلخص في هاتين الحكمتين القصيرتين : « اعرف نفسك » و« كن معتدلاً » . فمعرفة النفس التي نصح بها أبولون زائريه ومريديه ونُقشت على مدخل معبده ،

---

(١) الفرد زيمّرن : الحياة العامة اليونانية ، صفحة ١٣٨ ـ ١٤٠ .

ليست هي تحليل النفس الدقيق الذي سيجعل منه سقراط أساساً لتعاليمه الفلسفية ، وإنما كانت درساً أسهل وأكثر يسراً ووضوحاً . إنها ليست سوى ذلك الدرس الذي علمه المصريون لضيوفهم عندما كانوا يحضرون إلى الهيكل : « اعلم أنك مخلوق ضعيف زائل . لقد جئت إلى هذا العالم عارياً ، وستغادره عارياً . فما جدوى الثروة الكبيرة أو المجد الطائل أو الفرح المفرط ، أو الكثرة في أي شيء ؟ كن معتدلاً ، فيتساءل العابد : « ولكن أنى لي أن أكون معتدلاً والناس من حولي في ثورة وغضب يتسابقون ؟ » فيرد الإله قائلاً : « باللطف والرقة» .ويضيف إلى ذلك بنفحة كلامية لا يمكن أن توفيها الترجمة حقها ـ « بأن تضبط نفسك ، وتظن بالناس خيراً لا شراً ، وأن تُنمي في نفسك أفكاراً وعادات عقلية [من شأنها أن] تُنجي وتنقذ بدلاً من الأفكار المثيرة التي تفسد »[1] . هذا هو معنى اللطف والرقة أو ضبط النفس (سوفروسوني Sophrosynê) التي صارت منذ ذلك الوقت إحدى السمات البارزة التي تتسم بها الروح اليونانية . فقد صار مذهب أبولون الإنساني في ضبط النفس والإعتدال جزءاً لا تنفصم عراه عن الحياة السياسية والروحية في بلاد اليونان .

إن كثيراً من الحِكَم التي تُنسب في العادة إلى الحكماء السبعة تحمل بصمات أبولون فإن أقوالالأمثل « من العسير أن تكون رجلاً طيباً » و« لا تقل عن إنسان إنه سعيد إلا بعد تصرُّم حياته » وأخرى غيرها من هذا القبيل مما نعرف أنها كانت شائعة وصادرة عن حكماء أثينا في القرن الخامس ، لتشهد بتأثير تلك الحكمة اللطيفة الساحرة التي كانت تصدر عن إله دلفوس ، فتعاليمها السهلة البسيطة اخترقت قلوب اليونانيين حتى مسَّت الشغاف وملأت السويداء .

وعندما شاع اقتناء الذهب والفضة بين الأثينيين شعر الأرستقراطيون بإغراء قوى لظلم مواطنيهم . فرأى حكماء ذلك العصر أن الطريقة المثلى لعلاج تلك العلة هي ألا يكتفوا بفرض الإعتدال وحده بل أن يضيفوا إليه الرزانة في السلوك والبساطة في المظهر الخارجي . وقد ذهبوا في التشريع المناوىء للترف إلى أبعد ما يمكن لجرأتهم أن تبلغه . فبينما فرض ليقورغوس على الإسبرطيين أن يلبسوا زياً واحداً وحدد لهم أصناف طعامهم اليومي وكيف يتناولونها ، لم يذهب صولون إلى

---

(١) نقلاً عن المصدر السابق، صفحة ١٣٧ .

أبعد من تحديد جهاز الفتاة الأثينية بثلاثة أكسية ، ومنع استئجار النادبات في المآتم . . . إنه يريد التخلص من عدم توازن الثروات في الدولة لا بمجرد سنّ القوانين العادلة ، بل بجعل الأغنياء يظهرون بقدر ا لإمكان بمظهر الفقراء . فالناس يجب عليهم أن يشعروا بأنهم مواطنون لا بأن بعضهم من طينةٍ غير طينة البعض الآخر . وكان ذلك ارهاصاً ظاهراً ملموساً بالديمقراطية المقبلة . لقد كان صولون من الحكمة بحيث كشف قبل أرسطو بقرنين ونصف القرن أن تكوين العادات الطيبة أهم من وضع القوانين العادلة[1] .

لقد أقامت اسبراطة العدالة ، ولكنها أقامتها للمواطنين الإسبرطيين وحدهم دون الأجانب . وعلى ذلك فإن مُشرِّعها بدلاً من أن « ينشر درعه القوي على الطرفين المتنازعين » كما فعل صولون ، فقد قوَّى فريقاً دون فريق وزرع بذور التفرقة الدائمة بين المواطنين والتابعين ، وبمعنى آخر بين الحاكمين والمحكومين . وهذا يفسر لنا ذلك التقشف المسرف العجيب في قوانين إسبرطة . فلم تكن بساطتها هي تلك البساطة الرزينة التي ترمي إلى التقريب بين الغني والفقير في ظل نظام مشترك في الحياة ، وإنما كانت بساطة حمقاء اتخذت النظام الموحد للتغلب على النكسات القاسية التي تمر بها أمة من الجنود المدججين بالسلاح في بحرٍ من الأعداء الألداء لا أمل في استرضائهم . فلا مجال هنا لذلك الإعتدال اللطيف الذي يبشر به أبولون . فقد فسرت إسبرطة (سفروسيني) لا على أنها العلاج المنقذ الذي قال به صولون ، بل على أنها نظام شديد غير إنساني لا يمكن لأي إنسان أن يخلص له من كل قلبه . ولم يخضع الإسبرطيون لهذا النظام إلا لأن السيف مصلت فوق رؤوسهم . فالأثيني طيب بطبيعته سواء كان في أثينا أو خارجها ، أو هو يراعي قوانين مدينته ويلتزم بها بلا إرغام ولا إجبار ، وأما الإسبرطي فهو ينتهك قوانين مدينته عند أول فرصة سانحة . فالفرق بين المدينتين كالفرق بين الحياة في المعسكر والحياة الحرة الطليقة في النزهات العامة[2] .

إن التدبير الصحيح لتثبيت النظام والعدل ينبغي إذن أن يكسر غطرسة الأثرياء ويوقف استعبادهم للفقراء ، دون المطالبة مع ذلك بقلب النظام أو بالتشدد في فرض النظام ، تلك هي التعاليم التي يعرضها صولون أمام أنظار جميع

(١) المصدر السابق ، صفحة ١٤٧ ـ ١٤٨ .
(٢) المصدر السابق ، صفحة ١٤٨ ـ ١٥٠ .

المواطنين . ومع صولون استقرت في الأغورا القاعدة العليا للسيطرة على الذات . وهذه السيطرة هي ثمرة تدريب طويل وشاق ، ونظام قاسٍ وصارم . وهي تضع موضع العمل رقابة يَقِظَة على الذات وانتباهاً مستمراً للتخلص من إغراءات اللذة ومن جاذبية الميوعة والشهوانية ، لكي تقيم على انقاضهما حياة مُثلى . فالبذخ والميوعة واللذة أمور مرفوضة ، والترف محظور في اللباس والسكن والطعام ، والثراء غير مقبول بحالٍ من الأحوال . إن الثروة لا تنطوي على أي حدود ، فلا شيء فيها يمكن أن يسجل نهايتها أو يحدها أو ينجزها ، إن جوهر الثروة هو المغالاة ، والمغالاة مرض يصعب برؤه . فخير منها التوسط في الأمور بلا إفراط ولا تفريط « حب التناهي غلط . وخير الأمور الوسط » كما يقول المثل العربي . ذلك هو الموضوع الذي يتردد بإلحاح في الفكر الخُلقي خلال القرن السادس . إن حِكَم صولون التي غدت أمثالاً : « ليس ثمة حدود للثروة ، والإشباع يولدُ المغالاة » وجدت صداها في كلمات تيوجنيس Théognis « من ملك الكثير طمع في مضاعفة ما يملك . والثروة مدرجة إلى الجنون » . فمن مَلك طلب المزيد ، والثروة تنتهي بأن تصبح غاية تُقصد لذاتها لا لأيٍ شيءٍ آخر . وبعدما كانت غايتها إشباع حاجات الحياة ووسيلة بسيطة للبقاء ، انقلبت غايةً وفرضت نفسها حاجةً جشعةً غير محدودة لا شيء يمكنه إشباعها أبداً . إننا نكتشف في أساس الغنى إذن طبيعة مشوبة بالعيب ، وإرادة منحرفة وسيئة ، أي رغبة في الإمتلاك والإقتناء أكثر من الآخرين بل في الحصول على الحصة كلها . إنها تجسد روح النزاع التي لا تولد سوى الظلم والقهر والإنقسام بدلاً من المنافسة الشريفة(١) .

هل أدلكم على خير من ذلكم ؟ تلتزمون الوسط الذهبي : « لا مغالاة في أي شيء » بل اعتدال وتناسب واتزان . إن النظرية الخاصة بالحد الأوسط هي من خصائص الإغريق . ولكن ذلك لا يعني أن الإغريقي رجل لا يحس بالإنفعال ولا يتكدر صفوه كأنه شخص مسالم مخدَّر لا ينحرف عن جادة الطريق . كلا . فقد كان يقدر أوسط الأمور تقديراً بالغاً ، فلم يكن به حاجة كبيرة إلى التظاهر بالإنفعال ، لقد كان ينشد ضبط النفس والإتزان لأنه كان بحاجة إليهما . وعندما كان يتحدث عن « أوسط الأمور » لم تكن فكرة الوتر الرنان بعيدة قط عن ذهنه . فالوسط لم يكن يعني الإفتقار إلى الشد والإنفعال وإنما كان يعني إحكام الشد الذي

---

(١) ڤارن جان بيار فرنان : أصول الفكر اليوناني ، صفحة ٧٣ ـ ٧٤ .

يطلق النغمة الصحيحة الواضحة . وبعبارةٍ أخرى ، لا يقصد اليوناني بالوسط جمود الإنفعال والعجز عن التطرف ، بقدر ما يعني التحكم في الإنفعال بحيث لا يطغى على صاحبه ويميت قلبه . فضبط الإنفعال أولى من شروده[1] .

وفكرة الوسط هذه لا تقتصر على البُعد الشخصي الفردي ، بل لها أيضاً تطبيقاتها على الصعيد السياسي الإجتماعي ، لا سيما إذا تذكرنا أن النظرة اليونانية لا تفصل بين الأخلاق والسياسة[2] . يجب تعزيز الطبقة الوسطى في المجتمع وتقويتها لأن فيها الضمانة الأكيدة لتوازنه وعدم تطرق الخلل إليه . فالطبقة الوسطى هي التجسيد المادي لفكرة الإعتدال في المدينة ، بإقرار التوازن بين أقصى الطرفين : أقلية الأثرياء الذين يريدون الإستئثار بكل شيء ، وجمهور الفقراء الذين يرون أنفسهم أحق بهذا الاستئثار وأهله . إن من تدعوهم الأوساط les mésoi ليسوا مجرد أعضاء فئة اجتماعية خاصة تقع على مسافة متساوية بين الفقر والغنى ، إنهم نمط من الناس تتجلى فيهم القيم المدنية الجديدة ، كما يتجلى في الأغنياء جنون الإفراط وفي الفقراء غباء التفريط . إن الأوساط ـ نتيجةً لموقعهم في المجموعة التي ينتمون إليها ـ يقومون بوظيفة هامة وهي تثبيت التناسب ، إنهم صلة الوصل بين الفريقين المتنازعين . وإن صولون الذي خرج من صفوف الوسط طرح نفسه حكماً ووسيطاً وموفقاً . وهو قمين أن يجعل من المدينة التي مزقها الإنقسام ، عالماً منسجماً متناغماً إذا تمكن من تقدير نسبة الجدارة التي تعود إلى مختلف العناصر المكونة للمدينة تقديراً صحيحاً . غير أن هذا التوزيع المدروس المتوازن يحدُّ من طموح الأفراد الذين يثيرون روح المغالاة ويضع قيوداً على غلوائهم لا يجوز لهم تجاوزها . وهكذا انتصب صولون في وسط الدولة ليكون حاجزاً منيعاً بين الفريقين وقوة مثبِتة للحدود التي لا يحق لأحدهما تخطيها[1] .

أجل لقد انتصب صولون حكماً في المدينة التي أحبها وأخلص لها لكي يطبق قراره أو ليفرضه فرضاً إذا اقتضى الأمر ليوفق بين القوى المتناقضة والعناصر المتضاربة المصالح والغايات ، كأنه قاضٍ يستند في أحكامه إلى قانون أعلى من الأفرقاء ، أي إلى قاعدة عليا تكون واحدةً بالنسبة إلى الجميع وتساوي بين

---

(١) كيتو : الإغريق صفحة ٣٢٨ ـ ٣٣٢ .
(٢) انظر عبد الرحمن بدوي : ربيع الفكر اليوناني ، صفحة ٥١ ـ ٥٢ و ٨٩ .
(٣) جان بيار فرنان : أصول الفكر اليوناني ، صفحة ٧٤ ـ ٧٥ .

الجميع . قال صولون : « لقد وضعت قوانين تساوي بين الضعفاء والأقوياء ، وحددت لكل منها عدالة مستقيمة » ولحماية هذا القانون رفض الطغيان الذي كان في متناول يده . إن السلطة والقوة أصبحتا في خدمة القانون بعد أن كانتا في خدمة الفرد ، كما أصبحتا تابعتين للشعب ومن حقوقه ، بعد أن كانتا تابعتين لزيوس ومن حقوقه وحده لا يشاركه فيهما أحد . إن خبث الناس وذهنية المغالاة لديهم وظمأهم الذي لا يرتوي إلى الثروة - إن كل أولئك هو الذي ينتج الفوضى نتيجةً لتسلسل طبيعي يمكن مقدماًمعرفة مراحله: فالظلم يولد العبودية ، والعبودية تدفع إلى العصيان والتمرد[1] ، أو كما يقول ابن خلدون : إن الظلم مؤذن بخراب الدولة . فمن الحزم تدارك الأمور قبل استفحالها بالقانون وإقامة شريعة الحق والعدل .

وقد ظلت الأخلاق الإغريقية أجيالاً عدة أخلاقاً تقليدية صرف تقوم على فضائل العدالة والشجاعة وضبط النفس والحكمة وما إليها . وكان كل شاعر يبشر بعد الآخر بهذه العقيدة ، أي بجمال العدالة وأخطارَ الطمع والجشع وحماقة العنف ، فكانت عقيدة خُلقية لا يمارسها جميع الإغريق بطبيعة الحال أكثر مما يُمارس العالم الإسلامي تعاليم دينه . ومع ذلك فالقيم الإسلامية تظل عند المسلمين هي القدوة والمثال المحتذى . وكذلك القيم اليونانية عند اليونانيين ، وكذلك أيضاً القيم المسيحية عند المسيحيين ، وكلها قيم قلما يلتزم أصحابها بها . فالإغريق يُعظمون كثيراً الإعتدال والقصد في الأمور ، ويصوغون مبدأ السيطرة على الذات صياغة لا يضاهيها في الوضوح والإتقان أي شعب آخر في التاريخ . ولكن الصياغة الكلامية شيء والواقع العملي شيءٌ آخر . لا بمعنى أنهم يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم - معاذ الله ! - بل بمعنى أن التطابق عسير - إن لم يكن مستحيلاً في بعض الأحيان - بين شطط اللسان ومقتضيات الحياة في واقع الزمان والمكان . فكل جماعة تجد نفسها مندفعة - مهما كان ذلك قسراً عنها ومهما تعارض مع مُثلها وأهدافها - نحو مقاييس خاطئة في الحياة . وهذا ما حدث لليونان وخاصة أثينا وهي في أوج عظمتها . لكن يحسن بنا أن نتذكر دائماً - عندما نُحسُّ ميلاً إلى لومها على طريقتها غير المستقيمة - أن نتذكر أغراضها السامية . فهي لم تدخر جهداً في سبيل التقدم الروحي لبلاد اليونان

(١) المصدر السابق ،صفحة ٧٥ - ٧٦ .

والسمو بها ، كما عنيت بتقوية الشعور العام المشترك للجماعة ، وملأت تفكير الرجال وشغلت أيديهم بأعمال غير شخصية كبيرة . فضلاً عن تعزيزها للحرية والديمقراطية . . . كما يجب ألا ننسى مشاريعها العظيمة وإسهاماتها الرائعة في ميادين البعث الفكري والرقي الروحي والتطور الإنساني . وليس من حقنا أبداً أن نكون أول من يقذفها بأول حجر ، فهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ؟!

الأريتيه (الفضيلة والتميز والتفوق)

لقد كان الإغريق أساتذة العالم القديم في حب المعرفة والشغف بها وفي الإيمان بالعقل ومنتجاته . لقد كانوا قيمة فكرية عظيمة ورائعة من روائع الحضارة الإنسانية قدمت الكثير للأجيال اللاحقة . وربما كانت أبرز علامة مميزة للعقل الإغريقي هي إدراكه الأشياء كلاً عضوياً واحداً متكاملاً ومعالجتها معالجة كلية أيضاً . ومن هنا فإن التفرقة الحادة بين النفس والبدن ، بين المادي والروحي كانت غريبة على الإغريقي حتى عصر سقراط على الأقل . لقد كان يرى الإنسان كله ، أما أن الجسد هو قبر النفس أو سجن لها فهذه فكرة نعثر عليها في بعض ديانات الأسرار الإغريقية التي تسربت إليها عدوى التصوف الشرقي . كما أن الإغريقي جعل التدريب الجسماني جزءاً أساسياً من التربية عامة ، أي التربية البدنية والعقلية بلغتنا ، لا لأنه قال لنفسه : « لا تنسَ الجسمْ في عملية التربية » ، بل لأنه لم يكن ليخطر له على بال إلاّ أن يدرب الإنسان كله ، الإنسان في شموله ، أي في جانبه البدني والنفسي والعقلي . فقد كان وجود الجمنازيوم أي الملعب الرياضي في البولص أمرَ طبيعياً ، كوجود المسرح أو السفن الحربية . وكان الذكور من جميع الأعمار يتدربون فيه باستمرار ، لا على الرياضة البدنية وحدها بل على الرياضة العقلية أيضاً ، فالجزء هو دائماً عندهم عضو في كلٍّ ليس منفصلاً عنه بحالٍ من الأحوال . إننا قد نلوم الإنسان الذي يقبل على اللعب كما يقبل المتدين على شعائر العبادة . فاللعب رجس من عمل الشيطان فكيف يصح لنا معاملته معاملة العبادة ؟ ما هذا إلا غاية الخلل وسوء الأدب ! هذا ما نفكر فيه نحن ، أما الإغريقي فلا يفكر كذلك . فاللعب عنده جزء من العبادة . إن الملاعب في بلادنا تكون في العادة بعيدة عن الأماكن المقدسة بُعد ملائكة الرحمن عن أولياء الشيطان . فنحن نفصل بين اللعب والعبادة ، إننا نحتفظ للعبادة بحرمتها بأن ننأى بها عن أماكن اللهو . فالعبادة تعني الجدية والوقار خلاف للعب

الذي ينخلع فيه الإنسان من وقاره ليزجي الوقت في العبث والنقاهة والفراغ . وأما اليوناني القديم فلا فصل عنده بين المقدس واللعب بوجهٍ من الوجوه . فالألعاب الأولمبية كانت إنما تُقام تمجيداً للإله الأولمبي زيوس ، كما كانت تُقام الألعاب في عيد أثينا للجميع Panathenaia تمجيداً للآلهة أثينا حامية المدينة وشفيعتها . وكذلك الألعاب البوثية التي كانت تُقام لتمجيد أبولون . ولم تكن هذه الألعاب تقتصر على المباريات الرياضية بل كانت تشمل أيضاً المباريات الموسيقية . فقد كان العزف على الناي مباراة ثابتة مقررة في الألعاب البوثية ، أَوَلَمْ يكن أبولون نفسه . « رب الناي » ؟ ومن هنا فلا غرو أن تُقام الملاعب في جوار دور العبادة[1] .

كانت المباراة وسيلة فعَّالة لإثارة كل ما هو جليل وعظيم ومتميز في الإنسان ، لتحريك ما يُسمى بالأريتيه areté وإظهاره . وقد كان هذا قرباناً جديراً أن يُقدَّم للرب . وعلى هذا النحو أيضاً كانت تُقام الألعاب تكريماً لباتروقلوس Patroclus وهو بطل ميت ورد ذكره في الإلياذة . و(الأريتيه) كلمة يونانية تُترجَم عادة ترجمة غير دقيقة بكلمة (فضيلة) وهي كلمة أخلاقية صرف ، بينما (الأريتيه) اليونانية شيء أكثر من ذلك . فهي تعني الإمتياز والتفوق في شيء ما يعرف بالقرينة وسياق الكلام . (فالأريتيه) بالنسبة إلى حصان السباق مثلاً هي السرعة ، وبالنسبة إلى حصان الحمل هي القوة ، وبالنسبة إلى الإنسان هي الإمتياز في الأساليب التي يمكنه أن يكون متفوقاً فيها ، أخلاقية كانت أو فكرية أو طبيعية أو عملية[2] ، فكان اليونانيون القدماء يربطون بينها وبين الخير والمنفعة والفائدة والسعادة والحظ والنجاح . وعلى ذلك فإن الإنسان الذي يتمتع بالأريتيه ليس هو فقط مجرد رجل فاضل ، إنه أيضاً رجل طيب وسعيد وناجح في الحياة . وإذا أضفنا إلى ذلك أن الكلمات (فضيلة) و(خير) و(منفعة) و(حظ) كانت بالنسبة إلى الإغريق القدماء كلمات مترادفة يُستعاض بعضها من بعض ويستخدم بعضها بدل بعض ، وأنهم كانوا يحكمون على العمل بقدر ما يفضي إلى غاية منشودة ـ إذا فعلنا ذلك ظهرت الأصداء المنفعية والبراغماتية التي اقتضاها تصورهم لعلم الأخلاق ، وتبين لنا إلى أي حدٍ كانوا يقدرون الأعمال باعتبار

---

(١) كيتو : الإغريق ، صفحة ٢٢٦ ـ ٢٢٧ .
(٢) المصدر السابق، صفحة ٢٣٤ .

نتائجها أكثر مما يقدرونها باعتبار البواعث والغايات التي أوحت بها[1] .

ولعل فكرة الأريتيه هذه قد وصلت إليهم من مفهوم هوميروس للتفوق areté من حيث هو امتياز ونشاط شامل في دولة المدينة التي يضطلع كل مواطن فيها بجميع مسؤولياته . إنه مفهوم مكثف ينطوي على احترام للحياة من حيث هي كل ، أو وحدة تتضمن فكرة أسمى بكثير من الكفاية الخاصة أي الكفاية التي توجد في الحياة نفسها ، في نبضها الكلي لا في جزئيٍّ من جزئياتها المبعثرة . لقد كان واجباً على الإنسان نحو نفسه ونحو البولص أن يكون كل شيء . هذا هو المواطن الفاضل في نظر الإغريقي القديم . لقد كان المقصود من الألعاب ـ فضلاً عن تكريم الآلهة ـ اختيار (الأريتيه) الخاصة بالإنسان كله ، لا بمهارة معينة فيه فقط . فمحال على الإنسان أن يكتسب مهارة واحدة من المهارات ـ كلعب الغولف أو البليارد مثلاً ـ ثم يعيش في نفس الوقت الحياة التي تليق بإنسان مواطن . وهذا ما يرمي إليه أرسطو حين يقول : « إن السيد المهذب ينبغي أن يكون قادراً على عزف الناي ، ولكن على ألا تكون مهارته في العزف أكثر مما يجب »[2] .

ومن هذا المنطلق نفهم الكثير من أخلاق اليونان التي قد تصدم البعض لولا ما تقدم ذكره . فهذا الإندماج التام لما هو جسماني وفكري وخلقي وروحي وحس ، هو جوهر الأخلاق اليونانية ، المهم الإمتياز والتفوق في الجسم والفكر والمال وكلها أجزاء من كلٍ عضوي مترابط واحد تسير جنباً إلى جنب في معادلة تبقى ثابتة أو تكاد حتى في أوقات المحن والأزمات الكبرى التي ألمت ببلاد اليونان . إن هذا الإستعداد لرؤية الأشياء كلاً وقدرة اليوناني الفائقة على أن يعيشها كلاً ، هما مصدر سلامة الحياة الإغريقية . لقد كان للإغريق نزواتهم بطبيعة الحال كغيرهم من الناس ، إذْ لا تخلو سجلاتهم السياسية من نوبات الوحشية . فالجائع قد يدمر مدينته لو استطاع ، في سبيل لقمة العيش له ولأولاده ، ولكن المعيار الذي رسموه لأنفسهم كان هو التوازن المعقول . فإن أكثر أصحاب الثروات الكبيرة تعساء ، كما أن عامة الذين يعيشون على الكفاف سعداء . ولا أدل على ارتفاع مستوى السعادة عند اليونانيين من ندرة الإنتحار:

---

(١) ثيوكاريس كيدسيديس : سقراط ، صفحة ٢١٩ .
(٢) نقلا عن كيتو : الإغريق ، صفحة ٢٢٧ .

فاليونانيون يقتلون أنفسهم فقط عندما يحسون أنهم ارتكبوا فضيحة مخزية ، فالتوازن والإعتدال والقصد في الأمور هو دأب اليونانيين. إن من الصعب أن تجد إغريقياً متطرفاً في حماسته واندفاعه ، فالتعصب الديني الذميم الذي عرفته العصور الوسطى اللاتينية تجهله بلاد اليونان التي لم تعرف طوال تاريخها ما يُسمى بمحاكم التفتيش Inquisition كما لم تعرف أيضاً ما يشبه حملات التنصير والتعذيب التي شُنت على العرب بعد خروجهم من إسبانيا لا لجناية اقترفوها بل لإختلاف الدين والعقيدة. نعم ، لقد كان اليونانيون يخرجون عن طورهم في حالة واحدة فقط وهي الطقوس الديونيزية .

إن الأثيني لا تعنيه الأخلاق بالمعنى المتداول المشهور للكلمة بقدر ما تعنيه الصحة والقوة والجمال والمغامرة والتفكير والرجولة : هذه هي الحياة الكاملة عنده . والإنسان المثالي في نظره هو الكالوغاثوس Kalogathos ، أي الذي يجمع بين الجمال والعدالة في فنٍ من فنون العيش الراقية ، والذي يقدر قيمة الكفاية والشهرة والثراء والصداقة كما يقدر الجرأة والمغامرة والتفكير. ويرى الأثيني كما سيرى غوته أن ترقية النفس هي كل شيء في هذه الحياة ، ويختلط بهذا المبدأ عنده قدر من الغرور المكشوف . فاليونانيون لا يملون الإعجاب بأنفسهم ويعلنون دائماً تفوقهم على غيرهم من المحاربين والكتّاب والفنانين والشعوب بأسرها . وهم سريعوا الإنفعال ، ولكنهم لا يميلون كثيراً مع الهوى ، وهم يعشقون الحرية إلى حد الفوضى[1] ويعبدون الصحة والجمال . ولم يكن الأدب المكشوف عيباً في بلاد اليونان القديمة ، كما لم يكن ذلك عيباً في الإحتفالات الدينية ، ولما كان أعذب الشعر أمجنه فقد دأب الشعراء على استخدام الأساطير التي تتنافى والأخلاق . وفي وقتٍ عدت فيه الأساطير نوعاً من الجنون الأدبي والفني راحوا يروون في إشعارٍ رشيقة آخاذة قصصاً جميلة وفاضحة عن عشق الآلهة وتغير أشكالهم بطرق عجيبة . ومع ذلك فمن الخطأ النظر إلى اليونان على أنهم شهوانيون ، إنهم لم يكونوا متهالكين على المتعة واللذة ، كما لم يكونوا أيضاً نساكاً متقشفين . لقد كانوا أكثر حيوية منا ، كما كانت لهم ميزة الإندماج كلية في أي عملٍ يقومون به أو أي شيء أملته عليهم الطبيعة أو العادات الإجتماعية التي ترمي إلى تحقيق

---

(١) ول ديورانت : قصة الحضارة ٧ / ١٠١ ـ ١٠٢ .

الإنسجام والتكامل في شخصيتهم[١] .

ويلخص سيمندس صفات الرجل الأمثل في نظر اليونان فيقول : « إن أحسن ما يستطيع الإنسان أن يتمتع به [في هذه الحياة] هو الصحة الجيدة ، ويلي الصحة جمالُ الشكل وحسنُ الطبع ، وتأتي الثروة بعد ذلك ينالها الإنسان بلا غش أو خداع ، ويلي ذلك في المرتبة الرابعة [أخيراً] أن يكون الإنسان في نضرة الشباب بين الأصدقاء والخلان »[٢] .

حثالات أخلاقية

إن الأثينيين أعقل من أن يكونوا مثاليين ، وهم يسخرون من البلاهة أكثر مما يكرهون الرذيلة . فلا عجب إذا جنح الإغريق إلى الظن بأن الفضيلة ليست أن يكون المرء طيباً حقاً ، بل أن يبدو فاضلاً . وإذا كان هؤلاء الأقوام المتخاصمون الطائشون لا يزالون يذهلوننا ويثيرون إعجابنا فما ذلك إلا لأنهم يسترون خطاياهم وعيوبهم المكشوفة بما جُبلوا عليه من قوة المغامرة وحدة الذكاء ومرونة العقل وسهولة الطبع وإتساع الأفق وعشق الحرية وسرعة التهيج والحساسية ، لقد آمنوا بالحياة وبالإنسان إيماناً فتق القرائح وفجر الطاقات ، فطفَرت الشآبيب وانثالت المعاني ، ودرَّت اللذات العُلى !

إن الناس في أثينا كانوا بشراً مثلنا ، وهم عرضة لنفس المشاعر البشرية والضعف الإنساني . فالناس هناك سذج غير متكلفين ، وبعضهم محدود الذكاء . فهم يتشاجرون مثلاً على قليل من ملح الطعام أو فتيل السراج أو عصير الحصرم . وإذا ما استعار أحدهم معطف جاره فقد يرفض رده . وقد لا يقلون بخلاً عن أهل أسكتلندة الذين يقترضون الكبريت ليحافظوا على ما عندهم منه ، [أو عن الفرنسيين الذين يضنون بقطعة خبز يستعيرها الجار من جاره في وقت متأخر من الليل قبل أن يقبض ثمنها منه . وهذا ما حصل لي مراراً في باريس عندما كان يداهمني أحد الضيوف في ليلة ظلماء] . ومن هذه الناحية فإن الأثينيين في القرن الخامس لم يكونوا مثلاً طيباً في حُسن الخُلق بالمعنى المألوف لهذه

---

(١) الفرد زيمرن : الحياة العامة اليونانية صفحة ٤١٤ انظر الحاشية أيضاً وانظر كذلك حاشية صفحة ٣٦٩ .

(٢) ول ديورانت : قصة الحضارة ٦ / ٣٨٥ .

الكلمة . فالقوم الذين صنعوا الحضارة الأوروبية وحققوا لها أسباب الغنى والرفه لم يكونوا أغنياء مرفهين . فالثروة اليونانية كانت في الحقيقة ثروة محدودة وتكاد تكون صبيانية في طرقها . فإن آلهة الفقر ـ سُبحانها ـ لم تغادر بلدهم يوماً ، بل لقد أحبت السكنى فيها أبداً ولم تفكر يوماً في الإنتقال منها إلى بلدٍ آخر ، فعاشوا في ظلها من البداية حتى النهاية . إنها قَدَرُهم الذي لا يمكن التغلب عليه . وكل أولئك لا يخلو من التأثير في الفكر والذوق والشعور والخيال إذا صادف تربة خصبة[1] .

ولم يكن الإغريق مثاليين في الحكم ، ومع ذلك فإننا قلما نراهم يؤثرون على أنفسهم أحداً غير أبنائهم وقلما نراهم يشعرون بوخز الضمير أو يفكرون قط في أن يحبوا جيرانهم كما يحبون أنفسهم . ولقد كان أولئك الذين هذبهم الدهر وحنكتهم الأيام في مصر وفارس والصين وبابل أرقى كثير من اليونان من هذه الناحية على الأقل . لقد فاقهم اليونان كثيراً في التنظيم السياسي وأساليب الحكم والفكر ، ولكنهم كانوا دونهم في النواحي الإنسانية في بعض مراحل تاريخهم على الأقل ، ومع ذلك فقد كان كرم الضيافة من فضائل الأثينيين البارزة. فإذا جاء الغريب بخطابٍ من أحد الأثينيين إلى أحد الأثينيين قدم له هذا الأخير الطعام والمأوى وربما أتحفه ببعض الهدايا عند رحيله . وكان من حق الضيف المدعو إلى طعام أن يصطحب معه ضيفاً آخر . وهناك حالات شاذة من الغدر بالجندي الجريح الذي تخلى عنه رفاقه وسرقوا سلاحه ، منتهزين غفوته وهم في نفس الوقت يبدون له العطف . وكان الناس يضجون بالشكوى من أن بائع الأشتات الأثيني يغش بضاعته ويُخْسِرُ الكيل والميزان ، ويُنقص ما بقي للمشتري من نقود على الرغم من المحتسب (أو مفتش الحكومة)، ويكذب كلما سنحت له الفرصة ، ولم يكن رجال السياسة خيراً من هؤلاء . فلا تكاد ترى رجلاً ذا شأن في الحياة الأثينية العامة لم يُتهم بالإلتواء ، وإذا وُجد فيهم رجل شريف مثل أرستيديس Aristide الذي يُلَقَّب بالعادل ، عُدَّ من الخوارق وعجائب الطبيعة . . . وحتى لقد عجز ديوجينوس Diogène بمصباحه المشهور الذي يسير به في رابعة النهار عن أن يعثر على رجلٍ آخر شريف . لقد كان الناس أحرص على أن يوصفوا بالحذق والمهارة من أن يوصفوا

(١) الفرد زيمَّرن : الحياة العامة اليونانية ، صفحة ٢٥٦ ـ ٢٦١ .

بالأمانة ، بل إنهم يظنون أن الأمانة تدل على السذاجة . ولم تكن بلاد اليونان تخلو من رجال يخونون وطنهم . وكانت الرشوة هي السبيل المألوفة للرقي والتقلب في مناصب الدولة والفرار من العقوبة ، كما يحصل اليوم في أروقة العواصم الغربية فضلاً عن عواصم الشرق المتخلف . لقد كانت الأخلاق قَبَلية حتى في عصر برقليس ، أي تقوم على كراهية الأجنبي . وينصح أكسينوفون بالإلتجاء الصريح إلى الكذب والسرقة في معاملة أعداء البلاد . فقد حصل برقليس ـ والعهدة على الراوي ـ على مبالغ طائلة من المال لإجازة بعض الصفقات السرية . ويُنسب إلى اليونان الكثير من الأخلاق السفسطائية التي تُنادي بتمجيد القوة وانتهاز الفرصة . ولا يستبعد ول ديورانت الذي هو عمدتنا في هذه المعلومات أن تكون هذه الأخلاق السفسطائية المنسوبة إلى اليونان من نسج خيال ثوقيديديس الفلسفي أثارتها فيه أقوال السفسطائيين الساخرة . ولذلك فإن الحكم على اليونان من أخلاق غورجياس وأثراسياخوس التي تخالف العرف المألوف قد لا تخلو من التجني . ومهما يكن حكمنا على اليونان فلعلهم لا يختلفون عنا إلا في صراحتهم لا في سلوكهم . فإن تفوقنا عليهم في النفاق يجعلنا نستنكف أن ندعو جهرة إلى ما نفعل[1] .

والحق، إن الأثيني العادي قد لا يقل دهاء عن الشرقي ، ولا شغفاً بالجد عن الأميركي ، وهو متشوف طُلَّعة يحب الحركة والإنفعال ، أهم صفاته الجرأة والمرح والقدرة على الإحتمال . وآراؤه صلبة ثابتة ، وهو محب للحقيقة لا يغادر أي مسألة في أحاديثه أو مطارحاته دون أن يناقشها ويجادل فيها . وهو لا يرى أي خطيئة في ملاذ الجسد ، ولا يعتقد أن تنكب طريق الفضيلة كارثة محققة ، ولكنه يعلم أن العاطفة التي لا تخضع للعقل تدمر صاحبها كما تدمر المجتمع كله . وهو مولع بالشراب ، ولكنه يضيف إليه الكثير من الماء ، ويرى أن تكرار السُكْر لا يليق بصاحب الذوق السليم . وهو كثير اللجاج والمساومة في البيع والشراء كالشرقيين . وهو متناقض كثير التقلب في عواطفه ينتقل من الضد إلى الضد . إنه ليس على جانب كبير من الدماثة والرقة والحنو ، فتراه يشفق على الحيوان ويقسو على الإنسان ، وينام ملء جفنيه بعد أن يذبح وقبيله جميع مَنْ في المدينة من المدنيين غير المحاربين . وهو مع ذلك يكرم العاجز والفقير والمسكين وابن

---

(١) ول ديورانت : قصة الحضارة ٧ / ٩٣-٩٦ .

السبيل . فإنه عندما علمت الجمعية أن حفيدة أرسطوجيتون Aristogeiton قاتل الطغاة تعيش في لمنوس فقيرة معدمة لا تملك شروى نقير ، هبَّت لنجدتها فأمدتها بالمال ليكون لها بائنة ولتحصل على زوج . وكان المظلومون والمضطهدون في المدن الأخرى يجدون في أثينا الملجأ والموئل والحمى والحماية.

والأثيني أيضاً مشاكس معاند مقاتل من الطراز الأول . فإنه عندما عمت المساواة بين الناس على أثر الثورات والإنقلابات المتعاقبة ، ولم يبقَ هناك مبرر للقتال من أجل المبادىء والحقوق، أخذ الناس يحاربون بعضهم بعضاً من أجل المكاسب والمنافع ، ودخلوا في دوامة مستمرة من المنازعات المثيرة للأذى . وإذا لم يجدوا من يقاتلونه ولم يتمكنوا من مقاتلة غيرهم من الأمم ، اقتتلوا فيما بينهم حتى تسيل الدماء انهاراً . إنهم لا يتحدون إلا عندما يتهددهم عدو خارجي ، فإذا زال الخطر ووضعت الحرب أوزارها انقلبوا ذئاباً ضارية ينهش بعضُها بعضاً .

وهم لا يجدون حرجاً في أي اتصال جنسي شاذ . فقد كان عشق الغلمان واسع الإنتشار في المدينة ، وكان أكبر من ينافس العاهرات في أثينا هم الغلمان . وكانت العاهرات اللواتي يجللهن العار من قمة رؤوسهن إلى أخمص أقدامهن لا يفتأن ينددن بما في عشق الذكور للذكور من فسادٍ خلقي شنيع . لقد كان للغلمان سوق رائجة في المدينة ، فكان التجار يستوردون الغلمان المتفوقين في الجمال لزبائن مخصوصين يقدرون هذا الجمال حق قدره ، ويدفعون في سبيله أجوراً عالية . فلا يعرف الفضل إلا ذووه ومن ذاق عرف !! هكذا كان لسان حال القوم !!! وكانت هذه العادة متفشية في أكثر بلاد اليونان وليست مقصورة على أثينا وحدها ، بل إن أهل طيبة يرون أنها معين لا ينضب للشجاعة وحُسن النظام العسكري . وكان القبيادس الذي كان موضع إعجاب سقراط وصديقه الأثير ، أحب الناس إلى الشعب الأثيني ، وكان يفاخر بكثرة من عشقه من الرجال ، من غير أن يعني ذلك أنه كانت بينه وبين سقراط علاقات جنسية شاذة . وإذا تكلم أفلاطون في (الفدروس) Phèdre على الحب الإنساني فإنما كان يعني حب الغلمان . ويتفق المعلقون على محاوراته على أن حب الرجل للرجل أنبل وأكثر روحانية من حب الرجل للمرأة . وهذا الشذوذ نفسه كان منتشراً بكثرة بين العاهرات ، فتراهن يعشق بعضُهن بعضاً أكثر من عشقهن لأخدانهن[١] . بل إنا

---

(١) المصدر السابق، صفحة ١٠٠ ـ ١٠١ .

لنرى هذا الشذوذ أيضاً بين الحرائر ونراه أحياناً بين أرقاهن مثل صوفو Sopho التي كانت ـ على حد قول الشاعر الفرنسي المشهور بودلير ـ « الشاعرة العاشقة لتلميذاتها »[1] . ولعل من أهم أسباب انتشار الشذوذ الجنسي في بلاد اليونان عزلة المرأة الحرة وبقاءَها في ظلمة الحريم حيث كانت تقضي المحصنات الغافلات حياتهن .

لقد كانت أسبرطة في العصر الذي نتحدث عنه تعبد القوة وتدين بالقوة ولا تؤمن بغير القوة ، وأمرها معروف في ذلك ، وكانت لها الدولة والصولة كأثينا . وكم حكمت بلاد اليونان وكانت من أسباب خرابها !! أما اليوم فهي قرية صغيرة لا يزيد سكانها على أربعة آلاف . وقد ذهبت بها عبادتها للقوة مذهباً شططاً يذكرنا بعادة الاستبضاع التي كانت منتشرة بين العرب الجاهليين قبل الإسلام : فكان الأزواج يرسلون بزوجاتهم ألى رجالٍ أولي بأس وقوة شديدَيْن يستبضعنهم لإنجاب الأطفال الأقوياء . وكان يُنتظَر من الأزواج الذين أنهكهم المرض وأصيبوا بالعجز الجنسي أن يَدْعوا الشبان ليعينوهم على تكوين أسرٍ قوية ! ويقول أفلوطرخس : إن ليقورغوس صاحب أسبرطة كان يسخر من الغيرة ومن احتكار الأزواج ويقول إن من أسخف الأشياء أن يعنى الناس بكلابهم وخيلهم ويصرفوا غاية الجهد والوكد ليحصلوا منها على سلالاتٍ جيدة ، ثم تراهم بعد ذلك يتركون زوجاتهم في زوايا البيوت ليختصوا بهن في إنجاب الأولاد . وقد يكون هؤلاء الآباء مرضى معلولين ضعفاء الأبدان أو ناقصي العقول » . والأقدمون كلهم مجمعون على أن الذكور من الأسبرطيين كانوا أصح أجساماً وأجمل وجوهاً من سائر رجال اليونان ، وكذلك نساؤهم يتفوقن على جميع نساء اليونان في الصحة والجمال[2] ، فقد كانت صحة الجسم من الفضائل الرئيسة في إسبرطة كما كان المرض جريمة فيها . لقد أنجبت إسبرطة جنوداً بواسل ولا شيء غير الجنود ، فهي لم تستطع في حياتها إنجاب فيلسوفٍ واحد ، رغم كثرة المدن اليونانية التي شاركت أثينا في الإنتاج الفلسفي . لقد كان كثير من اليونانيين يميلون إلى تمجيد نظام إسبرطة وشرائعها بعد أن ملوا ما في الديمقراطية من انحطاطٍ وفوضى . بل لقد وجد فيها أفلاطون الخطوط الرئيسة لمدينته

(١) المصدر السابق، صفحة ١٠٨ ـ ١٠٩ .
(٢) ول ديورانت : قصة الحضارة ٦٥ / ١٥٤ .

الفاضلة . ولكن هؤلاء المعجبين بأسبرطة لا بد أن يصطدموا بما في أخلاق أهلها من أنانية وبرود وقسوة . لقد كان أكبر همها الجسم وقوة الجسم حتى جعلت منه قوة وحشية مرذولة . لقد قضت على الكفاءات العقلية كلها تقريباً ، ولذلك أصاب الموت فيها جميع الفنون ، فلا نسمع عن شعراء أو نحاتين أو بنّائين في إسبرطة ، ولم يبقَ فيها إلا الرقص الجماعي والموسيقى لأن فيهما يمكن أن يتجلى النظام الإسبرطي وأن يختفي الفرد ويضيع في المجموع[1] .

عادة التخلص من المولود الجديد

وإذا وُلد مولود في بلاد اليونان فطبقاً للعادة المتبعة كان يتوقف على حكم أبيه ما إذا كان ينبغي أن يعيش أو لا . وقد ظل ذلك معمولاً به حتى القرن الربع على الأقل . وفي اليوم الخامس يقدَّم المولود للأسرة حيث يُحتفل بقبوله فيها . وكان في وسع الأب أن يُعرِّض طفله للموت بحجة أنه يشك في صحة انتسابه إليه أو أنه ضعيف أو مشوه أو لأسبابٍ سياسية واقتصادية أو لغير ذلك من الأعذار . وكانت البنات أكثر تعرضاً للموت من البنين ، لأن البنت يجب إعداد بائنة لها ولأنها إذا تزوجت انتقلت من بيت الذين ربوها ومن خدمتهم إلى خدمة من لم يكن لهم يدفي تربيتها . وكان حق الآباء في تعريض أولادهم للموت سبباً في غلظة قلوب اليونان ؛ لكنه كان أيضاً من الوسائل التي جعلت اليونان شعباً سليماً قوياً . ومهما تكن أسباب هذا الإجراء ونتائجه فإنه إذا ما تقرر التخلص من الوليد الجديد وُضع في مهد أو قِدر أو جرة في مكانٍ عام أو عند مدخل معبد أو كهف مقدس عسى أن يلتقطه بعض السيَّارة . والأثيني يفعل ذلك من أجل مدينته وأطفاله الآخرين . وكان أفلاطون ينصح بتعريض جميع الأطفال للجو القاسي ولا سيما أولئك الذين يولدون ضعفاء أو لآباء طاعنين في السن . كما أن أرسطو يدافع عن الإجهاض ويرى أنه أفضل من قتل الأطفال بعد أن يُولدوا . فإذا كان هذا هو حال الأولاد الأحرار فما ظنك بأولاد الرقيق الذين قلما كان يُسمح لهم بحق الحياة . فشراء العبد أسهل من تربيته كما يقول المثل . والدافع إلى ذلك هو دافع بيولوجي فضلاً عن الدافع السياسي والإقتصادي . فالمهم في الأولاد الكيف لا الكم ، ومن النادر جداً أن يجتمع الكم والكيف في أسرة واحدة . ولذلك يقول أيزوقراطس في مرثيةٍ له : « إنه لشيء نادر وصعب أن

---

(١) المصدر السابق، صفحة ١٦٢ ـ ١٦٣ .

يكون للإنسان عائلة كبيرة تكون في نفس الوقت عائلة نابهة ، يجب أن يكون الأطفال جميعاً صحيحي الأبدان والعقول ليكونوا جديرين بمدينتهم التي سيكونون مواطنين فيها ، بل جديرين بالجنس اليوناني كله . وبهذه الطريقة لا يبقى ـ بزعمهم ـ إلا الجديرون بالبقاء ويهلك مَنْ دونهم(١) .

هناك اعتقاد شائع رأينا بعض ملامحه ينسب عظمة اليونان وما يكمن فيهم من قوى وقدرات وميزات ومواهب إلى صرامتهم في طريقة تحسين النسل التي اتبعوها بضغط الظروف الإقتصادية القاسية التي كانوا يعانون منها . أي إن اليونان عامة وأثينا خاصة استطاعت ـ بطريق الإنتخاب الصناعي ا اللاشعوري إلى حدٍ ما ـ أن تنشيء سلالة رائعة من « الحيوانات البشرية » فاقت أمثالها في جميع العصور . . . إن هذا الإعتقاد هو في نظري اعتقاد خاطىء لا أساس له من الحقيقة . إنه قد يلقي بصيصاً من الضوء على بعض جوانب المشكلة ولكنه لا يفسر المشكلة كلها . لأن الذين تخلص منهم آباؤهم لم يكونوا كلهم من المرضى والمشوهين . لقد تخلصوا منهم بسائق الفقر والحاجة لا بميزان علمي دقيق . ثم إن الفقراء وحدهم هم الذين تخلصوا من أبنائهم دون الأغنياء ، والفقر لا يعني المرض والسقم . بل إن عظماء التاريخ قد خرج أكثرهم من صفوف الفقراء لا من قصور الأغنياء . ولا أستبعد أبداً أن يكون بين هؤلاء الذين تخلص منهم ذووهم الفيلسوف والباحث والعالِم والشاعر والفنان ، لكن الفقر كان أقوى من الفلسفة والعلم والأدب والفن،فانتزعهم من بين أهلهم وألقى بهم في ظلمات القبور لا لجناية جنوها بل لدريهات لم يستطع آباؤهم جنيها . لقد أطفأ الفقرُ مشاعل كانت كفيلة أن تضيء كل ظلمةِ ونشر الظلامَ فوق طبقاتٍ من الظلمة . وهكذا حُرم الآباء فلذات أكبادهم وحُرمت أثينا من كان قميناً أن يمنحها المزيد من الثروة العقلية والعطاء الروحي . وفي ذلك خسارة لا لأثينا وحدها بل للإنسانية جمعاء ، لأن عطاء أثينا كانت له دائماً أبعاده العالمية . فكل ثروة لأثينا كانت أيضاً ثروة للعالم وكذلك الذين فقدتهم لم يكن فقدهم مقصوراً عليها وحدها . لقد تغلبت الموهبة على الفقر في حالة واحدة على الأقل وهي حالة سقراط الذي كان أبوه

---

(١) الفرد زيمّرن : الحياة العامة اليونانية صفحة ٣٩٨ ـ ٤٠١ انظر الحاشية أيضاً و ول ديورانت : قصة الحضارة ٧ / ٨٠ ـ
(٢) انظر الفرد زيمّرن : الحياة العامة اليونانية صفحة ٥٣١ وما بعدها .

أعقل من أن يلقي به على قارعة الطريق ، فكان في ذلك كسب لا لأثينا فقط بل كسب للعالم كله . فكم من سقراط غيَّب الفقرُ في أثينا ! وكم من سقراط أفقد الفقرُ أثينا ! وكم من أحمق عاش فكان عبئاً على أثينا بل كان فيه خراب أثينا ؟! لم يذكر التاريخ ـ على كثرة ما ذكر عن أثينا ـ أن الأغنياء كانوا يُفرِّطون في أبنائهم ، بل على العكس لقد استبقوهم سفهاء كانوا أو أصحاء .

هذا وقد تُتهم السَّيْكوسوسيوديناميكا بأنها نظرية مقفلة متشائمة على غرار غيرها من النظريات السابقة التي تبحث نشوء الحضارات وإنهيارها . وماذا في ذلك إذا كانت الأمم والحضارات تشع وتشع ثم ينطفىء السراج ؟ فهل الذنب في ذلك ذنب النظرية التي تفسر نشوء الحضارات والأمم ، أم ذنب الحضارات والأمم التي لها أعمار كما للبشر أعمار »كما يقول ابن خلدون ؟ ومع ذلك فإن القول بأن السَّيْكوسوسيوديناميكا نظرية مقفلة ليس دقيقاً بل هي نظرية مفتوحة بمعنى من المعاني. فالحضارات لا تنقفل لأنها لا تسير في دائرة مغلقة . إنها إنَّما تسير في خط لولبي مفتوح يخلق لها منافذ لإشعاع الضوء . فالحضارة ـ أي حضارة ـ منذ أن تنشأ وقبل أن ينتهي أجَلها بزمن طويل لا تفتأ تنطلق منها اقباس تبحث عن مكان مظلم يطلب ضوءاً . وأكثر هذه الأقباس تذهب هدراً ككل شيء في الطبيعة . وأخيراً يحط الضوء على بقعة مباركة صغيرة من الأرض . لقد وجد ضالته المنشودة . ويبزغ الضوء في هذه البقعة ويهزم جنود الظلام . وهكذا ينحسر الظلام ويملأ الضوء كل أفق . ثم يصبح البدر هلالاً ، فلكل مَشْرِق غرب ، لقد قل إنتاج الضوء حتى لم يبقَ ضوء . فلا يزال القمر يتقلب في المنازل حتى يعود كالعرجون القديم . فلا عليه بعد ذلك أن يصبح محاقاً وينطفىء ما دامت له مدخرات من الضوء في الخارج . فمهما كان الهدر كبيراً فقد بقيت حبات من الضوء تكشح الدياجير وتفري الظلمات كأنها كواكب درية يهتدي بها الناس في البر والبحر ، أو أنداء الغمام تجود بها الطبيعة على أرضٍ قفر فتترك وراءها الخضرة والنضرة والسقيا لقومٍ غراث جياع عطاش بائسين . هذه الحبات هي التي تكسر الدائرة وتملؤها بالخروق والمنافذ . الحركة اللولبية لها بداية ولها نهاية ولكن الدائرة لا بداية لها ولا نهاية . وكذلك الأمم وجميع الكائنات الحية لها بداية ولها نهاية ، ولا ينكر ذلك عاقل . ومهما كان في هذا القول من تشاؤم فإنّه لا يغير شيئاً في الحقيقة الموضوعية التي لا يجحدها إلاّ مجادل مكابر لا يصدع بالحقّ ولو فقأ عينيه الحق !!

وكأني بك تقول : ماذا دهاك يا أخا العرب ؟ لقد ارتفعت بالإغريق حتى بلغت بهم أعلى عليين ، ثمّ إذا بك تهوي بهم إلى أسفل سافلين ! إنّك لم تترك مديحاً دون أن تكيله لهم ، ثمّ لم تغادر مذمة دون أن تلصقها بهم . تالله لقد أصبحنا في حيرة من أمرك وأمر الإغريق معك . فليتك تستقر على قرار حاسم وتقطع في هذه المسألة برأي ، فتريح عندئذ وتستريح ! فهل أنت فاعل ؟ .

والحق انّه اعتراض في محله ، مجموعة من التناقضات نلتقيها في الأخلاق اليونانية يرجع بعضها إلى إختلاف مفهوم الأخلاق عند اليونانيين القدماءعن أخلاق القرون الوسطى والعصر الحديث . ويرجع بعضها أيضاً إلى تشابك الأخلاق والسياسة ، وتداخلها عندهم تداخلاً شديداً ، كما يرجع أخيراً إلى تطور الأخلاق اليونانية نفسها واختلافها بإختلاف المرحلة التاريخية . فالأخلاق في القرن الخامس غيرها في القرون السابقة أو اللاحقة ، فأخلاق عصور الإزدهار تختلف بطبعة الحال عنها في عصور الإنحطاط .

إنّ أول مفتاح لفتح مغاليق الأخلاق اليونانية هو في نظري أن نفرق في الأثيني (أو الإغريقي عامة) بين الأثيني في حياته الخاصة والأثيني في حياته العامة ، أو بين الأثيني وهو يعمل لنفسه والأثيني وهو يعمل للمدينة . فهو بقدر ما يترخّص فيها له نراه يتشدد فيها للدولة . وبعبارة أخرى ، أن الفرد في أثينا لم يكن لنفسه بقدر ما كان للبولص . إنّه يضحي بنفسه في سبيل المدينة لا العكس . هذه سمة أساسية في أخلاق اليونان عامة والأثينيين خاصة . إنّه لنفسه في حدود ما يتبقى له بعد أن تأخذ الدولة حصتها منه . في هذا الباقي تتجلى حريته ، وما عدا ذلك فلا حرية له . فهو مثلاً ليس حراً في شتم آلهة المدينة أو انتقادها ، هذا شيء لا يُمسّ لأنّه قدس الأقداس . لقد وُجهت هذه التهمة إلى سقراط وكلنا نعلم ماذا كانت النتيجة . لقد طغت المدينة على تفكير الأثيني حتى لكادينيسي ذاته ، وإنْ كان ذلك لا يخلو من الشواذ ككل شأن إنساني .

في هذه الفسحة التي تبقت لليوناني بعد استيفاء الدولة حصتها منه كاملة تتجلى الأخلاق اليونانية بكل وضوحها وأصالتها . فالأثيني لم يكن يفكر في الأخلاق كما نفكر فيها نحن الآن . فهو لا يهتمّ بالضمير والواجب والعمل

الصالح ، إنه إنّما يهتم بالحياة الكاملة ، لا بمعنى الكمال الأخلاقي المثالي ، بل بمعنى الكمال المادي الدنيوي أو الأريتة . فالحياة الكاملة عنده هي الحياة المليئة بالصحة والقوة والجمال والإنفعال والمغامرة والتفكير وما إلى ذلك من المظاهر الإيجابية التي تؤكد قيمة الفرد وتفوقه وكرامته، تلك هي أخلاق الأريتيه التي أطلنا المقال فيها والتي أكاد أقول أنّها أخلاق المنفعة والغرور وحب الظهور . . . وليس في ذلك ما يمسّ مصالح المدينة أو يتهدد وجودها في قليل أو كثير . . . لقد خفر لها بكل عهد ، ولم ينقض لها ميثاقاً ، ومحضها كل حب ومودة ، فلا عليه بعد ذلك أن يلتفت إلى حظوظ نفسه ويسارع في هواه في حدود المعقول والمقبول والمنقول .

الخاتمة

كانت الديانة هي القوة الحية الوحيدة التي كانت تحكم في عصور اليونان الأولى ، لا شيء فوقها ولا شيء تحتها . شبكة معقدة من العلاقات والإرتباطات والقيود الدقيقة الصارمة كانت تشد البشر والآلهة بعضهم إلى بعض وتضيّق الخناق عليهم ، وكان صراع الآلهة بعضهم مع بعض يزيد هذه الروابط تعقيداً وصعوبة ، ويضيف إليها مسؤوليات وواجبات تزيدها حدة . لقد كان الإنسان في كل لحظة مهدداً في شخصه وعياله ورزقه ، وكان سيف الآلهة مصلتاً فوق رأسه لا تأخذه به رحمة أو هوادة . فكانت كل مدينة تنتظر سلامتها من آلهتها ، وكان بهذه الآلهة نهمٌ شديد للقرابين . فكانوا يغدقونها عليها شريطة أن تسهر على سلامة المدينة .

كانت الدولة مرتبطة بالديانة ارتباطاً عضوياً وثيقاً ، فهي قد أتت منها وكانت ممتزجة بها . لهذا كانت الأنظمة السياسية في الأنظمة البدائية القديمة أنظمة دينية ، إذ لمّا يكن ثم فصل بين الدين والسياسة . فقد كانت الأعياد احتفالات للعبادة ، والقوانين صيغاً مقدسة ، والملوك ورجال الدولة كهنة . وقد بقيت الدولة محدودة بحدود البلدة ولم تستطع أن تتخطى النطاق الذي رسمه آلهتها القوميون في الأصل . إنّ كل مدينة لم تكن فقط تتمتع بإستقلالها السياسي والإقتصادي ، بل كانت لها أيضاً عبادتها ومجموعة قوانينها .

ولم تكن قيمة القانون القديم مستمدة من المبدأ الخلقي المستكن فيه ، بل

في الكلمات المقدسة التي تشتمل عليها صيغته ، إذ لم تكن فكرة الحق عند القدماء لتنفصل عن استعمال بعض الألفاظ المقدسة . فالملزم للإنسان في هذا الشرع العتيق لم يكن الضمير ولا الشعور بالعدالة ، بل العبارة المقدسة . ولا غرو في ذلك ، فالشرع كان ديانة ، والقانون نصاً مقدساً ، والعدالة مجموعة شعائر كما فصّلنا القول من قبل .

ولم يكن يكفي أن يسكن الإنسان مدينة لكي يخضع لقوانينها ويحتمي فيها . هيهات ! بل لا بد أن يكون من مواطنيها . ولم يكن القانون موجوداً بالنسبة إلى العبدكما لم يكن موجوداً أيضاً بالنسبة إلى الأجنبي . وهذا كله مرتبط بعضه ببعض ارتباطاً منطقياً ، لأنّ القانون لم يولد من فكرة العدالة ، ومن أنه بالتالي شيء من اختصاص الإنسان ، وإنّما هو وليد الديانة ، ولم يكن من الممكن تصوره خارجها . فلكي توجد صلة حق بين رجلين كان لا بد أن تقوم بينهما صلة دينية ، أي أن يشتركا في عبادة واحدة ويقدما قرابين واحدة . لذلك لم يكن للأجنبي أو العبد نصيب في ديانة المدينة . فالمواطن هو من له نصيب في عبادة المدينة ، ومن هنا يستمد جميع حقوقه المدنية والسياسية .

وبعد اصلاحات صولون والتجديدات التي أدخلها على تشريع دراقون فقد تغير كل شيء . لقد جاءت نتيجة ثورة اجتماعية ، ولذلك فهي تريد أن تكون مسايرة لها وتلبي حاجاتها . لقد ابتعدت عن الشرع العتيق في عدة نقاط وإنْ ظلّت وفيّة له في نقاط أخرى . وهكذا بدأ الشرع الطبيعي يتكلم لأول مرة بصوت يضارع في ارتفاعه - إن لم يكن يفوق - صوت الديانة القديمة . فالمجتمع الجديد قد وُلد له شرع جديد . لقد كانت الثورة التي قلبت سيادة الصفة الكهنونية وقلّمت أظافرها ورفعت الطبقة الدنيا إلى مستويات لم كن لتحلم بها ، بداية فترة جديدة في تاريخ الحياة السياسية والإجتماعية والعقلية ، إذ لم يقتصر الأمر على احلال طبقة محل أخرى في السلطة أو مشاركتها فيها ، بل إنّ المبادىء القديمة نفسها قد تزعزع كيانها وأوشكت مبادئء جديدة أن تحكم المجتمع الجديد . نحن لا ننكر أن المدينة قد حافظت على الأشكال الخارجية التي كانت لها في العصر السالف ، لكن هذا أمر طبيعي . فمن المألوف في عادة الإنسان عندما ينبذ أنظمة قديمة أن يرغب في المحافظة على مظاهرها على الأقل .

لقد كانت الأنظمة والشرائع القديمة حقائق مطلقة ، وأمّا الآن فيجب أن

تهبط من عليائها وتكون مرنة متغيرة أي نسبية . فليست أوامر المصلحة العامة مطلقة ولا واضحة ولا جلية كأوامر الديانة سابقاً ، بل يجب أن تكون قابلة للنقاش والبحث والمطارحة والتمحيص ، ولا يكون ذلك إلّا بجمع الناس واستبشارتهم وتبادل الرأي معهم في المجالس والندوات العامة والخاصة . في زمن مضى وانقضى كان رأي الكاهن أو الملك أو الحاكم المقدّس هو القانون ، ولم يكن أحد يجرؤ على تغييره ، وأمّا الآن فإنّ أخذ رأي الجميع والتصويت عليه للتأكد من معرفة مصلحة الجميع هو القانون . لقد تغيّر الحكم والحكومة وقاعدة الحكم . إنّه لن يُطلب منذ الآن معرفة رأي الآلهة ، وإنّما المطلوب الأول معرفة رأي الشعب . تقدم في أثر تقدم يعقبه تقدم مع انتكاسات وكبوات بين تقدم وتقدم . إنّ الحكومة لم تعد وظيفتها الجوهرية القيام على الشعائر والطقوس والمناسك ، لقد أصبحت وظيفتها المحافظة على النظام والأمن في الداخل ، والكرامة والسلطة في الخارج . لقد كانت الديانة تتقدم على السياسة ، وأماّ الآن فإنّ السياسة تتقدم على الديانة وسيكون لها الأولوية والصدارة . لقد اصبحت حكومة البشر على الأرض بعد أن كانت في السماء . لقد أصبحت حكومة انسانية بعد أن كانت حكومة إلهية . لقد بدأت تعترف بالإنسان سيداً للسلطة ، بعد أن كان ذيلاً لها . ونشأت مناصب جديدة أو على الأقل اتخذت المناصب القديمة صوراً جديدة . فقد كان الرؤساء كهنة وكانت العناية بالقضاء والإدارة والحرب مقصورة عليهم أو تكاد . وعندما خفت وطأة الدين في أثينا القديمة ، قام بجوار الرئيس حكام آخرون كانوا بطبيعة وظائفهم أكثر موافقة لحاجات العصر . لقد انفصلت الحكومة عن الديانة أو كادت ، وأخذت المسافة تتسع بينهما يوماً بعد يوم . لن ترتبط المدينة بعد الآن بما كانوا يزعمون أنّه إرادة الآلهة ، كما لم يعد الورع والتُقى هو الفضيلة الرئيسية ، بل تشبثت هذه المدينة بأن تكون حرة في اختيار رؤسائها ، وأصبحت المهارة والكياسة والإقدام صفات ضرورية للمواطن . لقد خرج الإنتخاب من أيدي الآلهة وزبانيتهم على الأرض وانتقل إلى أيدي الشعب وأصبح حقاً من حقوقه .

ثورات متلاحقة نشبت بعضها في إثر بعض وإشتعل بعضها بنار بعض ، وهكذا أخذت الأنظمة تتصدع وتنهار الواحد بعد الآخر . تغيرات كبيرة بدأت تحدث في صميم الفكر اليوناني . وازداد الذهن قوة وازداد حدة ولم تكن المعتقدات القديمة مما يسهل إنتزاعه من أذهان العامة بل ظلت تهيمن عليهم زمناً طويلاً .

وعلى مشارف القرن الخامس قبل الميلاد أو قبل ذلك بقليل شهدت بلاد اليونان بداية النهاية . ثورة جديدة نشبت في الأذهان أعقبت الثورات القديمة ، أو قل هو فجر جديد بزغ ولكنه فجر كاذب . وهو كاذب لأنّ الفجر الصادق يعقبه النهار ، ولا نهار بعد الآن لليونان إنما ينتظرها ليل طويل لا قيام لها منه . لقد ولّى الفجر الصادق وولى معه النهار وولت الأمجاد والعظائم . دورة كاملة من الزمان إنتهت في بلاد اليونان وبدأت دورة جديدة لم تُستكمل إلاّ خارج بلاد اليونان ، في بلاد العروبة والإسلام أولاً ثمّ في أوروبا ثانياً . لقد كان الجميع عيالاً على اليونان ثم تخطى الجميع أساتذتهم اليونان . لقد استلهموا جميعاً شآبيب علوم اليونان ثم راحوا كلٌ يعمل على شاكلته ونُصب عينيه مكاسب اليونان وإنجازات اليونان . لقد كان عصر برقليس نهاية المطاف ومسك الختام :

لكل شيءٍ إذا ما تم نقصان   فلا يُغر بطيبِ العيش إنسان

فبوفاة برقليس تغيرت الروح اليونانية تغيراً كاملاً أو تكاد . فالتكامل والتعاضد والشجاعة والإقدام و . . . أمور لم تعد جزءاً من حياة اليونان ، وقل إهتمام الناس بالضعفاء والذود عن المظلومين والمكلومين بغير ذلك من مفاخر الأمبراطورية القديمة ، وأخذوا منذ الآن يسلكون طريقاً غير الطريق الذين كانوا يسلكون . فلن يأبهوا بعد اليوم لأمر القواعد الخلقية ـ إلاّ من رحم ربك ، وقليل ما هم كسقراط مثلاً ! ـ ولن يأخذوا أنفسهم بالمعاني السامية التي كانوا يأخذونها بها من قبل . وسواء كانوا حكماء أو حمقى ، فقد ساروا تبعاً لما تقضي به الظروف وما تمليه المصالح وحدها . لقد فقدت أثينا انسانيتها ولكنها ظلّت تحتفظ ببعض بصيرتها العملية في الحياة وما فيها من التزامات ومُثل ، واتسعت المدارك العقلية والفلسفات الخلقية وروح التحذلق والنظر واستكناه حقائق الأشياء .

لقد اشرأب النظر على أنقاض العمل ، وتدافعت أمواج الفكر بعد أن سكنت رياح الضمير . فقواعد السلوك غير سيرورة التفكير . إنّ التفكير ينتج قواعد السلوك ثمّ السلوك يحفز على التفكير ، ولكن السلوك لا يُلبي دائماً موحيات التفكير . السلوك تفكير متحرك ، والتفكير سلوك متحير ، وكلاهما ـ التفكير والسلوك ـ وجهان لعملة واحدة ، رغم اختلاف الوجه عن الوجه . لقد مضى ربيع الفكر اليوناني إلى غير رجعة بانقضاء عصر برقليس ، فلا تغرّنك المذاهب والمدارس بعد ذلك . إنها أوراق الخريف تسّاقط قبل حلول الشتاء والبرد

القارس . ولكن ذلك لا يضير الفلسفة اليونانية في شيء ، فإننا لم نعهد خريفاً في عطاء خريف اليونان ، كلا ولا شتاءً مدراً كشتاء اليونان . وترى أثينا تحسبها جامدة ، وهي تجيش بالنبض والحركة . فإنها حتى وهي في النزع الأخير يظن رائيها أنها في شرخ الشباب . إنها تبهرك حتى وهي في سكرات الموت ، بينما الآخرون لا تحس بهم وهم في عز الحياة . تحسبهم ايقاظاً وهم رقود ، لو أطلعت عليهم لوليتَ منهم فراراً ولملئتَ منهم رعباً ! فشتان بين موت وموت أو بين حياة وحياة ، بين موت لا يزال ينبض بالحياة ، وموتٍ أمات قبل حلول المهات ،حتى لقد تشابه الأمر على كثير من الدارسين فحسبوا الرحيل قدوماً والوداع إقبالاً ! أرأيتَ إلى أصالة أثينا ، وإلى مناط العظمة في دولة المدينة أثينا ؟!

إن تاريخ الأخلاق من تاريخ الفلسفة ، فمن أشكل عليه شيء في أولهما فليعمد إلى ثانيهماالينقب فيه ويستقصي فلعله واجدٌ فيه ضالتَه . فإن تاريخ الفلسفة زاخرٌ بصورٍ حية من التفكير الخُلقي كهيئة البذور أولاً ، وكلما اقتربنا من العصر اليوناني الكلاسيكي أخذت هذه البذور في النمو والرُّبُوّ . حتى إذا وصلنا إلى سقراط وتقدمنا نحو أفلاطون وأرسطو رأينا البذرة شجرة باسقة أو تكاد . الأخلاق تُعنى بالجانب السلوكي الإنساني في وجودنا وأما الفلسفة فأكبر همها استيعاب الجانب الكوني الميتافيزيقي منه ، وإن كان الجانبان متداخلين في مراحل التفكير الأولى عندما كان الدين والأسطورة والفكر والقول والعمل شيئاً واحداً . الأخلاق في نظري كشذور الذهب في منجم كبير يختلط فيه التراب بركاز المعادن المختلفة ، أو في بحر لُجيّ مليء بالشوارد المعدنية . وما على الباحث في هذه الحالة إلا أن يركب البحور ليغوص على الشذور ! .

فقد اتخذ التفكير الخلقي صورته العلمية الأولى على أيدي قلة نادرة من الفلاسفة السابقين على سقراط بعد أن خرج من طور النفحات الدينية الأسطورية العطرة ، كما في بلاد اليونان أيضاً سيتطور وينضج . ومن الحق أن يُقال إن الفلسفة الخلقية في بلاد اليونان لم تكن فجائية . إنها لم تبدأ من فراغٍ غير مسبوقٍ بمقدمات يُسلم إليه . فإن الحِكَم والأمثال المتناثرة هنا وهناك فيما وصل إلينا عن هذا الفيلسوف أو ذاك ستكون لها آثارٌ واضحة في التفكير الخلقي الحقيقي الذي بدأ بالسفسطائيين وسقراط وأفلاطون وأرسطو . وإذا استثنينا المأثورات الخصبة - بل والكثيفة أحياناً - التي وصلت إلينا من فيثاغورس الذي

يدين له سقراط وأفلاطون بالكثير، وهرقليطس الذي يُعدّ طليعة المذهب الرواقي، وديمقريطس الذي وجد امتداده في السفسطائية إلى حدٍ ما وفي الأبيقورية، إلى مدى بعيد - إذا استثنينا هؤلاء الرواد أمكننا القول أن سقراط كان أول من اهتم اهتماماً جدياً ملحوظاً بدراسة السلوك الإنساني عامة والأخلاق خاصة. إن الأبحاث الطبيعية والميتافيزيقية التي كانت قد استنفدت اهتمام أسلافه من الفلاسفة لم تَرُقْ له بل لقد أثارت نفوره وأفضت به إلى عدم الثقة بقدرة العقل على التغلغل في أسرار الكون ومعرفة كنهه. فتصدى للسفسطائيين وأعلن عجزهم عن إثبات حقائق الأشياء، وأبان لهم أن الحواس وإن كانت تخدعنا في العرضيات، فإن وراءها عقلاً يمتحن ما تنقله إليه هذه الحواس امتحان ناقد بصير لا يزعه البهرج الباطل، وإنِ هناك خلف العرضيات الظاهرة التي تخدع الحواس - وهي التي كانت منطلقاً للحركة السفسطائية - حقائق كلية ثابتة لا تختلف فيها العقول والأذهان. عند جميع العقلاء لا تختلف في حقيقة الإنسان الكلية - وهي أنه حيوان ناطق - وفي حقيقة الخير والشر، وإنما ينحصر الإختلاف في التفاصيل والتطبيقات العملية التي تختلف باختلاف الزمان والمكان والعادات والتقاليد وأمزجة الشعوب.

لذّلك اقتصر سقراط من الفلسفة على علم الإنسان ولم يهتم بعلوم الطبيعة، فدراسة الإنسان أجدى من دراسة الطبيعة. فالقوانين الطبيعية ثابتة لا تتغير ولا تتبدل. فالنار تحرق أينما كانت وفي أي وقتٍ كان، كما أنّ الشمس تشرق وتغيب بنظامٍ ثابت لا يختلف، بينما العادات والتقاليد والأعراف البشرية تختلف من جماعةٍ إلى أخرى ومن جيلٍ إلى جيل. فالعادات والسلوك ونُظم الزواج كلها ظواهر إنسانية غير ثابتة مرتبطة بالزمان والمكان وتختلف بإختلاف الظروف والأوضاع والحالات، وهذا مما لا نجد له مثيلاً في قوانين الطبيعة الجامدة. فمن الواجب الإقبال عليها والتوفر على دراستها، إنّها أفضل من دراسة الطبيعة العمياء التي لا جديد فيها. فإنّما القصد من الفلسفة أن يعرف الإنسان نفسه لا أن يعرف الأشياء، لأنّه إذا عرف نفسه وعرف أنّه عقل وجوهر روحاني، فقد حصل على مفتاح العلوم كلها. إن السبب الذي جعل سقراط يقتصر على الخلقيات إيمانه الكامل بأنّ لا شيء أهم للإنسان من تهذيب أخلاقه وكل ما عدا ذلك يهون. فسقراط هو مؤسس علم الأخلاق التي كانت قبل ذلك في يد الدين. لقد كان أول من أدرك أن لعلم الأخلاق أساساً يتميز

به من التقاليد الدينية والإجتماعية والثقافية ، وأنّه مع هذا لا يرتكز على العادات أو الغرائز . لقد رأى أنّ من الممكن أن نجد في الملاحظة اليقظة المنظمة للطبيعة الإنسانية العناصر اللازمة لمذهب أخلاقي لا تعوزه الدقة ولا السمو ولا السلطان . كل المسألة إذن تنحصر في معرفة طبيعة الإنسان الحقيقية . ولهذا كان مذهب سقراط أول محاولة للأخلاق الحرة العقلية . ومن طريق تعاليمه أخذت الفلسفة الأخلاقية تشغل في التفكير اليوناني المكان البارز الذي لم نفتقده بعد ذلك أبداً . ومن أجل ذلك صحّ قول من قال إنّ سقراط كان نقطة البدء الأساسية التي انطلقت منها اتجاهات الفلسفة الخلقية عند اليونان . لقد عرضوا عليه أن يفرّ من السجن ويذهب إلى حيث يريد دون أن يغرم شيئاً من ماله هو، لأن تلاميذه على أتمّ الإستعداد لتحمل جميع الأعباء المالية التي يتطلبها هذا القرار . ففي أموالهم سعة لذلك ونفوسهم جميعاً طيبة بأدائه . المهم أن ينجو . إنهم لا يريدون أن يُفجّعوا به لأنه قيمة إنسانية كبيرة لا تُعوَّض . هذا ما عرضه عليه أقريطون باسم تلاميذه . وذكروا له أولاده وعياله وما يُخاف عليهم من الضيعة وفقدان العائل . ولكن سقراط رفض جميع هذه العروض ، إنه لن يني عن نصرة الحق والطعن على الباطل والفساد والضلال . . . لقد أثر الموت في سبيل الواجب على الحياة التافهة التي فقدت معناها . . . لقد دخل إعدام سقراط عالم الأسطورة ، وحتى الآن وربما إلى الأبد ستظل التساؤلات كثيرة عن دلائل تلك المحاكمة التي ربما كانت أول محاكمة حقيقية في التاريخ كان موضوعها حرية الفكر وحرية المفكر . تُرى هل كانت محاكمة عادلة أو ظالمة ؟ أكانت حدثاً عرضياً عابراً أم هي عَرَضٌ لمرض دفين ؟ هل كانت محاكمة تنم عن نظام ديمقراطي سليم أم لعل الديمقراطية كانت غطاءً لنظام ديكتاتوري مستبد ما كاد يختفي حتى ذرّ قرنه من جديد ! إنّ جميع الأسئلة المتعلقة بهذه القضية لا تزال تُطرح ، كما أن جميع الإجابات بشأنها محتملة ، وليس من الممكن أن يقطع المرء فيها برأي . فإنّ أياً منها لا يمكنه أن يكون نهائياً . المهم أن موت سقراط جاء ليقضي على مفكرٍ حر نذر نفسه لحياة الإنسان ومجد الإنسان !

وعلى كل حال ، يُجمع مؤرخو الفلسفة اليونانية على أن الخاصية الأساسية للفلسفة في عصر ما قبل سقراط هي أن البحث الفلسفي كان معنياً فيها بتفسير الوجود الخارجي بوجه خاص ، وأمّا الإهتمام بالإنسان وسلوكه فكان يشغل فيها مكاناً ثانوياً عارضاً . فإذا أقبل النصف الثاني من القرن الخامس أثار

السفسطائيون الشكوك حول المسائل الفلسفية المعروفة وزعزعوا المبادىء الأخلاقية والإجتماعية القائمة . وتصدى سقراط وحيداً لتفنيد أقوالهم ، وبتعاليمه أخذت الفلسفة الأخلاقية تشغل في التفكير اليوناني المكان البارز الذي تستحقه .

وهكذا يتضح فضل سقراط على علم الأخلاق . لقد كان الإنسان قبل سقراط محكوماً في حياته الأخلاقية بعامل خارج عن ذاته وهو الدين والعرف والتقاليد . فجاء سقراط وجعل حاكمه ينبثق من داخل ذاته . فالخير له أصل فينا . وهذه في نظري أول محاولة رائدة للكشف عن الضمير ، وإنْ لم يستعمل سقراط هذه الكلمة الحديثة كما سنرى ذلك مفصَّلاً في كتاباتنا القادمة . وكل فضل أفلاطون الذي جاء بعده هو أنه رفع البناء الذي أرسى سقراط قواعده وما عدا ذلك فهما في الأخلاق واحد . فإنّ ما قام به أفلاطون هو أنّه أنجز الكثير من البناء الذي شاده استاذه وتوسع فيه ، وأدخله في نظام مذهبه الميتافيزيقي العام وجعل بين الأخلاق السياسة والإجتماع علاقة وثيقة العرى لا إنفصام لها على ما سيجيء بيانه . وبأرسطو اكتمل ـ أو كاد البناء ـ حتى لم يبقَ زيادة لمستزيد .

وقد ظلّ البناء قائماً حتى مشارف العصر الحديث حيث بدأت الأرض تميد من تحته . لقد تداركوه بالدعم والترميم حتى لم يعد يجدي دعم ولا ترميم . فانتقض من القواهد وانهار . وسنبحث في الجزء التالي مجمل التيارات الأخلاقية التي ظهرت قبل سقراط ، وسنتوخى فيه ما في وسعنا من الدقة ومن التحليل والتعليل والتمحيض دون أن ندخر أي جهد في هذا السبيل ، وسنتتبع نشأة كل مذهب ونساير تطوره على مدار الزمن .

وسنرى كيف تتفجر المدارس والمذاهب وكيف تنمو وتسمو وتتطاول حتى تهتز وتهوي . فللأفكار آجال كما للناس أعمار . هذه طبيعة الحياة لا تكاد تكتمل حتى يأتي هازم اللذات . هذا ما تُعلِّمُناه قوانين السَّيْكوسوسيوديناميكا ، وما أدراك ما السَّيْكوسوسيوديناميكا في هذا المضمار . وسنرى كيف تصطرع الأفكار بالأفكار ، وكيف تتولد الأفكار من الأفكار ، فتموت أفكار وتحيا أفكار . فلا بقاء للأفكار ، وإنّما البقاء لقوانين الأفكار . السموات والأرض تزولان ، ولن تزول الأفكار ، لا الأفكار في جزئياتها وتفاصيلها فهي إلى بوار ، بل الأفكار في كلياتها وقوانين عملها فهي استمرار في استمرار . فاعتبروا بأولى الأبصار ! .

ليس كتاريخ العلم والفلسفة ما يساعد على دراسة الأفكار واستقراء حركة

الأفكار واصطراع الأفكار بالأفكار وخروج أجيال جديدة من الأفكار . ورغم ما يقال من أن ماضي العلم هو الجزء الفاني من العلم ، وأن الفلسفة ماضيها هو جزء منها ، فإنّ النتيجة واحدة لا فرق فيها بين علم وفلسفة لأنّ كليهما أفكار تنبثق من أفكار . فلئن كان إغفال ماضي التفكير أمراً ميسوراً في العلم متعذراً في الفلسفة ـ لأنّ تاريخ العلم مختلف عن العلم بينما تاريخ الفلسفة جزءٌ منها ـ فإنّ حركة الأفكار واحدة في كليهما وكلاهما في تجدد وتطور . فمن أراد أن يفهم الفلسفة ويقف على أسرارها فعليه الرجوع إلى تاريخها . وكذلك الفلسفة الخلقية ، فهي أيضاً فلسفة بكل ما لهذه الكلمة من معنى ، ولكنها فلسفة من نمط رفيع كريم يعبق بشذى انساني متميز وعبير لا يدانيه أي عبير . والخلاصة إن تاريخ الأخلاق من تاريخ الفلسفة حكمهما واحد من حيث سيرورة الأفكار ، وإن اختلفت الأفكار عن الأفكار ، الأفكار ذات النبض والقوة والحيوية والأفكار ذات المعنى والدلالة والمفهومية ، رغم ما بين نمطي الأفكار من تداخل وتشابه وجناس .

●

أما تأثر اليونان بما سبقهم من الحضارات ، فمع أن ثقات المؤرخين قد اختلفت مذاهبهم وتدابرت أراؤهم في هذه المسألة ، فإنّ الحقّ أبلج رغم أنف المكابرين الذين يختبؤون وراء أصابعهم . فالفكر اليوناني قد اغتذى وكسب من غيره دون أن يعني ذلك رفض ما يتصف به اليونان من أصالة وابداع وابتكار . فالأصالة ليست حِكراً على جنس أو نوع ، إنّها وليدة متغيرات « طبيعية » كثيرة وفرص تتاح لقوم دون قوم . فالفكر اليوناني فكر « أصيل » صنع ذاته بذاته ونشأ في ثرى اليونان بقدر ما هو أيضاً فكر « مقتبَس » صنعته العوامل الخارجية والعناصر الأجنبية . ولا ضير عليه في ذلك ولا تثريب، فشتان بين من يخضع خضوعاً أعمى للتأثيرات الأجنبية وبين من يختار ليشتار . فليست العبرة بالتأثيرات الأجنبية إنّما العبرة بما فعل العقل المبدع بهذه التأثيرات ، وكيف تصرف فيها ، وأي النتائج استخلصها فيها . فإنّ البيئة التي كانت تحيط ببلاد اليونان بيئة خصبة غنية . حضارات كحضارة مصر واقريطش وبلاد ما وراء النهرين أهدت إليها العناصر والمواد الأولية في الصناعة والعلوم والفن ، فاستحالت على أيدي اليونانيين إلى أزهى صورة في التاريخ القديم وأكثرها أصالة وجمالاً ، هذا فضلاً عن الإلهام الفلسفي والقريحة الفيّاضة . إنّ الحضارة أقدم مما نتصور . فتحت كل شبر من الأرض نطؤه بأقدامنا عظام رجالٍ ونساء عملوا وأحبوا كما نعمل

نحن ونحب ، وكتبوا الأغاني وأبدعوا الجميل من الأشياء ، ولكن أسماءهم وحيواتهم نفسها قد ضاعت على مرّ الزمن الذي لا يحفل بكبيرٍ أو صغير ، غني أو فقير ، ذكر أو أنثى . . . وهذا يذكرني بقول المعري :

صاح هذي قبورنا تملأ الرحب ... فأين القبور من عهد عادِ ؟
خفف الوطء ما أظنّ أديم الأرض ... إلا من هذه الأجساد
سر إن اسطعت في الهواء رويداً ... لا اختيالاً على رُفات العبادِ
رُبَّ لحدٍ قد صار لحداً مراراً ... ضاحك من تزاحم الأضداد

فما الحضارة اليونانية سوى حضارة واحدة من حضارات سبقتها وأعقبتها « إنّكم أيها اليونانيون لا تزالون أطفالاً ثرثارين مغرورين لا تعرفون شيئاً عن الماضي »[1] ، هذا ما قاله أحد الكهنة المصريين لصولون . فمع أن الحضارة اليونانية وليدة اليونان واشعاع تألق في بلاد اليونان فإنّها أيضاً مدينة بدَيْن كبير للشرق الذي احتكت به في ايوليا Aeolia وأيونيا بآسيا الصغرى . فقد كان في تلك البقاع حضارة زاهرة أرقى من حضارة اليونان وأكثر عراقة ، وهذا لا يعيبها في شيء ما دام التلميذ قد فاق الأستاذ . وحتى الدين اليوناني لم يخلُ من التأثر بالديانات الشرقية . فعلى الرغم من أنّه يكاد يكون خاصاً باليونان ومع أن نشأته ذاتية بينهم ، فقد تأثر بأديان الشرق واقتبس الكثير من أصولها ومعتقداتها ، ومهما قلبنا وجوه الرأي وامعنا في البحث فإنّنا لا نعثر على حضارة يونانية نقية خالصة من أي لقاح خارجي أو وراثة أجنبية . فإنّ ندرة الأراضي الزراعية واستحالة زيادة رقعة الأرض الصالحة للزراعة زيادة ذات بال قد دفعتا الشعوب الهلينية إلى التوسع أولاً على حساب الدول الضعيفة المجاورة ، ثمّ إلى دعم الزراعة فيما بعد ؛ بالإتجاه إلى التجارة والصناعات الإنتاجية ، وذلك عندما توقفت حركة التوسع اليوناني بتأثير القوى الخارجية . وكان لسيادة الهلينيين على البحر المتاخم لأوطانهم أن فتحت أمامهم الطريق إلى عالمٍ عظيم الإتساع شديد التعقيد . كما أن تعودهم التغيرات الموسمية المتطرفة التي عُرفت عن بحر إيجه أكسبهم المران على أن يألفوا الحياة في أي وطن[2] ، فعادوا إلى أوطانهم مشبعين بأفكارٍ جديدة ذات رؤى وتطلعات

(١) نقلاً عن ول ديورانت : قصة الحضارة ٦ / ١٣٠ .
(٢) أرنولد توينبي : تاريخ الحضارة الهلينية ، صفحة ٢٧ وما بعدها .

كفيلة - إذا صادفت أرضاً خصبة وعقولاً منفتحة - أن تأتي بالمعجزات والآيات البينات .

ولا أدل على عظم التفاعل بين القرائح الخصبة والرفد الخارجي في العالم الهليني في عصر توسعه فيما وراء البحار(من القرن ٨ - ٦ ق . م) من تلك الأمجاد التي حققها في ذلك العصر بعض الأفراد الذين ذاع صيتهم في شتى ميادين العمل والنشاط قبيل بداية النهاية .

ففي ميدان الأدب ظهر شعراء مطبوعون من أمثال ممرموس القولوفوني Mimmermus of Colophon وارخيلوخوس الباري Archilochus of Paros وسافو والقايوس Alcaeus اللسبيين of Lesbos. وتدور الموضوعات التي عالجوها على تجارب الفرد عندما يبدأ وعيه لذاته ، أي على لذات الجنس والخمر وعواقبهما ، وعلى الولاء والأحقاد في ميدان السياسة ، وإنْ كان يأتي على رأس هذه الموضوعات « مصير الأنسان الفاني في عظمته وحقارته »[1] .

وفي ميدان العقل والفكر الفلسفي كان هناك العلماء الطبيعيون الذين راحوا يتساءلون عن طبيعة المادة الأولية للكون وأصل الأشياء . فقال طاليس هي الماء ، وقال انكسُيمندر هي اللامتعين ، وقال انكسيمنس لا بل هي الهواء . . . وهلمّ جرا . هل الكون ثابت كما يقول برمنيدس أم هو متحرك كما يقول هرقليطس ؟ هل هو واحد كما يقول زينون أم هو متعدد كما يقول امبذوقليس الاغريغنتي ؟ هل هو يتحرك بقوته الذاتية كما يقول لوقبوس وديمقريطس أم دبت فيه الحركة بقوة خارجة عنه كما يقول أرسطو ؟ لَقد فُتح باب التفسير والتعليل ، وهو باب إذا فتح فلن يُغلق حتى تجد جميع الأسئلة اجوبة مناسبة لها . لقد طُرحت المسألة الميتافيزيقية بكل أبعادها وامتداداتها لأول مرة في بلاد اليونان . من هنا سيكون طابع الفكر اليوناني هو الطابع الميتافيزيقي ، وستستهوي الميتافيزيقا قلوب اليونانيين وستسري العدوى إلى بلادٍ أخرى غير بلاد اليونان . إنّها المشكلة الأولى التي تحدثنا عن أهميتها السّيْكوسوسيودينامية في موضع سابق من هذا الكتاب ، حيث ذكرنا أنّه في ظروف الشحن السّيْكوسوسيوديناميكي تطبع المشكلة الأولى بطابعها جميع المشكلات اللاحقة ، وبالتالي تترك أثراً لا يمحى ينتقل من الأسلاف

(١) المصدر السابق صفحة ٥٨ .

إلى الأخلاف . وهذا ما يفسر لنا ما يسمى بالمعجزة اليونانية ـ إذا صحت التسمية ـ كما يفسر لنا هو أيضاً ما يمكن تسميته بالمعجزة العربية ـ إذا كان لهذه التسمية ظل من معنى أو دلالة[1] .

وإذا كان لي من كلمة أخيرة أختم بها هذا الحديث محتسباً بها وجه العلم ، فهي أنّي أرجو ألا يُحمل ايماني باليونان واشادتي بفكر اليونان وعظمة اليونان ـ وهو ما يكاد يتردد في كل صفحة من صفحات الكتاب ـ على محمل عنصري ، وألاّ يُفهم منه أي معنى من معاني التعصب العنصري . فأنا لاأؤمن بالعنصرية ولا آمن لها ، ولن آلو جهداً لمعارضتها وإعلان الحرب عليها . لا عرقية ولا عنصرية ، وإنما هي فاعلية العوامل والظروف والمتغيرات المتعددة إمتزجت بالسلالات اليونانية ، وبثوابت السلالات اليونانية فأنتجت ما أنتجت . وبعبارة أخرى فإن العبقرية اليونانية هي وليدة مجموعة من الثوابت والمتغيرات تفاعلت معاً ، وكان ما كان مما سأذكره في كتاباتي القادمة . التاريخ والجغرافيا لا العنصرية هما اللذان يصنعان الشعوب . العنصرية هي أعدى أعداء العلم ، لأنها تعني وجود قوم تفصلهم عن سائر الأقوام الأخرى حواجز لا يمكن القضاء عليها لأنها متأصلة في تركيبهم الفيسيولوجي . وهذا من شأنه توكيد الإيمان بتفوق عنصر على آخر تفوقاً بنيوياً لا حيلة لأحد أمامه . فإنني باسم العلم[2] وبعيداً عن أي دوغمائية شخصية متشنجة منحازة لا قيمة لها ولا سند ، أرفض هذه العنصرية التي تعلو على الآخرين وتأبى الإندماج والإنصهار في الآخرين . إنها دعوة للمركزية الأوروبية وتجسيد للغرور الأوروبي الذي أسكرته حُمَّيا القوة فخرج عن رشدة العلمي وراح يهذي ويهذر ويهرف بما لا يعرف ، رغم ما أنجب من سدنة العلم وأنشأ من هياكل العلم ومحاريب لعبادة العلم . ولكنه علم لما يدخلْ قلبه ويُطهِّرْ نفسه . فيا أسفي على العلم ! يا ضيْعة العلم إذا صادف عقلاً يتَّجر بالعلم ويعمل ليلَ نهار دأباً لمصالح وأغراض وغايات لا يقرها العلم . فإنما العلم لمن يخدم أغراض العلم لا لمن يسخر لأغراضه العلم . في قلبه مرض ، فزاده مرضاً العلمُ ، وزاده عتواً في الأرض واستكباراً فبئس من علم ، بئس من علم !!

---

(١) بحثت هذه المسألة بالتفصيل في الجزء الثاني من كتابي الفكر العربي في مخاضه الكبير وهو الآن تحت الطبع .

(٢) انظر الفصل الأول من كتابي أصالة الفكر العربي .

مَـرجَعيـة

مصادر الباب الأول

١ - المصادر العربية

ـ ابن خلدون ، **المقدمة** ، الطبعة الأولى . الجزء الأول ، لجنة البيان العربي ، القاهرة ١٩٥٧ .

ـ ابن فاتك (المبشّر) ، **مختار الحِكَم ومحاسن الكلم** ، تحقيق عبد الرحمن بدوي ، مدريد ، ١٩٥٨ .

ـ أبو زهرة ، **مقارنات الأديان** ، (الديانات القديمة) ، القاهرة . دار الكاتب العربي ، بلا تاريخ .

ـ أمين (أحمد) ، **الأخلاق** ، الطبعة الرابعة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٣٥٢ هـ / ١٩٣٣ م .

ـ أندريه إيمار وجانين أوبوايه ، **تاريخ الحضارات العام** ، المجلد الأول (الترجمة العربية) ، منشورات عويدات ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٦٤ .

ـ د . الألوسي (حسام محي الدين) ، **بواكير الفلسفة قبل طاليس أو من الميثولوجيا إلى الفلسفة** ، جامعة الكويت، ١٩٧٣ .

ـ د . الأهواني (أحمد فؤاد) ، **فجر الفلسفة اليونانية قبل سقراط** ، الطبعة الأولى ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٩٥٤ .

ـ د . بدوي (عبد الرحمن) ، **الأخلاق النظريّة** ، وكالة المطبوعات ، الطبعة الأولى ، الكويت ١٩٧٥ .

ـ د . بدوي (عبد الرحمن) ، **شخصيات قلقة في الإسلام** ، مكتبة النهضة

المصرية ، القاهرة ١٩٤٦ .
ـ برستيد ، **فجر الضمير** ، سلسلة الألف كتاب رقم ١٠٨ ، الترجمة العربية ، مكتبة مصر . بإشراف إدارة الثقافة العامة لوزارة التربية والتعليم . القاهرة ١٩٥٦ .
ـ برونوفسكي (ج) ، **إرتقاء الإنسان** ، سلسلة عالم المعرفة رقم ٣٩ . الكويت ١٩٨١ .
ـ بريتشارد، (إيفانز) ، **الأنثروبولوجيا الإجتماعية** ، علم الإنسان الإجتماعي ، ترجمة د . احمد أبو زيد ، منشأة المعارف ، الاسكندرية ١٩٦٠ .
ـ بريل (لوسيان ليفي) ، **الأخلاق وعلم العادات** ، الترجمة العربية ، وزارة المعارف العمومية ، إدارة الترجمة ، ملتزم الطبع والنشر شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر . القاهرة ١٩٥٣ .
ـ بيرندت (كاثرين) ، **مفهوم البدائية** ، ضمن كتاب البدائية سلسلة عالم المعرفة ، عدد ٥٣ الكويت ، ١٩٨٢) .
ـ البيروني ، **تحقيق ما للهند من مقولة ، مقبولة في العقل أو مرذولة** ، حيدرآباد ١٩٥٨ .
ـ تاكس (صول) ، **الإنسان البدائي في مقابل الإنسان العاقل** ، (ضمن كتاب البدائية ، سلسلة عالم المعرفة عدد ٥٣) ، الكويت ١٩٨٢ .
ـ د . توماس (هنري) ، **أعلام الفلاسفة** ، (كيف نفهمهم) الترجمة العربية ، دار النهضة بالإشتراك مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر ، القاهرة ، نيويورك ١٩٦٤ .
ـ د . جورج (كاترين) ، **الغرب المتمدّن بنظر افريقيا البدائية** ، ضمن كتاب البدائية . سلسلة عالم المعرفة عدد ٥٣ ، الكويت ١٩٨٢ .
ـ دايمند (ستانلي) ، **البحث عن البدائي** ، (ضمن كتاب البدائية . سلسلة عالم المعرفة عدد ٥٣ ، الكويت ١٩٨٢ .
ـ زيعور (علي) ، الفلسفة في الهند . . ، بيروت ، مؤسسة عز الدين ، ١٩٩٣
ـ لنتون (رالف) ، **شجرة الحضارة** ، ترجمة د . أحمد فخري ، ثلاثة أجزاء . مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٥٨ ـ ١٩٦١ .
ـ د . مرحبا (محمد عبد الرحمن) ، **الفكر العربي في مخاضه الكبير** ، دار

الجيل ، بيروت ١٩٨٥ .
- د . مرحبا (محمد عبد الرحمن) ، **من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية** ، منشورات عويدات ، الطبعة الثالثة ١٩٨٣ .
- د . موسى (محمد يوسف) ، **مباحث في فلسفة الأخلاق** ، مطبعة الأزهر ، كلية أصول الدين ، القاهرة ١٣٦٢ هـ / ١٩٤٣ م .
- د . مؤنس (حسين) ، **الحضارة** ، سلسلة عالم المعرفة ، عدد ١ ، الكويت ١٩٧٨ .
- مونتاغيو (آشلي) ، **المغالطة في مصطلح البدائي** ، (ضمن كتاب البدائية ، سلسلة المعرفة ، عدد ٥٣ ، الكويت ١٩٨٢) .
- مونتاغيو (آشلي) ، **مفهوم البدائية ومصطلحات أنثروبولوجية أخرى** ، (ضمن كتاب البدائية . سلسلة عالم المعرفة ، عدد ٥٣ ، الكويت ١٩٨٢) .
- نوفل (نوفل) ، **سوسنة سليمان في أصول العقائد والأديان** ، الطبعة الرابعة ، المطبعة الأميركية في بيروت ١٩٢٢ .
- سارتون (جورج) ، **تاريخ العلم** ، الجزء الأول ، الترجمة العربية ، دار المعارف بمصر ١٩٥٧ .
- ساهلنز (مارشل) ، **القبليّون في التاريخ والأنثروبولوجيا** ، (ضمن كتاب البدائية سلسلة عالم المعرفة ، عدد ٥٣ الكويت ١٩٨٢) .
- د . سعفان (حسن شحاته) ، **قادة الفكر في الشرق والغرب** ، القاهرة مكتبة نهضة مصر ، بلا تاريخ .
- عبد القادر (حامد) ، **زرادشت الحكيم** ، مكتبة نهضة مصر ، القاهرة ١٩٥٦ .
- فارب (بيتر) ، **بنو الإنسان** ، ترجمة زهير الكرمي ، سلسلة عالم المعرفة عدد ٦٧ ، الكويت ١٩٨٣ .
- د . فهيم (حسين) ، **قصة الأنثروبولوجيا** ، سلسلة عالم المعرفة ، عدد ٩٨ ، الكويت ١٩٨٦ .
- شرقاوي (محمود) ، **الدين والضمير** ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٦٤ .

- د. شلبي (أحمد)، **مقارنة الأديان**، الجزء الرابع، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٤.
- الشهرستاني (أبو الفتح)، **الملل والنحل**، الجزء الأول تحقيق محمد سيد كيلاني، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ١٣٨١ هـ / ١٩٦١ م.

٢ ـ المصادر الأجنبية

- Bouthoul (Gaston). **Traité de sociologie.** (première partie) Payot, Paris 1946.
- Boyd (William C.). **Génétique et races humaines.** Introduction á l'anthropologie physioque moderne. éd. française. Payot. Paris, 1952Les carnets de Lucien Lévy-Bruhl. Préface de Maurice Leenhárdt. P.U.F. Paris. 1949.
- Bruhl (Lucien Lévy). **Lex fonctions mentales dans les sociétés inférieures.** 9ène éd P.U.F. Paris 1951.
- Bruhl (Lucien Lévy). **La mentalité primitive.** 15ème éd. P.U.F. Paris 1947.
- Bruhl (Lucien Lévy). **Le surnaturel et le naturel dans la mentalité primitive.** Librairie Félix Alcan, Paris, 1931.
- Chevalier (Jacque). **Histoire de la pensée.** 1- la pensée antique Flammarion, Paris, 1955.
- Mauss (Marcel). **Précédé d'une introduction à l'oeuvre de Marcel Mauss.** par Cl. Lévy- Strauss. P.U.F. Paris. 1950.
- Piaget (Jean). **Introduction à l'épistémologie génétique.** Tome II P.U.F. Paris 1950.
- Sorokin (P.A). **Les théories sociologiques contemporaines.** Payot, Paris. 1938.

مصادر الباب الثاني

أرسطو : **نظام الأثينيين** . ترجمة طه حسين ، دار المعارف بمصر ١٩٢١ .

أفلاطون : **محاورات أفلاطون** . ترجمة زكي نجيب محمود . لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٧ ، **وآخر أيام سقراط** . ترجمة أحمد الشيباني ، دار الكاتب العربي ، بيروت ، بلا تاريخ .

بدوي ، عبد الرحمن : **ربيع الفكر اليوناني** . الطبعة الثالثة . مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٥٨ .

برييه ، إميل : **تاريخ الفلسفة** . ترجمة جورج طرابيشي ، الجزء الأول ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٨٧ .

توينبي ، أرنولد : **تاريخ الحضارة الهلينية** . ترجمة رمزي عبده جرجس . مراجعة الدكتور محمد صقر . بإشراف الإدارة العامة للثقافة بوزارة التعليم العالي ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٦٣ .

ديورانت ، ول : **قصة الحضارة** . الجزءآن السادس والسابع ، ترجمة محمد بدران ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥٣ .

مناهج الفلسفة . ترجمة د . أحمد فؤاد الأهواني ومراجعة د . إبراهيم بيومي مدكور ، مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة ١٩٥٧ .

زيمرن ، ألفرد : **الحياة العامة اليونانية السياسية والإقتصادية في أثينا في القرن الخامس** ، ترجمة الدكتور عبد المحسن الخشاب ، مراجعة أمين مرسي قنديل ، لجنة البيان العربي ، القاهرة ١٩٥٨ .

الشريف ، ريجينا : **الصهيونية غير اليهودية** . جذورها في التاريخ الغربي ، ترجمة أحمد عبدالله عبد العزيز . سلسلة عالم المعرفة رقم ٩٦ ، الكويت ١٩٨٥ .

عثمان ، د . أحمد : **الشعر الإغريقي** . تراثاً إنسانياً وعالمياً ، سلسلة عالم المعرفة رقم ٧٧ . الكويت ١٩٨٤ .

فارنتن ، بنيامين : **العلم الإغريقي** . ترجمة أحمد شكري سالم . مراجعة حسين كامل أبو الليف . الجزء الأول ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٥٨ .

فرنان ، جان بيار : **أصول الفكر اليوناني** . ترجمة د . سليم حداد ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر . الطبعة الأولى ، بيروت ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م .

كرم ، يوسف : **تاريخ الفلسفة اليونانية** . لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٥٥ هـ / ١٩٣٦ .

كولانج ، فوستيل دي : **المدينة العتيقة** . ترجمة عباس بيومي بك ، مراجعة عبد الحميد الدواخلي ، مكتبة النهضة المصرية القاهرة ، ١٩٥٠ .

كيتو ، هـ . د : **الإغريق** . ترجمة عبد الرزاق يسري . مراجعة الدكتور محمد صقر خفاجة . دار الفكر العربي ، ١٩٦ .

كيسيديس ، ثيوكاريس : **سقراط** . ترجمة طلال السهيل ، الطبعة الأولى ، دار الفارابي ، بيروت ، لبنان ١٩٨٧

كيسيديس ، ثيوكاريس : **هراقليطس** . جذور المادية الديالكتيكية ، ترجمة حاتم سلمان ، الطبعة الأولى ، دار الفارابي ، بيروت لبنان ١٩٨٧ .

مرحبا ، د . محمد عبد الرحمن : **أصالة الفكر العربي** . منشورات عويدات ، بيروت ١٩٨٠ .

مرحبا ، د . محمد عبد الرحمن : **من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية** . الطبعة الثالثة ، منشورات عويدات ، بيروت ١٩٨٣ .

مرحبا ، د . محمد عبد الرحمن : **الجامع في تاريخ العلوم عند العرب** . الطبعة الثانية ، منشورات عويدات ، بيروت ١٩٨٨ .

مرحبا ، د . محمد عبد الرحمن : **الفكر العربي في مخاضه الكبير** . دار الجيل ، بيروت ١٩٨٥ .

مرحبا ، د . محمد عبد الرحمن : **جديد في مقدمة ابن خلدون** . دار الجيل ، بيروت ١٩٨٩ .

المسيري ، د . عبد الوهاب محمد : **الإيديولوجية الصهيونية** . دراسة في علم اجتماع المعرفة . سلسلة عالم المعرفة القسم الأول رقم ٦٠ ، الكويت ١٩٨ . والقسم الثاني رقم ٦١ الكويت ١٩٨٣ .

المحتـــوى

تقديم .... ٥ ـ ٩
مدخل .... ١٠ ـ ٢١

الباب الأول
الأخلاق في « الشرق » القديم

الفصل الأول : الأخلاق قبل عصر الفلسفة الأخلاقية .... ٢٥ ـ ٥٧
القسم الأول : إبانة عامة ٢٧
القسم الثاني : الأخلاق في الشرق القديم ٥٥
الفصل الثاني : الأخلاق والفكر الأخلاقي
عند المصريين القدامى .... ٥٩ ـ ٧٦
الفصل الثالث : الأخلاق والفكر الأخلاقي عند الهنود .... ٧٧ ـ ٩٠
أعمومات ، مدخل ٧٩
القسم الأول ٨١
القسم الثاني ٨٥
القسم الثالث ٨٩
الفصل الرابع : الأخلاق والفكر الأخلاقي عند الفرس .... ٩١ ـ ١٠١
الفصل الخامس : الأخلاق والفكر الأخلاقي في الصين .... ١٠٣ ـ ١٢٣

الباب الثاني
الأخلاق في الفكر اليوناني القديم

مُمهِّدات ١٢٥

الفصل الأول : اليونان منذ أقدم العصور .... ١٣٣ ـ ١٦٣

الفصل الثاني : من الديانة إلى السياسة .... ١٦٥ ـ ٢٣٦

الفصل الثالث : من القبيلة إلى المدينة .... ٢٣٧ ـ ٣٥١

الفصل الرابع : من الهمجية إلى الأخلاقيات .... ٣٥٣ ـ ٤٣٩

الخاتمة .... ٤٤٠ ـ ٤٥١

مرجعية .... ٤٥٣ ـ ٤٦٠

المحتوى ٤٦١

طُبع على مطابع

مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر

الإدارة: ٩/ ٨٣٤٧٤٨ ـ ٨٢١٨٤٣ ـ المخازن: ٨٢٣٨٢٩ ـ المطابع: ٨٣١٦٤٠

هاتف دولي وفاكس: ٠٠١٢١٢٤٧٨١٩٧٩

بناية لاند تراید ـ بئر حسن ـ ص. ب: ١٣/٥٢٥١ بيروت ـ لبنان